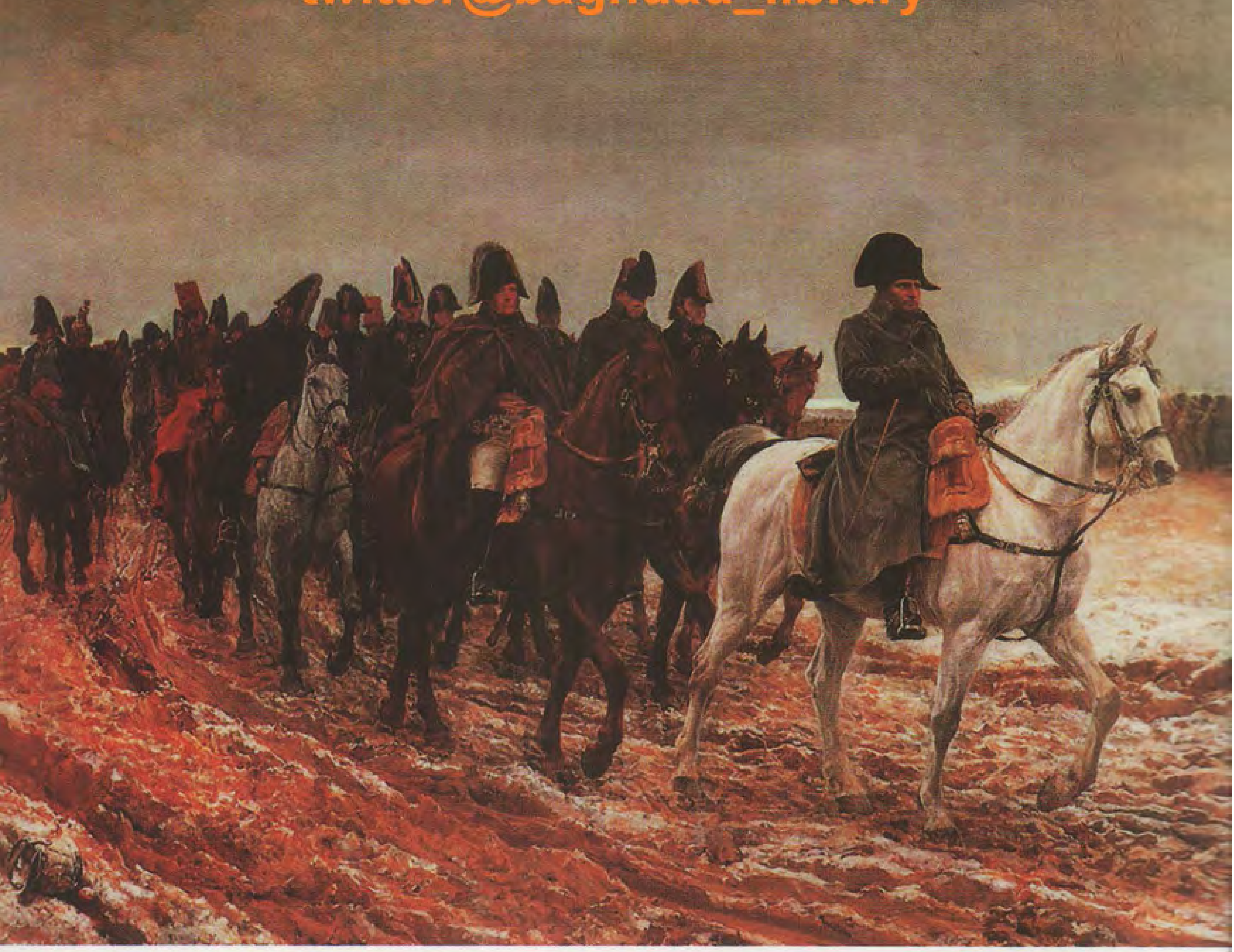
الحرب والسلم



ليو تولستوي

المجلد الثالث

الفارابي

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذة العصور الحديثة

المجلد الثالث

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الحرب والسلم ـ المجلد الثالث

المؤلف: ليُو تولستوي

المترجم: فارس غصوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-239-0

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

الجزء الحادي عشر

الفصل الأول

لا يدرك الإنسان قوانين أية حركة إلا إذا عاين وحدات مقطعة بتحكم، لأن الدوام المطلق للحركة أمر غامض بالنسبة إلى العقل البشري. ولكن من ذلك التقسيم التحكمي للحركة الدائمة، يخلق مع ذلك الجزء الأكبر من الأخطاء البشرية.

إن كل إنسان يعرف مذهب السفسطة (انعدام الحركة) عند الأقدمين الذي بموجبه لا يمكن «لأشيل» أن يلحق بالسلحفاة التي تسير أمامه رغم أن اندفاعه يزيد عشرة أضعاف عن اندفاعها، إنّ أشيل، عندما ينتهي من اجتياز المسافة التي تفصله عن السلحفاة، تكون هذه قد اجتازت عشر هذه المسافة في سبقها له. وبينما أشيل يتجاوز هذا العشر، تكون هي قد تجاوزته بواحد على مائة وهكذا حتى اللانهاية. كانت هذه المسألة تبدو في الزمن القديم متعذرة الحل. إن استحالة النتيجة (أشيل لن يلحق أبداً بالسلحفاة) ناجمة فقط عن كونهم يأخذون تحكماً وحدات منقطعة للحركة في أن حركة أشيل دائمة كحركة السلحفاة تماماً.

فلو أخذنا وحدات للحركة صغيرة أكثر فأكثر، فإننا نصل فقط إلى الاقتراب من الحل. لكننا لا نبلغه أبداً. إننا لا نبلغ حل المسألة إلا إذا تقبلنا عدداً لانهائي الصغر ونموه التصاعدي حتى العشرة ثم أنْ نحصي مجموع هذا التصاعد الهندسي. إن فرع الرياضيات الجديد الذي اكتشف فن الحساب في

الكمية الصغرى يعطينا اليوم أجوبة عن مسائل اعتبرت ممتنعة الحل حتى في المسائل الأكثر تعقيداً في علم الحركة.

إن هذا الفرع الجديد في الرياضيات، المجهول من الأقدمين، بإدخاله المتناهيات في الصغر في دراسة علم الحركة، أعاد الشرط الأساسي للحركة، وأعني دوامها المطلق، وقوّم بذلك الخطأ الذي لا بد منه الذي يقول إن الذكاء لا يمكنه أن يخطئ عندما يستبدل حركة دائمة، بوحدات متقطعة من الحركة.

ففي البحث عن قوانين التاريخ، لا يختلف الحال في شيء.

إن سير الإنسانية المحدود بسلسلة لا عدّ لها من الإرادات الشخصية عبارة عن حركة دائمة، ومعرفة قوانينه هي غاية التاريخ. ولكن، لإقامة قوانين هذه الحركة الدائمة، مجموعة كل الإرادات البشرية، يتقبل العقل تحكماً وحدات متقطعة. وأسلوب التاريخ الأول هو الانتخاب تحكماً، سلسلة من الأحداث الدائمة وفحصها مستقلة عن السلاسل الأخرى في حين أنه لم يكن ولا يمكن أن يكون لأي حدث بداية بل إن واقعة معينة تنشأ عن واقعة أخرى دون انقطاع والأسلوب الثاني قائم على فحص أفعال رجل واحد، قيصر أو قائد جيش، بوصفه مجموع إرادات الجميع في حين أن ذلك المجموع لا يعبر عن نفسه بنشاط وشخصية تاريخية وحدها.

إن علم التاريخ في تطوره، يُخضع لدراسته وحدات صغيرة أكثر فأكثر، وبهذه الوسيلة، يحاول أن يقترب من الحقيقة. ولكن، مهما بلغت هذه الوحدات من الصغر، فإننا نشعر بأن قبول وحدات مستقلة بعضها عن بعض، إن هو إلا قبول «بداية» لظاهرة ما، قبول إرادات الجميع تجد لها معبراً في أفعال شخصية تاريخية واحدة، الأمر الذي نؤكد نحن أنه باطل في نفسه.

إن كل استنتاج تاريخي دون أي مجهود من الناقد، يتحلل من تلقاء نفسه دون أن يخلف شيئاً وراءه لمجرد أن ذلك الناقد يختار كموضوع لدراسته،

وحدة مستقلة كبيرة أو صغيرة وله الحق دائماً في أن ينهار نظراً إلى أن هذه الوحدة التاريخية المنتقاة تحكمية أبداً.

لا نستطيع أن نطمع في بلوغ قوانين التاريخ إلا إذا عرضنا لفحصنا وحدة بالغة الصغر، تفاضلية التاريخ، أي التيارات الإنسانية المتجانسة وتحكمنا في فن إدماجها، أي في إحصاء مجموع الوحدات الصغرى.

إن السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر تعطي مشهداً خارقاً لحركة ملايين من الرجال تركوا مشاغلهم العادية واندفعوا من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ينهبون ويقتتلون، منتصرين أو يائسين. إن سير الحياة كله يتبدل في بضع سنوات تحمله حركة متجبرة تبدأ ناشطة ثم تبطئ. فما هو سبب هذه الحركة، أو أقله ما هي قوانينها؟ هذا ما يسأل عنه العقل البشري.

يجيب المؤرخون عن هذا السؤال عارضين علينا وقائع وحركات بضع عشرات من الرجال في واحد من أبنية باريس، مطلقين على هذه الوقائع والحركات اسم «الثورة» ثم يعطون ترجمة مفصلة عن حياة ناپليون وبعض أشخاص من أتباعه وخصومه ويروون أثر بعض من هؤلاء الأشخاص ويضيفون قائلين: هذا هو منشأ الحركة وهذه هي قوانينها.

لكن العقل البشري لا يرفض الاقتناع فقط بهذا التفسير بل يعلن كذلك بكل صراحة أن الأسلوب في التفسير خاطئ لأن الظاهرة الأضعف معتبرة فيه السبب الأقوى. إن مجموع الإرادات البشرية هو الذي خلق الثورة وناپليون، وهو الذي أفناهما بعد أن احتملهما وقتاً طويلاً.

ويقول التاريخ: «مع ذلك، فإنه كلما كانت هناك فتوحات كان هناك فاتحون، وكلما حدثت انقلابات في دولة جاء معها رجال عظام». فيجيب العقل البشري: صحيح إنه كلما ظهر فاتحون نشبت حروب. لكن هذا لا يبرهن على أن الفاتحين هم أسباب الحروب ولا على أنه يمكن اكتشاف

قوانين حرب ما في النشاط الشخصي لشخص واحد. إنني كلما أنظر إلى ساعتي، أرى العقرب على الرقم «١٠» فأسمع الأجراس تقرع من الكنيسة المجاورة. ولكن، من هذه الواقعة، واقعة أنه كلما بلغت الساعة العاشرة بدأت الأجراس تقرع، ليس من حقي أن أستنتج أن وضعية العقرب هي سبب قرع الأجراس.

إنني كلما أرى قاطرة تتحرك وأسمع صفيرها وأرى الصمام يفتح والعجلات تدور، لا يحق لي أن أقرر أن الصفارة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة.

يقول القرويون إن ريحاً باردة تبدأ بالهبوب حوالى نهاية الربيع لأن براعم أشجار البلوط تتفتح. وفي الواقع إن ريحاً باردة تهب كل ربيع عندما تتفتح براعم البلوط. ولكن مهما كان سبب هبوب هذه الريح في تلك الفينة مجهولاً مني، فإنني لا أستطيع أن أقول مع القرويين إن هذا السبب هو تفتح البراعم لأن قوة هذه الريح لا تتأثر بتلك البراعم. إني لا أرى إلا توافق الشروط التي تلتقي في كل ظاهرة من ظواهر الحياة وأرى أنني مهما استغرقت في مراقبة عقارب ساعتي بكل دقة، وصمام القاطرة وعجلاتها وكذلك براعم شجرة البلوط، فإنني لن أكتشف إطلاقاً سبب قرع الأجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية. ولكي أصل إلى معرفة السبب، يجب أن أبدل كلياً نقطة ملاحظتي فأدرس قوانين الحركة والبخار والجرس والريح. وهذه هي عينها المهمة التي تتوجب على التاريخ ولقد حاول التاريخ الاضطلاع بها.

لكي نجد قوانين التاريخ. يجب علينا أن نبدل تماماً عرض فحصنا وأن نترك جانباً الملوك والوزراء والجنرالات لندقق في الحركات المتجانسة، المتناهية في الصغر التي تحرك الجماعات. ما من أحد يمكنه أن يقول في أي

ظرف يتاح للإنسان أن يبلغ عن هذا الطريق مبلغ إدراك قوانين التاريخ. لكن من البديهي أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يعطي إمكانية إدراكها، وأن العقل البشري لم يصرف بعد جزءاً من مليون مما صرفه المؤرخون أنفسهم سواء في وصف حركات الملوك المختلفين والجنرالات والوزراء، أو في عرض آرائهم حول تلك الأفعال.

الفصل الثاني

إن جيوش اثني عشر شعباً أوروبياً انكفأت ضد روسيا، وراح الشعب الروسي والجيش يتقهقران لكي يتجنبوا الاصطدام، في بدء الأمر، حتى سمولنسك ثم حتى بورودينو. وانطلق الجيش الفرنسي نحو موسكو، غاية تقدمه، بقوة اندفاع آخذة في الازدياد. ولقد عظمت هذه القوة عند اقترابها من هدفها كما تتعاظم سرعة جسم ساقط كلما اقترب من الأرض. باتت ألوف الفراسخ من بلد جائع معاد وراءها بضعة عشر من الفراسخ أمامها قبل الهدف هذا ما كان يفكر فيه كل جندي من الجيش النابليوني، وبذلك اندفع الاجتياح إلى الأمام بقوة دافعة موحدة.

وفي الجيش الروسي، كلما أمعنوا في التقهقر، زادت نار الحقد على العدو أواراً. إنها تتركز وتكبر بسبب التقهقر. ولقد وقع الاصطدام الأخير في بورودينو فلم يفن واحد من الجيشين. لكن الجيش الروسي بعد الاصطدام مباشرة، تراجع إلى الوراء بالقدر الذي يستلزمه انكفاء كرة إلى الوراء بعد أن تصطدم بكرة أخرى، تحركه قوة أعظم بأساً في حين أن الكرة الغازية، رغم فقدانها كل قوتها في الاصطدام، لا بد لزوماً وأن تدرج إلى مسافة ما بعد أن تستعيد قوة اندفاعها.

انسحب الروس إلى مائة وعشرين فرسخاً وراء موسكو وبلغ الفرنسيون موسكو وتوقفوا فيها. ولم يقع أي قتال خلال الأسابيع الخمسة التي تلت ذلك. فالفرنسيون لا يتحركون أشبه بالوحش الذي أصيب بجرح قاتل فراح

يلعق جرحه رغم أنه فقد كل دمائه، ظلوا خمسة أسابيع في موسكو دون أي عمل، ثم، ودون أي سبب جديد، فروا فجأة. لقد اندفعوا في طريق كالوغا وظلوا في فرارهم رغم انتصارهم ـ لأنهم ما زالوا سادة ساحة المعركة في مالور اياروسلافيتز في قطاع كالوغا على بعد مائة وعشرين فرسخاً من موسكو ـ دون أن يدخلوا في معركة جديدة استمروا في فرارهم بسرعة متزايدة باتجاه سمولنسك ثم إلى ما وراء سمولنسك وإلى ما وراء فيلنا وإلى ما وراء بيريزينا وهم لا يزالون يبتعدون.

اقتنع كوتوزوف في مساء السادس والعشرين من آب، ومعه الجيش الروسي كله، بأنهم ربحوا معركة بورودينو. ولقد كتب كوتوزوف الخبر بكل وضوح إلى الأمبراطور. وعمم الأمر بالاستعداد لصراع جديد لتوجيه الضربة القاضية إلى العدو وليس بقصد خداع أي كان، بل لأنه أصبح يعرف ككل واحد من المحاربين أن العدو قد هزم.

لكن ذلك المساء وفي اليوم التالي، بدأت التقارير المعلنة عن خسائر هائلة تترى، ضياع نصف الجيش، لدرجة بدت معها استحالة الالتحام في معركة جديدة من الناحية المادية.

كان يستحيل الاشتباك في معركة قبل أن يُعاد وضع ميزانية الموقف وأن يرفع الجرحى وتستكمل الذخائر ويحصى عدد القتلى ويعين الرؤساء الجدد مكان الذين قتلوا منهم وقبل أن يأكل الجنود وأن يناموا بقدر حاجتهم. وفي تلك الأثناء، والمعركة لم تكد تنتهي، بدأ الجيش الفرنسي منذ الصباح يهتز من تلقاء نفسه ضد الجيش الروسي، (بفعل قوة الاندفاع هذه التي تزداد عكسياً بمعدل مربع المسافة). وكان كوتوزوف يريد أن يهاجم غداة اليوم التالي كما كان جيشه كله يريد. ولكن الرغبة في الهجوم وحدها لا تكفي إذ يجب أن تتوافر استطاعة العمل وهذه الاستطاعة لم تكن موجودة فكان من المستحيل

أن لا يتراجع الروس مرحلة واحدة في أول الأمر ثم مرحلة ثانية إجبارية ثم ثالثة.

وأخيراً، في الأول من أيلول، عندما دخل الجيش موسكو، أرغمته قوة الأمور على التراجع بعيداً رغم الحماسة العنيفة التي كانت تعتلج في النفوس فتراجع الجيش مرحلة جديدة هي الأخيرة مخلفاً موسكو للعدو.

ثمة أسئلة لا بد من أن يطرحها أولئك الذين من عادتهم الاعتقاد بأن رؤساء الجيش يضعون خطط الحروب والمعارك بالطريقة نفسها التي يعتمد عليها كل واحد منا وهو جالس في مكتبه أمام خريطة، ليرسم التدابير التي كان سيتخذها هو، في هذه أو تلك من المعارك، لماذا لم يفعل كوتوزوف في تقهقره كذا وكذا؟ لماذا لم يتحصن أمام فيلي؟ لماذا لم يتراجع دفعة واحدة على طريق كالوغا بعد أن سلم موسكو، إلخ.. إلخ..؟ إن الأشخاص الذين يألفون مثل هذه الأفكار، ينسون الشروط التي لا يمكن دفعها والتي يدور فيها نشاط جنرال قائد أعلى أو يتجاهلون تلك الشروط.

إن ذلك النشاط لا ارتباط بينه وبين ذاك الذي نتخيله ونحن نجلس بهدوء في مكتب عندنا ندرس حملة على خريطة، بعدد معلوم من الجنود في الجانبين، على أرض معروفة جاعلين مداركنا استراتيجية تبدأ في لحظة محدودة. إنّ قائداً أعلى لا يجد نفسه أبداً في ظروف «البداية» التي نرى نحن أو يرى أصحاب النظريات أنفسهم فيها عند التدقيق في حادث ما. إنه يجد نفسه دائماً وسط سلسلة متحركة من الظروف لدرجة أنه لا يجد نفسه لحظةواحدة في حالة تمكنه من الإحاطة بكل الأحداث الدائرة دفعة واحدة. إن الحدث يقع ثم يتبلور معناه تدريجاً. وفي كل لحظة من لحظات التطور هذه التي تجعل الحدث يبرز للعيان، يكون القائد الأعلى وسط سلسلة معقدة من الدسائس والمشاغل وحق الاستخدام والأوامر المتسلطة والمشاريع

والمجالس والتهديدات والخدع، ويكون كذلك مرغماً بصورة دائمة على الإجابة عن عدد لا يحصى من الأسئلة المعاكسة دائماً.

إن خبراء عسكريين يقولون لنا بجد لا يتزعزع إنه كان على كوتوزوف أن يتراجع قبل «فيلي» على طريق كالوغا كما أشير عليه أن يفعل. لكن قائداً أعلى، في اللحظات الحرجة بصورة خاصة، لا يكون نصب عينيه مشروع واحد فحسب، بل عشرات المشاريع. وكل مشروع من هذه المشاريع، رغم حسن ارتكازه على الناحيتين الستراتيجية والحركية، يكون منافياً للمشاريع الأخرى ويبدو أن القائد الأعلى ليس عليه إلا أن ينتقي واحداً منها في حين أن هذا نفسه يستحيل عليه لأن الأحداث والوقت لا ينتظران. لنفرض أنهم اقترحوا على كوتوزوف في الثامن والعشرين أن يسير على طريق كالوغا العام وأن مساعداً عسكرياً لميلوداروڤيتش جاء في تلك اللحظة بالذات يسأل عما إذا كان يجب الالتحام فوراً في اشتباك مع الفرنسيين أم التراجع. فإن على كوتوزوف أن يصدر أوامره في اللحظة نفسها. فإذا أمر بالتراجع، فإنه يتحتم عليه إجراء عملية انحراف لبلوغ طريق كالوغا. ولا يكاد المساعد يخرج حتى يأتي ضابط التموين ليسأل عن الجهة التي يجب أن تسير الأرزاق فيها، قائد المستشفيات يسأل عن المكان الذي سيحمل الجرحى إليه، ثم يأتي ساع من پيترسبورغ يحمل رسالة من الأمبراطور الذي لا يرضى بالجلاء عن موسكو. ثم يأتي خصم القائد الأعلى، ذلك الذي يعمل جاهداً لكي ينال من تصرفاته، ويوجد دائماً من أمثال هؤلاء عدد كبير وليس مجرد واحد فحسب، فيعرض مشروعاً جديداً متعارضاً كلياً مع خطة التراجع عن طريق كالوغا.

وفي تلك الأثناء، بينما يشعر القائد العام بأن قواه تتطلب الراحة والنوم، يأتي جنرال محترم فيشكو من نتائج استثناء غير قانوني منح لبعضهم، وبعده يدخل مدنيون طالبين الحماية، ثم ضابط أرسل مستطلعاً فجاء بمعلومات

تناقض كلياً ما جاء به زميل قبله وأخيراً جاء دور جاسوس وسجين حرب ثم الجنرال الذي ذهب يتفقد المواقع وكلهم يصفون مواقع العدو على طريقتهم. والأشخاص الذين لا يتمثلون الشروط التي يجب على القائد العام أن يعمل فيها، يصورون لنا مثلاً وضع الجيش أمام فيلي ويفترضون أن كوتوزوف كان يستطيع في ذلك الوضع في اليوم الأول أن يحسم بكل حرية مسألة الدفاع عن موسكو أو التخلي عنها في حين أن تلك المسألة على العكس، لا يمكن أن تطرح والجيش على بعد خمس مراحل عن المدينة. فمتى إذن حلت هذه المسألة؟ لقد حلت في دريسا وسمولنسك وأخيراً ونهائياً في الرابع والعشرين من الشهر في شيـڤاردينو ثم في السادس والعشرين في بورودينو ومنذ ذلك الحين ومن يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى ودقيقة إلى دقيقة، طوال التقهقر من بورودينو إلى فيلي.

الفصل الثالث

عندما وصل إيرمولوف المستطلع ليقول للقائد الأعلى كوتوزوف إنه يتعذّر الالتحام في معركة على مشارف موسكو ويجب أن نستمر في التراجع، نظر إليه كوتوزوف بصمت وقال:

ـ أعطني يدك.

وبعد أن أدار تلك اليد بطريقة مكنته من حبس النبض أضاف قائلاً.

ـ إنك مريض يا صديقي. فكر في ما تقول.

لم يكن كوتوزوف حتى تلك اللحظة يستوعب بعد إمكانية التراجع إلى ما وراء موسكو دون قتال.

على مرتفع ياكلونّايا على مسافة ست مراحل من حدود دروغوميلوف، ترجل من عربته وجلس على مقعد على جانب الطريق، فدار به رهط كبير من الجنرالات، انضم إليهم الكونت روستوبتشين الذي وصل قبل قليل من موسكو، وراجح هذا الجمع من الأشخاص اللامعين المنقسمين إلى جماعات صغيرة، يناقشون محاسن الموقف ومساوئه وحالة الجيش والمخططات المقترحة والحالة المعنوية في موسكو وعدداً آخر من المواضيع ذات الطابع العسكري. وكان كل منهم يشعر دون أن يستدعيه أحد ودون أن يطلق على هذا الجمع اسم لجنة استشارية أنه إنما يساهم في مجلس عسكري، كما كانت الأحاديث في كل جماعة تدور حول الاعتبارات العامة.

كانوا يتناقلون بصوت خفيض أنباء شخصية ثم يعودون فوراً إلى

الموضوعات ذات الطابع العام. لم يكن أحد من الموجودين ليسمح بدعابة أو بضحكة أو بابتسامة. لقد كانوا جميعهم بدون شك يحاولون الظهور بمظهر يتساوى مع خطورة الأحداث. وكانت كل جماعة تسعى وهي تتبادل الأحاديث ألّا تبتعد عن القائد العام الذي كان مقعده مركز الجاذبية بالنسبة إليهم وأن تصل أحاديثها إلى أسماع كوتوزوف. وكان هذا الأخير يصغي وأحياناً يستعلم عما يدور من حديث، ولكن دون أن يساهم في الحديث أو أن يتقدم برأي. وكان في معظم الوقت، يشيح بوجهه متبرماً بعد أن يصيخ السمع إلى حديث جماعة ما، وكأنه سمع شيئاً يختلف كلياً عما كان يرغب في معرفته. وكان البعض، خلال النقاش حول الموقع المختار، ينتقدون الموقع نفسه أقل من انتقادهم أهلية الأشخاص الذين قبلوا به، ويزعم البعض الآخر أن الخطأ آتٍ من وقت مضى وأنه كان يجب خوض المعركة قبل أول أمس في حين تتحدث جماعة ثالثة عن معركة سالامانك التي جاء يصفها قادم جديد، فرنسي اسمه كروسّار يرتدي زيّاً إسبانياً، وكان كروسّار هذا يدرس حصار ساراغوس مع أمير ألماني عامل في الجيش الروسي، بغية اللجوء إلى دفاع مماثل عن موسكو، وفي جماعة رابعة، كان الكونت روستوتبشين يعلن استعداده للموت مع المتطوعين الموسكوفيين تحت جدران المدينة.

لكنه مع ذلك لا يستطيع إلا أن يشكو من التجاهل الذي أظهروه تجاهه لأنه لو علم إلى أين بلغت الأمور، لسار كل شيء سيراً مختلفاً... وكان فريق خامس يظهر عمق مداركه الستراتيجية ويعين الاتجاه الذي كان على القطعات أن تسير فيه، وسادس يتكلم دون أن يقول شيئاً، في حين كان كوتوزوف يتخذ طابعاً آخذاً في الكآبة والتشاغل.

لم يكن يرى في هذه الأحاديث غير شيء واحد: إن الدفاع عن موسكو مستحيل عملياً، وذلك بكل ما لهذه العبارة من معنى وإن الاستحالة كانت تبلغ

درجة لو وجدوا معها قائداً أعلى مجنوناً يأمر بالقتال، لنجم عن ذلك هزيمة دون معركة. لذلك فإن أية معركة لم يكن ممكناً أن تدور ما دامت القيادة العليا لم تكن تقدر أن الموقف متعذر الدعم فحسب بل لا تفكر كذلك إلا في ما يعقب التخلي الإلزامي عنه. فكيف كان يمكن لهؤلاء القادة أن يقودوا جنودهم إلى ساحة معركة اعترف بأنها غير قابلة للدعم؟ إن الأتباع بل الجنود الذين هم حكام كذلك يعترفون بذلك وبالتالي فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى معركة وهم على يقين بوقوع كارثة. ولو أن بينيغسن كان ينصب من نفسه مدافعاً عن هذا الموقع أو أن آخرين استمروا في مناقشته، فإنّ ذلك لم يعد له أية أهمية. إن لم يعد إلّا ذريعة للنقاش والدرس وكان كوتوزوف مدركاً ذلك تماماً.

كان بينيغسن الذي اختار الموقع، يجأر في إظهار وطنيته الروسية فلم يكن كوتوزوف قادراً على الإصغاء إليه دون أن يقطب حاجبيه. وإذن، كان بينيغسن يصر على أن يصار إلى الدفاع عن موسكو فكان كوتوزوف يرى خدعته كما يرى النور: سوف يتحمل كوتوزوف تبعة الإخفاق في حال الإخفاق لأنه تقهقر بالجيش دون أن يدخل في معركة جدية حتى بلغ به «مون دي موانو» ـ جبل الدوريّ. وفي حال انتصار الروس، فإن بينيغسن سيعزو لنفسه شرف النصر. بل إنهم حتى إذا رفضوا الإصغاء إليه، فإنه أقله قد غسل يديه من جريمة تسليم موسكو. لكن هذه الدسائس كلها لم تكن في تلك اللحظات لتشغل بال العجوز أكثر من غيرها. لقد كانت مسألة واحدة رهيبة تشغله ولم يكن ثمة من يقدم إليه حلها. أما المسألة فهي: «هل يمكن أن أكون أنا الذي جعلت ناپليون يبلغ موسكو ومتى فعلت هذا؟ متى تقرر هذا هل كان البارحة عندما أرسلت الأمر إلى پلاتوف بالتراجع أم أول أمس عندما كنت نصف نائم فتركت بينيغسن يضطلع بأعباء القيادة؟ أم ترى وقع ذلك قبل هذه الأوقات؟..

ولكن متى، متى تقرر أمر على مثل هذا الهول. يجب ترك موسكو. يجب أن يتقهقر الجيش ويجب أن أصدر الأمر». وكان إصدار هذا الأمر البشع يعادل في نظره تقديم استقالته من القيادة العامة. وهو لم يكن يحب السلطة التي ألفها فحسب ـ إذ إن الالتفاتات التي لقيها الأمير بوزوروڤسكي الذي كان ملحقاً به في تركيا جرحت كرامته، بل إنه كان مقتنعاً بأنه هو المنذور لتخليص روسيا واجداً الدليل على ذلك في كونه يدين بلقبه كقائد عام لرغبة الشعب ضد رغبة الأمبراطور. كان قانعاً بأنه وحده في تلك الظروف العصيبة قادر على البقاء على رأس الجيش، وأنه الوحيد في العالم الذي يستطيع مجابهة خصم لا يقهر مثل ناپليون دون أن يروع. لذلك كان يرتعد هولاً من مجرد التفكير في الأمر الذي سيصدره. ولكن، كان يجب أن يتخذ قراراً حاسماً وأن يضع حداً لهذه المناقشات التي بدأت تتخذ حوله طابعاً متمادياً في التحرر.

أمر باقتراب أرفع الجنرالات رتبة وقال وهو يقف عن مقعده:

ـ سواء أكان رأسي جيداً أم رديئاً، فإن عليه أن يعين نفسه بنفسه.

واتجه نحو فيلي حيث كانت عربته في انتظاره.

الفصل الرابع

في الساعة الثانية في كوخ القروي أندريه ساڤوستيانوڤ، اجتمع المجلس العسكري، وبقي «كوخ كوتوزوڤ» قائماً حتى عام ١٩١٧، وراح الرجال والنساء والأطفال وكل أعضاء هذه الأسرة الهامة مجتمعين في «السقيفة» في الجانب الآخر من الدهليز فلم يبق في الغرفة إلا مالاشا حفيدة الفلاح أندريه البالغة من العمر ستة أعوام، إذ آنسها «عظيم الرفعة» بإعطائها قطعة سكر بينما كان يشرب شايه، فجثمت فوق موقد القاعة الكبيرة. وكانت الصغيرة تتأمل جزعة سعيدة، الوجوه من أعلى والألبسة والأوسمة التي على صدور الجنرالات الذين راحوا يدخلون الواحد إثر الآخر ويجلسون على مقاعد عريضة في الركن الجميل، ركن الأيقونات، إلى يمين المدخل، تحت الصورة المقدسة. وجلس الجد، كما راحت مالاشا تسمي كوتوزوڤ في سرها منفرداً في الزاوية المعتمة قرب الموقد.

لقد تهاوى بتثاقل على مقعده القابل للثني ولم يكف عن الزفير وهو يسوي ياقة بزته التي ظلت تضايق عنقه رغم أنه حل أزرارها. وكان الداخلون يتقدمون لتحيته فكان يشد على أيدي بعضهم ويومئ برأسه إلى البعض الآخر. وكانت قبالة كوتوزوڤ نافذة أراد مساعده العسكري كاييساروڤ أن يجذب سترها فندت عن كوتوزوڤ حركة تدل على التبرم أدرك كاييساروڤ منها أن «عظيم الرفعة» لا يريد أن يضيء النور وجهه.

وحول الطاولة المصنوعة من خشب الصنوبر التي انتشرت فوقها

الخرائط والمخططات والأقلام والورق، دار عدد كبير من الأشخاص حتى أن التابعين جاؤوا بمقعد آخر جلس عليه آخر الداخلين: إيرمولوڤ، كاييساروف وتول. وتحت الصور المقدسة، في مكان الشرف، جلس باركلي دوتوللي و«صليب القديس جورج» يتدلى من عنقه. كان ممتقع الوجه يزيد جبين عريض في إطالة صلعته، تعذبه الحمى منذ يومين اثنين، يشعر في تلك الأثناء أيضاً بالارتعاش والانكماش. وكان أوڤاروڤ الجالس إلى جانبه، يروي له بحركات عنيفة شيئاً ما بصوت خفيض أسوة بكل المتحدثين الذين كانوا يتكلمون بصوت خافت. أما دوختوروڤ، وهو رجل قصير القامة، بدين، فقد كان يصغي بانتباه وهو يرفع حاجبيه مستبقياً يديه متقاطعتين فوق بطنه. ومن الجانب الآخر جلس الكونت أوسترمان ـ تولستوي، وقد اتكأ على الطاولة وأسند رأسه الضخم ذا التقاطيع النشيطة والعينين البراقتين إلى يده كأنه يغوص في أفكاره. وكان رايڤسكي يصرف نفاد صبره بفتل خصلة من شعره الأسود العكف على صدغه بحركة مألوفة وبالنظر إلى كوتوزوڤ تارة وإلى باب الدخول تارة أخرى. وكان وجه كونوڤيتشين الجميل الحازم يضيء بابتسامة ماكرة. لقد التقت نظرته نظرة مالاشا فغمزها لها بعينه، الأمر الذي جعل الصغيرة تضحك.

كانوا جميعاً ينتظرون بينيغسن الذي كان متأخراً في طعامه الشهي بحجة إعادة فحص الموقع مجدداً. وبقوا ينتظرون من الساعة الرابعة حتى السادسة دون أن يفتحوا باب النقاش، فراح كل من جانبه، يدور في أحاديث خاصة بصوت خفيض خلال ذلك الوقت.

لم يتحرك كوتوزوڤ من زاويته ليقترب من الطاولة إلا عندما دخل بينيغسن لكنه اقترب بشكل لم يسمح للشموع الموقدة أن تضيء وجهه.

افتتح بينيغسن الجلسة بالسؤال التالي: «هل ستترك عاصمة روسيا

العريقة المقدسة دون قتال أم هل سيدافع عنها؟» وأعقب السؤال صمت عميق. أصبحت الوجوه كلها مكتئبة وسُمع كوتوزوف يسعل وهو يغمغم بين أسنانه. فشخصت العيون كلها إليه ونظرت مالاشا بدورها إلى «الجد». لقد كانت أقرب إليه من كل الآخرين فرأت وجهه يتقلص وكأنه على وشك البكاء. لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة. وفجأة صاح بغضب كلمات بينيغسن وهو يبرز النغمة الزائفة:

ـ عاصمة روسيا العريقة المقدسة! اسمح لي أن أقول لك يا صاحب السعادة إن هذا السؤال ليس له أي معنى بالنسبة إلى روسي. (وحنى جسمه الضخم إلى الأمام) لا جدوى من طرح هذا السؤال لأنه محروم من كل المعاني. إن المسألة التي رجوت هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجلها مسألة عسكرية هي التالية: «إنّ خلاص روسيا في جيشها. فهل من الأفضل المغامرة بإضاعة الجيش بما في ذلك خسارة موسكو بالتحام في معركة أم أن تسلم موسكو دون قتال؟» هذا هو ما أريد أن أحصل على رأيكم بصدده.

وعاد يلقي بظهره إلى مسند مقعده.

ودار النقاش. لم يعتقد بينيغسن أنه خسر معركته لذلك راح يؤيد رأي باركلي وآخرين حول استحالة الالتحام في معركة دفاعية في فيلي ويعرض، وهو الذي يملأ حب موسكو الوطني قلبه كما كان يزعم، أن تمرر خلال الليل قطعات الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر وأن يُهاجم بها غداة اليوم التالي الجناح الأيمن الفرنسي. وانقسمت الآراء وراحوا يناقشون ما لها وما عليها. انحاز إيمولوف ودوختوروف ورايـيـڤسكي إلى جانب رأي بينيغسن. فهل ترى كانوا مدفوعين بعاطفة وجوب تقديم تضحية لا مرد لها قبل ترك المدينة أم كانوا يخضعون لاعتبارات شخصية؟ مهما كان الأمر، فإن هؤلاء السادة

بدوا وكأنهم غير مدركين أن مجلساً عسكرياً لا يمكنه أن يغير سير الأمور الذي لا بد منه وأن موسكو قد سلمت بالفعل.

أما الجنرالات الآخرون، فقد كانوا مدركين ذلك فتركوا جانباً قضية تسليم موسكو وراحوا يتناقشون حول الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الجيوش. أما مالاشا التي تنظر بعينين مدوّرتين إلى كل ما يحدث أمامها، فقد فهمت معنى المجلس العسكري على لون آخر. خيل إليها أنها عبارة فقط عن صراع شخصي بين «الجد» و«ذي الذيول الطويلة» كما سمت بينيغسن. كانت تراهما يغضبان عندما يتحدثان، فكانت في أعماق قلبها الصغير تنحاز إلى صف الجد. وفي قلب النقاش، لاحظت النظرة السريعة الماكرة التي ألقاها كوتوزوف على بينيغسن فلم تلبث أن أدركت، لعظيم بهجتها، أن الجد قد قال شيئاً لذي الذيول الطويلة فأسقطه. وراح بينيغسن الذي احمرّ وجهه فجأة يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. كانت الكلمات التي أحدثت فيه هذا الأثر القوي، هي التي استعملها كوتوزوف بصوت هادئ ساكن ليعبر عن رأيه في المزايا والأخطار التي يقدمها مشروع بينيغسن حول تمرير الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن خلال الليل بهدف مهاجمة الجناح الأيمن الفرنسي. قال كوتوزوف:

ـ أيها السادة، أنا لا أستطيع إقرار خطة الكونت لأن حركات الجنود على مقربة من العدو خطيرة دائماً والتاريخ العسكري يؤيد هذا الرأي. فعلى سبيل المثال. (واتخذ كوتوزوف أمارات التفكير ليبحث عن جملته وهو يلقي نظرة ساذجة وواضحة على بينيغسن). فمثلاً معركة فردلاند التي آمل أن يكون سيدي الكونت قوي التذكر لها.. إنها لم تنجح تماماً لأن قواتنا تجمعت على مقربة من العدو.

وبدا الصمت الذي أعقب هذا الكلام خلال دقيقة واحدة، طويلاً جداً في نظر الجميع.

وعادت المناقشة تقاطع بكثرة بفترات صمت إذ كان كل من الموجودين يشعر بأنه لا يجد ما يضيفه إلى أقواله.

تنهد كوتوزوف تنهدة عميقة خلال إحدى تلك الفترات وكأنه يستعد للكلام فاستدارت العيون كلها إليه. قال:

ـ حسناً أيها السادة! إنني أرى أنني وحدي من سيدفع الغرم.

ثم وقف بجهد واقترب من الطاولة:

ـ أيها السادة، لقد استمعت إلى آرائكم. إن بعضكم على غير وفاق معي، وتريث برهة، ولكن أنا، استناداً إلى السلطة التي منحت إليّ من قبل أمبراطوري ووطني، أنا، آمر بالانسحاب.

لم يلبث الجنرالات بعد ذلك أن تفرقوا في صمت وعلى وجوههم تلك الأمارات الجليلة التي تنطبع على الوجوه عند الفراغ من حفلة مأتم.

تبادل بعضهم بصوت خفيض وبلهجة تختلف كلياً عن لهجتهم خلال المؤتمر، بضع كلمات مع القائد العام.

أما مالاشا التي كان ذووها ينتظرونها منذ وقت طويل للعشاء، فقد انزلقت برفق على ظهرها فوق المنحنى وقد تشبثت بقدميها العاريتين بنتوءات الموقد، وتسللت عبر سيقان العسكريين ثم اختفت وراء الباب.

وبعد أن استأذن كوتوزوف الجنرالات، بقي فترة طويلة جالساً ومرفقاه إلى الطاولة، يفكر في السؤال الملح نفسه:

«ولكن متى، متى تقرر الجلاء عن موسكو؟ كيف حدث أن بلغوا هذا الحد وأن أصبح هو المسؤول عنه؟».

قال لمساعده العسكري شنيدر الذي جاء يلحق به بعد أن أوغل الليل:

ـ كلا، كلا، ما كنت أتوقع هذا. ما كنت أتوقعه! بل إنني ما كنت لأصدقه.

فقال شنيدر: يجب أن تستريح يا صاحب السمو.

لكن كوتوزوف، بدلاً من أن يجيب مساعده العسكري، صاح:

ـ كلا، إن ذلك لن يسير على هواه بالنسبة إليهم. لسوف يأكلون لحم خيولهم كالأتراك.

وضرب الطاولة بقبضته العريضة وكرر:

ـ نعم، لسوف يأكلون هم كذلك، شريطة أن..

الفصل الخامس

كان حدث ما في طور التكوين، في تلك الأثناء، ذو أهمية تختلف عن أهمية انسحاب الجيش: ألا وهو هجر موسكو وإحراقها. وكان روستوبتشين الذي يبدو في هذا المضمار أنه المسؤول الأكبر، كان يعمل عكس اتجاه كوتوزوف.

هجر موسكو وإحراقها، حدث يماثل تراجع الجيوش إلى ما وراء المدينة بعد معركة بورودينو من حيث استحالة تجنب وقوعه.

وكل روسي كان مستطيعاً ليس بالتحليل المنطقي بل بذلك الإحساس الذي يكمن في صدورنا كما كان في صدور آبائنا، أن يتوقع ما سيحدث.

فاعتباراً من سمولنسك وفي كل المدن وكل قرى الأرض الروسية، في كل مكان كانت الظاهرة نفسها التي وقعت في موسكو تظهر هناك دون أن يكون للكونت روستوبتشين وبياناته أي دخل فيها. كان الشعب ينتظر العدو بهدوء دون أن يثور أو ينفعل أو يقتتل، ينتظر بصبر مصيره وهو يشعر بقوة إيجاد ما يجب أن ينجزه في اللحظة الحاسمة من تلقاء نفسه عندما يحين الوقت. وكلما اقترب العدو، ابتعدت عناصر الشعب الغنية تاركة ثرواتها. أما الفقراء الباقون في أماكنهم، فكانوا يحرقون ويدمرون كل ما كان يتعذر على الأغنياء نقله معهم.

وكان الإيمان بأن هذا هو ما يجب عمله وأنه ينبغي إلزاماً أن يكون كذلك، مستقراً كما لا يزال مستقراً في النفس الروسية.

وهذا الإيمان الذي ضاعفه الشعور المسبق بأن موسكو سوف تسقط، انغرس في المجتمع الروسي الموسكوفي عام ١٨١٢ إن أولئك الذين ارتحلوا منذ تموز وفي أوائل آب، أكدوا برحيلهم أنهم يتوقعون هذا الحدث. والذين رحلوا حاملين معهم كل ما استطاعوا حمله، تاركين بيوتهم ونصف ما كانوا يملكون، كانت تُحرّكهم تلك الوطنية العميقة «الكامنة» التي لا تعبر عنها الكلمات ولا التضحية بالأبناء أو الأعمال الأخرى المناقضة للطبيعة ولكن تترجم طبيعياً وبمنتهى البساطة دون تيه وتحدث دائماً أعظم النتائج.

كانوا يقولون لهم: «من العار أن تهربوا من الخطر. يجب أن يكون المرء نذلاً ليغادر موسكو». وكان روستوبتشين في منشوراته يلمح إلى أن فرارهم يحط من الشرف، فكانوا يشعرون بالتجريح إذ ينعتون بالجبناء وتأخذ عليهم ضمائرهم ارتحالهم، لكنهم مع ذلك كانوا يرحلون وهم يشعرون بضرورة الرحيل. لماذا يغادرون المدينة؟ لا يمكن الافتراض أن روستوبتشين قد روعهم في وصفه للفظائع التي ارتكبها ناپليون في البلاد المحتلة. كانوا يرحلون، وفي المقدمة الأغنياء والمثقفون الذين يعلمون علم اليقين أن برلين وڤيينا بقيتا سليمتين رغم احتلال ناپليون، وأن السكان وجدوا متعة كبيرة أثناء الاحتلال مع أولئك الفرنسيين الفاتنين الذين كان الروس، والنساء بصورة خاصة يحبونهم حباً جماً في ذلك الوقت.

كانوا يرحلون لأن السؤال عما إذا كانوا سيعيشون عيشاً رضياً أو سيئاً في موسكو إبان الاحتلال لم يكن قائماً بالنسبة إلى الروس. لقد كانت الحياة نفسها تحت ذلك النظام هي المستحيلة في نظرهم التي تعتبر بمثابة أقصى درجات البلاء. ولقد بدأوا بالرحيل قبل بورودينو. وبعد بورودينو، أخذوا يخرجون من موسكو بأكثر سرعة دون أن يعبأوا بالنداءات التي تدعوهم إلى الدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من مشيئة حاكم موسكو الذي كان يريد أن

يشكل موكباً دينياً يحمل فيه أيقونة إيبريا، أشهر الأيقونات في موسكو، ويخرج إلى المعركة، فقد ذهبوا، رغم المناطيد التي ستجر الدمار على الفرنسيين، رغم كل السخافات التي حشا فيها روستوبتشين بياناته. كانوا على معرفة أن واجب الجيش هو أن يقاتل وأنه إذا كان الجيش عاجزاً، فإنه ليس عليهم هم أن ينتقلوا إلى الجبال الثلاثة، هو التل القائم شرقي موسكو، ليلتحموا في معركة مع ناپليون ببناتهم وخدمهم بل إن عليهم أن يرحلوا مهما بلغ حزنهم على تركهم ممتلكاتهم التي لم يستطيعوا نقلها للدمار.

كانوا يذهبون دون التفكير في المعنى العظيم الذي يتجسد في مغادرة هذه المدينة العظيمة التي سوف تُحرق حتماً بعد مغادرة السكان لها، لأن الشعب الروسي يستوعب فكرة العزوف عن إحراق الدور الخالية وتدميرها. كانوا يرحلون منفردين وبذلك تم العمل الجليل الذي بقي أكبر مجد للشعب الروسي. فالسيدة العظيمة فلانة التي غادرت موسكو منذ شهر حزيران مع زنوجها ومهرجيها لتحتمي في ملك لها في إقليم ساراتوف، شعرت بشكل مبهم أنها ليست خادمة بوناپرت فراحت ترتعد فرقاً من أن يثنيها أمر روستوبتشين، إن مثل هذه السيدة ساهمت ببساطة وبشكل طبيعي في العمل العظيم العام الذي أنقذ روسيا.

والكونت روستوبتشين الذي كان يعيب علَى الفارين تارة وتارة يهتم بإجلاء الدوائر، يوزع أسلحة رديئة على خليط من السكارى تارة وينظم موكباً دينياً رافعاً أيقونة تارة أخرى، يمنع رئيس الأساقفة أوغوستين، من إخراج الأيقونات وصناديق ذخائر القديسين طوراً وطوراً يصادر العربات الخاصة في المدينة، يأمل نقل منطاد ليبيخ على مائة وست وثلاثين عربة حيناً ويلمح حيناً آخر إلى أنه سيحرق موسكو، روستوبتشين الذي كان يعيب على الفرنسيين تارة في بيان وجهه إليهم بأبهة أنهم دمّروا مأوى الأطفال، ويروي

تارة أخرى كيف أحرق منزله بالذات، تارة يعترف بحريق موسكو ويأخذه على عاتقه وطوراً ينكره، يأمر الشعب أن يقبض على كل الجواسيس وأن يأتي بهم إليه حيناً وحيناً يستنكر عملهم هذا، وينفي كل الفرنسيين من موسكو طوراً وطوراً يترك فيها السيدة أوبير ـ شماليه التي كان متجرها ملتقى كل الجالية الفرنسية، ثم يأمر بالقبض على كليوتشاريـڤ العجوز المحترم، دون أي مبرر وينفيه، يستدعي السكان للذهاب إلى الجبال الثلاثة لمقاتلة الفرنسيين ثم، لكي يتخلص من الجماهير يقدم لهم رجلاً يقتلونه بينما يهرب هو من باب خلفي، كان روستوبتشين هذا الذي يزعم تارة أنه لن يحيا ليرى نكبة موسكو ويكتب في مذكراته أبياتاً بالفرنسية حول الاتجاه الذي سيسلكه تارة أخرى، لا يدرك شيئاً من الأحداث الدائرة لكنه كان يريد أن يفعل شيئاً ما وأن يدهش ويقوم بعمل فيه وطنية بطولية، فكان يلعب كالطفل بذلك الحدث المشؤوم الذي يتمثل في هجر موسكو وإحراقها ويجتهد مستعملاً يده الضعيفة سواء في إذكائه أو في إيقاف السيل الشعبي العارم الذي كان يحمله مع تياره.

الفصل السادس

كانت پيترسبورغ مشمولة باهتمام سيد كبير يتبوأ أحد أرفع مراكز الأمبراطورية. فأصبحت هيلين لدى عودتها مع بلاط فيلنا، إلى پيترسبورغ في موقف حرج. وفي فيلنا، ارتبطت مع أمير أجنبي شاب، فلما عادت إلى پيترسبورغ راح الأمير والسيد العظيم اللذان كانا هناك يطالبان بحقوقهما فعرضت لها مشكلة جديدة تماماً في حياتها الخاصة. ألا وهي المحافظة على صداقة كل منهما المقربة دون أن تجرح أحداً منهما.

إن ما كان يبدو صعباً بل مستحيلاً بالنسبة إلى امرأة أخرى، لم يظهر للكونتيسة بيزوخوف أية مادة للتفكير، وهي التي كانت بحق تظهر امرأة متفوقة. فلو أنها حاولت أن تخفي سلوكها وأن تعمد إلى المكايد لتنقذ نفسها من الارتباك، لأفسدت بذلك كل شيء ولكان عملها بمثابة الاعتراف بخطئها. لكن هيلين على العكس، كرجل عظيم حقيقي يقدر على كل ما يريد، وضعت بجانبها الحق المكتسب الذي كانت تعتقد أنها تمشي بوحيه، وألقت التبعة على الآخرين.

وأول مرة سمح الأمير الأجنبي لنفسه أن يوجه إليها اللوم، رفعت رأسها الجميل بكبرياء والتفتت نصف التفاتة إليه وقالت له بلهجة مطمئنة:

ـ ها هي أنانية الرجال وقسوتهم! لم أكن أتوقع شيئاً آخر. إن المرأة تضحي بنفسها من أجلكم فتتألم وهذا هو جزاؤها. أي حق لك يا صاحب

السيادة في أن تسألني علماً عن صداقاتي وأحبائي؟ إنه أب كان أكثر من أب بالنسبة إلي.

وأراد الأمير أن يقول كلمة في هذا الشأن لكن هيلين قاطعته قائلة:

ـ حسناً، نعم، يجوز أن يشعر نحوي بعواطف غير عواطف الأب، لكن هذا ليس سبباً يوجب أن أغلق بابي دونه. إنني لست رجلاً لأكون جحودة. اعلم يا صاحب السيادة أنني لا أسأل في كل ما له علاقة بعواطفي الشخصية إلا أمام إلهي وضميري.

وأنهت حديثها بهذا القول وهي ترفع يداً إلى صدرها الجميل الذي علا من الانفعال وتشخص بعينيها إلى السماء.

ـ ولكن، إصغِ إليّ بحق السماء.

ـ تزوجني فأكون عبدتك.

ـ لكن هذا مستحيل.

ـ إنك لا تتنازل بالانحدار إلى مستواي، أنت...

وانفجرت باكية.

حاول الشخص رفيع المقام أن يهدئها. لكن هيلين قالت له خلال عباراتها دون أن تتظاهر بأنها تستعطفه، إن ما من أحد يستطيع أن يمنعه من الزواج وإن هناك أمثلة مماثلة للطلاق، ولم يكن الطلاق شائعاً حينذاك، لكنها أوردت على سبيل المثال ناپليون وبعض الشخصيات الأخرى، وأنها لم تكن قط زوجة بعلها بل كانت ضحية.

اعترض الأمير الشاب وقد كاد يستسلم: لكن القوانين، الدين..

فقالت هيلين: القوانين، الدين.. أية فائدة من وضعها إذا لم تكن مفيدة في مثل هذه الحالات!

مضى الأمير الكبير الذي أذهله أن تكون مثل هذه الفكرة البسيطة لم

تخطر على باله من قبل، يستشير الآباء الأجلّاء من صحبة يسوع الذي كانت تربطه بهم صلات وثيقة.

قدموا إليها، بعد بضعة أيام، في إحدى الحفلات الكبيرة التي كانت هيلين تقيمها في دارة كاميني ـ أوستروف، رجلاً في سن ما، أبيض الشعر كالثلج، أسود العينين براقهما، السيد دوجوبير البطر، يسوعي في ثوب قصير. ولقد تحدث في الحديقة على أنغام الموسيقى على ضوء المشاعل، فترة طويلة مع هيلين حول محبة الله والمسيح وقلب مريم المقدس والسلوان الوحيد الذي يعد به في هذه الدنيا والدنيا الآخرة الإيمان الوحيد الحقيقي الذي هو الدين الكاثوليكي، فتأثرت هيلين تأثراً عميقاً حتى أن الدموع انهمرت مراراً من عينيها وعيني السيد دوجوبير وارتجف صوتها من الانفعال غير مرة. ولقد جاء راقص يدعوها فقطع حديثها مع مدير ضميرها المقبل. وفي اليوم التالي، جاء السيد دوجوبير وحده مساء إلى دار هيلين ومنذ ذلك الحين، أصبح من المواظبين على زيارتها.

وذات يوم، اصطحب الكونتيسة إلى كنيسة كاثوليكية فركعت أمام المذبح حيث قادها ذلك الفرنسي الجميل الذي تخطى سن الشباب اللامع ووضع يديه على رأسها وحينئذ، وهذا ما روته فيما بعد، أحست بشيء أشبه بالنفحة المنعشة يتغلغل في أعماقها فشرحوا لها أن ذلك الشيء هو «الغفران».

ثم جاؤوها بكاهن ذي جبة طويلة سمع اعترافها ومنحها الغفران. وفي اليوم التالي، جاؤوها بعلبة تحوي القربان المقدس تركوها عندها رهن إشارتها ولم تمض أيام حتى علمت هيلين بارتياح شديد أنها الآن باتت تنتسب إلى الكنيسة الحقيقية الكاثوليكية وأن البابا سوف يحاط علماً بذلك وأنه سيرسل إليها وثيقة بهذا المعنى.

ولقد عاد عليها كل ما حدث حينذاك في نفسها وحولها وما حظيت به

من عناية شخصيات مرموقة جداً كانت تظهر لها بوسائل رقيقة جداً ومقبولة، ونقاء الحمام الذي باتت عليه وهي التي اقتصرت في أرديتها على الأثواب البيضاء المزينة بأشرطة بيضاء، كل ذلك عاد عليها بكثير من الرضى. لكن ذلك الرضى لم يكن يجعلها تضيع لحظة واحدة الهدف الذي وضعته نصب عينيها. لكنها لم تلبث أن أدركت، كما يحدث عادة في عالم الخداع عندما يمكر أحمق دائماً بالأكثر ذكاء أن كل هذه الكلمات والتصرفات كانت تهدف إلى غاية واحدة وهي استخلاص المال منها لمصلحة اليسوعيين الذين مهّدوا لها الطريق إلى الكثلكة إذ لمحوا إلى ذلك أمامها وقبل أن تعتذر هيلين، قدمت شروطها، أرادت أن ينهوا لمصلحتها الرسميات بطلاقها، فالأديان في نظرها، كل الأديان، ليست صالحة إلا لإنقاذ الآداب عندما تكون الأهواء البشرية موضع البحث. وعلى ذلك، فإنها خلال إحدى محادثاتها مع هاديها، سألته بحزم أن يقول لها إلى أي حد أصبحت روابط الزواج تربطها.

كانا جالسين في القاعة الكبيرة قرب النافذة المفتوحة التي كان عبير الزهور ينفذ إليهما عن طريقها. وكانت هيلين ترتدي ثوباً أبيض شفافاً عند الصدر والكتفين. والكاهن، وهو رجل سمين ممتلئ الخدين، حليق بأناقة، ذو فم شهواني بديع الخطوط، جالس بالقرب منها ويداه البيضاوان معقودتان بتواضع على ركبتيه والابتسامة الرقيقة تتيه على شفتيه. كان يتأملها من حين إلى آخر بنظرة متأثرة بهدوء بجمالها وهو يفسر لها وجهة نظره حول الموضوع الذي يعنيهما. وكانت هيلين تبتسم في شيء من القلق وهي تنظر إلى هذا الرجل ذي الشعر العكف والخدين الممتلئين وتتوقع بين حين وآخر، أن يحيد بهما الحديث عن الموضوع. لكن الكاهن، رغم وقوعه تحت سلطان فتنتها، كان مسيطراً على أعصابه التي هي من صميم عمله.

كان مدير الضمير يحلل الأمر كالآتي: «لقد أقسمت يمين الإخلاص

وأنت جاهلة الواجبات التي تتعهدين بها لرجل عقد من جانبه زواجاً دون أن يؤمن بأهميته الدينية ومن هنا، قد ارتكب هذا الرجل دنساً حقيقياً. إن هذا الزواج لم يحمل سرّ التبادل الذي وجب أن يحمله مع ذلك، فإن يمينك قد ربطتك برغم ذلك وأنت تحنثين الآن بها. فماذا أتيت تبعاً لذلك؟ هل هي خطيئة عرضية أم خطيئة مميتة؟ خطيئة عرضية لأنك بارتكابها لم تكوني مدفوعة بنيّة سيئة. فإذا تزوجت الآن مجدداً وأنت تهدفين إلى إنجاب الأطفال فإن خطيئتك يمكن أن تغتفر. وللمسألة رغم ذلك وجهان: الأول...».

فجأة، قالت هيلين، وقد أزعجتها هذه المحاضرات متسلحة بابتسامتها الساخرة: لكنني أعتقد أنني ما عدت مرتبطة بتعهدات فرضتها علي الديانة الخاطئة وأنا التي اعتنقت الدين الحقيقي.

أخذ مدير الضمير إذ رأى مسألة «بيضة كولومبوس» تعرض أمامه بكل هذا البساطة. ولقد فتنه التقدم السريع غير المتوقع من جانب تلميذته. لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتنكر لأسلوبه الحجاجي الذي بُني بمجهود كبير فقال وهو يبتسم: لنتفق يا كونتيسة.

وراح ينقض حجج ابنته بالروح.

الفصل السابع

تعرف هيلين جيداً أن المسألة غاية في البساطة والسهولة من الناحية الدينية وأن أدلاءها لا تهمهم مثل هذه العقبات إلا خوفاً من الاستقبال الذي ستحييه السلطة العلمانية لهذا الخبر.

وعلى ذلك، قررت أن تهيئ الرأي العام لتقبل طلاقها. أيقظت بادئ الأمر غيرة حاميها العجوز ثم خاطبته بمثل ما خاطبت به المدنف الآخر بالضبط ملمحة إلى أن الوسيلة الوحيدة التي تعطيه حق الإشراف عليها إنما هي زواجه بها. ولقد كان الكبير العجوز مشدوهاً لأول وهلة كما شُده من قبل الأمير الشاب إزاء عرض الزواج هذا تقدمه امرأة زوجها ما زال على قيد الحياة. لكن هيلين كانت تكرر بثقة ثابتة أن هذا الأمر على غاية السهولة طبيعي مثل زواج فتاة عزباء فانتهى به الأمر هو الآخر إلى الاقتناع. فلو أنها أظهرت بعض الخجل أو التردد لضاعت الصفقة بالنسبة إليها. لكن الأمر جرى على عكس ذلك إذ راحت ببساطة وبراءة ومزاج صاف تروي لأصدقائها المخلصين (وهم جميعهم من پيترسبورغ) أن الأمير والسيد الكبير عرضا عليها الزواج وأنها تحب كل واحد منهما فلا تريد أن تسبب إزعاجاً لأحدهما.

وراجت الإشاعة في پيترسبورغ كلها ليس لأن هيلين تريد الطلاق، لأن مثل هذه الإشاعة كانت قمينة باستفزاز أشخاص كثيرين ضد هذه المحاولة غير القانونية، بل إن هيلين التعيسة المغرية تتساءل في حيرة أي الاثنين تتزوج. فالمسألة إذن لم تعد قائمة على مدى إمكانية تحقيقها بل فقط على

أي الصفقتين أفضل وما هو رأي البلاط في الموضوع. صحيح أنه كان هنالك بعض الأشخاص المتأخرين العاجزين عن التسامي إلى مستوى هذه المشكلة، بقوا يرون في هذا المشروع تدنيساً لقدسية الزواج، لكن هؤلاء كانوا قلة وكانوا يلزمون الصمت. أما السواد الأعظم، فلم يكن ليهتم إلا بسعادة هيلين وبالخيار الذي سيقر رأيها عليه. أما معرفة ما إذا كان الزواج على حياة الزوج خير أم شر، فإن ما من أحد بحث فيه، إذ لا بد وأن يكون الأمر قد وُجد له مخرج سلفاً من قبل أشخاص «أكثر علماً واطلاعاً منك ومني»، فلم يكن الأمر إذن يستدعي الشك في شرعية هذا القرار إذ ما من أحد كان يرغب في أن يظهر في المجتمع اللامع بمظهر الأحمق أو سيئ الاطلاع.

باستثناء ماري دميترييڤنا أخروسيموڤ القادمة حديثاً إلى پيترسبورغ لزيارة أحد أبنائها، فإنها وحدها التي سمحت لنفسها بالتعبير عن رأيها بصراحة معاكسة للرأي العام. إذ بينما قابلت هيلين في حفلة راقصة، استوقفتها وسط القاعة أمام جميع الناس وقالت لها بصوتها الصارم وسط السكوت الذي ساد القاعة. «ها إنهم هنا عندك يتزوجن وأزواجهن على قيد الحياة. فهل تعتقدين أنك ابتكرت شيئاً جديداً؟ إنك متأخرة يا عزيزتي. لقد وجدوا هذا منذ وقت طويل. إنه هو ما يعملونه في كل الـ...» وكانت ماري دميترييڤنا تشمر عن أكمامها بحركة تهديدية مألوفة وهي تتابع حديثها. وبعد أن صعقت هيلين بنظرة محرقة، تابعت طريقها.

وكانت ماري دميترييڤنا رغم المهابة التي توحيها إلى الناس، تُعتبر في پيترسبورغ على جانب من الجنون. لذلك فإن السامعين لم يحفظوا من كلماتها إلا فظاظة الكلمة الأخيرة فكانوا يرددونها بينهم بصوت خافت واجدين أنه يلخص جوهر ما كانت تريد أن تقوله كله.

وكان الأمير ڤاسيلي الذي أصبح ينسى ما قاله منذ حين ويكرر الشيء نفسه مائة مرة وخصوصاً في الآونة الأخيرة، يقول لابنته كلما جاء لزيارتها:

ـ هيلين، لديّ كلمة أقولها لك.

وينتحي بها جانباً ثم يقول: لقد تناهت إليّ لمحات عن مشاريع معينة تتعلق بـ.. تعرفين. حسناً يا ابنتي العزيزة، إنك تعرفين أن قلبي كأب يفرح إذ يعلم أنك.. لقد تألمت كثيراً.. ولكن يا طفلتي العزيزة.. لا تستشيري إلا قلبك. هذا كل ما أقوله لك.

ثم يدلك وجنته بوجنة ابنته وهو يخفي حركة آمرة ويبتعد.

قال بيليبين الذي لم يفقد قط شهرته كناقد لبق والذي كان صديقاً مجرداً لهيلين، صديقاً كالأصدقاء الذين تتخذهم سيدات المجتمع الراقيات، صديقاً لا يقع أبداً في دور العاشق، قال بيليبين هذا ذات يوم لصديقته هيلين رأيه حول الموضوع كله في مؤتمر صغير.

ـ اصغ يا بيليبين. (وكانت هيلين دائماً تدعو الأصدقاء من طراز بيليبين بأسماء عائلاتهم)، ووضعت يدها البيضاء المثقلة بالخواتم على كمّ ثوبه وهي تتكلم، قل لي كما تقول لأختك ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ أي الاثنين؟

فجعد بيليبين بشرة جبهته فوق حاجبيه وراح يفكر والابتسامة على شفتيه. قال:

ـ إنك لو علمت لن تأخذيني على حين غرة. لقد فكرت كصديق حقيقي وأعدت التفكير في مسألتك. فأنت كما ترين لو تزوجت الأمير (وكان يعني الأمير الشاب) فقدت، وراح يعدد على أصابعه، إلى الأبد فرصة الزواج من الآخر ثم أثرت سخط البلاط لأنه كما تعلمين هناك رابطة نسب. لكنك إذا تزوجت الكونت العجوز، أسعدت أيامه الأخيرة ثم عندما تصبحين أرملة العظيم...، فإن الأمير لن يرتكب غلطة الارتباط مع أدنى منك إذا تزوجك.

وهنا أسبل بيليبين بشرة جبهته. فقالت هيلين مشرقة الوجه وهي تضع مجدداً يدها على كمّ بيليبين: ها هو ذا صديق حقيقي. لكن المسألة أنني أحب هذا وذاك ولا أريد إحزانهما. إنني أضحي بحياتي لسعادتهما كليهما.

هز بيليبين كتفيه معلناً بذلك عجزه عن مواساة هذا الألم.

فكر بيليبين: «امرأة خليلة! هذا ما يسمى طرح السؤال بشكل سافر. إنها تريد أن تتزوج الثلاثة معاً». سألها وهو يأمل أن تكون شهرة من الاستقرار بحيث تسمح له بطرح سؤال على مثل هذا السذاجة:

ـ ولكن قولي لي، كيف سينظر زوجك إلى الموضوع؟ هل سيوافق؟

صاحت هيلين وهي تظن كذلك، والله أعلم بالسبب، أن پيار يحبها أيضاً:

ـ آه! إنه يحبني كثيراً! إنه سيفعل كل شيء من أجلي.

عاد بيليبين يجعد جبهته الأمر الذي يعني أنه يعد كلمة مناسبة. قال:

ـ حتى الطلاق!

فانفجرت هيلين ضاحكة.

كانت الأميرة كوراغين والدة هيلين في عداد الذين سمحوا لأنفسهم بالشك في شرعية الزواج. لقد كانت تحسد ابنتها دائماً. والآن وقد باتت أسباب الغيرة منها تحس قلبها على مدى أقرب، فإنها لم تكن تستطيع احتمال هذه الفكرة. ذهبت تستشير كاهناً روسياً حول الحالات التي يمكن الطلاق فيها وما إذا كان يحق للمرأة أن تتزوج وزوجها على قيد الحياة. فقال لها الكاهن إن المسألة لا يمكن أن تجري وأشار، لشديد بهجتها، إلى نص الإنجيل الذي ينفي بحزم كل إمكانية للزواج في مثل هذه الشروط.

وذات صباح، بكرت بالذهاب عند ابنتها لكي تنفرد بها، وهي مسلحة بهذه الحجج التي اعتبرت أنها لا تقبل النقض.

طافت ابتسامة رقيقة ساخرة على شفتي هيلين إزاء اعتراضات أمها.

وكررت الأميرة العجوز: نعم، لقد جاء فيه بصراحة: من يتزوج امرأة مطلقة.

فقالت هيلين وهي تنتقل من الروسية إلى الفرنسية لأنه كان يخيل إليها دائماً أن في قضيتها بعض الغموض بالروسية: آه! يا أماه، لا تتفوهي بحماقات. إنك لا تفهمين شيئاً. إنّ عليّ واجبات وأنا في مركزي.

ـ ولكن يا عزيزتي.

ـ آه! أماه، كيف لا تعرفين أن الأب المقدس له الحق في منح استثناءات.

وفي تلك اللحظة، وصلت السيدة مرافقة هيلين تعلن أن سعادته في القاعة وهو يرغب في رؤيتها.

ـ كلا، قولي له إنني لا أريد رؤيته وإنني غاضبة عليه لأنه حنث بوعده معي.

فقال شاب أشقر، طويل الوجه، طويل الأنف، وهو يدخل:

ـ أيتها الكونتيسة، لكل خطيئة عفو.

وقفت الأميرة العجوز باحترام وانحنت انحناءة عميقة فلم يتنازل القادم الجديد بإقطاعها نظرة. أشارت الأميرة برأسها إلى ابنتها وتسللت نحو الباب.

قالت الأميرة العجوز في نفسها: «نعم، إنها على حق». وتبخرت كل الموانع أمام ظهور سموه. «إنها على حق. كيف جرى أننا خلال شبابنا الذي ولّى ولن يعود، لم نعرف كل هذه الأشياء؟ مع أنها كانت سهلة جداً». تلك كانت أفكارها وهي تستقل عربتها.

تركزت مشاكل هيلين، في بداية آب، فكتبت إلى زوجها الذي يحبها كثيراً على ما كانت تعتقد، رسالة أخطرته فيها بأنها اعتنقت الدين الحقيقي

الوحيد وأنها تفكر في الزواج بـ:ن. ن. وترجوه بالتالي أن يقوم بالإجراءات اللازمة للطلاق، وهي الإجراءات التي سيعينها له حامل الرسالة.

«وعلى هذا، فإنني أرجو الله يا صديقي أن يأخذك بحمايته المقدسة القوية. صديقتك: هيلين».

وحملت هذه الرسالة إلى منزل پيار في حين كان هذا الأخير في معسكر بورودينو.

الفصل الثامن

غادر پيار «بطارية» رايـيـڤسكي، للمرة الثانية، قرب نهاية المعركة، وفرّ مع جماعة من الجنود باتجاه كينازكوڤو عن طريق وادٍ فوصل إلى أحد المستشفيات. لكنه أمام مشهد الدم والصراخ والأنين، ابتعد عن المكان مسرعاً مختلطاً بالزحام.

وكان ما يرغب فيه الآن هو أن يخرج بأسرع ما يمكن من هذه المشاهد المرعبة التي ملأت نهاره وأن يعود إلى الحياة العادية فينام هادئاً في غرفته، في سريره. شعر بأنه لكي يرى بوضوح ما في أعماقه، لكي يفهم كل ما رأى ومر به منذ فترة، يجب قبل كل شيء، أن يستعيد ظروفه الحياتية المألوفة. لكن لم يعد لتلك الظروف وجود.

لم تعد القذائف والرصاص يصفران على الطريق الذي كان يسير فيه، مع ذلك، فإنه كان من كل الجهات أشبه بساحة المعركة. في كل مكان، تلك الوجوه المتألمة القلقة المطبوعة أحياناً بلا مبالاة غريبة، وفي كل المعركة الدم والجنود في معاطفهم وفرقعة تبادل الرصاص التي رغم الابتعاد عن مكانها قليلاً، لم تكن تفقد شيئاً من هولها. وفوق كل ذلك، كانت الحرارة والغبار خانقين.

وبعد أن اجتاز حوالى ثلاثة فراسخ على طريق موجاييسك العام، توقف پيار عند جانب الطريق.

بدأ الغسق ينسدل على الطريق واختفى دويّ المدافع. تمدد پيار وبقي ممدداً هكذا فترة طويلة متكئاً على مرفقيه يراقب بعينيه الأطياف التي تمر

بجانبه في الظلام. كان يخيل إليه باستمرار أن قذيفة متجهة نحوه ولها صفير، فينتفض وينتصب. لم يستطع أن يتذكر الوقت الذي أمضاه في ذلك المكان. وعند منتصف الليل، جاء ثلاثة من الجنود يجرون أغصاناً وراءهم فأوقدوا النار بالقرب منه.

أخذوا ينظرون إلى پيار من طرف أعينهم وهم منهمكون في إعداد موقدهم ثم كسروا قطع «البقسماط» في قصعاتهم وأضافوا إليها قليلاً من الدهن. ولم تلبث رائحة الطعام الطيبة أن امتزجت برائحة الدخان فنهض پيار وأطلق زفرة وكان الجنود الثلاثة يأكلون وهم يتحدثون فيما بينهم غير مكترثين له.

وفجأة سأل أحد الجنود پيار: وأنت، من أي فيلق أنت؟

وبالطبع لم يكن معنى السؤال إلا: «إذا شئت أطعمناك ولكن يجب أولاً أن تقول لنا ما إذا كنت شريفاً».

صاح پيار وهو يشعر بضرورة الحط من قيمته الاجتماعية كي يصبح أقرب إلى نفوسهم فيفهمونه أكثر:

ـ أنا؟ أنا؟... أنا، ضابط في فرق المتطوعين، لكن فرقتي لم تعد هنا. لقد جئت إلى المعركة فأضعت رجالي.

قال أحد الجنود: تأمل هذا!

وهز جندي آخر رأسه. فقال الأول: حسناً كل إذا كان الطعام يعجبك!.

ومد إلى پيار الملعقة الخشبية بعد لعقها.

جلس پيار أمام النار وبدأ يأكل الطعام في القصعة نفسها فلم يبد له طعام قط أشهى من هذا. وبينما هو منحن فوق القصعة يجمع الطعام ويلتهمه بملاعق مملوءة الملعقة تلو الأخرى، راح الجنود يتأملون وجهه الذي تضيئه النار صامتين سأل أحدهم مجدداً:

ـ حسناً، والآن من أي طريق يجب أن تذهب؟

ـ إنني ذاهب إلى موجاييسك.

ـ ألست سيداً؟

ـ بلى.

ـ وما هو اسمك؟

ـ پيوتر كيريلوڤيتش. إلى الأمام وسندلك على الطريق.

وتوجه الجنود وپيار نحو موجاييسك في ظلام حالك.

ولما بلغوا هضبة موجاييسك، كان الديك يصيح. فشرعوا يصعدون السفح المنحدر الذي يؤدي إلى المدينة. كان پيار يتبع الجنود وقد نسي تماماً أن نزله قائم عند سفح التل. ولقد تجاوزه وما كاد يذكر لشدة انشغاله لولا أن اصطدم عند منتصف السفح بخادمه المرافق الذي كان عائداً إلى النزل بعد أن ظل يبحث عنه في موجاييسك. تعرف الخادم في الظلام إلى پيار من قبعته البيضاء فقال:

ـ يا صاحب السعادة. لقد كنا في أقصى حالات اليأس. كيف أنت تمشي على قدميك. تعالى أرجوك!

فقال پيار: آه! نعم.

وتوقف الجنود. وسأل أحدهم:

ـ إذن، ها قد وجدت ذويك؟ الوداع إذن يا پيوتر كيريلوڤيتش على ما أظن؟

وقال الآخرون: الوداع يا پيوتركيريلوڤيتش.

فكر پيار وهو يستعد لاتباع خادمه حتى النزل:

ـ الوداع.

فكر وهو يمد يده إلى جيبه: «أن أعطيهم شيئاً!» لكن صوتاً داخلياً أجابه: «كلا، لا يجوز».

لم يعد هناك مكان في غرف النزل إذ شُغلت كلها. فذهب پيار إلى الفناء ونام في عربته وقد غطى رأسه بمعطفه.

الفصل التاسع

سمع پيار فجأة وبشكل واضح دويّ المدافع وهو لم يكد يضع رأسه على الوسادة وقد شعر بأنه ينام: بم، بم، بم والأنين والصيحات وانفجارات القنابل وشم رائحة الدم والبارود فاستبد به الذعر والخوف من الموت. ثم فتح عينيه في وسط ذلك الرعب، ورفع رأسه من تحت المعطف فإذا بكل شيء هادئ في الفناء. وأمام المنزل الخارجي كان أحد أتباعه في طريقه يثرثر مع البواب ويمشي في الوحول. وفوق رأسه، في ظل ألواح الرواق، راح الحمام يصفق بجناحيه وقد أخافته الحركة التي أتى بها وهو ينهض. كان الفناء كله يتضوع بتلك الرائحة القوية الهادئة التي تفوح من الخانات والتي كانت في تلك الأثناء تنعش پيار: رائحة العلف والدم والقار. ومن خلال الفجوة التي بين الرواقين، كانت السماء الصافية تطل بنجومها.

فكر پيار وهو يغطي رأسه من جديد: «شكراً لله، لقد انقضى كل هذا. آوه! يا له من خوف رهيب، ويا للعار إذ استسلمت له! في حين أنهم... هم، استمروا طوال الوقت وحتى النهاية صامدين هادئين...».

و«هم» في نظر پيار، هم الجنود، جنود «البطارية» الجنود الذين أطعموه أولئك الذين كانوا يصلون أمام الأيقونة. «هم»، هم أولئك الأشخاص غريبو الأطوار الذين ظلوا مجهولين منه حتى ذلك الحين، أولئك راحوا يظهرون في مخيلته بوضوح فيطغون على كل ما عداهم من الرجال.

أخذ پيار يفكر وهو يعاود النوم: «أن أكون جندياً، لا أكثر من جندي، أن

أدخل بكل جوارحي في هذه الحياة الشائعة المشتركة وأن تعتلج في نفسي تلك العواطف التي تجعلهم كما هم. ولكن كيف الخلاص من كل عبء الحياة الخارجية التافه الشيطاني؟ لقد مضى وقت كنت أستطيع خلاله أن أكون كذلك. كنت أستطيع الفرار من لدن أبي كما كنت مقرراً. كذلك كنت قادراً بعد مبارزتي مع دولوخوف أن أرسل إلى الفيلق كجندي». وراحت الصور في مخيلة پيار تتلاحق: ذلك العشاء في النادي أولاً حيث استفز دولوخوف، ثم المحسن إليه في تورغوك. تصور بعدئذ اجتماعاً جليلاً في المحفل. لقد عقد ذلك الاجتماع في النادي الإنجليزي. وكان بعضهم، أليف قريب عزيز يجلس إلى رأس الطاولة. آه! إنه هو! المحسن! وفكر پيار: «لكنه مات! نعم، لقد مات ولا أعرف أنه سيحيا من جديد. كم أسفت لموته، كم أنا مسرور أن يعود إلى الحياة!» كان أناتول ودولوخوف ونيسڤيتسكي ودينيسوف وآخرون جالسين على جانب من الطاولة، وكانت الزمرة التي ينتمي إليها هؤلاء الناس من الوضوح والدقة في نفس پيار بما يماثل الزمرة التي راح يدعوها «هم».

وكان هؤلاء الناس وأناتول ودولوخوف يصرخون ملء حناجرهم ويغنون، لكن صوت المحسن كان يطغى على أصواتهم. كان يتكلم دون ملل فكانت لهجة ذلك الصوت رغم ما فيها من مستحب، آمرة ومسترسلة أشبه بدويّ ساحة المعركة، لم يكن پيار يفهم ما يقوله المحسن لكنه كان يعرف مع ذلك.. لشدة ما تكون الأفكار من هذا النوع واضحة في الأحلام، أنه يتكلم عما هو خير وعن إمكانية الانقلاب إلى ما «هم» عليه. وكانوا «هم» يحيطون بالمحسن من كل الجهات بوجوههم الباسلة الطيبة. ولكن، رغم طيبتهم، فإنهم ما كانوا ينظرون إلى پيار وما كانوا يعرفونه، فأراد پيار أن يقول شيئاً وأن يجتذب انتباههم، فوقف. وفي تلك اللحظة، شعر بالبرد في ساقيه اللتين خرجتا من تحت الغطاء.

أحس بالخجل فأعاد بإحدى يديه معطفه الذي انزلق على ساقيه، وبينما كان پيار يسوي معطفه، فتح عينيه فطالعته الأروقة نفسها والأعمدة عينها والفناء نفسه ولكن تحت ضوء مائل إلى الزرقة، مزين بالندى البراق.

فكر پيار: «ها هو ذا الفجر. ولكن الأمر لا يتعلق بهذا. يجب أن أصغي حتى النهاية وأن أفهم أقوال المحسن». عاد يغيب نفسه تحت معطفه، لكن لم يعد هناك محفل ولا محسن، لم يبق له إلا الإصغاء إلى آراء أخذت توضحها كلمات ينطق بها بعضهم ويصوغها أولاً بأول.

وعندما تذكر فيما بعد تلك الآراء، التي لم تنجم إلا عما رآه خلال ذلك النهار بقي مقتنعاً أن شخصاً ما، خارجياً، قالها له. خيل إليه أنه لم يكن يستطيع في حالة اليقظة، أن ينعم بأفكار مماثلة وأن يعبر عنها بنفسه.

كان الصوت يقول: «إن أصعب ما في الوجود هو إخضاع الحرية الإنسانية للقانون السماوي. أن يكون المرء بسيطاً يعني أن يخضع لله ولا يمكن الإفلات منه. و«هم» بسطاء. «هم» لا يتكلمون ولكن يفعلون، إن الكلام من فضة ولكن الصمت من ذهب والرجل لا قيمة له طالما ظل يخاف الموت. وكل شيء ملك للذي لا يخافه. إن الإنسان لولا الألم، لا يستطيع معرفة حدوده ولا معرفة نفسه. إن أصعب ما في الوجود هو، كما ظلَّ پيار يسمع أو الأحرى يفكر، هو أن يوحد المرء في نفسه معاني الأشياء. وتساءل: كلها؟ كلا، إنه غير صحيح. يتعذر توحيد الأفكار وإذن، يجب ربطها، هذا ما ينبغي! نعم، يجب ربطها، ربطها!» وراح يردد هذه العبارة بحماسة داخلية وهو يشعر بأن هذه الكلمات، وهذه الكلمات فقط، تعبر عما يريد أن يقول وتحل كل المسألة التي تعذبه.

ـ نعم، يجب ربطها. لقد آن الأوان أن تربط.

فردد الصوت: يجب قطر الخيول، لقد آن وقت قطرها يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة، يجب قطر الخيول، لقد حان الوقت.

وكان ذلك هو صوت خادمه المرافق الذي جاء يوقظه وكانت الشمس تغمر وجه پيار بضيائها. نظر إلى فناء الخان القذر الذي كان في وسطه بئر راح بعض الجنود يوردون منها خيولاً نحيلة بينما راحت عربات تجتاز الباب الخارجي. أشاح پيار بوجهه متقززاً وأغمض عينيه ثم حشر نفسه بشدة في مقعد عربته. «كلا، لا أريد رؤية هذا، لا أريد رؤيته ولا فهمه، أريد فقط أن أعرف ما كُشف عنه الغطاء لي خلال نومي. لو تأخرت ثانية أخرى لاستوعبت كل شيء وماذا يجب لي؟ أن أربط، نعم، ولكن كيف أربط كل شيء؟» وشعر برعب أن المعنى العميق لما رآه وفكر فيه في الحلم قد انهار.

روى الخادم والحوذي والبواب لـپيار أن ضابطاً حمل نبأ تقدم الفرنسيين نحو موجاييسك وتراجع رجالنا.

وقف پيار وأمر بأن تقطر الخيول وأن يلحقوا به ثم ذهب مشياً على قدميه عبر المدينة.

كانت القطعات قد انطلقت مخلفة وراءها قرابة عشرة آلاف جريح، وكان هؤلاء يُرون في الأفنية ووراء نوافذ المنازل وجماعات متراصة في الشوارع، وحول العربات التي كان عليها أن تحملهم، كانت الصرخات والشتائم ترتفع وكانوا يتبادلون اللكم. ولقد قدم پيار عربته التي لحقت به إلى جنرال جريح كان يعرفه فحمله إلى موسكو. وخلال الطريق، أطلع پيار على نبأ موت شقيق زوجه والأمير أندريه.

الفصل العاشر

في الثلاثين من الشهر، وصل پيار إلى موسكو، ولدى بلوغه المدخل، جاء مساعد عسكري للكونت روستوبتشين يلقاه. قال المساعد العسكري:

ـ إننا نبحث عنك في كل مكان. إن الكونت يرغب بإلحاح في رؤيتك. فهو يستدعيك لأمر غاية في العجلة.

وبدلاً من أن يذهب إلى منزله، استقل پيار عربة عامة وذهب لمقابلة الحاكم.

كان روستوبتشين قد عاد ذلك الصباح بالذات من دارته في سوكولنيكي القائمة في الضاحية، وكانت ردهته وغرفة استقباله تغصان بالموظفين الذين استدعاهم أو الذين جاؤوا وحدهم للتزود بالأوامر. ولقد استطاع فاسيلتشيكوف وپلاتوف أن يقابلاه من قبل وأن يشرحا له استحالة الدفاع عن موسكو التي يجب تسليمها. وكان هذا النبأ الذي استمروا، حتى ذلك الحين، يخفونه عن السكان، معروفاً من الموظفين ومن رؤساء مختلف الإدارات. كانوا يعرفون كما يعرف روستوبتشين نفسه أن موسكو ستقع بين أيدي العدو، فجاؤوا كلهم، رغبة منهم في التخلص من المسؤولية، يسألون الحاكم عما يفعلونه بالخدمات الموكولة إليهم.

وفي الوقت الذي دخل پيار غرفة الاستقبال، كان ساع موفد من قبل الجيش يخرج من مكتب الكونت.

ولقد أجاب بحركة ملؤها اليأس عن الأسئلة التي راحوا يلقونها عليه عبر القاعة.

أخذ پيار يسرّح عينيه المتعبتين في مختلف الموظفين بين كهول وشبان، عسكريين ومدنيين، الموجودين هناك وهو ينتظر دوره. لقد كانت تقاطيعهم جميعاً تنطق بالاستياء والقلق فانضم پيار إلى زمرة رأى في عدادها بعض معارفه. وبعد أن حيوه، عاد الحديث إلى سياقه:

ـ إن تسريحه ثم استدعاءه فيما بعد لن يكون ذا شأن سيئ طالما أنه لا يمكن التكهن بشيء حول الوضع الذي نحن فيه.

فقال آخر وهو يعرض ورقة مطبوعة أمسك بها في يده: نعم، لكن ها هو ذا، إنه يكتب...

فاستأنف الأول: إن هذا مختلف. إنه واجب من أجل الشعب.

سأل پيار: ما الخبر؟

ـ هذا. إنه آخر منشور له.

أخذ پيار المنشور فقرأ فيه ما يلي:

«إن الأمير «عظيم الرفعة»، بغية الالتحاق بالقطعات التي تمضي للقائه بأسرع ما يمكن، قد اجتاز موجاييسك وتمركز في موقع حصين لا يستطيع العدو أن يدهمه فيه. ولقد أُرسل إليه من هنا ثمانية وأربعون مدفعاً مع ذخائرها، إن «عظيم الرفعة» يؤكد أن موسكو سيُدافع عنها حتى آخر قطرة من الدم وأنه على استعداد للقتال حتى في الشوارع أيها الإخوان، لا تقلقوا إذا كانت الخدمات العامة قد توقفت: كان لا بد من وضعها في مكان أمين. أما نحن، فسوف نسوي حساب، ذلك اللص! عندما يحين الوقت، أكون بحاجة إلى فتيان أشداء مدنيين وقرويين. سوف أطلق صرخة النداء في غضون يوم أو اثنين. أما الآن، فإنني أصمت لأنه لا لزوم لذلك. سيكون مناسباً أن يمتلك

المرء فأساً ولا بأس من أن يكون لديه حربة بل أفضل أن يكون مسلحاً بمنجل، فالفرنسي ليس أثقل وزناً من حزمة من الخرطال. غداً بعد الغداء، سأنظم موكباً دينياً يحمل أيقونة إيبيريا للجرحى في مستشفى كاترين. وهناك سنبارك الماء فيشفون بسرعة أكثر. إنني أنا الآخر قد شفيت الآن: لقد أصبت بألم في عيني والآن أصبحت أرى بعينيّ الاثنتين».

صاح پيار:

ـ لكن العسكريين قالوا لي إنه لا ينبغي التفكير في القتال في المدينة وإن الموقع..

فقال الموظف الأول: نعم، وهذا ما كنا بصدد التحدث عنه.

سأل بيار: وما معنى: «أصبت بألم في عيني والآن أصبحت أرى بعينيَّ الاثنتين»؟ شرح المساعد العسكري والابتسامة على شفتيه:

ـ لقد أصيب الكونت «بشحاذ العين». لقد تعذب كثيراً عندما قلت له إن الشعب جاء يسأل عن أخباره.

وأضاف دون أن يكف عن الابتسام وهو يخاطب پيار:

ـ وعلى فكرة، كونت؟ لقد سمعنا أنك متعرض لمتاعب زوجية وأن الكونتيسة زوجتك.

قال پيار بلا مبالاة:

ـ ليست لدي أنباء عن ذلك. ماذا يقولون؟

ـ آه! إنك تعلم أن هذه الأمور تكون غالباً من بنات الأفكار. أنا لم أسمع!

ـ وماذا يقولون؟

استأنف المساعد العسكري يقول بالابتسامة نفسها: يقولون إن الكونتيسة زوجتك ستسافر إلى الخارج. لا شك إنه أمر مستحيل.

فقال پيار وهو يجيل حوله نظرة ساهمة: إنه ممكن الوقوع.

ثم سأل وهو يشير إلى عجوز قصير القامة، أبيض شعر اللحية والحاجبين كالثلج، قرمزي الوجه، يرتدي «قفطاناً» أزرق شديد النظافة: وهذا، من هو؟

ـ هذا؟ إنه تاجر أو على الأصح خمّار اسمه فيريشتشاغين. لا بد وأنك سمعت بقصة النداء؟

صاح پيار وهو يتأمل وجه العجوز التاجر الهادئ الحازم دون أن يجد فيه تعبيراً عن الخيانة:

ـ آه! إنه فيريشتشاغين!

قال المساعد العسكري شارحاً:

ـ إنه ليس هو. إنه والد الرجل الذي كتب النداء. أما الشاب ذاك، فقد أودعوه أسفل زنزانة عميقة وأعتقد أنه يستحق ذلك.

اقترب عجوز صغير على صدره وسام وموظف ألماني آخر يتدلى وسامه حول عنقه، من المتكلمين. بينما استرسل المساعد:

ـ كما ترى، إن قصة ذلك النداء حافل بالغموض، ترجع إلى شهرين أو ثلاثة أشهر، ولقد أنهوها إلى الكونت فأمر بفتح تحقيق، وشرح كافريل إيـڤانيتش في أبحاثه فوجد أن ذلك النداء قد مر بثلاث وستين يداً، جيء بأحد المدنيين وسئل: ممن أتيت به؟ من فلان وفلان، فيذهبون إلى الآخر: وأنت، ممن؟ وهكذا.. بذلك وصلوا إلى فيريشتشاغين.. تاجر صغير غير ماكر، كما تعلم، وأضاف المساعد العسكري ضاحكاً، شخص صغير عادي، سألوه: «من أين جئت بهذا؟» هذا مع أننا كنا نعرف الذي أعطى النداء إليه إذ لم يكن ممكناً أن يحصل عليه إلا من مدير البريد، وكان واضحاً أنهما كانا متواطئين فأجاب: «ليس من أحد، إنني أنا الذي كتبته». هددوه وضغطوا عليه، لكنه استمرّ يؤيد كلامه، ولقد قدم التقرير إلى الكونت فاستقدم الشخص، «من أين جئت بهذا النداء؟ أنا الذي كتبته».

وأردف المساعد العسكري بابتسامة الفخور العابث: وأنت تعرف الكونت! لقد أرغى وأزبد، تصور؛ سفاهة لهذه الدرجة وعناد إلى هذا الحد في الكذب!

قال پيار:

ـ أجل، إنني أفهم، لقد كان الكونت يريده على أن يشي بكيليوتشاريـف. رد المساعد العسكري مذعوراً:

ـ أبداً، ليس بالضرورة، لقد كان كيليوتشاريـف يحمل وزر بعض الأخطاء الصغيرة، فنفي من أجلها، لكن ما كان مؤكداً هو أن الكونت كان خارجاً عن طوره. سأله: «كيف استطعت أن تدبج هذا؟» وأخذ من على الطاولة جريدة هامبورغ: «ها هو ذا! إنك لم تدبجه بل ترجمته، وترجمة رديئة لأنك لا تعرف الفرنسية أيها الغبي!» ثم ماذا تظن؟ لقد أجاب ذاك: «كلا، إنني لم أقرأ أية صحيفة. لقد أنشيته بنفسي، إذن، طالما الأمر كذلك فأنت خائن، وسأقدمك للمحاكمة، سوف تشنق، اعترف ممن أخذته، إنني لم أقرأ أية صحيفة بل أنشيته بنفسي، وأصر على هذا الكلام، استدعى الكونت أباه كذلك ولكن دون جدوى! إنه يأبى الاعتراف. ولقد حاكموه وحكموا عليه بالأشغال الشاقة على ما أظن، جاء الأب يلتمس الرحمة لابنه، لكنه مواطن رديء، أنت تعلم، إنه واحد من أبناء التجار هؤلاء، حقير المنزلة، مغازل القرويات. لقد درس في مكان ما. وعلى ذلك فإن الملك ليس ابن عمه، نعم إنه فتى غريب، إن أباه يدير دكان شواء عند جسر بطرس. وتصور، أن لديه أيقونة كبيرة للإله الأب ممسكاً بإحدى يديه الصولجان وبالأخرى الكرة الأرضية. لقد حملها إلى منزله لبضعة أيام ثم ماذا فعل! لقد وجد رساماً سافلاً..

الفصل الحادي عشر

في اللحظة التي دخل پيار إلى مكتب الحاكم، في غمار هذا الحديث الجديد، كان الكونت روستوبتشين مقطب الحاجبين يمر بيده على عينيه وجبهته، وكان رجلاً مربوع القامة، مسترسلاً في التحدث إليه فسكت وخرج، قال روستوبتشين حينما ذهب رجله: آه! مرحباً أيها المحارب الشهير، لقد سمعناهم يتحدثون عن إقدامك وشجاعتك! لكن الأمر لا علاقة له بهذا.

استرسل يقول بلهجة حازمة وكأن الانتساب إلى الماسونية جريمة لكنه يريد أن يكون رحيماً.

ـ يا عزيزي، الكلام بيننا إنك ماسوني.

فسكت پيار بينما تابع الكونت:

ـ إنني يا عزيزي على يقين من صحة معلوماتي، مع ذلك فإني آمل أن يكون هناك ماسوني وماسوني وإنك لست من أولئك الذين يريدون ضياع روسيا بحجة إنقاذ الجنس البشري.

أجاب پيار: نعم، إنني ماسوني.

ـ حسناً، تأمل يا عزيزي، إنك لا تجهل أن السيدين سـپيرانسكي ومانييتسكي أُرسلا إلى مكان آمن وأن السيد كليوتشاريـف وآخرين من الذين يزعمون إعادة بناء هيكل سليمان وهم يجهدون في تهديم هيكل الوطن قد نالوا مثل هذا المصير. ولا بد وأنك تعلم أننا كنا مدفوعين ببعض الأسباب

المبررة لانتهاج هذا السبيل وإنني ما كنت لأنفي مدير بريد موسكو لو لم يكن رجلاً خطيراً. ولقد عرفت أنك أرسلت له عربتك الجاهزة ليغادر المدينة فيها بل إنه عهد إليك ببعض الأوراق، إنك عزيز علي ولا أرغب في أن يصيبك أي أذى، فإنني أوصيك كأب أن تقطع علاقاتك مع أشخاص من هذا النوع وأن تذهب أنت نفسك من هنا بأسرع ما يمكن.

سأل پيار ولكن يا كونت، ما هو ذنب كليوتشاريـڤ؟

صرخ روستوبتشين: علي أنا أن أعرف وليس عليك أن تسألني.

قال پيار دون أن ينظر إلى روستوبتشين:

ـ إنهم يتهمونه بتوزيع منشورات ناپليون، لكن هذا لم يثبت بالدليل أما فيريشتشاغين...

فقاطعه روستوبتشين، مقطباً حاجبيه، وهو يتجاوز في الصراخ ويقول:

ـ ها نحن أولاء.. إن فيريشتشاغين رجل باع ضميره، خائن سيلقى جزاءه. كان الحاكم يصرخ بلهجة يستخدمها الأشخاص الذين يتذكرون إهانة شخصية:

ـ لكنني لم أستدعك لتناقش تصرفاتي. لقد استدعيتك لأعطيك نصيحة أو أمراً إذا شئت تحري الصراحة، إنني أرجوك أن تتوقف عن أي اتصال مع أشخاص من طراز كليوتشاريـڤ وأن ترحل من هنا؟ سوف أجعلهم جميعاً يعزفون عن جنونهم مهما بلغ عددهم.

وبدون شك، شعر بتجاوزه الحد وهو يهدد بيزوخوف بهذا الشكل رغم أن هذا لم يرتكب أية مخالفة، فصاح وهو يمسك بذراعه بحركة ودية:

ـ إننا على وشك الوقوع في دمار عام وليس لدي من الوقت ما يمكنني من التحدث بعبارات لطيفة مع كل من لهم شأن معي، إن المرء أحياناً يصاب بدوار! حسناً يا عزيزي، ماذا تفعل أنت شخصياً؟

أجاب پيار دون أن يرفع عينيه أو أن يبدل أمارات وجهه الساهمة:

ـ لا شيء أبداً.

ثم قطب الكونت حاجبيه: نصيحة صديق يا عزيزي، إرحل بأسرع ما يمكن، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك، والخلاص للمصغي إلى النصح! وداعاً يا عزيزي.

وبينما هو يجتاز عتبة الباب صاح يستوقفه:

ـ آه! على فكرة، هل حقيقة أن الكونتيسة وقعت بين براثن الآباء المقدسين أتباع يسوع؟

لم يجب پيار وخرج من لدن روستوبتشين مقطب الحاجبين في حالة من الهياج لم ير قبل على مثلها قط.

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل إلى مسكنه. ولقد جاء إليه سبعة أو ثمانية أشخاص مختلفين خلال تلك الأمسية: أمين سر اللجنة، زعيم لوائه، مسجله، رئيس خدمه وبعض ذوي المصالح. ولكل منهم أعمال يريد تصفيتها. لم يكن پيار يفهم شيئاً من هذه الأمور ولم يكن ليهتم بها فكان يجيب عن الأسئلة بغية التخلص من هؤلاء الأشخاص فحسب. وأخيراً، عندما خلا لنفسه، فضّ غلاف رسالة زوجته وقرأها.

ـ «هم»، يعني جنود البطارية، الأمير أندريه الذي قتل.. العجوز.. البساطة هي الخضوع لله. ضرورة الألم.. معنى الأشياء.. الارتباط.. زوجتي تتزوج من جديد.. يجب النسيان والفهم..

واستلقى على سريره دون أن يخلع ثيابه فلم يلبث أن غفا.

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي، أخبره رئيس الخدم أن الكونت روستوبتشين أرسل شرطياً يستعلم عما إذا كان الكونت بيزوخوف قد ذهب أم هو يتأهب للرحيل.

وكان في القاعة حوالى عشرة أشخاص ينتظرونه لحاجات لهم فأصلح بيار زينته بسرعة ولكن بدلاً من أن يدخل على المنتظرين، لجأ إلى سلم الخدم وخرج من باب الفناء.

ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية خراب موسكو، لم ير أحد من أشخاص بيته الكونت بيزوخوف، وعلى الرغم من كل التفتيش عنه، لم يعرف أحدٌ ماذا حل به.

الفصل الثاني عشر

حتى الأول من شهر أيلول أي مساء اليوم الذي دخل العدو فيه المدينة، كان آل روستوف في موسكو.

بعد التحاق پيتيا في فيلق قوقازي أوپولنسكي وذهابه إلى بيبلاييا تسيركوف حيث يتشكل ذلك الفيلق، استولى الخوف على الكونتيسة.

أخذت فكرة وجود ولديها في الحرب بعيدين عن جناحها وأن اليوم أو غداً سيقتل أحدهما أو كلاهما كما قتل الأبناء الثلاثة لصديقتها، أخذت هذه الفكرة تغزو رأسها لأول مرة طوال الصيف بوضوح ممقوت فاجتهدت في أن تعيد نيكولا إلى قربها وأرادت أن تلحق بـپيتيا وأن تعينه في مكان ما في پيترسبورغ. لكن كل هذا بدا لها مستحيلاً. فـپيتيا لا يمكن أن يعود إلا مع فيلقه أو ينتقل إلى فيلق آخر.

ونيكولا، كان في مكان غير معروف تماماً وقد انقطعت أخباره بعد رسالته الأخيرة التي روى فيها قصة لقائه الأميرة ماري. ولم تعد الكونتيسة تذوق طعم النوم فإذا ما أغفت ليلاً، رأت ولديها في حلمها قتيلين. وبعد استشارات ومشاورات عديدة تصوّر الكونت أخيراً أنه وجد الوسيلة لتهدئتها. نقل پيتيا من فيلق أوپولنسكي إلى فيلق بيزوخوف الذي كان يشكل قرب موسكو وبذلك، كان يمكن للكونتيسة، رغم بقاء پيتيا في الخدمة العسكرية، أن تجد العزاء بوجود واحد من ولديها قريباً منها تحت جناحها، أملاً ألّا يبتعد عنها بعد ذلك وأن يستطيع إقراره في بعض المهام التي لا يتعرض فيها

للاشتراك في الحرب. كان يبدو للكونتيسة، كما كانت تعترف بنفسها.. أن ابنها البكر مفضل على أولادها الآخرين طالما هو غائب ومعرض للخطر. ولكن عندما ذهب ابنها الأصغر، ذلك الطفل الذي كان يرفض أن يتعلم شيئاً ويحطم كل شيء في المنزل ويزعج كل إنسان فيه، عندما ذهب پيتيا هذا ذو الأنف الأفطس والعينين السوداوين الماكرتين والوجه المتورد الذي لم ينبت على وجنتيه إلا ما يشبه الزغب، عندما ذهب إلى هناك بين الفتيان الكبار الرهيبين الذين يقتتلون ويجدون متعة في ذلك، حينئذ خيّل إلى الأم أنها كانت تحب هذا الفتى أكثر بكثير، وبما لا يقاس، من أولادها الآخرين.

وكلما اقتربت اللحظة التي كان پيتيا، هذا المنتظر بفارغ صبر، سيعود فيها إلى موسكو، ازداد قلق الكونتيسة. كانت تفكر أنها لن تعرف السعادة بعد ذلك. ولم يكن حضور سونيا وحده هو الذي يغضبها، بل كذلك معبودتها ناتاشا وزوجها نفسه. كانت تفكر: «ما حاجتي إليهم؟ لست في حاجة إليهم. إنّ پيتيا هو الذي أريده».

تلقى آل روستوف، في الأيام الأخيرة من شهر آب، رسالة ثانية من نيكولا. كان يكتب من حكومة ڤورونيغ حيث أرسلوه لتدارك خيل للفرسان، فلم تهدئ رسالته الكونتيسة. ذلك أنها حينما عرفت أن واحداً من ولديها خارج منطقة الخطر، بدأ عذابها يتضاعف من أجل پيتيا.

وعلى الرغم من أن كل معارف آل روستوف تقريباً غادروا موسكو منذ العشرين من آب، بعضهم إثر بعض، وأن كل الناس نصحوا للكونتيسة، بأن ترحل بأسرع وقت، فإنها لم تشأ أن يرد ذكر الرحيل في حضرتها قبل أن يعود كنزها، پيتياها الحبيب. وأخيراً، عاد في الثامن والعشرين فلم يرق هذا الضابط ذا الأعوام الستة عشر ذلك الحنان المدنف المرضي الذي استقبلته به أمه. ولقد عملت جاهدة على أن تخفي عنه خطتها الهادفة إلى عدم السماح له

بعد ذلك بالإفلات من العش، لكن بيتيا أدرك نيتها السرية فراح يعاملها ببرود خشية أن يلين أو أن يتخنث بين طيات ثوب أمه، كما كان يفكر بينه وبين نفسه، وبقي كذلك طوال بقائه في موسكو ساعياً جهده تجنّب اللقاء بها والبقاء مع ناتاشا التي كان يشعر نحوها دائماً بحب أخوي خاص يكاد يكون عشقاً.

وبسبب لا مبالاة الكونت، فإن ما من شيء كان معداً للرحيل يوم الثامن والعشرين ولم تصل العربات التي كان ينتظرها من إقطاعية ريازان ومن ضاحية موسكو إلا في الثلاثين.

عرفت موسكو بين الثامن والعشرين والواحد والثلاثين من آب اضطراباً محموماً. ومن يوم إلى آخر، عن طريق مدخل دوروغوميلوف الكائن غربي المدينة، كانوا يأتون بالألوف من جرحى بورودينو ويجلونهم بينما كانت آلاف العربات المحملة بالناس والأمتعة تخرج من المدينة عن طريق الأبواب الأخرى. وعلى الرغم من منشورات روستوبتشين بل لعلها هي السبب، كانت الإشاعات الأكثر غرابة وتناقضاً تروج. فالبعض كان يزعم أن الرحيل أصبح ممنوعاً والبعض الآخر على العكس، يؤكد أنهم رفعوا الأيقونات من الكنائس وأنهم يطردون الناس كلهم بالقوة. وفلان يزعم أنهم اشتبكوا مع الفرنسيين في معركة أخرى في بورودينو فهزم هؤلاء، وآخر يزعم أن الجيش الروسي كله قد أبيد.

هذا يؤكد أن المتطوعين الموسكوفيين سيذهبون إلى «الجبال الثلاثة» وعلى رأسهم رجال الدين، وذاك يهمس في أذنك أن الحبر «متروپوليت» أوغوستين لم تعد له حرية الحركة وأنهم أوقفوا بعض الجواسيس وأن القرويين الثائرين يسلبون القوافل على الطرق، إلخ. إلخ.. لكن هذه كلها لم تكن إلا ثرثرات. أما الحقيقة، فكانت أن الذين يذهبون كالذين يبقون، رغم أن المجلس العسكري الذي عُقد وتقرر فيه إخلاء موسكو لم يكن قد عقد

بعد، كانوا يشعرون بأن موسكو مسلّمة للعدو وأنه ينبغي الرحيل بأسرع ما يمكن وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات. وكانوا كلهم يشعرون مسبقاً بأن كل شيء سينهار فجأة ويتغيّر. مع ذلك، فإن ما من شيء تبدل في اليوم الأول من أيلول. وظلت موسكو التي لا تجهل شيئاً عن مصيرها الوشيك وعن الانقلاب في الشروط الحياتية الذي سيعقب ذلك، مستمرة رغم كل شيء في حياتها الطبيعية، أشبه بالمحكوم الذي يساق إلى الإعدام والذي يعرف أن كل شيء سينتهي بالنسبة إليه بعد لحظات، لكنه مع ذلك، يبقى يتلفت حوله بل يسوي قلنسوته التي مالت قليلاً.

تخبطت أسرة آل روستوف خلال الأيام الثلاثة التي سبقت سقوط المدينة، في بلبال مبعثه مشاكل الخدم. فرب الأسرة، الكونت إيليا أندرييـڤيتش، لم يكن يكف عن التنقل هنا وهناك سعياً وراء الأخبار بينما كان يتخذ في البيت استعدادات غامضة غير كاملة وارتجالية تتعلق بالرحيل.

والكونتيسة تراقب حزم الأمتعة وهي دائمة التذمر، لا تني تبحث عن پيتيا الذي كان يعمل ما يستطيع لتجنبها وتغار من ناتاشا التي كان يمضي كل وقته بقربها. أما الناحية العلمية، فكانت سونيا وحدها تهتم بها وتهيئ الرزم. لكن سونيا أصبحت منذ بعض الوقت حزينة صامتة. ولقد استفزت رسالة نيكولا التي تحدث فيها عن الأميرة ماري، ملاحظات بهيجة نطقت بها الكونتيسة في حضورها، إذ كانت ترى إصبع الله وراء لقاء الأميرة ونيكولا ابنها. كانت تقول:

ـ لم أبتهج قط عندما تقدم پولكونسكي لخطبة ناتاشا. لكنني رغبت دائماً في أن يتزوج نيكولاي الصغير بالأميرة وعندي شعور مسبق بأن هذا الزواج سوف يتمّ. آه كم سيكون رائعاً!

وكانت سونيا تشعر أن هذه هي الحقيقة وأن الوسيلة الوحيدة التي يستطيع

آل روستوف أن يخرجوا بها من أعماق اللجة التي سقطوا فيها هي زواج ابنهم بتلك الوارثة. لكن ذلك كان مؤلماً على نفسها. وعلى الرغم من حزنها بل لعله بسبب حزنها، تعهدت بكل مشاكل الرحيل وحزم الأمتعة حتى أنه لم يعد لديها دقيقة تفكر فيها. وكان الكونت والكونتيسة يعتمدان عليها لإصدار الأوامر اللازمة. أما پيتيا وناتاشا فعلى العكس. لم يغفلا مساعدة ذويهما فحسب، بل كانا كذلك يزعجان ويربكان كل الموجودين في أغلب الأحيان. فالمنزل كله كان طوال النهار يردد صدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما التي ليس لها ما يبررها. كانا يضحكان ويتسليان لا لسبب خاص، بل لأن روحهما مبتهجة ولأن كل ما كان يحدث، كان بالنسبة إليهما سبباً للضحك والانشراح. لقد كان پيتيا مرحاً لأنه أصبح رجلاً بل عملاقاً قوياً (حسب قول كل الناس) وهو الذي غادر المنزل فتى. وكان سعيداً بالعودة إلى منزله، سعيداً بالتفكير في أنه بدلاً من بقائه في بييلابيا تسيركوف حيث لم يكن له أمل في خوض غمار القتال، سيكون في موسكو حيث المعركة وشيكة الاندفاع. وكان سعيداً أكثر من كل شيء، لأن ناتاشا، التي كان يتبنى كل حالاتها النفسية، على مزاج مرح.

أما ناتاشا، فكانت مبتهجة الآن لأنها بقيت حزينة زمناً طويلاً وأن ما من أحد أصبح يذكرها بموجبات حزنها ولأنها استعادت عافيتها. وكانت منشرحة الصدر كذلك لأنه كان لديها رجل يعجب بها وإعجاب الآخرين بها كان بمثابة الزيت الذي لا غنى عنه لحركة آلتها، وهذا المعجب هو پيتيا. كانا مبتهجين، بصورة خاصة، لأن الحرب أصبحت على أبواب موسكو ولأنهم سوف يقتتلون عند أبوابها وسيوزعون الأسلحة ولأن الناس كلهم يهرعون ويهربون إلى جهة ما وأخيراً لأن شيئاً ما خارقاً قد وقع، وهو الأمر الذي يفتن دائماً وخصوصاً من هم في عمر الشباب.

الفصل الثالث عشر

يوم السبت في الواحد والثلاثين من شهر آب، بدا كل شيء مقلوباً رأساً على عقب في منزل آل روستوف. كل الأبواب مفتوحة على مصاريعها. وفي الغرف تكدست الصناديق وتناثر القش وورق الحزم وقطع الحبال في كل مكان. وراح القرويون وعبيد الأسرة يروحون ويغدون بخطوات ثقيلة حاملين الأمتعة، وفي الفناء، تزاحمت العربات بعضها محمل ومربوط بالحبال والبعض الآخر ينتظر حمولته.

كانت الخطوات والأصوات ترتفع في كل مكان فالخدم الكثيرون لدى آل روستوف والقرويون الذين جاؤوا مع العربات كانوا يتبادلون النداءات التي أخذت تدوي في الفناء وفي المنزل. وكانت الكونتيسة التي أصيبت بالصداع بسبب الضجة والحركة الدائبة، ممددة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمادات الخل، أما پيتيا فكان غائباً إذ ذهب يزور رفيقاً بغية السعي معه إلى الانتقال من فرق المتطوعين إلى الجيش النظامي. وكانت سونيا في القاعة الكبيرة تشرف على حزم النجف والخزف، وناتاشا جالسة عى الأرض في غرفتها المقلوبة بين الأثواب والشالات المبعثرة تمسك بين يديها ثوباً قديماً من ثياب الرقص بطل زيه، ذلك الذي ارتدته في أول حفلة لها في پيترسبورغ، وتتأمل الأرض ساهمة مفكرة.

كانت تشعر بالخجل إذ تبقى عاطلة دون عمل في المنزل في حين أن كل من فيه مشغول، فراحت تحاول مرات عديدة منذ الصباح أن تجد لنفسها ما

يشغلها لكنها لم تكن ترغب في العمل، لا تعرف ولا تقدر على البدء بشيء دون أن تستغرق فيه بكل روحها وكل قواها. أرادت أن تحل محل سونيا في حزم الخزف لكنها لم تلبث أن تركت هذا العمل لتعود إلى غرفتها وتسوي متاعها الشخصي. لقد تسلت بادئ الأمر بتوزيع أثوابها وأشرطتها على وصيفاتها. ولما بات عليها أن تعود إلى حزم ما تبقى لديها، بدا لها الأمر مزعجاً.

ـ دونياشا يا عزيزتي. سوف تقومين بالرزم؟ نعم؟ نعم، أليس كذلك؟

ولما وعدتها دونياشا بأن تعمل كل شيء، جلست ناتاشا على الأرض وأمسكت بثوبها القديم الخاص بالرقص واستغرقت في ذكرياتها التي لم يكن لها أي دخل على أصوات حديث الخادمات في غرفتهن المجاورة وصوت خطوات سريعة ذاهبة من تلك الغرفة نحو سلم الخدم. نهضت ناتاشا ومضت تطل من النافذة فرأت قافلة كبيرة من الجرحى متوقفة في الشارع.

وكان الخدم والوصيفات والقيّم ومربية الأطفال العجوز والطهاة والسائقون والسيّاس والمرافقون على الباب يتأملون الجرحى.

ألقت ناتاشا منديلاً أبيض على شعرها ونزلت إلى الشارع وهي تمسك المنديل من طرفيه بيدها.

خرجت المدبرة السابقة، مافرا كوزمينيتشنا من بين الجمع المحتشد أمام الباب واقتربت من إحدى العربات المغطاة بطوق فوقه سماط من الجلد، دخلت في حديث مع ضابط شاب، شاحب الوجه، كان ممدداً في داخلها. وتقدمت ناتاشا بضع خطوات دون أن تترك طرفي المنديل وتوقفت مروعة تصغي إلى ما تقوله المدبرة.

سألت مافرا كوزمينيتشنا:

ـ كيف هذا بالله، أليس لك أحد في موسكو؟ إنك ستكون أكثر هدوءاً في مسكن.هنا مثلاً. عندنا. إن السادة راحلون.

فقال الضابط بصوت ضعيف:

ـ لست أدري إذا كان مسموحاً به. ها هو ذا الرئيس.. سليه.

وأشار إلى طبيب ضخم كان ينزل الشارع على طول خط العربات.

ألقت ناتاشا نظرة مذعورة على الجريح وأسرعت للقاء الطبيب. سألته:

ـ هل نستطيع إيواء الجرحى عندنا؟

ابتسم الطبيب ورفع يده إلى حافة عمرته وقال وهو يغمز بعينيه ويثابر على الابتسامة: ماذا يمكن تقديمه لك من خدمات يا آنسة؟

أعادت ناتاشاسؤالها بهدوء ووجهها وكل مظهرها ينطقان بالجد رغم أنها بقيت ممسكة بطرفي منديلها وأن الماجور كف عن الابتسامة. وبعد أن فكر هذا وكأنه يتساءل عن مدى ما يمكنه إعطاء مثل هذا الإذن، أجابها قائلاً: ولكن بلى. ولم لا؟ يمكن.

أومأت ناتاشا برأسها إشارة خفيفة وعادت مسرعة إلى مافرا كوزمينيتشنا التي كانت منحنية فوق المريض تتحدث معه بحنان. همست ناتاشا في أذنها: يمكن. لقد قال إنه ممكن!

انعطفت العربة التي تحمل الجريح لتدخل في باحة آل روستوف في حين راحت عشرات من العربات الأخرى المتجمعة على طول شارع بوڤارسكايا تدخل أفنية المنازل المجاورة بناء على تدخل سكانها. ولقد ظهر الافتتان على وجه ناتاشا لهذا التماس مع عالم جديد بعيداً عن كل اعتبارات الحياة العادية.

سعت تؤازرها مافرا كوزمينيتشنا إلى أن تدخل إلى الفناء أكبر عدد ممكن من الجرحى. قالت مافرا كوزمينيتشنا:

ـ يجب على أية حال إعلام أبيك.

ـ ولماذا؟ أليس ذلك نفسه؟ ما الفائدة! إننا نستطيع أن نقضي ليلتنا الوحيدة في القاعة. إننا قادرون على منح أجنحتنا كلها للجرحى .

ـ لكنك لا تفكرين في الأمر يا آنسة. يجب الحصول على إذن حتى في سبيل التصرف باللواحق والأشياء المتداولة وغرف الخدم.

ـ حسناً، سأمضي للحصول على الإذن.

دخلت ناتاشا مسرعة إلى المنزل ودخلت على أطراف قدميها إلى المخدع الذي كانت تسبح فيه رائحة الخل ونقط «هوفمن».

ـ أماه، هل أنت نائمة؟

فقالت الكونتيسة التي انتفضت لأنها أغفت منذ حين:

ـ آه! كيف أستطيع أن أنام.

ركعت ناتاشا وضغطت وجهها على وجه أمها وقالت:

ـ يا أمي العزيزة. صفحاً، لن أعود إلى مثلها. لقد أيقظتك. إنها مافرا كوزمينيتشنا التي أرسلتني. لقد جاؤوا بضباط جرحى منذ حين. هل تسمحين؟ إنهم لا يعرفون إلى أين يمضون. إنني واثقة بأنك ستسمحين..

وكانت تتحدث مندفعة دون أن تلتقط أنفاسها. فقالت الكونتيسة:

ـ أي ضباط؟ من الذي أتى بهم؟ لست أفهم شيئاً.

انفجرت ناتاشا ضاحكة فابتسمت أمها بدورها.

ـ كنت أعرف أنك ستقولين نعم.. وها أنا ذاهبة لأقولها لهم.

قبّلت ناتاشا أمها ونهضت ثم خرجت.

وفي القاعة، قابلت أباها الذي كان داخلاً يحمل أنباء سيئة. قال ووجهه مكتئب دون عمد:

ـ لقد تأخرنا كثيراً جداً! لقد أغلق النادي ورحل رجال الشرطة.

سألته ناتاشا:

ـ بابا، هل من مانع إذا أنا أدخلت جرحى إلى بيتنا؟

أجابها بلهجة ساهمة:

ـ بالطبع لا مانع. لكن الأمر لا يتعلق بهذا. إنني أطلب أن نكف عن الاهتمام بالترهات وأن يعمد كل منا إلى العمل لنكون جاهزين كلنا حتى نذهب غداً، غداً منذ الصباح.

كرر الكونت هذا الأمر على رئيس الخدم والخدم. وعاد پيتيا عند الظهر يحمل هو الآخر أنباء.

روى أن الشعب خلال النهار ذهب إلى الكرملين ليتسلح وأنه رغم نشرات روستوبتشين التي زعمت أنه سوف يطلق صرخة النداء قبل يومين أو ثلاثة أيام فقد أقيمت الاستعدادات للانتقال منذ الغد بالسلاح الكامل إلى الجبال الثلاثة حيث ستندلع معركة كبرى.

أخذت الكونتيسة تتأمل وجه ابنها الملتهب بالانفعال بخوف خجول خلال استغراقه في الكلام. كانت تعرف بأنه يكفي أن تقول پيتيا أن لا يذهب إلى تلك المعركة، وهي التي رأت أن تلك الفكرة هي التي تبهجه، حتى تجعله يتحدث مالئاً الدنيا عن الشجاعة والشرف والوطن. سوف ينطق بكل أنواع الحماقات بعناد صبياني ودون أن يتقبل النقض فيضيع كل شيء. لذلك كانت تأمل أن تصبح جاهزة للرحيل قبل نشوب المعركة وأن تصحب ابنها معها بوصفه حاميها والمدافع عنها. وعلى هذا، فإنها لم تعقب على حديث پيتيا بكلمة. ولكن ما إن انتهوا من تناول الطعام حتى أنتحت بالكونت جانباً وتوسلت إليه خلال دموعها السخية أن يذهب، بها بأسرع ما يمكن، في تلك الليلة بالذات إذا كان الرحيل ممكناً. أكدت بالدهاء البريء الخاص بالنساء الذي يصنعه الحب، أنها، وهي التي بقيت حتى ذلك الحين غير آبهة للخطر، ستموت من الخوف إذا لم يرحلوا تلك الليلة بالذات. ولم يكن قولها مجرد خدعة. لم تكن تتظاهر بالخوف بل كانت فريسة خوف حقيقي.

الفصل الرابع عشر

روت السيدة شوسي التي كانت تقوم بزيارة ابنتها ما رأته قرب مستودع الكحول في شارع مياسنيتسكايا، فزادت مخاوف الكونتيسة.

لم تستطع اجتياز هذا الشارع على قدميها بسبب جماعة السكارى التي كانت تملأه فاستقلت عربة وجاءت عن طريق شارع صغير إلى منزل الكونتيسة. ولقد روى لها الحوذي أن الجمهور يحطم براميل المستودع لأن الأمر ينص على ذلك.

بدأ كل من آل روستوف بعد تناول الطعام، يعمل بسرعة مبعثها الحماسة لإنهاء الرزم قصد إعداد الرحيل. وفجأة اهتم الكونت العجوز بالموضوع بنفسه فلم يكف عن التنقل بين الفناء والمنزل وعلى العكس وهو يزجر رجاله الذين لم يكونوا يسرعون بالقدر الذي يريد وهو الذي يريد أن تضاعف سرعتهم، واهتم پيتيا بالفناء فوضعه تحت أوامره، ولم تعد سونيا تعرف أين تعمل وسط أوامر الكونت المتناقضة؛ وأخذ الخدم يصرخون ويتماحكون بصخب ويركضون عبر الغرف والباحة، بينما اندفعت تعمل بذلك الانكباب الذي تبديه عندما تعمل. ولقد تقبلوا مساعدتها في شؤون الحزم بشيء من التحفظ بادئ الأمر إذ ما كانوا يتوقعون منها أكثر من تفاهات وبالتالي لم يظهروا رغبة في الإصغاء إليها. لكنها أبدت عناداً وطالبت بحرارة أن يصغى إليها وكادت تبكي لإغضائهم عن الاستماع إليها حتى انتهى بهم الأمر إلى تصديقها. ولقد اقتضاها عملها الأول مجهودات عظيمة وأعطاها سلطة: كان ذلك العمل هو

حزم النجد لأن الكونت كان يمتلك هوايات طائشة إلى جانب نجده العجمية. ولما بدأت ناتاشا العمل، كان في القاعة صندوقان مفتوحان، الأول مملوء حتى حافته بالأواني الخزفية والثاني بالنجود. وكان على المناضد المختلفة كثير من هذه الأواني التي راح الخدم يأتون بها من المدخرات، فكان يجب إعداد صندوق ثالث ذهب الخدم للإتيان به.

قالت ناتاشا: انتظري يا سونيا. أعتقد أننا نستطيع إيداع كل شيء هذين الصندوقين.

أجاب الخازن: مستحيل يا آنسة. لقد حاولنا من قبل.

ـ ولكن لا، انتظر قليلاً.

وبدأت ناتاشا تخرج من الصندوق الأطباق والصحاف الملفوفة بالورق، بسرعة وهي تقول: يجب وضع هذه الأطباق هنا، بين النجود.

فأضاف الخازن:

ـ ولكن النجد وحدها تتطلب ثلاثة صناديق.

انتظر قليلاً وسترى.

وراحت ناتاشا تخرج الأشياء بسرعة وتقول وهي تشير إلى خزف كييف:

ـ يجب ألّا نضع هذا هنا. ثم التفتت إلى أطباق الخزف من صنع الساكس وتؤكد: هذا، نعم، هذا يمكن وضعه بين النجود.

غمغمت سونيا:

ـ دعي عنك يا ناتاشا، هيا، يمكنهم تدبير الأمور بدونك.

وقال رئيس الخدم: ذلك أنه يا آنسة..

لكن ناتاشا لم تكن لتلين. أفرغت محتويات الصندوق كله وقد قررت أنه لا يجب حمل النجود المستعملة ولا كثيراً من الأواني. ولما أخرجت كل

شيء، عادت إلى الترتيب. وفي الواقع، بعد أن استبعدت كل ما ليس ثميناً واقتصرت على الأشياء النفيسة، تمكنت أن تضع كل شيء في الصندوقين غير أن غطاء أحد الصناديق امتنع عن الإغلاق فكان يجب إبعاد شيء ما مما بداخل الصندوق. لكن ناتاشا كانت تريد الاحتفاظ بكل ما وقع عليه اختيارها فراحت تفك وتربط وتحزم وتضغط ثم تطلب إلى الخازن وپيتيا الذي سرت إليه عدوى نشاطها، أن يضغطا على جانبي الصندوق في حين راحت من جانبها تبذل مجهوداً يائساً. قالت لها سونيا:

ـ كفى، كفى ناتاشا. إنك على حق، وأنا واثقة بذلك. لكن انزعي على أية حال الرزمة الأخيرة.

فصاحت ناتاشا وهي تزيح بإحدى يديها شعرها المشعث عن وجهها السابح في العرق وتضغط بالأخرى على النجود:

ـ لا أريد. اضغط، پيتيا، اضغط! هيا يا ڤاسيليتش!

ورصفت النجود وأنزل الغطاء فصفقت ناتاشا بيديها وأطلقت وهي في نشوة انتصارها صرخة انتصار ملأت عينيها بالدموع. لكن ذلك لم يلبث إلا فترة إذ لم تلبث حتى استدارت إلى مهمة أخرى وحينئذ، اكتسبت ثقة كبرى. ولم يغضب الكونت عندما قالوا له إن ابنته خالفت تعليماته، وراح الخدم يرجعون إليها لمعرفة ما إذا كانت حمولة العربة كافية وكان يجب ربطها أم لا. وبفضلها أخذ العمل يتقدم فهجروا كل قديم وتافه عديم النفع وجمعوا كل ما هو ثمين إلى أقصى ما يمكن.

مع ذلك، على الرغم من مجهودات الجميع، لم يستطيعوا حزم كل شيء ذلك المساء فنامت الكونتيسة وذهب الكونت بعد أن أجّل الرحيل إلى صباح الغد، إلى مخدعه فنام.

ونامت سونيا وناتاشا في المخدع دون أن تنزعا ثيابهما.

وفي تلك الليلة، جيء بجريح آخر إلى شارع بوڤارسكايا فأدخلته ماڤرا

كوزمينيتشنا التي كانت قرب الباب الخارجي، إلى مسكن آل روستوف. وكان ذلك الجريح، حسب زعم المدبرة العجوز، شخصاً رفيع المقام إذ جاؤوا به في عربة خفيفة مغطاة بقماش واق خاص. وعلى المقعد، قرب الحوذي، جلس خادم عجوز محترم وتبعت العربة الأنيقة عربة عادية فيها طبيب وجنديان.

قالت العجوز تخاطب الوصيف العجوز: ادخلوا عندنا، ادخلوا أرجوكم. إنّ السادة راحلون والمنزل خال.

فأجاب هذا وهو يزفر: آه! نعم. لم نكن نصدق أن نجيء به حياً. إن لنا منزلنا في موسكو. لكنه بعيد من هنا ومغلق.

قالت ماڤرا كوزمينيتشنا: ولكن ادخلوا عندنا، فلدينا كل ما ينبغي. ادخلوا.

ثم سألت:

ـ يبدو أنه في حالة سيئة؟

ندت عن الوصيف حركة تدل على الأسى وكرر:

ـ لم نكن نصدق أننا سنعيده إلى الصواب! يجب أن نسأل الطبيب.

نزل من مقعده واقترب من العربة. قال الطبيب: ولم لا!

عاد الوصيف إلى العربة الأنيقة فألقى نظرة إلى داخلها وهز رأسه ثم قال للحوذي أن ينعطف ليدخل الفناء ووقف هو بالقرب من ماڤرا كوزمينيتشنا.

صاحت هذه:

ـ آه! يا سيدنا يسوع المسيح!

عرضت ماڤرا كوزمينيتشنا أن ينقل الجريح إلى المنزل الرئيس وقالت:

ـ لن يعترض السادة بشيء.

ولما كان يجب تجنب نقل الجريح عن طريق السلم، فقد حُمل إلى الجناح وسجي في الغرفة التي كانت السيدة شوس تقيم فيها حتى ذلك الحين. كان ذلك الجريح هو الأمير أندريه پولكونسكي.

الفصل الخامس عشر

كان الطقس خريفياً جميلاً واليوم الأحد فأشرق آخر يوم من أيام موسكو وقرعت الأجراس كلها كالعادة تدعو إلى حضور القداس. وبدا أن ما من أحد عرف حتى ذلك الحين ما ينتظر المدينة.

إلا أن بادرتين اثنتين دلتا فقط على الموقف الذي كانت فيه موسكو: موقف الجماهير وارتفاع الأسعار. ولقد ذهب العمال وخدم المنازل والقرويون منذ الصباح الباكر إلى الجبال الثلاثة على شكل حشد هائل، جاء الموظفون يضخمونه بالانضمام إليه وتلامذة اللاهوت والنبلاء. وبقيت الجمهرة هناك مدة ما دون أن يحضر روستوبتشين. وحينئذ عرف المتجمهرون أن موسكو ستسلم فتفرقوا في الخانات والحانات. وراحت أسعار الأسلحة والذهب والعربات ترتفع أكثر فأكثر في حين تدنت أسعار الأوراق النقدية ولوازم الترف حتى أنه لم يحن الظهر حتى كانت السلع الثمينة، كالأجواخ مثلاً، تباع بنصف الثمن في حين أصبح أضعف حصان قروي يباع بخمسمائة روبل. أما قطع الأثاث والمرايا والبرونز، فكانت تباع بأبخس الأثمان.

لم يشعر آل روستوف في منزلهم القديم المحترم بهذا الانقلاب في الشروط الأولية للحياة إلا قليلاً. فلم يختف خلال الليل أكثر من ثلاثة أشخاص ولم يسرق شيء من المنزل. أما فيما يتعلق بقيم الأشياء، فإنّ العربات الثلاثين التي قدمت من الريف، كانت تمثل ثروة ضخمة يحسد الكثيرون آل روستوف عليها، ثروة تقدر بمبالغ ضخمة. لم يقدموا لهم عروض بيع تلك

العربات فحسب، بل إنه في السهرة والصباح الأول من أيلول، توارد تابعون وخدم ضباط جرحى وجرحى كذلك أووا في المنازل المجاورة، توارد هؤلاء إلى فناء آل روستوف يتوسلون إلى الخدم أن يمنحوهم عربة كي يتمكنوا من مغادرة المدينة فيها. وكان رئيس خدم آل روستوف الذين كانوا يتصلون به، يرثي للجرحى لكنه كان يرفض بإصرار ويؤكد أنه لا يجرؤ حتى على إبلاغ الخبر إلى سيده. كان كل هؤلاء التعساء جديرين بالاهتمام، ولكن لو أعطيت العربة الأولى فإنه لا يمكن أن يكون هناك سبب للامتناع عن إعطاء ثانية ثم الأخرى حتى عربات السادة نفسها. ثم إن ثلاثين عربة لا يمكن أن تنقذ الجرحى. وفي هذا البلاء العام، لا بد وأن يفكر المرء في نفسه وذويه. وهكذا كان يفكر رئيس الخدم باسم سيده.

صباح اليوم الأول من أيلول، ما إن استيقظ الكونت إيليا أندرييـﭭيتش، حتى خرج بخطوات خفيفة من غرفته متحاشياً إيقاظ الكونتيسة التي عادت إلى النوم منذ حين، والتفّ بثوب منزلي من الحرير النفسجي وخرج إلى المرقاة. وكانت العربات المربوطة تنتظر في الفناء وعربات الركوب منتظمة أمام المرقاة. وكان رئيس الخدم واقفاً أمام الباب الخارجي يتكلم مع تابع وضابط شاب، شاحب الوجه، يحمل ذراعه إلى عنقه. ولما وقعت عين رئيس الخدم على سيده، أشار إلى التابع والضابط أن يبتعدا!

قال الكونت وهو يمر بيده على جبهته الصلعاء وينظر إلى الضابط والتابع بعطف وهو يومئ لهما برأسه، والكونت يحب الوجوه الجديدة،

ـ إذن، هل كل شيء جاهز يا ﭭاسيليتش؟

ـ يمكن أن تقطر الخيول فوراً يا صاحب السعادة.

ـ حسناً، حسناً جداً! فور ما تستيقظ الكونتيسة، إلى الأمام وعلى بركة الله!

وسأل الضابط: من أنت يا سيدي؟ هل أنت في منزلي؟

اقترب الضابط وأصبح وجهه الشاحب متورداً فجأة:

ـ كونت، أرجوك، بحق السماء، اسمح لي أن أجد زاوية لنفسي في إحدى عرباتك. أنا لا أملك شيئاً ولا فرق عندي إذا حُملت على عربة نقل.

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى كان التابع يتقدم بمثل ذلك الالتماس على لسان سيده. فبادر الكونت يقول:

ـ ولكن، بلى، بلى، بالتأكيد! وسأكون سعيداً بذلك، سعيداً جداً! يا ڤاسيليتش، مر أن يُجهز لهما مكان على عربة أو اثنتين، هذه... إنها تماماً ما يلزم.

ولم يلبث الضابط أن عبر عن عرفانه بعبارات مرتبكة حتى أن الكونت اضطر إلى أن يتممها بنفسه. نظر حوله، فإذا الجرحى والتابعون في الفناء وعلى الأبواب ونوافذ الجناح وكلهم ينظرون إلى الكونت وهو يقترب من المرقاة. قال رئيس الخدم: هل تأمر سعادتكم بالانتقال إلى الرواق؟ ما هي أوامركم حول اللوحات.

دخل الكونت مع رئيس الخدم إلى المنزل بعد أن كرر أمره بعدم صرف الجرحى الذين يتقدمون ملتمسين نقلهم وأضاف بصوت خفيض ولهجة غامضة وكأنه يخشى أن يسمعه أحد: على أية حال، يمكن أن نستغني عن بعض الأمتعة.

في الساعة التاسعة، استيقظت الكونتيسة فجاءت ماترينا تيموڤييـڤنا، وصيفتها العجوز التي أصبحت تشغل عندها وظيفة رئيسة «الضابطة» تعلمها أن ماري كارلوڤنا غاضبة جداً وأنه لا يمكن بحال من الأحوال ترك الألبسة الصيفية الخاصة بهذه السيدة. وحاولت الكونتيسة أن تعرف سبب استياء

السيدة شوسي. فعرفت أن صندوقها قد أنزل من إحدى العربات وأنهم فكوا الحمولة ليفسحوا في المجال للجرحى، الذين سمح الكونت على طيبة نفسه المعهودة، بنقلهم. فاستقدمت الكونتيسة زوجها:

ـ ماذا يحدث يا صديقي، لقد أبلغت أنهم فكوا الأحمال؟

ـ كنت على وشك إخطارك بالأمر يا عزيزتي.. يا عزيزتي الكونتيسة الحبيبة.. لقد جاءني ضابط يسألني بضع عربات لنقل الجرحى. إن كل هذه الأشياء يمكن استبدالها أما هم، كيف نهجرهم، فكري في الأمر!.. صحيح، إننا نحن الذين أدخلنا هؤلاء الضباط إلى بيتنا.. إنك ترين حقاً يا عزيزتي، يخيل إلى عزيزتي أن.. لماذا لا نأخذهم.. ما الذي يضايقنا؟

كان الكونت يتكلم بلهجة وجلة كالعادة عندما تطرح القضية المالية على بساط البحث. وكانت الكونتيسة قد اعتادت هذه اللهجة التي تمثل دائماً مشروعاً يضر بثروة أبنائها، كإقامة ممشى للوحات وحديقة شتوية أو مسرح أو جوقة موسيقية في المنزل. لذلك كانت تعتقد أنها مرغمة على مخالفة زوجها كلما دقت سمعها تلك اللهجة الوجلة.

اتخذت مظهر الضحية الخاضعة وأعلنت: اصغ يا كونت. لقد أوصلتنا إلى درك أصبح فيه لا يمكن أن نطمع في قرش واحد يدفعه لنا شخص ما ثمناً لهذا المنزل. والآن، تريد أن تضيع كل مقتنياتنا وثروة الأولاد. أنت أعلنت بنفسك أن لدينا ما قيمته ألف روبل من الأمتعة المنقولة. إنني يا صديقي، لست موافقة على رأيك مطلقاً. أنت حر في تصرفاتك! إن الدولة هي المكلف بالعناية بالجرحى وهم يعرفون ذلك. أنظر قبالتنا، عند آل لوبوخين. لقد حملوا كل شيء منذ أول أمس. هذا ما يفعله الآخرون. نحن وحدنا الأغبياء. فأشفق على أبنائك أقله إذا كنت لا تشفق عليّ.

قام الكونت بحركة غامضة وغادر الغرفة. سألت ناتاشا التي دخلت بعدهما. أبي، ماذا حدث؟

فأجاب الكونت غاضباً: لا شيء مطلقاً! هذا ليس شأنك.

قالت ناتاشا:

ـ لكنني سمعت كل شيء. لا تريد أمي؟

ـ هذا ليس من شأنك!

فاقتربت ناتاشا من النافذة وهي ساهمة ثم أعلنت:

ـ أبي، إن بيرج آت..

الفصل السادس عشر

لقد بلغ بيرج رتبة زعيم وحاز وسامي ڤلاديمير «وسانت آنّ» وهو صهر آل روستوف. وقد شغل دائماً مهامه الممتعة كمساعد لرئيس المكتب الأول في أركان حرب الفوج الثاني.

وكان يأتي في ذلك الصباح، الأول من أيلول، من جيش موسكو مباشرة. لم يكن لديه ما يعمله في موسكو. لكنه عندما رأى أن الضباط الآخرين يطلبون مأذونياتهم للذهاب إلى هذه المدينة لأعمال لهم فيها، خيل إليه أنه مرغم على طلب مأذونيته لأعمال عائلية.

وصل بيرج إلى بيت حميه مستقلاً إحدى تلك العربات الأنيقة التي يجرها جوادان قويان، مقلداً بذلك تقليداً متقناً شكل عربة أمير من معارفه. تأمل المركبات التي في الفناء بانتباه ثم أخرج منديله الموشى وهو يصعد المرقاة وعقده.

اقترب بيرج من الردهة إلى القاعة بخطى مرنة سريعة فعانق الكونت وقبّل يد ناتاشا وسونيا وبادر يستعلم عن صحة الكونتيسة. قال الكونت:

ـ إن المجال مجال الاستفسار عن الصحة حقاً! إن عليك أنت أن تخبرنا بما يفعل الجيش. هل سيتراجع أم سيقاتل؟

فأجاب بيرج:

الله وحده قادر على الإجابة عن ذلك يا أبي. إنه وحده الذي سيقرر مصير الوطن. إن الجيش يحترق بالبطولة ولقد اجتمع الرؤساء الآن في

مجلس عسكري على ما يقولون. أما ما سينجم عنه، فما من أحد يعرفه، لكنني أقول لك بصورة خاصة يا أبي إنه ليست هناك كلمات قادرة على وصف بطولة القطعات الروسية والبسالة التي.. التي أظهرتها وبرهنت عليها في معركة السادس والعشرين. أؤكد لك يا أبي (وقرع صدره على طريقة جنرال رآه يروي تفاصيل المعركة، لكن حركته جاءت متأخرة إذ كان عليه أن يجريها فور نطقه بكلمتي الجيش الروسي) أؤكد لك بصراحة أننا معشر الرؤساء، لم نكن في غير حاجة إلى دفع الجنود إلى المعركة بأية وسيلة كانت فحسب، بل كان علينا أن نوقف بالقوة أولئك، أولئك..

ثم صاح بطلاقة: إنها مآثر وبسالة جديرة بالأقدمين. لم يوفر الجنرال باركلي دوتوللي حياته على رأس قطعاته، والشهادة لله. أما فيلفا، فكان متمركزاً على سفح الجبل. ولك أن تتصور الموقف!

وهنا، حكى بيرج كل ما تناهى إلى سمعه من مصادر مختلفة وكانت ناتاشا تصغي إليه دون أن تبارحه بعينيها الشاخصتين إلى وجهه وكأنها تحاول اكتشاف جواب عن سؤال طرحته على نفسها.

صاح بيرج وهو يستدير نحو ناتاشا مجيباً عن نظرتها الملحة بابتسامة وكأنه يحاول استرضاءها: لا يمكن تصور البطولة التي برهن عليها الجيش الروسي، ولا يمكن امتداحه بالقدر الكافي! «إن روسيا ليست في موسكو بل في قلوب أبنائها!» أليس كذلك؟

خرجت الكونتيسة في تلك اللحظة، من المخدع بادية التعب مكتئبة الوجه، فاندفع بيرج نحوها يقبل يدها ويستعلم عن صحتها وهو يهز برأسه ليظهر العناية التي يعلقها عليها ثم جلس إلى جانبها:

نعم يا أماه. إنني أعترف بكل صراحة أن الظروف كئيبة عصيبة بالنسبة

إلى كل واحد منا، ولكن لماذا كل هذا الاكتئاب؟ ما زال لديك الوقت الكافي للرحيل..

قالت الكونتيسة مخاطبة زوجها:

ـ لست أدري ماذا يفعل رجالنا. لقد أخبروني منذ حين أن ما من شيء جاهز بعد، يجب إيجاد من يعطي الأوامر، وهنا نأسف على ميتانكا. إننا لن نخرج أبداً من هذه المحنة!

أراد الكونت أن يرد لكنه فضل أن يسكت، فنهض وتوجه نحو الباب.

وانتقى بيرج هذه اللحظة بالذات ليخرج منديله ويتمخط فيه، لكنه لما رأى العقدة التي عقدها بنفسه، شرد مفكراً ورفع رأسه بشكل معبر وقال:

ـ بابا، لدي رجاء هام أتوجه به إليك.

قال الكونت وهو يتوقف: آه!

استأنف بيرج بلهجة منطلقة:

ـ لقد مررت منذ حين أمام منزل يوسوبوف فأسرع القيم الذي أعرفه للقائي وقال: «هل تريد شراء شيء؟» فتبعته بفضول ووجدت خزانة للثياب مع طاولة للزينة. وأنت تعرف كم كانت ڤيرا ترغب في مثلها وكم تخاصمنا لهذا السبب (استعاد بيرج رغماً عنه لهجته المرحة لأن تلك الخزانة ذات طاولة الزينة كانت تجعله فخوراً ببيته). إنها تحفة؟ إنها تماماً ما كانت صغيرتي ڤيرا ترغب فيه منذ زمن طويل. وإنني أحب أن أفاجئها بها، وفي الأسفل، في الفناء، عدد من القرويين، فاعطني واحداً أرجوك، وسأجزل له العطاء... و..

قطب الكونت حاجبيه وسعل بعصبية: أطلب إلى الكونتيسة، لست أنا الذي آمر.

اعترض بيرج: إذا كان ذلك صعباً، لن أقول شيئاً. إن مرادي هو مفاجأة ڤيرا فحسب.

صاح الكونت العجوز:

ـ آه! ليأخذكم الشيطان جميعاً! نعم، إذهب إلى الشيطان، إلى الشيطان! إن المرء ليفقد صوابه!

وبعدها خرج فانهمرت الدموع من عيني الكونتيسة، فقال بيرج:

ـ نعم يا أماه، إن الأوقات عصيبة!

وخرجت ناتاشا مع أبيها ولكن ذهبت بادئ الأمر تلحق به وكأنها تتابع فكرة ما بصعوبة ثم لم تلبث أن اندفعت إلى السلم.

وعلى المرقاة، كان پيتيا يوزع الأسلحة على الرجال الذين كانوا سيخرجون من موسكو مع القافلة، في حين وقفت العربات الجاهزة في الفناء، وكانت اثنتان منها أنزلت أحمالها وارتقى على إحداهما ضابط شاحب يسنده تابع.

سأل پيتيا أخته:

ـ هل تعرفين السبب؟

أدركت ناتاشا أن پيتيا يريد بذلك أن يسأل عن النقاش بين أبيهما وأمهما فلم تجب.

ـ لأن أبي كان يريد إعطاء العربات كلها للجرحى، لقد روى لي ڤاسيليتش الخبر، إنني من جانبي..

فصاحت ناتاشا وهي تدير نحو أخيها وجهها المغضب:

ـ من جانبي، من جانبي أرى أن هذا بشع مرذول، إنه منفر لدرجة حتى لست أستطيع أن أقوله، من نحن؟ لا أكثر من ألمان، إذن؟

وحرضت ناتاشا بالحسرات التشنجية، ولكي لا تضيع غضبتها هباء، استدارت وصعدت السلم أربعاً فأربع.

كان بيرج جالساً بجانب الكونتيسة يقدم لها تعزيات بنوية محترمة

والكونت وغليونه في يده، يذرع الغرفة عندما دخلت ناتاشا إلى الغرفة بجلبة ووجهها متقلص من الغضب واندفعت بخطوات سريعة نحو أمها وصرخت:

ـ يا للبشاعة! يا للهول! أيعقل أن تكوني قد أعطيت أوامر مماثلة.

فراح بيرج والكونتيسة، مروعَين أكثر مما هما مذهولين، يتأملانها بينما جمد الكونت قرب النافذة يصيخ السمع.

صاحت ناتاشا: أماه، هذا مستحيل: أنظري إلى الفناء! إنهم يتركونهم..

ـ ماذا بك؟ من يتركون؟ ماذا تريدين؟

ـ لكن الجرحى! كلا: يا أماه، لا يمكن. إن هذا لا اسم له.. يا أمي العزيزة، لست أريد أن أتكلم على هذا النحو، فعذراً يا أمي الحبيبة، ولكن ما حاجتنا إلى ما نحمله، أنظري إلى الفناء يا أماه، انظري!.. إنّ هذا لا يمكن أن يكون!..

وكان الكونت الواقف قرب النافذة يصغي إلى ناتاشا دون أن يدير رأسه وفجأة نخر وهو يدني وجهه من الزجاج..

تأملت الكونتيسة ابنتها وشاهدت انفعالها والعار الذي تحس به ثم السبب الذي من أجله أشاح زوجها بعينيه، فنظرت حولها مشتتة الخاطر ثم اعترضت دون أن تستسلم تماماً: آه! إفعلوا ما تشاؤون! هل تراني أضايق كائناً من كان؟

ـ ماما، يا أمي العزيزة، عذراً!

لكن الكونتيسة دفعت ابنتها واقتربت من زوجها. قالت وهي تخفض عينيها كالمذنبة: يا عزيزي، أعط الأوامر اللازمة.. لم أكن أعرف شيئاً.

فغمغم الكونت مبتهجاً خلال دموعه، وهو يطوق زوجته بذراعيه، الأمر الذي أسعد هذه إذ استطاعت بذلك أن تخفي وجهها الخجل في صدر زوجها:

ـ البيض.. البيض والدرس الذي يعطيه للدجاجة.

سألت ناتاشا: بابا، ماما! يمكن إعطاء الأوامر أليس كذلك؟ يمكن؟..

وأضافت: مع ذلك، سوف نحمل أكثر من حاجتنا.

فندت عن الكونت إشارة موافقة فاندفعت ناتاشا، بمثل الطريقة التي كانت تجري فيها عندما كانت تلعب، من القاعة الكبيرة إلى الردهة ومنها إلى السلم الذي يؤدي إلى الفناء.

لم يلبث الخدم أن أحاطوا بها وهم يرفضون تصديق الأوامر الغريبة التي أصدرتها لهم إلا بعد أن يؤيدها الكونت باسم زوجته. كانت تلك الأوامر تنص على وجوب رصف الصناديق كلها في مخازن الأمتعة ووضع العربات كلها رهن إشارة الجرحى. وما إن فهموا، حتى راح الرجال يعملون بحماسة بهيجة. لم يعد الخدم الآن يجدون غرابة فيما يعملون بل خيل إليهم استحالة التصرف على نهج آخر رغم أنّه قبل ربع ساعة لم يكن أحد يدهش لفكرة هجر الجرحى وإنقاذ المتاع بل يعتقد بأنه لا سبيل إلى غير ذلك.

بدأ كل السكان وكأنهم يحاولون تلافي الوقت الذي خسروه، في تهيئة الأمكنة للجرحى الذين كانوا يجرون أنفسهم خارج غرفهم شاحبي الوجوه سعداء ويحيطون بالعربات. ولقد انتشر الخبر في البيوت المجاورة يفيد وجود عربات للنقل فتوارد الجرحى من تلك المنازل إلى فناء منزل آل روستوف. ولقد راح عدد كبير منهم يتوسل إليهم أن يتركوا الأحمال في العربات وأن يسمحوا لهم بالركوب فوق الأحمال فحسب. ولكن ما إن بدأ تفريغ حمولة العربات حتى بات إيقافه متعذراً، إذ كان ترك كل شيء أو نصف الشيء أمراً واحداً. ولقد تناثرت الصناديق المملوءة بالآنية والبرونز واللوحات والمرايا المخرومة بعناية طوال الليلة الماضية في الفناء وكانوا دائماً يجدون مبررات جديدة لإنزال هذه أو تلك من الأحمال للحصول على عربة فارغة جديدة.

عرض المسجل:

ـ نستطيع أن نحمل أربعة آخرين وإنني أمنح عربتي لهذا الغرض وإلا، أين نضعهم؟

فقالت الكونتيسة: أعطهم العربة التي تحمل حوائجي. وستركب دونياشا معي في عربتي.

وأفرغوا العربة التي تحمل صناديق الكونتيسة وأرسلوا يحملون الجرحى من المنازل البعيدة. وكان السادة والخدم يتنافسون في هذا المضمار. ولقد كانت ناتاشا في حميا انتصارها سعيدة كما لم تسعد من قبل البتة.

أخذ الرجال يقولون وهم يحملون صندوقاً على المرقاة الضيقة لإحدى العربات.

ـ كيف نثبته هنا؟ يجب أقله أن نترك عربة.

فسألت ناتاشا؟ ماذا في هذا الصندوق؟

ـ كتب سيدي الكونت.

ـ دعوها. سوف يهتم ڤاسيليتش بها. لسنا في حاجة إليها.

امتلأت العربة بالركاب وراحوا يتساءلون أين يمكن أن يجلس پيتيا.

فصاحت ناتاشا: سوف يصعد على المقعد أليس كذلك يا پيتيا؟

وكانت سونيا مشغولة مثل انشغال ناتاشا ولكن على عكسها، إذ كانت تنظم الأشياء التي ينزلونها من العربات وتسجلها على لوائح بناء على رغبة الكونتيسة وهي تجتهد في أن تنقل مع ذلك أكبر قدر ممكن من الأمتعة.

الفصل السابع عشر

وقفت مركبات آل روستوف، في الثانية والنصف بعد الظهر، جاهزة أمام المرقاة وخرجت العربات التي تحمل الجرحى من الفناء واحدة إثر الأخرى.

اجتذبت عربة الأمير أندريه الأنيقة انتباه سونيا في اللحظة التي خرجت إلى المرقاة وكانت في تلك اللحظة منهمكة مع إحدى الخادمات بإعداد مكان مريح للكونتيسة في العربة الكبيرة المريحة الواقفة أمام المرقاة.

سألت سونيا وهي تخرج رأسها من باب المركبة: لمن هذه العربة الأنيقة؟

أجابت الوصيفة: تعرفين يا آنسة؟ إنها لأمير جريح أمضى الليل هنا وسيرتحل معنا.

ـ ولكن من هو؟ ما اسمه؟

تنهدت الوصيفة وقالت: خطيبنا القديم نفسه، الأمير ﭘولكونسكي! يقولون إنه لا أمل في شفائه.

قفزت سونيا من العربة وأسرعت إلى الكونتيسة وكانت هذه قد استعدت للرحيل في شال وقبعة مناسبين، تروح وتجيء متعبة في القاعة، منتظرة كل أفراد العائلة، لكي يجلسوا لفترة قصيرة ويغلقوا الباب ثم يضرعون بالصلاة المألوفة في مثل هذه المناسبات قبل الرحيل. ولم تكن ناتاشا في الغرفة. قالت سونيا:

ـ أماه، إن الأمير أندريه هنا وهو مصاب بجرح قاتل. إنه سيرحل معنا.

فتحت الكونتيسة عينين مذعورتين وأمسكت بسونيا من ذراعها ثم التفتت حولها وصاحت:

ـ هل ناتاشا؟..

لم يكن لهذا النبأ بالنسبة إلى سونيا كما بالنسبة إلى الكونتيسة إلا معنى واحد للوهلة الأولى. إنهما تعرفان ناتاشا وتفكران برعب في حالتها عندما تطلع على النبأ. أما إشفاقهما على الرجل الذي كانتا رغم ذلك تجبانه كثيراً، فإنه لم يكن يحتل إلا المرتبة الثانية.

كررت سونيا: ما زالت ناتاشا لا تعرف شيئاً. لكنه راحل معنا.

تقولين إن جرحه قاتل؟

فأجابت سونيا بإيماءة من رأسها.

أحاطتها الكونتيسة بذراعيها وراحت تبكي. فكرت وهي تشعر أن كل ما يحدث حينذاك توجهه يد الله التي ظلت غير منظورة حتى تلك اللحظة التي بدأت الآن تتجلى: «إن دروب الرب لا تسبر!».

سألت ناتاشا التي أسرعت في تلك اللحظة محمرة الوجه:

ـ إذن ماما، كل شيء جاهز، ماذا تنتظرون؟

فقالت الكونتيسة:

ـ لا شيء. إذا كنت جاهزة. أمكن لنا أن نرحل.

وانحنت الكونتيسة على حقيبة يدها لتخفي وجهها المنقلب بينما ضمت سونيا ناتاشا إلى صدرها وقبلتها.

نظرت إليها ناتاشا بقلق: ماذا بك؟ هل جرى شيء ما؟

ـ كلا.. لا شيء..

سألت ناتاشا بإدراك مألوف لديها: هناك شيء سيئ بالنسبة إلي؟ ما هو هذا الشيء!

تنهدت سونيا دون أن تجيب. ودخل الكونت وپيتيا والسيدة شوسي ومافرا كوزمينيتشنا وڤاسيليتش إلى القاعة وأغلقوا الباب ثم جلسوا بصمت دون أن ينظر أحدهم إلى أحد مدة بضع ثوان.

وقف الكونت أولاً، وبعد أن أطلق زفرة مسموعة، رسم إشارة الصليب على صدره أمام الأيقونة. فحذا الباقون حذوه ثم ربت الكونت كتف مافرا كوزمينيتشنا وكتف ڤاسيليتش اللذين كانا سيمكثان في موسكو، في حين راح هذان يمسكان بيده ويقبلان كتفه. ربت ظهرهما برفق وهو يغمغم بكلمات غامضة ولكن ممالقة ومغرية. وذهبت الكونتيسة إلى مصلاها حيث وجدتها سونيا راكعة أمام بعض الأيقونات التي تركت هنا وهناك على الجدار بعد أن رزمت الأيقونات الثمينة وحملت معهم كذكريات للأسرة.

وفي الفناء وعلى المرقاة، كان الخدم الذين سيرحلون، المسلحون بالخناجر والسيوف التي وزعها عليهم پيتيا، وقد أدخلوا أكمام سراويلهم في أحذيتهم العالية ولفوا حول خصورهم نطقاً من الجلد أو الصوف، يتبادلون عبارات الوداع مع الذين سيبقون.

وكالعادة عند الرحيل، تبين أن هذا الأمر أو ذاك قد نسي أو أسيء عمله، لذلك فقد بقي الحارسان المسلحان فترة طويلة واقفين على طرفي العربة أمام البابين المفتوحين وفوق مرقاة المركبة بانتظار جلوس الكونتيسة، في حين أن الوصيفات كن يهرعن حاملات الوسائد واللفائف من المنزل إلى المركبة أو العربة الصغرى أو العربة الثالثة.

قالت الكونتيسة: يجب دائماً أن ننسى شيئاً ما. إلهي إنك تعرفين تماماً أنني لا أستطيع الجلوس على هذا الشكل.

فأسرعت دونياشا مستاءة تصرف على أسنانها، إلى «البرلين» الفخمة لتبدل الوسائد من مكانها دون أن تنطق بكلمة. وقال الكونت وهو يهز رأسه:

كان السائق العجوز «إيـڤيم»، وهو الوحيد الذي تثق به الكونتيسة في ارتحالها، جالساً على مقعده العالي لا يلقي بالاً إلى ما يحدث وراءه. كان يعرف بفضل خبرة ثلاثين عاماً، إنهم لن يقولوا له بمثل هذه السرعة: «إلى الأمام!» وإنه عندما تشرع «البرلين» في الحركة، يجب أن تقف من جديد مرتين أو ثلاث مرات للإتيان بشيء ما منسي وأن الكونتيسة ستخرج رأسها من النافذة لتقول له أن يمشي بهدوء في المنحدرات حباً بالمسيح. كان يعرف كل هذا وينتظر بصبر أكثر من جياده وخصوصاً الأصهب الأيسر «سوكول» الذي لم يكن يفتأ يضرب الأرض بقائمته ويعض على لجامه.

أخيراً، جلس كل في مكانه ورفعوا المرقاة وانصفق الباب ثم أرسلوا يأتون بصندوق صغير آخر، وأخرجت الكونتيسة رأسها وفاهت بكلمات مقدسة. وحينئذ رفع إيـڤيم قبعته ببطء ورسم إشارة الصليب على صدره فاقتدى به السائس والخدم كلهم. وقال إيـڤيم وهو يعيد قبعته على رأسه: «بحراسة الله» ثم صاح: «هو!» فقاد السائس العربة. جذب الجواد الأيمن عنانه وصرت النوابض العالية وتأرجح صندوق المركبة الكبير. وتحفز الخادم المرافق وقفز على المقعد والعربة في سيرها وانتقلت «البرلين» وهي تقرقع من الفناء إلى الشارع المعبّد تتبعها العربات الأخرى المترنحة، ولم يلبث ذلك الرتل أن راح يصعد الشارع. وراح ركاب «البرلين» والعربتين الأخريين يرسمون إشارة الصليب على صدورهم عندما مرت المراكب بالكنيسة المقابلة بينما راح الخدم الذين سيبقون في موسكو يواكبون العربات على الجانبين لفترة ما من الطريق.

لم تشعر ناتاشا بمثل المرح الذي شعرت به في ذلك الحين فجلست في «البرلين» قبالة أمها، تنظر إلى جدران المنازل وهي تمر أمامها، منازل موسكو القديمة هذه التي انقلبت الأوضاع فيها وبات الناس يهجرونها. ومن حين إلى

آخر، كانت تميل على الباب لتتأمل ما وراء العربة أو المشهد الذي أمامها، مشهد الرتل الطويل من عربات الجرحى التي تسبقهم. وفي المقدمة تقريباً، كان غطاء عربة الأمير أندريه الأنيقة واضحاً للعيان. وكانت تجهل من يحتل تلكم العربة، لكنها كلما راحت تحصي طول الرتل، كانت تبحث بعينيها عن تلك العربة التي بقيت محافظة على مكانها في المقدمة.

وفي شارع «كودرين» وصلت قوافل أخرى مماثلة لرتل آل روستوف قادمة من نيكيتسكاييا وبريسناييا وجادة بودتوڤينسكي، وعندما بلغت القوافل كلها شارع سادوڤاييا، اضطرت إلى أن تنتظم في صفين.

وبينما هم ينعطفون حول برج سوڤارييـڤ، صاحت ناتاشا فجأة باستغراب تشوبه البهجة وهي التي كانت تتأمل المارة بين راكبي عربات ومشاة: آه! رباه! ماما، سونيا، انظرا، ها هو ذا!

ـ من؟

قالت وهي تزداد انحناء ليتسنى رؤية العملاق الضخم الذي يرتدي معطف السائقين الذي تدل هيئته ومشيته على أنه نبيل متنكر، والذي كان يجتاز في تلك الأثناء برفقة عجوز قصير القامة، صفراوي، أجرد، قوسي البرج:

ـ أنظرا، هذا بيزوخوف، أقسم لكما على أنه هو!

وكررت ناتاشا:

ـ نعم، نعم وأقسم لكما. إنه بيزوخوف في معطف حوذي ومعه عجوز قصير القامة، مضحك. إنني واثقة.

ـ ولكن لا، إنه ليس هو. كيف تقال مثل هذه الحماقات!

صاحت ناتاشا:

ـ أماه، أقدم رأسي للنطع إن لم يكن هو، للحوذي، قف! قف!

لكن الحوذي لم يكن يستطيع الوقوف لأن قوافل أخرى كانت تخرج من

ميشتشانسكايا، فكان السائقون يصيحون طالبين إليهم التقدم كيلا يعرقلوا حركة السير.

وفي الواقع أن آل روستوف كلهم شاهدوا پيار رغم أنه كان أبعد من ذي قبل، أو أقله، رجلاً يشبهه بشكل خارق في معطف حوذي، يمشي على طول الشارع مطرق الرأس صارم الأسارير وإلى جانبه عجوز قصير القامة، أجرد، يشبه الوصيف. ولاحظ العجوز قصير القامة رأس ناتاشا بارزاً من باب العربة فمس باحترام مرفق پيار وقال له شيئاً وهو يشير إلى «البرلين». ولقد بقي پيار فترة قبل أن يستوعب ما يقال له لشدة ما كان مستغرقاً في خواطره. وأخيراً، عندما أدرك الفرض، نظر في الوجهة التي أشار إليها العجوز فعرف ناتاشا على الفور. اندفع مستسلماً لحركته الأولى، متوجهاً نحو العربة. لكنه بعد بضع خطوات، توقف بسبب بعض الذكريات التي كان قد نسيها من قبل بدون شك.

وكان وجه ناتاشا المنحني على الباب يشع بالحبور والبشاشة. صاحت وهي تمد له يدها: يا پيوتر كيريلليتش! تعال هنا! إنك ترى تماماً إننا كشفناك! هذا رائع كيف جرى؟ لماذا هذا الزي؟

فأمسك پيار باليد الممدودة وقبلها بمهارة وهو يسير بجانب العربة (التي تتوقف بالطبع). وسألته الكونتيسة بصوت تظهر فيه الدهشة مشبعة بالإشفاق.

ـ ماذا جرى لك يا كونت؟

قال پيار:

ـ ماذا؟ لا شيء أبداً لا تسأليني.

والتفت إلى ناتاشا التي كانت نظرتها المشعة المرحة، وكان يشعر بها دون أن يرفع عينيه إليها، تحيطه بالفتنة. ـ ماذا تفعل إذن؟ هل تبقى في موسكو؟ فلم يجبها پيار على الفور.

وأخيراً قال بلهجة استفهام:

ـ في موسكو؟ نعم، في موسكو. إلى اللقاء.

فقالت ناتاشا: آه! كم آسف لأنني لست رجلاً وإذن لبقيت حتماً معك. سيكون رائعاً! ماما، إذا كنت تسمحين لي بالبقاء سأبقى.

تأمل پيار ناتاشا بنظرة ساهمة وأراد أن يقول شيئاً لكن الكونتيسة قاطعته: يبدو أنك كنت في المعركة؟

فأجاب پيار:

ـ نعم، لقد كنت. وغداً ستنشب أخرى.

فقاطعته ناتاشا هذه المرة:

ـ ولكن ماذا بك يا كونت؟ إن مظهرك غريب جداً.

ـ آه لا تسأليني ولا تستجوبيني عن شيء لأنني لست أفهم شيئاً.. غداً.. كلا، ليس غداً! الوداع، الوداع!

ثم أردف: يا للحظات المروعة!

ثم ابتعد عن العربة ومضى إلى الرصيف.

وبقيت ناتاشا فترة على الباب تتبعه بنظراتها وعلى شفتيها ابتسامة مرحة ودودة يشوبها شيء من السخرية.

الفصل الثامن عشر

عندما اختفى پيار من منزله منذ يومين كان يسكن الشقة الفارغة التي كان يقطنها بازدييـڤ. وهذا ما حدث:

عندما استيقظ غداة يوم وصوله إلى موسكو ومقابلته مع روستوبتشين بقي پيار فترة طويلة يفكر في المرحلة التي بلغ إليها والغاية التي يريدونها منه. ولما أعلنوا له بين الذين ينتظرون مقابلته، ذلك الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته شعر فجأة بالاضطراب الغامض واليأس اللذين كان ميالاً بطبعه إليهما. حدث نفسه بأنها النهاية الآن وأن كل شيء ليس سوى لبس ودمار وأنه لم يعد هناك حق وباطل وأن المستقبل لن يحمل له شيئاً في طياته وأن موقعه لا مخرج منه. فكان يجلس تارة على كنبته في وضع المثقل وهو يضحك ضحكة مغتصبة ويدمدم بين أسنانه شيئاً وتارة يقف فيقترب من الباب وينظر خلال ثقب المفتاح إلى الردهة ثم يعود بحركة يائسة فيجلس على الكنبة ويمسك بكتاب. دخل رئيس خدمه مرة ثانية يعلمه بأن الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته يرغب بإلحاح في مقابلته ولو لدقيقة واحدة وأضاف أن أرملة بازدييـڤ ترغب قبل أن ترحل إلى الريف في معرفة ما إذا كانت تستطيع ائتمانه على بعض الكتب.

أجاب پيار رئيس خدمه: آه! نعم، فوراً، انتظر.. أو الأحرى لا! قل إنني سأحضر بعد حين.

لكن، لم يكد رئيس الخدم يخرج، حتى تناول پيار قبعته التي كانت ملقاة

على الطاولة وفرّ من مكتبه من الباب الداخلي. وكان الممشى خالياً فسار فيه بيار حتى السلم فنزل وهو مستغرق في التفكير يضغط جبهته بكلتا يديه حتى بلغ بسطة الدور الأول. وكان البواب واقفاً أمام الباب الرئيسي. ولكن كان هناك سلم آخر قرب البسطة التي وقف عليها يقود إلى المخرج الخلفي. اتخذ طريقه من هنا ونزل إلى الفناء دون أن يراه أحد. وفي الفناء نفسه، في اللحظة التي كاد يجتاز الباب المؤدي إلى الشارع، رآه السائقون الذين وقفوا هناك بعرباتهم وكذلك رآه البواب فخلعوا قبعاتهم. أحس بيار بتلك الأنظار تحدق إليه فأطرق برأسه كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال كيلا يراها أحد وحث خطاه ثم خرج إلى الشارع.

بدا لـبيار أن أكثر الأشياء التي عرضت له ذلك الصباح عجلة، وهو أخذ كتب جوزيف الكسييڤيتش وبعض الأوراق.

استقل أول عربة صادفها وأمر أن يحمل إلى مستنقعات البطريرك «إتيان دوباترياش» حيث كان منزل بازدييـڤ.

كان ينظر في كل الجهات إلى أرتال العربات التي تخلي موسكو وهو لا يدري كيف يحيد بجسمه الضخم كي يتجنب الانزلاق تحت إحدى العربات الشديدة القدم التي كانت تصر، ويحس بمثل ذلك الإحساس الذي يخامر التلميذ الهارب من مدرسته، فراح يثرثر مع الحوذي وهو مبتهج.

روى له هذا أنهم يوزعون الأسلحة في الكرملين وأنهم سينتقلون غداة اليوم التالي إلى الجبال الثلاثة حيث ستنشب معركة كبرى.

ولما وصل إلى مستنقعات البطريرك، استدل بيار على مسكن بازدييـڤ الذي لم يزره منذ فترة طويلة، واقترب من الباب فلما طرقه، أسرع جيراسيم، ذلك العجوز قصير القامة ذو اللون الأصفر، الأجرد، الذي رآه بيار قبل خمس سنوات مع سيده في تورجوك. سأل بيار. هل من أحد؟

ـ نظراً إلى الظروف، فقد ارتحلت صوفي دانيلوڤنا مع الأولاد إلى ملكها في تورغوك يا صاحب السعادة.

فقال پيار: سوف أدخل رغم ذلك إذ علي أن أختار الكتب.

ـ على الرحب والسعة. إن أخ فقيدنا، ليتغمده الله برحمته، ماكار الكسييڤيتش قد ظل هنا. لكنه كما تعلم، ضعيف العقل.

وكان پيار يعرف أن ماكار الكسييڤيتش، أخ الفقيد، نصف مجنون مدمن الشراب. فقال وهو يدخل المنزل:

ـ نعم، نعم، أعرف. هيا ولنسرع.

وكان عجوز طويل القامة، أحمر الأنف، مرتدٍ معطفاً منزلياً، عاري القدمين في خفين من المطاط، واقفاً في الردهة فلما شاهد پيار، غمغم ببضع كلمات ومضى إلى الممشى.

قال جيراسيم:

ـ لقد كان عبقرياً. لكنه كما ترى أصبح ضعيف الذكاء. هل ترغب في دخول المكتب؟ (فأومأ پيار موافقاً) لقد وضعوا الأختام وما زالت سليمة ولقد أمرت صوفي دانيلوڤنا أن نسلم الكتب إلى من يأتي من قبلك.

دخل پيار ذلك المكتب المعتم بالذات الذي لم يكن يدخله إلا وهو يرتجف طوال ما لبث المحسن على قيد الحياة. ولم يمس أحد شيئاً منذ وفاة جوزيف الكسييڤيتش، فكان الغبار يعلو كل شيء وكل شيء محزن أكثر من أي وقت مضى.

فتح جيراسيم خلفه نافذة وخرج من الغرفة على أطراف قدميه، فدار پيار في المكتب وجاء إلى الخزانة التي وضعت فيها المخطوطات، فأخذ واحدة منها، كانت فيما مضى من أكثر تراث المحفل قدسية. كانت تلك المخطوطة هي الوقائع الإيكوسية الصحيحة شرحها المحسن وفسرها بخط يده. جلس

بيار إلى طاولة العمل المغطاة بالغبار ووضع المخطوطة أمامه وفتحها ثم تصفحها وأخيراً تركها ليستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه.

وجاء جيراسيم غير مرة يلقي نظرة مختلسةعلى المكتب فكان في كل مرة يرى بيار على وضعه ذاك. وانقضت ساعتان ونصف ساعة فسمح جيراسيم لنفسه أن يحدث ضوضاء أمام الباب ليجذب انتباه بيار. لكن بيار لم يسمعه.

ـ هل أصرف العربة؟

فأجاب بيار الذي استعاد حواسه ونهض بعزم:

آه نعم.

ثم أضاف وهو يمسك زر ثوب جيراسيم وينحدر على العجوز قصير القامة بنظرة جليلة مشرقة مبللة بالدموع.

ـ إصغ، أصغ. هل تعلم أنهم سوف يقتتلون غداً؟

فأجاب جيراسيم: يقولون ذلك.

ـ أطلب إليك ألّا تقول لأحد من أكون وأعمل ما سأطلبه منك..

قال جيراسيم: تحت أمرك. هل أقدم لك طعاماً.

قال بيار وقد احمرّ وجهه فجأة:

ـ كلا، ليس هذا ما أريده. تدبر لي ثياب قروي ومسدساً فردد جيراسيم بعد أن فكر قليلاً: تحت أمرك.

بقي بيار طوال ذلك النهار معتكفاً في مكتب ذلك المحسن ولقد سمعه جيراسيم يذرع المكتب جيئة وذهاباً بعصبية وهو يحدث نفسه. وفي الليل، نام على سرير نصب خصوصاً له.

لم يدهش جيراسيم الذي شاهد خلال حياته كخادم آخرين أشد غرابة يقيمون في المنزل. بل إنه بدا سعيداً بوجود من يقدم له خدماته. وفي المساء، ودون أن يسأل عما يمكن أن يعمل به، حمل لـبيار معطفاً من ذلك النوع الذي

يلبسه السائقون وقلنسوة ووعده بتقديم المسدس صباح اليوم التالي. ولقد جاء ماكار الكسييڤيتش مرتين خلال الليل إلى باب المكتب يجر خفيه وينظر إلى پيار باستمالة. لكن ما إن يلتفت پيار إليه، حتى يحتجب بذعر وخوف في ثوبه المنزلي ويبادر إلى الابتعاد. وخرج پيار متشحاً بمعطف الحوذي الذي اشتراه له جيراسيم ونظفه له إلى برج سوخارييـڤ ليشتري مسدساً حينما التقى آل روستوف.

الفصل التاسع عشر

أصدر كوتوزوف الأمر إلى الجيش الروسي بالانثناء عبر موسكو على طريق ريازان في ليل الأول والثاني من أيلول. وفي ذلك الليل، تحركت القطعات الأولى دون أن تتعجل في تلك الظلمة فكانت تتقدم ببطء واتزان. ولكن عند الفجر، عندما اقتربت من جسر دوروغوميلوف على نهر موسكڤا غربي المدينة، وجدت أمامها مجموعات من الناس يتدافعون لعبور الجسر ويتجمعون على الضفة المقابلة، يسدون الشوارع والأزقة ووراءهم قطع لا تحصى من الجنود التي تدفعهم، فاستولى على الجيش اضطراب وقلق لا مبرر لهما. اندفعوا جميعاً إلى الأمام نحو المجازات والقوارب. أما كوتوزوف، فقد أمر بنقله عن طريق دائري من الجانب الآخر من موسكو.

في الساعة العاشرة صباحاً، في الثاني من أيلول، لم يبق في ضاحية دوروغوميلوف إلا المؤخرة. أما السواد الأعظم من الجيش، فكان قد اجتاز موسكڤا وابتعد عن موسكو.

كان ناپليون الذي وصل مع جنوده في تلك الأثناء، إلى جبل بوكلانايپا يتأمل المشهد الذي عرض لناظريه. وكان الطقس، منذ السادس والعشرين من آب وحتى الثاني من أيلول، منذ معركة بورودينو وحتى يوم دخول الأعداء موسكو طوال ذلك الأسبوع التاريخي، آية في جمال الجو الخريفي المدهش. فالشمس المنحنية على الأفق، كانت محرقة أكثر منها في الربيع وأشعتها الباهرة المنتشرة في الفضاء تؤلم العيون، والصدور تتمدد ويستنشق الناس

ملء رئاتهم روائح الخريف. والليالي نفسها لطيفة، وفي تلك الليالي الحالكة الحارة، كانت النجوم الذهبية تسقط من السماء فتوقظ الرعب والفرح.

وفي الساعة العاشرة صباحاً، كان اليوم الثاني من أيلول، على مثل البهاء الذي وصفنا.

كان ضياء الصباح سحرياً وموسكو من أعلى جبل بوكلونابيا، تنبسط في الأبعاد بنهرها وحدائقها وكنائسها وتبدو وكأنها تعيش حياة خاصة بها، بقبابها البرّاقة تحت أشعة الشمس كالنجوم.

ولما رأى ناپليون هذه المدينة غريبة البناء الأخاذة، شعر بذلك الفضول المشوب بقليل من الحسد والقلق، الذي يشعر به الناس لمرأى خطوط حياة غريبة تجهلهم. كان واضحاً أن تلك المدينة تعيش حياتها الخاصة بكل ما في هذه الكلمة من قوى. وكانت الدلائل التي لا توصف، الدلائل التي تجعل المرء يفرق بها ولو على البعد، جسداً ميتاً من جسد حي، هذه الدلائل جعلت ناپليون من أعلى جبل بوكلونابيا يشعر بسكان هذه المدينة أشبه بأنفاس هذا الجسد الرحيب الرائع.

إن كل روسي يتأمل موسكو يشعر أنها أمّه. وكل أجنبي ينظر إليها، دون أن يعرف معنى الأمومة فيها، تدهشه رغم تلك الصفة النسوية التي لهذه المدينة، ولقد شعر ناپليون نفسه بذلك.

قال ناپليون وهو يترجل عن جواده: هذه المدينة الآسيوية ذات الكنائس الكثيرة، موسكو المقدسة. ها هي ذي أخيراً، هذه المدينة العتيدة! لقد كان الوقت مناسباً.

وأمر أن ينشر أمامه مخطط موسكو ثم استدعى مترجمة ليلورم ديدڤيل وهو يفكر: «إن مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة فقدت عذريتها»، وكان يردد ما قاله في سمولنسك وفي توتشوكوف. ولقد كان يتأمل هذا الجمال الشرقي

الذي تفتح له فجأة ممتداً تحت قدميه وهو يشعر بهذا الشعور. ولقد بدا تحقق ذلك الحلم الذي هدهده منذ زمن طويل، ذلك الحلم الذي بدا له بعيد المنال، نوعاً من الغرابة. فكان في ضياء الصباح الوضاء، ينقل نظره تارة إلى المخطط وطوراً إلى المدينة مدققاً في كل تفصيل، وقد ملأه التأكد من امتلاكها الانفعال والذعر.

كان يقول في سرّه: «ولكن، هل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ ها هي ذي عند قدمي، تلك العاصمة، تنتظر مصيرها. أين ألكسندر الآن وماذا تراه يفكر؟ يا لها من مدينة غريبة ضخمة رائعة! يا لها من لحظة غريبة وجليلة! وهم، تحت أي ضوء يجب أن أبدو لعيونهم؟». هذا ما كان يفكر فيه وهو يذكر جنوده في نفسه. وألقى نظرة على من حوله وعلى جيشه الذي كان يتقدم بنظام جميل: «ها هي ذي، المكافأة لكل هؤلاء القليلي الإيمان. كلمة واحدة مني، إشارة واحدة، فإذا بها تضيع، مدينة القياصرة القديمة هذه لكن رحمتي على استعداد دائماً لتسبغ على المقهورين، يجب أن أبرهن على شهامة ونفس كبيرة حقيقية..

وفجأة فكر: كلا، يستحيل أن أكون قد بلغت موسكو. مع ذلك، ها هي ذي أمامي، بذهب قبابها وصلبانها الذهبية، حيث تتلاعب أشعة الشمس وترتجف. لكن سأحميها. سوف أطبع كلمات العدالة والرحمة الكبيرة على هذه الأبنية، أبنية البربرية والاستبداد. وأنا أعرف أن ألكسندر سوف يقدر هذا رغم كل شيء. «كان يخيل إلى ناپليون أن المعنى الرئيسي للأحداث الجارية يترجم إلى مبارزة شخصية بينه وبين ألكسندر». ومن أعلى الكرملين، لأن هذا هو الكرملين ولا ريب! سوف أعطيهم القوانين العادلة وسأريهم معنى المدينة الحقيقية. سوف أرغم أجيال أشراف روسيا على أن يذكروا المنتصر عليهم بحب. سأقول لوفود ممثليهم إنني ما أردت الحرب ولا أريدها وإنني

ما خضتها إلا بسبب سياسة بلاطهم الكاذبة وإنني أحب وأحترم ألكسندر وإنني مستعد لأن أتقبل في موسكو نفسها صلحاً جديراً بي وبشعوبي. إنني لا أريد الحرب بل أريد السلم وراحة كل أتباعي ورفاههم. «ثم إنني أعرف أن حضورهم سوف يلهمني ما يجب أن أقوله لهم وسوف أكلمهم كما أتكلم دائماً: بوضوح وجلال وعظمة. ولكن هل حقيقة أنا في موسكو؟ نعم، إنها هي نفسها!».

قال وهو يلتفت إلى حاشيته: ليأتوا بالأشراف.

فمضى جنرال تتبعه حاشية لامعة بحثاً عن الأشراف.

ومضت ساعتان، فأكل ناپليون ثم اتخذ المكان نفسه على جبل بوكلونايا بانتظار الوفود. واتخذ الخطاب الذي سيلقى على الأشراف خطوطه الواضحة وأصبح مفعماً بالكرامة والعظمة.

وراحت لهجة الشهامة التي سيتخذها والتي ستخضع موسكو، تخضعه هو نفسه. بدأ يحدد في تفكيره يوم «الاجتماع في قصر القياصرة» حيث سيلتقي كبار السادة الروس مع شخصيات بلاطه الرفيعة وسمى سلفاً الحاكم الذي سيعود انتقاؤه بعطف السكان. ولما علم أن موسكو تضم عدداً من مؤسسات الإحسان فقد قرر أن يغرق هذه المؤسسات بما يغدقه عليها، وكان يفكر في أنه إذا كان في أفريقيا يجب الذهاب إلى الجامع «بالبرنس»، فإنه في موسكو لا بد وأن يظهر محسناً كالقياصرة.

ولكي يكسب عطف الروس نهائياً، قرر ككل فرنسي عاجز عن القيام بأعمال الرفق والحنان دون أن يتذكر «عزيزتي، أمي المسكينة الحنون»، أن يأمر بأن ينقش على مداخل تلك المؤسسات كلها، «مؤسسة مهداة إلى أمي العزيزة» نعم، هذه العبارة وليس «بيت أمي» فحسب. وعاد يفكر مجدداً:

«ولكن، هل من الممكن أن أكون بلغت موسكو؟ نعم، ها هي ذي أمامي. ولكن لماذا تأخرت وفود المدينة عن المجيء كل هذا الوقت».

في تلك الأثناء، في الصفوف الأخيرة من حاشية الأمبراطور، كان الجنرالات والماريشالات المنشغلون يتناقشون بصوت خفيض. لقد عاد أولئك الذين ذهبوا للإتيان بالوفود بنبأ خلو موسكو من السكان الذين نزحوا جميعاً. وكانت الوجوه ممتقعة ومذعورة. لم يكونوا خائفين من إبلاغ النبأ إلى الأمبراطور فكانوا يتساءلون عن الوسيلة التي سيبلغون الأمر إلى جلالته دون أن يضعوه في ذلك الموقف الحرج الذي يسميه الفرنسيون «مستحق الهزء» قائلين له إنه انتظر الأشراف عبثاً وأن موسكو لم يعد فيها إلا الرعاع من السكارى. كان بعضهم يشير بأن تجمع وفود كيفما اتفق والبعض الآخر يبعدون هذه الفكرة مؤكدين وجوب تهيئة الأمبراطور بحذر وحذق لمعرفة الحقيقة.

قال أولئك السادة من حاشيته: يجب إنهاء الخبر رغم كل شيء. ولكن أيها السادة..

كان الموقف يزداد صعوبة لأن ناپليون المستغرق في خططه المتعلقة بعظمة النفس، كان يروح ويجيء متذرعاً بالصبر أمام مخططه المنشور، يبتسم ابتسامة محمومة مبتهجة، ويرفع بين الحين والحين يده إلى طرف قلنسوة أمام عينيه ناظراً إلى طريق موسكو.

وكان الأتباع من رجال البلاط يرددون وهم يهزون أكتافهم دون أن يقرروا النطق بتلك الكلمة الرهيبة التي تحوم على شفاههم: يستحق الهزء:

ـ ولكن هذا مستحيل..

شعر الأمبراطور الذي أتعبه الانتظار، في تلك الأثناء، بإحساس الممثل الهزلي الذي تفرد به أن اللحظة الحاسمة قد طالت أكثر مما ينبغي فبدأ يفقد

جلاله وأومأ بيده. وعندئذ دوى قصف مدفع ليعطي الإشارة إلى القطعات التي كانت تحيط بموسكو من كل الجهات، فلم تلبث هذه أن تحركت نحو مداخل المدينة: تغير، كالوغا، دوروغوميلوڤ مستحثة خطاها، يسبق بعضها بعضاً أثناء المسير، بين مشاة وفرسان وراحت تتقدم سحابة من الغبار وهي تطلق هتافات مدوية.

جرفت حماسة الجنود ناپليون فبلغ معهم مدخل دوروغوميلوڤ. لكنه هناك، أمر بالوقوف وترجّل عن جواده وراح يتنزه على طول حاجز «كوليج دولاشامبر» وهو لا يزال بانتظار الوفود.

الفصل العشرون

كانت موسكو خالية إلّا من بعض السكان طبعاً، في تلك الأثناء، بنسبة واحد إلى خمسين من مجموع السكان العاديين. لكن المدينة كانت كخليّة نذرت للموت برحيل ملكتها.

والواقع أن مثل هذه الخلية تعتبر محرومة من الحياة رغم ما تبدو أنها حافلة بالنشاط للوهلة الأولى كأية خلية.

فالنحل يحوم حولها تحت أشعة الشمس الدافئة حوماً مرحاً يشبه حومه حول خلية حية، ورائحة العسل تفوح من مسافة بعيدة ويرى الناظر النحل يخرج منها. ولكن يكفي مجرد المراقبة لمعرفة أن الحياة مفقودة في تلك الخلية. إن النحل لا يحوم حول الخلايا الحية. بل إن هذه الرائحة نفسها والطنين ليس إياه. فإذا ضرب بعضهم خلية مريضة، فإنه بدلاً من الجواب الفوري الإجماعي الذي يتمثل بانطلاق بضع عشرات الألوف من الحشرات في حالة غليان مشرعة حماتها، تضرب بأجنحتها بجنون محدثة صخب الحياة الشديد، لا ترد الخلية إلا بدندنات منعزلة يتردد صداها في بعض الخلايا الفارغة.

لا يشعر المرء عند دخوله بالرائحة المألوفة، الرائحة الكحولية العطرية، رائحة العسل، والسم، ولا يشعر بالنفحات الفاترة التي تملأ المكان المأهول، بل إن رائحة العسل تمتزج برائحة الفراغ والعفن. ولا يصبح الدخول ممنوعاً من قبل حارسات على استعداد للتضحية بأنفسهن وقد شرعن مؤخراتهن

استعداداً للنزال ولا تُسمع الضجة اللينة للعمل الناشط الذي يشبه الماء في غليانه ولكن حركات غير منظمة، مبعثرة، حركات الفوضى، والذباب الأسود يدخل ويخرج، وهذا الذباب الماكر، ذو الشكل الطويل، المنغمس كله بالعسل، هو سلاب الخلية يهرب حالما يُدفع. أما من قبل، فالعاملات وحدها كانت ترى داخلة بحملها لتخرج خاوية، بينما تذهب الآن مع أسلابها. ويفتح مربي النحل الكوة السفلى وينظر إلى القسم الأسفل من الخلية. وبدلاً من العنقود المألوف من النحل الأدكن الذي يتدلى حتى السطح الأسفل وقد تشبثت النحلة بأختها وراحت تفرز بنشاط شمعها في طنين لا ينقطع. يرى عاملات منهكات خائرات تائهات من جانب إلى آخر، مبعثرات في الأسفل وعلى الجوانب.

وبدلاً من الأرض المطلية بالعبكر المكنوسة بعناية بضربات الأجنحة العنيدة، تناثرت بقع من الشمع في الأسفل وعسل النحل نصف الميت الذي ما زال يحرك أطرافه و«جثث» نحل نافق لم يرفع بعد.

ويفتح مربي النحل بعدئذ الكوة العليا وينظر إلى «رأس» الخلية. وبدلاً من الشهادة الممتنعة التي تحتضن البيض والصفوف المتراصة من النحل، يرى هندسة الأقراص الفنية الحاذقة، لكنها تكون محرومة من ذلك المظهر البتولي الذي كان لها من قبل. فكل شيء مهجور ومدنس، والذباب الأسود، سلاب الخلية قد تسلل بمهارة بين العاملات في حين أن هذه باتت متراخية نحيلة فاشلة، تتيه من هنا إلى هناك أشبه بعجائز ضعيفات، دون أن تتعرض للنهب أو تأبه لشيء وقد فقدت طعم الحياة.

والذكور وذباب البقر وضروب الفراش تتصادم وهي تحوم على الجنبات. وفي وجهة ما، بين الأقراص المليئة بالبيض الفاسد والعسل،

يُلاحظ في حركات فجائية طنين غاضب، وفي مكان آخر، نحلتان عادت بهما غريزة العمل إلى تنظيف عشهما، فراحتا تسعيان جهد طاقتهما لطرح جثث عاملة أو ذكر خارج الخلية دون أن تدركا ما هما فاعلتان. وفي جهة أخرى نحلتان هرمتان تقتتلان بتراخ أو تنظفان جسديهما أو تطعم إحداهما الأخرى دون أن يعرف ما إذا كان نشاطهما ودياً أو عدائياً.

وفي زاوية أخرى كتلة من النحل يسحق بعضها بعضاً، تهاجم ضحية ما وتضربها وتخنقها فتسقط الضحية القتيل ببطء خفيفة كالفقاعة على كوم الجثث. ويقلب المربي قرصي الوسط ليرى العش. وبدلاً من ألوف النحل المتساند ظهراً إلى ظهر، في دائرة سوداء، المقيم هناك لمراقبة سر النقف، يرى حشرات كئيبة محذرة لا تكاد تبلغ بضع مئات وهي في حالة أقرب إلى الموت. فالنحل كله ميت تقريباً، يجهل أن الكنز الذي يحرسه لم يعد له وجود، تفوح منه رائحة عفنة، باستثناء البعض الذي يتحرك ويطير بضعف ليقع في يد المربي وقد بلغ من ضعفه أنه لا يفقد الحياة إذا لسعه. أما البقية الباقية، فكلها ميت، تسقط إلى الأسفل أشبه بإسقاط السمك. وحينئذ، يعيد المربي الكوة كما كانت ويشير إلى الخلية بالحكك ثم يتخير اللحظة المناسبة لإخراج الثول وإحراقه.

هكذا كانت موسكو خالية بينما كان ناپليون المتعب القلق المقطب حاجبيه، يروح ويجيء عند حاجز «كوليج دولاشامبر» منتظراً الوفود، وهو أمر لا يتعدى مجرد مظهر تقليدي، لكنه لا بد منه في رأي ناپليون.

وكان بعض الناس، في مختلف أحياء المدينة، يروحون ويجيئون عاجزين عن قصد معين، تحركهم عادات قديمة، لا يعرفون ما يفعلون.

ولما جاؤوا يعلمون ناپليون بالاحتياطات اللازمة، أن موسكو خالية،

تأمل حامل هذا النبأ بعين ملؤها الغضب ثم استدار وعاد إلى نزهته الصامتة. وأخيراً قال: ليأتوني بعربتي.

صعد إليها مع المساعد العسكري المنوب ودخل الضاحية وهو يردد في نفسه: «موسكو خالية! يا للحدث الذي لا يصدق!».

لم يدخل المدينة بل توقف في خان في ضاحية دوروغوميلوف.

لقد أخفقت المفاجأة المسرحية!

الفصل الحادي والعشرون

ابتداء من الساعة الثانية صباحاً اجتازت قطعاتنا موسكو تجرّ وراءها، حتى بعد الظهر، المبطئين والجرحى. وحدث زحام كبير جداً على جسور ڤيير، موسكـڤا، وإياووزا، طوال فترة مسير الجيش.

وبينما انقسمت القطعات إلى شطرين حول الكرملين تجمعت عند جسري موسكـڤا وڤيير، كان عدد لا يستهان به من الجنود ينتهزون فرصة التوقف والفوضى ليعودوا على أعقابهم وليتسللوا خلسة وبصمت على طول كنيسة «بازيل القديس» الكبرى وليصعدوا عن طريق باب بوروڤيتسكي إلى الساحة الحمراء مدفوعين بحاسة خفية، محدثين أنفسهم أن النهب هنا أسهل منه في أي مكان آخر. اجتاحت هذه الجماعة جوستينيّي دفور من كل المنافذ المؤدية إليه كما هي العادة أيام البيع بأثمان زهيدة. لكن أصوات الباعة المتجولين والمنادين الودودة المغرية لم تعد تردد فيه. ولقد حل محل الجمهور المرقش من المشتريات جنود في أزيائهم أو معاطفهم، غير مسلحين، يدخلون الأروقة بأيد فارغة ليخرجوا منها محملين بالأسلاب. وكان عدد من التجار والمستخدمين المذعورين، وكانوا قلة، يجولون بين هؤلاء الجنود، يفتحون دكاكينهم أو يغلقونها، محاولين بمساعدة الحمالين، أن يضعوا بضاعتهم في مأمن. وعلى ساحة جوستينيّي دفور، راح قارعو الطبول يطلقون النداء إلى الصفوف. لكن دوي الطبل كان بدلاً من أن يجمع الجنود السارقين، يحثهم على الابتعاد أكثر فأكثر. ولم يلبث أن بدا بين العسكريين الذين اجتاحوا

الدكاكين والممرات أشخاص في معاطف رمادية ذوو رؤوس حليقة. وراح ضابطان، أحدهما يتقلد وشاحاً فوق بزته ويمتطي صهوة جواد قصير القوائم هزيل والآخر يرتدي معطفاً طويلاً يصل إلى قدميه، يتحدثان فيما بينهما عند زاوية ايليينكا حيث توقفا. وجاء ثالث يلحق بهما على جواده.

ـ لقد أصدر الجنرال الأمر بطردهم جميعاً بأي ثمن فوراً. هذا أمر لا يوصف! لقد تفرق نصف الجيش.

وصرخ منادياً ثلاثة من الجنود المشاة تسللوا تحت عينيه إلى الأروقة دون أسلحة وقد حسروا أطراف معاطفهم:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ وأنتم يا هؤلاء؟ قفوا، أسافل!

أجاب الضابط الأول:

ـ حاول أن توقفهم! لم تعد هناك وسيلة لإيقافهم! يجب أن نسرع الخطى حتى يبقى الباقون منتظمين في صفوفهم، هذا كل شيء!

ـ كيف نتقدم؟ لقد توقفوا هناك وهم متجمهرون على الجسر لا يستطيعون التقدم أكثر من ذلك. هل ترى يجب وضع سلسلة لمنع الصفوف الخلفية من التشرذم؟

صاح الضابط الكبير: نعم، اذهب إلى هناك. طاردوهم جميعاً!

ترجل متقلد الوشاح واستدعى قارع طبل ثم دخل معه تحت الأروقة فاختفى بعض الجنود فوراً. وتقدم تاجر ذو وجنتين حمراوين تغطي البثور ما حول الأنف وعلى وجهه تعبير حسابي لا يتزعزع، من الضابط مسرعاً وهو يلوح بيديه بتكلف وقال: يا صاحب النبالة، امنحني، أرجوك، حمايتك. لن ندقق كثيراً، إننا في خدمتك. إذا كنت ترغب في جوخ أخرجت لك منه ما تريد، قطعتين أقله لرجل نبيل. إنه في خدمتك لأننا ندرك الأشياء تماماً. ولكن

هذا، ما هذا؟ إنه سلب! ارحمنا! تفضل بوضع حرس حتى نستطيع إغلاق متاجرنا.

ووصل عدد آخر من الباعة يحيط بالضابط. قال أحدهم، وهو نحيل، ذو وجه صارم، يخاطب زميله: إيه! إنك تصرخ ولا تقول شيئاً. عندما يقطع رأس إنسان يجب ألّا يبكي شعره.

ثم التفت نصف التفاتة نحو الضابط وقام بإشارة سريعة من يده وتابع:

ـ انتق ما تشاء، خذ ما تشتهي.

فقال البائع الأول:

ـ أنت يا إيـڤان ڤيدوروڤيتش، إنك تتكلم على هواك. تعال أرجوك يا صاحب النبالة.

وصاح البائع الهزيل: كيف أتحدث على هواي! إن لدي في دكاكيني الثلاثة ما قيمته ثلاثمائة ألف روبل من البضائع فكيف أحتفظ بها إذا كان الجيش راحلاً؟ إننا نعرفه، الشعب. «إن اليد لا تستطيع شيئاً ضد قوة الله».

تابع البائع الأول وهو ينحني بالتحيات: أرجوك، يا صاحب النبالة.

وكان الضابط متردداً ووجهه بكل تقاطيعه ينطق بتردده. وفجأة، صاح وهو يدخل تحت الأروقة بخطى حثيثة: سيان عندي، بعد كل شيء!

كانوا يتخاصمون ويتبادلون الشتائم في حانوت مفتوح عندما اقترب الضابط منه. وكان رجل ذو معطف رمادي ورأس حليق يخرج من الحانوت بعنف مطروداً.

انحنى ذلك الرجل حتى انطوى وتسلل بين البائع والضابط، وانهال الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت. ولكن، في تلك اللحظة، علت صرخات مروعة من حناجر جمهور غفير على جسر موسكـڤا فعاد الضابط مسرعاً إلى الساحة. سأل زميله: ماذا هناك؟ ماذا جرى؟

لكن هذا كان يركض صوب الصيحات على طول كنيسة «بازيل القديس» الكبرى.

امتطى الضابط جواده ولحق به، فلما وصل إلى الجسر، شاهد مدفعين انتزعا من عجلاتهما وجنوداً مشاة سائرين وعربات نقل مقلوبة ووجوهاً مذعورة وجنوداً يتقهقرون. وبالقرب من المدفعين وقفت عربة يقطرها حصانان ووراء العربة، ربطوا أربعة كلاب صيد أحدهما لصق الآخر وعلى العربة جبل من الأمتعة قبعت فوقه، على الذروة، امرأة جلست إلى جانب كرسي أطفال وقدماها في الخواء تطلق صرخات ثاقبة. وروى رفاق الضابط له أن كل تلك الصيحات سببها أمر أصدره الجنرال إيرمولوف، ذلك أنه عندما علم أن الجنود ينهبون الحوانيت وأن السكان متجمهرون قرب الجسر، أمر بأن تنزع المدافع من عجلات القطر وأن تتخذ الاستعدادات لإطلاق القذائف على الجسر، وحينئذ راحت الجماهير تقلب العربات وتتدافع يسحق بعضها بعضاً وتزمجر لكنها أخلت الجسر فتمكّن الجيش أن يواصل تقدمه.

الفصل الثاني والعشرون

كان كل شيء مقفراً في وسط موسكو، في تلك الأثناء، وتكاد تكون الشوارع خالية، وأبواب المنازل والدكاكين مقفلة، وحول المشارب، هنا وهناك، ترتفع بعض الأصوات وبعض أغاني السكارى، فلا عربة واحدة ومن النادر أن تردد خطى عابر سبيل. وفي بوڤارسكايا الفارغة تماماً الصامتة كان فناء منزل آل روستوف الرحب يشهد تناثر القش والأرواث دون أن يضم نفساً حية. وفي ذلك المنزل الذي أبقيت فيه كل ثروة أصحابه، لم يقم غير شخصين في القاعة الكبيرة هما البواب إينياس والخادم الصغير ميشكا حفيد ڤاسيليتش الذي بقي في موسكو مع جده، ولقد رفع ميشكا غطاء الأرغن وراح يعزف بإصبع واحدة بينما وقف البواب أمام مرآة كبيرة واضعاً يديه على وركيه وهو يبتسم ابتسامة بهيجة.

صاح ميشكا الذي راح فجأة يضرب أصابع المعزف بكلتا يديه:

ـ أنظر يا عم إينياس! أنا أعرف كيف أعزف، أليس كذلك؟

فأجاب إينياس وقد سرّه أن يرى على وجهه في المرآة، ابتسامة تزداد إشراقاً: أصدقك!

وقالت مافرا كوزمينيتشنا من ورائهما وقد دخلت خلسة:

ـ ألا تخجلان! حقاً يجب أن تخجلا! وهذا المنفوخ الضخم الذي يقهقه! هذا ما أنتما صالحان له! في حين أن كل شيء ينبغي أن ينظم وڤاسيليتش لا يستطيع الوقوف على قدميه! انتظرا قليلاً!

توقف إينياس عن الابتسام وراح يسوي نطاقه وهو يخفض عينيه مذعوراً وخرج من الغرفة. وقال الفتى الصغير:

ـ أيتها العمة العزيزة سأعزف برفق أكثر.

فصاحت مافرا كوزمينيتشنا وهي ترفع على الفتى يداً مهددة:

ـ وسأذيقك «برفق» ما تستحق، يا فاجر! اذهب وأعد السماور.

مسحت مافرا كوزمينيتشنا الغبار وأغلقت غطاء المعزف ثم خرجت من القاعة وهي تزفر زفرة عميقة ثم أغلقت الباب بالمفتاح.

ولما صارت في الفناء، راحت مافرا كوزمينيتشنا تفكر: أين يجب عليها الذهاب الآن؟ أتذهب لاحتساء الشاي مع ڤاسيليتش في الجناح أم ترتب الأشياء التي لم تنظم بعد في مخزن الأمتعة؟

في سكون الشارع، ارتفعت خطوات سريعة ثم توقفت أمام باب الفناء الصغير وراح الرتاج يصل تحت يد تعالجه لتفتحه.

اقتربت مافرا كوزمينيتشنا من الباب: من تريد؟

ـ الكونت، الكونت إيليا أندرييـڤيتش روستوف.

ـ وأنت، من أنت؟

فأجاب الصوت الروسي المستحب: إنني ضابط في حاجة إلى رؤيته.

فتحت مافرا كوزمينيتشنا الباب فدخل الفناء ضابط شاب في حوالى الثامنة عشرة من العمر، مستدير الوجه، تذكر تقاطيعه بتقاطيع آل روستوف.

قالت مافرا كوزمينيتشنا بلهجة ودودة:

ـ لقد ذهبوا جميعاً أيها السيد العزيز، لقد رحل السادة أمس مساء.

لعق الضابط الشاب بلسانه وهو واقف قرب الباب وتردد لا يدري أيدخل أم يرحل. صاح: يا له من أمر مؤسف! كان عليّ أن أحضر بالأمس... آه! كم هو مؤسف!..

خلال ذلك، كانت مافرا كوزمينيتشنا تتأمل بانتباه مفعم بالعطف، ذلك الشاب الذي تذكرها تقاطيع وجهه بأسرة روستوف، كان معطفه خلقاً وحذاءاه مثنيين سألته:

ـ ولأي سبب كنت تريد رؤية الكونت؟

فقال الضابط الشاب غاضباً وهو يقترب من الباب استعداداً للخروج:

ـ فات الأوان.. ولا حيلة بالأمر!

ثم توقف وهو في حيرة ثم قال فجأة:

ـ ذلك أنني من أقارب الكونت وكان دائماً جم العطف عليّ. وكما ترين.

ـ وتأمل معطفه وحذاءه بابتسامة مرحة طيبة، لقد بليت كل هذه حتى فنيت ولست أملك شيئاً. لذلك أردت أن أسأل الكونت..

لم تدعه مافرا كوزمينيتشنا ينهي جملته وقالت: انتظر دقيقة صغيرة يا سيدي الطيب، دقيقة صغيرة.

وما إن تخلى الضابط الشاب عن رتاج الباب حتى استدارت مافرا كوزمينيتشنا وذهبت بخطوات العجوز السريعة إلى الفناء الخلفي حيث يقع مسكنها.

وبينما كانت مافرا كوزمينيتشنا مسرعة إلى غرفتها، راح الضابط، مطرق الرأس، متأملاً حذاءيه الممزقين، يروح ويجيء في الفناء وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة: «كم هو مؤسف ألّا أجد عمي، ولكن يا لها من امرأة باسلة! ترى إلى أين ذهبت؟ وددت الآن لو أعلم في أي شارع أسير لألحق بفيلقي الذي يجب أن يكون الآن قريباً من روجوجسكاييا ـ حاجز يقع شرقي موسكو ـ».

ظهرت مافرا كوزمينيتشنا عند إحدى زوايا الفناء وعلى أساريرها مسحة من الذعر المشوب بالعزم الثابت، تمسك بيدها منديلاً معقوداً ذا مربعات. ولما أصبحت على قيد خطوات من الضابط، فكّت المنديل وأخرجت منه

ورقة نقدية بيضاء من ذات الخمسة والعشرين روبلاً مدتها للضابط الشاب برشاقة:

ـ لو أن سعادته كان هنا، بالطبع، كما لقريبه.. وإذن، علني أستطيع.. الآن..

لم تكن مافرا كوزمينيتشنا، في خجلها الشديد، تعرف ماذا تقول. لكن الشاب، دون أن يعترض ودون أن يتعجل، أخذ الورقة النقدية وشكر العجوز، فكررت هذه معتذرة:

ـ لو أن الكونت كان هنا.. ليحفظك الله يا سيدي الطيب.

وتابعت وهي تنحني وترافقه إلى الباب:

ـ ليحفظك الله.

أخذ الشاب يبتسم وكأنه يهزأ من نفسه، ويهز رأسه وانطلق بما يشبه الركض، خلال الشوارع المقفرة ليلحق بفيلقه.

وبقيت مافرا كوزمينيتشنا فترة طويلة أمام الباب المغلق والدموع ملء محجريها، وهي تهز رأسها مفكرة وقد استبدت بها موجة من العطف والحنان تجاه الضابط المجهول الشاب.

الفصل الثالث والعشرون

في شارع فارفاركا في منزل قيد البناء وكانت الطبقة السفلى منه تحوي مشرباً ارتفعت فيه الصيحات وأغاني السكارى. كان اثنا عشر عاملاً يجلسون على المقاعد حول طاولة في غرفة قذرة وقد نضحت وجوههم بالعرق واعتكرت عيونهم، فراحوا وهم في حالة سكرهم الشديد، يفتحون أفواهاً عريضة ويرفعون عقائرهم بالغناء. كانوا يغنون دون مطابقة في الأصوات، بمجهود ليس بدافع الرغبة في الغناء، بل ليبرهنوا على أنهم سكارى تلذذوا بالطعام والشراب.

وكان الواقف الوحيد بينهم، فتى عملاقاً أشقر يرتدي رداء عريضاً أزرق. وكان وجهه ذو الأنف الدقيق، قابلاً للتحلي بصفات الجمال لولا شفتاه المنقبضتان وحاجباه المقطبان وعيناه العكرتان. كان متسلطاً على المغنين، يعتقد بوضوح أنه شخص ما، فيؤرجح فوق الرؤوس بحركة خرقاء جليلة، ذراعه التي شمر عنها كمّه حتى المرفق، وأصابعه القذرة التي كان يباعد بينها على أفضل ما يستطيع. وكان كمّ ردائه يسقط دائماً فيشمره الفتى دون كلال بيده اليسرى وكأن بقاء ذراعه البيضاء المعرقة عارية أمر ذو أهمية. وفي وسط الأغنية، ترددت عند المدخل جلبة مماحكة فأشار الفتى العملاق بيده وصاح بصوت آمر: كفى. معركة أيها الرفاق!

ودون أن يرخي كمّ ردائه، اندفع نحو المرقاة.

اندفع العمال وراءه. لقد جاء العمال ذلك الصباح إلى المشرب تحت

قيادة العملاق حاملين جلوداً من المعمل إلى الخمار ثمن شرابهم. ولما ارتفع صخبهم وضجيجهم اعتقد حدادون في معمل قريب للحدادة أن الحانة معرضة للنهب فأرادوا الدخول إليها بالقوة.

وكانوا عند المرقاة يتبادلون الكلمات، والخمار الذي يدافع عن بابه، مشتبك مع حداد، في اللحظة التي ظهر فيها العمال. فراح الحداد، بعد أن أفلت من يد الخمار، يسقط على الأرض ورأسه تسبق جسمه.

وهجم أحد رفاقه على الباب وأطبق بساعديه على جسد الخمار.

وضرب الفتى ذو الكم المشمر حداداً على ملء وجهه، راح يسعى للدخول وزمجر: أيها الرفاق! إنهم يضربوننا!

وفي تلك اللحظة، وقف الحداد الأول وراح يمر بأصابعه على وجه المدمى وصرخ بصوت أليم:

ـ الغوث! إلى القاتل! إنهم يقتلوننا! النجدة أيها الرفاق!

ونبحت امرأة كانت خارجة من بيت مجاور: أوه! يا إلهي لقد ضربوا رجلاً حتى الموت!

وأحاط جمع من الناس بالحداد ذي الوجه المغطى بالدم. قال صوت يخاطب الخمار: ألا يكفيك أنك تسلب الفقراء وأن تنزع عنهم حتى قميصهم، فأصبحت الآن تطمع في جلودهم؟ أيها اللص!

وقف الفتى العملاق على المرقاة وراح ينقل أنظاره بين الخمار والحداد فترة وكأنه يفكر في أي من الجانبين ينحاز إليه وفجأة صرخ بالخمار: يا قاتل! أوثقوه أيها الرفاق!

صرخ الخمار وهو يدفع الذين ألقوا بأنفسهم عليه وينزع قلنسوته بحركة عنيفة فيضرب بها الأرض؟

ـ هن، يوثقونني أنا!

وكأن تلك الحركة كانت ذات معنى متوعد إذ ترك العمال الخمار وتوقفوا مترددين؛ صاح الخمار وهو يرفع قلنسوته:

ـ أنا أعرفه، القانون، أعرفه معرفة عميقة. سأذهب إلى مديرية الشرطة. آه! هل تظن بأنني لن أذهب؟ ليس من حق أحد الآن أن يقوم بأعمال السلب!

وردد الخمار والفتى العملاق على التعاقب وذهبا معاً على طول الشارع: هيا بنا إذا أردت! هيا بنا.. إذا أردت!

وتبعهما الحداد ذو الوجه المدمى ثم سار العمال والفضوليون على آثارهم وهم يتناقشون ويصيحون.

عند زاوية شارع ماروسييكا، قبالة بناء كبير مغلق المصاريع، يحمل لافتة معمل لصنع الأحذية، وقف حوالى عشرين عاملاً وكلهم نحيلون يرتدون الألبسة الفضفاضة والمعاطف الخلقة.

قال عامل نحيل ذو لحية نادرة وحاجبين كثيفين:

ـ ليعطينا حسابنا حسب الأصول! لقد امتص دماءنا وهو الآن يعتقد أنه بريء الذمة. لقد ماطلنا طوال الأسبوع. والآن وقد بلغنا أقصى حالات العوز، انسل هارباً!

ولما رأى العامل الحذاء الجماعة والرجل الجريح، سكت واستولى عليه وعلى رفاقه فضول لا يقاوم، فانضم معهم إلى الجمهور المندفع.

ـ إلى أين يمضي كل هؤلاء؟

ـ لكن هذا واضح، إلى الشرطة.

ـ قل يا هذا، هل حقيقة أن جيشنا هو المنتصر؟

وبدأت الأسئلة والأجوبة تتقاطع فانتهز الخمار فرصة الهياج العام وتسلل من بين الجماعة عائداً إلى حانته.

وكان العملاق الذي لم يلاحظ اختفاء عدوه، يحرك ذراعه العارية حركات واسعة دون أن يكف عن التحدث بإسهاب لافتاً بذلك إلى نفسه الانتباه العام ولقد كان الفضوليون يحيطون به أكثر من سواه طمعاً في الحصول على جواب للأسئلة التي كانت تشغل بال الجميع.

قال الفتى العملاق بابتسامة دقيقة:

ـ أما أن يعطونا الأوامر وأن يحق الحق، فهذا عمل السلطة! أليس كذلك أيها الناس الشجعان؟ هل يظنون أن ليس هناك سلطة؟ هل يمكن الاستغناء عن السلطة؟ لولا ذلك لنهب كل شيء.

وسمع من بين الجمع قائل يقول:

ـ يا للأكذوبة! إذن، يتركون موسكو هكذا؟ لقد قالوا لك هذا ليسخروا منك فصدقته. إن عدد الجنود ليس قليلاً. ثم يتركونه يدخل! هناك قيادة مهمتها منع ذلك.

وأخذوا يشيرون إلى الفتى العملاق ويقولون: اصغوا إلى ما يقول!

وأمام جدار كيتايي ـ غورود، أحاط فريق من الناس برجل ذي معطف ثقيل من الصوف يمسك بيده ورقة. وكانوا يرددون بين الجمع الذي ما لبث أن انضم إلى الدلال العمومي:

ـ بلاغ. إنهم يقرأون بلاغاً! بلاغ!

كان الرجل ذو المعطف يقرأ منشور الواحد والثلاثين من آب. فلما رأى أنهم أحاطوا به، بدا كأنه يستعيد قواه. لكنه عاد نزولاً عند رغبة العملاق الذي اندفع إلى الصف الأول وطلب إليه أن يقرأ من البداية، فقرأ بصوت فيه رعدة خفيفة:

«غداً، منذ الصباح الباكر، سأذهب إلى زيارة الأمير «عظيم الرفعة» (فكر الفتى العملاق بأبهة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقطب حاجبيه: عظيم الرفعة!) لكي أتشاور معه حول العمل أو مساعدة جيشنا على إبادة العدو. يجب أن نجعل نفسه تمج طعم الخبز» وتوقف المنادي بعد استرسال فصاح العملاق بانتظار: هي! أترى هذا! يا لها من «علقة»! وسوف نفني هؤلاء الزائرين وسنرسلهم إلى الشيطان. وسأعود غداً إلى هنا لأتناول الغداء وعندئذ سنبدأ العمل معاً. ولا نكاد نبدأ حتى ننتهي في الصمت العام. وكان العملاق مطرقاً برأسه أشبه بالمثقل. لا شك أن ما من شخص فهم شيئاً من هذه النهاية. وكانت هذه الكلمات: «وسأعود غداً إلى هنا لتناول الغداء» هي التي تزعج بشكل واضح، المنادي والمستمعين إليه معاً. لقد كان الإدراك العام بحاجة إلى عبارات كبيرة فكانت هنا تبدو بسيطة جداً بل مبتذلة. لقد كانت هذه الكلمات هي نفسها التي يمكن أن يرددها كل منهم وبهذه العبارات نفسها، وبالتالي فإنها لم تكن هي التي يجب أن تصدر عن سلطة عليا.

لزموا جميعهم صمتاً كئيباً وراح الفتى العملاق يحرك شفتيه ويتأرجح من قدم على أخرى. فصاحت أصوات من الصفوف الخلفية من الجماعة.

ـ ماذا لو ذهبنا نسأله الخبر؟.. آه! ها هو ذا!.. ولكن كيف؟.. ولم لا؟.. سوف يقول لنا..

وتركز الانتباه العام على عربة رئيس الشرطة الذي وصل حينذاك إلى الساحة يواكبه اثنان من الفرسان.

ذلك الصباح، ذهب مدير الشرطة، بناء على أمر روستوبتشين، ليضرم النار في بعض المباني وتقاضى لقاء ذلك مبلغاً ضخماً من المال كان يحمله معه. فلما رأى الجمع آتياً للقائد، أصدر الأمر للحوذي بالتوقف.

صاح بالناس الذين راحوا يتوافدون الواحد تلو الآخر ويقتربون من عربته بوجل: ماذا تريدون؟

كرر عندما رأى أنه لم يتلق جواباً: ماذا يريد هؤلاء المتجمهرون؟ قولوا. قال المنادي العمومي.

ـ إنهم يريدون، وفقاً للمنشور، أن يقدموا حياتهم. إنهم يريدون تقديم خدماتهم لا التمرد كما نما عن طريق مولاي الكونت.

صرخ رئيس الشرطة:

ـ إنّ الكونت لم يذهب. إنه هنا، وسوف يعطيكم تعليماته.

ثم أهاب بسائق عربته: إلى الأمام!

تكأكأ الناس حول أولئك الذين سمعوا الكلمات التي تفوهت بها السلطة وهم يتابعون بأنظارهم العربة المبتعدة.

استدار مدير الشرطة نحو الحشد المتكاثر فذعر وقال شيئاً لسائق عربته فضاعف سرعة الجياد.

زمجر العملاق: إنهم يخدعوننا أيها الرفاق! فاقترب من الحاكم نفسه! لا تدعوه يفلت أيها الأولاد! ليقرر لنا حقائق الأمور!

وصرخت أصوات كثيرة: احتجزوه!

واندفع الجمهور وراء العربة.

راح الجمهور وهو يتبع عربة مدير الشرطة، يتوجه بصخب وجلبة نحو لوبيانكا. والناس يتحدثون فيما بينهم:

ـ لقد انسل السادة والتجار بعضهم إثر بعض ولذلك، قضي علينا بسببهم في حين أننا لسنا كلاباً.

الفصل الرابع والعشرون

مساء الأول من شهر أيلول، رجع الكونت روستوبتشين إلى موسكو بعد مقابلة مع كوتوزوف، وقد أصيب بإهانة لعدم دعوة كوتوزوف إياه إلى الاشتراك في المجلس العسكري ولأنه لم يعط أي انتباه عرضه المتعلق بالاشتراك في الدفاع عن موسكو، وأدهشه كذلك الرأي الجديد الذي اكتشفه المعسكر، الذي، تبعاً له، يكون أمن المدينة وعواطفه الشخصية الوطنية ليست أمراً ثانوياً فحسب بل عديمة الأهمية أيضاً. عاد وهو مجروح الكرامة ومذهولاً في آن واحد، وتمدد على كنبة بعد العشاء بكامل ثيابه، فأوقظ في الساعة الواحدة صباحاً من قبل ساع قادم من لدن كوتوزوف يرجوه أن يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات العسكرية المتقهقرة عبر المدينة على طريق ريازان. فلم يكن هذا نبأ حسن الوقع على روستوبتشين. كان يعرف أن موسكو سوف تهجر، ليس منذ مقابلته مع كوتوزوف على جبل بوكلونايا فحسب بل منذ معركة بورودينو، عندما أعلن الجنرالات العائدون إلى موسكو بصوت واحد أن أية معركة جديدة يستحيل وقوعها. ومنذ ذلك الحين، راح يضع في أمكنة آمنة، ممتلكات التاج ليلة إثر ليلة، كما نزحت نصف أسر موسكو بعضها في إثر بعض. مع ذلك، فإن ذلك النبأ الذي تلقاه على شكل كتاب بسيط يحوي أمر كوتوزوف وصله خلال الليل بعد إغفاءته الأولى، مما أدهشه وأغضبه.

ولقد كرر الكونت روستوبتشين فيما بعد في مذكراته مبرراً تصرفاته خلال هذه الحقبة، بأنه كان يهدف حينذاك إلى شيئين هامين: توطيد الأمن في

موسكو وترحيل السكان عنها. فإذا قُبل هذا الهدف المزدوج، فإن كل سلوك روستوبتشين يصبح بعيداً عن اللوم. ولكن، لماذا إذن لم ترحل كنوز الكنائس الموسكوفية والأسلحة والذخائر والبارود واحتياطي الحرب؟ لماذا خدعوا وبالتالي نكبوا ألوفاً من الأشخاص مؤكدين لهم أن موسكو لن تهجر؟ إن الكونت روستوبتشين يجيب:

ـ «لتوطيد أمن المدينة». ولكن لماذا رحلوا أطناناً من الأوراق الرسمية ومنطاد ليبيخ وكثيراً من الأشياء عديمة الجدوى؟

يجيب الكونت روستوبتشين: لكي تترك المدينة فارغة. يكفي أن يكون هناك ما يهدد أمن المدينة العام حتى يصبح أي تصرف مقبولاً.

لم تكن كل بشاعات الإرهاب تهدف هي الأخرى إلا لتوطيد الأمن العام.

إذن، على أي أساس كانت ترتكز مخاوف الكونت روستوبتشين المتعلقة بأمن موسكو عام ١٨١٢؟ ما هي الأسباب التي جعلته يفترض وجود ميول إلى الفتنة في المدينة؟ لقد كان سكانها ينزحون عنها والجيش في تراجعه يملأها. فلماذا كان الشعب لا بد ثائراً حينذاك؟

لا في موسكو، ولا في أي مكان من روسيا، لم تقع حوادث من هذا النوع. لقد بقي في موسكو حتى الأول والثاني من أيلول قرابة عشرة آلاف شخص ولم يقع، إذا استثنينا الجمهرة التي تشكلت في فناء سراي الحاكم، والتي سبب قيامها بنفسه، أي حادث شغب. وإنه من الواضح أن روستوبتشين بعد بورودينو، عندما بات لا مندوحة من إخلاء موسكو أو أقله، أصبح إخلاؤها متوقعاً، كان يستطيع بدلاً من إلهاء السكان بتوزيع الأسلحة والمناشير أن يتخذ الاحتياطات التي لا بد منها لنقل كنوز الكنائس والبارود والعتاد والمال، وأن يعلن بصراحة إخلاء موسكو فيقضي على كل خوف من التمرد الشعبي.

لقد عاش روستوبتشين دائماً، وهو الشخص ذو العقلية الغضوب الدموية، في أجواء الإدارة العليا فلم تكن لديه، رغم وطنيته الملتهبة، أية فكرة عن الشعب الذي يزعم أنه يحكمه. لقد اتخذ روستوبتشين لنفسه، منذ دخول العدو إلى سمولنسك، دور مدير وجدان الشعب الروسي في «قلب روسيا». وكان يعتقد (ككل إداري) أنه ليس على رأس تظاهرات سكان موسكو الخارجية فحسب بل إنه كذلك يوجه عواطفهم بنداءاته ومنشوراته التي استخدم فيها لغة لصوص المجتمع الراقي، وهي لغة يمقتها الشعب ولا يفهمها عندما تفوح بالسلطة. وكان هذا الدور، دور قائد الشعور الشعبي، يفتن روستوبتشين ويرتاح إليه لدرجة أن الخروج منه بالجلاء الإلزامي عن موسكو دون أي عمل بطولي كان أوقع مفاجأة عليه.

خيل إليه أن الأرض تميد تحت قدميه فلم يعد يعرف ماذا يعمل. وعلى الرغم من معرفته الأكيدة بالأحداث، فإنه رفض بكل روحه أن يصدق فكرة مغادرة موسكو حتى اللحظة الأخيرة. لقد ذهب السكان ضد موافقته. وإذا كانوا قد أخلوا المكاتب والوزارات فإن ذلك كان بناء على طلب الموظفين أنفسهم، فلم يسمح لهم به إلا مكرهاً. لم يكن يهتم إلا بالدور الذي عزاه في خياله إلى نفسه. وكان يعرف منذ زمن بعيد أن موسكو ضائعة لا محالة، كما يحدث غالباً لذوي الخيال الخصب، لكنه لم يكن يعرف ذلك إلا من الناحية المنطقية: فلقد كان يرفض بكل قواه الروحية أن يصدق أو أن ينقل نفسه على أجنحة الخيال الموقف الجديد.

ولقد اندفع نشاطه اللاهب وحيويته كلها.

ـ ماذا كان جدوى ذلك النشاط وأي أثر له في نفوس الشعب، ذلك بحث آخر المشاعر. لقد اندفع كل نشاطه نحو ضرورة إيقاظ المشاعر التي تعتلج في نفسه وفي نفوس السكان، إيقاظ الحقد الوطني على الفرنسي والثقة بالنفس.

وعندما اتخذت الأحداث نسبها التاريخية الحقيقية، عندما خيل أن إظهار الحقد على الفرنسيين بلغة الكلام وحدها لم يعد كافياً، عندما أصبح يستحيل إظهار الحقد حتى عن طريق القتال، عندما بدا الإيمان بالذات عديم الجدوى في كل ما يتعلق بمسألة موسكو، عندما تدفق السكان من موسكو هاجرين ممتلكاتهم، تدفق السيل، مظهرين بهذه البادرة العمياء كل قوة شعورهم القومي، عندئذ، ظهر الدور الذي اضطلع به روستوبتشين عديم المعنى فارغاً. شعر روستوبتشين أن الأرض تميد تحت قدميه ورأى نفسه فجأة وحيداً ضعيفاً يثير السخرية.

وعندما قرأ رسالة كوتوزوف الجافة الآمرة، كان مبلغ روستوبتشين الذي استيقظ منتفضاً كافياً ليجعله يشعر بذنبه بأكثر وضوح. لقد بقي كل ما أنيط به بصراحة، كل الممتلكات التابعة للدولة التي كان عليه إخراجها من منطقة الخطر، ظلت كلها في موسكو وبات إجلاؤها ضرباً من المستحيل.

راح يفكر دون أن يحدد لنفسه من هم «السفلة» و«الخونة» الذين ورد ذكرهم في كلامه: «من هو المذنب إذن؟ حالة الأمور هذه، من الذي سببها؟ لست أنا بكل تأكيد. لقد أعددت أنا كل شيء وكنت أمسك بموسكو في يدي! وكيف! وها هو المدى الذي وصلنا إليه! سفلة! خونة!» لكنه كان مدفوعاً بضرورة مقت السفلة الخونة، هؤلاء المخلوقات الذين وضعوه في الموقف الخاطئ الداعي إلى السخرية.

استمر روستوبتشين طوال الليل يصدر الأوامر للذين جاؤوا من كل جهات موسكو يطلبونها إليه. ولم يره المحيطون به قط على مثل تلك الحالة من الكآبة والانفعال. راحوا طوال الليل يسألونه دون توقف:

ـ يا صاحب السعادة، لقد جاؤوا يسألونك الأوامر من جانب مدير الإقطاعيات.. من جانب مجمع المطارنة، مجلس الشيوخ، الجامعة، الميتم،

النائب الرسولي الأكبر.. ما هي أوامركم لرجال المطافىء؟ لمدير السجن، لمدير المأوى؟

وكان يجيب عن كل هذه الأسئلة إجابات مقتضبة ثائرة تدل على أن أوامره لم يعد لها أهمية، الآن بعد أن دمر آخرون، عمله الذي أعده بعناية فائقة، وأن هؤلاء «الآخرون» سيتحملون كامل مسؤولية الأحداث الدائرة.

أجاب روستوبتشين عن سؤال رسول دائرة الإقطاعيات:

ـ اذهب وقل لذلك الأخرق أن يقف حارساً أمام أوراقه. ثم ما هذا السؤال السخيف بصدد فريق الإطفاء؟ إن لديهم جيادهم فليذهبوا إلى ڤلاديمير، على حوالى ٣٠٠ كم عن موسكو، إذا لا ينبغي أن نتركهم للفرنسيين.

ـ يا صاحب السعادة، لقد جاء مراقب دار المجانين فماذا يجب أن نقول له؟

ـ ماذا تجيبونه؟ ليذهبوا جميعاً، هذا كل شيء.. أما المجانين، فليطلقوا سراحهم في المدينة! ما دام المجانين باتوا الآن يقودون الجيش عندنا، فإن الله يريد ذلك.

وعندما تحدثوا إليه عن السجناء المكبلين بالحديد في أعماق زنزاناتهم، صرخ الكونت في وجه مراقب السجن وهو غاضب:

ـ ماذا تريد؟ هل يجب أن نقدم لك لواءين لحراستهم؟ لست أملك اللواءين فأطلق سراحهم، هذا كل شيء!

ـ يا صاحب السعادة، والسجينان السياسيان مييشكوف وڤيريشتشاغين؟

ـ ڤيريشتشاغين؟ ألم يشنق بعد؟ ليأتوني به!

الفصل الخامس والعشرون

كانت القطعات قد بدأت تجتاز موسكو، حوالى الساعة التاسعة صباحاً، فلم يعد يتقدم أحد لتلقي الأوامر. فقد ذهب كل من استطاع مستخدماً وسائله الخاصة. أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يقررون بأنفسهم ما عليهم أن يقوموا به.

أعطى الكونت أمراً بتجهيز عربة له تقله إلى سوكولنيكي وراح ينتظر في مكتبه مصفرّ الوجه، متجهم الأسارير، معقود الذراعين.

أثناء السلم، يعتقد كل إداري أن الفضل في سير كل المواطنين الذين عهد أمرهم إليه يعود إلى قيادته زمام حركتهم ويجد في إيمانه بأنه لا غنى لهم عنه، المكافأة الرئيسة على عمله ومجهوده. وطوال الهدوء الذي يخيم على محيط التاريخ، يعتمد ذلك الربان الإداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة، يقدمه على سفينة الدولة، ليتقدم هو نفسه. ويتمكن هذا الربان، وهذا أمر ملموس، أن يعتقد أنه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية. ولكن إذا ما هبّت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الأمواج وجُرحت السفينة، فإن ذلك الوهم يصبح مستحيلاً فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلة، وربان السابحة يكتشف أنه ليس الرئيس، مبعث كل قوة، بل رجلاً ضعيفاً غير ذي فائدة، تافهاً ومسكيناً.

وهذا ما كان يحس به روستوبتشين وما كان يثير حفيظته.

ودخل رئيس الشرطة، ذاك الذي أوقفه الجمهور، على الكونت في

اللحظة التي وصل مساعده يعلن أن الجياد جاهزة. كان كلاهما شاحب الوجه فأعلن مدير الشرطة بعد أن كشف عن إنجازه مهمته، أن الفناء يعج بجمهور غفير يرغب في رؤية سعادته.

اجتاز روستوبتشين دون أن ينطق بكلمة القاعة المشرقة الفخمة واقترب من باب الشرفة فأمسك بمقبضه ثم أفلته. وجاء إلى نافذة أخرى يمكن مشاهدة الجمهور كله منها. كان الفتى العملاق في الصف الأول، صارم الوجه يتابع أحاديثه وهو يشير بيديه. وكان الحداد ذو الوجه الدامي واقفاً إلى جانبه مربد الأسارير وزمجرة الأصوات تبلغ الأسماع من وراء النوافذ المغلقة.

سأل روستوبتشين وهو يغادر النافذة: هل العربة جاهزة؟

فقال المساعد: هي جاهزة يا صاحب السعادة.

اقترب روستوبتشين من الشرفة مرة أخرى ثم استدار نحو مدير الشرطة واستعلم: ولكن، ماذا يريدون؟

إنهم يصرخون، يا صاحب السعادة، بأنهم اجتمعوا ليتّجهوا إلى الفرنسيين تبعاً لأوامركم وأنهم خينوا. إنهم طائفة من اللغاطين يا صاحب السعادة ولقد أفلت منهم بصعوبة كبرى. يا صاحب السعادة، لو حق لي أن أعرض...

زمجر روستوبتشين غاضباً:

ـ تفضل بالانسحاب. أنا أعرف ماذا يجب عليّ أن أعمله بدونك.

وراح ينظر إلى الجمهور من باب الشرفة. فكر والغضبة الهوجاء تغلي في أعماقه ضد ذلك الذي يمكن أن يُعزى إليه كل ما جرى فجأة:

«ها هو ذا ما فعلوه بروسيا! هذا هو الأسلوب الذي يعاملونني به!» وكما يحدث عادة للأشخاص الغضاب، كان الغضب يجتاحه لكنه ما زال يبحث عن الغرض. راح يفكر في نفسه دون أن يبارح الجمهور بعينيه: «ها هم أولاء تفاهة الناس. حثالة الشعب الذين ألبوهم بحماقتهم». وعقب وهو يتابع بعينيه

الفتى العملاق وهو يلوح بيديه: «لا بد لهم من ضحية». ولقد راودته هذه الفكرة فجأة لأنه كان في حاجة إلى تلك الضحية لتجد غضبته سبباً. كرر: هل العربة جاهزة؟

فقال المساعد العسكري: نعم يا صاحب السعادة. أية أوامر تعطيها بصدد فيريشتشاغين؟ إنه ينتظر قرب المرقاة.

فزمجر روستوبتشين وكأن ذكرى فجائية طافت بخياله:

ـ آه!

وفجأة، فتح باب الشرفة وتقدم بخطى ثابتة فسكتت الأصوات ورفعت القلانس والقبعات وشخصت الأنظار كلها إلى روستوبتشين.

صاح دائرياً وبصوت مرتفع:

ـ مرحى يا أبناء! وشكراً إذ جئتم. سوف أنزل من فوري إلى صفوفكم ولكن يجب قبل كل شيء تسوية حساب المجرم. يجب أن نعاقب المجرم الذي سبب ضياع موسكو. انتظروني!

واختفى الكونت داخل غرفه بمثل السرعة التي ظهر فيها، وانصفق باب الشرفة بعنف.

وطافت بالجمهور همسة ارتياح وبدأ الناس يتحادثون وكأنهم يتبادلون الاعتذار لضعف إيمانهم: «هن! سوف يخلصنا من المجرمين! وأنت الذي كنت تقول إنه فرنسي.. سوف يريك ما هو النظام!».

خرج ضابط، بعد دقائق، من مدخل الشرفة مسرعاً فأصدر أمراً لم يلبث بعض الفرسان بعده أن وقفوا في وضعية «تنكب سلاحك». فكف الجمهور عن النظر إلى الشرفة وتقدم بينهم نحو المرقاة.

وكان روستوبتشين في تلك اللحظة قد وصل بخطوات سريعة فجال بعينيه فيما حوله وكأنه يبحث عن شخص ما.

سأل الكونت: أين هو؟

وفي اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات، شاهد شاباً رقيقاً ذا عنق طويل، ورأس حليق حتى وسطه، وقد بدأ شعره ينبت من جديد، آتياً من زاوية البيت يخفره اثنان من الجنود، كان مرتدياً «فروة» كانت فيما مضى أنيقة جداً، بدون شك، يغطيها جوخ أزرق على فراء ثعلب مهترئ من الاحتكاك. وكانت سراويله الخاصة بالسجناء المصنوعة من الكتان ممزقة وقذرة وقد أدخلت في ساقي الحذاء الدقيقين القذرين المثنيين، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعيق ساقيه الهزيلتين تجعل مشيته أشبه بالمترددة.

صاح روستوبتشين الذي أشاح بسرعة عن الشاب وأشار إلى آخر درجة من المرقاة: آه: ليأتوا به إلى هنا!

فصعد الشاب الدرجة المعينة وهو يتقدم بتثاقل مصحوباً بصليل السلاسل وأزاح بإصبعه ياقة معطف الفراء التي كانت تزعجه وأدار مرتين عنقه الطويل ثم عقد وهو يزفر، يديه الناحلتين اللتين لم تمارسا عملاً على بطنه.

ساد الصمت بضع ثوان بينما كان الشاب يقف على الدرجة، باستثناء بعض النحنحات والأنات وبعض فورات الغضب العابرة وقليل من الرديء في الصفوف الخلفية.

راح روستوبتشين يمرر يده على وجهه ويقطب حاجبيه منتظراً أن يتخذ الشاب مكانه على درجة المرقاة، وفجأة، قال بصوت معدني رنان:

ـ أيها الأولاد! هذا الرجل هو ڤيريشتشاغين، السافل الذي سبب ضياع موسكو.

اتخذ الشاب ذو معطف فراء الثعلب وضعية متواضعة، عاقداً يديه أمامه حانياً جذعه قليلاً، وكان وجهه الفتي الناحل ذو الأمارات اليائسة، الذي شوهه رأسه الحليق، منحنياً بعناد، ولقد رفع جبهته ببطء عندما فاه الكونت بكلماته

الأولى ونظر إليه من أسفل وكأنه يهم أن يقول له شيئاً أو أقله أن يقابل نظرته، لكن روستوبتشين لم يكن ينظر إليه، وقرب الأذن، على طول عنق الفتى النحيل، عِرق أزرق أشبه بالحبل الممدود وأصبح وجهه فجأة بلون الأرجوان.

شخصت العيون كلها إليه فراح يتأمل الجمهور. ولعل تعابير الوجوه التي طالعته، شجعته، فطافت على شفتيه ابتسامة حزينة مذعورة ومجدداً أطرق برأسه لكنه نصب قامته على الدرجة.

قال روستوبتشين بقسوة دون أن يرفع صوته وهو يحط بنظرة على ڤيريشتشاغين:

ـ لقد خان أمبراطوره ووطنه وباع نفسه لبوناپرت، إنه وحده بين الروس الذي لوث شرف الاسم الروسي وبسببه ضاعت موسكو.

وكأن صغار موقف الشاب سبب في نفسه انفجاراً، إذ رفع يده وقال في شبه زمجرة وهو يخاطب الجمهور:

ـ احكموا عليه بأنفسكم! إنني أهبه لكم!

بقي الجمهور صامتاً تتكاثف صفوفه، وكانوا جميعاً متراصين بعضهم إلى جانب البعض الآخر، وقد امتنع عليهم التنفس والحركة، ينتظرون حدوث شيء مجهول، شيء غامض رهيب.

وكان الذين في الصفوف الأولى، الذين يرون ويسمعون ما يحدث مذهولين وقد جحظت عيونهم، وفغروا أفواههم، يقاومون بكل قواهم موجة الذين من ورائهم.

صاح روستوبتشين: اضربوه الخائن الذي لوث شرف الاسم الروسي! مزقوه! آمركم بذلك!

ولدى سماع الجمهور لهجة روستوبتشين الغاضبة وليس كلماته، ندّ عنه ما يشبه الزمجرة وارتعش لكنه عاد إلى جموده.

نطق ڤيريشتشاغين بصوت وجل ومسرحي معاً في اللحظة التي ساد فيها الصمت:

ـ كونت! أيها الكونت، إن الله وحده قاضينا!

ورفع رأسه فعاد الدم مجدداً ينفخ العرق الضخم في العنق الهزيل بينما راح الدم يتصاعد إلى وجهه ويبارحه بسرعة، لكنه لم يستطع متابعة الكلام إذ زمجر روستوبتشين فجأة وقد حاكى امتقاع وجهه امتقاع ڤيريشتشاغين:

ـ مزقوه! آمر بذلك!

ونضا ضابط الحرس حسامه من غمده وصاح:

ـ أشهروا السيوف!

واستفزت الجمهور موجة أقوى من السابقة بلغت الصفوف الأولى فجعلتها تندفع مترنحة حتى درجات المرقاة، وبات العملاق قرب ڤيريشتشاغين وقد ظهر الروع على وجهه وإن ظلت يده مشرعة. وقال الضابط بصوت لا يكاد يسمع: أثخنوه جراحاً!

فضرب أحد الجنود وقد صعر وجهه فجأة بالغضب، ڤيريشتشاغين بعرض سيفه على رأسه، فصرخ التاعس وقد فوجئ بالضربة:

ـ آه!

وظهر الذعر في عينيه دون أن يبدو عليه أنه فهم ما يريدونه منه، وطافت بالجمهور زمجرة ذعر وذهول وصاح بعضهم بحزن: «أوه! يا إلهي!».

ولكن، بعد صيحة الذهول تلك، أطلق ڤيريشتشاغين صيحة أخرى، من الألم هذه المرة، فكانت تلك الصرخة سبب ضياعه. لقد تحطم شعور الإشفاق الذي توتر إلى أقصى الدرجات فاستوقف الجمهور، تحطم فجأة فكانت الجريمة التي شُرع بها واجبة الإنهاء. وضاعت أنّة الرجل المتألمة وسط زمجرة الجمهور الحاقدة المتوعدة، وكما تبتلع موجة سابعة وأخيرة

باخرة غارقة، فإن الموجة الأخيرة التي لا تقاوم من الغضبة الشعبية انتقلت من الصفوف الخلفية إلى الأمامية فأغرقتها وابتلعت كل شيء، أراد الجندي الذي ضرب أول مرة أن يضرب مرة أخرى فاندفع ڤيريشتشاغين نحو الجمهور ماداً يديه إلى الأمام وهو يطلق صرخات مذعورة. فغرس الفتى العملاق الذي اصطدم به أظفاره في عنقه النحيل وتدحرج معه تحت أقدام الذين راحوا يندفعون إلى الأمام.

راح البعض يضربون ڤيريشتشاغين ويمزقون ثيابه في حين راح الآخرون ينهالون على العملاق ضرباً. ولقد أبلغت صيحات الذين كانوا على وشك الاختناق من الزحام والذين أسرعوا لنجدة العملاق، الغضبة الجماهيرية إلى ذروتها فلم يخلص الجنود العامل المدمى وهو على حال أقرب إلى الموت إلا بشق النفس. وبقي الأشخاص الذين راحوا يضربون ڤيريشتشاغين ويخنقونه ويمزقونه، فترة طويلة رغم الغضب اللاهب الذي حفز الجمهور على إنهاء الجريمة التي بدأ بها، وقتاً طويلاً عاجزين عن القضاء عليه. كانوا متدافعين من كل الجهات يترنحون ويتقاذفون يميناً ويساراً لا يتوصلون إلى توجيه الضربة القاضية إليه ولا إلى الإبقاء عليه.

ـ ضربة بلطة موفقة، هن؟.. هل نفق؟.. الخائن، يهوذا! كلا، لا زال يتنفس!.. إن روحه مرنة!.. لم يلق إلا ما يستحق!.. ضربة بلطة! هل انتهى!

ولما كفت الضحية عن التخبط، وحلت الحشرجة الطويلة محل صرخاتها، كف الجمهور أخيراً عن التدافع حول الجثة الدامية. راح كل شخص الآن يقترب ليلقي نظرة فيأخذه الخوف والخزي والتكبيت وينسحب وقد أصبح شديد الصغار.

وكانوا يرددون: «أوه! يا إلهي، الشعب، يا للوحش الضاري! كيف كان يستطيع أن يعيش بعد كل هذا؟ ثم يا له من شاب يافع!. لا ريب أنه كان مدللاً!

آه! الشعب! يقولون إن الفاعل ليس هذا.. كيف ليس هو؟.. آوه! يا إلهي! والآخر الذي ضربوه، يقولون إنه هو الآخر نصف ميت!.. أوه! الشعب.. الذي لا يخاف الخطيئة..» هذا ما كان يقوله الأشخاص أنفسهم الذين راحوا الآن يتأملون بحنان رؤوف جثة ڤيريشتشاغين الذي راح وجهه يزرق وقد غطاه الدم والغبار والذي كان عنقه النحيل نصف مفصول.

وأراد شرطي أن يظهر غيرة بعد أن وجد أن بقاء تلك الجثة في فناء سعادته أمر غير لائق، فأمر الجنود بجرها إلى الشارع. فأمسك جنديان بساقي ڤيريشتشاغين المحطمتين وجراه خارجاً فكان الرأس الحليق الملوث بالدم والغبار في نهاية العنق الدقيق الطويل، يقفز على الأرض ويصطدم بها، وابتعد عن الجثة.

عندما سقط ڤيريشتشاغين، وبينما أخذ الجمهور الثائر يتدافع ويصطخب حوله وفوقه، شحب وجه روستوبتشين فجأة وبدلاً من الذهاب إلى المرقاة الخلفية حيث كانت عربته تنتظره، راح بخطوات آلية يمشي مطرق الرأس مسرعاً، في الممشى المؤدي إلى غرف الدور الأرضية. كان ممتقع الوجه لا يستطيع ضبط فكه الأسفل عن الارتجاف كالمصاب بالحمى، وكان صوت مذعور مرتعد يردد خلفه:

ـ من هنا يا صاحب السعادة. إلى أين ترغب في الذهاب؟ من هنا إذا أمرت.

لم يكن الكونت روستوبتشين في حالة تمكنه من الإجابة، لكنه عاد بخضوع على عقبيه فسار في الاتجاه الذي أشير به عليه. وكانت عربته تنتظر عند المرقاة الخلفية وزمجرة الجمهور الصاخب تصل إلى هناك. صعد الكونت روستوبتشين إلى عربته وأصدر أمره بالذهاب إلى منزله الريفي في سوكولنيكي.

عندما بلغ مياسنيتسكايا، ولم يعد يسمع صراخ الجمهور، اجتاح الأسف الكونت روستوبتشين. تذكر فجأة الاضطراب والخوف اللذين ترك مرؤوسيه يرونهما عليه فحدث نفسه بالفرنسية وهو حانق على نفسه: «إن الرعاع مخيفون، إنهم كريهون. إنهم كالذئاب الذين لا يمكن تهدئتهم إلا باللحم!» وعادت إلى ذاكرته كلمات ڤيريشتشاغين: «كونت! إن الله وحده قاضينا!» فاجتازت ظهره قشعريرة باردة. لكن هذا الشعور كان موقتاً إذ لم يلبث الكونت روستوبتشين أن ابتسم لنفسه ابتسامة محتقرة. فكر: «كانت لدي واجبات أخرى. كان ينبغي أن أهدئ الجمهور. إنّ ضحايا كثيرة أخرى قضت وتقضي للمصلحة العامة». وحينئذ راح يفكر في الالتزامات المتطلبة منه تجاه أسرته وحيال المدينة (المعهود أمرها إليه) وحيال نفسه، ليس حيال شخص فيدور ڤاسيلييـڤيتش روستوبتشين (وكان يرى أن هذا يضحي بنفسه من أجل المصلحة العامة) ولكن حيال الحاكم، متسلم السلطة وممثل الأمبراطور. «لو إنني لم أكن إلا فيدور ڤاسيلييـڤيتش، لأرتسم خط سلوكي على نحو آخر. لكنني كنت مضطراً إلى أن أصون حياة الحاكم وكرامته».

راح يتأرجح فوق نوابض عربته المرنة بعيداً عن الزمجرات الجماهيرية الكريهة، ويتذوق طعم الراحة الجسدية. ولقد أتت الراحة الجسدية كالعادة بالهدوء الفكري. لم تكن الفكرة التي هدأته جديدة. فمنذ أن وجد العالم وراح الرجال يقتتلون، لم تقع جريمة ما دون أن يجد فاعلها لنفسه مبرراً في قوله لنفسه إنها ارتكبت للمصلحة العامة أو لسعادة الآخرين المزعومة.

وتبقى سعادة الغير هذه، مجهولة من الرجل الذي لا يعميه هواه. لكن الرجل الذي يندفع حتى يبلغ الجريمة، يعرف دائماً وبكل تأكيد، ممن تتألف. وكان روستوبتشين الآن يعرف هذه السعادة.

لم يكن ضميره ولا يأخذ عليه ذلك الفعل الذي قام به فحسب، بل إنه

كان كذلك يجد المبررات ليكون راضياً عما فعل لأنه استخدم هذه المناسبة لمعاقبة مجرم وتهدئة الجمهور في آن واحد.

فكر روستوبتشين: «لقد حوكم ڤيريشتشاغين وحكم عليه بالموت، في حين أن مجلس الشيوخ لم يحكم عليه إلا بالأشغال الشاقة، لقد كان ماكراً وخائناً فما كنت أستطيع أن أتركه دون عقاب، وبذلك اصطدت عصفورين بحجر واحد. لقد أعطيت ضحية للشعب لأهدئه وعاقبت سافلاً.

وعندما وصل إلى منزله الريفي، أصدر الكونت الذي هدأت أعصابه نهائياً، أوامره بالإقامة هناك.

وبعد نصف ساعة، كان يجتاز سهل سوكولينكي جرياً بقوة الجياد البطرة دون أن يعود إلى التفكير في ما حدث منذ حين، مقتصراً بتفكيره على المستقبل قاصداً جسر إياووزا الآن، حيث قيل له إنه سيجد كوتوزوف.

كان الكونت روستوبتشين يعد في خياله التعنيف القاسي الغاضب الذي سيوجهه إلى كوتوزوف جزاء مكره. سوف يجعل هذا الثعلب العجوز المتملق يشعر بأن مسؤولية كل المصائب الناجمة عن ترك موسكو، المصائب التي سينجم عنها ضياع روسيا (حسب تنبوءات الكونت)، تقع على رأس العجوز ضعيف الذكاء بكليتها. وراح روستوبتشين وهو يفكر في ما سيقوله، لا يستقر في عربته من الغضب ويلقي حوله نظرات ساخطة.

كان سهل سوكولنيكي قاحلاً وعند أقصاه قام المستشفى ومأوى العجزة. فكانت ترى جماعات بثياب بيضاء وبعض الأشخاص المنعزلين الذين يبدون كأنهم يهيمون على وجوههم وهم يلوحون بأيديهم ويزمجرون.

كان أحد أولئك الأشخاص قادماً لاستقبال العربة فراح الكونت روستوبتشين نفسه وسائق عربته وحراسه من الفرسان، راحوا جميعهم

ينظرون بتطلع ممزوج بالهلع إلى أولئك المجانين الذين حرروا منذ حين وبصورة خاصة إلى ذلك الذي يقترب منهم.

راح المجنون يترنح على ساقيه الهزيلتين في ثوب منزلي فضفاض وعيناه شاخصتان إلى روستوبتشين وأخذ يصرخ له بصوت صدئ وهو يشير إليه بالوقوف. وكانت لحيته غير الكاملة تشكل خصلات غير منتظمة حول وجهه النحيل الأصفر، ووجهه الكالح المكتئب خطير وصارم وحدقتاه بلون الزجاج الأسود تتراقصان في أعماق عينيه الكئيبتين زعفرانيتي اللون. بدأ يصرخ بصوت مدوٍ: قف! قف آمرك أن تقف!

ثم عاد لاهث الأنفاس ويشيح بيديه بحركات واسعة.

وعندما أصبح بإزاء العربة راح يركض بجانبها. صاح وصوته يعلو أكثر فأكثر:

ـ ثلاث مرات، لقد قتلوني ثلاث مرات ونشرت من بين الموتى!.. لقد مزقوني وصلبوني.. وسوف أبعث.. سأنشر. لقد مزقوني إرباً إرباً. سوف ينهار ملكوت الله. سوف أهدمه ثلاث مرات ثم سأقيمه ثلاث مرات!

وفجأة امتقع وجه الكونت روستوبتشين كما حدث في اللحظة التي ألقت الجماهير بنفسها على ڤيريشتشاغين فأشاح بوجهه وصرخ بالحوذي بصوت مرتجف:

ـ بسرعة.. بسرعة أكثر!

فانطلقت العربة بأقصى سرعة، لكن الكونت روستوبتشين بقي فترة طويلة يسمع صيحة المجنون اليائسة الآخذة بالخفوت تدريجاً في البعد في حين بدأت تظهر أمام عينيه تقاطيع وجه الخائن في معطفه الفراء، ذلك الوجه المذهول المأخوذ الدامي.

كانت هذه الذكرى لا تزال قريبة. لكن روستوبتشين شعر بها الآن مغروزة

في أعماق نفسه. كان يشعر أن أثرها الدامي لن يمحى وأنه على العكس كلما تقدمت به السنوات عاشت هذه الذكرى في قلبه قاسية معذبة. كان يسمع ويعتقد أنه يسمع صدى كلماته الشخصية: «فرقوه بسيوفكم، أنتم مسؤولون عنه بحيواتكم». وفكر: «لماذا قلت هذه الكلمات؟ لقد نطقت بكل هذا دون أن أفكر فيه تقريباً. كنت أستطيع ألّا أقوله وما كان شيء ليحدث». عاد يرى الوجه المروع الذي أصبح فجأة غاضباً، وجه الجندي الذي كان أول من ضرب والنظرة الصامتة المفعمة باللوم التي ألقاها عليه ذلك الفتى في ردائه المصنوع من فراء الثعلب. فراح يكرر لنفسه: «لكنني لم أفعل هذا من أجل نفسي. لقد كنت مرغماً عليه. الرعاع، الخائن.. المصلحة العامة».

وكان الجيش يتزاحم على جسر إياووز والحرارة شديدة. وكان كوتوزوف جالساً حزيناً على مقعد قرب الجسر مقطب الحاجبين ينكت الرمال بطرف سوطه عندما اقتربت منه عربة في جلبة صاخبة وتقدم إليه رجل في بزة جنرال يضع على رأسه قبعة ذات ريش، له نظرة تائهة تجمع بين الانفعال والخوف وراح يحدثه باللغة الفرنسية. ذلك كان الكونت روستوبتشين. قال لكوتوزوف إنه جاء يلحق به لأن موسكو والعاصمة لم يعد لهما وجود ولأنه لم يبق إلا الجيش. وأكد:

ـ وكان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك لو أن سموكم لم تؤكدوا لي أن موسكو لن تسلّم أقله دون قتال. إن كل هذا ما كان ليحدث!

تأمل كوتوزوف روستوبتشين وكأنه لم يفهم معنى كلماته وبدا كمن يحاول بكل قواه ليقرأ شيئاً ما خاصاً كان ينم عنه وجه الرجل الذي يحدثه في تلك اللحظة. وانتهى الأمر بروستوبتشين المضطرب إلى الصمت. هز كوتوزوف رأسه ببطء وقال بلهجة هادئة دون أن يحول عنه نظرته الفاحصة:

ـ لكنني لا أريد تسليم موسكو دون قتال.

فهل كان كوتوزوف يفكر في شيء آخر وهو ينطق بتلك الكلمات أم تراه نطق بها لغاية في نفسه وهو عارف أنها خالية من المعنى؟ مهما كان الأمر فإن روستوبتشين ابتعد دون أن يجيب ثم، هذا أمر عجيب، راح حاكم موسكو العام، روستوبتشين المتجبر وفي يده سوط يقترب من الجسر ليفرق العربات التي ازدحم بها بصيحات عالية.

الفصل السادس والعشرون

بدأت قوات مورا، في حوالى الساعة الرابعة، تدخل موسكو تتقدمها كتيبة من الخيالة الورتمبرغيين، وصل بعدهم مباشرة ملك ناپولي شخصياً محاطاً بحاشية عديدة.

ولما وصلوا عند وسط «الأربات» قرب سان نيكولا ريـڤييه، أمر مورا بالتوقف بانتظار تقرير الطليعة عن حالة قلعة الكرملين.

اجتمع حول مورا قليل من السكان الذين لم يغادروا موسكو، راحوا يتأملون بذهول مشوب بالفزع، هذا الرئيس الغريب بشعره الطويل وريش قلنسوته وزينته، ويقولون فيما بينهم: قل يا هذا، هل هذا هو قيصرهم، هم؟ حسناً..

اقترب مترجم من الجماعة فغمغم الناس فيما بينهم:

ـ ارفع قلنسوتك.. قلنسوتك.. القلانس..

خاطب المترجم بواباً عجوزاً فسأله عما إذا كان الطريق إلى الكرملين ما زال طويلاً. فأصغى البواب. لكنه تاه في اللكنة البولونية فلم يتعرف إلى اللغة الروسية لذلك لم يفهم شيئاً مما كان المترجم يسأله، فذهب يختبئ وراء الآخرين.

اقترب مورا من المترجم وأمره أن يسأل أين هو الجيش الروسي. ولقد فهم أحد الحاضرين ماذا يسألون فأجابت أصوات عديدة فجأة معاً. وعاد ضابط فرنسي من الطليعة فأعلن لمورا أن باب الحصن يحدّه سور وأنه لا بد

من وجود كمين وراءه. فقال مورا «حسناً»: والتفت إلى أحد ضباط حاشيته وأمره بأن تستعمل أربعة مدافع خفيفة في ضرب الأبواب.

خرجت «بطارية» من القطعات التي كانت تتبع مورا ومضت على طول «الأربات». فلما وصلت إلى أسفل فوزدڤيغنكا، وقفت وتمركزت هناك وراح بعض الضباط الفرنسيين يجهزون المدافع في المواقع المناسبة ويراقبون الكرملين بمناظيرهم المقربة.

كانت الأجراس في الكرملين تقرع مؤذنة بصلاة الغروب فاضطرب الفرنسيون لقرعها وظنوا أنها نداء لحمل السلاح. وجرى بعض جنود المشاة نحو باب كوتاڤييـڤ الذي كانت تحصنه من الداخل أعمدة من الخشب وألواح من البلوط السميك. ودوى طلقان ناريان حينما كان الضابط يقترب ركضاً مع كتيبته. فأصدر الجنرال الواقف قرب المدافع أمراً إلى ذلك الضابط، فوقف وتراجع مع جنوده إلى الوراء مندفعاً.

وانطلقت ثلاث طلقات أخرى من الباب.

أصيب جندي فرنسي في ساقه وارتفعت صيحات غريبة من وراء المتراس. وفجأة، وكأن المسألة جاءت نتيجة لأمر صادر، فقد وجه الجنرال والضباط والجنود تعبير البهجة المتوترة واكتست بطابع العناد والتركز الذي يلوح على وجوه أولئك الذين يستعدون للقتال والألم. ومن الماريشال وحتى آخر جندي، أدركوا جميعاً أن هذه الساحة ليست ساحة ڤوزدڤيغنكا ولاموخوڤايا ولا أبواب كوتاڤييـڤ أو الترينيتيه، بل إنها ساحة حرب جديدة، ساحة تنذر بوقوع معركة دامية كما تدل الظواهر، فاستعدوا جميعهم لها. توقفت الصيحات وراء المتراس وسددت المدافع وراح المدفعيون ينفخون على الفتيل. وأمر الضابط: «نار!» وصفرت قذيفتان انطلقتا الواحدة

تلو الأخرى وتساقطت قطع الحديد كالبرد على الباب المسدود والأعمدة والألواح في حين راحت سحابتان من الدخان تتصاعدان فوق الساحة.

وبعد دقائق من هدوء الهدير الذي خلفته الطلقتان على طول جدران الكرملين، ارتفعت ضجة غريبة فوق رؤوس الفرنسيين. ذلك أن سرباً هائلاً من غربان الزرع نفر من الساحة المسورة وهي تنعب فارتفع صوت ألوف الأجنحة وهي تصطفق وتدور حتى غطت السماء تماماً وفي الوقت نفسه، ارتفع صوت بشري منفرد من وراء الباب وبدا خلال الدخان شبح رجل عاري الرأس يرتدي رداء فضفاضاً وبيده بندقية كان يسددها إلى الفرنسيين، ردد ضابط المدفعية: «نار!» فانطلقت قذيفتان من المندفعين مع طلقة البندقية معاً وعاد الدخان يحجب الباب مجدداً.

لم يعد شيء يتحرك وراء المتراس، فاقترب الضباط الفرنسيون يتبعهم مشاتهم. كان هناك ثلاثة جرحى وأربعة قتلى. وفر رجلان يرتديان رداءين فضفاضين وهما يستتران بالجدران نحو زنامنكا.

قال الضابط وهو يشير إلى الألواح والجثث: ارفعوا هذا.

فدفع الفرنسيون الجثث بعد أن أجهزوا على الجرحى، من فوق الحاجز.

من كان أولئك الأشخاص؟ هذا ما لم يعرف قط. إن كل ما قيل عنهم هو: «ارفعوا هذا» ولقد ألقوا بهم ثم جمعوا رفاتهم بسبب العفن. لكن «تيير» وحده كرس لهم هذه الأسطر الفخمة: «كان أولئك الحقيرون قد دهموا القلعة المقدسة واستولوا على بنادق من مخزن السلاح وراحوا يطلقون النار (أولئك الحقيرون!) على الفرنسيين. فضربوا بعضهم بالسيوف وطهروا الكرملين من وجودهم».

أخبروا مورا أن الممر أصبح حراً، فاجتاز الفرنسيون الباب وأقاموا

معسكرهم في ساحة مجلس الشيوخ. وألقى الجنود مقاعد من نوافذ ذلك البناء ليقدموها طعمة للنيران.

اجتازت ألوية أخرى الكرملين وذهبت تعسكر في موروسييكا ولوبيانكا وبوكروڤكا. وأقام بعضها أيضاً في ڤوزدڤيغنكا وزنامنكا ونيكولسكاييا وتـڤيرسكاييا. وفي كل مكان، إذ لم يجدوا أحداً في المساكن، أقام الفرنسيون فيها ليس حسب ما يجري في بلد يقدم لهم السكن بل كما يقيمون في معسكر عام في صميم المدينة.

وعلى الرغم من أن عددهم تضاءل إلى النصف وأنهم أصبحوا في ثياب خلقة يتضورون جوعاً ويضنيهم التعب، فإن الفرنسيين، رغم ذلك، دخلوا موسكو بنظام. كانوا لا يزالون يكونون جيشاً مقاتلاً يحسب له حساب رغم حالة الإنهاك الشديد والضعف التي كانوا عليها. مع ذلك، فإنّ هذا الجيش لم يبق على هذا النحو إلا حتى الدقيقة التي تفرق فيها جنوده على المنازل. إذ ما إن دخل الرجال ونعموا في المنازل الغنية الخالية، حتى اختفى الجيش إلى الأبد ولم يبق إلا أولئك السكان بين المدنيين والعسكريين الذين يطلق عليهم اسم: سلابون. وعندما خرج هؤلاء الرجال أنفسهم من موسكو بعد خمسة أسابيع، ما عادوا يشكلون جيشاً كانوا جماعة من النهابين حل كل منهم في عربة أو على ظهره طائفة من الأشياء اعتبر أنها ثمينة لا غنى له عنها.

لم يعد هدف هؤلاء الرجال، كما كان من قبل، أن يقاتلوا، بل أن يحتفظوا بغنائمهم. وقد كان حال الفرنسيين عند خروجهم من موسكو، كحال القرد الذي مد يده في قدر ذات عنق وفوهة ضيقين فأطبقت أصابعه على عدد ثمار الجوز لكنه لم يشأ أن يفتح أصابعه كيلا يفلت شيء مما أمسك به. كانوا يمشون إلى نهايتهم المحتومة لأنهم جروا معهم حصالة سلبهم وما كان بوسعهم التخلي عنها كما فعل القرد بثمار الجوز. لم يعد، بعد عشر دقائق من دخول

فيلق من الجند إلى حي من أحياء المدينة، ضباط ولا جنود. كان يُرى من نوافذ المنازل، في معاطف ورانات، يروحون ويجيئون عبر الغرف، وآخرون، في مثل حال أولئك، يستولون على المؤن المودعة في الأقبية والعنابر وغيرهم في الأفنية يغتصبون أبواب الأروقة والاسطبلات أو في المطابخ يوقدون النار ويعجنون الدقيق وأكمامهم مشمرة أو يطهون طعامهم وهم يلتصقون بالنساء أو يداعبون الأطفال. مع ذلك، فإن عددهم لم ينقص في الحوانيت والمنازل، لكنهم لم يعودوا يشكلون جيشاً.

توالت الأوامر، خلال ذلك اليوم، من أركان حرب الجيش الفرنسي، أمراً إثر أمر، تهدف جميعها إلى منع الجنود من السلب والانتشار في المدينة واستعمال العنف ضد السكان، وفرضت الأوامر نفسها مساء عند النداء العام، لكن رغم كل ذلك، انتشر الرجال الذين كانوا حتى الأمس يشكلون الجيش، في كل مكان في تلك المدينة القاحلة، يضفون على أنفسهم وسائل الترف ويغدقون على أنفسهم المؤن والثروات. وكما هي حال القطيع الجائع الذي يبقى مجتمعاً في مرعى قاحل وينتشر فور وقوعه على مرج نضير، انتشر الجيش في المدينة الكبيرة دون أن يقدروا على إيقافه.

كانت موسكو خالية، والجنود يتوغلون في كل مكان أشبه بالماء فوق الرمل ويحومون جماعات حول الكرملين حيث استطاعوا الدخول بادئ الأمر. وكان الفرسان إذا ما دخلوا بيوتاً بورجوازية غنية هجرها أهلها وفيها كل مفروشاتها وأثاثها، يجدون فيها اسطبلات لجيادهم أكثر اتساعاً مما يتطلبون لكنهم مع ذلك لم يتورعوا عن احتلال منزل مجاور بدا لهم أكثر امتلاء. وكان كثيرون يحتلون عدة مساكن معاً ويؤشرون عليها بكتابة أسمائهم بالحكك بل يشتبكون بالأيدي مع آخرين من وحدات أخرى. وآخرون، لا يكاد يستقر به المقام، حتى يندفعوا خلال المدينة لزيارتها فما إن يجدوا أن

كل شيء مهجور حتى يندفعوا إلى الأماكن التي يستطيعون الفوز منها بأثمن الأسلاب. وحاول الضباط إيقاف الجنود عند حدهم، لكنهم لا يلبثون حتى ينجرفوا هم أنفسهم في غمار حركة السلب العامة. ولم تنج سوق العربات نفسها، إذ راح الجنرالات يجتمعون في الأروقة المملوءة بالعربات الجاهزة ليختاروا لأنفسهم عربة خفيفة أو مغلقة. وكان المتخلفون من السكان يدعون الضباط للسكنى عندهم آملين أن ينجوا من السلب العام، والثروات من الغزارة لدرجة لا يدرك مداها، حتى أن أمكنة كثيرة حول المواقع التي كان الفرنسيون يحتلونها، بقيت سالمة لم تمسها الأيدي، فكان هؤلاء يطمعون في العثور فيها على ثروات خرافية تفوق ما عثر عليه حتى الآن، وموسكو تستوعبهم أكثر فأكثر. وكما يختفي الماء الذي يصب على أرض جافة ويخفي معه جفاف الأرض، كان ذلك الجيش الجائع، ما إن يوغل في أعماق تلك المدينة الموسرة ولكن الخالية، حتى يختفي ويخفي معه يسار المدينة فلم يبق إلا الوحول والحريق والنهب.

يعزو الفرنسيون حريق موسكو إلى وطنية روستوبتشين الضارية والروس يعزونها إلى وحشية الفرنسيين. والواقع أنه لا يمكن ولا يجب تسجيل هذا الحريق على حساب شخص واحد أو بعض الأشخاص، لقد احترقت موسكو لأنها وجدت في مثل الشروط التي يجب على كل مدينة مبنية من الخشب أن تحترق معها، بصرف النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخة رديئة أو عدم وجودها، كان على موسكو أن تحترق لأن سكانها رحلوا، بمثل البديهة التي تحترق بها رزمة من النشارة راحت تتساقط عليها طوال أيام كاملة شرارات متوالية، فمدينة من الخشب يقع فيها كل يوم حريق رغم احتياطات السكان ورجال الشرطة، لا يمكن أن تنجو من الحريق بعد أن يهجرها سكانها ويقطن

فيها جيش ويدخن جنوده الغليون ويوقدون النيران على ساحة مجلس الشيوخ ويغذونها بكراسي المجلس ويعدون طعامهم مرتين كل يوم.

ففي أيام السلم، يكفي أن يتخذ الجنود معسكراً لهم في قرى معينة حتى يزداد عدد الحرائق فيها. فكم يجب والحالة هذه أن تتضاعف إمكانيات الحرائق في مدينة من الخشب خالية من السكان، يعسكر فيها جيش غريب؟ فوطنية روستوبتشين الضارية ووحشية الفرنسيين لا علاقة لهما بالأمر مطلقاً. لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات وبسبب لا مبالاة الجنود، سادة منازل لا تخصهم. وإذا كان هناك حقاً من أشعل النار (وهو أمر مشكوك فيه لأنه لم يكن لأحد دافع يلجئه إلى إضرام النار لأن الخطر كان متماثلاً في جسامته أقله بالنسبة إلى الجميع) فإنه لا يجب اعتبار هؤلاء الأشخاص المسببين لأن النتيجة بدونهم لم تكن لتختلف عما وقع في شيء.

ومهما كان اتهام ضراوة روستوبتشين ملاقاً حينذاك بالنسبة إلى الفرنسيين وكذلك عداء بوناپرت بالنسبة إلى الروس، ووضع مشعل بطولي في يد الغوغاء فيما بعد، فإنه يستحيل ألّا يرى أن مثل هذه الأسباب لا يمكن أن تغفل لأن موسكو كان يجب أن تحترق كما يجب أن تحترق أية قرية أو أي مصنع أو منزل يكون صاحبه غائباً، فيسكنه غرباء ويطهون طعامهم فيه، لقد أحرقت موسكو من قبل سكانها، وهذا صحيح، ولكن من قبل الذين خرجوا منها لا الذين بقوا فيها. فإذا لم تبق موسكو سليمة بعد احتلالها من قبل العدو مثل برلين وڤيينا ومدن أخرى، فما ذلك إلا لأن سكانها هجروها بدلاً من أن يقدموا المفاتيح للفرنسيين على أطباق إلى جانب الخبز والملح.

الفصل السابع والعشرون

من وسط موسكو حتى أحيائها، امتدت موجة الفرنسيين على شكل نجمة، وظلت المدينة تستوعبهم حتى بلغت عند المساء الحي الذي يسكن فيه پيار.

وكان پيار بعد يومين من الانزواء في ظروف خارقة، في حالة أقرب إلى الجنون تشغل كيانه فكرة وحيدة ملحاحة لم يكن يعرف من أين ولا كيف اجتاحت رأسه، وكانت تلك الفكرة قد استحوذت عليه لدرجة لم يعد معها يذكر شيئاً من الماضي ولا يدرك شيئاً من الحاضر، فكان كل ما يراه وما يسمعه يدور أمامه وكأنه في حلم.

غادر منزله لسبب وحيد وهو الإفلات من التعقيدات التي وجد نفسه فيها والتي أصبح الآن وهو على تلك الحالة الفكرية يشعر أنه عاجز عن حلها. لقد ذهب إلى مسكن جوزيف ألكسييڤيتش بحجة تصفح أوراق المتوفى وكتبه بينما كانت الحقيقة هروباً من حياة حافلة بالهزّات لأن ذكرى هذا الرجل كانت مرتبطة في نفسه بعالم حافل بالأفكار الجليلة المسالمة المناقضة كلياً لذلك الاندفاع الجنوني الذي شعر بأنه ينجرف فيه. كان يفتش عن مأوى بعيداً عن كل ضجيج فوجد ذلك بالفعل في مكتب جوزيف ألكسييڤيتش. وعندما جلس واتكأ على مكتب المتوفى المغبر في صمت الموت الذي يخيم على تلك الغرفة، أفاقت في ذاكرته ذكريات أيامه الأخيرة الواحدة تلو الأخرى بسكون مشبعة بالمعاني، وبصورة خاصة ذكريات معركة بورودينو، حيث

أحسّ بتفاهته وبطلان حياته إزاء حياة أولئك الأشخاص الغائصين في الحقيقة والبساطة، الذين يسمون «هم» في مخيلته، وعندما جاء غيراسيم ينتشله من أحلامه، راودته فكرة الاشتراك في الدفاع عن موسكو، وهي فكرة كان يعرف أن السكان يصبون إليها، ولقد طلب إلى غيراسيم المعطف والمسدس لهذه الغاية، وأنهى إليه رغبته في التكتم حول اسمه وفي البقاء في منزل جوزيف ألكسيي‌ـڤيتش.

عاد پيار خلال يوم عطالته الأول ـ ولقد حاول عبثاً مرات عديدة أن يركز انتباهه على المخطوطات الماسونية ـ يتذكر بغموض المعنى السحري لاسمه بالارتباط باسم بوناپرت لكن تلك الفكرة، فكرة أنه هو «أروسي بيزوخوف» منذور سلفاً ليضع حداً لحكم الوحش، لم تكن حتى تلك اللحظة بالنسبة إليه أكثر من حلم من أحلامه الغامضة يخترق تفكيره عرضاً دون أن يخلف فيه أثراً.

وعندما اشترى معطفه بغية المساهمة مع السكان في الدفاع عن موسكو فحسب، قابل پيار آل روستوف وناتاشا التي قالت له: «هل تبقى؟ آه! كم هو حسن هذا!» وعندئذ جاءته فكرة البقاء كوميض البرق لينجز مهمته المعدة له منذ الأزل.

وفي اليوم التالي، مضى إلى مدخل الجبال الثلاثة تسيطر عليه فكرة وحيدة أن لا يوفر نفسه وأن يكون جديراً بـ: «هم». لكنه عندما رجع إلى المنزل مقتنعاً بأن موسكو لن يدافع عنها، شعر فجأة بأن كل ما بدا له حتى تلك اللحظة ممكناً أصبح بما لا يقبل الشك ضرورياً ومحتوماً وأن واجبه يقضي بإخفاء اسمه وبالبقاء في موسكو والبحث عن ناپليون وقتله ثم أن يموت هو نفسه أو أن يضع حداً لآلام أوروبا، تلك الآلام التي لم يكن لها في مخيلة پيار غير فاعل واحد وهو ناپليون الأوحد.

وكان پيار يعرف كل تفاصيل المحاولة التي وقعت في ڤيينا عام ١٨٠٩ ضد حياة بوناپرت من قبل طالب ألماني ويعرف أن ذلك الطالب أعدم رمياً بالرصاص فكان الخطر الذي يواجهه للقيام بمهمته يزيد في تحمسه زيادة كبيرة.

وكانت عاطفتان متساويتان في القوة تدفعان پيار إلى ذلك العزم. الأولى حاجته إلى التضحية بنفسه والتألم، تلك الحاجة التي أيقظتها المصيبة العامة المشتركة وهي العاطفة التي دفعته يوم الخامس والعشرين إلى موجايسك وألقت به في صميم المعركة وجعلته الآن ينفر من منزله الخاص ومن ترفه ورفاهيته لينام بكامل ثيابه على كنبة دون نوابض وليأكل الأصناف نفسها التي يأكلها غيراسيم، والعاطفة الثانية هي ذلك الإحساس غير المنطقي الخاص بالروس، الإحساس بالاشمئزاز من كل ما هو اصطلاحي اصطناعي بشري من كل ما يعتبره السواد الأعظم من الناس الخير الأعم. لقد شعر پيار في قصر سلوپودسكي بالنشوة الغريبة عندما شعر فجأة للمرة الأولى بأن الثراء والسلطان والحياة وكل ما يجهد الناس بشدة لكسبه والمحافظة عليه، لا تصبح ذات شأن إلا بالبهجة التي تغمر قلب الإنسان عند استطاعته هجرها.

هذا هو الشعور الذي يحس به المتطوع الفدائي عندما يثمل بآخر «كوبيك» في جيبه، والرجل الثمل الذي يحطم المرايا والزجاج دون أي سبب وهو يعرف أن تصرفه ذاك سيكلفه كل ما في جيبه. إنه هذا الشعور الذي يدفع الإنسان نحو تصرفات مخالفة للصواب (بصورة عامة) وكأنه يريد اختبار قوته وسلطته وأن يبرهن بهذه الوسيلة على وجود محكمة عليا تتحكم في الحياة فوق سنن البشر.

منذ ذلك اليوم الذي شعر فيه پيار بهذا، للمرة الأولى، في سلوپودسكي لم يكف مرة عن احتمال أثره حتى أصبح في تلك اللحظة راضياً عنه كل الرضى.

ومن جهة أخرى كان في تلك اللحظة معتمداً في قراره على استحمال التراجع بعدما اجتازه حتى الآن في هذا السبيل. فكان فراره من منزله ومعطفه ومسدسه وتصريحه لآل روستوف بأنه باقٍ في موسكو، كل هذا، سيصبح عديم المعنى بل مبعث سخرية واحتقار ـ وكان پيار يشعر بذلك شعوراً جامحاً ـ إذا تصرف بعدئذ تصرف كل الناس وغادر موسكو.

وكانت حالة پيار الجسدية تتلاءم مع حالته الفكرية كالعادة دائماً. فالطعام المغلظ الذي تناوله خلال أيامه الأخيرة والذي لم يألفه من قبل والـڤودكا التي شربها وحرمانه من الخمر والسيجار واستحالة إبدال ثيابه الداخلية وليلتان دون نوم تقريباً أمضاهما على كنبة قصيرة بالنسبة إلى جسمه دون متطلبات السرير المريح، كل هذه الأمور جعلته في حالة انفعال عصبي قريبة من الجنون.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وكان الفرنسيون قد أنهوا دخولهم إلى موسكو وپيار يعرف ذلك لكنه بدلاً من أن ينشط إلى العمل، لم يكن يفكر إلا في مشروعه الذي أخذ يستعيد في ذاكرته أدق تفاصيله. لم يكن يكوّن لنفسه أية فكرة واضحة عن الطريقة التي سيتصرف بها لينفذ فكرته ولا أية فكرة عن موت ناپليون ولكن كان موته هو وجرأته البطولية هما ما يتمثله بجلاء خارق.

راح يفكر: «نعم، واحد في سبيل الكل، يجب أن أنجح أو أموت! نعم سوف أقترب.. ثم فجأة.. ترى المسدس أم الخنجر؟.. سيان على كل حال. لست أنا الذي أعاقبك بل هي يد القدرة..، كان پيار يفكر في الكلمات التي سيقولها وهو يضرب ناپليون، حسناً، ماذا، خذوني، أحكموا علي». بذلك أخذ يفكر معقباً على آرائه وعلى وجهه مزيج من الحزم والحزن وهو مطرق الرأس.

وفي اللحظة التي كان پيار واقفاً في مكتب عمل جوزيف ألكسييـڤيتش

يناقش نفسه بتلك الصورة، فتح الباب وظهر على العتبة ماكار ألكسييـڤيتش وقد تخلص تماماً من مظهره المذعور الذي بدا عليه من قبل.

كان ثوبه المنزلي مفتوحاً ووجهه أصفر محمرّاً وهو بادي الثمل. فلما رأى پيار ارتبك لحظة ولكن لم يلبث أن تشجع فوراً لما رأى پيار نفسه مرتبكاً فتقدم إلى وسط الغرفة وهو يترنح على ساقيه النحيلتين.

قال بصوت أبح ولكن ثابت: لقد استبد بهم الخوف. إنني أقول: لن أستسلم، أقول ذلك أنا.. أليس كذلك يا سيدي؟

واتخذ سمة المفكر لكنه فجأة، عندما رأى المسدس على المكتب، أطبق عليه بحركة سريعة وفرّ إلى الممشى.

أوقفه جيراسيم والبواب اللذان لحقا به عند المدخل واجتهدا في نزع المسدس منه وأسرع پيار إلى الممشى وراح ينظر إلى العجوز نصف المجنون في عطف مشوب بالاشمئزاز. وكان ماكار ألكسييـڤيتش يعجو وجهه بتأثير المجهود ويشدد قبضته على المسدس ويصرخ بصوته الأبح وقد خيل إليه حقاً أنه في لحظة جليلة. زمجر: إلى السلاح! إلى الهجوم! كلا لن تناله!

بينما راح غيراسيم يردد وهو يحاول أن يدفعه بمرفقه ليجعله يجتاز الباب.

ـ كفى، أرجوك كفى. أرجو أن تترك هذا! هيا يا سيدي...

وعاد ماكار ألكسييـڤيتش يزمجر: من تكون؟ بوناپرت!...

ـ هذا ليس بمستحسن يا سيدي. أدخل إلى غرفتك أرجوك. اذهب واسترح تفضل واعطني هذا المسدس.

قال ماكار وهو يشهر المسدس ويزمجر بصوت أشد ارتفاعاً:

ـ إلى الوراء أيها العبد الحقير! لا تلمسني! هه، أرأيت؟ إلى الهجوم!

فهمس جيراسيم في أذن البواب: إحمله.

ولقد جُرّ ماكار ألكسييـڤيتش نحو الباب.

لم يلبث الممشى أن امتلأ بصرخات السكير المنهوك القوى.

وارتفعت صيحة مدوية على المرقاة خرجت من حنجرة امرأة وأسرعت الطاهية بدورها إلى الممشى وهي تصيح:

ـ ها هم أولاء! أوه! يا إلهي، أقسم لكم إنهم هم! إنهم أربعة على جياد!

فأفلت جيراسيم والبواب ماكار ألكسييـڤيتش، وفي الممشى الذي ساده الصمت مجدداً ارتفعت طرقات جلية أحدثتها قبضات الأيدي على باب المدخل.

الفصل الثامن والعشرون

كان پيار يقف قرب باب الممشى متحفزاً للاختفاء فور دخول الفرنسيين إلى المنزل، وكان قد قرّر إخفاء هويته ومعرفته باللغة الفرنسية حتى بعد إنجاز مهمته. لكن الفرنسيين دخلوا دون أن يتحرك لأن فضولاً لا يقاوم استبد به فأقامه في مكانه.

كانا اثنين أحدهما ضابط طويل القامة، جميل، جليل الطلعة، والآخر جندي بسيط، تابع الأول، ولا شك، مربوع القامة، نحيل العود، ملفوح الوجه بوجنتين غائرتين ووجهه بليد. دخل الضابط أولاً وكان يعرج ويتكئ على عصا. وبعد أن مشى بضع خطوات، توقف وقد وجد أن المنزل يوافق مزاجه ولا ريب، والتفت إلى الجنود الواقفين أمام الباب وصاح بهم بصوت آمر أن يأتوا بالجياد وبعد ذلك، رفع الضابط مرفقه إلى الأعلى بحركة متغطرسة وفتل شاربيه، ثم رفع يده إلى مقدمة عمرته وهو يوجه الحديث إلى الجميع: مرحباً أيها الموجودون؟

وراح يعاين المكان وهو يبتسم. فلم يجبه أحد.

ـ هل أنت البورجوازي؟

فراح جيراسيم ينظر إليه بجزع وفي عينيه استفهام.

قال الضابط وهو يقيس بنظره من عل قامة الرجل قصير القامة الواقف أمامه وعلى شفتيه ابتسامة عطوف:

ـ «كارتييه، كارتييه» سكن!

ثم تابع وهو يربت كتف جيراسيم الصامت المروع:

ـ أواه! إن الفرنسيين أطفال عاقلون يا للشيطان! هيا لننبذ الحقد يا عجوزي!

وأضاف وهو يجيل نظره فيما حوله ويلاقي به نظرة پيار الذي انفصل عن الباب:

ـ آه! هذا، قولوا، ألا يتحدث الفرنسية أحد في هذا المكان؟

وخاطب الضابط جيراسيم وهو يعتقد أنه يستطيع أن يجعل أجوبته أكثر وضوحاً إذا شوهها:

ـ السادة ليسوا هنا.. لا أفهم.. أنا.. لك.

فلوح الضابط وهو لا يزال يبتسم بإشارة أسفل أنف جيراسيم مشيراً بذلك إلى أنه هو الآخر لا يفهم، وتوجه وهو يعرج باتجاه الباب الذي وقف عنده پيار الذي كان يود لو يبتعد قبل أن يُرى لو لم ير في تلك اللحظة ماكار ألكسييـڤيتش يظهر على باب المطبخ والمسدس في يده. وبمكر المجانين نظر ماكار ألكسييـڤيتش إلى الضابط ورفع المسدس وصوبه وصاح وهو يضغط على الزناد: إلى الهجوم!

استدار الضابط، وفي اللحظة نفسها، ارتمى پيار على السكران. ولكن بينما كان يمسك بالمسدس وينتزعه منه، استطاع ماكار ألكسييـڤيتش أن يضغط على الزناد أخيراً فدوت طلقة تصم الآذان وامتلأت الغرفة بالدخان. فشحب وجه الفرنسي وأسرع نحو الباب.

نسي پيار عزمه على إخفاء معرفته باللغة الفرنسية، فانتزع المسدس من يدي ماكار ألكسييـڤيتش وألقاه جانباً ثم أسرع إلى الضابط وسأله بالفرنسية:

ـ ألم تجرح؟

فأجاب هذا وهو يلمس نفسه: أظن أن لا.

وأشار إلى خدش في طلاء الجدار وقال:

ـ لكنني نجوت هذه المرة بمعجزة.

ثم سأل بصرامة وهو يتأمل پيار:

ـ من هذا الرجل؟

فصاح پيار بقوة وقد نسي دوره تماماً:

ـ في الحقيقة إنني آسف جداً لما جرى. إنه مجنون، تاعس لم يكن يعرف ماذا يفعل.

اقترب الضابط من ماكار ألكسييـڤيتش وأمسك به من ياقته.

فتهاوى السكران على الجدار وقد سقطت شفته ونطقت أساريره بالتبلد وراح يترنح. فقال الفرنسي وهو يفلته:

ـ أيها المجرم، ستدفع لي ثمن ذلك! إننا نحن معشر الفرنسيين رحماء بعد النصر، وأضاف بلهجة خطيرة وهو يرفق قوله بإشارة نشيطة عريضة، لكننا لا نغفر للخونة.

استمر پيار يتوسل إليه بالفرنسية ألّا يعاقب سكراناً أقرب إلى الجنون ولقد أصغى إليه الفرنسي في صمت بادئ الأمر وهو مكفهر الوجه ثم ابتسم فجأة وتأمله بضع ثوان، فاتخذ وجهه الجميل مسحة مؤاسية وحانية معاً ومد له يده وقال: لقد أنقذت حياتي! إنك فرنسي.

لقد كان الشك لا يمكن أن يتطرق إلى نفس هذا الفرنسي الذي يعتقد أن الفرنسي وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل النبيل الذي هو إنقاذ حياة السيد رامبال رئيس الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، والذي هو عمل يعتبر أكثر نبلاً من كل الأعمال الأخرى.

ظنّ پيار أن من واجبه أن يصحح خطأ الضابط مهما بلغ ذلك الرأي الذي صرح به من يقين فصاح بقوة:

ـ إنني روسي.

فرد الضابط وهو يبتسم ويشير له إشارة ساخرة:

ـ تا، تا، تا! قلها لغيري! سوف تروي عليّ الأمر بعد حين. إنني سعيد بلقاء مواطن.

وأضاف وهو يخاطب پيار وكأنه يتحدث إلى أخيه:

ـ حسناً، ماذا سنعمل بهذا الرجل؟

ولم يكن پيار مستطيعاً حتى ولو لم يكن فرنسياً أن يرفض هذا اللقب الذي هو أرفع لقب في العالم، وهو ما عبّر الضابط عنه بكل وضوح بلهجته وبتعبير وجهه. ففسر پيار مرة أخرى حالة ماكار ألكسييـڤيتش وكيف استولى السكران، ذلك المجنون، في اللحظة التي دخل الضابط، على مسدس محشو لم يستطيعوا انتزاعه من يديه ثم رجا الضابط مرة أخرى ألّا يعاقبه.

فانتصب الضابط وأشار بيده بحركة ملكية حقاً وقال بلهجة سريعة حازمة:

ـ لقد أنقذت حياتي! أنت فرنسي. تسألني العفو عنه؟ أمنحك ما تطلب. ليأخذوا هذا الرجل!

ثم أمسك بذراع ذلك الذي رفعه إلى مرتبة الفرنسي لأنه أنقذ حياته، ودخل معه إلى داخل المنزل.

واندفع الجنود الذين كانوا في الفناء إلى الدهليز على دويّ الانفجار وراحوا يستفسرون عما وقع ويعربون عن استعدادهم لمعاقبة المذنب. لكن الضابط استوقفهم بحزم وقال:

ـ سوف تستدعون عندما تدعو الحاجة إليكم.

فخرج الجنود. وجاء التابع الذي تسنى له خلال ذلك أن يعاين المطبخ يقول للضابط: أيها الرئيس، لديهم حساء وضلع خروف في المطبخ. فهل آتيك به؟

فأجاب الضابط: نعم، والخمر.

الفصل التاسع والعشرون

اعتقد پيار أن من واجبه أن يؤكد مرة أخرى أنه ليس فرنسياً، عندما دخل الضابط إلى المنزل. وأراد أن ينسحب. لكن الضابط لم يصغ إليه. أظهر تهذيباً وتودداً فائقاً وبشاشة ورغبة عميقة في إبداء عرفانه تجاه منقذه حتى أن پيار لم يجد الشجاعة ليرفض له طلب مجالسته في القاعة التي كانت أول غرفة دخلا إليها. ولقد أدهش استمرار پيار في القول بأنه ليس فرنسياً الضابط أيما دهشة وهو الذي لم يفهم كيف يرفض مثل هذا الشرف، فهز كتفيه وقال لـپيار إنه إذا كان يصر على اعتبار نفسه روسياً فإنه لن يعارض رغبته وسيحتفظ برغم ذلك بعرفان دائم للرجل الذي أنقذ حياته.

ولو أن ذلك الفرنسي أبدى أقل استعداد لفهم شعور الغير، وأدرك ما يعتلج في نفس رفيقه، لتركه پيار بدون شك. لكن عدم قابليته الظاهرة لكل ما هو غير نفسه هو الذي حدا پيار أن يبقى.

قال الفرنسي وهو يلقي نظرة على ثياب پيار القذرة ولكن الثمينة وعلى الخاتم الذي في إصبعه:

ـ فرنسي أو أمير روسي متنكر، إنني مدين لك بحياتي وأعرض عليك صداقتي. إن فرنسياً لا ينسى إطلاقاً إهانة ولا خدمة. أعرض عليك صداقتي ولا أقول أكثر من ذلك.

كان في لهجة ذلك الضابط وفي تعابير وجهه وحركاته كثير من النبل وجودة النفس (بالمعنى الفرنسي للعبارة) حتى أن پيار أجاب على ابتسامته

بمثلها وشد على اليد الممدودة إليه. قدم الفرنسي نفسه فقال وعلى شفتيه ابتسامة راضية.

ـ الرئيس رامبال من الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، المنعم عليه بوسام لمعركة اليوم السابع. هل تتفضل الآن وتخبرني مع من لي الشرف بالتحدث بكل ود بدلاً من أكون في عربة إسعاف حاملاً رصاصة ذلك المجنون في جسدي؟

فأجاب پيار بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه وراح وقد احمرّ وجهه، يبحث عن اسم يقدم نفسه به وعن الأسباب التي يزعم أنها دعته إلى التنكر. لكن الفرنسي بادر يقاطعه قائلاً:

ـ عفوك. إنني أقدر ظروفك. إنك ضابط.. ضابط كبير على ما أظن ولقد حملت السلاح ضدنا. إن هذا ليس من شأني. إنني مدين لك بحياتي وهذا يكفيني. إنني لك بكليتي.

وفجأة سأل: أنت نبيل؟

فأطرق پيار برأسه.

ـ إسمك في المعمودية إذا أمرت؟ لا أطلب أكثر من ذلك. تقول السيد پيار؟.. عال. ها كل ما أرغب في معرفته.

فقدموا فخذ الخروف والشطير ووضعوا السماور على الطاولة، ثم جاؤوا بالفودكا والنبيذ المأخوذين من صندوق روسي للسفر حمله الفرنسيون معهم ثم دعا رامبال پيار أن يشاطره الطعام ولم يلبث هو نفسه أن راح يأكل بنهم كما يأكل الرجل القوي الجائع ويمضغ بأسنانه القوية ويصفق بلسانه في كل حين وهو يقول بصوت مرتفع: ممتاز، رائع! ولم يلبث وجهه أن احمرّ وغطاه العرق. ونهج پيار الجائع نهجه في الأكل. وجاء موريل، تابع الضابط، بقدر معدنية فيها ماء ساخن غمس فيه زجاجة من النبيذ الأحمر، كما جاء

بزجاجة من خمرة «كواس» حملها من المطبخ ليذوقها. ولقد أصبح هذا النوع من الشراب معروفاً من الفرنسيين مقبولاً لديهم وكانوا يسمونه «ليموناضة الخنزير»، فأخذ موريل يطري الزجاجة التي اكتشف وجودها في المطبخ. ولكن، لما كان الرئيس متزوداً بخمر ممتاز حصل عليه خلال اجتيازه موسكو، فقد تنازل عن زجاجة الكواس لموريل وهاجم هو نبيذ بوردو. أخذ منشفة أحاط بها عنق الزجاجة وصب لنفسه كأساً ثم لضيفه ولقد كان من تأثير الشبع ومساعدة النبيذ، أن ازداد الرئيس حيوية، فلم يكف خلال فترة الطعام عن الثرثرة.

ـ نعم يا عزيزي السيد پيار. إنني مدين لك بفضل عميم لأنك أنقذتني.. من هذا المسعور.. إن بي كفاية كما ترى من الرصاص في جسدي. وها هي ذي واحدة (وكشف عن جنبه) أصابتني في «واغرام» كما أصبت باثنتين في سمولنسك، وأشار إلى آثار خياطة جرح في وجنته، وها هي ذي ساقي كما ترى ترفض أن تسير. لقد أصبت بهذه الإصابة في معركة اليوم السابع الكبرى، في موسكوڤا. بالله، كم كانت جميلة! ليتك رأيتها، إنها طوفان من نار. لقد أظهرتم لنا مقاومة عنيفة يمكنكم أن تفخروا بها وأقسم بشرف نبيل صغير، إنني رغم كل ما أصبت به خلال هذه الملاحم، أراني نبيلاً صغيراً. فإنني رغم كل ما أصبت به خلال هذه الملاحم، أراني على استعداد لإعادة الكرة مجدداً وأرثي لحال الذين لم يروا تلك المعارك.

قال پيار: لقد كنت هناك.

فصاح الفرنسي: حقاً! حسناً، أفضل. إنكم رغم كل شيء أعداء فخورون. لقد كان التل الصغير شديد الصمود «وملأ الغليون». ولقد جعلتمونا ندفع ثمناً غالياً، لقد ذهبت إليه ثلاث مرات كما تراني. كنا ثلاث مرات على المدافع وثلاث مرات دُفعنا مثلما تدافع الأرانب. أوه! كان ذلك رائعاً يا سيد پيار.

لقد كان قناصتكم رائعين وحق الله. لقد رأيتهم ست مرات يعبئون صفوفهم ويمشون وكأنهم في عرض عسكري. يا للرجال الرائعين! ولقد صاح ملكنا، ملك نابولي، الذي يقدر هذه الأشياء: مرحى! آه! آه! جنود مثلنا!

وبعد دقيقة صمت أضاف: هذا أفضل يا سيد بيار، هذا أفضل. رهيبون في المعركة. ظرفاء (وغمز بعينيه وهو يبتسم) مع الجميلات، أولئك الفرنسيون يا سيد بيار أليس كذلك؟

كان الفرنسي في حالة مرح صريحة جداً وكان شديد الرضى عن نفسه حتى أن بيار كاد يجيبه على غمزة عينه بمثلها وهو ينظر إليه بمرح. ولقد أعادت كلمة «ظرفاء» أفكار الفرنسي ولا شك إلى الموقف في موسكو فقال: وبهذه المناسبة، قل لي، هل حقيقة أن النساء غادرن موسكو؟ يا لها من فكرة مضحكة؟ ماذا كان يخيفهن؟

فسأل بيار:

ـ أما كانت السيدات الفرنسيات ليغادرن باريس لو احتلها الروس؟ صاح الفرنسي وهو يقهقه ويربت كتف بيار:

ـ آه! آه! يه!.. آه! إن هذه قوية جداً. باريس؟.. لكن باريس، باريس..

فأعقب بيار: باريس، عاصمة العالم..

نظر إليه الضابط دون أن يرمش. لقد كان من عادته أن يصمت فجأة وهو في غمار حديثه ليتأمل مخاطبه بعينين ضاحكتين ودودتين.

ـ حسناً، لو أنك لم تقل لي إنك روسي لراهنت على أنك باريسي. إن فيك هذا الذي لا أعرف ما هو، هذا..

وقطع على نفسه الحديث بعد هذا الإطراء ليتأمل من جديد بيار في صمت. قال بيار: لقد كنت في باريس. لقد أمضيت فيها سنوات.

ـ أوه! هذا يرى بوضوح. باريس!.. إن الرجل الذي لا يعرف باريس

إنسان متوحش. إن الباريسي يعرف من رائحته على بعد ميلين. باريس هي تالما، دوشين پوتييه، السوربون، الشوارع العريضة.

ولما رأى أن خاتمة حديثه لا تساوي بدايته، بادر يقول:

ـ لا يوجد في العالم إلا «باريس» واحدة. لقد كنت في باريس ثم لبثت روسياً. إن تقديري لك لن ينقص.

وجد پيار تحت تأثير الخمرة، وبعد كل هذه الأيام التي قضاها في خلوة مع أفكار قاتمة، متعة غير إرادية في التحدث مع هذا الفتى الباسل المرح.

ـ عودة إلى سيداتكم، يقولون إنهن جميلات جداً. يا لها من فكرة سيئة أن يذهبن إلى القفار فيدفن أنفسهن فيها، عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو. يا للحظ الذي فات هؤلاء السيدات. إن فلاحيكم «موجيك» يختلفون. أما أنتم، معشر المتمدنين، فإنكم ولا ريب تعرفوننا أفضل من ذلك لقد احتللنا ڤيينا وبرلين ومدريد وناپولي وروما وڤرصوڤيا وكل عواصم العالم.. إنهم يخافوننا لكنهم يحبوننا. إننا نصلح لأن يتعرف الناس إلينا. ثم إن الأمبراطور..

وهم أن يستمر لولا أن قاطعه پيار فكرر بلهجة اعتراها الارتباك ووجه انطبع فجأة بالوجوم:

ـ الأمبراطور، هل الأمبراطور..

ـ الأمبراطور! هو الكرم والرحمة والعدالة والنظام والعبقرية. هذا هو الأمبراطور! إنني أنا، رامبال، الذي أقول لك هذا.. إنني كما تراني، كنت عدوه منذ ثماني سنوات خلت. لقد كان أبي كونتاً مهاجراً.. هزمني، هذا الرجل. لقد أسرني. لم أستطع مقاومة مشهد العظمة والمجد اللذين أضفاهما على فرنسا. ولما أدركت ما يريد ورأيت أنه إنما يصنع لنا محملاً من الغار، قلت لنفسي،

لاحظ،: ها هو ذا سلطان، واستسلمت له. وهذا كل شيء! أوه! نعم يا عزيزي، إنه أعظم رجل في القرون التي خلت والتي سوف تأتي.

سأل پيار وهو يتردد تردد الرجل الذي ضبط في الخطأ: هل هو في موسكو؟

فتأمل الفرنسي ذلك الوجه الذي يشبه وجه المذنب وراح يضحك ثم قال وهو يستأنف حديثه: كلا، سوف يدخل المدينة غداً.

قطع الحديث ارتفاع أصوات آتية من وراء الباب ودخول موريل الذي جاء يعلن لرئيسه أن فرساناً ورتمبرغيين وصلوا منذ حين يريدون إيداع خيولهم في الفناء نفسه الذي احتلته جياده هو. وكانت الصعوبة في الموضوع ناجمة عن أن الفرسان لا يفهمون شيئاً مما يقال لهم.

أعطى الرئيس الأمر باستقدام الرقيب الأول وسأله بلهجة صارمة عن الفيلق الذي ينتمي إليه وعن اسم رئيسه والحق الذي سمح لنفسه بموجبه أن يحتل منزلاً احتل من قبل. ولما كان الألماني ضعيف الفهم للغة الفرنسية، فقد أجاب عن السؤالين الأولين بإعطاء اسم فيلقه ورئيسه. لكنه لم يستوعب معنى السؤال الأخير فراح يعبر بنتف من الجمل الفرنسية ممزوجة بلغته الألمانية مجيباً بأن رئيسه أصدر إليه الأوامر باحتلال صف المنازل كله. ولما كان پيار يعرف الألمانية، فقد ترجم للرئيس ما يقوله الفارس وللفارس ما قاله الرئيس. فلما فهم الألماني حقيقة الأمر أخيراً، تراجع وأخذ معه رجاله. وبعد ذلك، خرج الرئيس إلى المرقاة وأصدر بعض الأوامر بصوت مرتفع.

ولما رجع إلى الغرفة، وجد پيار جالساً في مكانه نفسه ورأسه بين يديه ووجهه ينطق بالألم. والحقيقة أنه كان في تلك اللحظة يتألم. إذ إنه عندما بقي وحيداً بعد خروج الرئيس، عاد فجأة إلى نفسه واستوعب الموقف الذي أصبح فيه. لم يكن ما يعذبه في تلك اللحظة أن موسكو قد احتلت وأن المنتصرين

السعداء أصبحوا أسياداً فيها بل أصبح هو نفسه تحت حمايتهم. صحيح أن كل هذا ثقيل على قلبه ولكن لم يقل مثل ثقل إحساسه بضعفه. ذلك أن بضع كؤوس من الخمرة والمحادثة التي دارت بينه وبين هذا الفرنسي اللطيف، انتصرت على حالته النفسية الكئيبة التي أمضى بها أيامه الأخيرة تلك، وهي الحالة النفسية اللازمة للقيام بما اعتزم أن يقوم به. فالمسدس والخنجر والمعطف كلها جاهزة ونابليون سيدخل موسكو غداً.

ظل پيار يرى أن قتل هذا الأثيم عمل نافع وفروسي. لكنه بات يشعر الآن بأنه لن يقوم به. لماذا؟ لا يعرف. لكنه كان يشعر مسبقاً بأنه لن يسير في مشروعه حتى النهاية. راح يناضل ضد شعوره بالضعف، لكنه كان يحس إحساساً غامضاً بأنه لن يسيطر على ذلك الضعف وأن أحلامه بالانتقام والاغتيال والتضحية قد نثرتها الريح كالرماد لدى اللقاء مع أول وافد.

عاد الرئيس إلى الغرفة وهو يجر ساقه ويصفر.

خيل إلى پيار أن ثرثرته التي سلته بادئ الأمر قد أصبحت بشعة فجأة ومنفرة. وذلك الصفير، وذلك التصرف، وتلك الطريقة في عكف شاربيه كل ذلك بدا له الآن مهيناً. فكر: «إنني سأذهب فوراً دون أن أضيف كلمة أخرى إلى ما قلته له». مع ذلك، فإنه لم يتحرك رغم هذه الفكرة. لقد كان ذلك الشعور الغريب بالضعف يسمره في مكانه، فكان يريد النهوض والرحيل ولكن لا يستطيع.

أما الرئيس، فقد بدا على العكس شديد المرح إلى أقصى حد. طاف في الغرفة مرتين وعيناه تلتمعان وشارباه يرتجفان قليلاً وكأن شيئاً مضحكاً جداً يجعله يبتسم ابتسامة خفيفة. وفجأة صاح: رائع، زعيم هؤلاء الورتمبرغيين! إنه ألماني، لكنه فتى باسل إذا وجب ولكنه ألماني، ووقف قبالة پيار وأعقب، وبالمناسبة، إنك إذن تعرف الألمانية أنت؟

فنظر إليه پيار في صمت: كيف تقول: ملجأ، بالألمانية؟

فكر پيار:

ـ ملجأ؟ ملجأ بالألمانية: أونتركونفت.

سأل الرئيس بلهجة قوية غير مصدقة:

ـ كيف تقول؟

فردد پيار:

ـ أونتركونفت.

فقال الرئيس وهو يتأمل پيار خلال لحظات بعينيه الضاحكتين:

ـ أونتركوفت. إن الألمان وحوش فخورون.

ثم أعقب: أليس كذلك يا سيد پيار؟

وتابع: حسناً، زجاجة أخرى من هذا النبيذ الموسكوڤي، أليس كذلك؟

ثم صاح بمرح: موريل، اذهب وسخن لنا زجاجة صغيرة، موريل!

جاء موريل بالزجاجة وبالشموع. فتأمل الرئيس پيار على ضوئها ودهش لما بدا على قسماته من عطف عنيف. اقترب من پيار وانحنى عليه بانجذاب ينطق بالحدب المخلص وقال وهو يضغط على يده وسأل:

ـ حسناً، إنك حزين. فهل تراني أسأت إليك؟ كلا، قل الحق، هل في نفسك شيء علي؟ هل الأمر يتعلق بالموقف؟

فنظر پيار إلى الفرنسي بود دون أن يجيب. كان شديد التحسس بالعطف الذي أظهر له.

هتف الفرنسي وهو يقرع صدره:

أعاهدك بالشرف على أنني أشعر بصداقة نحوك بصرف النظر عما أنا مدين به إليك، هل أستطيع أن أسدي إليك يداً؟ تصرف بي. وهو عهد يشمل الحياة أو الموت. أقول هذا لك ويدي على قلبي.

فأجاب پيار: شكراً.

تأمله الرئيس بإمعان بمثل النظرة التي تجلت في عينيه وهو يتعلم كلمة ملجأ بالألمانية وأشرق وجهه فجأة.

صاح بكل مرح وهو يملأ كأسين: آه! في هذه الحالة سأشرب نخب صداقتنا!

تناول پيار كأسه المترعة وأفرغها دفعة واحدة وشرب رامبال كأسه وضغط على يد پيار مرة أخرى ثم اتكأ على الطاولة في وضع سوداوي ومفكر. شرع يقول: نعم يا صديقي العزيز، هذه هي صروف الدهر.. من كان يقول إنني سأكون جندياً ورئيساً لكوكبة من الفرسان في خدمة بوناپرت كما كنا ندعوه من قبل؟ مع ذلك، ها أنذا في موسكو معه.

وأعقب بصوت حزين ومتزن، صوت رجل يتأهب لرواية قصة طويلة: يجب أن أقول لك يا عزيزي إن اسمنا من أعرق الأسماء الفرنسية.

وبصراحته الساذجة البسيطة كفرنسي، روى الرئيس لـپيار تاريخ أسلافه وطفولته وصباه وشبابه وكل مشاكله المادية والعائلية. وغني عن الذكر أن «أمي المسكينة» كانت تلعب في هذا الحديث دوراً هاماً. قال وهو ينتعش:

ـ لك هذا كله ليس إلا إخراج الحياة، أما الأساس فإنه الحب! الحب! أليس كذلك يا سيد پيار؟ هل لك بكأس أخرى؟

فشرب پيار وسكب لنفسه كأساً ثالثة:

ـ أوه! النساء! النساء!

وراح الرئيس ينظر إلى پيار بعينين متراخيتين ويحدثه عن الحب وعن مغامراته الغرامية.

كانت عديدة جداً والمرء يسهل عليه تصديقه إذا نظر إلى الحماسة التي يتحدث بها عن النساء وإلى أمارات الرضى المرتسمة على وجهه وإلى ذلك

الوجه الجميل نفسه. وعلى الرغم من أن مغامرات رامبال كانت تحوي الجانب الخلاعي الذي يكون لدى الفرنسيين فتنة الحب وشاعريته، فإن الرئيس أخذ يروي وقائعه بإيمان مخلص بأنه وحده الذي ذاق كل الحب وتعرف إليه، ويصف بطلات أقاصيصه بإغراء عنيف حتى أن پيار كان يصغي إليه بفضول.

من الواضح أن الحب الذي يحبه الفرنسي بمثل هذه الشدة ليس ذلك الكلف البدائي والشهواني الذي أحس به پيار فيما مضى نحو زوجته ولا ذلك الحب الرومنطيقي الذي يشعر به نحو ناتاشا وكان رامبال يحتقر كليهما معاً لأن الأول في نظره «غرام السواقين» والثاني «غرام الحمقى»، بل إن الحب الذي يجرفه كان يتألف بصورة خاصة من العلاقات الخارقة مع النساء وكانت سلسلة من تآلف الأشياء الغريبة تكوّن المظهر الرئيسي للعاطفة.

وهكذا روى الرئيس قصة غرامه المثيرة مع مركيزة فاتنة في الخامسة والثلاثين، التي يبطنها غرامه لابنة هذه الأخيرة، وهي فتاة أنيسة ساذجة في السابعة عشرة من عمرها. ولم يعد الصراع في الكرامة بين الأم والبنت الذي انتهى بتضحية الأم التي قدمت ابنتها زوجة لعشيقها، إلا مجرد ذكرى بعيدة، ذكرى لا تزال رغم ذلك تثير عواطف الرئيس. ثم روى سلسلة من القصص كان الزوج فيها يلعب دور العاشق وهو، العاشق، دور الزوج ثم بعض قصص أخرى هزلية عن «ذكرياته في ألمانيا» حيث تلفظ كلمة ملجأ أونتركونفت وحيث الأزواج يأكلون الكرنب المهروم المخمر وحيث الفتيات شقراوات جداً.

وصل أخيراً، إلى سرد مغامرته الأخيرة في بولونيا، تلك المغامرة التي ما زالت حديثة العهد في ذاكرته، فرواها بحركات ملؤها الحيوية ووجهه ينطق بالنشوة. لقد أنقذ حياة بولوني (وفي روايات الرئيس، كان لا بد من حادث ينقذ فيه حياة أحدهم) بشكل راح هذا البولوني معه يسلمه قيادة زوجته الفاتنة

باريسيّة القلب، بينما انخرط هو في خدمة فرنسا. وكان الرئيس في غاية ما يشتهي فأرادت البولونية الفاتنة أن تفر معه. مع ذلك، فقد أعاد الزوجة إلى زوجها في غمرة إحساس نبيل وقال له: «لقد أنقذت حياتك، وها إنني أنقذ شرفك!» وأخذ رامبال وهو يردد هذه الكلمات يمسح عينيه ويهز رأسه وكأنه يريد أن يطرد التحنان الذي غمره أمام ذكرى على هذا القدر من التأثير.

وكما يحدث غالباً في ساعة متأخرة من الليل وتحت تأثير الخمرة، راح پيار وهو يصغي إلى أقاصيص الرئيس، يتبع ذكرياته الخاصة التي دهمت ذاكرته فجأة. ولقد أيقظت اعترافات الحب تلك هواه بناتاشا فراح يستعيد صورته في خياله ويقارنه بأقاصيص رامبال. ولقد ذكرته قصة الصراع بين الواجب والحب بلقائه الأخير مع ناتاشا قرب برج سوخارييـڤ. مرت ذكريات ذلك اللقاء أمام عينيه في أدق تفاصيله. لقد أثر فيه ذلك اللقاء تأثيراً خفيفاً في حينه، بل إنه نأى تماماً عن ذاكرته. أما الآن، فعلى العكس، لقد بدا أنّ له معنى وشاعرية خاصة مختلفة تماماً.

«يا پيوتر كيريلليتش، تعال، لقد عرفتك». كان يسمع هذه الكلمات ويرى أمامه عيني ناتاشا وابتسامتها وقلنسوة السفر التي على رأسها وخصلات شعرها المجنونة.. لقد كان لكل هذه الأشياء لون من الحنو والتأثير.

وبعد أن انتهى من حكاية البولونية التي أعادها إلى زوجها، سأل الرئيس پيار عما إذا كان أحسّ بمثل عاطفة التضحية بالذات هذه في سبيل الحب والحقد نحو الزوج الشرعي.

رفع پيار رأسه عقب هذا السؤال واستبد به شعور بالحاجة إلى أن يفصح عما في نفسه، فراح يشرح لجليسه كيف أنه يفهم الحب على لون آخر. قال إنه خلال حياته كلها لم يحب إلا امرأة واحدة وإن هذه المرأة لن تكون له أبداً.

فصاح الرئيس:

ـ هه!

ثم قال پيار إنه يحب هذه الامرأة منذ نعومة أظفارها لكنه لم يجرؤ على التفكير فيها لأنها لم تكن أكثر من «بنية» صغيرة وإنه هو، الأب غير الشرعي، لا يملك حتى اسماً، ولما تلقى فيما بعد الاسم والثروة إرثياً، ما عاد يجرؤ على مفاتحتها كذلك لأنه كان يحبها حباً عنيفاً ويضعها في مكان سام جداً وبالتالي أرفع من مقامه بكثير.

وعندما وصل إلى هذه النقطة من روايته، سأل پيار الرئيس عما إذا كان يفهمه فبدرت عن الرئيس إشارة تعني أنه ولو لم يكن يفهم شيئاً، فإن هذا لا يجب أن يحول دون پيار ومتابعة الحديث، وغمغم: الحب الأفلاطوني،...!

هل كان النبيذ الذي احتساه أم ضرورة فتح مكنونات قلبه أم كذلك التأكيد من أن هذا الرجل لا يعرف ولن يعرف قط شخصاً واحداً من الذين يتحدث عنهم، أم ترى كل هذه الاعتبارات مجتمعة هي التي حلت لسان پيار من عقاله؟ مهما كان الأمر، فقد راح يروي قصة حياته وقد جف لعابه وشخص بعينيه العكرتين إلى نقطة ما في البعد. روى قصة حياته وزفافه وحب ناتاشا لصديقه الحميم ثم خيانة الفتاة والعلاقات العاطفية التي يكنها لها بل لقد أفشى مدفوعاً بأسئلة رامبال، ما أخفاه في بادئ الأمر: مركزه الاجتماعي واسمه الحقيقي.

وكان الذي زاد من دهشة الرئيس لاعترافات پيار، هو أنه إزاء رجل غني جداً يملك قصرين في موسكو، هجر كل شيء دون أن يغادر المدينة وبقي آخر الأمر، وهو يخفي اسمه ومركزه.

في ساعة متأخرة من الليل، خرجا معاً إلى الشارع، كان الليل صاحياً بديعاً وإلى يسار المنزل، التمعت نيران أول حريق شب في موسكو على پيتروڤكا وإلى اليمين، كان قرص القمر الجديد عالياً جداً في السماء. وقابلة القمر،

المذنب المضيء الذي كان يشترك في نفس بيار مع غرامه. وأمام المنزل، وقف جيراسيم والطاهية وفرنسيان، وكانوا يضحكون ويتحدثون محاولين أن يتفاهموا وقد علت أصواتهم. كانوا يتأملون الضوء الذي أخذ يتصاعد فوق المدينة.

لم يكن لهذا الحريق البعيد في مدينة كبرى أي أثر مخيف.

أحس بيار بحنو مرح وهو يتأمل السماء الكبرى ذات النجوم والقمر والنجم المذنب والضوء الأحمر. فكر: «كم هو جميل كل هذا». لكنه فجأة، عندما تذكر مشروعه، أحس بدوار في رأسه وألم ينتابه فاستند إلى الحاجز مرغماً كي يتفادى السقوط.

ودون أن يستأذن صديقه الجديد، ابتعد بيار عن الباب وهو يترنح ودخل إلى غرفته حيث استلقى على الكنبة ونام فوراً.

الفصل الثلاثون

من عدة نقاط شوهد وميض الحريق الأول، في الثاني من أيلول، وأحدث تأثيرات متنوعة على السكان النازحين وعلى الجيش المنسحب.

في تلك الليلة، توقفت قافلة آل روستوف على مسافة عشرين فرسخاً[1] من موسكو، في ميتشتشي لأنهم في اليوم الأول، نزحوا متأخرين جداً وكان الطريق مزدحماً بالعربات والقطعات الكثيرة، واضطروا إلى انتظار عديد من الأشياء المنسية أرسلوا يستحضرونها حتى قرروا أخيراً أن يناموا على مسافة خمسة فراسخ عن موسكو. وفي اليوم التالي، استفاقوا متأخرين ووجدوا كذلك كثيراً من العوائق في الطريق حتى أنهم لم يجتازوا غراند ميتشتشي. ولقد تفرق آل روستوف والجرحى المسافرون معهم، في الساعة العاشرة، في الأكواخ الخشبية وأفنية تلك الضيعة الكبيرة. وبعد أن قام الخدم والتابعون بخدمة أسيادهم، تناولوا الطعام بدورهم واهتموا بشأن الخيول ثم خرجوا على المرقاة.

كان في المنزل المجاور مساعد راييفسكي العسكري وقد تحطم معصمه وهو يتألم ألماً شديداً رهيباً وتدوي زمجراته المستمرة بشكل مؤثر جداً في تلك الليلة الخريفية. ولقد أمضى هذا المساعد العسكري الليلة الأولى في الفناء الذي نزل فيه آل روستوف فشكت الكونتيسة أنها لم تغمض

(١) مقياس روسي طوله ١٠٦٧ متراً. (المترجم).

جفنها بسبب تلك الأنات. لذلك انتقلت في ميتشتشي إلى كوخ خشبي أكثر تواضعاً لكي تبتعد عن ذلك الجريح.

شاهد أحد الخدم في الظلمات، من وراء صندوق إحدى العربات العالي المتوقفة عند مدخل الفناء وميض حريق آخر أقل انتشاراً. وكان الحريق الأول واضحاً تماماً منذ فترة طويلة، والكل يعرف أن مكانه هو بوتيت ميتشتشي (الصغرى) حيث أضرم قوقازيو مامونوف النار.

قال أحد التابعين: وهذا أيها الرفاق، إنه حريق آخر.

فالتفتوا جميعهم نحو اللهيب.

ولكن ماذا، وقد قيل إن قوقازييّ مامونوف يحرقون ميتشتشي الصغرى!

ـ هم؟ كلا، ليس في ميتشتشي الصغرى بل أبعد من ذلك بكثير.

ـ أنظر جيداً، لا بد وأن الحريق في موسكو.

نزل خادمان عن المرقاة ومضيا وراء العربة ثم اعتليا المرقاة.

إنه أكثر إلى اليسار أنظر: إن ميتشتشي من هذه الناحية، وهذه في الجهة المضادة.

واقترب بعض الرجال من هذين وقال أحدهم: هه، كيف يرتفع اللهب! هذه، أيها السادة، هي موسكو التي تشتعل. سواء في سوشتنشيـڤكاييا أو في روغوسكاييا.

فلم يجب أحد عن هذه الملاحظة واستمر هؤلاء الأشخاص ينظرون خلال فترة طويلة إلى لهب هذا الحريق الجديد المتصاعد وهم صامتون.

اقترب وصيف عجوز للكونت، دايل تيرانتيتش، من الجماعة ونادى ميشكا.

ـ ماذا تنتظر هنا أيها الغبي الصغير!.. إن الكونت يناديك فلا يجيبه أحد. امض واهتم بالألبسة.

فأجاب ميشكا: كنت ذاهباً لملء ماء.

قال خادم: وأنت يا دانيل تيرانتيتش. ماذا تقول؟ إن هذا يبدو من موسكو دون شك.

لم يجب دانيل تيرانتيتش وراح ينظر بصمت فترة طويلة. وكان اللهب المتراقص يزداد اتساعاً..

قال صوت: ليحفظنا الله!.. بهذه الريح وهذا الجفاف..

ـ أنظر كم تقترب النار بسرعة. أوه، إلهنا! إن المرء ليرى طيور «الشوكا»! إلهنا، أرفق بنا!

فرد دانيل تيرانتيتش الذي بقي صامتاً حتى ذلك الحين:

ـ ومن سيطفئها؟

وأردف، وصوته هادئ بطيء:

ـ نعم إنها في موسكو أيها الإخوان، الأم ذات الأسوار البيضاء... وتهدج صوته فجأة وراح ينتحب كما ينتحب العجائز.

وكما أنهم جميعاً لم يسمعوا إلا هذا القول ليدركوا معنى ذلك الحريق بالنسبة إليهم، فارتفعت الحسرات والصلوات الممتزجة بإجهاش الوصيف العجوز.

الفصل الواحد الثلاثون

روى الوصيف عندما رجع إلى سيّده أن موسكو تحترق. فارتدى الكونت معطفه المنزلي وخرج مستطلعاً، وخرجت معه السيدة شوص وسونيا التي لم تكن قد خلعت ثيابها بعد فلم يبق في الداخل إلا ناتاشا والكونتيسة وحدهما، إذ كان پيتيا قد افترق عن أسرته لأنه تبع فيلقه الذي كان متجهاً إلى ترويپيتسا الواقعة على مسافة ثمانية وستين فرسخاً من موسكو.

بكت الكونتيسة عندما علمت بحريق موسكو. أما ناتاشا الشاحبة، شاخصة النظر، الجالسة تحت الأيقونات على مقعد لا مسند له (وقد بقيت جالسة فيه دون أن تتحرك منذ وصولها) فإنها لم تلق بالاً إلى ما كان يقوله أبوها. كانت تصغي إلى أنين المساعد العسكري المستمر الذي كان يُسمح رغم المنازل الثلاثة الفاصلة.

صاحت سونيا وهي عائدة من الخارج ترتجف مروعة:

ـ آه! هذا مريع! أعتقد أن موسكو كلها تحترق يا للشعلة المخيفة! ناتاشا، اذهبي إلى النافذة وانظري، يمكن الآن رؤية كل شيء بوضوح.

وكانت بهذا القول الموجه إلى ابنة عمها تحاول التسرية عنها. لكن ناتاشا نظرت إليها وكأنها لا تفهم ما يطلب إليها وعادت تحدق مجدداً إلى زاوية المدفأة. لقد كانت في هذا النوع من السبات المستغرق من الصباح، منذ أن ظنت سونيا لسبب لا يعلمه إلا الله، ولعظيم دهشة الكونتيسة وانزعاجها الكبير أن من الضروري إخطار ناتاشا بجرح الأمير أندريه وبوجوده معهم في

القافلة. وثارت الكونتيسة على سونيا ثورة لم تتعرض هذه لمثلها إلا نادراً فسألتها الصفح وهي تبكي. والآن، وكأنها تحاول التكفير عن ذنبها، راحت تظهر مزيداً من الاستمالة.

قالت سونيا:

ـ أنظري ناتاشا كيف يشب الحريق بقوة. هذا رهيب.

سألت ناتاشا: ما الذي يحترق؟ آه! نعم، موسكو!

وكأنها أرادت ألّا تجرح سونيا برفضها وأن تتخلص منها، فأدارت رأسها نحو النافذة ونظرت بشكل كان بديهياً معه أن لا ترى شيئاً وعادت إلى وضعيتها السابقة.

ـ لكنك لم تري!

فقالت بصوت يتوسل أن تُترك وشأنها: بلى، بلى، لقد رأيت جيداً.

فهمت الكونتيسة وسونيا أن موسكو وحريق موسكو وكل ما يمكن أن يحدث، لا يمكن أن يكون على أي قدر من الأهمية بالنسبة إلى ناتاشا في تلك اللحظة.

عاد الكونت إلى وراء حاجز الكوخ الخشبي واستلقى. فاقتربت الكونتيسة من ناتاشا ومست رأسها بظاهر يدها كما كانت تفعل كلما كانت ابنتها مريضة ثم لمست جبينها بشفتيها وكأنها تريد أن تعرف ما إذا كانت مصابة بالحمى ثم عانقتها وقالت:

ـ هل أصابك برد؟ إنك ترتجفين. يجب أن تنامي.

فأجابت ناتاشا:

ـ أن أنام؟ نعم، حسناً، إنني ذاهبة لأنام فوراً.

ذلك الصباح، عندما عرفت أن الأمير أندريه المصاب بجرح خطير يسافر معهم، بدأت أول الأمر تطرح الأسئلة تلو الأسئلة. كانت تريد أن تعرف أين وكيف جرح وهل جرحه خطير وهل يمكن مشاهدته. وعندما أكدوا لها بأنه

لا يمكن رؤيته وإن جرحه رغم خطورته، لا يعرض حياته للخطر، لم تصدق بالطبع ما قالوه لها، لكنها لاحظت أنهم يقدمون الأجوبة نفسها عن أسئلتها. لذلك كفت عن السؤال بل عن الكلام أيضاً.

وخلال المرحلة كلها، لم تحرك ناتاشا ساكناً في زاويتها واحتفظت بذلك المظهر الذي شوهدت عليه في تلك الآونة وهي جالسة على المقعد الذي لا مسند له: عينان واسعتان كانت الكونتيسة أخبر الناس بمعناهما وأكثرهم خوفاً مما تدلان عليه. كانت تفكر وتقرر شيئاً ما في أعماق نفسها إن لم يكن قد اتخذت قرارها بعد. وكانت الكونتيسة تشعر بذلك لكنها لم تكن تعرف ما يمكن أن يكون ذلك، وهذا ما كان يخيفها ويعذبها.

ـ ناتاشا. اخلعي ثيابك يا عزيزتي ونامي في سريري. (لقد كانت الكونتيسة وحدها تنام على سرير. أما السيدة شوص والفتاتان، فكنّ يَنَمْنَ على قش فوق الأرض).

فأجابت ناتاشا نافدة الصبر: يا أماه، سأنام هنا، على الأرض.

ثم اقتربت من النافذة وفتحتها وتناهت أنات المساعد العسكري إلى الآذان أكثر وضوحاً خلال النافذة المفتوحة. أخرجت رأسها إلى هواء الليل الرطيب فشاهدت الكونتيسة عنقها الدقيق ينتفض من النسيج ويصطدم بالإطار الخشبي. كانت ناتاشا تعرف أن هذه الأنات ليست أنات الأمير أندريه وتعرف أن الأمير ينام في الكوخ الخشبي الملاصق، يفصله عن كوخهما مدخل عادي. لكن ذلك الأنين المتواصل المريع كان ينتزع الدموع من عينيها. تبادلت الكونتيسة نظرة مع سونيا وقالت وهي تلمس كتفها برفق:

ـ نامي يا عزيزتي، نامي يا صغيرتي. هيا، نامي.

فقالت ناتاشا وهي تبادر إلى خلع ثيابها منتزعة أشرطة أثوابها انتزاعاً:

ـ آه! نعم.. فوراً، فوراً.

وبعد أن خلعت ثوبها،ارتدت صدرتها وتربّعت على ساقيها المثنيتين فوق السرير المعد لها على الأرض وكفأت شعرها الناعم القصير إلى الأمام وراحت تضفره. ولقد حلت أصابعها الطويلة الرقيقة ضفائرها وعادت تنسقها بسرعة محمومة فكان رأسها ينحني تارة إلى هذه الجهة وتارة إلى تلك بحركة أليفة بينما بقيت عيناها المتسعتان كأنهما متأثرتان بالحمى، شاخصتين. ولما انتهت من زينة الليل، استلقت ناتاشا دون ضوضاء على الشرشف الممدد فوق القش قرب الباب.

قالت لها سونيا: ناتاشا، نامي في الوسط.

فأجابت ناتاشا: إنني مرتاحة هنا.

وأضافت بسأم: ولكن، هيا جميعكن إلى النوم.

وأغرقت وجهها في وسادتها.

خلعت الكونتيسة والسيدة شوص وسونيا ثيابهن بسرعة وأوينَ إلى فراشهن وبقي السراج المتراقص أمام الأيقونات وحده يضيء الغرفة. لكن الفناء كان مضاء تماماً بلهب حريق ميتشتشي الصغرى البعيدة مسافة فرسخين. وكانت صيحات السكارى تدوي في المشرب الكائن عند منعطف الشارع الذي نهبه قوقازيو مامونوف وصيحات المساعد العسكري المستمرة تسمع دون انقطاع.

أصاخت ناتاشا السمع دون أن تتحرك إلى الضوضاء الآتية من الخارج والداخل فسمعت بادئ الأمر أمها تتلو صلاتها وتتنهد ثم فرقعة السرير تحت ثقل جسمها وشخير السيدة شوص الخفيف المألوف الذي يرافقه صفير قصير وتنفس سونيا الهادئ. ثم نادت الكونتيسة ناتاشا التي لم تجب.

همست سونيا: أظنها نائمة يا أماه.

نادت الكونتيسة مرة أخرى، بعد فترة صمت، ولكن لم يجبها أحد هذه المرة.

وبعد قليل سمعت ناتاشا تنفس أمها المنتظم. لم تند عنها حركة رغم أن قدمها الصغيرة كانت خارج الغطاء متجمدة على الأرض الباردة.

وراح جُدجُدٌ يصر في أحد الشقوق وكأنه يحتفل بانتصاره على كل هؤلاء النيام. وصاح ديك على البعد ورد آخر في مكان أقرب على صياحه، وهدأت الصيحات في الحانة فلم تعد تسمع إلا أنات المساعد العسكري. انتصبت ناتاشا وهمست:

ـ سونيا، هل أنت نائمة؟ ماما!

فلم يجبها أحد. نهضت ناتاشا ببطء وحذر وبعد أن رسمت إشارة الصليب وضعت باطن قدميها العاريتين على الأرض القذرة الباردة فصرّت الألواح الخشبية. اقتربت من الباب بخطوات سريعة صغيرة كالقطة وأدارت الرتاج المتجمد.

خيل إليها أنهم يضربون كل جدران الكوخ الخشبي بضربات مكتومة متزنة كان ذلك قلبها الذي يتخاذل وينبض بشدة تكاد تنتزعه من الهلع والخوف والحب.

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدميها على أرض المدخل الرطيب المتجمد. ولقد أنعشها ذلك البرد الذي يسري إلى وصالها. صدمت بقدمها العارية جسم رجل نائم فتخطته ثم فتحت باب الكوخ الخشبي الملاصق حيث كان الأمير أندريه مسجى. كان كل شيء معتماً هناك. ففي إحدى الزوايا قرب السرير حيث كان جسد إنسان مسجى، وضعت شمعة من شحم الغنم تحترق ذبالتها احتراقاً سيئاً مشكلة أخيلة فوق مقعد خشبي.

منذ الصباح، منذ أن عرفت بجرح الأمير أندريه ووجوده بينهم، قررت ناتاشا أنه يجب عليها أن تراه. لم تكن تعرف لماذا يجب ذلك، بل تعرف فقط أن هذه المقابلة ستكون عقاباً ولهذا السبب وجدت أنها ضرورية للغاية.

أمضت النهار في أمل واحد هو لقاؤه ذلك المساء. والآن وقد أزفت اللحظة المنتظرة، كان الخوف يملأ صدرها لما ستراه. كيف تراه مشوهاً؟ ماذا بقي منه؟ هل كان مثل ذلك المساعد العسكري الذي لا يكف عن الأنين؟ نعم، لقد كان كذلك. كان في خيالها ذلك الأنين المريع مجسداً. ولما رأت في الزاوية كتلة غير واضحة المعالم، اعتبرت ركبتي الأمير أندريه اللتين كانتا ترفعان الغطاء عن كتفيه فتصورت جسداً مخيفاً وتوقفت مروعة. لكن قوة لا تقاوم دفعتها إلى الأمام. خطت خطوة بتحرّز ثم أخرى فوجدت نفسها وسط غرفة مليئة بالأشياء. وعلى المقعد الخشبي تحت الصور، وجدت رجلاً ممدداً (هو تيموخين). بينما هجع رجلان آخران على الأرض (الطبيب والوصيف).

نهض الوصيف وتمتم بضع كلمات. أما تيموخين الذي كان يتألم من جرح ساقه، فلم يكن نائماً بل كان يختلس النظر بعينيه المتسعتين إلى ظهور الفتاة الغريب في قميص أبيض وصدرة وقلنسوة ليل. بيد أن الكلمات القليلة التي نطق بها الوصيف المذعور وهو لا يزال تحت تأثير النوم: «من هناك؟ ماذا تريدين؟» دفعت ناتاشا إلى الإسراع بالتقدم نحو الذي يهجع في الزاوية. كان يجب أن ترى ذلك الجسد مهما كان مشوهاً ومخيفاً. مرت بالقرب من الوصيف وعندئذ انتهى احتراق القسم الرديء من الشمعة، فشاهدت ناتاشا على الضوء الذي أصبح أكثر توهجاً، الأمير أندريه ممدداً ويداه فوق الغطاء، كما عرفته من قبل دائماً.

كان يشبه نفسه لكن لونه الذي ورّدته الحمى وعينيه الشاخصتين إليها بنشاط وخصوصاً عنقه الرخص الطفولي الذي يخرج من ياقة قميصه المفتوحة، كانت تعطيه هيئة خاصة، مظهراً فتياً بريئاً لم تره عليه من قبل البتة. اقتربت، وبحركة سريعة ومرنة ركعت.

فابتسم ومد لها يده.

الفصل الثاني الثلاثون

لقد انتصرت الحمى الدائمة والتهاب الأمعاء على الأمير أندريه وقد مضى أسبوع على ذلك الحين إلى أن عاد وعيه في عربة الإسعاف في ساحة معركة بورودينو، لم يستعد وعيه تقريباً قط. وفي اليوم السابع أكل بشهية شريحة خبز وشرب قدحاً من الشاي ولمس الطبيب انخفاضاً في الحمى. استعاد الأمير أندريه رشده صباحاً. ولقد تركوه ينام أول ليلة خلال الرحلة في عربته لأن الجو كان دافئاً. لكنه في ميتيشتشي، أصر هو نفسه على أن يخرجوه من العربة وأن يقدموا له قدحاً من الشاي. ولقد انتزع منه الألم الذي أحس به وهم ينقلونه من العربة زمجرات قوية وفقد الرشد مجدداً. وبقي طويلاً على سرير الميدان الذي سجوه عليه مغمض العينين لا حراك فيه. ثم فتح عينيه وتمتم: «والشاي؟» ولقد دهش الطبيب لتلك الذاكرة المدققة لأتفه تفاصيل الحياة فجس نبضه. ولدهشته الكبيرة، وبشيء من القلق، وجد أنه أفضل. وإذا كان الطبيب قلقاً، فذلك لأنه كان يعرف بالتجربة، أن الأمير أندريه مقضي عليه وأنه إذا لم يمت من حينه، فسيموت فيما بعد وسط أقوى نوبات الألم. وكانوا ينقلون مع الأمير أندريه، عسكرياً برتبة ماجور، تابعاً لفوجه، ألحقوه بالقافلة في موسكو، اسمه تيموخين، وهو ذو أنف أحمر صغير، أصيب بجرح في ساقه في معركة بورودينو نفسها. وكانا، الأمير أندريه والماجور، مصحوبين بطبيب ووصيف الأمير وحوذيه وتابعين.

قدموا الشاي للأمير أندريه فشرب بنهم وعيناه المحموتان شاخصتين

أمامه على الباب وكأنه يحاول أن يدرك وأن يتذكر. ثم سأل: كفاني. هل تيموخين هنا؟

فجرّ تيموخين نفسه ناحيته وتعلق بالمقعد:

ـ ها أنذا يا صاحب السعادة.

ـ كيف حال جرحك؟

ـ جرحي؟ تافه. ولكن أنت؟

استغرق الأمير أندريه في التفكير وكأنه يبحث عن شيء في ذاكرته.

سأل: هل من سبيل للحصول على كتاب؟

ـ أي كتاب؟

الإنجيل. لست أملكه.

وعد الطبيب بإيجاد إنجيل وسأل الأمير عما يشعر به فأجابه مكرهاً ولكن بكل وعي، عن كل أسئلة الطبيب ثم أعلن أنهم لو وضعوا تحته وسادة لشعر براحة أكثر وبآلام أقل. فرفع الطبيب والوصيف المعطف الذي يغطيه وراحا وهما يصعران وجهيهما من رائحة النتن المتصاعدة من لحمه النتن، يفحصان الجرح المريع. ولقد ند عن الطبيب ما يشعر بالاستياء ثم أعاد ترتيب جانب من الضمادة وقلب المريض بشكل جعله يعاود الزمجرة ويفقد الوعي مجدداً بتأثير الألم ويعود إلى الهذيان. استمر يكرر دون انقطاع طلبه للكتاب ورغبته في أن يوضع بجانبه بأسرع ما يمكن. ردد:

ـ ماذا يكلفكم؟ لست أملكه. أوجدوه لي أرجوكم وضعوه بالقرب مني لحظة صغيرة.

واستمر يردد هذه الشكوى الأليمة بصوت ضعيف. وخرج الطبيب إلى الدهليز ليغسل يديه فقال للوصيف الذي كان يصب الماء على يديه:

ـ آه! إنك لا تدرك الموضوع حقاً. يكفي للقضاء عليه دقيقة واحدة من عدم الانتباه من جانبي. إنه ألم هائل حتى أنني مندهش جداً إذ أراه يحتمله.

فأجاب الوصيف: يبدو أننا نبذل أفضل ما في وسعنا! أيها الرب يسوع!

أدرك الأمير أندريه للمرة الأولى كنه ما وقع له. تذكر أنه جريح وأنه في اللحظة التي وقفت عربته الخفيفة في ميتيشتشي، طلب أن ينقل إلى أحد الأكواخ. وبعد أن فقد رشده مجدداً بتأثير الألم، استعاد وعيه مرة أخرى في الكوخ وشرب الشاي وأخذ يعيد تخطيط ما أصابه في ذاكرته، فعاش من جديد وبأكثر إحساس من ذي قبل تلك اللحظة التي قضاها في مستشفى الميدان، عندما رأى آلام الرجل الذي يكرهه، فامتلكت عليه مشاعره إحساسات وآراء جديدة كانت تبشره بالسعادة. فراحت تلك الأفكار، رغم غموضها وحيرتها، تستحوذ على روحه مجدداً. تذكر أنه الآن يملك سعادة جديدة وأن لتلك السعادة علاقة ما بالإنجيل. ولهذا السبب، طلب هذا الكتاب.

لكن الوضعية الرديئة التي جعلوا جرحه عليها وهم يقلبونه، جعلته يضيع مرة أخرى حبل أفكاره وكانت تلك، هي المرة الثالثة التي يستعيد تماسه مع الحياة في سكون الليل المطبق. كان كل شيء نائماً حوله وعند المدخل جدجد يصر، وفي الخارج يغني أحدهم ويكثر من اللفظ ودويبات الليل «تخربش» على الطاولة وفوق الأيقونات والجدران، وذبابة كبيرة تصطدم بوسادته الكبيرة وتدندن حول الشمعة الموضوعة بالقرب منه التي كانت تبرعم وهي تسيل.

لم تكن روحه في حالتها الطبيعية. فالرجل الصحيح الجسم عادة تنتابه معاً ألف فكرة وإحساس وذكرى، فإذا ما أوقف اختياره على سلسلة واحدة من الأفكار أو الوقائع، يجد الإرادة والقوة لتثبيت كل انتباهه على تلك السلسلة. والرجل الصحيح الجسم قادر عى أن ينتزع نفسه من فكرة عميقة ليقول كلمة رفيقة لشخص دخل منذ حين ثم أن يعاود سياق أفكاره. وروح الأمير أندريه،

تبعاً لهذا الرأي، لم تكن في حالتها الطبيعية لأن قواه الفكرية كانت أكثر نشاطاً وإشراقاً من أي وقت مضى لكنها كانت تعمل خارج نطاق إرادته. كانت الأفكار والصور الأكثر تبايناً تستحوذ عليه وكان تفكيره أحياناً يبدأ فجأة في العمل بشدة ووضوح وعمق لم يكن له مثلها وهو في أفضل حالة صحية. لكنها فجأة، في غمار النشاط، تتحطم الفكرة وينبعث خاطر غير متوقع فيصبح مستحيلاً عليه إعادة ربط السلسلة.

كان يفكر وهو مسجى في الكوخ المظلم الساكن وعيناه الكبيرتان المحمومتان تحدقان أمامه: «نعم، لقد بشرت بسعادة جديدة لا يمكن أن تنتزع من الإنسان سعادة لا تخضع للقوى المادية والتأثيرات الخارجية، سعادة الروح وحدها، سعادة الحب! إن كل إنسان يستطيع أن يفهمها. لكن الله وحده يستطيع أن يضفيها أو أن يبشر بها. وكيف بشرنا الله بهذا القانون؟ لماذا الابن؟...».

وفجأة انقطع حبل أفكاره وسمع الأمير أندريه، دون أن يعرف ما إذا كان ذلك في اليقظة أم في الهذيان؟ صوتاً رقيقاً هامساً يكرر باستمرار وبإيقاع: «بيتي - بيتي - بيتي» ثم من جديد: أي - تي - تي - ثم اي - تي - تي. وفي الوقت نفسه، على صوت هذه الموسيقى الهامسة، أحس بأن بناء غريباً يرتفع فوق وجهه عند منتصفه تماماً، بناء في الهواء قوامه إبر دقيقة أو قطع خشبية صغيرة وشعر، رغم شدة إيلام هذا الشعور، أنه مرغم على الاحتفاظ بتوازنه بعناية كي لا ينهار ذلك البناء الهوائي. لكنه مع ذلك انهار، ثم عاد ببطء مجدداً يرتفع ويتكون على صوت تلك الموسيقى الهامسة. أخذ الأمير أندريه يحدث نفسه: «إنه يكبر، إنه يستطيل ويكبر!» وفي الوقت الذي أخذ يصيخ السمع إلى ذلك الهمس ويشعر بذلك البناء من الإبر يرتفع وتتسع رقعته، كان الأمير أندريه يرى خلال فترات، تلك الدائرة الحمراء التي ينشرها لهب الشمعة ويسمع

«خربشة» الدويبات وطنين الذبابة التي كانت تصطدم بوسادته أو بوجهه. وكلما مست الذبابة وجهه، أحدثت إحساساً بالاحتراق لكنه في الوقت نفسه يدهش كلما رأى أنها تصطدم في المكان نفسه الذي ارتفع ذلك البناء فوق وجهه دون أن ينهار. بالإضافة إلى ذلك، كانت ظاهرة أخرى هامة تقع في ذلك الحين. إنها بقعة بيضاء عند الباب، تماثل أبا الهول، راح هو الآخر يسحقه.

فكر الأمير أندريه: «لعله قميصي الموضوع على الطاولة. هنا ساقاي، وهنا الباب. إذن لماذا يطول ويرتفع هذا الـ: بيتي، بيتي - بيتي، اي - تي - تي - اي - بيتي، بيتي، بيتي..» وصرخ الأمير أندريه بصوت ناحب وكأنه يتوسل إلى أحدهم: «كفى، كفى، أرجوك، توقف». ثم عادت فجأة أفكار ومشاعر ذات قوة وجلاء خارقين.

حدث نفسه وهو في إشراق فكري عميق: «نعم، الحب. ليس هذا الحب الذي يعرف غايته ودوافعه أو سببه، ولكن ذاك الذي أحسست به لأول مرة حينما رأيت عدوي وأنا على شفا الموت، فأجبته رغم العداء. لقد شعرت حينذاك بذلك الإحساس الذي هو جوهر روحنا بالذات والذي لا يحتاج إلى غرض. والآن أيضاً أحس بهذا الشعور الهنيء. حب الآخرين! حب أعداء الإنسان! حب كل شيء، هو حب الله في كل مظاهره. حب مخلوق عزيز إنما هو حب اختص به الإنسان. ولكن حب العدو إنما هو حب سماوي مجرد. ولهذا السبب أحسست بتلك البهجة الكبرى عندما شعرت بأنني أحب ذلك الرجل. ماذا حدث له؟ هل مات؟

«أن يحب المرء حباً إنسانياً، معناه أن ينتقل من الحب إلى الكراهية في حين الحب السماوي لا يتبدل. ما من شيء حتى ولا الموت يستطيع أن يحطمه. إنه جوهر الروح. كم من الناس كرهتهم طوال عمري مع ذلك فإنني لم أحبب أحداً ولم أكره أحداً بقدر ما أحببتها وكرهتها». وتصور ناتاشا بقوة

ليس كما يتصورها من قبل بتلك الفتنة وحدها التي سحرته بل تصور لأول مرة روح ناتاشا. فأدرك عواطف الفتاة وألمها وخجلها وندمها. شعر الآن بكل قسوة رفضه ورأى للمرة الأولى قسوة فصمه علاقاته معها. «ليتني أستطيع رؤيتها من جديد مرة واحدة مرة، واحدة، أرى فيها عينيها وأقول لها...».

«بيتي - بيتي، بيتي - بيتي، بوم!» واصطدمت الذبابة مجدداً. وفجأة انتقل انتباهه إلى عالم آخر من الحقائق والتخيلات كان شيء ما خاص يقع فيه. لقد كان بناء آخر يرتفع في هذا العالم أيضاً دون أن ينهار، بناء يكبر باستمرار وإن كانت الشمعة نفسها تحترق فيه أيضاً وسط دائرتها الحمراء وقميص أبي الهول نفسه ينتصب عند الباب. إلا أنه إلى جانب كل ذلك، ارتفعت خشفة ونفحة هواء عليل ثم أبو هول جديد أبيض منتصب ظهر أمام الباب. وكان أبو الهول هذا شاحب الوجه ملتمع العينين أشبه بناتاشا هذه التي كان يفكر فيها منذ حين.

فكر الأمير أندريه وهو يحاول طرد هذا الوجه من مخيلته: «اوه! كم هو مؤلم هذا الهذيان المستمر!» لكن ذلك الوجه بقي هناك بكل ما للحقيقة من قوة وراح ذلك الوجه يقترب. أراد الأمير أندريه أن يعود إلى عالم الفكر النقي الذي بارحه منذ حين لكنه لم يستطع لشدة ما كان الهذيان يجره إلى قطاعه. تابع الصوت الهادئ الهامس دمدمته الإيقاعية وضيق عليه شيء ما جسمه وظل الوجه الغريب ماثلاً أمامه.

استجمع الأمير أندريه كل قواه ليتملك نفسه وانتفض لكن أذنيه دوتا فجأة واضطربت عيناه وفقد الرشد أشبه برجل على وشك الغرق وعندما عاد إلى وعيه، كانت ناتاشا، ناتاشا نفسها، تلك التي كان يود أن يحبها من دون خلق الله طراً بذلك الحب الجديد النقي السماوي الذي تنزل عليه، راكعة أمام سريره. أدرك أنها ناتاشا الحقيقية بلحمها ودمها، فابتهج ابتهاجاً رقيقاً بدلاً من

أن يندهش. وكانت ناتاشا راكعة مرتجفة من الخوف ولكن ساكنة ـ إذ كانت عاجزة عن الحركة ـ تنظر إليه وهي تحبس نحيبها ووجهها شاحب وكأنه جامد باستثناء الارتجافة التي تمر بالفك الأسفل.

أطلق الأمير أندريه زفرة ارتياح ومد لها يده وابتسم وقال:

ـ هذا أنت؟ يا للسعادة؟

اقتربت منه ناتاشا على ركبتيها بقوة واحتراس وأمسكت يده برفق وحنت رأسها فوقه ثم قبلتها وهي لا تكاد تلمسها. قالت لاهثة وهي ترفع رأسها وتنظر إليه: صفحاً! اصفح عني!

قال الأمير أندريه: أحبك!

صفحاً..

سأل الأمير أندريه: أصفح عن أي شيء؟

فقالت ناتاشا بصوت متقطع لا يكاد يسمع:

ـ اصفح عني عما.. فعلت.

وغمرت يده بقبلات مترفقة. فقال الأمير أندريه:

ـ أحبك أكثر بكثير وأفضل بكثير مما كنت أحبك من قبل.

ثم رفع وجهها بيده ليتسنى له أن يتأمل عينيها.

كانتا مغمورتين بدموع السعادة، تينك العينين اللتين راحتا تنظران إليه بخجل مفعمتين بالحنو والفرح والحب. كان وجه ناتاشا النحيل ذو الشفتين المنتفختين أبعد من أن يكون جميلاً بل مخيفاً. لكن الأمير أندريه لم يكن يراه بل كان ينظر إلى تينك العينين اللامعتين اللتين كانتا آية في الجمال. ومن ورائهما، ارتفعت جلبة أصوات.

لقد أيقظ پيار الوصيف، الذي تخلص تماماً من سلطان النوم، الطبيب بدوره. أما تيموخين الذي كان جرح ساقه يمنعه من النوم، فقد كان يرى كل

ما يحدث منذ أمد طويل. وأعاد الغطاء بعناية على جسمه المعرى وتكور على قدر طاقته فوق مقعده.

قال الطبيب وهو يغادر مرقده: ما هذا؟ تفضلي بالخروج يا آنسة.

وفي تلك اللحظة، طرقت الباب خادم أرسلتها الكونتيسة لتبحث عن ابنتها.

خرجت ناتاشا من الغرفة كالمصاب بمرض السير أثناء النوم الذي أوقظ من نومه العميق. فلما دخلت الكوخ الآخر، سقطت على مرقدها منتحبة.

ومنذ ذلك اليوم، وطوال فترات التوقف والمراحل التي مرت بها رحلة آل روستوف الطويلة، لم تترك ناتاشا الجريح حتى اضطر الطبيب إلى الاعتراف بأنه لم يكن يعتقد قط أنه واجد فتاة على مثل تلك الحيوية وتلك البراعة في معالجة الجرحى.

ومهما بلغت فكرة إمكان موت الأمير أندريه بين يدي ابنتها خلال السفر بالنسبة إلى الكونتيسة، وهو أمر ممكن الوقوع تبعاً لرأي الطبيب، فإنها لم تستطع منع ناتاشا من التصرف وفق رغبتها. وكان تقارب الأمير أندريه الجريح من ابنتها، يحمل في أعطافه إمكانية عودة علاقات الخطبة إلى سابق عهدها عند الشفاء. لكن ما من أحد كان يشير إلى ذلك، بل إن ناتاشا والأمير كانا أقل الناس تفكيراً في مثله. لقد كان شاغل واحد يحتكر الانتباه العام: مسألة موت أو حياة معلقة ليس فوق رأس پولكونسكي فحسب، بل فوق روسيا كلها.

الفصل الثالث والثلاثون

في الثالث من أيلول، استيقظ پيار متأخراً جداً وهو فريسة صداع في رأسه، وبدت له ملابسه التي لم يخلعها قبل النوم ثقيلة للغاية بينما جعلته موجة غامضة يشعر بأنه ارتكب يوم أمس عملاً مخجلاً، وذلك الشيء هو حديثه مع رامبال.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. لكن الجو في الخارج معتم بشكل خاص. نهض پيار وفرك عينيه. فلما رأى المسدس ذا المقبض الملبس الذي أعاده جيراسيم إلى مكانه على المكتب، تذكر پيار المكان الذي هو فيه وما قرر أن يقوم به ذلك اليوم بالذات.

فكر: «ألست متأخراً؟ كلا. «إنه» لن يدخل موسكو على ما يبدو قبل الظهر».

لم يسمح لنفسه بعدئذ أن يفكر في مهمته بل راح يتعجل الانتقال على العمل بسرعة المحموم.

وبعد أن أدخل بعض النظام على ألبسته، أخذ پيار المسدس واستعد للذهاب. لكنه في تلك اللحظة تساءل للمرة الأولى كيف عليه أن يحمل سلاحه الذي لم يكن بوسعه الاحتفاظ به في يده في الشارع. كان يستحيل عليه إخفاء مسدس من هذا العيار حتى تحت معطفه الواسع. لم يكن يستطيع وضعه في منطقته ولا تحت إبطه دون أن يكون ملحوظاً. ثم إن المسدس كان فارغاً ولم يجد پيار وقتاً كافياً لإعادة حشوه. حدث نفسه رغم أنه قال في نفسه

غير مرة وهو يفكر في مشروعه أن خطأ الطالب الرئيسي عام ١٨٠٩ كان لجوؤه إلى الخنجر في محاولته قتل ناپليون: «سوف يفي الخنجر كذلك بالغرض». لكن غاية پيار الحقيقية كانت في واقع الحال البرهان لنفسه بأنه لن يتراجع عن غرضه بل إنه سيعمل كل شيء لإنجازه على أفضل وجه أكثر مما سيعمل إنجاز خطته نفسها. أخذ بسرعة خنجراً رديئاً مثلما في غمد أخضر اشتراه مع المسدس في وقت واحد من برج سوخاريـيـڤ وأخفاه تحت صدرته.

اجتهد پيار أن يسير دون ضجيج وأن يتجنب الرئيس بعد أن جذب نطاق معطفه جيداً وأرخى قلنسوته على عينيه، فاجتاز الممشى ونفذ إلى الشارع.

واتخذ الحريق الذي لم يأبه له مطلقاً مساء أمس، شكلاً جدياً إذ كانت موسكو تحترق فعلاً من نقاط عديدة. كان الحريق مستقراً في آن واحد في أروقة صانعي العربات وفي الحي المقابل وفي جوستيني دفور، في بوڤارسكاييا بين الأكواخ الخشبية القائمة على نهر موسكـڤا وفي «ورشات» الخشب قرب جسر دوروغوميلوڤ.

وكان الطريق الذي يريد پيار السير فيه، يقوده عبر شوارع ضيقة ابتداء من بوڤارسكاييا ثم عبر الأربات نحو كنيسة القديس نيكولا. إذ كان ذلك هو المكان الذي حدّده في خياله منذ زمن طويل ليقوم فيه بعمله. كان الجانب الأكبر من المنازل مغلق النوافذ، والأبواب والشوارع والأزقة خالية، والهواء مفعم برائحة الحريق والدخان. وهنا وهناك، كان المرء يقابل بعض الروس وعلى وجوههم أمارات الذعر والقلق وجنوداً فرنسيين تظهر القحة على وجوههم يحتلون وسط الشارع، فكان أولئك وهؤلاء يصوبون إلى پيار نظرات حافلة بالدهشة. كان ما يدهش الروس، إضافة إلى قامته المديدة بنيته المتينة وأمارات وجهه المعذبة المركزة بشكل غريب مثل مجموع شخصيته، استحالة قدرتهم على تحديد البيئة التي ينتمي إليها هذا الرجل. في حين أن

الفرنسيين كانوا يتابعونه بأعينهم لأنه بدلاً من أن ينظر إليهم بفضول ممتزج بالرعب ككل مواطنيه، لم يكن يعيرهم التفاتاً. وأمام أحد المنازل، استوقف ثلاثة من الفرنسيين كانوا يتحدثون مع روس دون أن يفهم هؤلاء عليهم، ليسألوه عما إذا كان يعرف الفرنسية.

أشار پيار برأسه أن لا وتابع طريقه، وفي زقاق آخر، صاح به حارس واقف إلى جانب صندوق خشبي بالأخضر وقال شيئاً. فلم يفهم پيار أن عليه أن يعمد إلى الجانب الآخر من الشارع إلا عندما كرر الحارس أمره المتوعد ورآه يصلي بندقيته. لم يكن منتبهاً إلى ما حوله بل كان يحمل فكرته في نفسه وكأنها شيء غريب خطير، يحملها بعجلة وهول وهو يخشى، بعد تجربته في الليلة السابقة، أن يفقدها نهائياً، ولكن لم يكن مقدراً على پيار أن يحتفظ بتلك الحالة النفسية سليمة حتى يبلغ المكان الذي اتجه إليه. بل إنه حتى ولو لم يستوقفه أحد، فإن فكرته لم تكن لتتحقق لأن ناپليون كان منذ أكثر من أربع ساعات قد اجتاز ضاحية دوروغوميلوف عن طريق الأربات متجهاً إلى الكرملين مباشرة، وكان في تلك اللحظة يحتل مكتب القيصر في قصر الكرملين وهو في أسوأ حالاته الفكرية ويعطي الأوامر المفصلة لإطفاء الحريق فوراً ومنع النهب وتهدئة روع السكان.

لكن پيار ما كان يعرف شيئاً من ذلك، كان مستغرقاً في الحادث المستعجل، يعذب نفسه على شاكلة العنيدين الذين يحولون المستحيل ليس بسبب صعوبة العمل نفسه بل لأن طبيعة العمل منافية لطبعه ولأنه يخاف أن يضعف في اللحظة الحاسمة فتنحط قيمته بالتالي في نظر نفسه.

وعلى الرغم من أنه لم يسمع شيئاً من كل ما يدور حوله، فإنه كان يتبع بالغريزة الطريق التي اختطها لنفسه دون أن يخطئ في متاهة الأزقة المؤدية إلى بوڤارسكايا.

وكلما اقترب من بوڤارسكاييا، ازداد الدخان وشعر الإنسان بحرارة الحريق، ومن حين إلى آخر كانت ألسنة من اللهيب تنبعث من سقوف المنازل وأصبح اللقاء بالناس كثيراً واتسمت الوجوه بطابع ظهر فيه الذعر بأكثر جلاء. لكن پيار رغم شعوره بأن شيئاً ما خارقاً يحدث حوله، لم يكن منتبهاً إلى أنه يسير مباشرة نحو الحريق، وبينما هو يجتاز ممراً يخترق أرضاً خواء واسعة متصلة من جانب بوڤارسكاييا ومن الآخر بحدائق نزل الأمير غروزينسكي، سمع بجانبه فجأة صيحة يائسة تطلقها امرأة فتوقف وكأنه استيقظ من حلم ورفع رأسه.

تناثرت خارج الممر، على الحشائش المغبرة الجافة قطع من الأثاث، فرس وسماور وأيقونات وصناديق. وعلى الأرض بجانب الصناديق، جلست امرأة ناحلة في مفترق سنين، ذات أسنان أمامية طويلة، مرتدية معطفاً طويلاً أسود تضع على رأسها قلنسوة، راحت هذه المرأة تتمايل وهي تدمدم بشيء ما وتبكي بكاء مريراً، بينما راحت فتاتان إحداهما في العاشرة والثانية في الثانية عشرة مرتديتان أثواباً قصيرة متسخة ومعطفين صغيرين مبطنين بالفراء، تنظران إلى أمهما وعلى وجهيهما الشاحبين المروعين أمارات الذهول. وكان صبي أصغر سناً في حوالى السابعة من عمره، ملفوفاً بمعطف طويل وقبعة ذات حافة واحدة، عريضة جداً يبكي بين ذراعي مربيته العجوز. وجلست خادم قذرة على صندوق حافية القدمين وقد فردت شعرها الأشقر وراحت تنتزع منه شعرات مغراء اللون كانت ترفعها إلى أنفها. أما الزوج، وكان رجلاً قصير القامة محدودب الظهر في بزة موظف صغير، ذا سالفين طويلين وشعر مصقول جيداً على الصدغين يبرز من قبعة وحيدة الطرف موضوعة على رأسه باتزان، فقد راح يحرك الصناديق الموضوعة بعضها فوق بعض، غير بادي

التأثر، بحثاً عن بعض الأسمال. ألقت المرأة بنفسها على قدمي پيار تقريباً عندما شاهدته وصرخت خلال عبراتها:

ـ أيها الناس البواسل، أيها المسيحيون، أنقذونا، ساعدونا!.. سيدي العزيز؟.. كن من كنت، ساعدنا! ابنتي الصغرى!.. ابنتي!.. أصغر بناتي لقد تركت!.. لقد احترقت! أوه، أوه، اوه! ألأجل هذا هدهدتك كل هذا الوقت.. أوه، اوه، اوه!

فقال الزوج بصوت هادئ اتخذه لا شك ليبرر تصرفه:

ـ هدئي روعك يا ماري نيكولاييـڤا. لا شك أن أختك حملتها معها.

ثم أضاف: وإلا، فأين يمكن أن تكون؟

فصرخت المرأة بحقد وقد كفت فجأة عن البكاء:

ـ أيها المغفل، أيها الوحش! إنك عديم القلب. إنك لا تأسف على ابنتك مجرد أسف. لو كان غيرك لأنقذها من النار. إن هذا الغبي ليس رجلاً ولا أباً.

ثم قالت لـپيار وكلماتها تتلاحق وهي تنشج:

ـ أنت، أنت قلب نبيل أنت. لقد شبت النار بجانبنا ثم بلغت مسكننا. ولقد صاحت الوصيفة: شب الحريق! فاندفعنا نجمع حاجاتنا. ولقد فررنا بما نحمله على أنفسنا.. هذا ما استطعنا حمله،.. الأيقونة، وسرير زواجي وكل ما عدا ذلك ضاع. أخذت الأطفال، وإذا بكاتيا غير موجودة. أوه، أوه، أوه! يا إلهي!

وعادت تنتحب: لقد احترقت صغيرتي الوديعة، احترقت!

ـ سألها پيار: ولكن أين ظلت؟

أدركت تلك المرأة من أمارات وجهه المحتدة أن هذا الرجل قادر على مساعدتها فراحت تتوسل إليه وهي تحيط ساقيه بذراعيها:

ـ يا سيدي الطبيب! يا أبي! يا محسني، أقله أرح قلبي!.. وصرخت بالوصيفة: ـ أنيسكا، أيتها الفتاة القذرة، اذهبي ودليه.

وفتحت وهي تصرخ فماً مكشراً كشف عن أسنانها الطويلة فبادر پيار يقول لها بصوت لاهث:

خذيني، سوف.. سوف أعمل جاهداً.

خرجت الوصيفة القذرة من وراء صندوقها وسوت ضفيرتها وزفرت ثم سارت في المقدمة فوق الممر عارية القدمين؟ وكان پيار أشبه بالرجل الذي عاد إلى الحياة بعد إغماء طويل. نصب رأسه والتمعت عيناه من جديد ببريق الحياة وراح يتبع الفتاة بخطى حثيثة حتى أدركها وبلغ بوڤارسكاييا. كان الشارع مليئاً بسحابة كثيفة سوداء وألسنة من النار تنبعث من بعض جنباتها ومجموعة من الناس تجمعت عند مشارف الحريق. وفي وسط الطريق، كان جنرال فرنسي يقول شيئاً ما للمحيطين به. كاد پيار الذي تقوده الخادم يقترب من المكان الذي وقف فيه الجنرال. لكن الجنود الفرنسيين أوقفوه وصرخوا به:

ـ ممنوع المرور!

قالت الخادم: من هنا يا عماه، سنسير في هذا الزقاق لنجتاز فناء آل نيكولين.

رجع پيار على عقبيه وراح يوسع الخطى أحياناً ليلحق بالخادم. اجتازت الشارع راكضة ثم سارت إلى اليسار عبر الزقاق واجتازت ثلاثة بيوت ثم انعطفت يميناً واجتازت باباً. قالت مفسرة: سنصل بعد قليل.

وبعد أن اجتازا الفناء ركضاً، فتحت باب سياج وأومأت إلى پيار تدله على جناح من الخشب كان يلتهب بنار عنيفة وينشر حرارة قوية. وكان جانب

كامل من الجناح منهاراً بينما كان الجزء الآخر ملتهباً كله واللهب المضيء الملتمع يخرج من فتحات النوافذ والسقف.

توقف پيار رغماً عنه عندما اقترب من باب الفناء وكادت الحرارة تخنقه وسأل: أي منزل، أي بيت بيتكم؟

زمجرت الخادم وهي تشير إلى الجناح:

ـ أوه، أوه، أوه! ها هو ذا، هذا هو منزلنا الصغير. وأنت في النار يا كاتنكا، يا كنزنا، يا آنستي الصغيرة العزيزة! أوه! أوه، واه؟.

وراحت أنيسكا تزمجر وهي تشعر بوجوب إظهار مشاعرها هي الأخرى أمام الحريق.

انطلق پيار نحو الجناح. لكن الحرارة كانت شديدة بحيث اضطر إلى أن يلتفت حوله فوجد نفسه قرب مسكن كبير كان جانب واحد من السقف يحترق وحوله جمهور غفير من الفرنسيين. لم يفهم بادئ الأمر ماذا كان أولئك الفرنسيون يفعلون هناك. لقد كانوا يجرون شيئاً ما لكنه لما رأى أحدهم يضرب بعرض سيفه أحد القرويين ويسلبه معطفه المبطن بفراء الثعلب، أدرك أنه إزاء جماعة من السلابين. مع ذلك، فإنه لم يجد الوقت الكافي للتعمق في تفكيره حول النقطة.

أثارت الطقطقة وقرقعة الجدران والسقوف المنهارة وصفير النار وشخيرها وهتافات الجمهور ومشهد زوابع الدخان التي تنتشر كثيفة سوداء تارة وترتفع مشعة تارة أخرى، ورؤية اللهب ينتقل من جدار إلى آخر، أحمر كثيفاً أشبه بالعرم، والأحاسيس التي سببتها الحرارة والدخان والجري كل ذلك أثار في نفس پيار الانفعال الذي تحدثه الحرائق عادة في نفوس الأطفال بل إنه كان أشد قوة في نفسه حتى أنه أحسّ فجأة بخلاصه من الأفكار التي كانت متسلطة عليه. وجد نفسه مجدداً فتياً مرحاً. دار راكضاً حول الجناح من

جانب المسكن الكبير وأراد أن يندفع إلى الجزء الذي ما زال قائماً عندما سمع فوق رأسه تماماً عدداً من الأصوات تصيح ثم، على الأثر، قرقعة شيء وجلبة سقوط جسم ثقيل بالقرب منه.

رفع پيار عينيه فشاهد فرنسيين ألقوا منذ فترة بقمطر ممتلئ بالأدوات المعدنية بينما اقترب جنود فرنسيون آخرون كانوا في الأسفل نحو القمطر الملقى من علٍ.

صاح أحدهم وهو يرى پيار: حسناً، ماذا يريد هذا؟

سأل پيار: طفل في هذا المنزل. ألم تشاهدوا طفلاً؟

صاحت أصوات كثيرة:

ـ هه، ماذا ينفق هذا؟ امض في سبيلك.

وتقدم أحد الجنود نحو پيار متوعداً وقد خشي بدون شك أن تكون غايته استعادة الفضيات وموجودات القمطر من البرونز منهم.

صاح أحد الفرنسيين من الأعلى:

ـ طفل؟ لقد سمعت شيئاً يصرخ في الحديقة. لعله صبي الرجل. يجب أن يكون المرء إنسانياً، ويحكم..

سأل پيار: أين هو؟ أين هو؟

صاح به الفرنسي الواقف عند النافذة وهو يشير إلى الحديقة وراء المنزل: من هنا! من هنا! انتظر، سوف أنزل إليك.

وفي الواقع لم تمض ثوان، حتى قفز الفرنسي من نافذة الدور الأرضي وكان فتى في مقتبل العمر أسود العينين، يحمل شامة على وجنته، يرتدي قيمصاً دون سترته، ووكز پيار في كتفه وقاده إلى الحديقة. صاح يخاطب رفاقه:

ـ أسرعوا أنتم كذلك، بدأت الحرارة ترتفع.

اندفع مع پيار وراء المنزل عبر ممشى مفروش بالرمال وفجأة جذب الفرنسي پيار من ذراعه وأراه شيئاً مستديراً، كان ذلك الشيء طفلة في الثالثة من عمرها في ثوب وردي مسجاة فوق مقعد.

قال الفرنسي: هذا طفلك. آه! طفلة! هذا أفضل. إلى اللقاء أيها الرجل الضخم. يجب أن نكون إنسانيين وكلنا مائت كما ترى.

وأسرع الفرنسي ذو الشامة للحاق برفاقه.

اندفع پيار لاهثاً من الفرح نحو الطفلة وأراد أن يحملها بين ذراعيه. ولكن عندما شاهدت الطفلة المصابة بداء الخنازير ذات الوجه المريض الشبيهة بأمها رجلاً غريباً، راحت تصرخ وأرادت أن تقفز. وفي تلك الأثناء، كان پيار قد لحق بها وحملها بين ذراعيه فصرخت بصوت شرس يائس وراحت تخبط محاولة بيديها الصغيرتين أن ترغم پيار على التخلي عنها بل حاولت كذلك أن تعض يديه. ولقد استولى على پيار شعور بالاشمئزاز شبيه بذلك الذي يعتلج في صدره إذا لمس حيواناً ما تتقزز منه النفس. لكنه بذل مجهوداً ليسيطر على نفسه كي لا يطرح الطفل وعاد يركض وهو يحمل حمله نحو المنزل الكبير. لم يعد حينذاك ممكناً أن يمر من الطريق نفسه كما أن أنيسكا كانت قد اختفت. فضم الفتاة المبللة الباكية إلى صدره بأقصى ما يستطيعه من حنان وهو مفعم النفس بالإشفاق بقدر ما فيها من اشمئزاز، واندفع عبر الحديقة يحاول إيجاد مخرج جديد.

الفصل الرابع والثلاثون

رجع پيار بحمله إلى حديقة غروزينسكي عند زاوية بوڤارسكاييا، بعد أن اجتاز راكضاً عدداً من الأزقة والأفنية، وللوهلة، لم يتعرف إلى النقطة التي ذهب منها باحثاً عن الطفلة لكثرة ما تراكمت هناك من أمتعة جُرت خارج المنازل وما تجمع من أشخاص هناك. كان هناك فضلاً عن الأسر الروسية المجتمعة بالقرب مما أمكن إنقاذه من المنازل المحترقة، عدد من الجنود الفرنسيين في أزياء مختلفة فلم يعبأ پيار بهم مطلقاً. كان متلهفاً للعثور على عائلة الموظف وإعادة الصغيرة إلى أمها ثم العودة من جديد للمساهمة في أعمال الإنقاذ. وكان يخيل إليه أن أمامه كثيراً مما يجب أن يعمل وأن الوقت يدركه. ولقد بعثت النيران والركض الدفء في أوصال پيار فشعر بذلك الإحساس الفتي بأكثر قوة في تلك اللحظة مشفوعاً بالعزم والحماسة، ذلك الإحساس الذي استولى عليه بادئ الأمر عندما انطلق للبحث عن الطفلة. أصبحت الطفلة هادئة الآن وقد تشبثت بمعطف پيار بيديها الصغيرتين وقبعت فوق ذراعه وراحت تنظر حولها بعيني حيوان صغير. ومن حين إلى آخر، كان پيار يتأملها وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. كان يخيل إليه أنه يرى نوعاً من البراءة يثير الشفقة في تقاسيم هذه الطفلة المريضة.

لم يبق الموظف وزوجته في مكانهما الأول، لذلك فقد راح پيار يسير بخطوات واسعة وهو يتفحص وجوه الجماعات التي يمر بها. لم يستطع

الامتناع عن النظر إلى أسرة أرمنية مؤلفة من عجوز في سن متقدمة جداً ذي مظهر شرقي جميل يرتدي «فروة» مبطنة وأحذية جديدة وعجوز في مثل تلك السن وامرأة شابة. كانت هذه لا تزال في مقتبل العمر بدت لـپيار نموذجاً للجمال الشرقي الكامل بحاجبيها الأسودين المقوسين الواضحين ووجهها الطويل الجميل ذي اللون الوردي النضير الخالي من أي تعبير، فكانت بين هذه الأشياء المبعثرة وذلك الجمهور من الناس على تل الساحة، في «فروتها» الثمينة «الساتان» والوشاح البنفسجي الصارخ الذي يغطي رأسها، أشبه بنبتة دقيقة ملقاة على الثلج. كانت جالسة على بعض الرزم إلى وراء المرأة العجوز قليلاً تنظر إلى الأرض بعينين سوداوين لوزيتين تظللهما أهداب طويلة. وكان يرى أنها شاعرة بجمالها خائفة عليه. ولقد استلفت وجهها نظر پيار الذي رغم تعجله في السير على طول أحد الحواجز، لم يتمالك إلا أن يلتفت غير مرة. ولما وصل إلى نهاية الحاجز ولم يجد من يبحث عنهم في أي مكان، توقف وهو في حيرة.

بات هذا الرجل طويل القامة الذي يحمل طفلة بين ذراعيه يلفت النظر أكثر من ذي قبل، فلم يلبث بعض الروس بين رجال ونساء أن التفوا حوله. سألوه: هل أضعت أحداً أيها الرجل الباسل؟ أنت نبيل أليس كذلك؟ لمن هذه الطفلة؟

أجاب پيار بأن الطفلة لامرأة ترتدي «فروة» سوداء كانت جالسة مع أولادها في هذا المكان وسأله عما إذا كان أحد يعرفها أو يستطيع أن يقول إلى أين ذهبت.

قال شماس عجوز يخاطب امرأة مجدورة:

ـ لا بد وأن يكونوا آل أنـڤيروڤ. أيها السيّد، أشفق علينا.

ثم كرر بصوته الخافت الاعتيادي:

ـ أيها السيد، أشفق علينا!

أجابت المرأة:

ـ أين هم آل أنـڤيروف؟ لقد رحلوا هذا الصباح. لا بد وأنها لماري نيكولاييـڤنا أو لآل إيـڤانوف.

قال خادم مفسراً: لقد قال امرأة. وماري نيكولاييـڤنا سيدة.

قال پيار:

لا بد وأنكم تعرفونها. امرأة نحيلة ذات أسنان طويلة.

قالت المرأة وهي تشير إلى جنود فرنسيين:

لكنها ماري نيكولاييـڤنا نفسها. لقد هربوا إلى الحديقة عندما انقض هؤلاء الذئاب عليهم.

ردد الشماس: أيها الرب، أشفق علينا!

وقالت امرأة أخرى:

ـ مر من هنا، خذ، إنهم هناك. ها هي ذي بالذات؟ إنها لم تكف عن التأوه والبكاء. إنها هي نفسها، من هنا.

لكن پيار لم يكن يصغي إلى المرأة. لقد كان منذ بضع ثوان لا يرفع عينيه عما يدور على بضع خطوات منه. كان ينظر إلى الأسرة الأرمنية وقد اقترب منها جنديان فرنسيان. كان أحدهما قصير القامة، حافي القدمين يرتدي معطفاً أزرق ويتمنطق بقطعة حبل وعلى رأسه قلنسوة من الفراء. أما الآخر، وهو الذي اجتذب انتباه پيار بصورة خاصة، فطويل القامة، اشقر، نحيل محدودب الظهر بطيء الحركات بادي الغباوة، يلبس معطفاً من نسيج صوفي خشن وسراويل زرقاء وأحذية عالية ممزقة. اقترب الفرنسي قصير القامة حافي القدمين ذو المعطف الأزرق من الأرمن وقال شيئاً وهو يشير إلى ساقي العجوز الذي

سارع إلى حذاءيه يخلعهما. أما ذو المعطف الخشن، فقد وقف أمام الفتاة الأرمنية الجميلة جامداً لا ينبس بكلمة ويداه في جيبه وراح يتأملها.

قال بيار للمرأة وهو يقدم إليها الفتاة بسرعة بحركة لا رد فيها:

ـ خذي، خذي هذه الطفلة.

وصرخ وهو يضع الطفلة على الأرض دون أن يحول عينيه عن الأسرة الأرمنية والفرنسيين:

ـ ستعيدينها إليهم، هه؟

كان العجوز قد خلع حذاءيه وقد نزع الفرنسي الصغير الفردة الثانية من قدمه وراح يضرب بها الأولى. وراح العجوز يغمغم والدمعة تترقرق في عينيه لكن بيار لم يلق على هذا المشهد إلا نظرة سريعة. كان يراقب الفرنسي الآخر ذا المعطف الخشن الذي أخذ في تلك اللحظة يقترب من الفتاة متأرجحاً ببطء ثم يخرج يديه من جيبه ويمسك بعنقها.

وكانت الأرمنية الحسناء لا تزال جامدة وأهدابها الطويلة مسبلة وكأنها لا ترى ولا تشعر بما يفعل الجندي.

وبيما كان بيار يجتاز الخطوات القليلة التي تفصله عن الفرنسيين، كان السلاب طويل القامة ذو المعطف الخشن قد نزع من عنق الأرمنية عقداً كان يحلي جيدها فرفعت الشابة يديها إلى عنقها وراحت تطلق صيحات ثاقبة.

زمجر بيار غاضباً وهو يطبق على الجندي طويل القامة المحدودب من كتفيه ويدفعه بعنف: دع هذه المرأة.

سقط الجندي ثم وقف وهرب بأقصى سرعة. لكن زميله ألقى بالحذاءين على الأرض وامتشق حسامه وتقدم إلى بيار متوعداً وصاح:

هه، كف عن الحماقات.

كان بيار حينذاك يتلظى بإحدى سوراته التي يفقد معها اتزانه وتتضاعف

قواه عشرة أمثالها. ألقى بنفسه على الفرنسي حافي القدمين قبل أن يتيح له الوقت ليستلّ سيفه فألقاه أرضاً وانهال عليه لكماً. وانطلقت من حناجر الجمهور صرخات مشجعة. ولكن في تلك اللحظة، ظهرت دورية من الفرسان عند منعطف الشارع، انطلقوا خبباً على جيادهم وأحاطوا بپيار والفرنسي. ولقد أضاع پيار ذكرى ما حدث فيما بعد. تذكر بغموض أنه ضرب أحدهم وأنهم ضربوه ثم أوثقوا يديه فيما بعد، وراء ظهره ثم بدأ الجنود الملتفون حوله في تفتيشه.

كانت الكلمات الأولى التي تذكرها پيار:

ـ إنه يحمل خنجراً أيها الملازم.

قال الضابط الذي راح يخاطب الجندي عاري القدمين:

ـ آه! سلاح. هذا أحسن. ستقص هذا على المحكمة العسكرية.

ثم استدار إلى پيار وأضاف: هل تتكلم الفرنسية أنت؟

سرح پيار حوله عينيه المحقونتين بالدم. ولم يجب. ولا بد أن وجهه لم يكن يوحي بالطمأنينة إذ همس الضابط كلاماً في أذن أحد الفرسان، فانفصل أربعة من الكوكبة ليحيطوا بـپيار.

كرر الضابط وهو يقف على مسافة من پيار:

ـ هل تتكلم الفرنسية؟ أحضروا المترجم.

خرج من الصفوف رجل في ثوب مدني عرف فيه پيار على الفور من ثوبه وحديثه فرنسياً في أحد مخازن موسكو. قال المترجم بعد أن حدج پيار:

ـ لا يبدو عليه أنه من أبناء الشعب.

فصاح الضابط:

ـ أوه، أوه! يبدو عليه أنه واحد من أولئك الذين دأبوا في إشعال الحرائق.

ثم تابع: سله من يكون.

سأل المترجم بصيغة المفرد: من أنت؟ يجب أن تجيب عن أسئلة السلطة.

قال بيار فجأة بالفرنسية: لن أقول لكم من أنا. إنني سجينكم، فخذوني.

صاح الضابط وهو يزوي حاجبيه:

ـ آه! آه! لنمش!

تجمهر الناس حول الفرسان وباتت المرأة المجدورة مع الطفلة الصغيرة قريبة جداً من بيار. فلما تحرك الموكب، تبعته. قالت:

ـ إلى أين يأخذونك أيها الرجل الباسل؟ والصغيرة، ماذا أصنع بها إذا لم تكن لهم؟

سأل الضابط: ماذا تريد هذه المرأة؟

أحسّ بيار أنه أشبه بالسكران وتعاظمت حماسته لمرأى الطفلة التي أنقذها. قال:

ـ ماذا تقول؟ إنها تحمل ابنتي التي أنقذتُها من الحريق. وداعاً!

ودون أن يدري سبباً لهذه الكذبة غير المجدية التي أفلتت منه، ابتعد مع حراسه بخطى مهيبة حازمة.

كانت تلك الدورية واحدة من كثير نظمها دوروسنل وأرسلها إلى مختلف أحياء موسكو لتقمع النهب ولتضع يدها، على الخصوص، على مضرمي الحرائق الذين كانوا.. بحسب الرأي العام المقبول من القيادة الفرنسية العليا، يتعمدون إحراق المدينة. وقد أوقفت الدورية وهي تجتاز عدداً من الشوارع خمسة مشتبه فيهم آخرين: صاحب حانوت، طالبان في معهد ديني، قروي وخادم فضلاً عن بعض السلابين. لكن الرجل الذي بدا أكثر قابلية للشبهة كان بيار. قادوهم لقضاء تلك الليلة في منزل كبير عند حاجز زوبوڤو حيث أقيمت هناك وحدة من الحرس. لكن بيار عزل عن الآخرين وبات موضع رقابة صارمة.

الجزء الثاني عشر

الفصل الأول

في أجواء پيترسبورغ العليا، خلال ذلك الوقت، استمرت المواجهات بين أتباع روميانتسيڤ والفرنسيين، وماري فيدوروڤنا والتساريڤيتش وشخصيات مرموقة، وبقي زنابير البلاط كما عادتهم يشتركون في القتال وهم يدندنون. لكن تلك الحياة المترفة الخالية التي لا يشغلها إلا المظاهر بقيت تتبع مجراها الطبيعي. والذين يعيشونها، كانوا ملزمين ببذل مجهودات كبيرة ليدركوا الخطر والموقف الحرج الذي تردى فيه الشعب الروسي. استمرت الحفلات الراقصة نفسها والاستقبالات إياها والمسرح الفرنسي نفسه ومصالح البلاط نفسها ومصالح الخدمة والدسائس هي هي. أما في المقامات العليا، فكانوا يظهرون ما يكفي من القلق لتذكر خطورة الحالة.

كانوا يرون همساً أن الأمبراطوريتين في هذا الظرف العصيب تتصرفان تصرفاً معاكساً تماماً. فالأمبراطورة ماري فيدوروڤنا المنشغلة بحماية المؤسسات الاستشفائية والثقافية المؤسسة باسمها وتحت حمايتها، تتخذ الإجراءات لنقلها إلى كازان فكان كل ما يخص تلك المؤسسات مجهزاً محزوماً. أما الأمبراطورة أليزابيث ألكسييڤنا، فإنها عندما تسأل عما إذا كان يجب اتخاذ إجراءات الرحيل، تجيب بوطنيتها الروسية المألوفة بأنها لا تستطيع إصدار أي أمر بهذا الصدد وأن هذا من اختصاص الأمبراطور وحده. ولقد أعلنت أنها فيما يخصها، ستكون آخر من يغادر پيترسبورغ.

يوم معركة بورودينو بالذات في السادس والعشرين من آب/ أغسطس،

كانت أنّا پاڤلوڤنا تحيي حفلة ساهرة نواتها قراءة رسالة نيافته المرفقة بصورة القديس سيرج المرسلة إلى الأمبراطور. وتُعتبر تلك الرسالة نموذجاً للوطنية والفصاحة الدينية. وكانوا يعتمدون على الأمير بازيل في قراءتها، وهو المعروف بموهبته كقارئ مارس هذه الموهبة لدى الأمبراطورة نفسها. وكانت تلك الموهبة تقوم على أساس لفظ الكلمات بصوت مرتفع غنائي، تتناوب فيه الخطورة مع العذوبة دون التقيد بالمعنى، لدرجة كانت بعض المقاطع الأخرى فيما يشبه الهمس وكان لتلك القراءة، كما لكل حفلات أنّا پاڤلوڤنا الساهرة، لون سياسي إذ اتفق على أن يحضر عدد من كبار الشخصيات وجب استصراخ شعورهم الوطني وتخجيلهم لأنهم ما زالوا دؤوبين في حضور حفلات المسرح الفرنسي. وكان عدد كبير من المدعوين قد حضر. لكن أنّا پاڤلوڤنا لم ترَ فيهم من تنتظر، لذلك أخرت القراءة وسمحت بإثارة مناقشة عامة.

كان النبأ الجديد يومذاك، يتعلق بمرض الكونتيسة بيزوخوف. لقد شعرت فجأة بتوعك وتخلفت في الأيام الأخيرة عن حضور بعض الاجتماعات التي كانت زينتها. تناقلت الألسن أنها لا تستقبل أحداً وأنها منحت ثقتها إلى إيطالي زعم أنه سيشفيها وفق طريقة جديدة خارقة بدلاً من أن تمنحها إلى المشهورين من أطباء العاصمة الذين كانت تعهد إليهم بمعالجتها.

وكان كل امرئ يعرف أن مرض الكونتيسة الفاتنة ناجم عن الارتباك الذي وقعت فيه بسبب اقترانها برجلين معاً وأن علاج الإيطالي يتوقف على إزالة هذا الارتباك. ولكن ما من أحد كانت لديه الجرأة على التنويه بالشيء في حضرة أنّا پاڤلوڤنا فكانوا جميعاً يتظاهرون بجهلهم كل ما له علاقة بهذا الشأن.

ـ يقولون إن مرض الكونتيسة صعب جداً. يقول الطبيب إنه الذبحة الصدرية.

ـ الذبحة؟ أوه، إنها مرض خطير.

ـ يقولون إن المتنافسين قد تصالحوا بفضل الذبحة..

وكانت كلمة «ذبحة» تنعم بالرضى العام.

ـ وكان الكونت العجوز يثير الشفقة كما يروون. لقد بكى كطفل عندما أنبأه الطبيب بأن الحالة خطرة.

ـ أوه! ستكون خسارة رهيبة. إنها امرأة ساحرة.

قالت آنّا پاڤلوڤنا وهي تقترب: إنكم تتحدثون عن الكونتيسة المسكينة. لقد أرسلت أستطلع أخبارها. فقالوا لي إنها متحسنة بعض الشيء.

ثم أضافت وهي تبتسم لحماستها الشخصية:

ـ أوه! لا شك أنها أكثر نساء العالم فتنة. إننا نمت إلى معسكرين مختلفين لكن هذا لا يمنع من تقديرها كما تستحق. إنها تعسة جداً.

وخمن شاب طائش أن كلمات آنّا پاڤلوڤنا ترفع قليلاً حجاب السر الذي يغطي مرض الكونتيسة، فعمد إلى إظهار دهشته من أن المريضة استبقت إلى جانب سريرها مشعوذاً إيطالياً قادراً على وصف أخطر العقاقير لها بدلاً من الأطباء المعروفين. فرددت آنّا پاڤلوڤنا فوراً بلهجة خشنة على الشاب الغرير: يمكن أن تكون معلوماتك أفضل من معلوماتي. لكنني أعرف أن هذا الطبيب رجل عالم جداً وماهر جداً. إنه الطبيب الخاص لملكة إسبانيا.

وبعد أن أعادت الشاب إلى حدوده على هذا النحو، التفتت آنّا پاڤلوڤنا إلى بيليبين الذي كان في حلقة أخرى يجعد جبينه ويتأهب لبسطه وهو يطلق «كلمة» وهو يتحدث عن النمسويين.

قال بصدد وثيقة سياسية أرسلت إلى ڤييناً مع علمين نمسويين غنمهما ويتجنشتاين[1] «بطل پير بيروپول» كما كانوا يسمونه في پيترسبورغ:

ـ أرى أن هذا رائع.

فقالت أنّا پاڤلوڤنا رغبة منها في وضع حد للمناقشات كي لا تتيح للمدعوين فرصة سماع «الكلمة» التي كانت تعرفها سلفاً:

ـ ماذا تقول؟

ردد بيليبين الكلمات التالية من الرسالة الدبلوماسية التي دبجها:

ـ يعيد الأمبراطور الأعلام النمسوية، وهي الأعلام الصديقة التائهة التي وجدها متنكبة الطريق.

وبسط جبينه عند المقطع الأخير فصاح الأمير بازيل:

ـ رائع! رائع!

وفجأة صاح الأمير هيپوليت: لعلها طريق فرصوڤيا.

تركزت الأنظار كلها عليه ولكن ما من أحد عرف ماذا يريد أن يقول. وألقى الأمير هيپوليت نظرة حوله لأنه لم يكن هو الآخر يدرك أكثر من سواه المعنى الذي يتصل بكلماته. لقد لاحظ غير مرة خلال حياته السياسية أن كلمة تُقال عرضاً تبدو فجأة وكأنها منتهى الذكاء. لذلك فقد راح في كل مناسبة يصرف أول الكلمات التي تتوارد على شفتيه وهو يفكر: «لعلها ستكون شيئاً جيداً. بل إنهم سيستخلصون منها شيئاً ما حتى ولو كانت لا تساوي شيئاً».

وفي الواقع، إنه خلال الفترة التي أعقبت ذلك والتي سادها صمت

---

(١) فيلد مارشال روسي، من أصل بروسي، برز في ليبزيغ خلال حملة فرنسا عام ١٨١٤ (المترجم).

مربك، دخل شخص ما، وكان واحداً من المواطنين شديدي الفتور الذي كانت آنّا پاڤلوڤنا تنتظره، فتوعدت هيپوليت بإصبعها ودعت الأمير بازيل وهي تبتسم إلى الجلوس قرب الطاولة وأتت له بشمعتين وبالرسالة ثم رجته أن يبدأ قراءتها. وساد الصمت.

نطق الأمير بازيل بلهجة خطيرة وهو يتأمل وجوه المستمعين وكأنه يسألهم عم إذا كان لأحدهم اعتراض:

«أيها الأمبراطور والعاهل الجوّاد».

ولما لم يرمش أحد تابع: «إنّ موسكو عاصمتك الأولى، أورشليمنا الجديدة، ستستقبل مسيحها». وحرك الضمير المضاف «ها» بقوة.. «وهي كالأم التي يرتمي أبنائها في حضنها وتغني باندفاع وسط الضباب وهي تتبصر بمجد حكمك العظيم: هوشعنا، مبارك الآتي باسم الرب.

قال الأمير بازيل هذه الكلمات الأخيرة بلهجة ناحبة.

وكان بيليبين يمعن النظر بأظفاره بعناية، كما كان عدد من الموجودين متخوفين حقاً يبدو على وجوههم كأنهم يتساءلون عم ارتكبوا من مساوئ. وكانت آنّا پاڤلوڤنا تهمس بالكلمات سلفاً أشبه بعجوز على استعداد لتناول الخبز المقدس، وتغمغم: «لينشر جوليات الجسور السفيه...».

«ولينشر جوليات[1] الجسور السفيه القادم من طرف فرنسا القصي على الأرض الروسية أهواله الإجرامية، فإن الإيمان الخاشع، هذا المقلاع لداود الروسي، سيصرع فجأة رأس تجبره الدموي. إن هذه الصورة لسيرج السعيد الغيور القيم على سعادة وطننا، ستقدم إلى جلالتكم الأمبراطورية. وإنني آسف لأن قواي المترنحة لا تسمح لي بتأمل طلعتكم الجليلة. إنني أرفع إلى

---

(١) جوليات عملاق فلسطيني قتله داود بحجر من مقلاعه. (المترجم)

السماء صلوات حارة ليتفضل عظيم القدرة بإكثار نسل العادلين وليتم أماني جلالتكم».

صاحوا على شرف القارئ والمؤلف:

ـ يا للقوة! يا للأسلوب!

تحدث مدعوو أنّا پاڤلوڤنا طويلاً عن الموقف والوطن وقد حركت مشاعرهم هذه المقطوعة من البلاغة وأكثروا من الرجم بالغيب حول نتيجة المعركة التي ستقع دون تأخير فقالت أنّا پاڤلوڤنا:

ـ سترون أننا سنتلقى أنباءً غداً في مناسبة يوم ميلاد أمبراطورنا. إن لديّ إحساسات مسبقة ممتازة.

الفصل الثاني

وفي اليوم التالي، أثناء تلاوة صلاة الشكر «تيدييوم» في القصر في مناسبة عيد مولد الأمبراطور، صدقت إحساسات آنّا پاڤلوڤنا المسبقة، استدعي الأمير ڤولكونسكي. فخرج من الكنيسة ليتلقى رسالته من لون كوتوزوف. وتحوي الرسالة ذلك التقرير الذي دبج يوم معركة تاتارينوڤو والذي ذكر فيه كوتوزوف أن الروس لم يتراجعوا خطوة واحدة، وأن الفرنسيين فقدوا أكثر مما فقدنا بكثير، وأنه يحرر تقريره على جناح السرعة دون أن يتريث حتى يجمع المعلومات الأخيرة. وبدا ذلك أشبه بالبشرى التي تزف في مناسبة النصر، لذلك، فقد رفعت إلى الله فوراً، دون الخروج من الكنيسة، صلوات شكر على المساعدة التي أنعم بها في سبيل النصر.

لقد تحققت إحساسات آنّا پاڤلوڤنا المسبقة وأصبحت المدينة كلها تكن روح العيد طوال ذلك الصباح، فكان كلٌّ يعتقد بنصر شامل بل إن بعضهم زعم أن ناپليون أصبح سجيناً وأنهم خلعوه وانتخبوا في فرنسا رئيساً جديداً.

وكان من الصعب جداً أن يفهم المرء بعيداً عن الجيش وفي جو البلاط، والوقائع في كل دقائقها وقوتها. إن الأحداث تتجمع تلقائياً حول واقعة خاصة. ففي تلك الآونة، كان مبعث أفراد الحاشية بالنصر نفسه أقل مما كانت عليه لورود النبأ نفسه في يوم مولد الأمبراطور بالذات. لقد كان أشبه بالمفاجأة السارة، كان تقرير كوتوزوف يشير إلى أسماء الضحايا من الروس وفي عدادهم أسماء توتشكوف وپاغراسيون وكوتاييسوف. لذلك فإنّ فاجعة

هذه الأنباء اجتمعت بالنسبة إلى الطبقة الپيترسبورغية الراقية حول واقعة واحدة هي خسارة كوتاييسوف. فكلٌّ منهم يعرفه والأمبراطور نفسه يقدره. لقد كان شاباً، فكانوا ذلك اليوم إذا ما تقابلوا تبادلوا القول:

ـ يا له من أمر مذهل! وسط الصلوات! لكن كوتاييسوف، يا للخسارة آه! للشقاء!

وأصبح ڤاسيلي يصيح الآن وهو فخور أنه كان متنبئاً موفقاً:

ـ ماذا قلت لكم عن كوتوزوف؟ لقد قلت دائماً إنه وحده القادر على هزم ناپليون.

وفي اليوم التالي، لم ترد أية أنباء عن الجيش، فمال الرأي العام إلى القلق وراح أفراد الحاشية يتألمون لرؤية الأمبراطور متألماً لافتقاره إلى الأنباء.

بدأ الأنصار يقولون وقد كفوا عن إطراء كوتوزوف وأصبحوا يتهمونه بأنه سبب كآبة الأمبراطور: «يا له من موقف، موقفه!» ولم يحاول الأمير بازيل ذلك النهار أن يمتدح «كوتوزوف، والتزم الصمت كلما ورد ذكر الجنرال القائد الأعلى. بل إن كل شيء ذلك المساء بدا وكأنه متواطئ لدفع قلق الأفكار الپيترسبورغية إلى الذروة إذا انتشر نبأ رهيب جديد: لقد ماتت الكونتيسة بيزوخوف فجأة بتأثير ذلك المرض المريع الذي كانوا يسرون بذكر اسمه. يؤكدون رسمياً في الأبهاء الكبرى أنها ماتت إثر نوبة ذبحة صدرية. أما في حلقات العارفين، فكانوا يروون أن «طبيب ملكة إسبانيا الخاص» وصف لهيلين جرعة صغيرة من دواء خاص يقصد به إحداث بعض الأثر الحسن، لكن هيلين، في غمار اضطرابها خشية أن يظن بها الظنون فيما يتعلق بالكونت العجوز، وبسبب عدم تلقيها أي جواب من زوجها (پيار ذاك التاعس الفاجر) أخذت كمية كبيرة من علاجها وماتت فريسة الآلام العنيفة قبل التمكن من إنقاذها. وكانوا يروون أن الأمير ڤاسيلي والكونت العجوز أرادا توقيف

الإيطالي، لكن هذا يملك في يده أوراقاً تدين المرحومة التاعسة بشدة حتى اضطرا إلى إخلاء سبيله فوراً.

إذن، لقد تركز الحديث حول ثلاث نقاط: التردد الذي كان العاهل عليه وخسارة كوتاييسوف وموت هيلين.

وفي غداة اليوم التالي لتقرير كوتوزوف، وصل إلى پيترسبورغ خبر سقوط موسكو، فلم يلبث نبأ استسلام موسكو للفرنسيين أن انتشر في المدينة كلها. كان ذلك شيئاً مرذولاً! وبالنسبة إلى الأمبراطور، يا له من موقف! إن كوتوزوف ليس إلا خائناً. وراح الأمير ڤاسيلي خلال زيارات التعزية التي كان يتلقاها في مناسبة موت ابنته، يقول عن كوتوزوف هذا نفسه الذي كان فيما مضى يغمره بالمديح (ولقد كان مسموحاً له في حزنه الأبوي أن ينسى ما قاله من قبل) إنه لا يمكن أن ينتظر خلاف ذلك من عجوز أعمى فاجر. ويضيف:

ـ إنّ ما يدهشني هو أن يُعهد إلى شخص كهذا بمصير روسيا.

كان يمكن الاحتفاظ ببعض الشكوك طالما بقي النبأ غير رسمي. لكنهم، في اليوم التالي، تلقوا التقرير الآتي من الكونت روستوبتشين:

«حمل إليّ مساعد عسكري للكونت كوتوزوف رسالة يسألني فيها ضباطاً من الشرطة لمرافقة الجيش على طريق ريازان ويقول إنه يأسف لترك موسكو يا صاحب الجلالة! إن فعلة كوتوزوف هذه تقرر مصير عاصمة ملككم. سوف تنتفض روسيا عندما تعلم بهجر المدينة التي تمثل عظمتنا والتي تضم رفات أسلافكم ولقد أذعنت للجيش وأمرت بنقل كل شيء فلم يبقَ لي إلا أن أبكي مصير وطني».

وبعد أن أطلع العاهل على فحوى التقرير، أبلغ كوتوزوف عن طريق الأمير ڤولكونسكي الكتاب الملكي الآتي:

«الأمير ميخائيل إيلاريونوڤيتش! لم أتلق منك أي تقرير منذ التاسع

والعشرين من آب/ أغسطس في حين تلقيت يوم الأول من أيلول/ سبتمبر عن طريق ياروسلاڤل تقريراً من حاكم موسكو العام ينهي إليّ النبأ الكئيب المتعلق بتقريرك هجر هذه المدينة. يمكنك أن تتصور الأثر الذي يمكن أن يحدثه مثل هذا النبأ في نفسي. إنه يدهشني بمقدار ما يجعل سكوتك أكثر إقلاقاً. أرسل إليك هذه الرسالة بواسطة مساعدي العسكري الجنرال ڤولكونسكي الذي عليه أن يطلع على حالة الجيش الحقيقية منك وعلى الأسباب التي دفعتك إلى اتخاذ قرارك المؤسف».

الفصل الثالث

حمل رسول من لدى كوتوزوف النبأ بصورة رسمية إلى بيترسبورغ، بعد تسعة أيام على النزوح من موسكو، كان ذلك الرسول هو ميشو الفرنسي الذي لم يكن يعرف الروسية، والذي كان روسياً قلباً وروحاً رغم أنه أجنبي.

استقبله الأمبراطور فوراً في قصر كاميّني ـ أوستروف. ولقد شعر ميشو الذي لم يرَ موسكو قط قبل الحرب والذي لم يكن يعرف اللغة الروسية، بتأثر أليم عندما وجد نفسه في حضرة «أمبراطورنا الجوّاد» كما كتب فيما بعد، ينهي إليه نبأ حريق موسكو «التي كانت نيرانه تضيء طريقه».

وفي الرغم من أن مبعث حزن السيد ميشو بدون شك مختلف تماماً عنه لدى الروس الأصليين، فإنّ ميشو كان بادي الحزن الشديد عندما أدخل إلى مكتب الأمبراطور حتى إن هذا بادره على الفور سائلاً: هل تحمل إليّ أنباء سيئة أيها الزعيم؟

أجاب ميشو زافراً وهو يخفض عينيه: حزينة جداً يا صاحب الجلالة: إخلاء موسكو.

سأل الأمبراطور فجأة في انتفاضة غضب.

ـ هل سلمت عاصمتي القديمة دون قتال؟

نقل إليه ميشو باحترام رسالة كوتوزوف التي أورد فيها بصورة خاصة أن كل معركة عند أسوار المدينة مستحيلة وأن الماريشال عندما وجد نفسه

مخيراً بين خسارة الجيش وموسكو أو خسارة موسكو وحدها، فضل خسارة المدينة.

كان الأمبراطور يصغي بصمت دون أن ينظر إلى ميشو ثم سأل:

ـ وهل دخل العدو المدينة؟

فقال ميشو بلهجة مطمئنة:

ـ نعم يا صاحب الجلالة، وهي الآن أصبحت رماداً في هذه الساعة. غادرتها وهي تحترق.

لكنه عندما نظر إلى وجه الأمبراطور، ذعر للأثر الذي خلفته كلماته فيه.

كان الأمبراطور يلهث وشفته السفلى ترتجف وقد امتلأت عيناه الزرقاوان بالدموع.

لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة. قطب حاجبيه فجأة وكأنه يأخذ على نفسه ضعفها ورفع رأسه ثم قال لميشو بصوت حازم:

ـ أرى أيها الزعيم من كل ما وقع، أن المشيئة الإلهية تتطلب منا تضحيات كثيرة... إنني على استعداد للخشوع لكل إرادتها. ولكن قل لي يا ميشو، كيف غادرت الجيش وهو يرى هكذا، دون أية مقاومة، عاصمتي القديمة تُخلى؟ ألم تلاحظ شيئاً من خمود العزم؟..

ولما رأى ميشو أن «الأمبراطور الجواد» استرد هدوءه، هدأ هو بدوره. لكن ارتباكه عاد عندما طرح عليه الأمبراطور سؤالاً دقيقاً لم يكن قد أعد الرد عليه من قبل. التمس كسباً للوقت:

ـ يا صاحب الجلالة، هل تسمح لي بأن أكلمك بصراحة كعسكري وفي؟

فاستأنف الأمبراطور يقول: إنني أتطلب الصراحة دائماً أيها الزعيم. لا تخف عني شيئاً، أريد مهما كلف الأمر أن أطلع على حقيقة الواقع.

فقال ميشو وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة بالكاد ترى إذ نجح في أن يعطي جوابه صيغة التلاعب بالكلمات الخفيفة المحترمة:

ـ يا صاحب الجلالة! يا صاحب الجلالة! لقد تركت الجيش ابتداء من ضباطه وحتى آخر جندي فيه، في رهبة مخيفة دون استثناء.

فقاطعه الأمبراطور وقد زوى حاجبيه بعنف:

ـ كيف حدث ذلك؟ هل ينهار روسيَّوي جراء المصيبة؟.. أبداً!..

لم يتوقع ميشو إلا هذا لينعم بنجاح لعبة الكلام التي أعدها فقال وعلى وجهه ابتسامة تنم عن الاحترام:

ـ يا صاحب الجلالة، إنهم يخشون فقط أن تندفعوا جلالتكم بطيبة قلبكم إلى عقد الصلح.

وأكد مبعوث الشعب الروسي:

ـ إنهم يتحرقون شوقاً للقتال، ليبرهنوا لجلالتكم بتضحية حيواتهم، مدى تفانيهم في سبيلكم...

فقال الأمبراطور المطمئن وقد التمعت عيناه ببريق مهدهد وربت كتف ميشو بمودة: لقد طمأنتني يا زعيم.

وأطرق الأمبراطور برأسه وبقي بضع لحظات صامتاً وفجأة قال وهو ينتصب بقامته المديدة ويخاطب ميشو بلهجة مغمغمة بالبشاشة والعظمة:

ـ حسناً، عد إلى الجيش وقل لبواسلنا، قل لكل أتباعنا الطيبين حيثما تمر، إنني عندما لا يبقى جندي واحد، سأضع نفسي شخصياً على رأس طائفة النبلاء الغالية وفلاحيَّ الطيبين، وسأنحو على هذا المنوال حتى آخر قطرة من موارد ملكي.

وصاح وهو يزداد حماسة:

ـ إنّ ملكي يقدم لي من الإمكانات أكثر مما يفكر أعدائي.

وتابع وهو يرفع عينيه اللامعتين من الانفعال نحو السماء.

ـ ولكن، إذا صدف وكان مكتوباً في ألواح القدر أن ذريتي لن تستمر في اعتلاء عرش أجدادي، حينئذٍ، وبعد أن أستنفد كل الإمكانات الكائنة تحت سلطتي، سأطلق لحيتي حتى تصل إلى هنا، وأشار بيده إلى منتصف صدره، وسأمضي لأكل البطاطا مع الأخير من فلاحي مملكتي على أن أوقع العار بأمّتي العزيزة التي أعرف كيف أقدر تضحياتها..

قال الأمبراطور هذه الكلمات بصوت مضطرب، وكأنه يرغب في إخفاء الدموع التي ملأت عينيه عن ميشو، ثم استدار ومشى إلى أقصى مكتبه. وبعد أن تمهل هناك بضع لحظات، عاد بخطى واسعة نحو ميشو وضغط على عضده بقبضة قوية. وكان وجهه الهادئ الجميل متورداً وعيناه تلتمعان بنار العزم. قال وهو يطرق صدره:

ـ أيها الزعيم ميشو، لا تنسَ ما أقوله لك هنا. لعلنا ذات يوم سنستعيد ذكراه بسرور... نابليون أو أنا، لا يمكننا بعد الآن أن نملك معاً. لقد تعلمت كيف أعرفه، ولن يخدعني بعد الآن.

وسكت الأمبراطور مقطب الحاجبين. ولقد تأثر ميشو بما قاله منذ حين وبأمارات وجهه الحازمة الثابتة. وشعر في تلك اللحظة الجليلة «وهو الروسي قلباً وروحاً رغم أنه غريب»، وتلك هي عبارته في مذكراته، بتحمس لكل ما سمعه من أقوال. فكان شعوره الشخصي مضافاً إلى شعور الشعب الروسي الذي كان يعتبر نفسه بمثابة الناقل لإرادته هما ما ظهرا في جواب ميشو الذي قال:

ـ يا صاحب الجلالة، إنّ جلالتكم في هذه اللحظة، توقعون على مجد الأمة وخلاص أوروبا.

فصرفه الأمبراطور بإشارة من رأسه.

الفصل الرابع

لأننا لم نعش في تلك الفترة التي كانت نصف مساحة روسيا محتلة، وسكان موسكو ينزحون فارين إلى المناطق النائية، نتصور رغم أنفسنا، أن جميع الروس، من أحطهم قدراً إلى أرفعهم شأناً، لم يفكروا إلا في التضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ الوطن أو البكاء على ضياعه. والواقع أن كل الروايات عن تلك الحقبة، دون استثناء، ملأى بأعمال التضحية والحب الوطني واليأس والمرارة والبطولة بين الروس، لكن الحقيقة لم تكن هذه. إنّ الأمور تتخذ هذا الشكل لأننا لا نرى في الماضي إلا جانبه التاريخي الذي يجعلنا نتغاضى عن الجانب الإنساني وعن المصالح الشخصية للأفراد.

إنَّ المصالح الشخصية تأخذ، في حينه معنى يختلف في شدة أهميته عن معنى المصلحة العامة دون أن يحس بذلك أحد. لم يكن السواد الأعظم من أناس ذلك العصر يعرفون سير الأحداث لشدة انشغالهم بمصالح الساعة الخاصة. مع ذلك، فإنّ هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين كانوا باعثي تلك الأحداث الحقيقيين.

كان أولئك الذين يحاولون فهم سياق الأحـداث والذين يريدون المساهمة فيها بعقلية تقود إلى التضحية وأعمال البطولة، الأعضاء الأقل فائدة في المجتمع. كانوا يرون الأشياء على عكس ما يراها الآخرون فيبدو ما يفعلونه بنية حسنة، أشبه بالتفاهة. مثلاً فيلقا ڤيار ومامونوڤ ونهبهما للقرى الروسية والنسيل الذي كانت تعده السيدات والذي لم يكن يصل إلى الجرحى

قطّ إلخ... بل إن أولئك الذين كانوا يحاولون إظهار فهمهم وأحاسيسهم وهم يناقشون موقف روسيا الحقيقي، كانوا يظهرون في أحاديثهم الإطراء رغماً عنهم، إما تكلفاً وغلواً وكذباً، وإما بإطلاق أحكام لا طائل فيها، فيدينون بعض الرجال حيث لا مجال لإدانة أحد. إنّ الأوفر بداهة في الأحداث التاريخية، هو خطر لمس ثمرات شجرة العلم. والتصرفات اللاشعورية وحدها هي التي تصل إلى درجة النضج. أما الرجل الذي يؤدي دوراً في حدث تاريخي، فإنه لا يفقه أبداً مدلوله. وهو ما إن يحاول التعمق في فهمه حتى يجعله عقيماً.

كان مدلول ما يحدث حينذاك في روسيا أقل وضوحاً بالنسبة إلى رجل يساهم فيه عن قرب منه بالنسبة إلى سواه. ففي بيترسبورغ والأقاليم الواقعة على مسافة بعيدة من موسكو، كان سادة وسيدات في زي المتطوعين الفخم يتوجعون على مصير روسيا والعاصمة ويتحدثون عن التضحية بحياتهم وأشياء أخرى ولكن في الجيش الذي هجر موسكو، ما كانوا يتحدثون عن موسكو تقريباً ولا يفكرون فيها. بل إنهم حتى وهم يتفرجون على الحريق، لم يكن أحد يقسم على الانتقام من الفرنسيين إذ كان كل منشغلاً في الدفعة ثلث الشهرية المقبلة من راتبه والمرحلة القادمة وفي ماتريوشكا بائعة المؤن، إلخ.

كان نيكولا روستوف الذي فاجأته الحرب وهو يؤدي خدمته العسكرية لا يشعر قط بوجوب التضحية بحياته. مع ذلك، فقد كان يضطلع بنصيب عملي في الدفاع عن وطنه وينظر إلى الأحداث وهي تتتالى في غير يأس ولا نهايات متشائمة. فلو سألوه رأيه عن موقف بلاده الحالي، لأجاب بأنه ليس عليه أن يفكِّر فيه، وأن كوتوزوف وآخرين هم موجودون لمثل هذا العمل ولكنه، بالنظر إلى أنه سمع بإعادة تشكيل الفيالق والأفواج الناقصة، فإنه يعتقد بأنهم سيحاربون، وقتاً آخر طويلاً وأنه في الظروف الراهنة، لن يصعب عليه خلال عامين آخرين أن يترأس فيلقاً.

وبفضل هذه الطريقة في تصور الأمور، قبل بسرور مهمة السفر إلى ڤورونيج لاستكمال الخيول لفرقته ليس أسفاً على عدم تمكّنه من الاشتراك في المعركة الأخيرة فحسب، بل لإظهار ابتهاجه بالذهاب، إذ وجد زملاؤه ذلك منه طبيعياً تماماً.

وقبل أيام قليلة، تلقى نيكولا من معركة بورودينو المال والأوراق اللازمة وأرسل طليعة من الفرسان تسبقه، ثم استقل هو نفسه عربة البريد إلى ڤورونيج.

إنّ من مرت به هذه الظروف، أي من بقي طوال أشهر متتالية في جو الحرب وحياة المعسكرات، يستطيع وحده أن يفهم الغبطة التي أحس بها نيكولا وهو يغادر منطقة الجيوش بنواجعها وقوافل الأرزاق فيها ومستشفياتها النقالة. ولما وجد نفسه بعيداً عن الجنود وعربات النقل والنفايات المتخلفة عن المعسكرات ورأى مجدداً القرى ملأى بالفلاحين والفلاحات ومنازل الأسياد والحقول حيث ترعى القطعان، ومنازل عربة البريد بنظارها نصف النائمين، استخفه الفرح وكأنه يرى هذه الأشياء للمرة الأولى. وما أدهشه وفتنه في الوقت نفسه، كان مشهد النساء. كن فتيات صحيحات الأجسام يحيط بكل منهن «دزينة» من الضباط، سعيدات راضيات عن دعاباته كضابط عابر سبيل.

وصل نيكولا ليلاً إلى نزل ڤورونيج وكان على أفضل مزاج فآثر نفسه بكل ما كان محروماً منه في الجيش. وفي اليوم التالي، بعد أن أزال لحيته، ارتدى أجمل ثوب لديه لم يكن قد لبسه منذ مدة طويلة، ومثل لدى الحاكم.

بدا قائد المتطوعين، وهو جنرال مَدني عجوز، مفتوناً حقاً بثوبه ورتبته، استقبل نيكولا بوجه عابس معتقداً أنه ضرورة ملازمة لمثل منصبه، وسأله بلهجة ذي النفوذ، وكأن له الحق في السؤال أو كأنه كان هناك لفحص

الموضوع وتقبله أو رفضه. ولقد كان مزاج نيكولا صافياً جداً حتى أن بعث المرح في نفسه.

انتقل إلى مكتب الحاكم بعد أن غادر قائد المتطوعين. وكان الحاكم رجلاً قصير القامة، نشيطاً، لطيفاً وبسيطاً. دل نيكولا على المرابض التي يستطيع أن يحصل على الجياد منها وزكى له وسيطاً ماهراً في المدينة ومالكاً يسكن على مسافة عشرين فرسخاً، يستطيع أن يجد عنده أفضل الأفراس. وبالإيجاز، قدم له الحاكم كل عون.

قال له وهو يستأذن في الانصراف:

ـ أنت ابن الكونت إيليا أندرييڤيتش؟ لقد كانت زوجتي صديقة حميمة لأمك. أنا أستقبل الزوار في بيتي كل يوم خميس. ولما كان اليوم يوم خميس، فأرجو أن تحضر دون حاجة إلى رسميات.

ولدى خروجه من عند الحاكم، استقل نيكولا عربة بريد وذهب يصحبه رقيب طليعته لزيارة المالك على مسافة عشرين فرسخاً ومعاينة خيوله. لقد كان كل شيء في بدء إقامته في ڤورونيج مسلياً وسهلاً بالنسبة إليه وسار كل شيء على ما يرام بسبب مزاجه المشرق.

كان المالك الذي ذهب نيكولا لزيارته ضابطاً قديماً في سلاح الفرسان، عازباً مخشوشناً، عليماً خبيراً بالجياد نقية الدم، صياداً ومالكاً لكحول الخوخ الذي مرّ على تقطيره مائة عام ولخمر هنغاري معتق وخيول أصيلة رائعة.

اشترى نيكولا دون مساومة سبعة عشر مهراً مختاراً لمساعدته حسب قوله على إبراز كتيبته الراكبة، ودفع ستة آلاف روبل وبعد أن تناول طعاماً جيداً أترعت فيه الخمرة الهنغارية، عانق المالك الذي أصبح يخاطبه بصيغة المفرد وعاد يجتاز طرقاً فظيعة دون أن يخسر شيئاً من مزاجه الطيب وأخذ يحث سائقه باستمرار كي يصل في الوقت المناسب ويحضر سهرة الحاكم.

وبعد أن بلل رأسه بالماء البارد، أبدل ثيابه وتعطر ثم دخل منزل الحاكم رغم تأخره عن الموعد وفي رأسه هذه الجملة الجاهزة: التأخر أفضل من عدم الحضور.

لم تكن السهرة راقصة كما لم يعلن أحد عن رقص خلالها. ولكن كان كل مدعو يعرف أن كاترين پيتروڤنا ستعزف على پيانها بعض مقطوعات الڤالس والإيقوسيات وبالتالي لا بدَّ من الرقص. لذلك توافدت السيدات في ثياب الرقص.

كانت حياة الأقاليم عام ١٨١٢ شبيهة تماماً بالحياة المألوفة فيها مع فرق واحد وهو أن الحميا قد زادت في المدينة بسبب توافد أسر غنية عديدة من موسكو وأنه كان يسيطر في كل مكان، وهي مزية اختص بها ذلك العهد التذكاري، إسراف كبير تبعاً للمثل القائل: بعدي الطوفان: وأنه بدلاً من المحادثات الفارغة حول المطر والصحو وصحة الأشخاص من المعارف التي لا بدَّ منها في مثل هذا الظرف كان الحديث يدور حول موسكو والحرب ونابليون.

كان الأشخاص المجتمعون لدى الحاكم نخبة مجتمع ڤورونيج.

كان ثمة عدد كبير من السيدات عرف نيكولا كثيرات منهن في موسكو ولكن لم يكن هناك رجل واحد ينافس فارس وسام القديس جورج. فارس التعبئة اللامع وفي الوقت نفسه اللطيف المعتبر الكونت روستوف. وكان بين الرجال أسير إيطالي من الجيش الفرنسي فشعر نيكولا بوجود هذا الأسير برفعة قيمته الشخصية بوصفه بطلاً روسياً، فكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالنصر والاعتزاز. ولما انتابه هذا الشعور، خيل إليه أن كلاً من الموجودين يرى الأمر كما يراه لذلك أظهر تجاه الإيطالي غاية من التأدب المفعم بالحرص والترفع.

لم يلبث روستوف إثر دخوله في زي الفرسان ناشراً حوله موجات من

العطر والخمرة الجيدة، وبعد أن كرر مرّات عديدة عبارته: «التأخر أفضل من التخلف» وأعيد ذكرها مراراً، أن أحيط بجمع غفير وحطت الأنظار كلها عليه، فأحسَّ فجأة بأنه خيرة كل هؤلاء الإقليميين، الأمر الذي يكون مقبولاً دائماً والذي كان أكثر تقبلاً عنده بسبب حرمانه الطويل من ذلك الإحساس المسكر بالوقوع موقع الرضى في النفوس.

ففي المراحل التي قطعها والمنازل التي حلّ فيها وكذلك لدى المالك المولع بالموسيقى، أعجبت الخادمات بالتفاتاته. أما هنا، في سهرة الحاكم، فقد راح عدد كبير من السيدات الشابات والآنسات، على ما بدا له، ينتظرن بنفاد صبر أن يتنازل بالالتفات نحوهن. كانت السيدات والآنسات يتحدثن بظرف معه، وفي الوقت نفسه لم يعد للعجائز من شاغل إلا تزويج هذا الفارس الأنيق. وكانت زوجة الحاكم نفسها في عداد هؤلاء. ولقد استقبلت روستوڤ وكأنه أحد الأقارب المقربين ولم تلبث أن أخذت تخاطبه بصيغة المفرد وتناديه باسمه المجرد «نيكولا».

بدأت كاترين پيتروڤنا بالفعل تعزف الڤالس والإيقوسيات، وبدأ الرقص، فأسر نيكولا ببراعته كل هذا الجمع من الإقليميين أكثر فأكثر. لقد أدهشهم بطريقته الرشيقة في الرقص حتى إنه نفسه فوجئ باندفاعه. إنه لم يرقص قط مثل ذلك في موسكو بل إنه كان قميناً بأن يجد هذه الطريقة الطليقة مبتذلة. لكنه هنا شعر بحاجته إلى إدهاش الموجودين جميعاً وأن يقوم بشيء خارق يعتبرونه ابتكاراً من العاصمة لم يبلغ الأقاليم بعد.

لم تتوقف أنظار نيكولا خلال السهرة كلها إلا على شقراء فاتنة ذات عينين زرقاوين، كانت زوجة أحد الموظفين في المنطقة. وكان روستوڤ ممتلئاً بتلك الثقة الساذجة التي للشبان المشتطين في المرح الذين يعتقدون أن نساء الآخرين صنعن من أجلهم. لذلك لم يفارق تلك السيدة لحظة

واحدة وراح يعامل زوجها بألفة أنيسة بل بشيء من التآمر وكأنهما دون أن ينطقا به، يعرفان مدى التفاهم الذي سيجمع بينه هو، نيكولا، وبين زوجة هذا الزوج. غير أن الزوج رغم ذلك لم يكن يبدو عليه أنه يشاطره هذا الاعتقاد فكان يعمل جاهداً على لقاء روستوف بوجه عبوس. لكن سلامة طوية نيكولا كانت متخطية كل حد حتى إن الزوج كان أحياناً يرى نفسه رغماً عنه مدفوعاً إلى مشاطرته ذلك الاعتقاد. وفي تلك الأثناء، كان وجه الزوجة يزداد حيوية واحمراراً كلما شارفت السهرة نهايتها، بخلاف وجه الزوج الذي كان يزداد كآبة ورزانة، وكأن جرعة البهجة محدودة كلما أوفت على جانب منها هبط مستوى المتبقي منها.

الفصل الخامس

أفرط نيكولا في الاقتراب من السيدة الشابة الشقراء، واستلقى مغتبطاً على مقعده، وأخذ يغدق عليها أصناف الإطراء كافة.

كان لا يني يعقد ساقيه ويبسطهما وهما ملفوفتان في سراويل ركوب ضيقة الأكمام، تفوح منه رائحة زكية، يتأمل السيدة معتزاً بنفسه وشكل حذاءيه الأنيقين، يحدث الشقراء بأنه ينوي هنا في ڤورونيج، اختطاف سيدة معينة.

ـ وأية سيدة؟

ـ أكثرهن فتنة وكمالاً. عيناها، ونظر نيكولا إلى جارته، زرقاوان وفمها مرجاني وبشرتها..، ونظر إلى كتفيها، وقامتها شبيهة بقامة ديانا..

واقترب الزوج وسأل زوجته عن موضوع الحديث وهو متجهم الوجه. فقال نيكولا وهو يقف بأدب:

ـ آه! ها أنتذا يانيكيتا إيڤانيتش.

وكأنه كان راغباً في إعلامه بفحوى دعابته، إذ أخذ يشرح له نيته اختطاف شقراء معينة.

ضحك الزوج ضحكة مغتصبة والزوجة بانشراح. واقتربت ربة البيت العطوف وعلى وجهها أمارات لوم وقالت:

حريق موسكو.

ـ إن آنّا إينياتييڤنا تود أن تراك. هيا يا نيكولا، إنك تسمح لي أن أناديك كذلك أليس صحيحاً؟

وضغطت على كلمتي آنّا إينياتييڤنا بشكل خاص جعل روستوف يدرك على الفور أنها سيدة مهمة. قال مجيباً عن سؤالها:

ـ بالطبع يا خالتي. من هي؟

ـ هي آنّا إينياتييڤنا مالڤنتسيف، ولقد تناهى إليها ذكرك عن طريق ابنة أختها التي أنقذتها.. هل تخمن من هي؟

قال نيكولا: لقد أنقذت الكثيرات!

ـ إنّ ابنة أختها هي الأميرة پولكونسكي. إنها هنا في ڤورونيج مع خالتها أوه! أوه! كم احمرَّ وجهك! هل هناك شيء ما؟..

ـ أبداً، أوه! أبداً يا خالتي.

ـ هيا، حسناً.. أوه! كم تبدو فتى مضحكاً!

قادته امرأة الحاكم قرب امرأة مديدة القامة، ضخمة الجثة، تعتمر قلنسوة زرقاء، كانت قد انتهت من فورها من لعب الورق مع أرقى شخصيات المدينة. وكانت هذه هي السيدة مالڤنتسيف، خالة الأميرة ماري، أرملة ثرية لا أولاد لها، تقضي العام كله في ڤورونيج. وكانت واقفة تدفع ديونها عندما اقترب روستوف فنظرت إليه وهي تطرف بعينيها باهتمام ثم استمرت تعرب عن استيائها للجنرال الذي هزمها في اللعب.

قالت وهي تمسك يده:

ـ تفتنني معرفتك يا عزيزي. أدخل السرور على نفسي بزيارتك لي.

وبعد أن تفوهت ببضع كلمات عن الأميرة ماري وأبيها المرحوم الذي لم يبد عليها أنها تحبه، وبعد أن سألته عم إذا كانت لديه أنباء عن الأمير أندريه الذي بدا هو الآخر غير مرضي عليه من طرفها، صرفته السيدة العجوز الرفيعة وهي تكرر دعوتها.

ـ قطع نيكولا وعداً بأن يزورها واحمر وجهه مرة أخرى وهو ينحني

للسيدة مالفينتسيف. كان يشعر وهو يسمع الحديث عن الأميرة ماري، بشعور لا يستطيع تفسيره، شعور يمتزج فيه الارتباك بالخوف.

بعد أن غادر السيدة مالفينتسيف أراد نيكولا أن يلحق بحلبة الرقص لولا أن يد زوجة الحاكم الثقيلة حطت على ذراعه. قالت له إن لديها ما تحدثه به وقادته إلى مخدعها فلم يلبث الموجودون فيه أن خرجوا متسللين.

قالت زوجة الحاكم وعلى وجهها الطيب أمارات الجد:

ـ حسناً يا عزيزي، هل تعرف تماماً الزوجة اللازمة لك؟ هل تريد أن أتحدث باسمك؟

فاستعلم نيكولا: من هي يا خالتي؟

ـ الأميرة. إن كاترين بيتروفنا تقول إن ليلي تناسبك. لكنني أرى أنا الأميرة أفضل. هل ترغب في أن أتدخل في الأمر؟ إنني واثقة بأن أمك ستشكرني. إنها فتاة رائعة حقاً! ثم إنها ليست دميمة إلى هذا الحد!

ردد نيكولا وهو يشعر بشيء من المهانة: مطلقاً! أنا يا خالتي، بصفتي عسكرياً، لا أطلب ولا أرفض شيئاً أبداً.

ولقد أضاف هذه العبارة دون أن يدع لنفسه وقتاً للتفكير في ما يقول.

ـ حسناً، فكر إذن. إنها ليست دعابة.

ـ ما هو الذي ليس دعابة؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها:

ـ كلا! كلا. ثم، في عرض الكلام يا عزيزي، إنك شديد الدأب بالقرب من الأخرى، الشقراء، إن الزوج يثير الشفقة حقاً..

فاعترض نيكولا ببساطة قلبه:

ـ ولكن لا، لا، إننا أصدقاء ممتازون. لم يكن يخطر على باله أن هذه

الطريقة بتمضية الوقت، المستحبة لديه كثيراً، يمكن أن تكون غير ذلك بالنسبة إلى الآخرين.

قال نيكولا في نفسه فجأة خلال العشاء: أية رعونة صدرت عني في حديثي مع زوجة الحاكم؟ إنها تريد أن تزوجني بجدع الأنف. وسونيا؟ ولما استأذن ربة المنزل منصرفاً، وكررت له باسمة: «فكر في الموضوع جيداً»، انفرد بها وقال: على أية حال يا خالتي، يجب أن أقول لك..

ـ ماذا يا صديقي؟ تعال من هنا، لنجلس.

شعر نيكولا فجأة بالحاجة الملحة إلى الإفضاء بمكنونات قلبه إلى هذه المرأة المجهولة منه تقريباً وأن يقول لها ما لم يكن ليصرح به إلى أمه أو إلى أخته أو صديقه. ولما تذكر لاحقاً هذه النوبة من التفاني التي لا مبرر لها، خيل إليه، كما يبدو دائماً، أنه ارتكب حماقة كبيرة. مع ذلك، فإنّ هذه النوبة من الإخلاص، إضافة إلى بعض الوقائع البسيطة الأخرى، عادت عليه وعلى ذويه كلهم بنتائج جسيمة. قال:

ـ إليك الموضوع يا خالتي. إنّ أمي تود منذ زمن بعيد أن تزوجني فتاة غنية. لكن هذه الفكرة وحدها تثير اشمئزازي. إنني لا أريد أن أتزوج كسباً للمال.

فقالت زوجة الحاكم: أوه! إنني أفهم تماماً.

ـ لكن الأميرة پولكونسكي شيء آخر: أولاً، أعترف لك بأنها تعجبني كثيراً، إنها توافق قلبي. ومنذ أن قابلتها في ملابسات شديدة الغرابة، ما زلت أفكر دائماً في أنها مشيئة القدر. فكري معي: لقد كانت أمي تفكر فيها منذ زمن بعيد وأنا، لم أكن أجد المناسبة لمقابلتها. ولست أدري كيف كان يحدث ذلك، لكننا لم نكن نتقابل قط. ومادامت أختي ناتاشا مخطوبة لأخيها، لم أكن أستطيع الاقتران بها. ولقد كتب أن لا أقابلها إلا بعد أن فصمت عرى

زواج ناتاشا، وبعد كل شيء.. نعم كل ما.. إنني لم أتحدث بهذا قط إلى إنسان ولست أريد التحدث عنه. إنك وحدك..

ضغطت زوجة الحاكم على مرفقه بحركة متوددة.

ـ هل تعرفين ابنة عمي سونيا؟ إنني أحبها ولقد وعدتها بالاقتران بها وسأتزوجها..

ثم أعقب وهو متردد والحمرة تغزو وجهه:

ـ بذلك ترين أنه لا ينبغي التفكير في هذا الموضوع.

ـ يا عزيزي، يا عزيزي، ما هذا القول؟ ولكن تمعن، إن سونيا لا تملك شيئاً. وأنت نفسك تقول إن أمور أبيك في حالة سيئة. ثم أمك؟ إنَّ مثل هذا الزواج سيقتلها. كن واثقاً من بذلك، أما فيما يتعلق بسونيا، ماذا ستكون حياتها إذا كانت ذا قلب حساس؟ أمك في يأس وثروتك في خطر.. كلا يا عزيزي، يجب أن تفهما الأمور، سونيا وأنت.

سكت نيكولا إذ كانت هذه الاستنتاجات لا تروقه أبداً. قال بعد فترة صمت:

ـ على كل حال يا خالتي، إن هذا لا يمكن أن يكون. ثم هل ترغب الأميرة بي زوجاً.. أضف إلى ذلك أنها في حداد. هل يمكن مجرد التفكير في الأمر؟

قالت زوجة الحاكم: وهل تتصور أنني سأزوجك فوراً؟ هناك ألف وسيلة ووسيلة.

فقال نيكولا وهو يقبل يدها السمينة: يا لك من مزوجة بارعة يا خالتي..

الفصل السادس

وجدت الأميرة لدى وصولها إلى موسكو، بعد لقائها نيكولا روستوف، ابن أخيها مع مربيه ورسالة من الأمير أندريه يشرح لها فيها خط المسير لتصل إلى ڤورونيج، عند خالتها مالڤنتسيف. ولقد كبتت مشاغل الرحلة والقلق الذي تشعر به بسبب أخيها وإقامتها في منزل جديد والوجوه الجديدة والعناية التي وجب أن تصرفها في تثقيف ابن أخيها، كل ذلك كبت في نفسها ذلك اللون من الضجر الذي ناءت به طوال فترة مرض أبيها وبعد موته وخصوصاً منذ أن تعرفت إلى روستوف. لقد كانت حزينة. وكانت خسارة أبيها تختلط في قلبها بخسارة روسيا. والآن، بعد أن أمضت شهراً في هدوء تام، أصبح حزنها أشد إيلاماً من أي وقت مضى. كانت تشعر أنها مهمومة وفكرة الخطر الذي يتعرض له أخوها، المخلوق الأقرب إليها الذي بقي لها، لا تفتأ تعذبها. وكانت تعنى كل العناية بتثقيف ابن أخيها، وهي المهمة التي ما برحت تعتبر نفسها عاجزة عن إنجازها. لذلك فقد اتخذت في أعماق نفسها قراراً بخنق الأحلام والآمال التي أيقظها لقاؤها روستوف في نفسها.

جاءت زوجة الحاكم في اليوم التالي للسهرة، إلى منزل السيدة مالڤنتسيف وتناقشت معها في خططها بعد أن أخطرتها بأن الأمر في الظروف الحاضرة لا يعني خطبة رسمية بل مجرد الجمع بين الشابين والسماح لهما بالتعارف. ولما حصلت على موافقة الخالة، راحت زوجة الحاكم تتحدث عن روستوف أمام ماري فتمتدحه وتروي كيف أنه احمرَّ وجهه عندما نطقت باسم الأميرة. أما

ماري، فقد شعرت بضيق بدلاً من شعورها بالفرح لأن عزمها القلبي أخذ ينهار مجدداً ليترك المجال للرغبات والشكوك واللوم والآمال.

بقيت الأميرة ماري، خلال اليومين التاليين، تنتظر زيارة روستوف وهي لا تبرح تفكر في الموقف الذي ستتخذه تجاهه. فحيناً تقرر أن لا تظهر في القاعة عندما يحضر لزيارة خالتها، لأنه لا يليق بها أن تتقبل الزيارات بسبب حدادها، وحيناً تفكر أن ذلك سيكون غلطة من جانبها بعد الذي فعله من أجلها. تارة تواتيها فكرة أن لخالتها ولزوجة الحاكم وجهات نظر معيّنة تتعلق بها وبروستوف، إذ كانت نظرتهما وأقوالهما تؤيد هذا الافتراض أحياناً، وتارة تحدث نفسها بأنها مخطئة في التفكير على هذا النحو:

ألا يجب أن تفكر هاتان السيدتان بأن أفكاراً تتعلق بالزواج تعتبر، وهي في وضعها الراهن لم تنزع بعد شارة الحداد إهانة ليس لها فحسب، بل لذكرى أبيها كذلك؟ وعندما تفكر أنها تتقدم نحوه، كانت الأميرة ماري تسمع مسبقاً الكلمات التي سيقولها والتي ستجيبه بها فكانت تلك الكلمات تبدو لها تارة على جمود لا يطاق وصوراً تحفل بمعانٍ شتى. وفضلاً عن ذلك، كانت تخشى الاضطراب الذي تشعر به والذي سيستولي ولا بد عليها فيفضحها للنظرة الأولى.

ولكن عندما جاء الخادم إلى القاعة بعد صلاة يوم الأحد يعلن وصول الكونت روستوف، لم تظهر الأميرة ماري أي ارتباك باستثناء الحمرة الخفيفة التي صبغت وجنتيها والتماع عينيها ببريق أشد وميضاً.

سألت الأميرة ماري بصوت هادئ وقد دهشت هي نفسها لقدرتها على الظهور بمثل هذا السكون وعلى مثل هذا المظهر الطبيعي: هل رأيته من قبل يا خالتي؟

دخل روستوف إلى الغرفة فخفضت الأميرة رأسها وكأنها تتيح الوقت

للزائر لتقديم مجاملاته إلى خالتها، ثم رفعت جبينها في اللحظة نفسها التي استدار نحوها فلاقت عيناها المتوهجتان نظرته. وقفت بابتسامة مرحة ومدت له يدها الدقيقة بحركة كيسة جديدة بها وراحت تتحدث بصوت اهتزت فيه لأول مرة نبرات نسوية وعميقة، فنظرت الآنسة بوريين التي كانت حاضرة في القاعة، إلى الأميرة ماري بدهشة لأن أية غنية ماجنة ما كانت تستطيع التصرف على نحو أفضل لدى ظهور رجل تريد أن تروق في نظره.

تساءلت الآنسة بوريين: «أهو اللون الأسود الذي يناسب وجهها أم تراها اكتسبت جمالاً دون أن ألاحظ؟ من أين لها بهذا الظرف وهذه اللباقة؟».

ولو أن الأميرة ماري كانت في تلك اللحظة في حالة تفكير، لدهشت أكثر من الآنسة بوريين نفسها للتغير الذي طرأ عليها. لم تكد ترى ذلك الوجه الرائع الذي تحبه حتى تملكتها حياة قوية جديدة وجعلتها تتصرف وتتحدث تبعاً لقوتها. لقد تحول وجهها فجأة وسرت الحياة في تقاطيعها، كمثل زجاج مصباح رسم عليه فنان خطوطاً قاتمة وخالية من أي معنى، لا يكاد يضيء داخله حتى تأخذ تلك الخطوط مظهراً أخاذاً بجماله، كذلك أصبحت قسمات الأميرة ماري جديدة في مظهرها. لقد بزغ إلى فجر الحياة لأول مرة ما كان يعتلج في روحها النقية من إحساسات قلبية. أخذت حياتها النفسية كلها وكل ما يسبب عذابها وآلامها واندفاعاتها نحو الخير والحب والتضحية، كل ذلك بدأ يتألق الآن في عينيها المشعتين وفي ابتسامتها وفي كل قسمات وجهها الحاني.

ولقد شعر روستوف بذلك شعوراً مسبقاً بلغ من شدة وضوحه أنه بدا وكأنه عرف حياة الأميرة ماري كلها. عرف أن المخلوقة الماثلة أمامه تختلف تماماً عن كل من صادفهن في حياته حتى الآن، وأنها أفضل منهن جميعاً وبصورة خاصة أفضل منه هو.

كان الحديث من أكثر الأحاديث سطحية. تكلموا عن الحرب وهم

يبالغون في إظهار همومهم دون تعمد أسوة بكل الناس. وتحدثوا عن مقابلتهم الأخيرة، فأظهر نيكولا لباقة ساعدته على الانتقال إلى موضوع آخر، فتحدثوا عن زوجة الحاكم وعن أقربائهم المتبادلين.

لم تنبس الأميرة ماري بكلمة واحدة عن أخيها بل سارعت بدورها إلى تحويل مجرى الحديث عندما نوهت خالتها بالأمير أندريه في سياق الحديث، وكان واضحاً أنها إذا كانت تستطيع أن تعبّر عن آلام روسيا بعبارات اصطلاحية فإن أخاها قريب جداً من قلبها حتى ليتعذر عليها أن تتحدث عنه في عرض الحديث، لاحظ نيكولا ذلك كما لاحظ بحدسٍ من قبل أن ذويه لا يمكن أن يخمنوا درجات نفسية الأميرة ماري، تلك الدرجات التي لم تزد اعتقاده إلا رسوخاً بأنها امرأة ممتازة. لقد كان نيكولا يحسّ بمثل إحساس الأميرة ماري لهذا السبب كان يضطرب ويحمرّ وجهه كلما ذكروا الأميرة أمامه بل كلما فكر فيها. لكنه في حضرتها كان يشعر بارتياح تام ويقول ما يتوارد في ذهنه في اللحظة نفسها وليس ما أعد من قبل ويجد دائماً الكلمة المناسبة الصحيحة.

خلال زيارته القصيرة، اقترب نيكولا في فترة صمت من ابن الأمير أندريه الصغير كما هي العادة دائماً كلما وجد في المكان أطفالاً. ولاطفه وسأله عم إذا كان يودّ أن يصبح فارساً. ثم حمله بين ذراعيه وجعله يقفز بفرح وألقى نحو الأميرة ماري نظرة مختلسة. وكانت هذه تتبع الطفل الذي تحبه بنظرة حانية سعيدة وهي بين ذراعَي الرجل الذي تحبه. فلاحظ نيكولا تلك النظرة واحمر وجهه من السرور وكأنه أدرك كنهها ثم قبل الصغير من كل قلبه.

لم تكن الأميرة ماري تخرج بسبب حزنها، فقدر نيكولا أنه ليس من المناسب تكرار الزيارة. لكن زوجة الحاكم لم تكف عن تدابيرها الخاصة بالزواج، وظلّت تردد أمام نيكولا ما قالته الأميرة عنه من كلام فاتن، وللأميرة ما يقوله روستوف، وهي تلح دائماً على روستوف أن يصارحها برغبته. بل إنها دبَّرت لبلوغ هذه الغاية لقاءً للشابين عند رئيس الكهنة قبل القداس.

ورغم أن روستوف أبلغ زوجة الحاكم بأنه لن يعرب عن عزمه للأميرة ماري في ذلك اللقاء فإنه وعد بالحضور.

وجرت الأمور كما قدر عندما لم يسمح روستوف لنفسه أن يشك في جودة وسمو ما يراه كل شخص كاملاً. وبعد صراع قصير ولكن مخلص بين الرغبة في تسوية حياته بشكل معقول والخضوع المتوجب عليه للظروف، اختار الجانب الأخير واستسلم للقدر الذي كان يجرفه بقوة لا تقاوم كما كان يشعر. وكان يعرف أن إبداء مشاعره للأميرة ماري بعد وعوده لسونيا، يعتبر سفالةً من جانبه ويعرف كذلك أنه لم يكن قط نذلاً. لكنه كان يعرف أيضاً من أعماق نفسه أنه إذا ترك الأشخاص يعملون والأشياء تجرفه إلى الأمام، فإنه لا يرتكب بذلك سوءاً بل العكس ينجز شيئاً بالغ الخطورة لدرجة لا يمكن مقارنة كل ما فعله في حياته به.

لم يبدِ أي تغيير على نمط حياته الخارجي بعد مقابلته الأميرة ماري. مع ذلك فإن كل ما كان يفتنه من قبل أخذ يفقد فتنته. كان يفكر فيها غالباً. مع ذلك لم يكن تفكيره في الأميرة ماري كمثل طريقته في التفكير بكل الفتيات اللاتي قابلهن في المجتمع، كما أنه لم يكن يحسُّ تجاهها بالهوَس الذي استولى عليه فترة ما نحو سونيا. كان كسائر الشبان الشرفاء تقريباً، عندما يفكر في فتاة، يرى فيها الزوجة المنتظرة ويميّز في خياله شروط حياته العائلية: الزوجة الجالسة قرب السماور في ثوب منزلي أبيض، عربة السيدة، الأولاد الذين يقولون ماما وبابا، تعلق أحدهم بالآخر، إلى آخر ما هنالك وكانت هذه الصور عن المستقبل تملأه بالارتياح. لكنه عندما كان يفكر في الأميرة ماري التي يريدون أن يزوجوه بها، لم يكن يستطيع أن يتخيل أية حياة زوجية: فكلما حاول التخيل، بدا له كل ما أقامه خطأ وفي غير موضعه، فكان ذلك يترك في نفسه شعوراً بالقلق العميق.

الفصل السابع

عرفت ماري عن طريق الصحف بجرح أخيها، وقد بلغت أنباء معركة بورودينو الرهيبة وخسائرنا الفادحة بين قتلى وجرحى، كما إعلان خسارة موسكو، مدينة ڤورونيغ في منتصف شهر أيلول/ سبتمبر. وبما أن ماري لم تكن تعرف عن أخيها شيئاً دقيقاً فقد استعدت للسفر بحثاً عنه كما تناهى إلى نيكولا الذي لم يرها حين ذلك.

أما روستوف، فإن نبأ معركة بورودينو ومغادرة موسكو لم يحدث فيه يأساً ولا غضباً ولا رغبة في الانتقام ولا أي شعور آخر من هذا النوع، لكنه شعر فجأة بسأم في ڤورونيغ وأنه ليس في مكانه ولا كما يريد، فكانت المحاضرات التي يسمعها حول هذا الموضوع تبدو له نشازاً. لم يكن يعرف كيف يفكر في تلك الحال، لكنه كان يظن أن الأمور ستتضح له حال عودته إلى فوجه. لذلك فقد أسرع في الانتهاء من شراء الجياد وهو يتبرم كيفما اتفق من خدمه ورقيب كوكبته.

قبل سفره ببضعة أيام أقيم قداس في الكاتدرائية احتفالاً بنصر الجيوش الروسية حضره نيكولا. اتخذ لنفسه مكاناً وراء الحاكم قليلاً وعلى سيماه خطورة مصطنعة وحضر الاحتفال الديني وهو يفكِّر في شيء مختلف تماماً. فلما انتهى القداس استدعته زوجة الحاكم وسألته وهي تشير إلى شبح في ثياب سوداء وراء جوقة المرتلين:

ـ هل رأيت الأميرة؟.

عرف نيكولا فوراً الأميرة ماري، ليس بصورة وجهها الجانبية التي بدت تحت القبعة فحسب بل كذلك من شعور التحفظ والحنان الذي استبد به. وكانت على صدرها شارات الصليب الأخيرة قبل خروجها من الكنيسة وهي غارقة في انشغالها.

دهش عندما رأى وجهها. لقد كان ذلك الوجه نفسه الذي يعرفه والذي نقشت عليه الأحاسيس الداخلية، لكنه كان مشعاً بضوء مختلف. إنه يحمل أمارات الحزن المؤثرة والصلاة والأمل. وكما حدث له من قبل في حضرة الأميرة ماري لم ينتظر نيكولا موافقة زوجة الحاكم ليقترب نحوها كما لم يتساءل عم إذا كانت الآداب تسمح له بالدنو من الأميرة ماري داخل الكنيسة، بل ذهب إليها وقال لها إنه علم بمصيبتها الحديثة وإنه يشاطرها الأسى من كل جوارحه.

ولم تكد تسمع صوته حتى أضاء وجهها نور متوهج، نور أضاء حزنها وسرورها معاً. قال روستوف: كنت أعتزم أن أقول لك يا أميرة بأن الأمير أندريه نيكولاييڤيتش يرأس فوجاً وأنه لو فقد حياته لنشرت الصحف ذلك.

نظرت إليه الأميرة دون أن تدرك كنه أقواله وهي شديدة السعادة بالحماسة التي قرأتها على قسمات وجهه.

أضاف روستوف:

ـ وأعرف أمثلة كثيرة كانت فيها الجروح التي تحدثها القذائف، وكانت الصحف تدعوها القنابل إذا لم تقتل من فورها، تبدو على العكس طفيفة.. يجب أمل الأفضل وإنني واثق أن..

فقاطعته الأميرة ماري وشرعت تقول: أوه! سيكون ذلك شديد الهو..ل..!.

وأطرقت برأسها بحركة كيِّسة ككل الحركات التي تصدر عنها في

حضوره وقد منعتها شدة التأثر من إتمام جملتها ثم ألقت عليه نظرة عرفان ولحقت بخالتها.

ذلك المساء، لم يذهب نيكولا في زيارة إلى أي مكان بل عكف في غرفته على ترتيب حساباته مع باعة الخيول. فلما انتهى من أعماله، وكان الوقت متأخراً جداً للخروج ومبكراً جداً للنوم لذلك فقد بقي يذرع غرفته وهو يفكر في قدره، الأمر الذي ندر أن وقع له مثله.

لقد أحدثت فيه الأميرة ماري من قبل أثراً عنيفاً في سمولنسك. أدهشته الظروف الخاصة التي التقاها فيها، هي التي عنتها أمه على اعتبارها أغنى زوجة يمكن الحصول عليها، لذلك راح يتأمل الفتاة بعناية خاصة. وفي ڤورونيغ، لم تترك زيارته لها ذكرى مستحبة في نفسه فحسب بل تركت أيضاً تأثيراً قوياً. لقد حرك مشاعره جمالها الخاص، الجمال الخلقي الذي اكتشفه فيها وها هوذا يستعد للرحيل دون أن تواتيه فكرة الأسف على مغادرته المدينة لأنه سيحرم من رؤيتها.

لكن اللقاء الذي جرى له معها في الكنيسة، كان يحفر صورة الأميرة في قلب نيكولا، وهو الذي لمس ذلك، نقشاً عميقاً أكثر مما كان يتوقع، نقشاً أعمق مما كان يتمنّاه لراحته.. كان ذلك الوجه الدقيق الحزين وتلك النظرة المشعة والحركات الموزونة الملأى بالانسجام وذلك الفم الضعيف الذي تنطق به قسماتها، كل ذلك كان يهز نيكولا ويستفز ميله. لم يكن يستطيع احتمال رؤية دلالة تفوق فكري على وجه رجل، وهذا هو سبب امتناعه عن حب الأمير أندريه، كما كان يشعر بالاحتقار لكل ما يدعوه فلسفة ولكل أصحاب الأوهام. لكن الحزن عند الأميرة كان ينم عن عمق هذا العالم الفكري المجهول منه، هذا العالم الذي يجذبه بقوة لا تقاوم.

حدث نفسه: «لا شك أنها فتاة مدهشة! ملك حقيقي. لماذا لست حراً،

لماذا تسرَّعت إلى هذا الحد مع سونيا؟» وراح رغماً عنه يقارن بين الفتاتين. ففي الواحدة فقرها بهذه المواهب الفكرية التي يقدرها بقدر ما تنقصه هو شخصياً وفي الأخرى، ثروتها منها. أخذ يحاول أن يتمثل ماذا كان سيتم لو وجد نفسه حراً من كل قيد. كيف كان سيعلن حبه لها؟ كيف كانت ستصبح زوجته؟ ولكن ما فائدة التفكير فيها؟ كان يشعر بالانزعاج فكانت هذه الصور كلها تختلط أمام عينيه. كانت لوحة حياته المقبلة مع سونيا مخطوطة منذ زمن طويل، وكل شيء فيها بسيط وواضح لأن كل شيء متوقع ولأنه لا يجهل شيئاً عن ابنة عمه. في حين أنه مع الأميرة ماري عاجز عن تكوين صورة للمستقبل. أن لا يفهمها بل يحبها فحسب.

أن يحلم بسونيا، أمر مبهج يشبه اللعب. أما أن يحلم بالأميرة ماري، فشيء صعب بل مرعب بعض الشيء.

قال في سرِّه: «كيف كانت تصلي! كان واضحاً أن روحها كلها تنساب في صلاتها. صحيح أن الإيمان ينقل الجبال وأنني واثق بأن صلاتها ستقبل. لماذا لا أسأل الله أنا الآخر ما أنا في حاجة إليه؟ ولكن، ما هي حاجتي؟ أن أكون حراً، أن أقطع علاقتي بسونيا. لن ينجم عنها إلا ما يؤسي: الارتباكات المالية، حزن «ماما».. هذه الهموم.. متاعب، متاعب رهيبة. ثم إنني لا أحبها في أعماق نفسي. كلا، لا أحبها كما يجب. آه! يا إلهي! أخرجني من هذا المأزق البشع الذي لا مخرج له!» وقال فجأة وهو يبتهل رغم أنفه: «نعم، إن الإيمان ينقل الجبال، ولكن يجب أن تكون النفس مشبعة به لا أن نصلي كما نفعل نحن، ناتاشا وأنا، عندما كنا طفلين وكنا نسأل أن يصبح الثلج سكراً فما إن تنتهي الصلاة حتى نسرع إلى الفناء لنرى ما إذا كان الثلج قد تحول إلى سكر أم لا. كلا، ليست هذه التفاهات هي ما ينبغي أن أسأله الآن». بذلك كان يحدث نفسه وهو يضع غليونه في زاوية ويمضي أمام الصور المقدسة فيقيم

معقود اليدين. ولقد تحنن الذكرى الأميرة ماري، فراح يصلي كما لم يفعل منذ زمن طويل. وكانت الدموع تنبجس من عينيه وتتصاعد إلى حلقه عندما فتح لاڤروشا الباب وفي يديه بعض الأوراق.

صاح نيكولا وهو يبدل وضعيته بسرعة: أيها الغبي، ماذا دهاك حتى تدخل عندما لا يدعوك أحد!.

فأجابه لاڤروشا بصوت خامل: إنه من لدن الحاكم. لقد وصل بريد يحمل رسالتين لك.

ـ حسناً، حسناً جداً، شكراً يمكنك أن تذهب.

أخذ نيكولا الرسالتين. كانت الواحدة من أمه والثانية من سونيا. وبعد أن تعرف إلى الخطوط، فض رسالة سونيا بادئ الأمر، شحب وجهه لدى تلاوة السطور الأولى وجحظت عيناه من الخوف والفرح وقال بصوت مرتفع:

ـ كلا، هذا لا يمكن أن يكون!.

لم يستطع البقاء في مكانه فراح يذرع الغرفة والرسالة في يده يقرأها، تصفحها بادئ الأمر ثم قرأها مرة وأعاد تلاوتها وأخيراً تسمر في مكانه متأرجح الذراعين فاتح الفم، شاخص العينين. إن ما طلبه منذ حين مع كامل الثقة بأن الله سيستجيبه قبل، فكان ذهوله شديداً. إن في هذا الأمر شيئاً ما كان يستطيع أن يتوقعه ولكن السرعة التي استجيب طلبه بها دلت على أن الأمر بدلاً من أن يكون تدخلاً ربانياً، بات مجرد صدفة.

على ذلك، فقد بدا أن تلك العقدة المستعصية على الحل التي كانت تربط حرية نيكولا قد انحلت من تلقاء نفسها في هذه الرسالة غير المتوقعة التي وصلته من سونيا، تلك الرسالة التي لم يكن هناك ما يشير إليها أو أقله، هذا ما يراه نيكولا. كانت تخبره في رسالتها أن مصائب الأيام الأخيرة وضياع كل مقتنيات أسرة روستوف في موسكو والرغبة التي أبدتها الكونتيسة مراراً

في أن تراه يتزوج الأميرة پولكونسكي، وسكوتها وبرودها في الأيام الأخيرة كل ذلك دفعها إلى أن تقرر حله من الوعد الذي قطعه على نفسه وأن تعيد إليه الحرية المطلقة.

كتبت: «سيؤلمني جداً أن أفكِّر بأنني يمكن أن أصبح سبباً للغم أو للتجافي في أسرة أنا مدينة لها بكل شيء. ثم إن حبي يستهدف شيئاً واحداً: سعادة من أحب. لذلك فإنني أتوسل إليك يا نيكولا أن تعتبر نفسك حراً رغم أنّ ما من أحد يمكنه أن يحبك أكثر من سونياك».

كانت الرسالتان صادرتين من ترويتسا ورسالة الكونتيسة تصف الأيام الأخيرة التي قضتها الأسرة في موسكو وسفرها والحريق وضياع مقتنياتها. مع ذلك، فإن الكونتيسة كانت تقول في تلك الرسالة إن الأمير أندريه وعدداً كبيراً من الجرحى يسافرون معهم وإن الأمير أندريه في حالة شديدة الخطورة ولكن الطبيب يؤكد أن هناك الآن أملاً قوياً في شفائه، وأن سونيا وناتاشا تقومان على تمريضه.

غداة اليوم التالي، ذهب نيكولا حاملاً رسالة أمه إلى الأميرة ماري. لم يعلق هو ولا هي على التنويه الذي تحويه عبارة: «ناتاشا تقوم على تمريضه». مع ذلك، فإنهما شعرا بتقارب بفضل هذه الرسالة بل أشبه بالقريبين.

وفي اليوم التالي، رافق روستوف الأميرة ماري إلى ياروسلاڤل ثم التحق بفوجه بعد بضعة أيام.

الفصل الثامن

أُرسلت رسالة سونيا من ترويبستا، تلك التي استجابت لأمنيات نيكولا، وهكذا حدث الأمر: أصبحت فكرة رؤية ابنها يقترن بوارثة غنية تزيد في تعذيب الكونتيسة العجوز وإيلامها يوماً بعد يوم. وكانت تعرف أن العائق الرئيسي هو سونيا. وأصبحت حياة سونيا خلال الأيام الأخيرة وخصوصاً منذ أن أرسل نيكولا رسالة يذكر فيها أنه التقى الأميرة ماري في بوغوتشاروڤو تزداد صعوبة، إذ إن الكونتيسة لم تكن تترك سانحة إلا استغلتها لتوجه إلى الفتاة المسكينة إنذارات جارحة بل قاسية.

استدعت الكونتيسة، قبل مغادرة موسكو بأيام، التي قلبتها الأحداث ظهراً لعقب، سونيا إليها. وبدلاً من أن تطالبها بالتضحية وهي تبهظها بالتعنيف توسلت إليها راجية أن تعرب عن عرفانها بكل ما أسدوه إليها من جميل بفصم علاقاتها بنيكولا وأضافت:

ـ لن يهدأ لي بال قبل أن تعديني بذلك.

دهمت سونيا موجة من الدموع وأجابت خلال نشيجها أنها ستعمل كل شيء وأنها على استعداد لكل شيء ولكن دون أن تصرف الوعد القاطع وهي العاجزة في أعماق نفسها عن اعتزام ما يفرض عليها أن تضحي بنفسها في سبيل سعادة العائلة التي أنشأتها وأطعمتها. وكان من عادتها أن تضحي بنفسها في سبيل الآخرين. ولقد كان مركزها في المنزل على حال لا يصلح معه إلا نسيان ذاتها لإظهار قيمتها. لذلك فقد باتت تجد حجب نفسها دائماً

أمراً طبيعياً. مع ذلك، فإنها كلما قامت بتضحية، كانت تجد البهجة في أن تقول لنفسها إنها عظمت في عيني نفسها وفي عيون الآخرين، وإنها بذلك تجعل نفسها أكثر جدارة بنيكولا الذي تحبه أكثر من كل الناس. أما الآن، فإن ما يطلبونه منها، هو هجران المكافأة على تضحياتها، هجران كل ما له معنى في حياتها. وللمرة الأولى في حياتها، شعرت بالمرارة تجاه هؤلاء الأشخاص الذين لم يغدقوا عليها إحسانهم إلا ليزيدوا في عذابها.

شعرت بالغيرة من ناتاشا التي لم تحس إطلاقاً بمثل هذا الإحساس والتي لم تعرض لها قط الحاجة إلى تضحية نفسها والتي أرغمت الآخرين على أن يضحوا بأنفسهم من أجلها وبقيت رغم ذلك تنعم بحب الجميع. وللمرة الأولى، شعرت سونيا أن حبَّها الهادئ الطاهر لنيكولا قد تحول فجأة إلى هوى جامح يطغى على العقل والدين. وبتأثير هذا الهوى الجامح، أجابت سونيا التي ألفت إخفاء كل شيء عن حياتها المستقلة، عن طلب الكونتيسة بعبارات مبهمة وتجنبت كل تفسير وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر نيكولا لا لتحرره من كلمته بل لتقترن به إلى الأبد.

لقد غمرت رهبة الأيام الأخيرة التي قضاها آل روستوف في موسكو ومخاوفها، أفكار سونيا السوداوية التي كانت تعذبها، ولقد أسعدها أن وجدت الخلاص في الأعمال المادية. لكنها عندما عرفت بوجود الأمير أندريه في المنزل، استولى عليها، رغم كل إشفاقها عليه وعلى ناتاشا، شعور خرافي ومنعش. إن الله لا يريدها أن تفترق عن نيكولا. كانت تعرف أن ناتاشا تحب الأمير أندريه وأنها لم تكف عن حبه، وتعرف أنهما وقد اجتمعا الآن في مثل هذه الظروف، سيتحابان أكثر من أي وقت مضى، وإن نيكولا لن يستطيع حينئذٍ أن يتزوج الأميرة ماري بسبب روابط القربى الجديدة التي ستجتمع بينهما. المعروف أن الديانة الأرثوذكسية لا تسمح بالزواج بين أخوات

الزوج وإخوان الزوجة. وعلى الرغم من كل هول ما كان يقع وصعوبات أيام السفر الأولى، فإن الثقة بأن القدرة الإلهية في سبيل التدخل في شؤون سونيا الشخصية كانت تفرحها.

توقف آل روستوف في المرحلة الأولى من يوم سفرهم في دير «ترينيتيه».

احتجزوا لهم في فندق الدير ثلاث غرف، احتل الأمير أندريه واحدة منها وكان الجريح ذاك اليوم في حالة أفضل من حالته في الأيام السابقة، وناتاشا لا تبارح سريره. وفي الغرفة الملاصقة، كان الكونت والكونتيسة يتحدثان باحترام مع رئيس الدير الذي جاء يزور معطييه القدماء وأصدقاءه. وكانت سونيا هناك أيضاً تتحرق فضولاً وتتساءل عم يتحدث به الأمير أندريه مع ناتاشا. إنها تسمع جلبة صوتيهما من خلال الباب. وفجأة فتح ذلك الباب وتقدمت ناتاشا منقلبة الأسارير. اقتربت من سونيا دون أن تلاحظ الأب الرئيس الذي وقف ليتقدم نحوها ويباركها وهو يمسك بيسراه كمَّ جبته العريض ويبقيه فوق ذراعه اليمنى، وأمسكت بيدها. فقالت الكونتيسة.

ـ ناتاشا، هه؟ تعالي إلى هنا.

فاقتربت ناتاشا وتلقت مباركة الأب الرئيس الذي سألها أن تلتمس عون الله وقديسه! ـ لأن الدير يحوي مومياء القديس سيرج.

وما إن خرج، حتى أخذت ناتاشا بيد صديقتها وذهبت معها إلى الغرفة غير المسكونة. وصاحت:

ـ سونيا، هل صحيح؟ سيعيش؟ سونيا، كما أنا سعيدة وبالوقت نفسه تعيسة! سونيا يا عزيزتي، إن الحال كما كانت عليه من قبل تماماً. ليعش فقط. ولن يستطيع.. لأن.. لأن..

وقطعت العبرات صوتها. فقالت سونيا: آه! نعم. كنت أعرف ذلك! حمداً لله! سوف يعيش!.

لم تكن سونيا أقل تأثراً من صديقتها التي كانت أحزانها ومخاوفها تختلط بالأفكار التي لم تكن تستطيع الإعراب عنها أمام أحد. عانقت ناتاشا وواستها وهي مجهشة بالبكاء وراحت تفكر: «المهم أن يعيش!» وبعد أن بكتا وثرثرتا ما طاب لهما، مسحت الصديقتان دموعهما واقتربتا من باب الأمير أندريه ففتحته ناتاشا بهدوء ونظرت داخل الغرفة. ودفعت سونيا التي ما زالت إلى جانبها خلال الباب الموارب.

كان الأمير أندريه مستريحاً على ثلاث وسائد ووجهه الشاحب هادئاً وعيناه مغمضتين وقد اتضح أن تنفسه منتظم. قالت سونيا بصوت أقرب إلى الصراخ وهي تمسك بابنة عمها من ذراعها وتبتعد عن الباب:

آه! ناتاشا.

سألت ناتاشا: ماذا بك؟ ماذا بك؟.

ـ إنه لكذلك، كذلك تماماً..

فقالت سونيا ممتقعة الوجه مضطربة الشفتين:

أغلقت ناتاشا الباب برفق وقادت سونيا قرب النافذة دون أن تفهم ما أرادت أن تقول.

قالت سونيا وعلى وجهها أمارات الذعر والجلال:

ـ هل تذكرين عندما نظرت إلى المرآة من أجلك.. في أواترادنواي، مساء عيد الميلاد؟... هل تذكرين ماذا رأيت؟.

فقالت ناتاشا وقد اتسعت عيناها: نعم، نعم.

تذكرت بإبهام أن سونيا قالت لها حينذاك شيئاً ما بصدد الأمير أندريه الذي رأته مستلقياً.

استأنفت سونيا: هل تذكرين؟ لقد رأيته حينذاك وذكرت ما رأيت لكل الناس، لك ولدونياشا. لقد رأيته في سرير، وراحت تضغط على الكلمات

وترفق كل كلمة بحركة من يدها وسبابتها مرفوعة، رأيته في سرير وعيناه مغمضتان، يغطيه غطاء وردي كما هو الآن تماماً ويداه معقودتان.

كانت سونيا مقتنعة أنها وهي تصف تفاصيل ما شاهدته منذ حين إنما تصف ما شاهدته في المرآة ذلك اليوم. في حين أنها لم تر شيئاً مطلقاً ولم تقص إلا ما طاف بخيالها حينذاك. لكن ما تخيلته بدا لها على مثل حقيقة الذكرى. زعمت حينذاك أنه نظر إليها مبتسماً وأنه كان مغطى بشيء أحمر. أما الآن، فقد أصبحت واثقة بأنها قالت ورأت أنه مغطى بغطاء وردي، هذا الغطاء الوردي بالتدقيق وإن عينيه كانتا مغمضتين.

صاحت ناتاشا التي باتت هي الأخرى تعتقد الآن أنها تذكر أن سونيا أخبرتها حينذاك عن هذا الغطاء الوردي التي أصبحت ترى في هذه الواقعة نبأ خارقاً في الغموض: نعم، نعم، وردي، صحيح!.

ثم سألت ساهمة: ماذا يمكن أن يكون معنى هذا؟.

أجابت سونيا وهي تمسك برأسها بين يديها:

ـ آه! لست أدري شيئاً لكنه أمر مثير.

وبعد دقائق، قرع الأمير أندريه الجرس فعادت ناتاشا إلى قربه وبقيت سونيا التي نادراً ما شعرت بمثل هذا الانفعال، واقفة أمام النافذة تفكر في مثل هذه الصدفة المذهلة.

وفي ذلك اليوم، عرضت فرصة إرسال التحارير إلى الجيش، فكتبت الكونتيسة لابنها.. ثم قالت وهي تكف عن الكتابة عندما اقتربت سونيا منها.

ـ سونيا، سونيا أليس لديك ما تقولينه لنيكولا؟.

وارتجف صوتها عند طرح هذا السؤال، فقرأت سونيا في عيني الكونتيسة المتعبتين التي أخذت تنظر إليها خلال نظارتيها، كل ما أرادت أن تقوله بهذا

السؤال. كانت تلك النظرة تعبّر عن توسل وخوف من الرفض، والخجل من وجوب طلبه، وأخيراً الحقد الوشيك الذي لا ينسى في حالة الرفض.

اقتربت سونيا من الكونتيسة ورجعت أمامها وقبلت يدها ثم قالت:

ـ سأكتب فوراً يا أماه.

كانت سونيا مزعزعة متأثرة بسبب كل ما حدث أخيراً، وخصوصاً تحت دلالة الأمس بذلك الشكل المبهم. أحست الآن، بعد أن أصبحت مصالحة ناتاشا مع الأمير أندريه تمنع نيكولا من الاقتران بالأميرة ماري، بفرح عودة ذلك الشعور بالتضحية الذي كان أليفاً لديها. ولقد كتبت الرسالة المؤثرة التي أدهشت نيكولا جداً، وهي تمسح أكثر من مرة الدموع التي تملأ عينيها السوداوين المخمليتين، وكلها ثقة بأنها إنما تقوم بعمل بطولي.

الماريشال دافو.

الفصل التاسع

عومل پيار في مركز الحرس حيث اقتاده بعض الضباط والجنود، معاملة عدوانية لكنها لم تخل من الالتفات. كانوا يخشون أن يكون شخصية مرموقة رغم حقدهم عليه بسبب العراك الذي أثاره معهم.

ولكن، ما إن أزف الصباح حتى أبدل الحرس، فلاحظ پيار أن الضباط والجنود الجدد لم يعودوا يعاملونه بمثل المعاملة التي لقيها من الذين أوقفوه. كان هذا العملاق الضخم ذو معطف القرويين في نظرهم، ذلك الرجل القوي الذي اشتبك في معركة بالأيدي مع السلابين أثناء وجود الدورية، والذي تحدث بلهجة مهيبة عن طفل أنقذ من النار وأصبح يعرف برقم ١٧ على لائحة السجناء الروس الذين أوقفوا بناء على أمر القيادة العليا. فإذا كان فيه شيء ما خاص فلم يكن إلا تلك الرصانة التي تبدو على حركاته وذلك الفخار ثم اللغة الفرنسية التي يتحدث بها بإتقان وطلاقة تدهشان الفرنسيين أنفسهم. مع ذلك، فقد ألحق بالمشتبه فيهم الآخرين منذ ذلك اليوم لأن أحد الضباط طلب احتلال الغرفة الخاصة التي أودع فيها.

كان كل الروس الذين أوقفوا مع پيار أناساً من طبقة منحطة عرفوا فيه كلهم سيداً، فأخذوا يتجنبونه خصوصاً وأنه يتحدث اللغة الفرنسية. بل إن پيار سمعهم يتفكهون على حسابه، فكان لذلك وقع أليم في نفسه.

وفي اليوم التالي، عرف أن كل الموقوفين، وهو في عدادهم بلا شك سيحاكمون على اعتبارهم أضرموا الحرائق. وفي اليوم الذي تلاه، اقتيدوا

جميعاً إلى بناء يقيم فيه جنرال فرنسي أشيب الشاربين، وزعيمان وفرنسيون آخرون يلفون الأشرطة حول أذرعهم. واستجوب پيار كالآخرين بتلك اللهجة الصريحة الدقيقة التي يستخدمها عادة الرجال المتجردون، زعماً، عن كل ضعف بشري عندما يستجوبون متهمين. من هو؟ إلى أين كان يمضي؟ ماذا كانت غايته؟ إلخ...

كانت تلك الأسئلة التي لا علاقة لها إطلاقاً بصميم القضية، والتي تجعل أي إيضاح مستحيلاً، لا ترمي إلا إلى دعم الاتهام، ككل الأسئلة التي تطرح في القضاء وإلى تحويل أجوبة المتهم إلى الاتجاه المطلوب، أي إلى الاعتراف بجرمه. فكلما بدأ يقول شيئاً في غير مصلحة الاتهام، كانوا يسارعون إلى إعادته نحو النقطة التي يريدون إيصاله إليها. أضف إلى ذلك أن پيار كان عرضةً للنهاية المشتركة التي تنتظر كل الموقوفين، فكان الهدف الذي تصبو إليه الأسئلة التي تطرح عليه، وكان يستطيع أن يخمن أن الخدع التي يستعملها الاتهام تعود إلى المجاملات أو إلى التأدب الذي يظهرونه حياله.

وكان يعرف أنه رهن مشيئة هؤلاء الناس وأنهم جاؤوا به إلى هناك بالقوة وأن القوة في يدهم وأنهم في حاجة إلى اتهام الناس، فإن پيار لم يكن يرى مبرراً للمكر الذي يستعملونه. من البديهي جداً أن كل جواب لا ريب سيفسر على محمل التجريم. ولما سألوه عم كان يفعل حينما أوقفوه، قال بلهجة ميلودرامية إنه كان «يعيد طفلة إلى ذويها أنقذها من النيران» ولما سئل لماذا تعارك مع نهّاب سارق؟ أجاب بأنه كان «يدافع عن امرأة، والدفاع عن امرأة أهينت، واجب كل رجل وأن..» فاستوقفوه قبل أن يستفيض لأن ذلك لا دخل له بالاتهام.

ولكن ماذا كان يعمل في بناء منزل يحترق، حيث شاهده بعض الشهود؟ أجاب بأنه «ذهب ليرى ماذا يقع في موسكو». ومجدداً استوقفوه ليسألوه ليس

إلى أين يذهب، بل لماذا كان بالقرب من الحريق. ثم قالوا وهم يستأنفون السؤال الأول الذي رفض الإجابة عنه: من أنت؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه.

قال الجنرال ذو الشاربين الأشيبين والوجه المتورِّد بلهجة صارمة:

ـ أيها المسجل، اكتب. إن الحالة خطيرة، إن الحالة خطيرة جداً.

اندلعت النيران بعد توقيف پيار بأربعة أيام بالقرب من حاجز زوبوف.

ونقل پيار وثلاثة عشر متهماً إلى «غي دو كريميه» مخاضة القرم في بيت مأجور لأحد الباعة. وبينما هو يجتاز الشوارع، كاد پيار يختنق من الدخان الذي بدا كأنه يغطي المدينة كلها. لم يكن المرء ليشاهد غير الحرائق في كل مكان. لكنه لم يكن قد أدرك بعد أهمية حريق موسكو، لذلك فقد راح ينظر حوله بذهول.

في ذلك البيت المأجور من منطقة «مخاضة القرم»، قضى پيار أربعة أيام عرف خلالها من حديثه مع الجنود الفرنسيين أنهم ينتظرون يوماً بعد يوم، القرار الذي سيتخذه الماريشال بحق الموقوفين. مع ذلك، فقد ظل يبدو بالنسبة إلى الجنود سلطة غامضة عليا مجسدة فيه بدون أي شك.

لقد كانت تلك الأيام التي سبقت اليوم الثاني من أيلول/ سبتمبر، يوم إخضاع الموقوفين لاستجواب ثان، من أكثر الأيام مشقة وإيلاماً بالنسبة إلى پيار.

الفصل العاشر

وصل ضابط رفيع الشأن، في الثامن من أيلول/ سبتمبر، إذا روعيت الاعتبارات التي أبداها الحرس تجاهه، لزيارة المساجين. راح ذلك الضابط الذي كان بدون شك تابعاً لأركان حرب الجيش، يتفقد السجناء وبيده قائمة، فنادى پيار: الذي لا يدلي باسمه. ألقى عليهم نظرة متراخية وأمر ضابط الحرس أن يعنى بتنظيفهم وإلباسهم ثياباً مناسبة قبل أن يقودهم للمثول بين يدي الماريشال. وبعد ساعة، اصطفت فصيلة من الجند، ساقت پيار والمساجين الثلاثة عشر الآخرين إلى ساحة العذارى «شان دي ڤييرج» وقد أطلق هذا الاسم على ذلك المكان، ذكرى للتتر الذين أمروا بأن تدفع لهم الجزية فضة وعذارى نبيلات في ذلك المكان.

كان يوماً مشرقاً مشمساً بعد المطر والهواء، يمتاز بنقاء خاص، والدخان، بدلاً من أن يزحف كما كان شأنه يوم أن نقل پيار من مركز كتيبة الحرس في حاجز زوبوڤو، يتصاعد أعمدة في الهواء النقي. لم يكن المرء يرى ناراً في أي مكان. لكن موسكو كانت مغطاة بالدخان المتصاعد من كل أنحائها. وموسكو أو أقله ما شاهده پيار منها، لم تكن إلا خراباً. ففي كل مكان أرض خواء تناثر فيها حطام المدافئ والمداخن، وهنا وهناك، أجزاء من جدران منهارة متفحمة. ولقد نظر پيار بإمعان، لكنه لم يتعرف إلى أحياء المدينة المألوفة. لقد كانت الكنائس في بعض الأماكن لا تزال قائمة، والكرملين سليماً من كل أذى، يرتسم بلون أبيض بأبراجه وإيڤان الأكبر، وهو برج جرس ارتفاعه ٩٧

متراً، وبالقرب منه، قبة دير نوڤو ـ ديڤيتشي، واسمه مستمد من ساحة العذارى القريبة منه ـ تلتمع ببهجة، ورنين أجراس تقرع مدويّة بشكل خاص، يتعالى في الفضاء. ولقد ذكرت الأجراس پيار بأن اليوم أحد وأنه عيد مولد العذراء. لكن ذلك لم يكن عيداً لأحد: لم تكن ترى إلا الأطلال التي خلفتها الحرائق، أما من حيث السكان، فكان المرء يلاقي بين الحين والآخر بعض الأشخاص المساكين في أسمال بالية يختبئون لدى رؤية الفرنسيين.

كان واضحاً أن عش روسيا قد دمر وشتت، فكان پيار يشعر شعوراً غامضاً أن عهداً آخر مختلفاً جداً وقاسياً، هو عهد الفرنسيين، قائم على أنقاض العهد الروسي المدمر. كان يشعر بذلك من حياة جنود الموكب الذين كانوا يتقدمون بنظام جيد وعلى وجوههم أمارات رزينة مرحة، يشعر به من رؤية موظف فرنسي هام جاء يلاقيهم في عربة خفيفة يجرها جوادان، يقودها جندي، ومن أصوات موسيقى عسكرية جذابة تتصاعد من الجانب الأيسر من ساحة العذارى. بل إنه شعر به بصورة خاصة وتفهمه، منذ أن جاء الضابط الفرنسي والقائمة في يده، يتفقد السجناء.

ولقد أوقف پيار من قبل جنود عاديين واقتيد من مكان إلى آخر مع عشرات من المساجين فكان يمكن نسيانه والخلط بينه وبينهم. ولكن لا، أبداً! إنّ أجوبته التي أدلى بها في الاستجواب الأول بقيت تشير إليه لقد كان: الذي يرفض ذكر اسمه. فكانوا يسوقونه الآن إلى مكان ما تحت ذلك الميسم الذي يخفيه. ما كان يشك من مظهر المواكبين المطمئن، أن السجناء الآخرين وهو بينهم، هم أنفسهم الذين يحتاجون إليهم وأنهم يقودونهم إلى حيث يجب سوقهم، فأحس پيار بأنه ليس إلا قذىً تافهاً سقط تحت عجلة آلة مجهولة ذات تجهيز آلي شديد الإحكام.

قادوا پيار والمتهمين الآخرين إلى ساحة العذارى من جهة اليمين، قريباً

من الدير، وأدخلوهم منزلاً أبيض تحيط به حديقة كبيرة. ذلك كان منزل الأمير تشيرباتوف، حيث جاء پيار غالباً، وحيث كان يسكن، حسب قول الجنود، الأمير ديكموهل.

قادوهم نحو المرقاة ثم أدخلوهم واحداً واحداً. فدخل پيار السادس. اقتادوه عبر الرواق ذي النوافذ الزجاجية والردهة والدهليز التي كانت كلها مألوفة لدى پيار، حتى بلغوا به مكتباً طويلاً منخفض السقف وقف أمام بابه مساعد عسكري.

كان داڤو جالساً إلى طاولة عند الجانب الآخر من الغرفة وعلى أنفه نظارتان. اقترب پيار فسأل داڤو بصوت خفيض دون أن يرفع عينيه عن الورقة المنشورة أمامه التي بدا شديد الانشغال بها: «من أنت؟».

لزم پيار الصمت وهو عاجز عن النطق بكلمة. لم يكن داڤو بالنسبة إليه جنرالاً فرنسياً فحسب، بل كان رجلاً مشهوراً بقسوته. كان وجه داڤو يذكر الناظر إليه بسحنة أحد التربويين القساة وهو ينتظر هنيهة الجواب المطلوب. وكان پيار يعرف أن كل دقيقة تردد يمكن أن تكلفه حياته. مع ذلك، فإنه لم يكن يعرف ماذا يقول. بدا له أن تكرار ما قاله خلال الاستجواب الأول نوع من السخف المضحك، كما أن إعلان اسمه ومركزه الاجتماعي، عار وخطر في الوقت نفسه فالأفضل أن يلزم الصمت. لكن داڤو لم يترك له الوقت لاختيار الجهة التي يتشيع لها، إذ رفع رأسه ورفع نظارتيه إلى جبينه وراح يتأمل پيار محدقاً وهو يطرف بعينيه.

قال بصوت موزون كاف للتأثير في پيار.

ـ إنني أعرف هذا الرجل.

سرى البرد في ظهر پيار ثم شعر بأن صدغيه كأنهما بين فكي كلّابة.

ـ يا سيدي الجنرال، لا يمكنك أن تعرفني لأنني لم أرك قط..

قاطعه داڤو وهو يخاطب جنرالاً آخر كان هناك لم يلاحظ پيار وجوده:

ـ إنه جاسوس روسي.

وأدار داڤو له ظهره. وفجأة شعر پيار بلسانه ينطلق فبدأ يتكلم بطلاقة:

قال وهو يذكر فجأة أن داڤو أمير:

ـ كلا يا صاحب السعادة، كلا يا صاحب السعادة، لم يتح لك أن تعرفني. إنني ضابط في فرقة المتطوعين ولم أغادر موسكو.

ردد داڤو: اسمك؟

ـ بيزوخوف.

ـ ما الذي يبرهن لي بأنك لا تكذب؟

فأجاب پيار بصوت فيه توسل أكثر مما فيه من شعور بالمهانة:

ـ يا صاحب السعادة!

رفع داڤو رأسه ومن جديد حدق إلى وجه پيار: تبادلا النظر بضع ثوان فكان هذا هو الذي أنقذ پيار. لقد مرت نظراتهما فوق مسائل الحرب والعدالة لتعود مجدداً نظرات رجلين وقفا متقابلين. ولقد شعر كلاهما خلال بضع ثوان بألف شيء شعوراً مبهماً وأدركا أنهما من أبناء الإنسان، أخوان.

في الفترة الأولى، عندما رفع داڤو رأسه عن قائمته التي تشير إلى مصائر عدد من الآدميين بأرقام، لم يكن پيار بالنسبة إليه إلا شيئاً ما، فكان يستطيع أن يأمر بإعدامه دون أي تبكيت من ضميره. أما الآن، فقد أصبح يرى فيه الإنسان. ظل فترة مفكراً ثم قال ببرود:

ـ كيف تثبت لي حقيقة ما تقول؟

تذكر پيار دو رامبال، فأشار إلى اسم ذلك الرئيس الفرنسي واسم فوجه والشارع الذي يسكن فيه. فكرر داڤو: إنك لست من تزعم.

فقدم پيار بصوت متهدج مرتجف متقطع الأدلة على قوله.

وفي تلك اللحظة، جاء المساعد العسكري ينهي إلى داڤو شيئاً ما.

أشرق وجه هذا بالأنباء التي حملها له المساعد العسكري فلم يلبث أن زرَّ سترته ومضى دون أن يأبه بعد ذلك لپيار.

ولما ذكره المساعد العسكري بسجينه، قطب حاجبيه وأشار برأسه نحو پيار ثم أمر بأخذه. ولكن، إلى أين وجب أن يسوقوه؟ لم يكن پيار يعرف شيئاً: هل يأخذونه إلى مستقره القديم أم إلى المكان المعد لتنفيذ حكم الإعدام الذي أروه موقعه في ساحة العذراء؟

أدار رأسه، فرأى المساعد العسكري يسأل داڤو فأجاب هذا: نعم! بلا ريب!

ولكن ما معنى نعم تلك وكيف يخمن معناها؟

لم يذكر قط كم سيروه من الوقت وإلى أين أخذوه. لقد كان في حالة من التبلد وفقدان الشعور حتى إنه لم يكن يرى ما حوله. لقد بقي يضع قدماً أمام أخرى مادام وجب أن يمشي. ولما وقفوا، توقف بدوره. ظلّت فكرة واحدة مستقرة في رأسه. من، من هو الذي حكم عليه؟ لا بدَّ وأنهم ليسوا أولئك الناس الذين استجوبوه بادئ الأمر. ما من أحد منهم كان يريد ذلك أو يقدر عليه. كذلك لم يكن داڤو الذي نظر إليه بحقد. لو أن دقيقة أخرى انقضت لفهم داڤو أنهم مخطئون باتهامه، فكان المساعد العسكري بدخوله حينذاك، هو الذي منع حدوث ذلك. لكن هذا المساعد العسكري نفسه لم يكن هو الآخر يريد به شراً. لكنه كان يستطيع أن يمتنع عن الدخول. وإذن، من، من هو الذي أراد له أن يموت، أراد أن يحرمه الحياة والآمال والأفكار؟ من كان يريد ذلك؟ أحس پيار بأن ما من أحد كان يريده.

لقد كان ذلك هو النظام القائم وتضافر الظروف.

لقد حكم عليه النظام القائم بالموت، هو، پيار. إنه ينتزع منه الحياة، إنه يسلبه كل شيء، إنه يبيده.

الفصل الحادي عشر

من منزل الأمير تشيرپاتوف، اقتيد السجناء إلى أسفل ساحة العذارى إلى يسار الدير ومن هناك إلى بستان خضر غرس فيه عمود. ووراء العمود حفرة كبيرة وقد تناثر التراب الندي وتراكم حولها. وبالقرب من الحفرة والعمود، تجمّع جمهور غفير على شكل نصف دائرة. وكان ذلك الجمهور الذي ظهر فيه بعض الروس، يتألف في غالبيته من جنود عاطلين تابعين لجيش ناپليون، فكان بينهم ألمانيون وإيطاليون وفرنسيون في أزياء مختلفة. وإلى يسار الوتد وعن يمينه، وقفت فرقة فرنسية مسلحة يرتدي أفرادها المعاطف الزرقاء ذات الشارات الحمراء على الكتفين، والرانات والعمرات.

صفوا المحكومين تبعاً لترتيبهم على القائمة، وپيار السادس، ثم قادوهم نحو العمود. وفجأة انبعث قرع طبول من كل جهة فأحس پيار حيال هذا الدوي بأن قلبه يتمزق. فقد ميّزه التفكير والتذكر فلم يعد مستبقياً في خدمته إلا عينيه وأذنيه. لم تبق لديه إلا رغبة واحدة، الخلاص بأسرع ما يمكن من ذلك الشيء المريع الذي يوشك أن يحدث. مع ذلك، فقد جال بطرفه في وجوه رفاقه وراح يتأملهم.

كان للاثنين الأولين رأسان حليقان يشبهان رؤوس المحكومين بالأشغال الشاقة. الأول طويل، نحيل، والآخر أسمر شعراني، عاضل، ذو أنف أفطس. وكان الثالث خادماً تجاوز الأربعين، بدأ الشيب يخالط شعره، تدل هيئته على حسن التغذية. وكان الرابع قروياً جميلاً ذا لحية منبسطة مستديرة وعينين

سوداوين، بينما كان الخامس عاملاً في شرخ الشباب، فتى لم يتخط الثامنة عشرة ذا لون صفراوي وجسم ضعيف، يتدثر برداء فضفاض طويل.

سمع پيار الفرنسيين يتساءلون عن الطريقة التي سينفذون بواسطتها الحكم بالمحكومين، واحداً فواحداً أم اثنين اثنين. أجاب الضابط ببرود حازم «اثنين اثنين»، فقامت حركة بين صفوف الجنود: كان واضحاً أنهم مستعجلون. لكن عجلتهم لم تكن تشبه عجلة الأشخاص الماضين لأداء مهمة معروفة منهم جميعاً بل كانت عجلة من يريد إنجاز عمل ضروري ولكنه مع ذلك منفر ومكروه.

وقف موظف فرنسي يحيط ذراعه بشارة، إلى يمين رتل المحكومين وقرأ الحكم بالروسية والفرنسية.

ثم، بناء على إشارة من الضابط، جاء أربعة جنود أحاط كل اثنين منهم بواحد من المحكومين اللذين كانا على رأس الصف. أسكنت حركة المحكومين بشدهما إلى العمود، فراحا ينظران حولهما خلال الوقت الذي استغرقه وصول من ذهبوا للمجيء بالأكياس، نظرة الحيوان المشوش الذي يرى الصياد يقترب منه. توقَّف أحدهما عن رسم إشارة الصليب بينما انصرف الآخر يحك ظهره وقد علا وجهه ما يشبه الابتسامة. عصب الجنود عيونهما وألبسوهما كيسين ثم ربطوهما إلى العمود بحركات سريعة.

خرجت من الصفوف مفرزة من الجنود تعدادها اثنا عشر جندياً ومشت بخطى موقّعة، ووقف الرجال على بعد ثماني خطوات من العمود، فأدار پيار رأسه كي لا يرى ما سيحدث. وفجأة دوى انفجار خيل إلى پيار أنه أقوى من أشد الرعود هولاً فعاد ينظر من جديد. رأى دخاناً وفرنسيين شاحبي الوجوه ترتجف أيديهم وهم منصرفون إلى عمل ما على حافة الحفرة. قدموا الاثنين التاليين فنظرا حولهما بمثل عيون المحكومين الأولين دون أن يصدقا ما

سوف يقع لهما أو يفهما. ما كانا يستطيعان تصديقه لأنهما وحدهما يعرفان قيمة الحياة بالنسبة إليهما فما كانا يستطيعان أن يفهما ولا أن يصدقا أنهم سينتزعون الحياة منهما.

أشاح پيار بوجهه مجدداً كي لا يرى، ومن جديد، دوى انفجار مريع مزق الآذان، ومن جديد، شاهد پيار حين الانفجار بالذات، دخاناً ودماء ووجوه الفرنسيين الممتقعة وهم منصرفون إلى العمل قرب الحفرة، يتدافعون بالمناكب حول العمود، بأيديهم المرتجفة. نظر پيار حوله لاهث الأنفاس وكأنه يسأل: «ولكن، ما معنى كل هذا أخيراً؟» فكان السؤال نفسه يقرأ في كل النظرات التي تلاقت مع نظراته.

فعلى وجوه الحاضرين جميعاً، من روس وجنود فرنسيين وضباط، على كل الوجوه دون استثناء، قرأ الهول نفسه والذعر نفسه والصراع نفسه الذي يعتلج في أعماق قلبه. «ولكن أخيراً، من المسؤول؟ إنهم جميعاً يتألمون بقدر ما أتألم. فمن هو إذن؟ من؟» ولقد سرت هذه الفكرة في رأسه كومض البرق.

صاح أحدهم:

ـ رماة السرية السادسة والثمانين، إلى الأمام!

وقدموا الخامس وحده الذي كان واقفاً إلى جانب پيار فلم يدرك هذا الأخير أنه قد نجا وأنه وكل الباقين معه لم يساقوا إلى هناك إلا لحضور تنفيذ الحكم فحسب. بقي ينظر إلى ما يقع بهول آخذ بالازدياد دون أن يشعر بفرح أو براحة. كان المحكوم الخامس هو العامل ذا الرداء الفضفاض. لم يكادوا يلمسونه حتى قفز من موضعه وتشبث بپيار. فانتفض پيار وحاول أن يزيحه عنه. كان العامل يزمجر ويرفض التقدم فأمسكوا به من تحت إبطيه وجروه جراً. فلما قيدوه إلى العمود، سكت فجأة. بدا عليه أنه فهم أخيراً. فهل كانت صرخاته غير مجدية أم أنه يستحيل أن يورد مورد الهلاك؟ على أية حال، لقد

وقف ينتظر أن يشد وثاقه مع آخر وراح ينظر حوله بعينيّ الحيوان الجريح البراقتين.

لم يستطع پيار، هذه المرة، الإشاحة بوجهه وإغماض عينيه إذ بلغ الفضول والتأثر اللذان أخذ يشاطر ذلك الجمهور الإحساس بهما، الذروة أمام هذه الجريمة الخامسة. بدا المحكوم الخامس ككل الذين سبقوه، هادئاً فكان متدثراً بردائه يفرك قدميه الحافيتين، إحداهما بالأخرى.

وعندما عصبوا عينيه، سوى بنفسه العقدة التي بدا وكأنها تؤلم قذاله. ثم، عندما أسندوه إلى العمود الملوث بالدم، مال إلى الوراء. ولما كانت تلك الوضعية غير ملائمة بالنسبة إليه، فقد انتصب وجعل قدميه الحافيتين في وضع مستقيم واستند بهدوء. ولم تفت پيار حركة واحدة من حركاته، وهو الذي لم يغادره بعينيه.

لا شك أنهم سمعوا أمراً. وبعد ذلك الأمر، انطلقت ثماني بنادق معاً. لكن پيار لم يسمع أي انفجار رغم ما بذله فيما بعد للتذكر. رأى العامل ينهار في وثاقه ثم ظهر الدم من موضعين، وتمدد الحبل جراء ثقل الجسد، أما الرجل، فقد انحنى رأسه انحناء شديداً وانطوت ساقاه تحته ثم سقط. جرى پيار إلى العمود فلم يستوقفه أحد. تكأكأ حول العامل أشخاص ممتقعو الوجوه يبدو الذعر على قسماتهم. وكان فك الجندي الفرنسي العجوز الأسفل يرتعش وهو يفك الحبل. وانهار الجسد. فبادر الجنود بخرق يجرونه وراء العمود ويقذفون به إلى الحفرة.

كانوا جميعاً يشعرون بشكل واضح بأنهم مجرمون تستبد بهم حاجة إخفاء آثار جريمتهم بأسرع ما يمكن.

نظر پيار إلى الحفرة، فرأى العامل مسجى وركبتاه على مستوى رأسه تقريباً، وإحدى كتفيه أكثر ارتفاعاً من الأخرى. ورأى تلك الكتف ترتفع

وتنخفض بحركات تشنجية، لكن المجارف راحت تهيل التراب ملء راحتها فوق الجسد. وصاح أحد الجنود ببيار يطلب إليه التراجع بصوت محنق ساخط. لكنه لم يفهم، بل ظل واقفاً قرب العمود فلم يطرده من هناك أحد.

وعندما ردمت الحفرة، تعالى أمر فأعادوا بيار إلى صفه، وراح الجنود القائمون على جانبي العمود يسيرون بخطى موقّعة بعد أن استداروا نصف دائرة أما الرماة الأربعة والعشرون الذين كانوا وسط الدائرة، والذين أفرغوا بنادقهم فقد أسرعوا جميعاً راكضين لاستعادة أماكنهم في الصفوف عندما تمر سريتهم بالقرب منهم.

راح بيار الآن يحدق بعينيه دون أي تفكير في الجنود الذين أخذوا يغادرون عمود الإعدام مثنى مثنى وهم يركضون. لقد لحقوا جميعهم بسريتهم باستثناء واحد. كان هذا جندياً فتياً على صفرة قاتلة وقد انزلقت عمرته على قذاله، بينما كانت بندقيته بحذاء قدمه. ظل هذا جامداً في المكان الذي أطلق منه النار قبالة الحفرة. كان يترنح كالرجل الثمل وهو يقدم خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء كي يحافظ على توازنه. فخرج صف ضابط مسن من الصف أمسك بكتفيه وأعاده إلى سريته. وأخذ جمع الروس والفرنسيين يتبدد. لقد ذهبوا جميعاً وقد أطرق كل منهم برأسه. وصاح أحد الفرنسيين:

ـ إنّ هذا يعلمهم كيف يشعلون الحرائق.

نظر بيار إلى ذلك الذي تكلم فوجد أنه جندي راح يبحث عن عذر لما حدث منذ حين بغية تهدئة خاطره دون أن يوفق في إيجاد العذر. على أية حال لم يضف قولاً آخر إلى ما قال بل ندت عنه حركة تدل على اللامبالاة وانصرف.

الفصل الثاني عشر

فصل پيار عن الموقوفين الآخرين، بعد تنفيذ حكم الإعدام، وسُجن وحيداً في معبد متهدّم ملؤه القذارة.

وحوالى المساء، دخل صف ضابط من الحرس يصحبه جنديان وأعلن لپيار نبأ العفو عنه وأنه يجب أن ينتقل إلى مبنى خُصص لأسرى الحرب. فنهض پيار دون أن يفهم ما يُقال له وتبع حرسه. قادوه إلى أحد أبنية المدن من ألواح الخشب والأعمدة المنتزعة من أنقاض الحريق، أقيمت في أعلى حصن. أحاط به في الظلام ما يقرب من عشرين شخصاً فنظر إليهم پيار دون أن يعرف من هم وماذا يفعلون هناك وماذا يريدون منه. سمع الكلمات التي يتفوهون بها لكنه بقي عاجزاً عن استخلاص شيء منها إذ لم يكن يفهم معناها. مع ذلك، فقد أجاب عن الأسئلة التي وجهت إليه دون أن ينتبه إلى أنهم مصغون إليه وأن أجوبته ستحمل على مختلف المعاني. كان ينظر إلى وجوه وأجساد فكان كل شيء يبدو له مسلوباً من المعنى.

منذ أن حضر پيار ذلك القتل المريع الذي ارتكبه رجال لم تكن بهم أية رغبة في ارتكابه، بدا المحور الذي ترتكز حوله حياته وتقوم، كأنه استسلم فجأة وكأن كل شيء قد انهار ركاماً من الشظايا لا شكل له. لقد زال إيمانه بالانسجام العام والإنسانية وبروحه نفسها وبالله، دون أن ينتبه إلى ذلك لقد أحس من قبل بمثل هذا الإحساس، لكنه لم يكن إطلاقاً بمثل هذا العنف. كان فيما مضى، يلوم نفسه كلما اعتلجت فيها مثل هذه الشكوك، ويشعر في أعماق

نفسه أنه سينتهي به الأمر إلى إيجاد سبيل الخلاص من خلال يأسه وشكوكه. أما الآن، فإنّ العالم هو الذي ينهار دون أن يكون له دخل فيه، العالم الذي تحوّل أمام عينيه ركاماً من الخرائب. لذلك أحس بأنه ليس في طوقه استعادة إيمانه بالحياة.

أحاط به أناس في الظلام. لا شك أنهم شديدو الاهتمام بوجوده بينهم. إنهم يريدون له شيئاً ما ويسألونه. ثم اقتاده بعضهم وأجلسوه في زاوية بين رجال أخذوا يتنادون من كل الزوايا وهم يضحكون.

قال صوت من الجانب المضاد وهو يضغط على كلمة الذي: «ها هو ذا أيها الإخوان... ها هو ذا الأمير الذي..».

جلس پيار صامتاً دون حراك على القش مستنداً إلى حاجز المبنى وأخذ يفتح عينيه ويغلقهما. كان لا يكاد يغلقهما حتى يرى وجه العامل المخيف بصورة خاصة في بساطته ووجوه قتلته غير الإراديين أشد هولاً كذلك في الاضطراب المستولي عليه ثم كان يفتح عينيه ويلقي حوله نظرات تائهة.

جلس إلى جانب پيار رجل قصير القامة، لاحظ پيار وجوده فوراً إلى جانبه بسبب رائحة العرق الشديدة التي كانت تفوح منه لدى كل حركة من حركاته. وكان ذلك الرجل يعمل شيئاً ما بقدميه في الظل فلم يكن پيار يرى وجهه. لكنه كان يشعر بعينيه الشاخصتين إليه، أخيراً أدرك پيار أنه إنما يخلع جوربه، فأثارته الطريقة التي سلكها في هذا السبيل.

لفّ بحذق عصابته الكتان التي تحيط بإحدى قدميه بعد أن فكّ الخيط الذي يربطها ثم اهتم بقدمه الثانية دون أن يكف عن تأمل پيار. وبينما راح يعلق الخيط بمسمار بإحدى يديه، أخذ باليد الأخرى يحل عصابة القدم الأخرى. وهكذا خلع جوربيه بحذاقة وبحركات دقيقة ناجحة منسقة لا بطء فيها، وعلق حذاءيه إلى وتد مغروس فوق رأسه ثم أخذ سكينه فقطع به شيئاً ما ثم

أغلقه ووضعه تحت فراشه من جهة الرأس، وأخيراً جلس بوضع أكثر إراحة وأحاط ركبتيه المرقوعتين بذراعيه وراح يتأمل پيار محدقاً إلى وجهه. شعر هذا الأخير بشيء مطمئن متآلف في حركات هذا الرجل المنظم الذي يرتب شؤونه المنزلية في زاويته الصغيرة تلك. بل إن رائحته النفاذة نفسها لم تنفره، فراح هو الآخر ينظر إليه محدقاً.

قال قصير القامة فجأة:

ـ لا شك أنك شاهدت بعضها، أليس كذلك يا سيدي؟

كان لصوته الغنائي انعطاف مهدهد وبساطة قصوى حتى أن پيار أراد أن يجيبه. لكن فكه راح يرتجف واغرورقت عيناه بالدموع. لم يترك له الرجل الصغير وقتاً لإظهار خزيه إذ قال على طريقة الفلاحات الروسيات العجائز الحانية الرخيمة:

ـ إيه! لا تغتم يا قلبي الصغير! لا تغتم يا عزيزي. إنه لا شيء. فترة رديئة يجب قضاؤها! ليس أكثر من هذا يا صديقي الطيب. نحمد الله على أننا ما زلنا أحياء ليس فينا شيء محطم. وإذا كان هناك أناس لا يساوون شيئاً فهناك أناس طيبون.

وركع وهو في سياق الكلام بحركة مرنة ثم وقف وابتعد وهو يسعل. ثم سمع پيار صوته الرخيم صادراً من طرف القاعة الآخر:

ـ آه! أنتذا أيها السافل! ها أنتذا أيها السافل، لقد عدت. كفى، هيا، إلى الأسفل!

وراح الجندي وهو يدفع عنه كلباً صغيراً ملفوفاً بخرقة. قال وهو يستعيد لهجته المحترمة: خذ، كل يا سيدي:

وأخرج من الخرقة بطاطا مشوية في الفرن قدمها إلى پيار وأضاف: لقد قدموا لنا حساء وقت العشاء. ولكن ليس هناك ما يشبه البطاطا!

لم يكن پيار قد تناول شيئاً من الطعام طوال يومه فبدت له رائحة البطاطا لذيذة بشكل خارق. شكر الجندي وراح يأكل فقال هذا وهو يبتسم:

ـ هه ماذا؟ أتأكل البطاطا هكذا؟

وأخذ واحدة وأضاف: هكذا يأكلون.

استعاد سكينه ففتحه وقطع البطاطا اثنتين فوق راحة يده ثم ذرَّ عليهما ملحاً أخرجه من الخرقة وقدمهما لپيار وهو يكرر:

ـ لا شيء مثل البطاطا. جرب هذه.

قال پيار:

ـ إنّ كل الأشياء متساوية عندي ولكن لماذا أعدموا أولئك التعساء!.. إنّ الأخير لم يكن قد بلغ العشرين بعد.

قال الرجل قصير القامة بقوة وكأن الكلمات تتوارد على لسانه من تلقاء نفسها وتفلت من فمه رغماً عنه:

ـ صه!.. صه!.. يجب ألّا تقول هذا...

ثم استرسل: إذن يا سيدي، لقد بقيت هكذا في موسكو؟

قال پيار:

ـ ما كنت أظن أنهم سيصلون بهذه السرعة فبقيت في موسكو بمحض الصدفة.

ـ إذن يا عزيزي، لقد أوقفوك في منزلك؟

ـ كلا. لقد ذهبت أرى الحريق وهناك أوقفوني وحاكموني بوصفي مشعلاً للحرائق.

فرد الرجل قصير القامة:

ـ حيث يكون القضاة تكون المظالم!

سأل پيار بعد أن ابتلع آخر قطعة البطاطا:

ـ وأنت، أنت هنا منذ أمد طويل؟

ـ أنا! لقد أخذوني يوم الأحد من مستشفى موسكو.

ـ وأنت جندي؟

ـ نعم من فوج أبشيرون. كنت أموت من الحمى. لم يقولوا لنا شيئاً. كنا عشرين رجلاً تقريباً ولم نكن نفكر في الأمر ولا نصدقه.

سأله پيار: وهل تشعر بالسأم هنا؟

ـ كيف لا يسأم المرء يا عزيزي؟ إنّ اسمي پلاتون ـ أفلاطون ـ واسم أسرتي كاراتاييف.

وأضاف تسهيلاً لعلاقته بپيار:

ـ ولقد لقبوني في الفوج بالصقر الصغير. آه! كيف لا أسأم! إنّ موسكو أم مدننا! كيف لا نسأم من رؤية هذا. نعم، لكن الدودة التي تنخر القُنَّبيط تموت أولاً.

وأردف بحميا: نعم، كذلك يقول أسلافنا.

سأل پيار:

ـ ماذا، كيف قلت؟

فأجاب كاراتاييف الذي ظن أنه يردد المثل نفسه:

ـ أنا؟ أقول: ليس لنا نحن أن نحكم، إنه عمل الله.

ثم استرسل دفعة واحدة:

ـ إذن يا سيدي، أنت ذو أملاك؟ منزل؟ كل شيء برخاء؟ وربة منزل؟ وأبواك، أما زالا على قيد الحياة؟

لم يكن پيار يراه في الظلام. لكنه كان يحس بأن شفتي الجندي تنطويان في ابتسامة ودودة بينما هو يطرح أسئلته. ولقد اغتم بوضوح عندما علم أن پيار فقد أبويه وخصوصاً أمه فقال:

ـ إنّ الزوجة للنصيحة الطيبة، والحماة للاستقبال الحسن. ولكن ما من شيء يوازي أماً حانية!

ثم سأل أيضاً: وهل لديك أطفال؟

اضطرب من جديد لجواب پيار السلبي السريع لأنه بادر إلى القول:

ـ ليس في ذلك ما يسيئ لأنك ما زلت شاباً يمكنك والحمد لله أن تنجب أطفالاً. المهم هو حسن التفاهم...

قال پيار بالرغم منه: إن كل الأشياء الآن متساوية عندي!

فردَّ پلاتون:

ـ إيه يا رجلي الباسل. إنّ الحرية والخروج من السجن، شيئان لا يرفضان.

جلس في شكل مريح وسعل فبان عليه أنه يستعد لحديث طويل، بدأ يقول:

ـ أجل يا صديقي العزيز، إننا نسكن جميعنا معاً. إن ملكنا واسع ولدينا أراض كثيرة، والفلاحون يعيشون عيشة راضية ونحن كذلك، والحمد لله! لقد كنا ستة حصادين حول أبينا. نعم، كنا نعيش عيشة طيبة وكنا مسيحيين طيبين. وهذا ما جرى لنا...

روى پلاتون مطولاً كيف ذهب يقطع الخشب في غابة جاره فأمسك به حارس وهناك ضربوه بالعصي ثم حاكموه وأرسلوه جندياً عقاباً له.

واسترسل بصوت يبدل ابتسامته:

ـ إيه، ماذا يا عزيزي، إنك تعتبر هذا شقاء، وهو سعادة. كان على أخي أن يذهب جندياً لو لم أرتكب خطيئتي. ولأخي أربعة أطفال أما أنا، فلم أترك إلا زوجتي. صحيح أنني رزقت طفلة لكن الله استردها مني قبل أن أذهب إلى الجندية. يجب أن أقول إنني عدت ذات مرة مأذوناً، فماذا رأيت؟ إنهم ما زالوا يعيشون أفضل من ذي قبل. إنّ الفناء مليء بالحيوانات والنساء يقمن بشؤون

المنزل واثنين من إخوتي يعملان خارج القرية، وليس هناك إلا ميكائيل، الأصغر سناً. ولقد قال لي أبي: «إنّ أولادي كلهم متساوون في نظري إذ إن المرء يشعر بالألم أيّاً كانت الإصبع التي تُعضّ. ولو أنهم لم يأخذوا پلاتون لكان على ميكائيل أن يذهب جندياً». هل تصدقه؟ لقد استقدمنا جميعاً أمام الصور المقدسة وقال: «ميكائيل، تقدم، انحنِ أمامه، وكذلك زوجك وأولادك أيضاً، هل فهمتم؟» هذا هو المعنى يا عزيزي. إنّ القدر ينتقي ما يعجبه. بينما نحن هنا في سبيل إصدار الأحكام دائماً: هذا جيد وهذا سيئ... إنّ سعادتنا يا عزيزي أشبه بالماء في الشبكة: يجرها المرء فتنتفخ فإذا ما أخرجها بدت فارغة. هو كذلك!

وسكت پلاتون وقد غاص في قشه.

وبعد لحظة صمت وقف وقال:

ـ حسناً، أظن أن الرغبة في النوم تستبد بي.

وراح يرسم شارة الصليب مسرعاً وهو يدمدم:

ـ أيها الرب يسوع المسيح، يا قديس نيكولا، يا قديس فلور، يا قديس لوران! أيها الرب يسوع المسيح إرأف بنا وأنقذنا!

ولما انتهى من صلاته، عاد يجلس على القش ونطق قبل أن يستلقي ويتدثر بمعطفه:

وهكذا! أيها الرب! اجعلني أنام كقطعة من الحجر واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد!

سأله پيار: أية صلاة هي هذه التي تلوتها؟

فقال پلاتون وقد بدأ ينام فعلاً:

ـ ماذا؟ ماذا تلوت؟ لقد صلّيت إلى الله. وأنت، ألا تصلّي؟

فقال پيار:

ـ بلى، إنني أصلّي أنا الآخر. ولكن لماذا قلت: يا قديس فلور، يا قديس لوران؟

أجاب پلاتون بحميا:

ـ لماذا؟ لأنهم حفظة الجياد ويجب أن يفكر المرء في الحيوانات... انظر إلى هذه، يا للسافلة، لقد تكورت كالكرة.

وأضاف وهو يلمس الكلب النائم على ساقيه:

ـ يا لها من دافئة هذه القذرة.

ثم استدار على جنبه الآخر ولم يلبث أن غفا.

وفي الخارج، في مكان بعيد، كان بعضهم يبكي ويصرخ، بينما كانت النار ترى من خلال الجدران الخشبية. ولكن كل شيء كان ساكناً في الداخل ومظلماً. بقي پيار فترة طويلة مستلقياً دون حراك وعيناه مفتوحتان في الظلام. كان يستمع إلى پلاتون الذي كان يشخر بإيقاع وهو مستلق بجانبه ويشعر بأن العالم الروحي الذي انهار منذ حين في سريرته بدأ يقوم من جديد على قواعد أخرى، قواعد جديدة كلياً، لا تتزعزع في جمالها.

الفصل الثالث عشر

ثلاثة وعشرون جندياً أسيراً وثلاثة ضباط وموظفان، كانوا في البناء الخشبي الذي اقتيد إليه بيار وبقي فيه أربعة أسابيع.

لم يترك هؤلاء كلهم في ذهنه إلا أثراً مبهماً باستثناء پلاتون كاراتاييڤ الذي انطبع في ذاكرته إلى الأبد بوصفه أقوى ذكرى وأثمنها، وبوصفه المثال الحي لكل ما هو روسي، لكل ما هو جيد ومنسجم. وعندما رأى أخيراً جاره فجر اليوم التالي، أيقن في نفسه إحساسه الأول بالتناسق والانسجام. فكل شخصية پلاتون، في معطفه الفرنسي المخصور بقطعة حبل وقبعته ذات الحافة وحذاءيه المصنوعين من قشر القنب كانت منسجمة. وكان رأسه كرة حقيقية وظهره وصدره وكتفاه بل وذراعاه أيضاً اللتان لم يكن يكف عن أرجحتهما وكأنه يستعد لتلقف شيء ما، مستديرة كلها وكذلك ابتسامته الأنيسة وعيناه القاتمتان الهادئتان.

لا شك، أن پلاتون كاراتاييڤ تجاوز الخمسين من عمره، إذا روعي في ذلك ما يرويه عن المعارك التي ساهم فيها. إنه نفسه لا يعرف عمره ولا يستطيع ذكره يقيناً. لكن أسنانه الجميلة ناصعة البياض التي يكشف عن صفين منها كلما ضحك، وهو كثيراً ما يضحك، كانت متينة وسليمة. ولم تكن هناك شعرة بيضاء واحدة في لحيته أو في رأسه. وكان جسمه ينطق بالمرونة بل بأكثر من ذلك: بالقوة والجلد.

وعلى الرغم من بعض الغضون المحيطة بعينيه، كان وجهه يعكس البراءة

والشباب، وبقي صوته لطيفاً عذباً. لكن الشيء الأكثر استلفاتاً فيه، كان نسق كلامه البديهي، فيبدو وكأنه لا يفكر أبداً في ما سيقوله. لذلك كانت سرعته في الكلام ودقة ألفاظه ونطقه تعطيه مزية إقناع على جانب كبير من التأثير.

بلغت مقاومته البدنية واندفاعه حداً لم تبد عليه معه خلال أيام أسره الأولى أية بادرة تعب أو مرض. كان يردد في كل صباح وكل مساء عند النوم: «أيها الرب، اجعلني أنام كقطعة من الحجر واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد». وفي الصباح عندما ينهض، كان يقول وهو يمارس حركة لا تتبدل من كتفيه: «عندما يستلقي المرء، ينطوي على نفسه كالكرة، وعندما ينهض، ينفض نفسه». والحقيقة أنه لا يكاد يستلقي حتى ينام كقطعة من الحجر ثم لا يكاد ينتفض حتى يزاول عملاً ما دون أن يتوانى ثانية واحدة، أشبه بالأطفال الذين لا يكادون يستيقظون حتى يعودوا إلى ألعابهم.

وكان يحسن كل شيء، وإن لم يكن ذلك بشكل كامل، فأقله، بطريقة لا بأس بها. كان يطهو ويخيط وينجز ويرتق الأحذية. وكان دائم الانشغال، لا يسمح لنفسه بالثرثرة والغناء اللذين يميل إليهما كثيراً، إلا عندما يخيم الظلام. ثم إنه لا يغني على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن الناس يصغون إليهم، بل على طريقة الطيور، فكان بث الأنغام بالنسبة إليه، شيئاً لا مندوحة عنه كالتمطي أو السير. وحينئذٍ يتخذ وجهه أمارات رزينة. وأياً كان الصوت الذي يخرج من حنجرته، لم يكن يخلو من شيء حنون رخيم وحزين.

وعندما أصبح أسيراً ونبتت لحيته مجدداً، بدا أنه تخلص بشكل واضح من كل مظهر غريب وعسكري مفروض، ليعود رغماً عنه، ذلك القروي السابق، ابن الشعب.

كان يقول: «إن الجندي المأذون، يحتفظ بقميصه غير اللائق».

لم يكن يحب التحدث عن أيام خدمته رغم أنه لم يكن يشكو منها، وأنه

ردد غالباً أنهم لم يضربوه مرة واحدة. فإذا بدأ يروي شيئاً تحدث غالباً عن ذكرياته القديمة، العزيزة على نفسه كما يبدو بوضوح، ذكريات الزمن الذي كان فيه «مسيحياً». وهذا هو الاسم الذي يطلقه على القروي. لم يكن للأمثال التي تزين أحاديثه أية رابطة مع العبارات البذيئة غالباً والخلاعية التي يألفها الجنود، بل كانت دائماً أحكاماً شعبية إذا أخذت معزولة عن الحديث، فقدت كل معناها فلا تحوي على معنى شديد العمق إلا إذا أوردت في مناسباتها.

غالباً ما كان يحدث له أن يناقض نفسه. مع ذلك، فإن ما يقوله كان دائماً صحيحاً. كان يحب الكلام ويحسن التعبير، يزين أحاديثه بأسماء تصغير ممالقة وبأمثال ينسجها حسب الاقتضاء، كما خيل إلى پيار، لكن الفتنة في أحاديثه كانت تنبعث من الحوادث الأكثر بساطة، الحوادث التي يراها پيار دون أن يعيرها أي التفات، والتي تأخذ في فمه طابعاً من العظمة الحقيقية. وكان يحب الإصغاء إلى الأحدوثات (وهي لم تكن لتتبدل قط) التي يرويها أحد الجنود عند المساء، ويفضلها على كل أقاصيص الحياة الواقعية. فإذا ما أصغى إلى تلك الأحدوثات، ارتسمت على وجهه ابتسامة فرح، وعلّق عليها بكلمة أو طرح سؤالاً، دلالة على أن عقله ميال إلى البحث عن الجانب الخلقي فيما يروى على مسامعه. لم يكن يعرف التعلق ولا الصداقة ولا الحب على الطريقة التي يفهمها پيار. لكنه كان يحب كل إنسان ويعيش عيشة ودية مع كل الذين تقحمهم الحياة في سبيله، ليس مع هذا وذاك من الرجال، بصورة خاصة، بل مع كل الرجال الذين يقع نظره عليهم. وكان يحب كلبه وزملاءه والفرنسيين ويحب پيار الذي هو جاره، لكن هذا الأخير كان يشعر بأن كاراتاييڤ رغم كل الكلمات الممالقة التي يوجهها إليه، والتي كانت تكريماً غير إرادي لصفات زميله الخلقية لا يمكن أن يغتم دقيقة واحدة بسبب ذهابه. وعلى ذلك، راح پيار يشعر تجاه كاراتاييڤ بأحاسيس مماثلة.

كان پلاتون كاراتاييف جدياً عادياً تماماً بالنسبة إلى كل السجناء الآخرين فكانوا ينادونه تارة: الصقر الصغير، وطوراً پلاتون، ويمازحونه في غير خبث ويوفدونه في سخرات. أما بالنسبة إلى پيار، فقد ظل ووجب أن يظل، كما رآه في الليلة الأولى، مثالاً مفعماً منيعاً للبساطة والصراحة.

لم يكن پلاتون كاراتاييف يحفظ شيئاً عن ظهر قلب باستثناء صلاته. فإذا ما بدأ برواية قصة، بدا وكأنه لا يعرف كيف سينهيها.

وأحياناً عندما كان پيار يدهش لعمق غور أقواله فيطلب إليه أن يعيدها، كان پلاتون لا يستطيع تذكر ما قاله منذ حين كما لا يستطيع بالمثل أن يقول لپيار كلمات أغنيته المفضلة. كانت تلك الأغنية تبحث عن «السندر، أخي الصغير» وعن «القلب الذي يؤلمني»، لكنها تفقد معناها إذا قيلت كلاماً.

ولم يكن پلاتون يفهم كما لم يكن يستطيع أن يفهم قيمة كلمة مأخوذة وحدها. فكل كلمة من كلماته وكل بادرة، كانت ظاهرة خارجية لذلك النشاط اللاشعوري الذي هو حياته. وحياته، كما كان يحس بها، كانت تبدو خالية من كل معنى إذا أخذت على اعتبارها حياة شخصية، وتأخذ معنى إذا باتت جزءاً من كل، لا يني يشعر به. كانت كلماته وتصرفاته تصدر عنه بمثل الانتظام والامتثال للضرورة والبديهية التي يخضع لها أريج زهرة. لكن پلاتون لم يكن يستطيع أن يفهم قيمة فعل أو كلمة أو معناهما إذا أخذا مستقلين.

الفصل الرابع عشر

بدأت الأميرة ماري تعد العدة للرحيل، رغم معارضة خالتها، عندما عرفت من نيكولا أن أخاها موجود لدى آل روستوف في ياروسلاڤل. وأرادت كذلك أن تصحب ابن أخيها معها. لم تكن تتساءل بل لم تكن تريد أن تعرف ما إذا كان عزمها ممكناً أو حتى ممكن التنفيذ. لم يكن واجبها الذهاب إلى قرب أخيها الذي قد يكون على وشك الموت فحسب، بل أن تعمل على إيصال ابنه إليه، لذلك قررت أن تذهب. وإذا لم يكتب لها الأمير أندريه، فقد راحت تفسر ذلك بأنه شديد الضعف لا يستطيع الكتابة أو أنه يرى السفر الذي ستقوم به مع ابنه طويلاً جداً وشاقاً وخطيراً جداً.

أصبحت خلال بضعة أيام مستعدة للرحيل، فكانت عدتها للسفر عربة الأمير «البرلين» الفسيحة التي استعملتها في السفر إلى ڤورونيج وبعض عربات النقل وعربات الخيزران الخفيفة. وكانت تعتزم اصطحاب الآنسة بوريين ونيكولا الفتى ومربيه والمرضعة العجوز وثلاث خادمات وتيخون ووصيف شاب وحارس قدمته خالتها لمواكبتها.

كان يجب ألّا تفكّر في اتباع الطريق العادي الذي يمر في موسكو. أما الطريق غير المطروق الذي يمر بليپتسك وريازان وڤلاديمير وشوابا، فكان يطيل المسافة ويزيد في المصاعب بسبب فقدان خيول البرد. ولأنه في ضواحي ريازان، كان الفرنسيون يظهرون أحياناً، كما يزعم الناس، فيتعرض المسافر للخطر كذلك.

دهشت الآنسة بوريين وديسال والخدم ومرافقو الأميرة خلال الرحلة الشاقة من جلد ماري ونشاطها. كانت آخر من ينام وأول من يستيقظ، لا توقفها صعوبة. وبفضل هذه الهمة الفعالة دون توان، التي أبقت على معنويات رفاقها بالسفر، استطاعوا أن يبلغوا ياروسلاڤل في نهاية الأسبوع التالي.

عادت الأيام الأخيرة التي قضتها الأميرة ماري في ڤورنيج عليها بأكبر سعادة عاشتها في حياتها. لم يعد حبها لروستوف يسبب لها عذاباً أو قلقاً. لم تعد تناضل ضده إذ أصبح يملأ روحها ويتحد معها في جسد واحد. لقد كانت الأميرة ماري واثقة دون أن تعلن ثقتها أبداً، بأنها محبوبة وأنها تحب. ولقد أتتها تلك الثقة المكينة إبان لقائها الأخير نيكولا، عندما جاء ينبئها بأن أخاها موجود لدى آل روستوف.

لم يلمح نيكولا قط إلى عودة الأمور إلى سابق عهدها في حال شفاء الأمير أندريه، بين الأمير أندريه وناتاشا. لكنها رأت على قسمات وجهه أن تلك المصالحة أصبحت تشغله. أما طريقته تجاهها فقد بقيت متحفظة وودودة. لكنه بدا وكأنه مبتهج إذ باتت القرابة الآن تتيح له أن يعبر بأكثر حرية للأميرة ماري عن صداقة غرامية تبلغ حد ما كانت تحلم بمثله أحياناً. كانت تعرف أنها تحب للمرة الأولى في حياتها وللمرة الأخيرة وتشعر بأنها محبوبة فكانت سعيدة بذلك وهانئة.

وتلك السعادة، التي كانت خلال ذلك الوقت تملأ كل روحها، لم تمنعها من أن تشعر بهمّ شديد بسبب أخيها. على العكس. فالسلام الذي كسبته من جانب واحد راح يسمح لها بالاستسلام تماماً وبأكثر كمالاً من الجانب الأول إلى عاطفتها الأخوية. بل إن قلقها كان من العنف في أويقات السفر الأولى حتى أن رفاقها بالسفر خافوا عليها من المرض خلال الطريق. لكن الصعوبات

والمشاغل المتعلقة بالسفر التي اضطلعت بها بنشاط كبير، أنقذتها فترة ما من حزنها وأعادت إليها قواها.

وكما يحدث دائماً، نسيت الأميرة ماري التي احتكر السفر نفسه كل عنايتها الغاية من السفر. ولكن، عندما أصبحوا قريبين من ياروسلافل، عندما فكرت في ما يمكن أن ينتظرها ليس في غضون بضعة أيام، بل ذلك المساء بالذات، تجاوز تأثرها كل الحدود.

ولما عاد الحارس الذي أرسلوه للاستطلاع عن مسكن آل روستوف في ياروسلافل وعن حالة الأمير أندريه والتقى عربة «البرلين» التي تقل الأميرة ماري عند مدخل المدينة روع روعاً شديداً لشدة ما كان الوجه الذي أطلت عليه به من نافذة العربة شاحباً.

قال الحارس: لدي كل المعلومات يا صاحبة السعادة. إن آل روستوف يسكنون عند الساحة، مسكن البائع برونيكوف، على ضفة الڤولغا تماماً.

حدقت الأميرة ماري إلى وجهه بعينين مذعورتين متوسلتين دون أن تعرف السبب الذي من أجله تغاضى عن الإجابة عن السؤال الرئيسي المتعلق بأخيها. ولقد طرحت الآنسة بوريين ذلك السؤال بدلاً من الأميرة. سألت:

ـ والأمير؟. إن سعادته معهم في المنزل نفسه.

فكرت الأميرة: «إن معنى هذا أنه على قيد الحياة» وأضافت بلهجة هادئة: «كيف حاله؟». يقول الخدم إنه لا يزال على حاله.

لم تسأل الأميرة عم يُفهم من هذا القول، بل اختلست نظرة إلى نيكولا الصغير، وهو طفل في السابعة من عمره جلس قبالتها وبدا شديد السعادة بالوصول إلى مدينة، ثم أطرقت برأسها فلم ترفعه إلا عندما توقفت عربتها البرلين الثقيلة التي كانت تقفز وتهتز وتصر. واصطفت المرقاة عندما أنزلوها.

فتحوا الأبواب. ظهر، إلى اليسار، أديم ماء النهر المتسع وإلى اليمين مرقاة وعلى هذه المرقاة كان عدد من الخدم ينتظرون وبينهم فتاة شابة يانعة ذات ضفيرة سوداء كبيرة وابتسامة ضعيفة البشاشة، أو هكذا خيل إلى الأميرة ماري، هي سونيا. اندفعت الأميرة تريد صعود الدرجات، لكن الفتاة ذات الابتسامة المغتصبة قالت: «من هنا، من هنا!» ووجدت ماري نفسها في قاعة في حضرة سيدة ذات طابع شرقي أسرعت للقائها وهي بادية التأثر الشديد. تلك كانت الكونتيسة العجوز. أحاطت الأميرة ماري بذراعيها وراحت تقبلها وتقول:

ـ يا طفلتي! إنني أحبك وأعرفك منذ زمن طويل.

فهمت الأميرة ماري رغم شدة انفعالها أنها في حضرة الكونتيسة وأن عليها أن تجيب بشيء. فنطقت بكلمات مجاملة بالفرنسية على مثل الأسلوب الذي استخدم لاستقبالها دون أن تعرف كيف تم ذلك ثم سألت: «كيف حاله؟» فأكدت الكونتيسة:

ـ إن الطبيب يقول إن الخطر قد زال.

لكنها ناقضت بالوقت نفسه أقوالها بأن رفعت عينيها إلى السماء وشفعت ذلك بزفرة.

سألت الأميرة: أين هو؟ هل يمكن رؤيته؟ هل يمكن؟.

ـ فوراً يا أميرة، فوراً يا صديقتي.

ثم سألت الأميرة وهي تلتفت نحو نيكولا الذي دخل حينذاك مع ديسال:

ـ وها هو ابنه؟ لدينا أمكنة كافية لإيوائكم، فالبيت كبير. أوه! يا له من طفل فتان!.

أدخلت الكونتيسة ماري إلى القاعة، وكانت سونيا تتحدث مع الآنسة

بوريين. راحت الكونتيسة تمطر الطفل بالملق ودخل الكونت العجوز ليحيي الأميرة. لقد تغيّر كثيراً منذ أن رأته آخر مرة. لم يعد العجوز الصغير النشيط المليء بالاندفاع والثقة إلا رجلاً مسكيناً يثير الإشفاق، لم يكن يكف وهو يتحدث مع الأميرة عن إلقاء نظرات قلقة حوله وكأنه يتأكد أنه يعمل تماماً ما وجب عليه عمله. لقد فقد بشكل واضح الاهتمام بكرامته الشخصية وأصبح يرى نفسه عالة في الحياة بعد أن فقد ثقته بنفسه إثر نكبة موسكو ودماره الشخصي.

لم يكن للأميرة إلا رغبة واحدة، هي رؤية أخيها بأسرع ما يمكن وترى في غضب أنهم يضيعون عليها وقتاً ثميناً بكل هذه المجاملات والتهاني المبالغ فيها التي أغدقوها على ابن أخيها. مع ذلك، فإنها لم تتوان في التطلع إلى ما حولها، وشعرت بضرورة الخضوع لهذه الأساليب الجديدة بالتصرف. كانت تعرف أن كل هذا لا شك فيه وأنه يجب احتماله مهما بلغت مشقته.

قالت الكونتيسة وهي تقدم سونيا:

ـ هذه ابنة أختي سونيا، إنك لا تعرفينها بعد يا أميرة.

فالتفتت الأميرة نحو سونيا وقبلتها وهي تحاول جاهدة كبت شعور العداء الذي استبد بها نحو الفتاة. لكن الأكثر إيلاماً بالنسبة إليها حينذاك كان اطلاعها على مدى بعد الاستعداد الفكري لدى كل من حولها عن اتجاهها الشخصي.

سألت مجدداً موجهة حديثها إليها بدون استثناء: أين هو؟.

فأجابت سونيا ووجهها يحمرّ:

ـ إنه في الأسفل وناتاشا تسهر عليه. لقد ذهبوا يعلنون قدومك. أظن أنك شديدة التعب يا أميرة!.

انبثقت دموع الغضب من عيني ماري، فاستدارت وكادت تطلب إلى الكونتيسة الطريق إلى حيث أخيها عندما ارتفعت عند الباب خطى خفيفة حازمة تبدو كأنها تنبئ بالفرح. فنظرت الأميرة وراءها لترى ناتاشا داخلة في ما يشبه الركض، ناتاشا تلك نفسها التي لم ترق عينيها قط إبّان لقائهما الأخير في موسكو.

لكنها لم تكن تطالع وجهها حتى أدركت من فورها أن ناتاشا هذه هي رفيقة أحزانها المخلصة وبالتالي صديقتها. اندفعت للقائها وطوقتها بذراعيها ثم راحت تبكي على كتفها.

لم تكد ناتاشا الجالسة قرب سرير الأمير أندريه تعلم بوصول الأميرة ماري حتى خرجت بهدوء من غرفة المريض واتجهت إليها بتلك الخطى التي بدت مرحة بادئ الأمر في نظر الأميرة ماري.

وعندما دخلت القاعة وهي في شبه ركض، لم يكن وجهها المنفعل ينم إلا عن عاطفة واحدة، الحب، الحب الذي لا تحده حدود. نحوه، نحوها ونحو كل ما يتصل بالرجل الذي تحب، عاطفة إشفاق وحنان، ورغبة جامحة في أن تنذر نفسها للترفيه عن الآخرين. كان يُرى في تلك الدقيقة أن ناتاشا لا تفكر في نفسها ولا في علاقاتها بالأمير أندريه.

ولمست الأميرة ماري بكل هذا ببديهتها من النظرة الأولى التي ألقتها على وجه ناتاشا، لذلك فقد انصرفت تبكي على كتفها بفرحة مرة. قالت ناتاشا وهي تصحبها إلى غرفة أخرى:

ـ هيا بنا، هيا بنا إليه يا ماري.

رفعت الأميرة ماري رأسها وجففت دموعها وأرادت أن تسألها. كانت تشعر بأنها تستطيع معرفة كل شيء عن طريقها. شرعت تقول:

ـ إذن؟.

لكنها توقفت. شعرت بأنه يتعذر السؤال والجواب باستعمال الكلمات، فوجه ناتاشا، وعيناها كانا ينطقان بلغة أشد وضوحاً وأبعد عمقاً.

كانت ناتاشا تنظر إليها ولكنها تبدو وكأنها طافحة بالقلق والتردد. ترى هل يجب عليها أن تقول ما تعرفه أم تخفيه؟ كانت تحس بأنه يستحيل إخفاء الحقيقة كما تعرفها هاتان العينان البراقتان اللتان تتغلغلان إلى أعماق قلبها. وفجأة ارتجفت شفتا ناتاشا وطافت بفمها حركة فغيرته ثم انخرطت تبكي وقد أخفت وجهها بين يديها.

عرفت ماري كل شيء.

مع ذلك، فقد جنحت إلى الأمل رغم كل شيء، وسألت دون أن تصدق الكلمات التي تنطق بها:

ـ وكيف حال جرحه؟ في أية حال هو!.

فلم تستطع سونيا إلا أن تقول:

ـ سوف، سوف.. ترين.

ظلتا بضع لحظات في الأسفل في غرفة مجاورة لغرفة الأمير كي تخفيا دموعهما وتصلا بالقرب منه بوجهين هادئين. سألت الأميرة ماري:

ـ كيف كان سير مرضه؟ هل هو أسوأ حالاً منذ زمن طويل؟ متى وقع «ذلك»؟.

روت ناتاشا أنه خلال الأيام الأولى، هدد الألم والحمى حياته بالخطر ولكنه في ترويتسا طرأ تحسن على حالته فلم يعد الطبيب يخشى إلا الآكلة. ثم استبعد هذا الخطر كذلك.. أما في ياروسلاڤل، فقد حصل إصداد، ولقد أصبحت ناتاشا خبيرة في هذه الأمور، فأكد الطبيب أن هذا الإصداد سوف ينقطع ثانية. ثم عادت الحمى. لكنه أكد ثانية أنها لن تكون خطيرة.

وبدأت ناتاشا تقول:

ـ مع ذلك، فإن «ذلك» وقع فجأة أو أمس، وابتلعت شهقة، لست أدري لماذا، لكنك ستتأكدين بنفسك كيف حاله.

سألت الأميرة: هل هو أشد ضعفاً؟ هل هزل؟.

ـ كلا، ليس الأمر متعلقاً بهذا، إنه شيء أسوأ كثيراً. سوف ترين. آه! يا ماري، إنه شديد الطيبة، لن يستطيع، لا، لن يستطيع أن يعيش لأنه.

الفصل الخامس عشر

شعرت الأميرة بالدموع تخنقها عندما فتحت ناتاشا الباب بحركتها المألوفة وقدّمتها عن نفسها في الدخول. قامت بكل ما في وسعها لتستعد وحاولت جهدها أن تكون هادئة، لكنها كانت تعرف أنها ستكون عاجزة عن رؤية أخيها دون أن تبكي.

فهمت الأميرة ماري ما أرادت ناتاشا أن تقوله بهذه الكلمات: لقد وقع «ذلك» فجأة أول أمس. فهمت أن معنى ذلك أنه أفرط فجأة في التحنان وأن ذلك الحنان الفجائي من آيات الموت السابقة. عادت ترى في خيالها وهي تقترب من الباب وجه أندريه، وجه طفولتها الصغير، ذلك الوجه اللطيف المليح المحتشم الذي قلما عادت تراه فيما بعد، والذي كان كل مرة يزيد في انفعالها أكثر قوة من المرة السابقة. كانت تعرف أنه سيقول لها تلك الكلمات الهادئة نفسها التي قالها أبوها لها قبل وفاته، وأنها لن تحتمل سماعها فتذوب في دموعها. ولكن! طالما وجب ذلك آجلاً أو عاجلاً، فقد حزمت أمرها ودخلت الغرفة. وكلما تبينت عيناها التعبتان بوضوح شكل أخيها أكثر وتقاطيعه، تدافعت الغصات إلى حلقها. وأخيراً رأت وجهه وقابلت نظرته.

كان ممدداً فوق كنبة متكئاً على بضع وسائد، متدثراً بمعطف منزلي مبطن بفراء السنجاب، وكان شديد النحول شاحباً، وإحدى يديه نحيلة لدرجة الشفف تحمل منديلاً بينما راحت الأخرى تفتل شاربه الرفيع المسترسل بحركة خفيفة من أصابعها.

عندما شاهدت وجه أخيها وعينيه، أبطأت الأميرة ماري خطاها. شعرت فجأة بدموعها تخف ونحيبها يهدأ. أحست فجأة وكأنها مذنبة أمام هذا الوجه وأمام تلك النظرة.

تساءلت: «ولكن أي ذنب جنيت».

وأجابت نظرة الأمير أندريه الباردة الصارمة: «ذنب الحياة والتفكير في العيش بينما أنا..» لقد أصبحت تلك النظرة العميقة التي لا ترى ما في الخارج فحسب بل كذلك ما في داخل نفسه، شبه عدائية عندما استدار ببطء نحو الأميرة ماري ونحو ناتاشا.

تعانق الأخ والأخت قلبياً حسب عادتهما. وقال بصوت جامد ضعيف وغريب مماثل في هذه الصفات لنظرته:

ـ مرحباً يا ماري. كيف فعلت لتصلي إلى هنا؟.

ولو أنه أطلق صرخة ثاقبة لما أذهلت تلك الصرخة الأميرة ماري وروعتها كلهجة ذلك الصوت.

قال بذلك الصوت الهادئ وهو يبذل جهداً ظاهراً للتذكر: هل جئت بصغيري نيكولا معك؟.

سألت الأميرة ماري وهي دهشة لسؤالها: كيف حالك الآن؟

فأجاب:

ـ هذا يا عزيزتي، يجب سؤال الطبيب عنه.

ولكي يبدو أنيساً قال باستخفاف، وكان واضحاً أنه لا يفكر قط في ما يقول: شكراً يا صديقتي العزيزة لمجيئك.

شدَّت الأميرة ماري على يده، فقطب حاجبيه عند ذلك تقطيباً خفيفاً. كان ملتزماً الصمت بينما لم تكن هي تعرف ماذا تقول. فهمت ماذا حدث له منذ يومين. إن كلماته ورنة صوته، وبصورة خاصة نظرته الباردة شبه العدائية،

كانت تنطق بذلك التخلي عن كل ما هو دنيوي، ذلك التخلي الذي يخيف الإنسان صحيح الجسم. كان الأمير أندريه يبدو وكأنه يفهم العالم الحي بصعوبة وكان يرى أن ذلك غير ناجم عن انعدام مزية الفهم لديه، بل عن أنه يفهم شيئاً آخر لا يستطيع الأحياء فهمه ولا يفهمونه، شيئاً يغمره كله.

قال فجأة وهو يقطع الصمت ويشير إلى ناتاشا:

ـ نعم، لقد جمعنا القدر بطريقة غريبة! إنها هي التي تعنى بي الآن.

كانت الأميرة ماري تسمع جيداً ولكن دون أن تفهم ما كان يقوله أخوها. هو، شديد اللطف، شديد الحنان، كيف أمكنه أن يتكلم هكذا أمام تلك التي يحبها والتي تحبه! لو أنه كان يعتقد بشفائه لما تحدث بمثل هذه اللهجة المتحررة. ولو عرف أنه مائت، فكيف لم يشفق عليها، كيف يمكنه أن يتكلم في حضورها على هذا النحو؟ لا يمكن إعطاء كلماته إلا تفسيراً واحداً: إن كل الأشياء متساوية لديه وذلك بكل دقة، لأن شيئاً ما آخر، أكثر أهمية، قد كُشف له.

وكانت المحادثة الباردة المتواترة تتوقف في كل لحظة:

قالت ناتاشا: لقد جاءت ماري عن طريق ريازان.

لم يلاحظ الأمير أندريه أنها تنادي أخته باسمها الصغير. لكن ناتاشا انتبهت لأول مرة في حضرته. سأل:

ـ حسناً؟.

ـ رووا لها أن موسكو أصبحت رماداً كلها وأن...

وتوقفت ناتاشا. الأفضل أن تسكت. كان يبذل جهداً ظاهراً للإصغاء دون أن يصل إلى هدفه.

ـ نعم، يقولون إن موسكو قد احترقت وهذا محزن جداً.

خلال ذلك، كانت نظرته شاخصة أمامه وأصابعه تجذب شاربيه بحركة آلية.

قال الأمير أندريه فجأة وهو يرغب في الظهور بمظهر المؤنس: وهل قابلت الكونت نيكولا؟.

ثم تابع ببساطة وهدوء وكأنه لا يملك القوة على تصور مدى أهمية كلماته بالنسبة إلى أحياء:

ـ لقد كتب إلى هنا يقول إنك تروقينه كثيراً!.

وأنهى حديثه قائلاً بسرعة وكأنه سعيد إذ وجد أخيراً الكلمة التي طال بحثه عنها:

ـ فإذا كان يروقك بالمثل، فإن ذلك يكون لخيركما.. سوف تقترنين به.

لم تكن لتلك الكلمات أكثر من معنى واحد عند الأميرة ماري؛ إنها تشير إلى أن أخاها بعيد الآن بشكل مخيف عن عالم الأحياء.

قالت بلهجة هادئة وهي تنظر إلى ناتاشا: لِمَ التحدث عني!.

وأحست ناتاشا بتلك النظرة تحط عليها لكنها لم ترفع رأسها. ومن جديد ساد الصمت؟.

ـ أندريه، هل تريد.. هل تريد رؤية صغيرك نيكولا.

طرحت الأميرة ماري هذا السؤال فجأة بصوت مرتجف وأضافت:

ـ إنه لا يني يتحدث عنك!.

طافت على شفتي الأمير أندريه لأول مرة ابتسامة خفيفة. لكن الأميرة التي كانت تعرف وجهه تماماً، عرفت أنها لم تكن ابتسامة سرور أو حنان لفكرة وجود ولده، بل ابتسامة سخرية لبقة موجهة إليها لأنها استعملت الوسيلة الأخيرة التي ، حسب رأيها، كانت قمينة بإيقاظ العاطفة فيه.

ـ نعم، سأكون مسروراً برؤية صغيري نيكولا. هل صحته جيدة؟.

وعندما جيء بنيكولا الصغير للأمير أندريه، نظر الطفل إلى أبيه بذعر وخوف ولكن دون أن يبكي لأنه لم يرَ أحداً يبكي، فقبله الأمير أندريه دون أن يعرف ماذا يقول له.

ثم صرفوا الصغير واقتربت الأميرة ماري من أخيها مجدداً فقبلته وانفجرت منتحبة وقد عجزت عن امتلاك أعصابها أكثر مما فعلت.

تأملها بنظرة محدقة ثم سأل: أتبكين بسبب نيكولا؟.

فأشارت الأميرة ماري خلال دموعها بحركة إيجابية من رأسها.

ـ ماري، هل تعرفين الإنجـ...

وسكت فجأة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟.

فقال وهو يحدق إليها بنظرته عديمة الإحساس:

ـ لا شيء هنا، لا يجوز البكاء.

عندما رأى أخته تنفجر باكية، أدرك الأمير أندريه أن أخته تبكي لأن نيكولا الصغير سيصبح بعد حين يتيماً. فبذل جهداً كبيراً على نفسه ليعود إلى الوراء قليلاً في الحياة وليستعيد وجهة نظر الأحياء.

فكر: «نعم، إن ذلك لا بدَّ يؤلمهم كثيراً! مع ذلك، كم هو بسيط!».

قال في سرِّه، وهو راغب في أن يشرك أخته في تفكيره: «إن عصافير الأجواء لا تزرع ولا تحصد، مع ذلك، فإن أبانا السماوي يطعمها. ولكن لا، إنهما ستفهمان ذلك على طريقتهما أم لعلَّهما لن تفهما ذلك! إنهما لا تستطيعان فهم هذا: إن كل هذه العواطف التي تعلقان عليها كل هذه الأهمية وكل ما هو شخصي بحت في نظرنا وكل هذه الأفكار التي تبدو لنا بالغة الأهمية، إن كل هذا عديم الفائدة! كلا، لم نعد نستطيع أن نتفاهم!» ثم سكت.

كان ابن الأمير أندريه الصغير على وشك بلوغ السنة السابعة من عمره،

فكان بالكاد يعرف القراءة ولم يكن بعد قد تعلم شيئاً، ولقد كان عليه منذ ذلك اليوم أن يكتسب خبرة ومعلومات ومزية الملاحظة. مع ذلك، لو أنه استطاع أن يستعمل حينذاك كل الكفاءات التي وزعها فيما بعد، لما استطاع أن يفهم معنى المشهد الذي رآه يمثل بين أبيه والأميرة ماري وناتاشا أفضل مما فهمه. لقد فهم كل شيء، وخرج من الغرفة دون أن يبكي واقترب بصمت من ناتاشا التي تبعته ونظر إليها بوجل بعينيه الجميلتين وقد طافت رعشة خفيفة بشفته القرمزية قليلاً ثم أخفى رأسه في هيكل الفتاة وراح يبكي.

ومنذ ذلك الحين، أخذ يتحاشى ديسال وملاطفات الكونتيسة فكان يلبث وحيداً تارة يقترب من الأميرة ماري وناتاشا التي بدا أنه يفضلها على عمته نفسها، ويستخلص بخجل ممالقاتهما.

وعندما خرجت الأميرة ماري من مقابلتها مع أخيها، وفهمت كل ما حدثها به وجه ناتاشا، لم تعد تتحدث إلى الفتاة عن أمل بالشفاء. حلّت محلها قرب الكنبة حيث كان الأمير أندريه مسجى، وراحت دون أن تبكي أكثر مما بكت، ترفع إلى الأزلي الخالد صلوات من كل روحها، إلى الممتنع الذي جلت معرفته، والذي كان حضوره عند رأس المحتضر يكاد يكون ملموساً.

الفصل السادس عشر

كان يشعر الأمير أندريه بأنه منفكّ عن الأشياء الدنيوية ويشعر بخفة غريبة. لم يكن يعرف أنه سيموت فحسب بل كان يحس أنه يموت وأنه أصبح نصف ميت. وكان ينتظر الذي لا بدَّ منه دون تعجل ولا قلق. إن ذلك الوجود المنذر المجهول الذي لم يكف طوال حياته عن الإحساس به، أصبح الآن قريباً جداً ولم تكن هذه الخفة الغريبة إلا الدليل الملموس.

لقد خاف فيما مضى الموت وأحس مرتين بالقلق المخيف إذ رأى نفسه قريباً من نهايته أما الآن فهو لم يعد يشعر بهذا القلق.

شعر به أول مرة حينما كانت القنبلة تدور أمامه وهو ينظر إلى الحصد والأدغال والسماءِ وهو عارف بدنو الموت. فلما استعاد حواسه بعد جرحه، خيل إليه أنه قد تخلص بصورة ما من ثقل الحياة الذي كان يمسك به ولم تلبث بعد ذلك أن تفتحت في نفسه زهرة الحب الأبدي وقد تحرر من كل رباط مع هذه الحياة. ومنذ ذلك الحين لم يعد قط يفكر في الموت بدلاً من أن يخاف منه.

فكر ملياً خلال ساعات الوحدة الأليمة ونصف الهذيان التي أعقبت جرحه في ذلك الحب الأزلي الذي اكتشفه حديثاً، حتى أنه راح ينفصل أكثر فأكثر عن الحياة الدنيوية دون أن يكون لديه شك في ذلك. أحب كل شيء وكل الناس، والتضحية بالذات دائماً في سبيل الحب، يعني عدم محبة أحد بالذات وبالتالي عدم العيش حياة دنيوية. وعلى هذا، فإنه كلما ازداد تعمقاً

في ذلك الحب الجديد، ازداد اعتكافاً لأشياء هذا العالم، وأزال تماماً الحاجز الرهيب الذي لولا الحب، لوقع بين الموت والحياة. وعندما شعر في الفترة الأولى بأنه اقترب من الموت، قال لنفسه: «حسناً، هذا أفضل!».

بعد تلك الليلة في ميتيشنشي، حيث رأى وهو في حالة أقرب إلى الهذيان، تلك التي يرغب فيها تظهر أمامه، وحيث سفح دموع فرح وهو يشدّ يدها على شفتيه، عاد الحب الذي تسلل خلسة إلى قلبه فأعطاه مذاق الحياة ورجعت إليه أفكار مشرقة مقلقة. كان يشعر حينذاك بعجزه عن استعادة ذلك الشعور الذي أحس به عندما رأى كوراغين في مستشفى الميدان وأخذ يتعذب لمعرفة ما إذا كان سيعيش ولكنه لم يكن يجرؤ على طرح ذلك السؤال.

خلال ذلك، تبع المرض طريقه الطبيعي وحل «ذلك» الذي تحدثت عنه ناتاشا قبل وصول الأميرة ماري بيومين. لقد كان الصراع بين الموت والحياة، ذلك الصراع الذي تفوق فيه الموت. كان التأكيد غير المتوقع بأنه لا يزال يتعلق بالحياة لأنها تمثل له حب ناتاشا، وكان التمرد النهائي من جانب كيانه كله ضد المجهول الماثل.

هبط المساء، وكان كعادته بعد أن تناول الطعام، مرتفع الحرارة قليلاً ولكن أفكاره كانت أكثر إشراقاً. وكانت سونيا جالسة قرب الطاولة وهو يحلم. وفجأة استولى عليه شعور بالسعادة.

فكر: «آه! ها هي ذي!».

والواقع أن ناتاشا دخلت حينذاك وحلت محل سونيا دون أية ضجة.

لقد ظل يشعر منذ أن بدأت تعنى به، بذلك الشعور المادي في حضرتها. كانت تجلس على مقعد وثير يظهر منها جانب وجهها، تحجب ضوء الشمعة وتسرد جورباً، (لقد تعلمت السرد لأن الأمير أندريه قال لها ذات يوم إنه ما من أحد يحسن العناية بالمرضى أفضل من عجائز المربيات اللواتي يسردن

الجوارب وإن في السرد شيئاً مهدئاً) تزلق أصابعها الدقيقة الصنانير بنشاط وهي تشتبك من حين إلى آخر. وكان يرى جانب وجهها الساهم المنحني مرتسماً بوضوح على صفحة العتمة. أتت بحركة فتدحرجت كتبها على ركبتيها فانتفضت وألقت نظرة على الأمير أندريه ثم حجبت ضوء الشمعة بيدها وبحركة مرنة وسريعة، انحنت فجمعت كتبها واستعادت وضعيتها الأولى.

ومن دون أن يتحرك كان ينظر إليها فلاحظ أنها بعد حركتها تلك، في حاجة إلى نفس عميق بعد أن انحنت على ذلك النحو، لكنها لا تسمح لنفسها به وتسعى أن تتنفس بهدوء وحذر.

تحدثا عن الماضي في دير الثالوث فقال لها إنه إذا عاش فسينذر إلى الله عرفاناً أبدياً لذلك الجرح الذي ساقه إليها. لكنهما منذ ذلك الحين لم يتحدثا عن المستقبل قط.

فكر الآن وهو ينظر إليها ويصغي إلى حفيف الصنانير الفولاذية الخفيف: «هل يمكن، نعم، هل يمكن؟ هل يمكن أن تكون القدرة قد جمعتني بها على هذا الشكل المدهش لكي أموت فقط؟.. هل يعقل أن تكون حقيقة الحياة لم تُكشف لي إلا لتكذبني؟ إنني أحبها أكثر من كل الناس. وإذا كنت أحبها هكذا، فماذا عليّ أن أفعل؟» وفجأة أفلت واحدة من أنّاته العميقة التي تنتابه في أويقات الألم.

وضعت ناتاشا سردها عند سماعها تلك الأنة وانحنت عليه. فلما لاحظت فجأة عينيه البراقتين، جاءت إليه بخطى خفيفة.

ـ ألست نائماً؟.

ـ لا. لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا أنظر إليك. لقد شعرت بك تدخلين.

ما من أحد يهب لي مثلك تلك الراحة الحلوة.. ذلك الإشراق، وددت لو بكيت من الفرح.

ازدادت ناتاشا انحناء عليه ووجهها يضيء بفرح لا يوصف.

ـ ناتاشا، أحبك حباً مفرطاً. أكثر من كل الناس.

ـ وأنا!.

ثم أدارت رأسها فترة وقالت: ولكن لماذا حباً مفرطاً؟.

ـ لماذا مفرطاً؟ هه، ماذا تفكرين وجدانياً، من كل وجدانك، هل سأعيش؟ هل تصدقين هذا؟.

فقالت ناتاشا في شبه صرخة وهي تمسك بيديه بحركة كلفة:

ـ بل إنني واثقة، واثقة!.

فسكت. ثم قال وهو يأخذ يدها ويقبلها:

ـ كم سيكون ذلك رائعاً!.

كانت ناتاشا سعيدة وقلقة في آن. تذكرت فجأة أن المريض يجب أن يبتعد عن التأثر وأنه في حاجة إلى الهدوء، فقالت وهي تخنق فرحها:

ـ وأنت الذي لم تنم حاول أن تنام.. أرجوك.

وازداد ضغطاً على يدها ثم تركها تذهب فعادت تجلس قرب الشمعة في وضعيتها السابقة، ولقد اختلست إليه النظر مرتين ولاقت في كل مرة عينيه اللامعتين. وحينئذٍ أوجبت نفسها واجباً بحياكة جوربها ووعدت نفسها بألّا تنظر إليه مادامت لم تفرغ من عملها.

وفي الواقع إنه لم يلبث بعدئذٍ أن أغمض عينيه ونام، لكنه نام نوماً قصيراً إذ سرعان ما استفاق فجأة وقد نضح جسمه بعرق بارد.

لم يفتأ في نومه يفكر في ما ظل يشغله طوال هذه الفترة: في الموت وفي الحياة. وبصورة خاصة في الموت الذي كان يشعر به أكثر قرباً.

قال في نفسه؟ «الحب، ما هو الحب؟».

«إن الحب يعارض الحياة. الحب هو الحياة. إن كل، كل ما أفهمه، لا أفهمه إلا لأنني أحب. إن كل شيء قائم، كل شيء موجود لأنني أحب فقط. إن كل شيء يتعلق بالحب. إن الحب هو الله. والموت في نظري يعني ذرة من هذا الحب، العودة إلى الكل الكبير، إلى المنهل الأزلي». بدت له هذه الأفكار مواسية ولكنها لم تكن إلا مجرد أفكار. كان شيء ما يسفهها: ففيها شيء ملزم من جانب واحد، شيء شخصي، شيء قياسي بحت. وهي تفتقر إلى البيان. وهذا يجلب الكآبة والشك. أخيراً، أغفى.

حلم بأنه مستلق في تلك الغرفة بالذات التي هو فيها الآن، لكنه بدلاً من أن يكون جريحاً كان فيه صحة جيدة. ومرّ أمامه أناس كثيرون تافهون وغير مبالين فكان يحدثهم ويناقشهم حول موضوع عديم الأهمية. وكانوا يستعدون للذهاب إلى جهة ما والأمير أندريه يرى بإبهام أن كل ذلك عقيم وأن في رأسه عدداً من المشاغل الأكثر خطورة. مع ذلك فقد ظل يدهشهم ويحدثهم ببديهة متقدة عن أشياء تافهة. وبالتدريج، ودون أن يشعر بهم، بدأ هؤلاء الناس كلهم يتفرقون ويختفون ولم يبق إلا مشكلة واحدة، مشكلة إغلاق الباب. فنهض واقترب من الباب ليغلقه، وليدفع المزلاج.

ترى هل سيجد الوقت لإغلاق الباب أم لا، هذا ما كان «كل شيء» يتوقف عليه. مضى مستعجلاً ولم تعد رجلاه تحملانه. إنه يعرف أن الوقت لن يتاح له خلال ذلك، شدد من قواه بشكل مؤلم فاعتصره قلق شديد. وهذا القلق هو قلق الموت: «إنه» كامن في الجانب الآخر من الباب. وبينما هو منهمك بخرق وعجز في إغلاقه، كان شيء ما مخيف من الجانب الآخر يميل بثقله عليه ويقتحمه شيء ما، لا يمت إلى الإنسانية بصلة، الموت، يقتحم الباب وهو على وشك الدخول. منع الباب بكل ما تبقى له من قوى، فطالما

أنه لا يستطيع إغلاق الباب فلا أقل من أن يمنع الموت من الدخول. لكنه بالغ الخرق شديد الضعف. وفتح الباب تحت الضغط الخارجي الرهيب ثم أغلق.

جاءت دفعة أخيرة من الخارج، ثم مجهود أخير فوق طاقة البشر، عقيم، واستسلم المصراعان معاً دون جلبة. «هو ذا دخل»، إنه الموت، وبدأ الأمير أندريه يموت.

لكنه وهو في غمار الموت، تذكر أنه نائم، فبذل وهو يموت مجهوداً عنيفاً أيقظه.

«نعم، ذاك كان الموت، لقد كنت ميتاً واستيقظت. نعم إن الموت يقظة» فجأة أضاءت روحه وارتفع الستر الذي بقي حتى ذلك الحين يحجب عن نظره الداخلي. شعر كأنه تحرر من القوة التي ظلّت تفله حتى ذلك الحين ولم يعد ذلك التخفيف الذي يشعر به يفارقه حتى النهاية.

عندما استيقظ سابحاً في العرق البارد، تحرك فوق الكنبة فجاءت إليه ناتاشا وسألته عم يريد. فلم يجبها وراح ينظر إليها نظرة فريدة دون أن يفهم ما تسأله.

ذاك ما جرى له قبل وصول الأميرة ماري بيومين. ومنذ ذلك الحين، كما لاحظ الطبيب، بدأت الحمى البطيئة تأخذ طوراً مؤذياً. ولكن لم تكن مزاعم الطبيب هي التي تثير الحنان في قلب ناتاشا. لقد شاهدت الأعراض الروحية التي كانت أشد هولاً من الجدل بالنسبة إليها.

وفي الواقع إن الأمير أندريه بدأ منذ ذلك اليوم يخرج من الحياة في إبان خروجه من حلمه. وبدا له أن مبارحة الحياة أشد بطئاً من الإفاقة من مرئيات حلم.

لم يميّز يقظته البطيئة لحياة أخرى شيء مريع أو مثير.

لقد انقضت أيامه الأخيرة وساعاته الأخيرة على نحو أبسط من المعتاد. ولقد شعرت بذلك الأميرة ماري وناتاشا اللتان ما كانتا تفارقانه. لم تبك هذه ولا تلك وكفتا كلتاهما عن تعذيب نفسيهما وباتتا تشعران خلال اللحظات الأخيرة أنه لم يعد هو الذي تعنيان به وهو الذي لم يعد له وجود إذ كان قد فارقهما، بل ذكراه القريبة وجسده المحتضر. وكان هذا الإحساس من القوة لدى كلتيهما حتى لم يعد الجانب الأبدي من الموت يؤثر فيهما ولم تعودا تجدان فائدة من إذكاء نار آلامهما. لم تبكيا بالقرب منه ولا بعيدتين عنه ولم تتحدثا عنه فيما بينهما قط. كانتا تشعران بأنهما لن تستطيعا التعبير عما أدركتاه بواسطة الكلام.

كانتا كلتاهما تريانه يفلت من أيديهما أكثر فأكثر، ببطء وهدوء، لمضي بعيداً. وكانتا كلتاهما تعرفان أن ذلك لا بدَّ واقع وأنه حسن.

جعلوه يعترف ويتناول وجاؤوا جميعهم يودعونه. ولما جاؤوه بابنه، ضغط بشفتيه على وجنته واستدار، ليس لأن ذلك كان أليم الوقع عليه، وقد فهمت الأميرة ماري وناتاشا ذلك، بل لأنه كان يفترض أنه هذا كل ما يتوقعونه منه. مع ذلك، فإنه عندما طلب إليه أن يبارك ابنه، قام بما طلب إليه وألقى نظرة محيطة وكأنه يتساءل عم إذا بقي عليه أن يفعل شيئاً ما. حضرت الأميرة ماري وناتاشا تشنجات الجسد الأخير الذي فارقه الذهن. وقالت الأميرة ماري عندما بات جسد أخيها لا حراك به أمامهما منذ أكثر من دقائق وأخذ البرد يدب إليه.

ـ لقد انتهى!.

فاقتربت ناتاشا ونظرت إلى العينين الميتتين وسارعت تغمضهما. أطبقتهما ولم تقبلهما، بل وضعت شفتيها بخشوع على ما أصبح الآن الذكرى الأقرب إلى الذهن للأمير أندريه.

«إلى أين ذهب؟ أين هو الآن؟..».

وعندما سجي الجسد بعد إلباسه الثياب في نعشه فوق الطاولة، اقتربوا جميعهم منه يودعونه.

أخذ نيكولا الصغير ينشج وهو في تلك الوحشة الأليمة التي كانت تمزق نياط قلبه. وراحت الكونتيسة وسونيا تتوجعان على ناتاشا وعلى ذلك الذي لم يعد له وجود. أما الكونت العجوز، فكان يذرف الدموع وهو يفكر في أنه هو الآخر، سيجتاز قريباً هذه الخطوة الرهيبة نفسها.

الآن، أخذت الأميرة وناتاشا تبكيان. لم تكن دموعهما منبعثتين من الألم الشخصي، بل من التأثر الخاشع الذي امتلأت به نفساهما أمام هذا السر البسيط الجليل، سر الموت الذي وقع وأنجز تحت بصرهما.

الجزء الثالث عشر

الفصل الأول

إن الرغبة في اكتشاف الأسباب مغروسة بالفطرة في فكر الإنسان، وإن مجموعة أسباب الظاهرات أمر لا يبلغه العقل البشري. فالفكر إذن يتعلق بأول حدث وافد سهل المنال ويقول: هذا هو السبب لأنه عاجز عن التعمق في شروط الظاهرات المعقدة ومداها اللانهائي. وفي الظاهرات التاريخية حيث تقتصر الدراسة على أفعال الأشخاص، تبدو إرادة الإله أقدم الأحداث المصاحبة تأتي بعدها إرادة البشر الذين يشغلون المراكز الأكثر رفعة في التاريخ أي الأبطال. مع ذلك يكفي أن يتعمق المرء في جوهر كل حدث تاريخي أي في نشاط الجمهور البشري الذي ساهم فيه ليتحقق أن إرادة بطل لا توجه ذلك النشاط الجماهيري بل إنها نفسها موجهة باستمرار.

وفهم حدث تاريخي على هذا النوع أو على نهج آخر يمكن أن يبدو معدوم الفرق. مع ذلك فإن بين من يقول إن شعوب الغرب اتجهت نحو الشرق لأن نابليون كان يريد ذلك وبين الذي يقول إن الأمر قد حدث لأنه لم يكن هنا بد من حدوثه، مثل انعدام الفرق بين الأشخاص الذين يؤكدون أن الأرض جامدة والكواكب تدور حولها وبين الذين يقولون بجهلهم على أي شيء ترتكز الأرض ولكن يؤيدون مع ذلك أن هناك قوانين تنظم حركتها وحركة الكواكب الأخرى. ولا يوجد كما لا يمكن أن يوجد سبب آخر للحدث التاريخي غير سبب الأسباب. لكن هناك القوانين التي تدير الأحداث وهذه القوانين التي غالباً ما تكون مجهولة تبدو لنا أحياناً محسوسة، واكتشافها غير

ممكن إلا عندما نتنكّب نهائياً البحث عن أسباب الأحداث في إرادة شخص واحد كما لم يصبح اكتشاف قوانين حركة الكواكب ممكناً إلا بعد أن أغفلت نظرية انعدام حركة الأرض.

بعد معركة بورودينو واحتلال موسكو واحتراقها أصبحت أهم مرحلة في حرب عام ١٨١٢ في نظر المؤرخين في سير الجيش الروسي من طريق ريازان نحو طريق كالوغا باتجاه معسكر تاروتينو ـ وهي قرية واقعة على نهر نارا ـ أي ما أطلقوا عليه اسم سير الجناح، وراء كراسنايا باخرا، وهي قرية وراء باخرا، رافد موسكفا الأيمن، ويعزو المؤرخون شرف هذه المأثرة إلى مختلفين لم يتفقوا فيما بينهم عليهم. والغرباء أنفسهم والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم يعترفون بعبقرية الجنرالات الروس عندما يتحدثون عن سير الجناح هذا. لكن لماذا يرى المؤرخون العسكريون والناس كلهم في أعقابهم في سير الجناح ذاك نفاذ بصيرةٍ أو نفاذ بصيرة شخص واحد، ذلك التبصر الذي أنقذ روسيا وقضى على نابليون، وهذا ما هو صعب على الإدراك.

ففي المرحلة الأولى لا يمكن لمس ما في هذه الحركة من عمق وعبقرية لأنه لا يقتضي الحال مجهوداً فكرياً كبيراً لمعرفة أن أفضل موقع لجيش عندما لا يكون مهاجماً، هو المكان الذي يجد فيه أكثر الموارد بالنسبة إليه. إن تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره حتى ولو كان محدود الفكر يستطيع دون جهد أن يدرك أن أفضل موقع للجيش عام ١٨١٢ بعد النزوح عن موسكو هو طريق كالوغا. لذلك لا يمكن الفهم للوهلة الأولى، بنتيجة أية استنتاجات توصل بعض المؤرخين إلى اكتشاف شيء ما عميق في تلك الحركة.

وفي المرحلة الثانية، إنه أكثر صعوبة على الفهم معرفة السبب الذي يرى بعض المؤرخين في تلك الحركة خلاص الروس وضياع الفرنسيين، لأن سير الجناح ذاك في مناسبات تختلف عن تلك التي سبقته وصاحبته وتبعته، لآل

إلى ضياع الجيش الروسي وخلاص الجيش الفرنسي. وإذا كان وضع الجيش الروسي قد تحسن منذ أن أنجزت هذه الحركة، فإنه لا يمكن إطلاقاً الاستنتاج أن هذه الحركة هي التي كانت السبب.

لم يكن سير الجناح ذاك يستطيع إضفاء أي تحسن أو مزية فحسب بل كان يمكن أن يسبب ضياع الجيش الروسي لو لم تتدخل لمساعدته ظروف أخرى. فماذا كان يحدث يا ترى لو أن ناپليون لم يجد نفسه محمولاً على العجز؟ ولو أن الجيش الروسي خاض المعركة في كراسنايا باخرا كما كان يريد بينيغسن وباركلي ماذا كان يقع يا ترى لو أن الفرنسيين هاجموا الروس أثناء سيرهم إلى وراء باخرا ثم ماذا يحدث لو أن ناپليون فيما بعد كان هاجم الروس عند مشارف تاروتينو بعشر الحماسة التي بذلها أمام سمولنسك؟ وماذا كان يحدث لو أن الفرنسيين اتجهوا إلى پيترسبورغ!.. إن حسنات سير الجناح ذاك في كل هذه الافتراضات كان يمكن أن ينقلب إلى دمار كامل.

وفي المرحلة الثالثة: إن أشد ما هو ممتنع عن الفهم يقوم في رؤية الناس يدرسون التاريخ ويرفضون عمداً أن يفهموا أن سير الجناح ذاك لا يمكن أن يعزى أبداً إلى إرادة رجل واحد وأن ما من أحد دبره في أية لحظة وأن هذه «المناورة» وكذلك الانسحاب في ڤيلي لم تكن في مجموعها معدة من جانب أحد بل تكونت خطوة فخطوة، وانتقلت من حدث إلى حدث دقيقة فدقيقة، نتيجة لعدد لا يحصى من المناسبات وأن سير الجناح ذاك بالاختصار لم يظهر في مجموعة إلا بعد أن تمّ وأصبح جزءاً من الماضي.

في المجلس الحربي المعقود في فيلي، كانت الفكرة المسيطرة على القيادة الروسية العامة هي الانسحاب المفروض بخط مستقيم أي عن طريق ـ نيغني ـ نوڤغورود. ولقد تأيد هذا بواقعة انحياز أكثر الأصوات في ذلك المؤتمر إلى هذه الفكرة وخصوصاً في المحادثة الخاصة التي جرت بعد ذلك

بين القائد العام ولانسكوي، الممون العام. عرض لانسكوي للقائد العام أن تموين الجيش قد رُكّز بصورة خاصة على ضفاف نهر أوكا في حكومات تولا وكالوغا وأنه في حالة التراجع باتجاه نيغني ـ نوڤغورود، فإن التموين سينقطع عن الجيش بسبب عرض مجرى نهر أوكا الذي يستحيل البدء بالنقل على الزوارق عبره في بدء الشتاء. وكانت هذه الإشارة الأولى الدالة على ضرورة إغفال التقهقر على خط مستقيم باتجاه نيغني ـ نوڤغورود، ذلك التقهقر الذي قدر بادئ الأمر بأنه طبيعي جداً. اضطر الجيش أن يتجه متوغلاً نحو الجنوب على طريق ريازان ليقترب من مراكز تموينه. وبالتالي اضطر الجيش أن يسير في انحناء أكثر نحو الجنوب على طريق تولا بسبب جمود الفرنسيين الذي بلغ درجة إغفالهم الجيش الروسي، والانشغال في الدفاع عن مصنع تولا بصورة خاصة بسبب مزية الاقتراب من مراكز التموين.

وبعد سير غير مأمون بغية الوصول إلى طريق تولا عبر ضفة باخرا الثانية، فكرت القيادة الروسية العليا في التوقف عند پولولسك دون أن تتصور أبداً حصن تاروتينو. لكن عدداً لا يحصى من الظروف، ثم ظهور الفرنسيين الجديد الذين أضاعوا أثر الروس قبل ذلك ونيات خوض المعركة وبصورة رئيسية غزارة المؤن في كالوغا، كل ذلك دفع جيشنا إلى الانحناء أكثر نحو الجنوب والوصول إلى مركز تموينه منتقلاً من طريق تولا إلى طريق كالوغا باتجاه تاروتينو. ولم يخطر ببال أحد أن يصدق أن الشيء قد أريد وأعد منذ فترة طويلة إلا عندما عسكر الجيش في تاروتينو بعد أن تدخلت قوى تفاضلية لا تحصى.

الفصل الثاني

قام سير الجناح العتيد، على أساس أن الجيش الروسي الذي كان يتراجع بخط مستقيم إلى الوراء على عكس الهجوم، فانحرف الجيش عن طريقه السابقة مذ توقف الهجوم، ورأى نفسه أنه غير متبوع فاستدار بحركة طبيعية نحو الجهة التي تجتذبه إليها وفرة المؤن.

فلو فرضنا أن الجيش الروسي حينذاك كان محروماً من الرؤساء العباقرة أو أنه كان دون رؤساء إطلاقاً، فإنه لم يكن يستطيع أن يقوم بغير حركة عودة نحو موسكو راسماً قوس دائرة من الجهة التي تكون فيها الأرزاق أكثر وفرة والأرض أغزر إنتاجاً.

فانتقاله من طريق نيغني ـ نوڤغورد، إلى طريق ريازان، تولا، وكالوغا كان طبيعياً جداً مثلما كان اتجاه سلابي الجيش الروسي في ذلك الاتجاه وفرض خط المسير ذاك على كوتوزوف من پيترسبورغ طبيعيين تماماً. ففي تاروتينو، تلقى كوتوزوف ما يشبه التعنيف من الأمبراطور لأنه سلك طريق رايازان وفرض عليه أن يتمركز قبالة كالوغا في الموقع نفسه الذي كان يحتله عندما وصلت إليه رسالة عاهله.

بعد أن تدحرجت الكتلة التي تشكل الجيش الروسي في الاتجاه الذي فرضته عليها الحملة كلها ثم معركة بورودينو وبعد أن نجحت في تلقي أية صدمة جديدة بعد توقفها في إثر الصدمة الأولى، استعادت تلك الكتلة الوضعية التي كانت طبيعية بالنسبة إليها.

فموهبة كوتوزوف إذاً ليست فيما يسمونه «مناورة إستراتيجية» فذّة، ولكن في أنه وحده كان يدرك معنى الوقائع الدائرة. كان وحده حينذاك الذي يعرف أهمية جمود الجيش الفرنسي، وحده الذي كان يؤكد أن معركة بورودينو نصر، وحده الذي رغم ما كان يمكن لمركزه كجنرال وقائد أعلى أن يحمله على الانحياز نحو فكرة الهجوم، ظل يستعمل نشاطه كله ليجنب الجيش الروسي المعارك التي لا طائل فيها.

كان الحيوان الجريح في بورودينو مسجّى الآن حيث تركه الصياد الفار. فهل لا يزال حياً. هل يحتفظ ببعض القوى أم تراه يتظاهر بانعدام تلك القوى؟ لم يكن الصياد يعرف شيئاً عن ذلك. لكن الحيوان الجريح أطلق فجأة زمجرة.

كانت زمجرة الحيوان الجريح الكاشفة عن نهايته الوشيكة تتلخص في عرض الصلح الذي حمله لوريستون[1] إلى معسكر كوتوزوف.

كتب ناپليون إلى كوتوزوف متأثراً باقتناعه بأن الخير ليس ما هو خير بل ما يخطر له على بال، الكلمات الأولى التي طافت بذهنه، فحتى تلك الكلمات عارية من كل معنى:

«سيدي الأمير كوتوزوف، أوفد إليك أحد مساعدي العسكريين الجنرالات ليتحدث معك حول عديد من الأشياء الهامة. إنني أرغب أن تثق سعادتك بكل ما يقوله خصوصاً عندما يعرب عن عواطف التقدير والاعتبار الخاص التي أكنها لشخصكم منذ زمن طويل. ولما كانت هذه الرسالة لا تهدف إلى غرض آخر، فإني أرجو الله يا سيدي الأمير كوتوزوف أن يكلأك بحمايته القديرة المقدسة».

موسكو ـ في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨١٢ التوقيع: ناپليون

(١) مارشال فرنسا على عهد الإصلاح وأمير فرنسا. (المترجم).

أجاب كوتوزوف الذي بقي يقوم بكل ما في وسعه ليمنع الجيش من الجنوح إلى الهجوم.

ـ ستلعنني الأعقاب إذا نظر إليّ بوصفي أول محرك لتدبير ما. إن عقلية أمتي الحالية هي على هذا النحو.

خلال الشهر الذي انقضى على الجيش الفرنسي في نهب موسكو والجيش الروسي في استجمامه في تاروتينو، ، طرأ تبدل على نسبة قوى الجيشين في عددهما وفي الفكرة التي تحركهما لدرجة مال معها الميزان إلى الجانب الروسي فبدت ضرورة الهجوم تكشف عن نفسها بألف دليل رغم أن الوضع الحقيقي للجيش الفرنسي والرقم الحقيقي لتعداده كانا مجهولين من الروس. وكانت تلك الدلالات التالية: سلوك لوريستون، وفرة الأرزاق في تاروتينو، التقارير الواردة من مختلف الجهات حول تعطل الفرنسيين وفوضى صفوفهم، الأفواج المستكملة بوصول الاحتياطي؛ الطقس الرائع، الراحة الطويلة التي نعمت بها القطعات؛ نفاد الصبر ذاك الذي يبدو عادة في الجيوش المستريحة؛ الفضول الدافع إلى الاستعلام عن حركات وأعمال الجيش الفرنسي الذي انقطع كل احتكاك به، منذ وقت طويل؛ الجرأة التي أصبحت تظهرها طلائعنا الآن في التسلل بين الفرنسيين المقيمين في منطقة تاروتينو، أخبار الانتصارات الصغيرة التي حققها القرويون والأنصار ضد الفرنسيين، التنافس الذي كانت تلك الأنباء تحدثه، الرغبة في الانتقام المغروسة في قلب كل جندي منذ أن احتل الفرنسيون موسكو، وفضلاً عن ذلك الإيمان الغامض الذي توغل في روح كل جندي بأن نسبة القوات لم تعد نفسها وأن الغلبة إلى جانبنا. ولما كانت نسبة القوى قد تبدلت فإن الهجوم لا مناص منه. وبمثل السرعة والدقة التي تدق فيها الساعة عندما يطوف العقرب الكبير متمماً دورة الميناء، كذلك أحدث ذلك التبدل في الأوساط العليا نشاطاً مضاعفاً مثل انطلاق النوابض وحركة اهتزاز جرس الساعة وقرع الأجراس.

الفصل الثالث

كان الأمبراطور يوجّه الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وأركان حربه من پيترسبورغ، وفيها أعدّوا مخططاً مفصلاً لكل الحرب قبل أن يصلهم نبأ تسليم موسكو وأرسلوه إلى كوتوزوف. وعلى الرغم من أن ذلك المخطط كان قائماً على افتراض وجود موسكو بين أيدينا، فإنه تُبني من قبل أركان حرب الجيش ووضع موضع التنفيذ. لكن كوتوزوف أبدى فقط ملاحظة تقول إن الحركات العسكرية البعيدة الرامية إلى صرف نظر العدو عن نقطة ما تكون عادة صعبة التنفيذ. لذلك، ولحسم الصعوبات المعترضة، بدأوا يرسلون إليه من پيترسبورغ تباعاً تعليمات جديدة وأشخاصاً جدداً مهمتهم مراقبة عملياته ورفع تقارير عنها.

أضف إلى ذلك أن أركان حرب الجيش تتعرض الآن لتبديل جذري إذ وجب تعيين شخص ما مكان پاغراسيون الذي قتل وباركلي، الذي تنحى بعد أن أهين في كرامته. ولقد دُرست أفضل السبل الواجب اتخاذها بخطورة متناهية: وضع «آ» مكان «ب» مكان «د»، أو «د» مكان «آ»، وكأن كل هذه التسميات كان يمكن أن تهدف إلى أكثر من إرضاء «آ» و«ب».

وبسبب الألفة القائمة بين كوتوزوف ورئيس أركان حربه بينيغسن، وكذلك بسبب التنقلات الواجب إجراؤها، ووجود شخصيات حائزة ثقة الأمبراطور في المعسكر، أخذت الأحزاب تلعب دوراً أكثر رصانة من المألوف، فكان «آ» يدسُّ على «ب» و«د» على «س»، في كل التبديلات

والترتيبات. وكانت تلك الدسائس تهدف في الغالب إلى الاستيلاء على إدارة العمليات من جانب مثيريها. لكن الحرب كانت تسير سيرها المعتاد في غنى عنهم لأنها ناجمة عن ردود الفعل عند الجماهير دون أن تنطبق مع الترتيبات المقررة. وكل هذه الترتيبات التي تتلاقى وتشتبك، لم تكن تمثل في الأوساط العليا إلا الانعكاس الصحيح لما كان ينبغي أن يحدث.

في رسالة كتبها الأمبراطور، يوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر، وتلقاها كوتوزوف بعد معركة تاروتينو، كتب الأمبراطور: «الأمير ميخائيل إيلاريونوڤيتش! منذ الثاني من أيلول/ سبتمبر وموسكو في يد الأعداء. إن تقاريرك الأخيرة مؤرخة في ٢٠، وطوال هذا الوقت لم تتخذ أية إجراءات ضد العدو لإنقاذ عاصمتنا الأولى فحسب بل كذلك، تبعاً لتقاريرك الأخيرة، بقيت تتراجع. إن سيربوخوف محتلة من قِبل فوج عدو وتولا، بمصنعها الشهير شديد الأهمية بالنسبة إلى الجيش أصبحت في خطر وأرى من تقارير الجنرال ونتزبخيرود، أن فوجاً معادياً تعداده عشرة آلاف رجل يقترب على طريق پيترسبورغ، وأن آخر تعداده بضعة آلاف من الرجال يتجه نحو ديمتروڤ وثالثاً يسير على طريق ڤلاديمير ورابعاً على جانب من ضخامة العدد يعسكر بين روزا وموجاييسك.

ولقد كان بالذات لا يزال في موسكو حتى في يوم ٢٥، فإذا كان العدو قد قسَّم قواه كما يستنتج من هذه المعلومات إلى فرق كبيرة، في حين أن ناپليون نفسه لا يزال في موسكو مع كل حرسه، فهل لا يزال ممكناً أن تكون إزاء جيش عرم لا تستطيع لوفرة عدده أن تنقلب إلى الهجوم عليه؟ إن الظاهر يوحي عكس ذلك ويفرض احتمال مطاردة العدو لك بفيالق إذا قورنت بالحوادث الموضوعة تحت إمرتك، كانت أقل عدداً وضئيلة جداً. وكان يبدو أنك تبعاً لهذه الظروف المؤاتية، كنت تستطيع محاولة القيام بهجوم ضد عدو أضعف

منك وأن تبيده أو أن ترغمه أقله على التراجع فتحفظ في أيدينا الجزء الأكبر من الأقاليم المحتلة اليوم وبذلك تدفع الخطر عن تولا وعن مدن أخرى في الداخل. وإذا كان العدو يستطيع إرسال جانب كبير من القوات إلى پيترسبورغ وأن يهدد هذه العاصمة شبه العزلاء تماماً، فإنك ستتحمَّل المسؤولية لأن لديك كل الإمكانات للحيلولة بالجيش الذي تحت إمرتك دون وقوع هذه المصيبة الجديدة إذا عملت بحزم وثبات.

تذكر أن عليك حتى الآن مسؤولية الرد على سبب ضياع موسكو أمام الوطن الغاضب. وإنك تعرف بالتجربة مدى استعدادي لمكافأتك. إن حسن الالتفاتة هذه لم يتبدل. لكن روسيا وأنا، من حقنا أن ننتظر منك كل الغيرة والحزم والنجاح الذي يسمح لنا ذكاؤك ومزاياك العسكرية وبسالة الجنود الموضوعين تحت إمرتك. أن نتوقعها منك».

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تلك الرسالة الدالة على أن نسبة القوى الصحيحة معروفة كذلك في پيترسبورغ، في طريقها نحو كوتوزوف، كان هذا في وضع لم يعد يسمح له أن يمنع الجيش الذي يأمره عن اتخاذ الهجوم وكانت المعركة دائرة فعلاً.

في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر، قتل القوقازي شاپوڤالوف الذي كان في دورية، أرنباً برياً وجرح آخر فاستسلم لرغبة مطاردة صيده الجريح وتوغل عميقاً في الغابة حتى عثر الجناح الأيسر لجيش مورا الذي لم يكن قد اتخذ أية حيطة في تلك الجهات. وروى القوقازي لزملائه وهو يضحك أنه كاد يقع بين الفرنسيين فرفع حامل العلم الذي سمع هذه الرواية تقريراً إلى رئيسه.

استدعي القوقازي واستجوب. وواتت رؤساؤه فكرة انتهاز الفرصة للقيام بغزوة يفوزون فيها ببعض الجياد. لكن أحد أولئك الرؤساء، وكان يعرف أرفع ضباط الجيش أبلغ الخبر إلى جنرال من أركان حرب الجيش،

وكان الموقف شديد التوتر في الأركان منذ بعض الوقت. ولقد جاء يرمولوف قبل بضعة أيام يتوسل إلى بينيغسن أن يستعمل نفوذه لدى الجنرال القائد الأعلى ليحمله على القيام بالهجوم.

فأجاب بينيغسن:

ـ لو أنني لم أكن أعرفك، لاعتقدت أنك تريد العكس تماماً، عكس ما تطلب، ليس عليّ إلا أن أشير بشيء ما حتى يعمد الجنرال القائد الأعلى إلى عمل عكسه تماماً.

أيدت الاستطلاعات النبأ الذي حمله القوقازي وأكدت بشكل نهائي أن الحدث قد نضج. وتمددت نوابض الساعة وصرت ثم قرع الجرس. واضطر كوتوزوف، رغم كل سلطانه العظيم وذكائه وخبرته ومعرفته بالرجال أن يأخذ في الاعتبار طلب بينيغسن الذي أرسل من قبل تقريره الشخصي حول هذا الموضوع إلى الأمبراطور، ورغبة كل جنرالاته الموحدة وكذلك الرغبة المفروضة أنها تجيش في نفس الأمبراطور نفسه والمعلومات التي قدمها القوقازيون فلم يعد بإمكانه إيقاف حركة أصبحت لا بدَّ منها، فأعطى تبعاً لذلك أمراً كان يقدر أنه خطير وعقيم:

لقد أيد الواقعة.

الفصل الرابع

كانت معلومات القوقازيين المؤكدة وكذلك تقرير بينيغسن أن جناح الفرنسيين الأيسر مكشوف، آخر الدلالات على الضرورة التي تسيطر عليهم والداعية إلى تنظيم الهجوم، وتم تحديد هذا الهجوم لليوم الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر.

ففي اليوم الرابع صباحاً، وقع كوتوزوف الأوامر. وقد قرأ تولّ الأوامر على إيرمولوف وأوعز إليه أن يتخذ آخر التدابير، فقال إيرمولوف:

ـ حسناً، حسناً. ولكن ليس لدي الوقت الآن.

وخرج من كوخه الخشبي.

كانت الخطة التي وضعها تولّ ممتازة. فكان يقرأ فيها، تماماً كما في خطة أوسترليتز، كل ما لم يكن مكتوباً بالألمانية.

الطابور الأول يسير نحو هذه البقعة أو تلك، والطابور الثاني يسير نحو هذا أو ذاك المكان الآخر، وهلمجرا. وكل هذه الطوابير التي تصل على الورق في الساعة المحددة إلى أمكنتها، ستسحق العدو. كانت خطة منظمة تماماً كما في كل الخطط. وكما في كل الخطط، لم يصل طابور واحد إلى مكانه في الوقت المحدد.

وعندما أصبحت كل نسخ الخطة المطلوبة جاهزة، استدعي ضابط وأرسل إلى إيرمولوف كي يسلمه الأوراق للتنفيذ. وراح الضابط، وهو فارس

شاب في الحرس ومساعد عسكري لكوتوزوف، إلى مسكن إيرمولوف وهو فخور بالمهمة الموكولة إليه.

أجابه تابع إيرمولوف:

ـ لقد خرج.

فذهب الضابط الفارس إلى مسكن الجنرال الذي درج إيرمولوف على زيارته.

ـ كلا، ليس الجنرال هنا.

فامتطى الضابط صهوة جواده مجدداً وذهب إلى مسكن آخر:

ـ كلا، لقد ذهب.

فكر الضابط: «المهم ألّا يعتبروني مسؤولاً عن التأخير! يا لسوء الطالع!» وحث جواده فطاف به المعسكر كله. روى له البعض أنهم شاهدوا إيرمولوف يبتعد مع بعض الجنرالات، بينما أكد البعض الآخر أنه عاد إلى مسكنه حتماً. وظل الضابط يبحث عن إيرمولوف في أي مكان وما من أحد يستطيع أن يدله على مكان وجوده! فتناول الضابط لقَيمات على عجل لدى أحد زملائه وعاد على الأثر إلى الطليعة عند ميلورادوڤيتش. لكن ميلورادوڤيتش هو الآخر لم يكن في مركزه. لكنهم قالوا لضابط الحرس إنه في الحفلة الراقصة القائمة في مسكن الجنرال كيكين وأن إيرمولوف لا بدَّ وأن يكون هناك.

ـ ولكن أين هذا المكان؟

فقال ضابط قوقازي وهي يشير إلى منزل أحد السادة في البعد:

ـ هناك، في ايتشكينو.

ـ كيف هنا! إن هذا وراء خطوطنا.

ـ لقد أرسلوا فوجين على الخط. إنهم الآن يقصفون قصفاً مريعاً! إن لديهم فرقتي موسيقى الفوج وثلاث فرق من المغنين.

مضى الفارس الضابط إلى ما وراء الخط، إلى ايتشكينو. وقبل أن يصل إلى منزل السيد، تناهى إلى سمعه إيقاع مرح لأغنية راقصة شائعة بين الجنود.

ـ «في الحقول.. في الحقول!» وكان الغناء يبلغ سماعه مصحوباً بأنغام المزامير وقرع الصنوج، تطغى عليه الأصوات الصاخبة من حين إلى آخر. ولقد نشط الضابط لهذه الأصوات البهيجة وفي الوقت نفسه ذعر لذنبه إذ كان يشعر بأنه مذنب لتأخره كل هذا الوقت في نقل الأمر الهام الموكول إليه. وكانت الساعة قد شارفت التاسعة. ترجل عن جواده وصعد مرقاة منزل أحد السادة الذي بقي سليماً لوقوعه بين خطوط الفرنسيين والروس تماماً، فرأى عدداً من الخدم يحملون النبيذ ويعملون في الردهة وفي المقلاد، وبعض المغنين مجتمعين وفي عدادهم إيرمولوف ذو الوجه المرتفع الوقور، وكلهم متقدة وجوههم تجيش بالحمية، التفوا في نصف دائرة وراحوا يقهقهون ملء حناجرهم وقد حلوا أزرار ستراتهم الرسمية. وفي وسط القاعة، أخذ جنرال جميل معتدل القامة محمرّ الوجه، يرقص بنشاط وحذق رقصة شعبية يتخللها قرع بالكعبين وثني مفاجئ من الركبتين.

ها! ها! ها! أنشط! نيكولا إيڤانوڤيتش! ها! ها! ها!

شعر الضابط الفارس أنه بدخوله الآن حاملاً تلك الأوامر الهامة، مذنباً مرتين، فأراد الانسحاب. لكن أحد الجنرالات لمحه. فلما عرف سبب وجوده، أشار إلى إيرمولوف عليه، فجاء إيرمولوف نحوه مقطب الحاجبين وبعد أن أصغى إليه، أخذ أوراقه دون أن ينبس بكلمة.

قال أحد رفاق الضابط الفارس ذلك المساء في حديث عن إيرمولوف، وكان ذلك الضابط ملحقاً بالأركان العامة:

ـ هل تعتقد أنه لم يتعمد الاختفاء؟ إنها مؤامرة، إنه تدبير مقصود. إنه يريد أن يخدع كونوڤيتش. انتظر، سترى مدى الفوضى غداً!

الفصل الخامس

في ساعة مبكرة، أوقظ كوتوزوف العجوز، في اليوم التالي، فتلا صلاته وارتدى ملابسه وركب عربة خفيفة حاملاً بين جنبيه الإحساس الكريه باضطراره إلى إدارة دفة معركة لا يقرها، ومضى من ليتاشوفكا، على مسافة خمسة فراسخ وراء تورتينو، ليلحق بالمنطقة التي كان على طوابير الهجوم أن تجتمع فيها. مضى وهو يغفو ويستيقظ ويصيخ السمع ليعرف ما إذا كانوا يطلقون النار عن اليمين وما إذا كانت المسألة لم تبدأ بعد. لكن كل شيء بقي حتى ذلك الحين ساكناً وكان فجر يوم خريفي رطب ومكفهر، منبثق بالكاد، ولما بلغ تورتينو، لاحظ كوتوزوف فرساناً يأخذون خيولهم إلى الورد وهم يجتاوزن الطريق التي تسلكها عربته.

تأملهم واستوقفهم وسألهم عن الفيلق الذي ينتمون إليه. كان أولئك الفرسان تابعين لطابور كان عليه أن يكون منذ فترة طويلة، بعيداً إلى الأمام في كمين فحدث الجنرال القائد الأعلى العجوز نفسه قائلاً: «إنه خطأ بدون شك» ولكنه بعد ذلك رأى فيالق مشاة وقد ركزوا بنادقهم باقات متباعدة، يهيئون طعامهم ويجمعون الحطب وهم في سراويلهم الداخلية. استدعى ضابطاً، فأخبره الضابط أي أمر بالهجوم لم يصدر إليهم.

بدأ كوتوزوف يقول: كيف، هل هذا مما..

لكنه سكت وأرسل يستدعي القائد. ترجَّل من عربته مطرق الرأس ضيق الأنفاس وراح ينتظر بصمت وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً. وعندما وصل

ضابط الأركان إيخن الذي أرسل يستدعيه، تدفقت الدماء إلى وجه كوتوزوف لا لأن هذا الضابط المسؤول عن الخطأ المرتكب، بل لأنه شخص يمكنه أن يصب جام غضبه عليه. وبلغ الرجل العجوز أقصى درجات الغضب التي كانت فيما مضى تجعله يتدحرج على الأرض، واندفع نحو إيخن يرتجف لاهث الأنفاس مزمجراً يهدده بقبضتيه وأمطره بأقذع الشتائم وأحطها. وجاء ضابط آخر، الرئيس بروزين، في تلك اللحظة، فلقي مصير زميله نفسه رغم أنه لم يكن مذنباً في شيء. راح كوتوزوف يزمجر بصوت أجش وهو يلوح بيديه ويترنح: «ما هذه السفالة؟ ليعدموهم بالرصاص! حقيرون!».

كان يشعر بألم مادي. هو، الجنرال الأول، القائد الأعلى الذي كان الناس كلهم يؤكدون له أنهم لم يروا قط في روسيا نفوذاً يضاهي نفوذه، هو الآن في موقف قمين بإثارة سخرية الجيش كله! حدث نفسه: «ما فائدتي من كثرة الصلوات التي تلوتها لهذا اليوم، ما فائدة عدم الإغفاء طوال الليل كي أحسب لكل شيء أفضل الحساب! عندما كنت ضابطاً صغيراً لم يكن أحد يجرؤ على أن يسخر مني!» كان يشعر بألم مادي فلم يكن قادراً على الامتناع عن إطلاق صرخات الغضب والألم وكأنه يتلقى جزاءً جسدياً. لكن قواه لم تلبث أن فارقته، نظر حوله وشعر بأنه تمادى كثيراً في سبابه، فعاد يصعد إلى عربته ورجع في سيره إلى الوراء صامتاً.

وعندما انقشعت سحابة الغضب تلك، لم تتلبد بعد ذلك بل أخذ كوتوزوف يصغي وهو يطرف بعينيه، إلى المبررات والدفاع ومرافعات بينيغسن وكونوڤنيتش وتولّ حول ضرورة إرجاء العملية الفاشلة إلى الغد، فاضطر كوتوزوف من جديد إلى إبداء موافقته. أما إيرمولوف، فإنه لم يمثل أمامه إلا في اليوم التالي.

الفصل السادس

اجتمعت القوات في الأمكنة المحددة وبدأ الهجوم أثناء الليل، في مساء اليوم التالي. كانت ليلة خريفية حيث الغيوم لونها أسود مشوب بالبنفسجي ولكن بدون مطر، ولم تكن الأرض رغم رطوبتها موحلة فكانت القطعات تسير دون ضجيج ولا يسمع من حين إلى آخر إلا قرقعة المدفعية المكتومة. وكان قد مُنع الحديث بصوت مرتفع والتدخين وقدح الصوان وكانوا يحولون دون صهيل الجياد، فكانت سرية العملية تزيد في روعتها. أخذ الرجال يتقدمون بانشراح، وتوقفت بعض الطوابير وأقام جنودها بنادقهم باقات متقاربة وناموا على الأرض الباردة، ظناً منهم أنهم وصلوا إلى المكان المحدد لهم. أما البعض الآخر، وهو معظم الطوابير، فقد استمرت في المسير طوال الليل فبلغت دون ريب المكان الذي لم يكن عليها أن تصل إليه.

إلا أن الكونت أورلوف ـ دينيسوف وحده مع جنوده القوقازيين، وهم أصغر الأفواج عدداً، وصلوا إلى أماكنهم في الوقت المناسب. توقف هذا الفوج عند أقصى حدود الغابة، على درب يؤدي من قرية ستروميلوڤو إلى قرية دميتروڤسكويْ.

أيقظوا الكونت أورلوف الذي كان نائماً، قبل الفجر وجاؤوا إليه بأحد الجنود الفارين من المعسكر الفرنسي. كان هذا صف ضابط بولوني من فوج بونياتووسكي، شرح لهم أن سبب فراره يعود إلى هضم حقوقه لأنه كان يجب أن يرقى إلى رتبة ضابط منذ مدة طويلة لأنه أكثر بسالة من كل الآخرين ولهذا

السبب، فقد تنكر للفرنسيين وأصبح لا يفكر إلا في الانتقام. ثم أكد أن مورا يقضي الليل على بعد فرسخ واحد من مكان وجودهم وأنهم إذا زودوه بمائة رجل، استطاع أن يأتي به حياً. تشاور الكونت أورلوف ـ دينيسوف مع زملائه. لقد كانت الفكرة شديدة الإغراء يمتنع طرحها. تطوعوا جميعهم للذهاب وأشادوا جميعهم بالمحاولة. وبعد مناقشات ومحادثات كثيرة، قرر الجنرال ماجور غريكوف أن يتبع البولوني مع سريتين من القوقازيين.

قال الكونت أورلوف ـ دينيسوف لصف الضابط وهو يصرفه:

ـ ولكن تذكر جيداً أنك إذا كنت كاذباً فسأشنقك كالكلب. أما إذا كنت صادقاً، فسأمنحك مائة دوكا (عملة ذهبية قديمة).

امتطى صفّ الضابط جواده دون أن يجيب وانطلق بادي العزم مع غريكوف الذي استعد بسرعة ونشاط فاختفيا في الغابة. تبع الكونت أورلوف الذي كان يرتجف بتأثير برودة النهار المنبلج ويحس بالقلق للمسؤولية التي اضطلع بها، غريكوف بأبصاره ثم تقدم خارج ستر الغابة وراح يراقب معسكر الأعداء الذي كان يرتسم كالسراب تحت الضوء الآخذ بالانتشار، ويتأمل نيران مخيماته الآخذة بالخمود. وكانت وحداتنا ستخرج عن يمين الكونت أورلوف ـ دينيسوف، عند سفح هضبة مكشوفة فنظر إلى ذلك الاتجاه ولكنه رغم تيسر الرؤية على البعد، لم ير أحداً. وخيل إلى الكونت أورلوف ـ دينيسوف، وخصوصاً مساعده العسكري الذي كان يمتاز بنظر حاد، أن انتعاشاً ما يقع في معسكر الفرنسيين.

قال الكونت أورلوف بعد أن تأمل المعسكر:

ـ آه! لا شك أنه فات الأوان!

وكما يحدث غالباً عندما يكون الشخص الذي وضعت الثقة فيه بعيداً عن الأنظار، أدرك أورلوف فجأة وبوضوح بيّن أن البولوني غشاش ماكر كذب

عليه وأنه سوف يبلبل الهجوم بدون تينك السريتين اللتين الله يعلم إلى أين يقودهما ذلك الماكر. هل كان ممكناً أسر جنرال أعلى في مثل هذه الكثافة من القطعات؟

أضاف: أجل، هذا أكيد، لقد كذب، ذلك النذل.

قال أحد ضباط الحاشية الذي طافت بذهنه كالكونت أورلوف ـ دينيسوف شكوك في نجاح المشروع منذ أن راح يتأمل معسكر الأعداء!

ـ نستطيع استدعاءه.

ـ هه؟ حقاً؟ ما قولكم؟ هل يعمل أم لا؟

ـ هل يصدر الأمر بإعادته؟

فقرر الكونت أورلوف فجأة وهو ينظر إلى ساعته: نعم، نعم، ليعد! لقد فات الأوان وانبلج الصبح تماماً.

مضى المساعد العسكري «هدباً» على جواده عبر الغابة ليلحق بغريكوف فلما عاد هذا، قرر أورلوف ـ دينيسوف الهجوم وقد استبد به قلق حيال هذه المحاولة الفاشلة وكذلك لانتظاره دون جدوى وصول وحدات المشاة واقترابه من الأعداء ـ (وهو الشعور الذي شاركه فيه كل رجال وحدته).

أمر بصوت خفيض: «إلى الجياد» فاتخذ كل مكانه ورسم شارة الصليب «في حراسة الله!».

دوت صيحات «هورّا» في الغابة وراح القوقازيون في فصائل مؤلفة من مائة فارس، يتبعثرون بمرح مائة بعد مائة، أشبه بحبات القمح المتساقطة من كيس، وانقضّوا على معسكر العدو وقد أرخوا لجيادهم الأعنة واجتازوا نهيراً..!

انطلقت صرخة رهيبة من حناجر الفرنسيين الأوائل الذين شاهدوا

القوقازيين وركض كل من في المعسكر، نصف عراة، تاركين المدافع والبنادق والجياد هاربين في كل الاتجاهات.

ولو أن القوقازيين استمروا يطاردون الفرنسيين دون أن يأبهوا لما وراءهم وحولهم، لأسروا مورا وكل من كان معه. وكان هذا هو ما يريده الرؤساء ولكن لم يعد في الإمكان زحزحة القوقازيين الذين اقتصر تفكيرهم على الأسلاب والسجناء. لم يعد أحد يصغي إلى الأوامر، ولقد غنموا هناك ألفاً وخمسمائة أسير وثمانية وثلاثين مدفعاً وأعلاماً وما يثير اهتمام القوقازيين أكثر من سواه، خيولاً وسروجاً وأغطية وألف حاجة أخرى مختلفة وكان ينبغي إعداد كل هذه الأشياء: وضع اليد على الأسرى والمدافع، توزيع المغانم، التماحك بل الوصول إلى الأيدي. ولم يكن القوقازيون عاجزين عن كل هذا.

استعاد الفرنسيون الذين لم يعد أحد يطاردهم حواسهم، فنظموا صفوفهم وبدأوا يطلقون النار. وكان أورلوف ـ دينيسوف ينتظر دائماً سراياه ولا يتقدَّم في هجومه إلى أبعد من ذلك.

في تلك الأثناء، تبعاً للخطة العسكرية: «الطابور الأول يمشي إلخ...» تحرك المشاة المتأخرون بقيادة بينيغسن وتوجيه تولّ، في الوقت المناسب وبما يشبه الحقيقة، واتجهوا إلى جهة ما، ولكن ليس إلى المكان المحدّد لهم. وبما يشبه الحقيقة، انتهى الأمر بالرجال الذين ذهبوا والبهجة تملأ نفوسهم، إلى التوقف وقد ظهر عليهم الاستياء والشعور بالخجل فعادوا على أعقابهم. وكان المساعدون العسكريون والجنرالات على صهوات خيولهم يصرخون ويسخطون ويتخاصمون ويزعمون أنهم ليسوا أبداً في المكان الذي يجب أن يكونوا فيه وأنهم تأخروا، ويلقي كل منهم تبعة الخطأ على الآخر حتى أنهم أخيراً أقلعوا عن ذلك وراحوا يمشون لمجرد المشي. «سوف نصل حتماً إلى مكان ما!» والواقع أنهم وصلوا متأخرين جداً، ولكن ليس إلى حيث كان عليهم

أن يصلوا، بل ليكونوا بالنتيجة هدفاً صالحاً للعدو، وكان تول الذي لعب في هذه المعركة دور ويروذر في معركة أوسترليتز، يجري على جواده مسرعاً من جانب إلى آخر ليجد في كل جانب أن الأمور سارت على عكس اتجاهها المفترض، وعلى هذا النحو، وقع على فيلق باغوڤو في صميم الغابة وقد انبلج الصباح، في حين كان على هذا الفوج أن يكون منذ وقت طويل مع أورلوف ـ دينيسوف، ولقد غضب تول وشعر بجرح في كرامته لإخفاقه وافترض أنه لا بدَّ من وجود مذنب مسؤول، فأسرع على جواده إلى قائد الفوج وأمطره وابلاً من اللوم الجارح قائلاً إنه يستحق الإعدام رمياً بالرصاص. فخرج باغوڤو الذي لم يكن جنرالاً للمظاهر بل باسلاً عجوزاً ابن القتال مجرباً في المعارك، خرج للدهشة العامة عن هدوئه الطبيعي وقد أغضبته كل هذه التوقفات والبلبلة والأوامر المتناقضة مثلما أحنقت تول، واستبدت به ثورة مفاجئة، فأجاب تول بقحة قائلاً:

ـ لست أريد أن أتلقى درساً من أحد وأعرف كيف أموت أنا وجنودي كأي آخر تماماً.

واندفع إلى الأمام يتبعه فوجه وحده.

ولما وصل إلى ساحة المعركة، تحت وابل نيران الفرنسيين، لم يتساءل باغوڤو الباسل في سورة غضبه ما إذا كان مفيداً أو عقيماً خوض المعركة في تلك الأثناء بفوجه وحده، بل قاد جنوده مباشرة إلى النار. لقد كان الخطر والقذائف والرصاص كل ما ينبغي له في اندفاعه الغاضب، فقتلته إحدى الرصاصات الأولى فوراً وأردت الرصاصات التالية كثيراً من الجنود وبقي فوجه وقتاً ما تحت مرمى النيران عبثاً دون جدوى.

الفصل السابع

إلى الأمام، قُدّر لطابور آخر أن يقع على الفرنسيين، في تلك الأثناء. لكنه كان الطابور الذي أقام كوتوزوف قريباً منه. كان يعرف تماماً أن هذه المعركة التي بدأت رغم إرادته، لن تؤدي إلا إلى العار، فكان يستوقف القطعات على قدر طاقته.

كان ساكن الحركة صامتاً، ممتطياً صهوة جواده الأشهب. يجيب دون تلهف على العروض التي يقدمونها إليه حول الهجوم.

قال لميلورادوڤيتش الذي كان يسأله أن يتقدم إلى الأمام: ليس على لسانك إلا الهجوم ولا ترى أننا لا نحسن القيام بحركات معقدة.

وأجاب على آخر: إنك لم تعرف كيف تأخذ مورا حياً هذا الصباح ولا أن تصل إلى مكانك المحدد في الوقت المعين. والآن، فات الأوان.

ولما جاؤوا ينبئونه أن في أعقاب الفرنسيين الذين كانوا مكشوفين بادئ الأمر، حسب معلومات القوقازيين، يقوم الآن لواءان من البولونيين، نظر من جانب عينه إلى إيرمولوف الذي لم يوجه إليه كلمة ما منذ أمس وقال:

ـ أرأيت. يطالبون بهجوم ويقدمون مجموعة من المشاريع. وعندما ينتقلون إلى العمل، لا يكون شيء جاهزاً في حين أن العدو الذي أنذر قد اتخذ حيطته.

أغمض إيرمولوف عينيه نصف إغماضة وطافت على شفتيه ابتسامة

خفيفة. أدرك أن العاصفة بالنسبة إليه قد تبددت وأن كوتوزوف سيكتفي بهذا التلميح فحسب.

قال إيرمولوف بصوت خفيض وهو يلكز بركبته راييڤسكي الذي كان إلى جانبه:

ـ إنه يسخر مني.

ولم يلبث بعد أن اقترب إيرمولوف وقال لكوتوزوف باحترام:

ـ لم نخسر شيئاً يا صاحب السمو فالعدو لا يزال هنا إذا أردتم إصدار الأمر بالهجوم. وبغير ذلك، فإنّ الحرس لن يشموا حتى رائحة البارود.

لم يجب كوتوزوف بشيء. وعندما أعلنوا له أن قطعات مورا قد انسحبت أصدر الأمر المتوقع، لكنه بعد كل مائة خطوة، كان يأمر بتوقف ثلاثة أرباع الساعة.

إذن، اقتصرت المعركة على هجوم القوقازيين التابعين لأورلوف-دينيسوف. أما بقية القطعات، فقد فقدت دون أي فائدة بضع مئات من الجنود.

وكانت النتيجة بالنسبة إلى كوتوزوف وساماً من الماس، وماسات إلى بينيغسن ومائة ألف روبل. أما الضباط الآخرون، فقد أنعم عليهم بحسب رتبهم بهبات ثمينة، أضف إلى ذلك أن تنقلات جديدة وقعت في أركان حرب الجيش.

قال الجنرالات والضباط الروس بعد مسألة تاروتينو: «هذا هو النمط الذي تسير عليه الأمور عندنا، كل شيء على عكسه!» كذلك كانوا دائماً يتحدثون كلما أرادوا أن ينوهوا بأنه إذا أخطأ أحمق ما في التصرف، فإنّ الأمور كانت ستدور خلاف ذلك. لكن الذين كانوا يتحدثون على هذا النحو، ما كانوا يعرفون شيئاً عن المسألة التي ينتقدونها أو كانوا يسخرون عارفين. لأن كل

معركة، سواء أكانت معركة تاروتينو أم بورودينو أم أوسترليتز، تقع خلافاً لما يتوقعها واضعو خططها. وهذا أمر جوهري.

إن عدداً لا يحصى من القوى المستقلة يؤثر في سياق معركة ما لأن المرء لا يكون أكثر حرية منه في غمار معركة حيث يتعلق الأمر بالحياة أو الموت. لذلك يستحيل إذن معرفة سياق المعركة مسبقاً ولا يمكن أن تتبع أبداً اتجاهاً تفرضه قوة واحدة، أياً كانت هذه القوة.

وإذا عملت قوى عديدة في آن واحد وفي اتجاهات مختلفة عن جسم ما، فإن اتجاه الحركة المفروضة على هذا الجسم لن يكن اتجاه أية واحدة من هذه القوى بل يكون دائماً الاتجاه المتوسط الأقرب، ذلك الاتجاه الذي يعبر عنه في علم «الميكانيك» بخط الزاوية المسطح متوازي أضلاع القدرة.

وإذا قرأنا في حكايات المؤرخين، وبصورة خاصة الفرنسيين منهم، أن حروبهم ومعاركهم اتسعت وجرت وفقاً لخطة مسبقة، فإنّ المغزى الوحيد الذي نستنتجه من ذلك هو أن حكاياتهم غير صحيحة.

من الواضح أن معركة تاروتينو لم تبلغ الهدف الذي رسمه تولّ، أي أن توجه المعركة تبعاً لنظام خطته، ولا الهدف الذي كان يتوخاه الكونت أورلوف بأسر مورا، ولا غاية بينيغسن أو آخرين بإبادة كل هذا الجانب من جيش العدو دفعة واحدة، ولا بغية الضباط الراغبين في الاشتراك في عملية ما لإظهار مزاياهم ولا رغبة القوقازي الذي كان يطمع في الاستيلاء على جانب من الأسلاب أكبر مما وجد إلخ.. ولكن، إذا كانت الغاية التي بُلغ إليها بالفعل والتي كان الروس كلهم يطمعون فيها، أي طرد الفرنسيين من روسيا وإبادة جيشهم، فإننا نرى إذن بوضوح كالنهار، أن معركة تاروتينو انتهت بسبب

الأخطاء التي ارتكبت، إلى النهاية المتوجبة خلال فترة الحملة كلها. وأنه يصعب بل يستحيل أن نتخيّل نهاية أفضل من التي انتهت إليها تلك المعركة. لقد حصلنا على أعظم نتائج الحملة كلها بأقصى درجات الفوضى وبأقل مجهود وبخسائر تكاد تكون عادية جداً. لقد انقلبنا من التقهقر إلى الهجوم وكشف الستر عن ضعف الفرنسيين وأنزلت الضربة بجيش ناپليون لتحمله على البدء بالفرار.

الفصل الثامن

بعد النصر الساطع في موسكوڤا، دخل ناپليون موسكو، إنه نصر لا شك فيه لأن الفرنسيين استمروا أسياد ساحة المعركة. وتراجع الروس وسلموا عاصمتهم، وموسكو الطافحة بالأرزاق والأسلحة والذخائر وبالثروات التي لا تحصى، أصبحت بين يدي ناپليون. والجيش الروسي الأضعف مرتين من الجيش الفرنسي لا يظهر طوال شهر كامل، أية رغبة في الهجوم. وموقع ناپليون من أفضل المواقع وأبرزها، يستطيع بجيشه المتفوق مرتين على القوات الروسية أن يقضي على فلول هذه ويبيدها، ويستطيع عقد صلح لمصلحته أو أقله، في حالة الرفض، أن يحاول القيام بحركة تهدد پيترسبورغ، بل إنه يستطيع كذلك في حالة عدم النجاح أن يرجع باتجاه سمولسنك أو فيلنا أو أن يبقى في موسكو.

وباختصار، لكي يحافظ ناپليون على مركزه اللامع الذي كان الجيش الفرنسي يحتله حينذاك، لم يكن في حاجة على ما يبدو إلى أن يكون عبقرياً خارقاً. كان يكفيه من أجل ذلك أن يقوم بأبسط الأشياء وأسهلها، أي أن لا يترك جيشه يستسلم للنهب، وأن يعد ألبسة الشتاء التي تستطيع موسكو أن تقدمها للجيش كله وأن ينظم بحكمة توزيع الأرزاق التي كانت في المدينة، كافية لأكثر من عشرة أشهر تبعاً لأقوال المؤرخين الفرنسيين. غير أن ناپليون عبقري العباقرة، الذي كانت له السلطة.. على قول المؤرخين ـ لم يقم بشيء من هذا القبيل.

لم يغفل هذه التدابير كلها فحسب بل استعمل سلطته ليختار من التدابير الواجب اتخاذها، أسوأها وأردأها. لم يتخذ ناپليون بين كل ما يستطيع اتخاذه: قضاء الشتاء في موسكو، الذهاب إلى پيترسبورغ، الذهاب إلى نيغني ـ نوڤغورود، التقهقر سواء نحو الشمال أو أبعد إلى الجنوب عن الطريق الذي سلكه كوتوزوف فيما بعد، أسوأ وأكثر شؤماً مما اتخذ: لقد بقي حتى تشرين الأول/ أكتوبر في موسكو وأعطى الإذن لجنوده بنهب المدينة، ثم بعد أن تردد في ترك حامية في موسكو، خرج منها واقترب من كوتوزوف دون الالتحام معه، وتوجه نحو اليمين فبلغ مالو ـ ياروسلاڤل، وبدلاً من اتخاذ الطريق الذي سلكه كوتوزوف، رجع إلى موجاييسك دون أن يحاول فتح أية ثغرة، عبر طريق سمولنسك المعبد، وسط أقاليم مخربة، وبذلك لم يكن هناك أكثر حمقاً وشؤماً من هذا التصرف، كما دلت النتائج على ذلك، فإذا افترضنا أن غاية ناپليون كانت تهدف إلى قيادة جيشه إلى نهايته، فإن أبرع الخطط العسكرية لم تكن تستطيع تنظيم مخطط للعمليات قادرة على إلحاق الدمار الكامل بالجيش الفرنسي مثل هذه الخطة بصرف النظر عن كل ما كان يمكن للجيش الروسي أن يقوم به!.

لقد قام ناپليون العبقري بكل ذلك. لكن القول بأن ناپليون أضاع جيشه لأنه أراد ذلك أو لأنه لم يك إلا مجرد أحمق، قول خاطئ أيضاً يتساوي بالخطأ مع القول بأنه قاد قطعاته إلى موسكو لأنه كان على ذكاء وعبقرية استثنائيين.

ففي كلتا الحالتين، لم يكن تصرفه الشخصي الذي لم يكن أكثر أهمية من تصرف أي من جنوده إلا متفقاً مع القوانين التي كانت تسيطر على الأحداث.

وإنه لمن الكذب الفاضح الزعم بأن قواته ضعفت في موسكو كما يقول المؤرخون لمجرد أن الأحداث لم تكن في مصلحة تصرفات ناپليون. ففي تلك الفترة كما من قبلها وكذلك بعدها في عام ١٨١٣، بذل ذكاءه

وقواه ليتصرف بمصالحه ومصالح جيشه على أفضل وجه. ونشاط ناپليون خلال هذه الحقبة ليس أقل إثارة للدهشة منه في مصر وإيطاليا والنمسا وفي بروسيا. ولسنا ندري إلى أي حد كانت عبقرية ناپليون في مصر، حيث تأملت القرون الأربعون عظمته، حقيقية، لأن مآثره الرائعة لم تنقل إلينا إلا عن طريق الفرنسيين. وكذلك الحكم على عبقريته في النمسا وفي بروسيا لأن الشهادات المؤيدة لحركاته لا يمكن أن تُتخذ إلا من مصادر المؤرخين الفرنسيين والألمان. فاستسلام جيوش بأسرها دون قتال، والقلاع دون حصار بذلك الشكل الذي لا يصدق، لا بدَّ وأن يدفع الألمان إلى الاعتراف بعبقرية ناپليون بوصفها المبرر الوحيد للحرب التي وقعت في ألمانيا. أما نحن فليست بنا والحمد لله أية حاجة إلى الاعتراف به كعبقري لستر عارنا. ولقد دفعنا الثمن ليصبح من حقنا النظر في أعماله ببساطة ودون مواربة ولن نتخلى عن هذا الحق.

إن نشاطه في موسكو مدهش وعبقري مثله في كل مكان آخر. فالأوامر تلو الأوامر والخطط تلو الخطط كانت تصدر عنه منذ ساعة دخوله موسكو وحتى لحظة خروجه منها. فغياب السكان وممثلي الأشراف، بل حتى حريق موسكو لم يقلقه. إنه لم يغفل مصلحة جيشه ولا حركات العدو ولا رفاقية الشعوب الروسية ولا إدارة الأعمال في باريس ولا الترتيبات الدبلوماسية سعياً وراء الصلح.

الفصل التاسع

منذ دخوله موسكو، أعطى ناپليون تعليمات مشددة من الناحية العسكرية إلى الجنرال سيباستيان الذي عليه أن يتبع حركات الجيش الروسي وأن يرسل وحدات من الجيش إلى مختلف الجهات، وأشار على مورا أن يجد كوتوزوف. ثم اتخذ التدابير الصارمة ليحصن الكرملين ثم رسم على خريطة روسيا الخطة العبقرية المتعلقة بحملته المقبلة.

ومن الناحية الدبلوماسية استدعى ناپليون إليه ياكوڤليف، وهو رئيس مسلوب من كل شيء لم يكن حينذاك أكثر من صعلوك لا يدري كيف يخرج من موسكو، وشرح أمامه سياسته وأظهر له عظمة نفسه. وبعد أن كتب رسالة إلى الأمبراطور ألكسندر أظهر فيها اعتقاده بأن من واجبه إخطار صديقه وأخيه أن روستوبيتشين أساء التصرف في موسكو، أرسل ياكوڤيلف يحملها إلى پيترسبورغ. كذلك أفاض في إظهار عظمة روحه وشرح وجهات نظره أمام توتولمين، وأرسل هذا العجوز أيضاً إلى پيترسبورغ ليشرع في محادثات هناك.

أما من الناحية القضائية، فقد أمر فور اندلاع بالبحث عن الفاعلين وإعدامهم، ولقد أوخذ الوحش روستوبيتشين لحريق منزله الشخصي. بينما جوزيت موسكو من الناحية الإدارية بدستور. أقيمت بلدية وعُلق النداء التالي.

«إلى سكان موسكو!.

«إن محنتكم قاسية. لكن جلالته، أمبراطور وملك، يريد أن يضع حداً لها. لقد علمتكم أمثلة رهيبة كيف يتمّ عقاب العصيان والجريمة. لقد اتخذت

إجراءات صارمة لوضع حد للفوضى وإنعاش الأمن العام. سوف تقوم إدارة أبوية، تُنتخب من بينكم، على تشكيل بلديتكم، أي حكومة مدينتكم. سوف تهتم تلك البلدية بكم وباحتياجاتكم ومصالحكم، وسيُعرف أعضاؤها من الوشاح الأحمر الذي سيضعونه متقاطعاً. أما رئيس البلدية، فسيتمنطق فوقه بنطاق أبيض. لكن أعضاء البلديّة، لن يضعوا خارج عملهم إلا شارة حمراء حول الذراع اليسرى.

«إن الشرطة البلدية قد أقيمت على النظام القديم تماماً، وبفضل نشاط رجالها، استتب حتى الآن نظام أفضل. لقد عينت الحكومة «قوميسارين» عامين أو صاحبي شرطة وعشرين قوميسراً، أو «تشاستني بريستاڤس» وُزعوا على كل حيّ من أحياء المدينة، ستعرفونهم من الشارة البيضاء التي يلفّونها حول الذراع اليسرى لكل منهم. ثم إن عديداً من الكنائس تقام فيها الطقوس الدينية لمختلف المذاهب، قد فتحت وأصبحت الصلوات الدينية تقام فيها دون عارض. إن مواطنيكم يعيدون كل يوم تأثيث منازلهم وقد أعطيت الأوامر اللازمة ليجدوا كل عون وحماية عند المحنة.

تلك هي الوسائل التي استخدمتها الحكومة لإعادة النظام وتسوية وضعكم. ولكن، لبلوغ هذه الغاية، من الضروري أن تضيفوا مجهوداتكم إلى مجهوداتهم وأن تنسوا، إذا أمكن، الآلام التي عانيتموها وأن تملأوا نفوسكم بأمل الوصول إلى نهاية أقل قسوة. كونوا متأكدين أن الموت المحتوم ينتظر كل الذين يحاولون الاعتداء على أشخاصكم أو على ما تبقى من مقتنياتكم. وإذن، يجب ألّا يدخل الشك إلى نفوسكم بأن هذه المقتنيات ستحفظ لكم لأن هذه هي إرادة أكبر سلطان وأعدل ملك. أيها الجنود والسكان من أية ملّة كنتم! أعيدوا الثقة العامة، هذا المصدر لسعادة الدولة وعيشوا إخواناً، تبادلوا

المساعدة والحماية واتحدوا لمقاتلة المشاريع الإجرامية، أطيعوا السلطات العسكرية والبلدية، فلن تلبث دموعكم أن تكف عن الانحدار».

ومن ناحية الغذاء، أوعز ناپليون إلى كل قواته أن تهبط موسكو دورياً وبشكل غير ملحوظ لتجمع الأرزاق سلباً لتأمين مؤونة الجيش المقبلة.

وأمر ناپليون من الناحية الدينية أن يُعاد الكهنة ليقيموا في الكنائس طقوسهم الدينية كسابق عهدهم.

وأعلن في كل مكان تأميناً لناحيتي التجارة وتأمين الأرزاق للجيش، ما يأتي:

إعلان

«إليكم، يا سكان موسكو الوادعين ورجال العمل والعمال الذين أبعدتكم المحن عن المدينة، وأنتم، يا عمال الأرض الذين لا يزال خوف وهمي يجعلكم مشتتين في الأرياف! لقد عاد الهدوء إلى العاصمة واستتب فيها النظام. إن مواطنيكم يخرجون دون خوف من مساكنهم وهم واثقون بأنهم سيُحترمون. إن كل شدة مستعملة ضدهم أو ضد ممتلكاتهم تقمع من فورها. إن جلالته، أمبراطور وملك، يشملهم بحمايته، ولا يعتبر أعداء من بينكم إلا أولئك الذين يعصون أوامره. إنه يريد أن يضع حداً لآلامكم وأن يعيدكم إلى بيوتكم وعائلاتكم.

تقبلوا إذن تدابيره الرفيقة وتعالوا إلينا بكل طمأنينة. أيها السكان! نظموا مساكنكم بهدوء وستجدون فور ذلك إمكانية القيام بأودكم. أيها الصناع والعمال المجدون! عودوا إلى أعمالكم دون مماطلة: إن البيوت والحوانيت ودوريات المراقبة تنتظركم، وستتلقون على عملكم الأجر الذي يتفق معكم. وأنتم أخيراً أيها الفلاحون، أخرجوا من الغابات حيث جعلكم الخوف

تختبئون، وعودوا دون خوف إلى أكواخكم، ولتكونوا على تمام الثقة بأنكم ستجدون فينا حماتكم. لقد أقيمت في المدينة مستودعات كبيرة يستطيع الفلاحون أن يحملوا إليها الفائض من حاصلاتهم. ولقد اتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين الرواج الحر:

١ ـ اعتباراً من اليوم، يستطيع الفلاحون والمزارعون وسكان ضاحية موسكو الآخرون أن يحملوا دون أي خوف إلى المدينة، محاصيلهم من أي نوع كانت، إلى المستودعين المقامين لهذا الغرض في شارع موخوڤاييا وفي الأخوتنيرياد.

٢ ـ إن هذه المحاصيل ستبتاع منهم بأسعار تقوم على أساس اتفاق بين البائع والمشتري، فإذا لم يحصل البائع على السعر الذي يطالب به بحق، فإنه حر في إعادة بضاعته إلى منزله، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه تحت أي اعتبار.

٣ ـ إن يومَي الأحد والأربعاء من كل أسبوع خصصا لإقامة السوق الأسبوعية العامة: ولهذا الغرض، ستقام فصائل من الجند بعدد كاف على الطرق العامة أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع لحماية القوافل. وقد اتخذت هذه التدابير فيها لعودة القرويين في عرباتهم مع جيادهم دون أي صعوبة.

٤ ـ ستتخذ تدابير مستمرة لإعادة التجارة الطبيعية. يا سكان المدينة والقرى، وأنتم يا رجال الصناعة والعمال، من أية ملة كنتم! إن الأمبراطور والملك يدعوكم إلى التقيد بتدابيره الأبوية وأن تتعاونوا معه لإعادة الرفاهية العامة. احملوا إلى قدميه احترامكم وثقتكم ولا تترددوا في الاتحاد معنا!».

وكانوا يقيمون استعراضات مستمرة ويوزعون المكافآت كي يرفعوا من معنويات الجيش والشعب. وكان الأمبراطور يجوب الشوارع على جواده

ويطمئن السكان. ورغم كل مشاغله بصدد مشاكل الدولة، فإنه كان يرتاد المسارح المقامة بناءً على أمره.

وكان ناپليون أيضاً يقوم بكل ما يتعلق به في سبيل الإحسان الذي هو أجمل زخرف في تاج الأمراء. لقد أصدر الأمر أن تنقش على واجهات المؤسسات العلاجية: «بيت أمي» كي يجمع بهذا التصرف بره الأبوي الحاني إلى رفعته ومروءته كعاهل. لقد زار الميتم، وبعد أن أعطى يده البيضاء للأيتام الذين أنقذهم ليقبلوها، تحادث ببشاشة مع توتولمين. وأخيراً، حسب رواية تيير البليغة، أمر أن تدفع رواتب جنوده بالعملة الروسية المزورة التي ضربت بناءً على أوامره.

لقد أمر بتوزيع المساعدات على منكوبي الحريق، فشجع على استخدام هذه الوسائل ببادرة جديرة به وبالجيش الفرنسي. أما الأرزاق، وهي أثمن من أن تعطى إلى غرباء أكثريتهم من الأعداء، فإن ناپليون فضّل أن يقدم لهم نقوداً لكي يتداركوا المؤن بها عن طريقهم، لذلك أمر أن توزع عليهم روبلات من النقد الورقي.

أما فيما يتعلق بنظام الجيش والطاعة فيه، فإن أقسى التدابير ما فتئت تتخذ لمعاقبة مخالفات فروض الخدمة العسكرية ولوضع حد لأعمال السلب.

الفصل العاشر

لم تبلغ كل هذه الاستعدادات والعناية والخطط التي لم تكن أسوأ من سواها في مناسبات مشابهة، غور الأشياء، لكنها كعقارب ساعة في ميناء تمَّ فصلها عن الجهاز الداخلي، أخذت تدور من دون هدف ومن دون أن تدير معها مجموعة القطع المكملة.

فمن وجهة النظر العسكرية، فإن خطة الحملة العبقرية التي قال عنها تيير: «إن عبقريته لم تعد قط أكثر عمقاً منها وأكثر براعة وروعة» والتي دلل بصددها، في مجادلته الكتابية مع السيد فَنْ[١]، على أن تدبيجها يجب أن يُرجع به إلى الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر وليس إلى الرابع منه، إن هذه الخطة لم تنفذ ولم يكن تنفيذها مستطاعاً لأنها كانت بعيدة عن الواقع. فأعمال تحصين الكرملين التي وجب هدم الجامع في سبيلها (والجامع هو اللقب الذي كان ناپليون يطلقه على كنيسة بازيل السعيد) أظهرت أنها عقيمة تماماً. ووضع الألغام تحت الكرملين لم يعد إلا إرضاء لرغبة الأمبراطور الذي كان يريد تدميره عند خروجه من موسكو، والذي يعني إنزال عقوبة الضرب بأرض لأنها السبب في سقوط طفل صغير. ثم إن ملاحقة الجيش الروسي التي كانت شاغل ناپليون الأكبر تقدم ظاهرة خارقة. لقد أضاع قادة الجيش الفرنسي هذا الجيش الروسي المؤلف من ستين ألف رجل وبحسب تيير، يعود الفضل إلى

---

(١) بارون فَنْ، مؤرخ فرنسي، كان سكرتير ناپليون الأول.

الفن وحده وإلى عبقرية مورا ولا شك في العثور على هذه الآلاف الستين من الجيش الروسي، على رأس دبوس.

ومن وجهة النظر الدبلوماسية، فإن كل دلائل عظمة النفس والإنصاف التي أبداها ناپليون أمام توتولمين وإياكوڤليڤ، وكان همّ هذا الأخير أن يتدبر لنفسه قبل كل شيء معطفاً وعربة، لم تجد نفعاً لأن ألكسندر لم يستقبل هذين السفيرين ولم يجب على العروض التي كانا مكلفين بحملها.

ومن وجهة النظر القضائية، احترق النصف الآخر من موسكو الذي بقي سليماً بعد إعدام مشعلي الحرائق المزعومين.

ومن وجهة النظر الإدارية، لم يوقف قيام بلدية أعمال السلب ولم تكن نافعة إلا لحفنة من الأشخاص الذين شكلوها، والذين لم يترفعوا هم أنفسهم عن النهب بحجة صون النظام أو عن حماية أملاكهم الشخصية من السلب.

ومن وجهة النظر الدينية، فإن ما كان غاية من سهولة إقامته في مصر بفضل زيارة جامع واحد، لم يعط أية نتيجة في موسكو. لقد حاول الكاهنان أو الكهنة الثلاثة الذين وجدوهم، أن يخضعوا لرغبة ناپليون. ولكن واحداً منهم تعرض للصفع طوال القداس من قبل جندي فرنسي وكتب موظف فرنسي التقرير الآتي عن آخر: «إن الكاهن الذي وجدته ودعوته لإقامة القداس مرة أخرى، نظف الكنيسة وأغلق بابها. ولقد جاؤوا هذه الليلة مجدداً، فكسروا الباب وحطموا الأقفال ومزقوا الكتب وارتكبوا أعمالاً فوضوية أخرى».

ومن وجهة النظر التجارية، فإن الدعوة الموجهة إلى الصناع المجدين وإلى القرويين لم تبلغ أية نتيجة. لم يتقدم أي صانع مجد. أما القرويون، فإنهم كانوا يطبقون على القوميسيرين الذين يغامرون بالابتعاد قليلاً حاملين إعلاناتهم ويقتلونهم.

كذلك لم تجر الأمور على نمط أفضل من حيث المتع والمسرحيات

المهيأة للجيش وللسكان إذ لم تلبث المسارح التي أقيمت في الكرملين وفي منزل بوزنياكوف أن أغلقت أبوابها مرغمة فوراً بعد أن سلبوا الممثلين والممثلات فيها.

والإحسان هو الآخر لم يعد بواحدة من النتائج المرجوة. لقد أغرقت موسكو بأوراق النقد الحقيقية أو الزائفة التي فقدت كل قيمة. ولم يكن الفرنسيون جامعو الأسلاب في حاجة إلا إلى الذهب. ولم تكن العملة الزائفة التي أمر ناپليون بتوزيعها بكل كرم على المنكوبين هي وحدها التي فقدت قيمتها، بل إن النقود الفضية نفسها المقايضة بالذهب، كانت تروج بقيمة أقل كثيراً من قيمتها الحقيقية.

وأظهر مثال على عدم جدوى التدابير المتخذة في المراجع العليا في ذلك الحين كان العجز الذي وقع فيه ناپليون عن إيقاف السلب وإعادة النظام.

وفيما يلي تقارير السلطات العسكرية:

«إن أعمال السلب مستمرة في المدينة رغم الأمر بوضع حد لها. والنظام غير مؤمن وليس هناك بائع واحد يتجر بشكل مشروع. إن بائعي المؤن وحدهم يغامرون بالبيع، لكنهم يبيعون أشياء مسروقة».

«إن جانباً قطاعياً لا يزال عرضة لأعمال السلب من جانب رجال الفوج الثالث الذين لم يكتفوا بانتزاع ما تبقى لدى النازحين اللاجئين إلى الأقبية، بل بلغ من وحشيتهم أنهم يجرحونهم بضربات من سيوفهم كما شاهدت بنفسي أمثلة كثيرة».

«لا شيء جديداً أكثر من أن الجنود يسمحون لأنفسهم بأن يسرقوا وينهبوا. في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر».

«السرقة والنهب مستمران. إن في قطاعنا عصابة من اللصوص يجب إيقافها بواسطة حراس عديدين أقوياء. في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر».

«إن الأمبراطور مستاء جداً إذ يرى رغم التدابير الزجرية المتخذة لإيقاف أعمال النهب، فصائل من السلابين من جنود الحرس تدخل الكرملين. إن الفوضى والسلب قد تجددا بشدة تفوق كل حد سابق بين أفراد الحرس القديم أمس، والليلة الفائتة واليوم. إن الأمبراطور يرى بألم عميق، أن جنوداً ممتازين، أقيموا لحماية شخصه، ووجب عليهم أن يقدموا من أنفسهم مثالاً على الطاعة للآخرين، يشتطون في التمرد لدرجة اجتياح الأقبية والمخازن المجهزة للجيش. بل إن بعضهم بلغوا من الانحطاط إلى درك عدم احترام الحرس وضباط الحرس وإهانتهم وضربهم».

وقد كتب الحاكم: «إن ماريشال القصر الأكبر يشكو بشدة من أنه رغم الحظر المتكرر، لا يزال الجنود يقضون حاجاتهم الجسدية في كل الأفنية بل حتى تحت نوافذ الأمبراطور».

لقد كان هذا الجيش أشبه بالقطيع المسرح الذي يطأ بالأقدام الغذاء الذي يمكن أن ينقذه من المجاعة. وكل يوم من إقامته غير المجدية في موسكو كان يدفعه أكثر إلى نهايته. مع ذلك، لم يكن يتحرك من مكانه.

وقرر الجيش فجأة، أن يتحرك عندما دب الذعر في صفوفه إثر نبأ القوافل المأسورة على طريق سمولنسك ونبأ معركة تاروتينو. وهذا النبأ نفسه الذي تلقاه نابليون خلال عرض عسكري، هو الذي أيقظ في نفسه الرغبة في معاقبة الروس كما يقول تيير، فأصدر الأمر بالسير، وهو الأمر الذي كان جيشه كله يطالب به.

حمل رجال هذا الجيش في فرارهم من موسكو، كل أسلابهم المتراكمة. بل إن نابليون نفسه حمل معه «كنزه» الشخصي. ولقد خاف نابليون، كما قال تيير، عندما رأى القوافل التي تعيق حركة الجيش، لكنه لم يأمر، بفضل خبرته في الحرب، بأن تحرق العربات الفائضة، كما فعل بصدد عربات أحد

ماريشالاته قبل دخوله إلى موسكو. لقد تأمل تلك العربات الخفيفة وعربات «البرلين» الضخمة الغاصة بجنوده، ثم أعلن أن كل شيء على ما يرام، وأنهم سوف يحتاجون إلى كل هذه العربات من أجل الأرزاق والمرضى والجرحى.

لقد كان موقف الجيش كله يشبه موقف حيوان جريح يشعر باقتراب أجله ولا يعي ماذا يفعل، ودراسة حركات ناپليون وخططه الحكيمة وحركات جيشه منذ دخوله موسكو حتى اللحظة الذي دمر فيها هذا الجيش، يعني دراسة القفزات والتشنجات الصادرة عن حيوان جريح جرحاً مميتاً. إذ غالباً ما يرتمي الحيوان الجريح تحت نار الصياد لأدنى حركة ثم يعود إلى الوراء وبذلك تكون نهايته. وهذا ما قام به ناپليون تحت ضغط جيشه كله. لقد دب الذعر في قلب الحيوان الجريح لضجة معركة تاروتينو فاندفع يستقبل الطلقة النارية وبلغ مكان الصياد ثم نكص على عقبيه. وأخيراً، اندفع إلى الوراء ككل الحيوانات الجريحة، سالكاً أسوأ الطرق وأكثرها خطورة ولكن على آثار قديمة ومعروفة منه.

إن ناپليون الذي يبدو لنا أنه يدير كل هذه الحركة، أشبه بالصورة المحفورة على مقدمة سفينة يعتبرها المتوحشون القوة المحركة لتلك السفينة بينما هي في الحقيقة أشبه بطفل صغير في اضطرابه، طفل متشبث بالسيور الجليدية المثبتة داخل عربة ما، يتصور نفسه وهو في مكانه ذلك أنه يقود تلك العربة.

الفصل الحادي عشر

توقف پيار بعد خروجه في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر من منزله الخشبي في الصباح الباكر، بعد أن نكص على عقبيه، أمام العتبة يداعب كلباً صغيراً، بنفسجي الوبر، وذا جسم ممدّد فوق قوائم قصيرة عوجاء. كان هذا الكلب الصغير يعيش في المبنى وينام عند كاراتاييف، يفلت أحياناً، ولكنه بعد جولة في المدينة، يعود دائماً. وكان يبدو عليه أنه لم يكن لأحد ما، لأنه في تلك اللحظة كان دون صاحب ودون اسم. كان الفرنسيون يسمونه آزور، ولقد عمده جندي مولع جداً بالقصص باسم فمجالكا، أما كاراتاييف والآخرون فقد أطلقوا عليه اسم الأشهب أو ڤيسلي أي ذي الأذنين المتدليتين. لم يكن ذاك الكليب ذو الشعر البنفسجي منزعجاً قط لأنه لا عرق له ولا لون ولا سيد ولا اسم محدد. كان ذنبه ينتصب على شكل حزمة دائرية متينة من الريش وقوائمه الملتوية تؤدي له خدمات جليلة حتى أنه غالباً ما كان يغفل استعمال قوائمه الأربع فيرفع إحدى خلفيتيه بظرافه ويروح يقفز على الثلاث الأخريات برشاقة ملحوظة. لقد كان كل شيء بالنسبة إليه مبعث رضى، فتارة ينبح مسروراً ويتدحرج على ظهره وتارة يتدفأ تحت الشمس وتبدو على خطمه سيماء العظمة وتارة يمرح مداعباً قطعة من الخشب أو ساقاً من القش.

كان لباس پيار يتألف الآن من قميص قذر ممزق هو آخر أثر من ثيابه القديمة، ومن سراويل عسكرية ربط أطرافها بخيوط عند كعبيه ليستمد منه قسطاً أكبر من الدفء تبعاً لنصيحة كاراتاييف، وقلنسوة يضعها الفلاحون.

ولقد تبدل پيار من الناحية الجسدية تبدلاً كبيراً خلال هذه الفترة. لم يعد بديناً كسابق عهده رغم احتفاظه بمظهره المتين الضخم الذي كان طبيعياً في تكوينه. وأصبحت لحيته وشارباه يغطيان الجزء الأسفل من وجهه، بينما راح شعره الذي نبت واستطال مشعثاً مليئاً بالقمل، يغطي رأسه بما يشبه القلنسوة، ولقد اتخذت نظرته طابعاً حازماً شديد الثبات لم يسبق له أن وهب مثلها من قبل. وحل محل استسلامه الذي كانت عيناه تنطقان به، عزم مكين وكان يمشي حافي القدمين.

كان پيار ينظر تارة إلى الحقل في الأسفل حيث اجتازه ذلك الصباح أشخاص على جياد وعربات، وتارة إلى الأبعد، إلى ما وراء النهر، وطوراً إلى الكلب الصغير الذي بدا كأنه يريد أن يعضه جدياً ثم إلى قدميه الحافيتين اللتين كان يتسلى بإعطائهما وضعيات مختلفة وهو يحرك أصابعهما القذرة. وكلما وقعت عيناه على قدميه الحافيتين، كانت ابتسامة رضى قوي تطوف على وجهه. كانت رؤيتهما تذكره بما قاساه وتعلمه خلال هذه الحقبة، وكانت هذه الذكرى عزيزة على نفسه.

منذ بضعة أيام، كان الطقس هادئاً مشرقاً مع شيء قليل من الجمد الأبيض عند الصباح، وهو ما يطلقون عليه اسم صيف النساء.

وفي الخارج، كان الطقس حاراً تحت الشمس والحرارة بعد برودة الجمد الصباحية المثيرة التي ما زالت تشوب الهواء، كانت لذيذة بشكل خاص.

كان ذلك الضياء السحري ينتشر فوق كل الأشياء القريبة والبعيدة وهي على حالتها المبلّرة التي لا ترى إلا في مثل ذلك الوقت من الخريف، وجبل العصافير مع القرية والكنيسة والبيت الأبيض الكبير ترتسم على البعد، والأشجار العارية والرمال والحجارة والسقوف وسهم الكنيسة الأزرق وزوايا البيت الأبيض، كلها تتفصل في زوايا ناتئة دقيقة، بجلاء غير مألوف في

الهواء الشفوف. وعلى مسافة أقرب، ترتسم كذلك خرائب منزل أحد السادة المألوفة الذي احتله الفرنسيون، بإزدرختها الأخضر الغامق الذي نما على طول الحاجز. إن هذا المسكن نفسه المتهدم المدنس الذي كان يصبح في الأوقات الكالحة منفراً لبشاعته، بات الآن في ذلك الإشعاع الضوئي الثابت على جمال يهدئ النفس.

وخرج عريف فرنسي بثوب مهمل وقلنسوة رجال الشرطة، من وراء زاوية المبنى وبين أسنانه غليون قصير، فبادر پيار بغمزة عين ودية وقال:

ـ أي شمس؟ يا سيد كيريل، (وهكذا كان الفرنسيون كلهم يسمون پيار) ليقال إننا في الربيع.

واستند العريف إلى الباب وعرض على پيار تدخين غليون رغم أنه كان دائماً يلاقي الرفض من جانبه كلما تقدم إليه بذلك العرض.

راح العريف يقول: لو أننا مشينا في مثل هذا الجو...

ـ سأله پيار عم يعرفه عن الرحيل المقبل فقال العريف إن الجيش كان تقريباً سوف يتحرك قريباً وإن أمراً يومياً يجب أن يصدر ذلك اليوم بالذات بصدد السجناء. كان في المبنى الذي فيه پيار، أحد الجنود واسمه سوكولوف يحتضر، فأخطر پيار العريف لتتخذ الإجراءات بصدده. فقال له العريف إنه يستطيع أن يقر عيناً لأن لديهم مستشفيات منظمة للغاية اللازمة للمرضى وأن كل ما يمكن أن يحصل قد قدّر من قبل من جانب القيادة العليا.

ـ ثم يا سيد كيريل، ليس عليك إلا أن تقول كلمة واحدة للرئيس، وأنت تعرف ذلك. أوه، إنه واحد... لا ينسى شيئاً أبداً. قل للرئيس عندما يقوم بجولته وسوف يعمل كل شيء من أجلك.

وكان الرئيس الذي تحدث عنه العريف قد سبق له أن تحدث مع پيار مطولاً مرات عديدة وغمره دائماً بحسن التفاته.

ـ انظر، قسماً بالقديس توماس إنه قال لي ذلك اليوم إن كيريل رجل مثقف يتعلم الفرنسية. إنه سيد روسي أصيب بمحنة، لكنه رجل. ثم إنه من الممكن التفاهم معه، الـ...، فإذا سأل شيئاً، ليقله لي، لن يرفض له طلب. عندما يكون المرء مثقفاً، يحب العلم كما ترى، والرجال الأخيار. إنني أقول هذا لك يا سيّد كيريل. فلولا فضلك في مشكلة ذلك اليوم لسارت الأمور على شكل سيئ.

وبعد لحظات ثرثرة، ذهب العريف، وكانت المسألة التي تحدث عنها هي شجار وقع بين سجناء وفرنسيين استطاع پيار فيه أن يهدئ رفاقه. ولقد سمع بعض السجناء پيار يتحدث إلى العريف فجاؤوا يسألونه عما قاله. وبينما كان يروي لهم أن الأمر يتعلق برحيل وشيك، وصل جندي فرنسي نحيل، أصفر، رث الثياب إلى الباب. حيا بحركة رشيقة ووجلة معاً وهو يرفع أصابعه إلى جبينه وخاطب پيار ليسأله عم إذا كان الجندي تلاتوس الذي أعطاه قميصاً لخياطته في المبنى أم لا

لقد تلقى الفرنسيون في الأسبوع المنصرم جراية من الجلد والكتان فأعطوا أحذيتهم وقمصانهم إلى السجناء الروس يصنعونها.

قال كاراتاييڤ وهو يقترب حاملاً قميصاً مطوياً بعناية. إنه جاهز، إنه جاهز يا صقري الصغير.

كان كاراتاييڤ لا يرتدي إلا السراويل وقميصاً ممزقاً بسبب الحرارة وتيسير العملة. ولقد كان القميص الممزق بلون السخام. وكان شعره ملفوفاً على عادة العمال بشريط من الكتان ووجهه المستدير يبدو أكثر استدارة وبشاشة من المعتاد.

قال پلاتون وهو يبسط القميص الجاهز مبتسماً:

ـ إن الوعد كان مسؤولاً. لقد قلت إنه سينتهي يوم الجمعة وأنهيته يوم الجمعة.

ألقى الفرنسي حوله نظرة قلقة ثم، خلع سترته الخارجية بسرعة وكأنه حزم أمره على شيء، وارتدى القميص. ولقد بدت تحت سترة الفرنسي مكان القميص المفقود، صدرة طويلة ذات أزهار من الحرير متسخة جداً، تغطي جذعه العاري الهزيل. وكان واضحاً أن الفرنسي يخاف أن يأخذ السجناء لدى رؤيته على ذلك النحو بالضحك، لذلك سارع إلى القميص الجديد يدخل رأسه في فتحته. لكن ما من أحد من السجناء تفوَّه بكلمة.

قال پلاتون وهو يجذب أطراف القميص: إنك ترى كم هو جيد الحياكة.

أدخل الفرنسي بادئ الأمر رأسه ثم ذراعيه ثم راح دون أن يرفع عينيه يتأمل القميص على نفسه ويفحص خياطته.

قال پلاتون مفسراً وقد استدار وجهه بابتسامة عريضة وبان عليه الرضى العميق على عجلة: ذلك أنني لا أملك مشغلي هنا يا صقري الصغير ولا أدوات مناسبة جيدة ولقد قال المثل إنه دون عدة لا يمكن قتل قملة:

قال الفرنسي:

ـ هذا حسن، هذا حسن، شكراً. ولكن لا بدَّ وأن لديك قماشاً مما بقي منه.

فاسترسل كاراتاييف وهو أكثر اغتباطاً بعمله:

ـ سوف يسير كل شيء على ما يرام حتى ولو لبسته على جلدك مباشرة. سترى كم ستكون مرتاحاً فيه...

فكرر الفرنسي باسماً وهو يخرج ورقة نقدية قدمها إلى كاراتاييف:

ـ شكراً شكراً. الباقي... ولكن الباقي...

ولاحظ پيار أن پلاتون لم يكن يريد أن يفهم ما يقوله الفرنسي، فراح

يراقبهما دون أن يتدخل. وظل كاراتاييف يشكر الفرنسي على الأجر ويطري عمله. لكن الفرنسي الذي كان متمسكاً بما تبقى من الكتان، لجأ إلى پيار أخيراً ليترجم له أقواله.

رد كاراتاييف: ماذا سيعمل بها؟ إنها ستفيدنا نحن فنصنع منها عصابات ممتازة للأقدام. لكنه إذا كان يصر..

واكفهر وجه كاراتاييف فجأة فأخرج من قميصه رزمة صغيرة من القصاصة مد يده بها إلى الفرنسي دون أن ينظر وقال وهو يبتعد «يا حيف». واستشار الفرنسي پيار بنظرة ثم احمر وجهه وكأن نظرة پيار علمته شيئاً وصاح فجأة بصوت نابح: پلاتون، اسمع يا پلاتون! احتفظ بها لنفسك.

وبعد أن أعطاها له، استدار إلى الوراء وانصرف. فقال كاراتاييف وهو يهز رأسه: انظر إلى هذا! يقولون إنهم ليسوا مسيحيين مع أن لهم نفساً طيبة. إنهم كما يقول آباؤنا: «إن اليد التي يبللها العرق كريمة، واليد الجافة ليست وهابة». إنه لا يملك شيئاً ومع ذلك يعطي.

بقي كاراتاييف فترة صامتاً وعيناه شاخصتان إلى آراب وعلى شفتيه ابتسامة حالمة. ثم قال وهو يعود إلى المبنى:

ـ لا شك أنني سأجعل من هذه عصابات رائعة.

الفصل الثاني عشر

لقد أظهر الفرنسيون نيّتهم نقل پيار السجين، منذ أربعة أسابيع، من مبنى الجنود إلى مبنى الضباط، وعلى الرغم من ذلك بقي في المبنى الذي قادوه إليه في اليوم الأول.

وكان پيار يتحمل في موسكو المحترقة الملأى بالخرائب، أقصى ما يمكن لرجل أن يحتمله من الحرمان. لكنه بفضل تكوينه الممتاز وصحته القوية اللذين لم يفكر فيهما حتى ذلك اليوم، وبفضل وقوع ذلك الشظف على درجات لا يكاد يشعر بها حتى ليتعذر تحديد الوقت الذي بدأ فيه، فقد احتمل حالة العري التي وصل إليها ليس دون ألم فحسب بل في فرح.

والواقع أنه في تلك اللحظة بدأ يشعر بذلك الهدوء، وذلك الرضى الداخليين اللذين تمناهما بكثير من اللهفة من قبل. لقد فتّش طويلاً خلال حياته هنا وهناك عن ذلك الهدوء وذلك التفاهم مع الذات اللذين أدهشه وجودهما لدى الجنود في معركة بورودينو. لقد فتّش عن ذلك في محبة الناس وفي الماسونية وفي مباهج الحياة العامة، في الخمرة، في بطولة التضحية، في حبّه الرومنطيقي لناتاشا، لقد بحث عن ذلك في دروب الفكر فخيبته أبحاثه كلها ومحاولاته كلها. وها هو ذا، دون أن يعرف كيف، يحصل على الهدوء وعلى الرضى الداخليين من خلال أهوال الموت والعري، وخصوصاً من خلال ما كان يشعر به في كاراتاييف.

ولقد بدت الدقائق الرهيبة التي قضاها أثناء إعدام مشعلي الحرائق، كأنها

كنست من فكره وذاكرته إلى الأبد، الأفكار والمشاعر التي كانت تؤلمه والتي كانت تبدو له من قبل على جانب كبير من الأهمية. لم يعد يفكر في روسيا ولا في الحرب ولا في السياسة ولا في ناپليون. صار يرى بوضوح أن كل هذا لا يعنيه في شيء وأنه لم يدع للحكم على كل هذه الأمور وأنه عاجز عن الحكم. كان يردد على طريقة كاراتاييف: «روسيا والصيف، لا يتماشيان» وكانت لهذه الكلمات مزية تهدئة بشكل غريب.

بات يرى الآن قراره قتل ناپليون غير مفهوم بل مضحكاً، وكذلك حساباته حول الرقم السحري ووحش رؤيا القديس يوحنا. وقد بدا الآن أن غضبه على زوجته وخشيته من أن تحطّ من شرف اسمه يستحقان السخرية اللاذعة بل إنهما صورة مشوهة غريبة. ماذا كان يهمه لو أن تلك المرأة عاشت هناك الحياة التي تروقها؟ ومن كان يهتم بل أية أهمية بالنسبة إليه نفسه بصورة خاصة لو أن الفرنسيين عرفوا أن اسم سجينهم هو الكونت بيزوخوف أو لم يعرفوه؟

أخذ الآن يتذكر غالباً حديثه مع الأمير أندريه وأصبح متفقاً معه بالرأي تماماً وإن كان فهمه لفكرته على بعض الاختلاف. كان الأمير أندريه يزعم ويقول إنّ السعادة سلبية فقط. لكنه كان يقول ذلك بطابع من السخرية والمرارة. وكان يبدو وهو يتكلم على هذا النحو، أنه يريد التعبير عن رأي آخر، ذلك الرأي القائل إن ميولنا نحو السعادة الإيجابية ليست مغروسة في نفوسنا إلا لتبقى غير مشبعة وبالتالي لتعذبنا. وكان پيار يعترف بحقيقة ذلك دون أية فكرة ضمنية. فغياب كل عامل الأمل وإرضاء كل الاحتياجات الذي هو بالتالي حرية انتقاء المشاغل الشخصية، أي لون حياة الشخص الخاصة، أصبح يبدو الآن لپيار السعادة الحقيقية القصوى للإنسان. فهنا، وللمرة الأولى، بات يقدر في سره بهجة تناول الطعام عندما يجوع المرء، والشرب عندما يعطش والنوم عندما ينعس والتدفئة عندما يشعر بالبرد والتحدث عندما يرغب المرء في الحديث

وفي سماع صوت إنساني ولقد بدا لبيار أن إرضاء الحاجات والغذاء الجيد والنظافة والحرية التي كان محروماً منها الآن، هو السعادة الكاملة. وانتفاء مشاغله وأعني حياته، الآن وقد أصبح ذلك الانتفاء بالنسبة إليه محدوداً جداً، بدا له من السهولة حتى أنه كان ينسى أن كثرة التسهيلات في الحياة تدمر كل المتعة التي يشعر بها المرء في إرضاء احتياجاته، وأن الحرية المفرطة في انتفاء المشاغل، هذه الحرية التي أغدقها على حياته ثقافته وثراؤه ومركزه في الحياة، تجعل من جهة ذلك الانتقاء بسيطاً لدرجة لا تضاهى وتهدم من جهة أخرى الحاجة نفسها إلى الحياة وإمكانيتها.

أصبحت أحلام بيار كلها تتجه الآن نحو اللحظة التي سيصبح حراً فيها. وفي تلك الأثناء، وخلال كل حياة، تذكر بيار وتحدث بحماسة عن شهر الأسر ذاك وعن تلك الإحساسات القوية المرحة التي لن يجدها مرة أخرى وخصوصاً عن طمأنينة الروح الكلية وتلك الحرية الداخلية الكاملة التي لم يشعر بهما إلا في تلك الحقبة فقط.

في اليوم الأول، نهض باكراً جداً وخرج من المبنى عند الفجر. وعندما شاهد بادئ الأمر القباب المعتمة وصلبان دير نوڤوديڤيتشي، ثم الجمد الأبيض على الحشائش المغبرة، ثم سفوح جبل العصافير والمنحدر المشجر المتعرج فوق النهر الذي يمتد ليغيب في الأبعاد البنفسجية الزاهية، عندما أحس بالهواء المنعش يدخل إلى أعماق رئتيه وسمع نعيب غربان الزرع وهي تطير من موسكو عبر السهل، عندما رأى فجأة الضوء ينبعث من المشرق، وطرف قرص الشمس يطلع بجلال من وراء الغيوم، والقباب والصلبان والندى والأبعاد والنهر، تتألق ببهجة الضوء، شعر بيار شعوراً جديداً تماماً بالفرح وبعظمة الحياة شعوراً لم يسبق له أن أحس به قط.

ولم يغادره ذلك الشعور قط طوال فترة أسره بل على العكس، نما باطراد كلما ازدادت مصاعب موقفه.

ولقد ازداد ذلك الشعور بالتأهل لكل شيء والخضوع فكرياً لكل شيء تأصلاً في نفس پيار بفضل الفكرة الرفعية التي كونها عنه رفاقه في المبنى حال دخوله إليه. وبمعرفة لغات عديدة، وبالتقدير الذي أبداه الفرنسي نحوه، وبطريقته البسيطة في إعطاء ما يسأل وهو الذي كان يتلقى أسبوعياً ثلاثة روبلات بوصفه ضابطاً، وبالقوة التي برهن عليها أمام الجنود بغرسه المسامير في حاجز المبنى الخشبي بيده، وبالدماثة التي أظهرها في معاملته مع رفاقه وقدرته غير المفهومة في نظرهم على البقاء جالساً دون حراك ودون أن يفعل شيئاً، مفكراً، بكل ذلك معاً اعتبر پيار شخصاً رفيعاً على شيء من الغموض. وهذه الصفات نفسها التي كانت في العالم الذي عاش فيه من قبل معيقة إن لم تكن مؤذية، هذه الصفات: قوته، احتقاره لرفاهيات الحياة، مظهره الحالم، بساطته، كانت تجعل منه هنا، بين هؤلاء الناس، بطلاً تقريباً فكان پيار يحس بأن مثل هذا التقدير يخلق له واجبات عليه أداؤها.

الفصل الثالث عشر

في السادس والسابع من تشرين الأول/ أكتوبر ليلاً، بدأ الجيش الفرنسي يتحرك. قام الجنود بتدمير المطابخ والمباني وحملوا عربات النقل ثم بدأوا السير.

في الساعة السابعة صباحاً، اصطفت فصيلة من الفرنسيين في لباس الحرب. قبعات وأسلحة وحزم كبيرة، أمام المبنى ودارت محادثة حامية بالفرنسية تخللتها الشتائم من طرف الصف إلى طرفه الآخر.

كانوا جميعاً في المبنى مستعدين وقد ارتدوا ثيابهم وحزموا أمتعتهم وانتعلوا أحذيتهم، لا ينتظرون إلا صدور الأمر إليهم بالرحيل، باستثناء الجندي المريض سوكولوف الشاحب النحيل لدرجة بدت معها عيناه المحاطتان بدوائر زرقاء وكأنهما خارجتان من محجريهما، بقي جالساً في مكانه لم يرتد ثيابه ولم ينتعل حذاءه بل راح ينظر إلى رفاقه الذين لم يأبهوا له، ويطلق بانتظام أنات خفيفة. ولا شك أن الخوف والقلق من بقائه وحيداً وهو المصاب بالزحار، هما اللذان كانا يجعلانه يئن على ذلك النحو وليس الألم وحده.

اقترب بيار من المريض وقد تمنطق بحبل وانتعل زوجاً من الأحذية صنعه كاراتاييف من جلد صندوق للشاي جاء به فرنسي ليجدد به نعليه، وجلس القرفصاء أمامه.

قال پيار:

ـ حسناً يا سوكولوف، لا تخف، إنهم لا يرحلون نهائياً! إن لديهم مستشفى هنا. لعلك ستكون فيه أفضل منا جميعاً.

فأنَّ الجندي بصوت أقوى: أوه! سأموت! أوه يا إلهي!

استأنف پيار يقول وهو ينهض ويتجه نحو باب المبنى:

ـ إنني ذاهب أعيد مطالبتهم بذلك.

وفي اللحظة التي كاد يجتاز عتبة الباب، ظهر العريف الفرنسي الذي قدم إليه أمس تدخين غليون يرافقه جنديان وكان العريف والجنديان في ثياب الميدان، فأجربة وعمرات رباطها مثبت عند الذقن، الأمر الذي جعل وجوههم الأليفة تبدو مختلفة تماماً.

اقترب العريف من الباب ليغلقه تبعاً لأمر السلطات إذ كان يجب تفقد السجناء قبل الرحيل.

شرع پيار يقول: أيها العريف، ماذا سيفعلون بالمريض؟

لكنه وهو يقول ذلك، تساءل مع من يتحدث، وهل يتحدث مع العريف الذي يعرفه أو مع مجهول لشدة ما طرأ على وجه هذا الرجل من تبدل. وفي الوقت نفسه، دوى قرع طبول من الجانبين معاً فقطب العريف حاجبيه لدى سماعه أقوال پيار وصفق باب المبنى وهو ينطق بشتيمةٍ غير مفهومة، فغرق كل شيء في الداخل في نصف ظلام وأخذ قرع الطبول المنبعث من اليمين واليسار يخنق أنات المريض.

قال پيار في نفسه وقد مرت في فقرات ظهره رعشة غير إرادية: «ها هو ذا إنه يبدأ من جديد!» ففي وجه العريف غير المعروف وفي رنة صوته وقرع الطبول المحفز المصم للآذان لمس پيار تلك القوة الخفية التي لا تقهر، والتي تدفع الإنسان إلى قتل أمثاله من بني الإنسان، تلك القوة التي رآها ناشطة يوم

إعدام مضرمي الحرائق. وكان الخوف من تلك القوة أو محاولة الفرار منها أو التوجه بابتهالات أو بنصح إلى الذين يستعملونها أدوات لهم، لا يجدي فتيلاً. لقد كان پيار يعرف هذا الآن. كان يجب الانتظار والصبر فلم يعد پيار إلى حيث كان المريض ولم يعد ينظر إليه. وقف قرب باب المبنى صامتاً مقطب الحاجبين.

وعندما فتح الباب وراح السجناء يتدافعون بعضاً في إثر بعض كقطيع من الخراف، شق پيار لنفسه طريقاً بينهم واقترب من ذلك الرئيس بالذات الذي كان مستعداً، حسب قول العريف، أن يفعل كل شيء من أجله. لقد كان ذلك الرئيس أيضاً وهو في ثياب الميدان، متخذاً سيماء الجمود وقد بدا عليه «ذاك» الذي لمسه پيار في أقوال العريف وفي جلبة قرع الطبول:

أخذ الرئيس يكرر وهو مقطب الحاجبين بصرامة ينظر إلى جمهور السجناء يمر أمامه: اركضوا، اجروا.

وكان پيار يعرف أن تصرفه سيكون عقيماً. مع ذلك فقد تقدم. فقال له الضابط وفي عينيه نظرة باردة وكأنه لا يعرفه: حسناً، ماذا هناك؟

فشرح پيار حالة المريض.

صاح الرئيس:

ـ سوف يستطيع السير، يا للشيطان!

ثم أردف دون أن يلقي بالاً إلى پيار:

ـ اركضوا، اركضوا.

أجاب پيار:

ـ ولكن لا، إنه في النزع...

فزمجر الرئيس وقد ازداد حاجباه تقطيباً كما لم يحدث قط من قبل:

ـ هل تريد أن...

ودوت الطبول ـ بلان، بلان، راتابلان، ففهم پيار أن القوة الخفية قد سيطرت على كل هؤلاء الرجال وأنه لا جدوى الآن من التحدث في أي شيء كان.

فرز الضباط السجناء عن الجنود البسيطاء وأصدر إليهم الأمر بالسير في المقدمة. كانوا قرابة ثلاثين ضابطاً بمن فيهم پيار والجنود حوالى الثلاثمائة.

كان الضباط الأسرى القادمون من أبنية أخرى، غرباء كلهم عن پيار. ولما كانوا جميعاً أفضل منه لباساً، فقد راحوا يقيسونه بأنظارهم ويحدقون إلى حذائه بتحفظ عدائي وعلى مقربة منه، كان «ماجور» ضخم يسير وقد بدا عليه أنه ينعم بالتقدير العام. كان يرتدي معطفاً منزلياً من صنع كازان وتمنطق بمنشفة. منتفخ صفراوي حقود. وكان يمسك بإحدى يديه بجراب التبغ وبالأخرى يتوكأ على غليونه التركي الطويل. وكان ذلك الماجور الذي ينفخ كالثور، لا يفتأ يزمجر ويثور ضد كل الناس بذريعة أنهم يدفعون وأنهم يسيرون بسرعة كبيرة في حين ليس هناك داع للسرعة أو أنهم يدهشون عندما لا يدعو شيء إلى الدهشة.

وكان ضابط آخر، قصير القامة، نحيل، يناشد كل واحد ليعلم الجهة التي يمكن أن يتجهوا إليها والمكان الذي سيكون نهاية مرحلة اليوم. وكان موظف ينتعل أحذية عالية من اللبد ويرتدي زي الإعاشة، يهرج من جانب إلى آخر ليتأمل أضرار حريق موسكو وهو يدلي بملاحظاته بصوت مرتفع عما احترق وعما تبقى من هذا أو ذاك من الأحياء. وضابط ثالث من أصل بولوني تبعاً للكنته، كان يتنافس مع ذلك الموظف ليبرهن له على أنه يخطئ في التعرف إلى الأحياء.

غمغم الماجور بلهجة جافة: ما فائدة النقاش؟ سان نيكولا أو سان بليز، هما سيان وأنتم تعرفون ذلك لأن كل شيء قد احترق، وانتهى الأمر.. ماذا بكم تندفعون على هذا النحو أليس عرض الطريق كافياً؟

ولقد صاح بهذه الملاحظة عالياً وهو يلتفت غاضباً نحو الذي كان يسير وراءه والذي لم يدفعه قط.

ومن جانب تارة ومن آخر تارة أخرى، كان السجناء يهتفون لدى رؤية الأنقاض:

ـ أوه، أوه! ماذا فعلوا! زاموسكڤوريتشييه، وزوبوڤو، وفي الكرملين. انظروا، لم يبقَ منها النصف. نعم، لقد قلت لك من قبل إن كل زاموسكڤوريتشييه ستلقى هذا المصير وها هي ذي، لقد احترقت!

غمغم الماجور: حسناً، مادمتم تعرفون أن كل شيء قد احترق، فأية فائدة من استمرار الحديث عنه؟

ولما اجتازوا خاموڤنيكي، (وهو أحد الأحياء النادرة التي بقيت سالمة)، أمام الكنيسة، تكتلت جمهرة السجناء كلها في جانب واحد وانطلقت الهتافات المشبعة بالهول والاشمئزاز.

آه! يا للحقراء! إنهم ليسوا مسيحيين. نعم، هذا ميت، إن هذا ميت هنا.. لقد لطخوا وجهه بشيء ما.

اتجه پيار نفسه هو الآخر نحو الكنيسة حيث كان يوجد ذلك الذي أحدث كل هذه الهتافات، فشاهد بغموض شكلاً مسنداً إلى الحاجز. ولقد عرف من زملائه الذين كانوا يرون أفضل منه أن ذلك الشكل هو جثة رجل نصبت واقفة على الحاجز وقد طلي الوجه كله بالسخام.

أخذ الحراس المواكبون يزمجرون وقد استبدت بهم غضبة جديدة فراحوا يطردون جمهور السجناء الذين كانوا يتأملون الجثة، مستعملين عرض سيوفهم:

ـ سيروا، اللعنة..، اركضوا.. يا لثلاثين ألف شيطان..

الفصل الرابع عشر

لم يصادف السجناء أحداً عندما اجتازوا أزقة خاموڤنيكي مع حراسهم والعربات التي تتبعهم. ولما وصلوا إلى مقربة من مخازن المؤن، وقعوا وسط رتل كبير من المدفعية كان يتقدم بصعوبة وقد تخللت صفوفه عربات خاصة.

وعندما وصلوا إلى الجسر، اضطروا أن ينتظروا ريثما يجتازه أولئك الذين كانوا في المقدمة. ومن على ذلك الجسر، استطاع السجناء أن يروا أمامهم ووراءهم أرتالاً لا تنتهي من القوافل الأخرى السائرة. وعن اليمين، قرب نيسكوتشني حيث طريق كالوغا ينحرف ويضيع في الأبعاد، امتدت القطعات والقوافل إلى ما لا نهاية. كان ذلك هو «جمهرة» جيش بوهارنيه[1] الذي كان أول من غادر موسكو. وإلى الوراء، على طول الرصيف وعبر جسر پيار، أخذت جمهرة جيش الماريشال «ني» وعرباته تتقدم.

مرت جمهرة جيش داڤو التي يتبعها السجناء من مخاضة القرم ودخل قسم منها شارع كالوغا. بيد أنه كان هناك عدد كبير من العربات حتى أن عجال بوهارنيه التي مرت من طريق شارع كالوغا، لم تكن قد خرجت من موسكو بعد عندما وصلت مقدمة قطعات «ني» أوردنكا الكبرى.

وبعد أن اجتاز السجناء مخاضة القرم، ساروا بضع خطوات ثم توقفوا ثم عادوا إلى السير، بينما أصبحت العربات من كل صوب متراصة والرجال باتوا يتزاحمون. ولقد استمروا قرابة ساعة في سير ما يقرب من المائة خطوة

(١) ابن جوزفين زوجة ناپليون الأول ونائب ملك إيطاليا. (المترجم)

التي تفصل الجسر عن شارع كالوغا. وعندما وصلوا إلى الساحة التي يتحد فيها طريقا زاموسكڤور يتيشيه وكالوغا، اضطر السجناء أن يتوقفوا مجدداً وأن يحشروا حشراً وينتظروا ساعات طويلة في تلك المفارق. ومن كل مكان، كانت تنبعث جلبة متواصلة شبيهة بهدير البحر، بين صرير عربات وضربات أقدام وصرخات غضب وشتائم. ولقد راح بيتر يصغي إلى هذه الجلبة التي كانت تختلط في خياله بقرع الطبول وهو واقف ملتصق بجدار منزل يحترق.

ولقد تسور بعض الضباط الأسرى جدران المنزل المحترق الذي استند پيار إليه لتتاح لهم فرصة إمعان النظر. أخذوا يتحدثون:

ـ يا للجمع الغفير، يا للجمع الغفير!.. ولكم كدسوا حتى فوق مدافعهم! انظروا إلى هذا الفرو. آه! يا للسفلة، كم سرقوا من أشياء.. انظروا إلى هذا، إلى الوراء، في عربته.. وهذا!. إنّ هذه الأشياء، بدون شك، مسلوبة من أيقونة مقدسة! إنهم ألمان بلا ريب!.. وقرويونا، أين مضوا؟ آه! للقذرين وهذا، إن لديه حملاً ثقيلاً جداً حتى أنه لا يستطيع أن يتقدم.. مع عرباتهم.. وهؤلاء الذين يعتلون الصناديق! آه! يا ربّ !.. لكن هذا جد، إنهم يتضاربون! إيه، هيا إذن، اضرب وجهه! على الوجه، أقول لك.. أما نحن فإننا سنمكث هنا حتى حلول المساء. خذ، خذ!.. وهذا، هذا لا شك لناپليون. هن، يا للجياد! بشعار وتاج!.. وهذه، إنها قابلة للانطواء وهذا يدع الرزم تسقط دون أن يلاحظها!... وأيضاً أشخاص يتضاربون وهذه المرأة مع طفلها، إنها ليست دميمة! نعم يا صغيرتي، سيدعونك تمرين على الفور!.. انظروا، إنّ هذا لن ينتهي أبداً.. فتيات روسيات، فتيات، يجلسن مستريحات في عربة خفيفة.

ألقت موجة جديدة من الفضول العام بالسجناء إلى جانب الطريق كما حدث لهم قرب الكنيسة في خاموڤنيكي، فتمكن پيار بفضل قامته المديدة التي تسمح له بالرؤية من فوق رؤوس رفاقه، أن يرى ما كان يلفت انتباههم.

كانت نساء متبرجات في ثياب زاهية الألوان يطلقن صرخات ثاقبة، يخطرن متكومات بعضهن فوق بعض في ثلاث عربات ركوب بين صناديق المدفعية.

منذ اللحظة التي رأى پيار تلك القوة الغامضة تظهر، لم يعد هناك شيء يبدو له أكثر غرابة، لا الجثة الملطخة بالسخام استهزاء، ولا هؤلاء النسوة اللاتي يسرعن إلى حيث لا يعلم أحد ولا خرائب موسكو. لم يعد شيء مما يراه الآن يؤثر في نفسه حتى ليقال إن روحه كانت تستعد لمعركة رهيبة وترفض أي انفعال قادر على إضعافها.

مرت قافلة النساء. ثم عاد رتل العربات والجنود والعجلات، ثم جنود مجدداً وصناديق وجنود، وهنا وهناك بعض النساء.

أما پيار، فإنه بدلاً من الأشخاص أنفسهم، كان يرى مجموع حركتهم فحسب.

بدا كل هؤلاء الناس والجياد، كأن قوة غير مرئية تطردهم. كانوا جميعاً خلال تلك الساعة التي رآهم پيار يصلون من كل صوب، تحركهم رغبة واحدة بعينها: المرور بأسرع ما يمكن، فكانوا جميعاً يتساوون بالتدافع بالمناكب والاحتداد والاشتباك بالأيدي: لقد كانت الأسنان البيضاء على أهبة العض، والحواجب تقطب، والشتائم بعينها دائماً تدوي، وكل وجه يحمل التعبير إياه بالجرم المكين والبرودة الشرسة اللذين أدهشا پيار ذلك الصباح أيما دهشة على وجه العريف عند وقوع الطبول.

ساروا بسرعة فائقة دون توقف أبداً ولم يتوقفوا إلى عند مغيب الشمس. وحينئذٍ، صفت العربات، الواحدة وراء الأخرى، واستعد الرجال لليل. كانوا جميعاً على حالة من الكآبة معتكري المزاج. ولقد تناهى من كل جانب السباب والهتافات الساخطة والمشاجرات وقتاً طويلاً. وارتطمت عربة كبيرة كانت تتبع القافلة بعجلة نقل فحطمتها. وأسرع بعض الجنود، فراح بعضهم

يضرب رأس الخيول المقطورة إلى العربة ليجعلها تتراجع وأخذ البعض الآخر بتلابيب بعض، فشاهد پيار جندياً ألمانياً يصاب بجرح خطير في رأسه بضربة سيف.

الآن وقد توقفوا في منتصف السهل، في رخاء غسق خريفي، بدا هؤلاء الناس كلهم كأنهم يتحسسون بشعور اليقظة الأليم نفسه بعد تلك اللهفة التي أظهروها في الرحيل والتدافع بالمناكب الذي نجم عنه. لقد بدوا جميعاً، عندما أخلدوا إلى الراحة، يعرفون أنهم يجهلون الجهة التي يسيرون إليها وأنهم في تلك الحركة سيتعرضون، بدون شك، لمحن ومصاعب.

عامل الحراس السجناء خلال المرحلة معاملة أسوأ من التي سبقت ساعة الرحيل. ولقد وزعوا عليهم للمرة الأولى لحم خيل.

واعتباراً من الضباط وحتى آخر جندي من جنود الحراسة، بدا كل منهم وكأنه يشعر بعداء شخصي نحو السجناء، عداء حل فجأة محل روابط الصداقة السابقة.

وتعاظم ذلك العداء في فترة التفقد، عندما تبينوا أن جندياً روسياً فر في غمار الهرج الذي عم عند الرحيل، محتجاً بألم في بطنه. ولقد شاهد پيار فرنسياً يضرب جندياً روسياً حاد عن الطريق وسمع صديقه الرئيس يعنف صف ضابط بصدد الجندي الروسي الفار ويهدده بالمجلس الحربي. ولما رد صف الضابط أن الجندي كان مريضاً لم يستطع مواصلة السير، أجاب الضابط بأن الأمر كان قد صدر بإطلاق الرصاص على المتأخرين. شعر پيار بأن تلك القوة المشؤومة التي اجتاحته إبان إعدام مشعلي الحرائق، والتي لم تطهر نفسها طوال فترة أسره، قد عادت إلى الاستيلاء على شخصه. لكنه شعر كذلك بأنه بمقدار ما كانت تلك القوة المشؤومة تنوء عليه بشدة بغية سحقه، كانت قوة أخرى حيوية، مستقلة عن الأخرى، تنمو في روحه.

أكل پيار من حساء طحين الشيلم مع قطعة من لحم الخيل ثم راح يتحدث مع رفاقه.

لم يتحدث هو ولا أحد من الآخرين بكلمة واحدة عما رأوا في موسكو. لم يتحدث أحد عن غلظة الفرنسيين ولا عن الأمر بإطلاق النار على المتخلفين والفارين الذي بلَّغوه إلى السجناء: لقد تظاهروا جميعهم بالنشاط والفرح وكأنهم يحتجون على تفاقم حالتهم. تحدثوا عن ذكرياتهم الشخصية وعن المشاهد المضحكة التي وقعت أعينهم عليها خلال المسير وتجنبوا التلميح إلى موقفهم الحاضر.

كانت الشمس قد غربت منذ فترة طويلة والنجوم الساطعة قد بدأت تضيء هنا وهناك في قبة السماء، وضوء البدر الذي كان يشرق، أحمر كلهب حريق، ينسفح على حافة الأفق، فكانت رؤية الكرة الحمراء الضخمة تأخذ بمجامع القلوب. وكان الوقت لا يزال مضيئاً. لقد بلغ المساء نهايته، لكن الليل لم يكن قد أسدل ستره بعد تماماً. نهض پيار وغادر رفاقه الجدد ثم حاول المسير خلال نيران المعسكر، إلى الجانب الآخر من الطريق، حيث قِيل له إن الجنود الأسرى يقيمون، كان يريد أن يتحدث معهم، فاستوقفه حارس فرنسي على الطريق وجعله ينكص على عقبيه.

عاد پيار في إثره ولكن ليس باتجاه نيران زملائه، لقد ذهب نحو عربة فصلت جيادها، كان إلى جانبها شخص ما. وهناك أقعى وأطرق برأسه واستند إلى العجلات مستريحاً على الأرض الباردة وبقي فترة طويلة ساكناً يفكر. ومرَّت عليه أكثر من ساعة على ذلك النحو فلم يزعجه أحد. وفجأة انفجر مقهقهاً بضحكته المدوية بجلبة شديدة حتى أن الرجال التفتوا نحوه من كل الجهات ليروا سبب انبثاق ذلك المرح الغريب.

أخذ پيار يضحك ويقول بصوت مرتفع: ها! ها! ها! لم يدعني الجندي

أمر، لقد قبضوا عليّ وسجنوني وما زالوا يبقونني في الأسر. ولكن من أنا؟ أنا؟ روحي الخالدة؟ ها! ها! ها!

كان يضحك بقوة حتى أن الدموع ملأت عينيه.

نهض أحدهم واتجه نحوه ليرى من أي شيء يضحك هذا العملاق المتين الغريب. لكن پيار هدأ ووقف ثم ابتعد عن الفضولي وهو يلتفت حوله.

كان المعسكر الكبير الذي يمتد على مرمى البصر، والذي كان يعج بادئ الأمر باحتدام النيران والأحاديث قد هدأ والنيران الحمراء تنطفئ وتشحب، وبات البدر الآن مرتفعاً في كبد السماء المنيرة ولقد كشفت الغابات والمروج التي بقيت حتى ذلك الحين غير مرئية خارج حدود المعسكر، الستر عن نفسها. ومن وراء تلك الغابات والحقول، أخذ البعد اللامتناهي المضيء يخفق ويدعو المرء إليه. رفع پيار عينيه نحو السماء، نحو الأعماق التي تلمع فيها النجوم السائرة وفكّر: «كل هذا لي، كل هذا فيّ، كل هذا هوانا. وكل هذا هو ما أخذوه وسجنوه في مبنى تحيط به ألواح الخشب!» ابتسم ومضى يتمدد قرب رفاقه.

الفصل الخامس عشر

حمل أحد الوسطاء مرة أخرى إلى كوتوزوف رسالة من ناپليون تحمل شروط الصلح، خلال الأيام الأولى من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وكانت مؤرخة خطأً من موسكو، طالما أن ناپليون كان حنيذاك على طريق كالوغا القديمة قريباً جداً من الجيش الروسي وأمامه. فأجاب كوتوزوف على هذه الرسالة أيضاً الجواب نفسه الذي رد به على الرسول لوريستون: أعلن أنه لا يمكن أن يكون المجال مجال صلح.

وبعد وقت قصير أخبرت كتيبة الأنصار العاملة تحت إمرة دوروخوف إلى يسار تاروتينو، أنهم شاهدوا قطعات عدوة في فومينسكوييه، وأنها مؤلفة من فوج بروسييه، وأنها منفصلة عن بقية الجيش يسهل إفناؤها. فراح الجنود والضباط يطالبون بالهجوم مجدداً. وألح جنرالات أركان حرب الذين شجعتهم ذكرى نصر تاروتينو السهل، على كوتوزوف ليحملوه على إقرار فكرة دوروخوف. ولم يكن كوتوزوف يرى من الضروري الهجوم. لذلك اتخذوا الحل الوسط، الحل الذي يجب أن يتحقق، فأرسلوا كتيبة صغيرة إلى فومينسكوييه مزودة بأمر مهاجمة بروسييه.

وبصدفة غريبة، أنيطت هذه المهمة، وهي من أكثر المهام صعوبة وخطورة كما ثبت فيما بعد، بدوختوروف، دوختوروف قصير القامة، المتواضع ذاك نفسه، الذي لم يصفه لنا أحد قط بأنه واضع خطط حربية، مندفع على رأس أفواجه موزعاً الأوسمة ملء راحتيه في «بطاريات» المدفعية، إلى آخر ما

هنالك، دوختوروف ذاك نفسه الذي كان يبدو متردداً محروماً من الفطنة، والذي نجده مع ذلك خلال كل الحروب مع الفرنسيين، ابتداءً من أوسترليتز وحتى عام ١٨١٣، في المكان الأول حيثما الموقف خطير. ففي أوسترليتز بقي آخر من صمد عند سد أوجر، يجمع الفيالق وينقذ ما يمكن إنقاذه، في حين كان الجميع بين فار وقتيل، ولم يبق جنرال واحد في المؤخرة. وهو الذي في سمولنسك، رغم نوبات الحمى العنيفة التي انتابته، انطلق مع عشرين ألف رجل ليدافع عن المدينة ضد جيوش ناپليون. لقد أيقظه المدفع في سمولنسك عندما لم يكن قد أغفى بعد قرب باب مالاخوس، تائهاً في هذيان الحمى، وبفضله صمدت سمولنسك يوماً كاملاً.

وفي بورودينو، عندما قتل پاغراسيون، وفقد جناحنا الأيسر تسعة جنود على كل عشرة، وكانت مدفعية العدو الجبارة كلها مسددة إليه، أرسلوا على وجه الدقة، دوختوروف هذا المتردد المحروم من الفطنة، وبادر كوتوزوف إلى إصلاح الخطأ الذي كاد يقترفه بتعيين ضابط آخر لذلك المركز. وبفضل قصير القامة المتواضع دوختوروف، أصبحت بورودينو أحد أمجاد الجيش الروسي. مع ذلك، لقد وصفوا لنا نثراً وشعراً عدداً كبيراً من الأبطال، لكنهم لم يتحدثوا إلينا قط عن دوختوروف.

وإذن، لقد أرسل دوختوروف أيضاً إلى ڤومينسكوييه ومن هنا إلى مالوياروزلاڤيتز، حيث اندلعت آخر معركة مع الفرنسيين، وهو المكان الذي بدأت فيه نهايتهم منذ ذلك الحين وبشكل لا ريب فيه. مع ذلك، فإنهم يصفون لنا مجدداً أبطالاً كثيرين وعباقرة خلال هذه الحقبة من الحملة دون أن يشار إلى دوختوروف، إلا ببضع كلمات مبهمة جداً. لكن الصمت الذي يظهرون به حيال هذا الرجل، يبرهن لنا على مؤهلاته بإفاضة. إن من الطبيعي أن يتصور رجل لا يعرف شيئاً عن حركة آلة ماء وهو يراها تقف عن الدوران، أن الجزء

الأكثر أهمية فيها هو العصافة التي سقطت صدفة داخلها فجعلتها تصر وتقف. ولا يستطيع أن يعرف، دون أن يحيط علماً بتكوين الآلة، أن الأداة الجوهرية ليست العصافة التي تعيق حركتها بل المسنن الصغير للموصل الذي يدور دون جلبة.

في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر، وهو اليوم نفسه الذي اجتاز دوختوروف نصف الطريق إلى ڤومينسكوييه، وأمر باستراحة في قرية أريستوڤو وهو على استعداد للقيام بالمهمة التي أوكلت إليه بكل دقة، وصل الجيش الفرنسي كله في حركته التشنجية إلى مواقع مورا تحت احتمال الاشتباك في معركة هناك، ثم دون أي سبب ظاهر رسم فجأة نصف دائرة إلى اليمين وسار على طريق كالوغا الجديد ودخل قرية ڤومينسكوييه، حيث لم يكن فيها أول الأمر، إلا فيلق بروسييه وحده. ولم يكن تحت إمرة دوختوروف في ذلك الوقت باستثناء دوروخوف، إلا كتيبتا فينغر وسيسلاڤين الصغيرتان.

وفي مساء ١١ تشرين الأول/ أكتوبر، قاد سيسلاڤين إلى أريستوڤو، مركز القيادة جندياً فرنسياً من الحرس وقع أسيراً بين يديه. أكد ذلك الرجل أن القطعات التي وصلت ذلك اليوم إلى ڤومينسكوييه تشكل مقدمة الجيش الكبير وأن ناپليون موجود معها وأن ذلك الجيش قد غادر موسكو منذ خمسة أيام. وفي الأمسية نفسها، أعلن خادم مملوك وصل من بوروڤسك، أنه رأى جيشاً جراراً يدخل تلك المدينة. وحمل قوقازيو دوختوروف من جانبهم أن الحرس الفرنسي ينطلق إلى بروڤسك. فكان واضحاً، تبعاً لهذه المعلومات الأخيرة، أنه حيث كانوا يقدرون وجود فيلق واحد، أصبح الجيش الفرنسي الخارج من موسكو كله موجوداً فيه، متجهاً اتجاهاً غير متوقع، نحو طريق كالوغا القديم، ولم يكن دوختوروف تواقاً إلى الدخول في المعركة لأن واجبه الحالي لم يعد واضحاً أمام عينيه. لقد أصدر إليه الأمر بالهجوم في

ڤومينسكوييه. لكنه لم يكن في ڤومينسكوييه من قبل إلا بروسييه بينما أصبح الجيش الفرنسي كله فيها الآن. وكان إيرمولوف يريد أن يتصرف على هواه. لكن دوختوروف أصر على ضرورة حصوله على أمر من القائد الأعلى فقرروا إرسال تقرير إلى الأركان.

انتخبوا لذلك ضابطاً ذكياً، بولخوڤيتينوف الذي كان عليه أن يقدم فضلاً عن التقرير الخطي تفصيلات شفوية عن المسألة. وعند منتصف الليل، انطلق بولخوڤيتينوف مزوداً بتقريره المختوم وبأوامره الشفهية، يحث جواده بأقصى سرعته، يصحبه قوقازي يقود جياد البدل.

الفصل السادس عشر

كان المطر الخفيف يهطل منذ أربعة أيام في تلك الليلة الخريفية الحالكة. وحوالى الساعة الثانية صباحاً وصل إلى بولخوڤيتينوف ليتاشوڤكا، بعد أن أبدل جواده مرتين واجتاز ثلاثين فرسخاً في ساعة ونصف الساعة عبر طريق موحل. ترجل عن جواده أمام كوخ خشبي حاملاً لافتة «أركان حرب» ودخل الدهليز المعتم.

قال لأحدهم وقد انتصب مرتجفاً أمامه في عتمة الدهليز: بسرعة، الجنرال المناوب! عاجل جداً!

دمدم صوت الحاجب وهو يحمي راحة يده:

ـ إنه سيئ المزاج منذ أمس مساء وهذه هي الليلة الثالثة التي لم يغمض له فيها جفن. من الأفضل أن أوقظ الرئيس أولاً.

فألح بولخوڤيتينوف وهو يدخل باباً مفتوحاً متحسساً:

ـ إنها مسألة مستعجلة جداً من جانب الجنرال دوختوروف.

دخل الحاجب أولاً وراح يعمل على إيقاظ أحدهم. نبالتكم! نبالتكم! رسول!

صاح صوت يثقله النوم:

ـ ماذا؟ ماذا؟ من جانب من؟

قال بولخوڤيتينوف وهو عاجز عن تمييز الشخص الذي يستجوبه في الظلام، ولكنه عرف من صوته أنه ليس كونوڤنيتسين:

ـ من جانب دوختوروف ألكسي بيتروڤيتش. إن ناپليون في ڤومينسكوييه.

أخذ الرجل الذي استيقظ يتثاءب ويتمطى. قال وهو يحرك شيئاً ما:

ـ ليست بي رغبة في مناداته. إنه مريض جداً. ولعل هذه إشاعات خاطئة!

فأجاب بولخوڤيتينوف: هذا هو التقرير. لدي الأمر بتسليمه فوراً إلى الجنرال المناوب.

ـ انتظر حتى أشعل شمعة.

ثم صرخ الرجل الذي كان يتمطى وهو يخاطب التابع:

ـ أين تحشرها دائماً أيها الأثيم؟ (وكان هذا هو شتشربينين، المساعد العسكري لكونوڤنيتسين) آه! ها هي ذي، هي هي ذي!

قدح التابع الزناد بينما أخذ الضابط يبحث تحسساً عن الشمعدان. قال باحتقار: آه! يا للقذرين.

لمح بولخوڤيتينوف على ضوء الشرر المتطاير وجه شتشيربينين الفتي الذي وجد الشمعدان وشاهد أمامه، في زاوية الغرفة رجلاً نائماً كان هو كونوڤنيتسين.

وعندما انقلب اللهب على أطراف الأعواد المطلية بالكبريت من الأزرق إلى الأحمر عند ملامسته الصوفان، أضاء شتشيربينين قنديلاً، الأمر الذي جعل الدويبات التي كانت تقضم الشحم تتراجع هاربة، ثم أخذ يتفحص الرسول. كان بولخوڤيتينوف مغطى كله بالوحل ولما أراد أن يمسح وجهه بكمه، لطخه كله.

سأل شتشيربينين وهو يأخذ الغلاف: من الذي أعطى هذه المعلومات؟

فأجاب بولخوڤيتينوف:

ـ إن المعلومات صحيحة. فالأسرى والقوقازيون والجواسيس متفقون جميعهم على صحتها.

قال شتشيربينين وهو يقف ويقترب من الرجل النائم المتقلنس بقلنسوة من القطن المتدثر بمعطفه: إذن، لا مناص، يجب إيقاظه.

صاح:

ـ بيوتر بيتروفيتش! ـ فلم يتحرك كونوفنيتسين، فأضاف الضابط وهو يبتسم وكأنه واثق بقدرة ما يقوله على إيقاظه: إلى الأركان العامة!

وفي الواقع إن الرأس ذا القلنسوة القطنية لم يلبث أن ارتفع وبقي وجه كونوفنيتسين الجميل النشيط ذو الوجنتين اللتين تلهبهما الحمى، محتفظاً حيناً بانعكاس الأحلام المبعدة جداً حول الموقف الحاضر. لكنه بانتفاضة مفاجئة، سرعان ما استعاد سماته المألوفة الهادئة الحازمة.

لم يلبث أن سأل وهو يطرف عينيه للضوء، دون أن يكون في لهجته شيء من التلهف: ما الخبر؟ من جانب من؟

فض كونوفنيتسين الرسالة وأخذ يقرأها وهو يصغي إلى تقرير الضابط. وبالكاد انتهى من القراءة حتى وضع على الأرض المسواة قدميه المحجوبتين في جوارب من الصوف وبدأ ينتعل حذاءيه العاليين. ثم تخلص من قلنسوته القطنية وسوى شعره على صدغيه ثم وضع عمرته.

ـ هل جئت سريعاً؟ هيا بنا إلى القائد العام.

أدرك كونوفنيتسين فوراً أن المعلومات المنقولة إليه ذات أهمية كلية وأنه لا يجب إضاعة الوقت. هل كان ذلك خيراً أم شراً؟ لم يفكر في ذلك بل لم يطرح السؤال على نفسه. كانت أمور الحرب تبدو له غير تابعة لا للذكاء ولا للعقل، بل لشيء آخر. وكان يؤمن في أعماق نفسه إيماناً خفياً بأن كل شيء سيسير على أفضل وجه لكنه لا ينبغي تصديقه كما يجب، أقل من ذلك، عدم التحدث عنه وأن الواجب يقتضي بكل بساطة إنجاز ما يعرض من الأمور فكان يعمل ما يتوجب عليه، صارفاً فيه كل قواه.

يبدو أن پيوتر پيتروڤيتش كونوڤنيتسين مثل دوختوروف، لم يأت إلا اتفاقاً على قائمة أسماء من يدعونهم أبطال ١٨١٢ أمثال باركلي، راييڤسكي، إيرمولوف، بلاتوف، وميلوداروڤيتش. إنه مثل دوختوروف، اشتهر بأنه رجل محدود الإمكانيات والمعلومات وأنه مثل دوختوروف، لم يضع قط خطة معركة رغم وجوده دائماً في الأمكنة الأشدّ خطورة. أخذ منذ اللحظة التي رقي إلى رتبة جنرال في الاحتياط، ينام دائماً وبابه مفتوح، يأمر بإيقاظه عند وصول كل بريد. ولقد كان دائماً تحت النار طوال المعركة، فكان كوتوزوف يلومه على ذلك ويخشى أن يرسله في مهمة. كان مثل دوختوروف، إحدى العجلات المسننة التي لا يلحظها المرء والتي تتألف منها الأجزاء الرئيسية للآلة دون ضجة ولا صرير.

ولما خرج من الكوخ إلى الليل الحالك الرطيب، قطب كونوڤنيتسين حاجبيه بسبب ألم رأسه الذي كان في ازدياد كما بسبب الفكرة التي طرأت على رأسه أن كتلة الأشخاص ذوي النفوذ في الأركان ستصبح في غليان لدى اطلاعها على الأنباء، فكان يخشى بينيغسون بصورة خاصة الذي كان منذ معركة تاروتينو على عداوة مع كوتوزوف. سوف يقدمون العروض ويناقشون ويصدرون الأوامر والقرارات! فكان ما يراه يزعجه سلفاً رغم علمه بأنه لا بدَّ وأن يكون كذلك.

والواقع أن تولّ الذي دخل إليه يعلن النبأ، أخذ يعرض آراءه على الجنرال الذي يسكن معه فاضطر كونوڤنيتسين الذي كان يصغي إليه دون أن ينبس بكلمة أن يذكره بوجوب الذهاب عند «عظيم الرفعة».

الفصل السابع عشر

مثل كل الأشخاص المسنين، كان كوتوزوف قليل النوم ليلاً، وغالباً ما ينام في النهار، لكنه يمضي ليله متمدداً في السرير دون أن يخلع ثيابه وكان غالباً مشغولاً في التفكير عوضاً عن النوم.

كان على تلك الصورة في تلك اللحظة، مستلقياً فوق سريره ورأسه الضخم الذي يحمل آثار جرح كبير، مرتكز على يده المنتفخة، مستغرقاً في خواطره وعينه الوحيدة محدقة إلى الظلام.

أصبح كوتوزوف أكثر هدوءاً منذ أخذ بينيغسن الذي كان يتصل مباشرة بالأمبراطور ويتمتع بأكبر نفوذ في الأركان العامة، يتجنبه، هدوءاً بمعنى أن ما من أحد أصبح يدفعه إلى إلقاء جيوشه في معركة هجوم عقيمة. فكر بأن درس معركة تاروتينو وأحداث الأمس التي كانت ذكراها أليمة الوقع على نفسه يفيدانهما على كل حال.

راح كوتوزوف يحدث نفسه: «يجب أن يعرفوا تماماً أننا سنخسر كل شيء إذا تحولنا إلى الهجوم. إن الصبر والوقت، هذان هما الشجاعان اللذان سيحاربان من أجلي!» كان يعرف تماماً أنه لا يجوز قطف تفاحة عندما تكون لا تزال فجة. إنها ستسقط من نفسها عندما تنضج. أما بانتزاع التفاحة الفجة، فإننا نشوه الشجرة ولا تصلح الثمرة إلا لإضراس الأسنان. وبوصفه صياداً خبيراً، كان يعرف أن الحيوان جريح جرحاً لا يقدر على مثله إلا مجموعة القوات الروسية. وهل الإصابة قاتلة أم لا، ذلك هو السؤال الذي ظل واجب

الإيضاح. لقد كان كوتوزوف الآن، بعد تصرفات لوريستون وبترتيبه وتقارير الأنصار، واثقاً أن الجرح مميت. ولكن كان لا يزال في حاجة إلى البرهان وكان عليه أن ينتظر.

قال في سرّه «ليس بهم إلا تلهف واحد، أن يسرعوا لرؤية كيف قتل الحيوان. انتظروا، وسترون تماماً! أبداً «مناورات» وأبداً هجمات! ولماذا؟ بغية إظهار الذات دائماً. وكأن في القتال شيئاً يحمل على البهجة! إنه أشبه بالأطفال الذين لا يمكن أن يطلق شيء على شيء لكثرة ما يستبد بهم الشوق إلى إظهار معرفتهم في القتال، في حين أن الأمر الآن لا علاقة له بكل هذا».

«ويا لها من «مناورات» بارعة تلك التي يعرض على هؤلاء الأشخاص تطبيقها معتقدين أنهم بمجرد التصبر في طارئين أو ثلاثة حوادث عرضية، تبصروا في كل شيء، كل شيء. (وتذكر مخطط الحملة العام الذي أرسل من بيترسبورغ) لكن الحوادث العرضية أكثر من أن تحصى!».

منذ أكثر من شهر، بقي هذا السؤال معلقاً فوق رأس كوتوزوف: هل الجرح الذي أصيبوا به في بورودينو قاتل أم لا؟ إنّ الفرنسيين يحتلون موسكو وهذه واقعة ملموسة. مع ذلك فإن كوتوزوف كان على ثقة مبعثها كل جارحة من جوارحه، بأن الضربة التي وجهها بمجموع القوات الروسية يجب أن تكون قاتلة. ولما كان في حاجة ماسة إلى البراهين، وكان ينتظر منذ شهر طويل، فقد أخذ ينفد صبره أكثر فأكثر كلما مر وقت أطول، وطوال لياليه البيضاء راح يعمل وهو متمدد فوق سريره، مثل ما يفعل جنرالاته الشبان، الشيء بعينه الذي يأخذه عليهم. كان مثلهم، يتصور كل الفرضيات الممكنة مع هذا الفرق: أنه لم يكن يبني شيئاً على تلك الافتراضات وأنه بدلاً من أن يرى افتراضين أو ثلاثة افتراضات، يرى الألوف. وكلما ازداد تفكيراً ازداد عدد الافتراضات في رأسه. كان يتصور كل إمكانيات حركة جيش نابليون،

سواء كان مركزاً أو مقسماً إلى مجموعات موجهة ضد پيترسبورغ وضده هو للإحاطة به، ويستعرض الافتراض الذي كان يخشاه أكثر، وهو عودة ناپليون بكل قواته إلى موسكو والبقاء فيها بانتظاره، بل كان كذلك يفكر في حركة تقهقر من جانب جيش ناپليون على ميدين وإيوخنوف. لكن الشيء الوحيد الذي لم يخمنه سلفاً كان ما حدث، ذلك التنقل المخالف للصواب التشنجي لجيش ناپليون طوال الأحد عشر يوماً التي تلت إخلاءه موسكو، ذلك التنقل الذي جعل ممكناً ما لم يكن كوتوزوف يجرؤ أن يتصوره حتى ذلك الحين: التدمير الكامل للجيش الفرنسي. فتقارير دوختوروف حول فوج بروسييه والأنباء الجديدة التي حملها الأنصار حول ضيقة الجيش الفرنسي والتفاصيل حول تجمع القطعات الخارجة من موسكو، كل ذلك يؤيد نظريته أن الجيش الفرنسي قد تشتت وأنه يعد العدة لتقهقره.

لكن هذه الأشياء كلها لم تكن إلا فرضيات يمكن أن تبدو هامة في عيون أشخاص أغرار وليس لكوتوزوف. كان يعرف بسنواته الستين التي قضاها في الخبرة، أي وزن يجب إعطاؤه للإشاعات ويعرف مبلغ استعداد الأشخاص الراغبين في شيء ما، لترتيب الحوادث حتى تؤيد رغباتهم ويعرف في مثل هذه الحالة، كيف يدفعون الأشياء التي تنافي تلك الرغبات.

وعليه، فإن كوتوزوف كلما ازدادت رغبته في رؤية فرضية تتحقق، كلما أمسك بالسماح لنفسه بالإيمان بها. مع ذلك، فإن المسألة كانت تحتكر كل مواهبه الفكرية، إذا كان كل ما تبقى في نظره، مجرد استرسال للحياة العادية وعلى هذا النحو كان يرى مناقشاته مع أركان حربه، ورسائله إلى السيدة دوشتال[1] التي كتبها من تاروتينو، وقراءة رواية ما وتوزيع المكافآت واتصاله

(١) مدام دوشتال، كاتبة فرنسية نحاها ناپليون بسبب آرائها. (المترجم).

بپيترسبورغ إلخ. لكن هزيمة الفرنسيين، التي حدسها وحده، كانت سره ورغبته الوحيدين.

وإذن، لقد كان ليلة ١١ تشرين الأول/ أكتوبر متمدداً ورأسه مستند إلى يده يفكر في ذلك.

ندت حركة في الغرفة المجاورة وعلت خطوات. كان القادمون هم تولّ وكونوڤنيتسين وبولخوڤيتينوف. صاح بهم: هيه! من هناك؟ ادخلوا! ماذا من جديد؟

وبينما كان وصيف يضيء شمعة، قدم تولّ جوهر الأنباء.

سأل كوتوزوف بوجه أحدث تأثيراً كبيراً في تول عندما رأى ما ارتسم عليه من صرامة باردة على ضوء الشمعة:

ـ من الذي حمل هذه الأنباء؟

ـ لا يمكن أن يحوم حولها الشك يا صاحب السعادة.

ـ ائتني به، ائتني به.

جلس كوتوزوف على سريره وقد تدلت ساقه وثنى الأخرى تحت بطنه الضخم المتهدل. رف بعينه السليمة ليتسنى له تأمل الرسول على نحو أفضل وكأنه يريد أن يقرأ على قسماته ما كان يشغل باله.

قال لبولخوڤيتينوف بصوت العجوز الهادئ وهو يزر قميصه الذي انفتح على صدره:

ـ تكلم، تكلم يا صديقي. اقترب، ادن مني أكثر. أي نبأ تحمله إليّ؟ هه؟ لقد خرج ناپليون من موسكو؟ هذا صحيح هذا؟

شرح بولخوڤيتينوف كل شيء بالتفصيل حسب تعليماته فقاطعه كوتوزوف:

ـ تكلم، ادخل في لب الموضوع بسرعة أكثر، لا تدعني في لهفتي.

وبعد أن روى بولخوفيتينوف كل ما لديه، سكت وانتظر الأوامر. وحاول تول أن يتكلم، لكن كوتوزوف قاطعه. همَّ بأن يقول شيئاً، لكن وجهه تقلص فجأة، فأزاح تول بحركة من يده وأشاح إلى الجهة المعاكسة، نحو الركن الأفضل من الكوخ، الأكثر عتمة من الأركان الأخرى بسبب الصور المقدسة التي فيه. قال بصوت مرتجف وهو يضم يديه:

ـ إلهنا، ربي يا خالقي، لقد سمعت صلاتنا... لقد أنقذت روسيا أشكرك يا إلهي!

وأجهش بالبكاء.

الفصل الثامن عشر

انصرفت حيوية كوتوزوف كلها إلى كبح جماح قطعاته، منذ اللحظة التي وصلته هذه الأنباء وحتى آخر الحملة، سواء أكان ذلك بالسلطة أم بالخدعة، ومنعهم من القيام بهجومات ومناورات واصطدامات مع عدو هالك لا محالة. لقد اتجه دوختوروف نحو مالوا ياروسلاڤيتز، لكن كوتوزوف لم يزد من سرعته مع جيشه بل أصدر الأمر بإخلاء كالوغا لأن تراجعاً إلى ما وراء المدينة بدا له ممكناً.

استمر كوتوزوف يتقهقر في كل الجهات، بينما العدو الذي لا يتوقع ذلك، يتراجع في اتجاه معاكس.

إنّ مؤرخي ناپليون يصفون لنا «مناوراته» البارعة في تاروتينو ومالوا ياروسلاڤيتز ويستخلصون النتائج مما كان يمكن وقوعه لو أن ناپليون وجد من الوقت ما مكنه من دخول أقاليم الجنوب الغنية.

لكن ما من شيء كان يمنع ناپليون من الدخول إلى تلك الأقاليم الغنية مادام الجيش الروسي فتح له الطريق إليها، ونسي المؤرخون أن جيش ناپليون كان من المستحيل أن ينقذ بعد ذلك لأنه بات يحمل في نفسه بذور الموت. كيف كان يمكن لذلك الجيش الذي وجد في موسكو موارد تموين غزيرة وطئها بالأقدام بدلاً من أن يحافظ عليها، والذي عرض الأرزاق في سمولنسك للنهب والسلب بدلاً من توزيعها، كيف يمكن لهذا الجيش أن يحضّر قواه بعد دخوله ولاية كالوغا، حيث الشعب مؤلف من أولئك الروس أنفسهم الذين

في موسكو، تثيرهم مثل مشاعرهم فيقدرون على إحراق كل ما يمكن إحراقه؟

لم يكن هذا الجيش يستطيع أن يعيد بناء نفسه بعد بورودينو ونهب موسكو، الشروط الكيميائية، إذا صحَّ هذا القول، لتحلله.

كان رجال هذا الجيش العظيم يهربون مع رؤسائهم دون أن يعرفوا إلى أين وليست بهم من رغبة (من ناپليون وحتى آخر جندي) إلا في شيء واحد: أن يعجل كل لحساب نفسه بأقصى ما يمكن في الخروج من هذا المأزق الذي لا سبيل إلى الخلاص منه والذي كانوا جميعهم يشعرون به بشيء من الإبهام.

ولهذا السبب وحده، بينما كان الجنرالات يزعمون الاجتماع في مجلس حربي في مالوا ياروسلاڤيتز ويقدمون الآراء المختلفة، فاز الرأي الأخير الذي عبر عنه أكثر الجنود غباوة، موتو[1] الضخم، إذ قال ما كانوا جميعاً يفكرون فيه: ذلك أنه كان يجب المضي بأسرع ما يمكن ولقد أغلق هذا القول الأفواه كلها حتى أن ما من أحد، ولا ناپليون نفسه، وجد ما يرد به على تلك الحقيقة المعترف بها من قبل الجميع.

كان الجميع رغم معرفتهم الأكيدة، بضرورة المسير، يخجلون من الاعتراف بأنهم مرغمون على الفرار. ولم يكن يستطيع التغلب على ذلك الخجل إلا الصدمة الخارجية. ووقعت تلك الصدمة في الوقت المناسب، فكان مع من أسماه الفرنسيون: «هورّا الأمبراطور».

في اليوم التالي لذلك المجلس الحربي، ذهب ناپليون صباحاً باكراً بحجة تفقد القطعات وساحة معركة أمس ومعركة الغد، وتقدم مع ماريشالاته وحاشيته بين صفوف القتال. وصدف التقاؤه قوقازيين سلابين هاجموا الأمبراطور وكادوا يأسرونه ولقد أنقذ ناپليون بذلك الشيء بالذات الذي

---

(١) جورج موتو، جنرال فرنسي برز في أوسترليتز وإيينا. رقاه الملك لويس فيليب إلى رتبة مارشال فرنسا. (المترجم).

سبب ضياع الفرنسيين الرغبة في الأسلاب التي دفعت القوقازيين هنا كما في تاروتينو، إلى الإلقاء بأنفسهم على الغنائم وإغفال الرجال، فراحوا يسلبون دون أن يلقوا بالاً إلى ناپليون فاستطاع الإفلات.

ثم كاد «أبناء الدون» يأسرون الأمبراطور وسط جيشه نفسه. إذ كان واضحاً بالنسبة إلى الفرنسيين أنه ليس عليهم من شيء آخر إلا الفرار بأسرع ما يمكن ومن أفضل الطرق المعروفة وأقصرها. ولم يكن ناپليون بكرشه الكبير ذي الأربعين عاماً يشعر بمرونة العهد السابق وجرأته، فاستوعب الإنذار وفهمه. لذلك سرعان ما انحاز إلى رأي موتو، تحت تأثير الخوف الذي أحدثه القوقازيون في نفسه، فأعطى الأمر، كما يقول المؤرخون، بالتقهقر عن طريق سمولنسك.

أن يكون ناپليون من رأي موتو وأن يكون جيشه قد أخذ يتراجع لا يعنيان أنه أمر بالتقهقر، بل يدل على أن القوى المتسلطة على ذلك الجيش لتدفعه على طريق موجاييسك، تسلطت عليه هو الآخر بالمثل.

الفصل التاسع عشر

يتصور المرء دائماً عندما يبدأ الحركة أنه يسير نحو هدف ما ولكي يجتاز حوالى ألف فرسخ يجب إلزاماً أن يفكر في أرض موعودة لتكون له القوة على التقدم.

كانت الأرض الموعودة عند الفرنسيين لدى غزوهم روسيا، هي موسكو لكن الوطن كان بعيداً جداً والرجل الذي أمامه ألف فرسخ يقطعها، يجب بدون شك أن يحدث نفسه تاركاً جانباً الغاية النهائية، أنه سيجتاز اليوم أربعين فرسخاً ثم يستريح وينام، فما إن يقطع المرحلة الأولى، حتى يسلبه مكان الاستراحة الغاية النهائية، ويركز كل رغباته وكل أمانيه. وهذه النزعات التي تعتلج في نفس شخص مفرد، تتضاعف في نفوس جمهور محتشد.

بالنسبة إلى الفرنسيين المتقهقرين على طريق سمولنسك القديم، كان الوطن بعيداً جداً والغاية القريبة التي يهدف إليها هؤلاء الرجال المتجمهرن في كتل هائلة ويتوقون إليها من كل نفوسهم وكل أملهم، هي سمولنسك. لم يكن ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سمولنسك ملأى بالمؤن والقطعات المستريحة، إذ لم يحدثهم أحد بمثل ذلك بل على العكس، كان أركان حرب ناپليون نفسه لا يجهلون أن المؤن قد أصبحت قليلة، بل لأن ذلك يعطيهم الطاقة على التقدم فقط واحتمال ضروب الحرمان الحالية، فكانوا جميعاً، الذين يعرفون كالذين لا يعرفون، كلهم يخادعون أنفسهم بالإجماع، ويندفعون نحو سمولنسك كما يندفعون نحو أرض موعودة.

ما إن وصلوا إلى الطريق الكبير، حتى أسرع الفرنسيون إلى الهدف المنشود بنشاط خارق وسرعة قصوى. وإلى جانب ذلك الاندفاع الجماعي الذي يربط بين هذه الجماعة الكبيرة من الفرنسيين في كلّ كثيف ويضاعف حاصل نشاطهم كان سبب آخر يبقيهم مرتبطين معاً. ذلك هو عددهم نفسه. إن هذه الحشود الكبيرة من الرجال كانت تجذب إليها الأشخاص كما يعمل في الفيزياء قانون الجاذبية تجاه الذرات. لقد كان أولئك الألوف الستمائة من الرجال يتقدمون كتلة واحدة أشبه بدولة كاملة.

لم يكن كل واحد منهم يرغب إلا في شيء واحد: أن يؤسر ويفلت من هذه الأهوال وكل هذه الآلام. ولكن من جهة، كانت القوة الجماعية التي تجذبهم نحو سمولنسك تفرض عليهم جميعاً اتجاهاً واحداً. ومن جهة أخرى، كانت مجموعة كاملة من الجند لا تستطيع أن تتحول إلى سرية. وعلى الرغم من كل المناسبات الممكنة التي انتهزها الفرنسيون للانحراف والوقوع في الأسر، فإن الذرائع لم تكن دائماً تلتقي مصادفات سعيدة. لقد كان عددهم الكبير نفسه وسيرهم الحثيث بصفوف متراصة، يحرمانهم من هذا الأمل. وبالنسبة إلى الروس، لم يكن إيقاف تلك الحركة الجماعية التي يبذل فيها الفرنسيون كل حيواتهم صعباً فحسب بل مستحيلاً. وتوقف هذا الجسم ميكانيكياً لا يمكن أن يزيد أبعد من حد معين تطور الانحلال الذي يكاد يسيطر.

لم يكن أحد آخر غير كوتوزوف، بين كل رؤساء الجيش الروسي، يدرك هذه الناحية فما إن تثبتوا من الاتجاه الذي سار فيه الجيش الفرنسي المنهزم على طريق سمولنسك حتى بدأ يتحقق ما خمنه كونوفنيتسين سلفاً ليلة ١١ تشرين الأول/ أكتوبر. أخذ كل كبار الضباط في الجيش، رغبة منهم في لفت الأنظار إليهم، يطالبون بقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي وتطويقه وأسره وأصبحوا جميعاً يطالبون بالهجوم.

راح كوتوزوف وحده يستعمل قواه كلها، التي ليست كبيرة جداً لدى قائد أعلى، للحيلولة دون الهجوم.

لم يكن يستطيع أن يقول لهم ما نقوله الآن. ما فائدة المعركة، ما فائدة قطع الطريق، وخسارة الجنود، وتذبيح التعساء بتجرد عن الإنسانية، ما فائدة كل هذا إذا كان ثلث ذلك الجيش قد اضمحل من تلقاء نفسه، من موسكو إلى ڤيازما. دون قتال؟ لم يكن يقول لهم في حكمته كعجوز، إلا ما كانوا قادرين على فهمه. كان يحدثهم عن الجسر الذهبي، فكانوا يسخرون منه ويهجونه ويضطربون ويثورون كثيراً بل أكثر، ويتصلفون على الحيوان المصاب بضربة قاتلة.

لم يستطع إيرمولوف وميلورادوڤيتش وپلاتوف والآخرون في ڤيازما، الذين كانوا إلى جوار الفرنسيين، أن يسيطروا على رغبتهم في تمزيق جمهرتين من الجيش الفرنسي إرباً إرباً وقلبهما. ولكي يخطروا كوتوزوف بعزمهم، أرسلوا إليه على سبيل التقرير، غلافاً يحوي ورقة بيضاء.

ورغم كل جهود كوتوزوف لضبط الجيش، فقد هاجم جنودنا كذلك لكي يقطعوا الطريق على الفارين. وقد روي لنا أن ألوية كاملة تتقدمها الموسيقى الصادحة، كانت تمشي إلى النار فتقتل ألوفاً من الرجال وتخسر هي الأخرى الألوف.

أما من حيث قطع الطريق؛ فإنهم لم يقطعوا شيئاً ولم يقلبوا شيئاً. لقد أعطى الخطر الجيش الفرنسي مزيداً من التلاحم فظل يتابع سيره وهو يتلاشى تدريجاً، على الطريق الذي قاده إلى نهايته، نحو سمولنسك.

الجزء الرابع عشر

الفصل الأول

لقد شكلت معركة بورودينو ونتائجها واحداً من أهم الأحداث التعليمية للتاريخ، هو الاستيلاء على موسكو وتراجع الجيوش الفرنسية دون معارك جديدة.

يتفق كل المؤرخين في تأييدهم أن النشاط الخارجي للحكومات والشعوب يظهر بواسطة الحروب وأن النتيجة المباشرة لنجاحهم الكبير أو الضئيل هو زيادة نشاطهم السياسي أو خموده.

ومهما كانت الروايات التاريخية عن هذا أو ذاك من الملوك أو الأباطرة الذين تخاصموا مع هذا أو ذلك من الملوك أو الأباطرة الآخرين، فجمع جيشه ثم فاز بالنصر وقتل ثلاثة أو خمسة أو عشرة آلاف رجل وبعدئذٍ غزا الدولة هذه والشعب ذاك الذي تعداده بضعة ملايين من البشر. ومهما كانت هزيمة جيش ما يمثل جزءاً من مجموع القوى العامة لشعب ما غامضة، فإنها تجر معها خضوع ذلك الشعب كله، حيث إن الوقائع التاريخية كلها في النطاق الذي نعرفها فيه، تؤيد هذه الحقيقة، من أن زيادة تفوق أسلحة شعب ما أو نقصانه على أسلحة شعب آخر، هي السبب، أو أقله الدليل على ازدياد قدرة ذلك الشعب أو ضعفها. يكسب جيش ما معركة ما، فلا تلبث حقوق الغالب حتى تفرض على حساب المغلوب. ولا يمر جيش بهزيمة حتى يفقد شعب ذلك الجيش حقوقه بنسبة الهزيمة، فإذا ما كان الإخفاق تاماً، تكون النسبة كاملة.

ولقد كان الأمر كذلك، بحسب التاريخ، منذ أقدم العصور حتى أيامنا

هذه. وحروب ناپليون كلها ليست إلا تأكيداً لهذه القاعدة. فبقدر ما انهزمت جيوش النمسا سلبت النمسا من حقوقها في حين زادت فرنسا من حقوقها وقوتها ولقد وضع الانتصاران في إيينا وفي أويير ستادت، نهاية للطاقة البروسية المستقلة.

ولكن بعد فترة، عام ١٨١٢، انتظر الفرنسيون قرب موسكو واحتلوا هذه المدينة. ولكن بدا أنه، دون معارك جديدة، ليست روسيا هي التي كفت عن البقاء، بل ذلك الجيش المؤلف من ستمائة ألف مقاتل ومن ورائه فرنسا، «فرانسة» ناپليون أما أن نتجنى على الحوادث لنثنيها امتثالاً لقوانين التاريخ فنقول مثلاً إن ساحة القتال في بورودينو قد ظلّت بين أيدي الروس وأنه بعد موسكو، أبادت المعارك التي نشبت، الجيش الفرنسي فإنّ ذلك مستحيل قطعاً.

فبعد نصر بورودينو، لم تقع معركة واحدة، لا معركة شاملة فحسب بل ولا حتى على جانب من الأهمية. مع ذلك، فقد آب الجيش الفرنسي إلى نهايته فما معنى هذا؟ لو أن ذلك كان مثلاً أخذ من تاريخ الصين، لأمكننا أن نزعم أن هذه الظاهرة ليست تاريخية (وهذا مجال إفلات المؤرخين حالما يعرض شيء لا يتأطر مع نظرياتهم). ولو أن المسألة كانت تتعلق بمناوشات قصيرة الأمد لم تساهم فيها إلا قوات قليلة العدد، لأمكننا أن نأخذ هذا الحدث على الاستثناء. لكن الواقعة حدثت تحت أعين آبائنا الذين كان موت الوطن وحياته في يد عفريت بالنسبة إليهم، وكانت هذه الحرب من أكبر كل الحروب المعروفة.

إن فترة حملة ١٨١٢ التي تبدأ من بورودينو حتى طرد الفرنسيين، تبرهن على أن معركة رابحة ليست دائماً سبب اجتياح بلاد ما، بل ليست حتى دلالة

على ذلك الاجتياح. إنها تبرهن على أن القوة التي تقرر مصير شعب ما لم تعد لها علاقة بالغزاة ولا بجيوشهم وبمعاركهم، بل تتعلق بشيء آخر.

إن المؤرخين الفرنسيين الذين يصفون موقع الجيش الفرنسي عشية يوم انسحابه من موسكو، يؤكدون أن كل شيء في ذلك الجيش العظيم كان على أفضل حال باستثناء الفرسان والمدفعية وسير العربات، وأنه كان يعوزهم العلف للجياد ولذوات القرون من الحيوان. وعليه، فإن ما من شيء كان يستطيع معالجة هذا الحرمان مادام القرويون كانوا يحرقون العلف مفضلين ذلك على إعطائه إلى الفرنسيين.

وإذا كانت المعركة المكتسبة لم تؤد إلى أي من النتائج المألوفة، فما ذلك إلا لأن الفلاحين (الموجيك) كارب وفلاس لم يظهرا بصورة عامة أية بطولة شخصية، واللذين، بعد رحيل الفرنسيين، جاءا إلى موسكو لنهب المدينة فعملا مقتديين بالأكثرية الساحقة من مواطنيهم، وبدلاً من أن ينقلا العلف إلى موسكو، رغم السعر المغري الذي دفع لهما، أشعلا النار في ذلك العلف.

لنتصور رجلين عازمين على التبارز بالسيف وفقاً لكل قواعد لعب السيف فتطول المبارزة وقتاً طويلاً وفجأة، يدرك أحد الخصمين بعد أن يحس بالجرح الذي أصابه، أن المسألة بدلاً من أن تكون دعابة، تعرض حياته للخطر، فيلقي بسيفه ويمسك بأول هراوة تقع عليها يده ويشرع في إدارتها حول رأسه. والآن لنفرض أن هذا المبارز الذي يستخدم أفضل وسيلة لبلوغ غايته بحكمة فائقة تعتلج في نفسه أعنف العواطف الأبية وأنه يريد إخفاء ما وقع تماماً ويحاول أن يزعم بأنه هزم عدوه بالسيف طبقاً لكل قواعد الفن. نستطيع أن نتصور مقدار ما يكتنف وصف هذه المبارزة من إبهام وغموض.

فالمبارز الذي يتطلب أن تدور المعركة وفقاً لقواعد الفن هو الفرنسي.

وخصمه الذي طرح سيفه ليمسك بالهراوة، هو الروسي والأشخاص الذين يشحذون هممهم لشرح الموضوع وفقاً لقواعد فن المبارزة هم المؤرخون.

بدأت حرب لا سابق لها في التقليد العسكري منذ حريق سمولنسك. فحريق المدن والقرى، والتقهقر بعد المعارك وصدمة بورودينو التي تبعها تراجع جديد وحريق موسكو ومطاردة النهابين والاستيلاء على القوافل وحرب الأنصار كل هذه الأشياء خارجة عن قواعد الفن العسكري.

شعر ناپليون بذلك منذ اللحظة، عندما وقف في موسكو في وضعية المبارز الصحيحة فرأى بدلاً من السيف الموجه إليه، هراوة مشرعة فوق رأسه ومنذ تلك اللحظة، لم يكف عن الشكوى إلى كوتوزوف وإلى ألكسندر بأن الحرب قد سارت ضد كل القواعد، وكأن هناك قواعد لقتل الأشخاص. مع ذلك، رغم شكاوى الفرنسيين من خرق القواعد، ورغم الخجل الذي شعر به بعض الرجالات البارزين الروس الذين رأوا أن من العار القتال بالهراوة وأرادوا التبارز رباع أو ثلاث حسب القواعد وتوجيه ضربة مفاجئة للخصم إلخ. فإنّ هراوة الشعب المحارب ارتفعت بكل قوته المتوعدة، ارتفعت مزدرية كل ذوق سليم وكل علم ببساطة غليظة حقاً، ولكن باتجاه مباشر نحو الهدف دون أي تمييز، ارتفعت وهوت فقرعت الفرنسيين حتى أفنت الغزوة كلها.

ولا يليق النجاح بأولئك الذين كالفرنسيين عام ١٨١٣، يحيون عدوهم حسب كل قواعد الفن ويقدمون له سيفهم من المقبض ثم يسلمونه بكياسة وأدب إلى المنتصر شريف النفس، بل إن النجاح يليق بالشعب الذي لا يتساءل ساعة المحنة عم فعل الآخرون وفقاً للقواعد الفنية في ظروف مماثلة، ولكن يشرع ببساطة ودون جهد أول هراوة يلقاها، ويضرب بها حتى اللحظة التي يحل محل الحقد في نفسه على إهانته، الاحتقار والإشفاق.

الفصل الثاني

إن نشاط بعض الأشخاص المستقلين ضد كتلة كثيفة من الرجال هو أكثر الاستثناءات وضوحاً وأعظمها خصباً لما يسمونه قواعد الحرب. وهذا النوع من العمليات يحدث دائماً في الحرب التي تتخذ صفة قومية. فهي تقوم على أساس أنه بدلاً من مقارعة العدد بالعدد، ينقسم الرجال إلى فصائل صغيرة ويهاجمون منفردين ويفرون إذا كانوا أمام قوات متفوقة ليعودوا إلى الهجوم حالما تسنح الفرصة بذلك. كذلك كان المحاربون في إسبانيا ودفاع الجبليين في القوقاز وكذلك كان حال الروس عام ١٨١٢

ولقد سمّيت هذه الطريقة في القتال بحرب الأنصار، وأعتقد أنهم حددوا معناها بهذه التسمية. بيد أن هذا الشكل من الحرب، يتنكب كل القواعد بل يتعارض مع قوانين «التكتيك» الأكثر شيوعاً، الشهيرة بأنها لا تخيب وتبعاً لهذه القوانين، يجب على الذي يهاجم أن يركز قواته بشكل يصبح معه أقوى من خصمه عندما تبدأ المعركة.

وحرب الأنصار، وهي دائماً حرب منتصرة كما يبرهن التاريخ، تتجه دائماً عكس هذا القانون.

وينجم هذا التناقض عن أن العلم العسكري يحدد قوة جيش ما، بعدد ذلك الجيش، والعلم العسكري يقول إنه كلما كان جيش ما كبير العدد كان كذلك أكثر قوة: «إن الألوية الضخمة هي المحققة دائماً».

والعلم العسكري بتأكيده هذا القول، يشبه حركة لا تتأثر بدراسة القوى،

إلا بالعلاقة بين كتلها، وتستنتج على سبيل تساوي القوى، واقعة تساوي الكتل فحسب.

في حين أن القوة (كمية الحركة) هي حاصل ضرب الكتلة بالسرعة.

وفي كل حدث حربي، تكون قوة جيش ما، حاصل ضرب الكتلة بمجهول س، كذلك.

والعلم العسكري الذي يرى في التاريخ أمثلة فصائل كانت قوة القطعات فيها لا تتناسب مع كتلتها، بل كانت فصائل صغيرة تتغلب على أخرى أكثر عدداً يتقبل بإبهام وجود ذلك العدد المضروب فيه المجهول ويسعى جاهداً لكشفه سواء في هندسة خطة ما أو في التسلح أو، وهي من أكثر الحالات طبيعية، في عبقرية الرؤساء. لكن استعمال كل قيم المضروب فيه المجهول هذا لا تعطي النتائج المطابقة للأحداث التاريخية.

مع ذلك، يكفي التنكر للكذبة التي تعزو، الدعم الأكبر لمصالح الأبطال، لفعالية الاستعدادات القيادة العليا، حتى نكتشف ذلك المجهول س.

فهذا الـ: «س»، وهو معنوية الجنود، أي زيادة الرغبة في القتال وفي التعرض للخطر أو نقصانها، التي يمكن أن تجيش في صدور كل الجنود الذين يشكلون جيشاً، وذلك على نحو مستقل تماماً عن مسألة معرفة ما إذا كانوا يقاتلون تحت إمرة عباقرة، على ثلاثة خطوط أو على خطين، وبالهراوات أو البنادق التي تطلق ثلاثين طلقة في الدقيقة. إن الرجال الذين لديهم رغبة كبرى في القتال، يقيمون أنفسهم دائماً من تلقاء أنفسهم في المراكز الأكثر قابلية للقتال.

إنّ معنوية الجنود هي المضروب فيه بالكتلة الذي يكون حاصل ضربه قوة الجيش وتحديد وتعريف قيمة معنوية جيش ما، هذا المضروب فيه المجهول هما المسألة واجبة الحل.

إنّ هذه المسألة لا يمكن أن تحل إلا على الطريقة الآتية: لنكف عن الإدخال الفرضي في المعادلة، مكان س قيمة المجهول كله، شروط ظهور القوة، كترتيبات الرئيس والتسلح إلخ، واعتبارها قيم المضروب فيه. ولنأخذ على العكس، هذا المجهول كاملاً، أي بوضعه الرغبة القصوى أو الدنيا في القتال والتعرض للموت. وحينئذٍ فقط، بعد أن نضع الأحداث التاريخية المعروفة في المعادلة ونقارن بين كل حالة، قيمة ذلك المجهول، نستطيع أن نأمل تحديد طبيعته.

عشرة رجال أو ألوية أو أفواج في قتال مع خمسة عشر رجلاً أو لواء أو فوجاً انتصروا، أي قتلوا وأسروا كل خصومهم دون استثناء ولم يخسروا إلا أربعة منهم. وإذن، لقد وقع من جانب خسارة أربعة رجال ومن الجانب الآخر خمسة عشر رجلاً. وبالتالي، تساوى أربعة مع خمسة عشر، ومنهم ينجم أنَّ: ٤س=١٥ق وإن س: ق=٤:١٥ . وهذه المعادلة لا تعطي قيمة س المجهول، بل النسبة بين المجهولين. وبإخضاع مختلف الوحدات التاريخية المأخوذة إفرادياً لمثل هذه المعادلة، (معارك، حملات، أزمنة الحرب) نحصل على سلسلة من الأرقام يجب أن تحوي قوانين وأن تكشف قوانين فيها.

والقاعدة «التكتيكية» التي توعز التصرف خلال الهجوم الجماعي وبنظام مشتت خلال التقهقر، تؤكد، دون أن تتعمده، هذه الحقيقة من أن قوة جيش ما تتوقف على المعنويات التي تحضه. ولكي نقود رجالاً تحت القنابل، يقتضي ذلك نظام أكثر من قيادتهم لصد هجوم، وهذا النظام يتطلب حركة جماعية. لكن هذه القاعدة التي تغفل معنوية الجيش، لاتني تبرهن على خطئها وعلى أنها على وجه الدقة، معارضة تماماً للوقائع، حينما تظهر حمية قوية أو هبوط في معنويات الجنود، وذلك في كل الحروب القومية عموماً.

خلال تقهقرهم عام ١٨١٢، أخذ الفرنسيون الذين كان عليهم تبعاً

لقواعد «التكتيك» أن يدافعوا عن أنفسهم مبعثرين، يتكتلون على العكس في مجموعات كبيرة، لأن معنويات الجنود كانت شديدة التدني حتى أنّ كتلة واحدة تستطيع إيقاف مجموع الجيش. أما الروس، فعلى العكس، كانوا، تبعاً لنظام «التكتيك»، مدعوين إلى الهجوم عليهم كتلة واحدة؛ في حين أنهم تشتتوا لأن معنوية جنودهم كانت على درجة من الارتفاع، حتى أن الأشخاص المستقلين لم يكونوا في حاجة إلى صدور الأمر إليهم ليضربوا الفرنسيين وليتعرضوا للمتاعب والأخطار.

الفصل الثالث

منذ أن دخل العدو إلى سمولنسك، نشبت الحرب المسماة بحرب الأنصار.

وقبل فترة طويلة من اعتراف حكومتنا رسمياً بهذه الحرب، استؤصل الألوف من جنود الأعداء، بين متخلف وسارق ورائد من قبل القوقازيين و«الموجيك» بشكل لا إرادي مثلما تعض الكلاب كلباً مسعوراً. وكان دينيس داڤيدوف بحاسته الوطنية، أول من أدرك القيمة الرهيبة للهراوة التي كانت تبيد الفرنسيين بصرف النظر عن قواعد الفن العسكري، وإليه يرجع الفخر بأنه قام بالخطوة الأولى لتنظيم هذا النوع من القتال.

في الرابع والعشرين من آب/ أغسطس، نظمت الفصيلة الأولى من أنصار داڤيدوف وتبعه آخرون نهجوا نهجه. وكلما تقدمت الحملة، ازداد عدد هذه الفصائل.

بدأ الأنصار يدمرون الجيش الكبير تفصيلاً، فكانوا يكنسون الأوراق الميتة التي تتخلف من تلقاء نفسها عن الشجرة في طريقها إلى الجفاف، الجيش الفرنسي، بل يزعزعون الشجرة نفسها أحياناً. وفي تشرين الأول/ أكتوبر، عندما كان الفرنسيون يهربون باتجاه سمولنسك، كانت هذه الفصائل ذات الأهمية والسمات المختلفة، تعد بالمئات. وكان لبعضها كل مظاهر الجيش المنظم بمشاتها ومدفعيتها وأركان حربها وكل وسائل الرفاهية في الحياة بينما كانت فصائل أخرى تضم فرساناً وقوقازيين فحسب، وفصائل

أخرى، أصغر منها مؤلفة من خليط من المشاة والفرسان.. بل إن بعضها كان مؤلفاً من قرويين ومالكين ومدنيين غير معروفين. إنهم يروون أن شماساً على رأس بعض الأنصار، أسر، في شهر واحد، مئات من الجنود، وكذلك زوجة إقطاعي بولوني تدعى ڤاسيليسا قتلت مئات من الفرنسيين.

خلال أيام تشرين الأول/ أكتوبر الأخيرة، بلغت حرب الأنصار أوجها. لقد انقضى ذلك الوقت الذي كان الأنصار أنفسهم، في دهشة لجرأتهم، يخشون في كل لحظة أن يطوقهم الفرنسيون ويأسروهم، والذين كانوا خلاله لا يترجلون عن جيادهم أو يريحون مطاياهم، ويختبئون في الغابة منتظرين أن يطاردهم العدو. لقد اتخذت هذه الحرب الآن شكلاً معيناً وأصبح كل واحد يعرف بوضوح ما عليه القيام به ضد الفرنسيين وما يتعذر الشروع به. ومنذ ذلك الحين، بقي بعض رؤساء الفصائل وحدهم، الذين كانوا يسيرون بعيداً عن الفرنسيين مع أركان حربهم المنظمة، على اعتقادهم بأن كثيراً من المشاريع لا تزال مستحيلة التطبيق.

أما رؤساء الفصائل الصغيرة، الذين بدأوا عملهم منذ مدة طويلة ورأوا الفرنسيين عن قرب، فكانوا على العكس، يجدون ممكناً ما لم يكن قادة الفصائل الكبرى يجرؤون على مجرد التفكير فيه. أما القوقازيون والقرويون الذين كانوا من جانبهم يتسللون إلى صفوف الفرنسيين، فكانوا يقدرون أنهم منذ ذلك الحين، يستطيعون عمل أي شيء بكل قحة.

وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، وجد دينيسوف نفسه، وكان على رأس فصيلة في عداد الأنصار، يتحرق بحمى اللهفة. لقد كان ورجاله منذ الصباح يتقدمون. لقد راقبوا طوال النهار، خلال أغصان الغابة المحاذية للطريق العام، قافلة فرنسية تحمل العتاد ولوازم الفرسان ولوازم الأسرى انفصلت عن مجموع جموع الجيش في طريقها في سمولنسك،

تواكبها قوة كبيرة من الحرس بحسب معلومات الجواسيس والأسرى الهاربين. ولم يكن دينيسوف وحده الذي يعرف خبر مرور هذه القافلة، إذ وصل خبرها إلى دولوخوف الذي كان هو الآخر على رأس فصيلة صغيرة من الأنصار، ينشط في القطاع نفسه. وإلى رؤساء كتائب أخرى أكبر عدداً، متمتعة بهيئات أركان حرب خاصة بها. كان الخبر منتشراً في كل مكان إذن، فكان العارفون به، على قول دينيسوف نفسه يشحذون أسنانهم سلفاً. ولقد أرسل رئيسا كتيبتين كبيرتين، الأول بولوني والثاني ألماني، إلى دينيسوف بأنَّ واحداً تقريباً، يسأله كل منهما عم إذا كان يريد أن يتحد معه للهجوم على القافلة.

صاح دينيسوف وهو يقرأ رسالتيهما:

ـ كلا يا إخوان، إن لي شعراً نابتاً حول ذقني.

وردَّ الألماني بأنه رغم رغبته المخلصة في العمل تحت إمرة جنرال لامع وشهير مثله، فإنه مضطر إلى حرمان نفسه من هذا الشرف لأنه قد انضوى قبل ذلك تحت لواء الجنرال البولوني. وكتب إلى البولوني هذه العبارات بالضبط مؤكداً له أنه انضوى قبل ذلك تحت لواء الألماني.

قرر دينيسوف بعد أن اتخذ هذه الإجـراءات، أن يهاجم القافلة مع دولوخوف، دون أن يعلم هذين الجنرالين بالأمر، وأن يستوليا عليها بقواتهما الشخصية. وكانت هذه القافلة يوم ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر، تتبع الطريق المؤدي من ميكولينو شامشيفو. وعلى جانب الطريق الأيسر بين هاتين القريتين امتدت أحراج كثيفة كانت في بعض الأماكن تبلغ الطريق وفي جهات أخرى تبتعد عند مسافة ميل أو أكثر. وفي هذه الأحراج كان دينيسوف يتوغل فيها تارة حتى يبلغ عمق الغابة، ويعود إلى تخومها تارة أخرى، ويمشي طوال ذلك النهار دون أن تغيب القافلة عن عينيه. وفي الصباح، غير بعيد عن ميكولينو، حيث الغابة تحاذي الطريق، أسر قوقازيو دينيسوف عربتي نقل غائصتين في

الوحل كانتا محملتين بسروج للجياد، واقتادوهما إلى الغابة. ومنذ ذلك الحين وحتى المساء، بقيت الفصيلة تتبع حركة الفرنسيين دون أن تهاجم. كان يجب عدم بث الذعر في قلب العدو وتركه في أمان حتى يبلغ شامشيفو، وحينئذٍ يتم الاتصال بدولوخوف الذي يجب أن يكون متمركزاً مساء في مكان ما من الغابة على بعد فرسخ من القرية، لاتخاذ التدابير الأخيرة ثم للوقوع فجر اليوم التالي من الجانبين معاً على القافلة كالبرد، وقتل كل الجنود ونهب الأشياء كلها دفعة واحدة.

وعلى بعد فرسخين وراء ميكولينو، في المكان الذي تتقدم الغابة حتى تصل إلى الطريق، تركوا ستة من القوقازيين مهمتهم إخطار رؤسائهم حالما تظهر لأعينهم على الطريق فرقة فرنسية جديدة.

أمام شامشيفو، كان على دولوخوف أن يتفحص الطريق ليعرف المسافة التي تفصل القوات العدوة الأخرى عن مكان القافلة. ولقد قدروا الجنود المرافقين للقافلة بألف وخمسمائة رجل، وكان مع دينيسوف مائتا نصير ومع دولوخوف مثل هذا العدد تقريباً لكن تفوق العدد لم يكن ليعيق دينيسوف. لكنه كان في حاجة إلى معرفة شيء واحد: ما هي على الضبط القوات التي ترافق القافلة؟ فكان على دينيسوف والحالة هذه أن يستولي على «لسان» أي أن يأسر رجلاً من القوة العدوة. ولقد كان هجوم الصباح على العربات المحملة سريعاً جداً حتى أن الفرنسيين الذين كانوا قرب العربات قتلوا جميعاً ولم يؤخذ حياً إلا قارع طبل صغير. وكان قارع الطبل هذا متخلفاً، لم يعرف أن يقول شيئاً دقيقاً عن تشكيلات الحامية.

رأى دينيسوف أن الهجوم مرة ثانية خطير خشية أن يستنفر الحامية كلها لذلك أرسل إلى الأمام قروياً من جماعته اسمه تيخون شيرباتوف، كان عليه إذا أمكن، أن يأسر أقله رائداً فرنسياً من جنود الطليعة المخيمين هناك في ذلك الوقت.

الفصل الرابع

كان اليوم خريفياً ساكناً والمساء والأفق مصطبغين بلون واحد، لون الماء الكدر والمطر ينهمر بغزارة، تارة رذاذاً وطوراً قطرات كبيرة تجلد الهواء بخطوط منحنية.

وكان دينيسوف يتشح بردائه الصوفي المبطن ويعتمر قلنسوة من الفراء يقطر منهما المطر، ممتطياً صهوة جواد أصيل ونحيل. وكأن جواده، يحني رأسه إلى جانب، متيقظ الأذن، متقلص الأسارير تحت ذلك المطر المنهمر يسبر المساحة التي أمامه بقلق، ووجهه المهزول الذي غطته لحية قصيرة سوداء كثيفة، يبدو غاضباً.

وإلى جانب دينيسوف، مثله في ردائه الصوفي المبطن باللبد والقلنسوة من الفراء، كان رئيس الفرق القوقازية، مساعده، معتلياً صهوة واحد من جياد الدون، حسن التغذية ضخم.

وكان الرئيس القوقازي لوڤاييسكي الذي يرافقهما في مثل ثيابهما، ثالث الثلاثة. إنه فتى عملاق شاحب، رقيق كلوح من الخشب، أشقر ذو عينين صافيتين، يعرب وجهه وكل كيانه عن رجل واثق بنفسه. وعلى الرغم من استحالة قول ما في ذلك الفرس والفارس من شيء خاص لدى النظرة الأولى التي تلقى على الرئيس ودينيسوف، فإنه كان واضحاً أن دينيسوف، المبلل بالمطر المنزعج في وضعه ليس إلا فارساً اتفاقاً بينما الرئيس المستوي على السرج بهدوء طبيعي وراحة، لم يكن مع راحلته إلا قطعة وقوتاهما متوافقتان.

كان القروي الذي يقوم بدور الدليل، يسير أمامهم متقدماً قليلاً وقد تبلل حتى العظام وهو في معطفه الرمادي وقلنسوته البيضاء.

وإلى الوراء قليلاً، على صهوة جواد أصيل نحيل، ذي ذيل وعرف كثيف، وخطم أدماه اللجام، كان ضابط شاب فوق جواده وهو متدثر بمعطف أزرق فرنسي.

وإلى جانبه، فارس شاب كان يردف وراءه فتى صغيراً مرتدياً زياً فرنسياً ممزقاً وعلى رأسه قلنسوة زرقاء، كان يتشبث بالفارس بيديه الحمراوين من البرد ويحرك قدميه العاريتين محاولاً بعث الدفء فيهما وينظر حوله بدهشة مرفوع الحاجبين. إنه قارع الطبل الصغير الذي أسر صباح ذلك اليوم.

وفي أعقابهم، في طريق الغابة الضيق، الذي تناثرت عليه الأوراق الميتة، راح الفرسان يتقدمون في الطليعة، ثلاثة أو أربعة في كل صف ومن ورائهم القوقازيون بعضهم في أردية وبعضهم في معاطف فرنسية والبعض الآخر يضعون على رؤوسهم أجلال الجياد. وكانت الجياد الشقراء أو الكمت تبدو سوداء بسبب المطر الذي كان ينهمر عليها. وكانت رقابها تبدو ضيقة بشكل غريب لكثرة ما أصاب أعرافها من بلل، ومجموع شعرها يتصاعد منه البخار. وكل شيء، الألبسة والسروج والأعنة، كلها كانت مبللة، لزجة، تلتمع من الماء، مثل الأرض والأوراق الميتة على الطريق. وكان الفرسان منهم يعملون جاهدين على ألّا يتحركوا بغية تدفئة الماء الذي تسلل إلى أجسادهم والحيلولة دون دخول قطرات أخرى أكثر برودة فوق السرج وعلى أنوفهم وفوق ركبهم. وفي وسط الفرقة، في إطار من القوقازيين، كانت عربتا نقل مقطورتان إلى جياد فرنسية وجياد قوقازية، وهذه مسرجة، ترتجفان فوق أرومات الأشجار والأخشاب اليابسة أو تخوضان في الحفر الملأى بالماء.

انتحى جواد دينيسوف جانباً لكي يتجنب بركة ماء فاصطدمت ركبة الفارس بشجرة، فزمجر دينيسوف ساخطاً: ألف رعد!.

وساط الجواد مرتين أو ثلاثاً فغطى نفسه بالوحل كما لطخ به جاره.

لم يكن دينيسوف على ما يرام لأن المطر كان ينهمر ولأنه كان جائعاً، فهو لم يتناول طعاماً منذ الصباح، وبصورة خاصة، لأن دولوخوف لم يعطه بعد أية إشارة تدل على وجوده ولأن الرجل الذي أرسله ليجيء «بلسان» لم يرجع بعد.

أخذ دينيسوف يفكر وهو يراقب الأبعاد آملاً أن يرى رسول دولوخوف قادماً: «يصعب إيجاد فرصة مشابهة لمهاجمة قافلة والاستيلاء عليها، لكن، إذا هاجم منفرداً، أمر شديد التعرض للخطر، وإذا أرجئ الأمر إلى الغد، معناه أن تفلت الطريدة منا لتستولي عليها كتائب الأنصار الكبيرة تحت أنوفنا».

ولما وصل إلى بقعة جرداء تمتد الرؤية فيها نحو اليمين، توقف دينيسوف وقال:

ـ إن بعضهم آت.

نظر رئيس القوقازيين في الاتجاه الذي عيّنه دينيسوف.

ـ قال الرئيس الذي كان يحب الكلمات المجهولة من القوقازيين.

ـ إنهما اثنان، ضابط وقوقازي. غير أنه: «غير قابل الحدس» ما إذا كان نائب الزعيم.

انحدر الفارسان اللذان يرقبونهما من على منحدر واختفيا ليعودا بعد بضع دقائق. ظهر الآن في المقدمة الضابط يثخن جواده المنهك بضربات السياط وهو يجري متشعثاً، يقطر الماء منه وقد رفع أكمام سراويله حتى الركبتين. ومن ورائه، راح قوقازي يسرع وهو واقف على ركابين. اقترب الضابط، وهو ذو وجه كبير مستدير قرمزي، وعينين حيتين، ومد لدينيسوف غلافاً مبللاً، وقال: من جانب الجنرال. أعذرني إذا لم يكن جافاً تماماً.

تناول دينيسوف الورقة ففضّها مقطب الحاجبين، فقال الضابط يحدث الرئيس القوقازي بينما كان دينيسوف يقرأ الرسالة:

ـ لقد قالوا جميعاً إن الأمر خطير، خطير جداً. لذلك فإن كوماروف وأنا، وأشار إلى تابعه، اتخذنا كل الاحتياطات. فلدى كل منا مسدسان.

ثم سأل عندما رأى قارع الطبل الصغير:

ـ وهذا، ما هذا؟ سجين؟ هل التحمتم في معركة؟ هل يمكن التحدث إليه؟ وفجأة صاح دينيسوف بعد أن قرأ رسالته:

ـ روستوف! پيتيا! لماذا لم تقل إنك أنت؟.

والتفت إليه مبتسماً ومد يده إلى الضابط الشاب.

والحقيقة أن ذلك الضابط كان پيتيا روستوف.

لقد أعد پيتيا نفسه خلال الطريق ليلاقي دينيسوف لقاء الرجل والضابط دون أن يتظاهر بأنه يذكر علاقاتهما السابقة. ولكن، ما إن ابتسم له، دينيسوف حتى أضاء وجهه واحمرَّ من الفرح فنسي المظهر الرسمي الذي كان يريد الظهور به وبدأ يروي سروره لانتقائه لمثل تلك المهمة ويقص كيف مر أمام الفرنسيين وشاهد النار في ڤيازما، حيث امتاز واحد من الفرسان..

قاطعه دينيسوف وقد استعاد مظهره القلق: حسناً، إنني مسرور برؤيتك.

وقال وهو ينظر إلى رئيس القوقازيين مساعده:

ـ يا ميخائيل ڤيوكليتيتش، إن الرسالة من الألماني. إنه تحت إمرته.

وشرح دينيسوف أن الورقة التي سلمت إليه كانت تأكيداً لأمر الجنرال الألماني للالتحاق به لمهاجمة القافلة وأعقب:

إذا لم نأسر القافلة حتى غد، ستمر تحت أنفنا.

وبينما دينيسوف يتحدث مع الرئيس، تصور پيتيا الذي اضطرب للهجته الباردة، أن كمّي سرواله المرفوعين هما سبب ذلك، فمد يده متحسساً من

تحت معطفه فأسدلهما بدقة ثم جاهد ليتخذ أفضل مظهر عسكري ممكن وقال لدينيسوف وهو يعود إلى وضعه الذي أعده خلال الطريق، وضع مساعد عسكري أمام جنراله، وهو يرفع يده إلى حافة عمرته: ما هي أوامر نبالتكم العلية، أم ترى يجب أن أنتظر إلى جانب نبالتكم؟.

قال دينيسوف ساهماً: أوامري؟ هه، هل تستطيع الانتظار هنا حتى الغد؟.

صاح پيتيا:

ـ آه! بكل طيبة خاطر.. وهل أستطيع ملازمتك؟.

سأل دينيسوف:

ـ نعم. ولكن ما هي الأوامر التي أعطاها إليك الجنرال على الضبط؟ هل قال لك بالعودة فوراً؟.

أصبح وجه پيتيا قرمزياً: وسأل بقلق:

ـ هو؟ إنه لم يصدر إلي أي أمر، حسناً، هل أستطيع؟.

فأجب دينيسوف: حسناً، اتفقنا.

والتفت إلى مرؤوسيه فأصدر إليهم تعليماته. كان على الفرقة كلها أن تذهب قرب منظرة، في المكان المحدَّد من الغابة، بينما يمضي الضابط ذو الحصان الكرجي للبحث عن دولوخوف لمعرفة مكان وجوده وما إذا كان سيأتي خلال السهرة. وكان هو نفسه يريد الذهاب مع رئيس القوقازيين وپيتيا إلى تخوم الغابة من جهة شامشيڤو ليتعرف إلى المكان الذي سيوجه إليه هجوم الغد من موقع الفرنسيين.

قال للقروي الذي كان يقوم بعمل الدليل: هيا، أيها الملتحي. قدنا إلى شامشيڤو.

واتجه دينيسوف وپيتيا والرئيس، يتبعهم بعض القوقازيين والفارس مردف السجين، إلى اليسار عبر الوادي ليبلغوا تخوم الغابة.

الفصل الخامس

توقف المطر لكن الرذاذ استمر ينهمر وتنثال قطرات الماء من الأغصان. وبدأ دينيسوف والرئيس القوقازي وبيتيا يتقدمون بصمت وراء القروي ذي القلنسوة الذي كان بحذاءيه المصنوعين من القنب، يمشي بخفة ودون صوت على الجذور والأوراق المبللة باتجاه تخوم الغابة.

وبعد أن وصل مرتفعاً، توقف القروي، وراح يتفحص ما حوله ثم اتجه نحو ستر من الأشجار المتناثرة. وبالقرب من شجرة سنديان لم تكن قد فقدت أوراقها بعد وتوقف وأشار بيده بحركة نداء سرية.

تقدم دينيسوف وبيتيا. كان المكان الذي وقف فيه الرجل يسمح برؤية الفرنسيين. فبعد الغابة مباشرة، كان حقل من الحنطة ينفتح منحنياً فوق سفح متعرج، وإلى اليمين، في الجهة المقابلة لواد شديد الانحدار، كانت قرية صغيرة يرى فيها منزل السيد ذو السقوف المتهدمة. وعلى مسافة مائتي «ساجين» من هناك (الساجين ١٣٣٦، ٢م)، كانت مجموعة من الأشخاص ترى وسط الضباب المتحرك. كان الأشخاص في القرية وفي منزل السيد وعلى المنحدر وفي حديقة السيد وعلى مقربة من الآبار والمستنقع وعلى طول الطريق الذي يمر على جسر يربط التل بالقرية. وكانت النداءات التي يتبادلونها والصيحات التي يطلقونها بلغة أجنبية ليحثوا الجياد المقطورة إلى العربات على صعود السفح المنحدر، تسمع بوضوح.

قال دينيسوف بصوت خفيض دون أن يبارح الفرنسيين بعينيه:

ـ جيئوا بالسجين إلى هنا.

ترجل القوقازي وأخذ الفتى فجاء إلى دينيسوف. فسأل دينيسوف وهو يشير إلى الفرنسيين أن يسمي مختلف القطعات. فراح الفتى الذي دس يديه المقرورتين في جيوبه ينظر إلى دينيسوف بخوف رافعاً حاجبيه. وعلى الرغم من رغبته الصادقة في أن يقول كل ما يعرف، اختلط الأمر عليه في أجوبته فلم يرد على كلمة نعم. يقول في أعقاب كل سؤال يطرح عليه فأشاح دينيسوف وخاطب رئيس القوقازيين يشاطره شعوره.

وكان پيتيا المنشغل المتطلع، ينظر حيناً إلى الطبال الصغير وحيناً إلى دينيسوف، تارة إلى الرئيس وتارة أخرى إلى الفرنسيين المنتشرين في القرية وعلى الطريق، ساعياً إلى ألّا يضيع شيئاً مما يرى.

صاح دينيسوف وقد أضاءت عيناه ببريق من الغبطة:

ـ سواء أجاء دولوخوف أم لم يجئ، يجب مهاجمتهم!..؟ فأجاب الرئيس: نعم، فالمكان مناسب.

استرسل دينيسوف:

ـ سنرسل المشاة من جهة المستنقعات وسيتسللون حتى يبلغوا حديقة المنزل، وأضاف وهو يشير إلى الغابة التي تستند إليها القرية:

ـ وأنت مع القوقازيين، ستتقدمون من هنا أما أنا مع فرساني، فمن هنا. ولدى أول طلقة نارية...

قال الرئيس: لا يمكن المرور عبر الصدع فهناك ردغة، وستتعرض الجياد للوقوع فيها لذلك يجب الالتفات نحو اليسار.

وبينما هما يتناقشان بخفوت على هذا النحو، دوى في أعماق الجانب

الآخر من المستنقع طلق ناري تبعته سحابة صغيرة من الدخان الأبيض ثم طلق ثانٍ وبعده أطلق مئات الفرنسيين المرصوفين على المنحدر، صرخة فزع. قفز دينيسوف والرئيس التابع له إلى الوراء للوهلة الأولى. لقد كانا قريبين جداً من العدو حتى خيل إليهما أنهما كانا مبعث صرخة الفرح وسبب الطلقتين. ولكن لم يكن السبب متعلقاً بهما. ففي الأسفل، في المستنقع، توحل رجل مرتدياً ألبسة حمراء، فكانت الطلقات والصرخات موجهة إليه.

قال الرئيس: لكن هذا «تيخوننا»!.

ـ نعم، إنه هو حقاً!.

صاح دينيسوف: يا للسافل!.

وصاح الرئيس وهو يرمش بعينيه:

ـ أوه! سوف يخلص نفسه!.

أسرع الرجل الذي أسمياه تيخون إلى الساقية فارتمى فيها باعثاً الماء من كل جانب وبعد أن اختفى لحظة، ظهر مجدداً على الضفة أسود وظل يجري على أربع حتى ابتعد فتوقف الفرنسيون الذين كانوا يتبعونه.

قال الرئيس: حسناً إنه نشيط!.

واستأنف دينيسوف الذي عاد القلق إلى محياه:

ـ يا للحيوان! أين أمضى وقته حتى الآن؟.

سأل پيتيا: من هو هذا؟.

ـ إنه كشافنا أرسلته بحثاً عن «لسان».

رد پيتيا وهو يهز رأسه لكلمة دينيسوف الأولى وكأنه على علم بالأمر، في حين أنه لم يفهم كلمة واحدة من كل ما سمع:

ـ آه! حسناً جداً!.

كان تيخوف شيرباتوف، واحداً من أكثر أعضاء الفرقة لزوماً، إنه قروي من بوكروڤسكوييه، قرب «غات» ولقد وصل دينيسوف في بدء عملياته إلى تلك القرية واستقدم صاحبها تبعاً لعادته، ليسأله عم يعرف عن الفرنسيين. فأجابه الإقطاعي ككل أصحاب القرى الذين يكونون حذرين عادة، إنه لا يعرف شيئاً. ولكن، ما إن أفهمه دينيسوف أن غايته هي حرب الفرنسيين وسأله عم إذا كان هناك أمل في مغامرة ما في الجوار، قال صاحب الضيعة إنه شاهد «حوامين» فعلاً، لكن تيخون شيرباتوف، هو الوحيد في القرية الذي يهتم بهذه الأمور. وحينئذ استدعى دينيسوف شيرباتوف هذا، وبعد أن هنأه على عمله، قال له بحضور الإقطاعي بضع كلمات عن الإخلاص للقيصر والوطن وعن الحقد على الفرنسيين الذي يجب أن يعتلج في قلوب الروس جميعاً.

قال تيخون وقد ظهر عليه الخجل لأقوال دينيسوف:

ـ إننا لا نسيئ إلى الفرنسيين. ولقد تسلينا كما تقول، باصطياد «الحوامين» فتيان القرية وأنا، فقتلنا منهم حوالى دزينتين. وباستثناء ذلك، لم نسئ إليهم قط.

وفي اليوم التالي، كان دينيسوف قد نسي الرجل تماماً. مع ذلك، فإنه في اللحظة التي همّ بأن يغادر القرية، جاؤوا يقولون له إن تيخون انضم إلى الفرقة وهو يطلب الموافقة على العمل فيها. فوافق دينيسوف.

كُلف تيخون بادئ الأمر أعمالاً وضعية كإيقاد النار وملء الماء وسلخ الجياد النافقة إلخ.. لكنه لم يلبث أن أظهر استعدادات كبيرة لحرب الأنصار كان يمضي إلى الصيد طوال الليل ويعود دائماً ومعه ثياب وأسلحة سلبها من الفرنسيين، بل يأتي بأسرى عندما يصدر إليه الأمر بذلك. فلم يتركه دينيسوف يعمل بعد ذلك بل أصبح يصحبه معه في رحلاته وأدخله في سلاح القوقازيين.

وكان تيخون الذي لا يحب ركوب الجياد، يمضي دائماً راجلاً ولكن دون أن يترك الفرسان يسبقونه. كان مسلحاً ببندقية يحملها لمجرد الشكل وبرمح وفأس كان يستعملها بكثير من المهارة كما يستعمل الذئب أنيابه فيطرد البراغيث عن جلده كما يمضغ بها عظمة كبيرة. وكان لتيخون مثل هذه البراعة في أن يشطر عموداً جزءين بضربة واحدة أو أن يمسك بفأسه من رأسها فيجتزئ بها صفائح رقيقة أو ملاعق. لقد كان تيخون يحتل في فرقة دينيسوف مكاناً على حدة، مكاناً استثنائياً. فإذا كان الأمر يتعلق بالشروع في عمل عسير أو منفر، كأن يرفع بكتفه عربة متوحلة أو أن يجذب حصاناً من ذنبه خارج مستنقع ويسلخه، أو أن يتسلل بين الفرنسيين أو يقطع خمسين فرسخاً في مرحلة واحدة، فإنهم جميعاً يشيرون بأصابعهم إلى تيخون مقهقهين.

كانوا يقولون عنه:

ـ ماذا يمكن أن يضر هذا الشيطان، إن كل شيء صالح للأكل عنده.

مع ذلك، فإن واحداً من الفرنسيين الذين أسرهم تيخون، أطلق رصاصة مسدسه على صلبه. ولقد أحدث هذا الجرح الذي عالجه تيخون بالكحول من الداخل والخارج معاً، سلسلة مداعبات من أكثرها بهجة بين أفراد الفرقة كلهم، فكان تيخون يصغي إليها دون أن يرمش.

كان القوقازيون يقولون له وهم يقهقهون:

ـ حسناً، يا أخانا، لن يأخذوك مرة أخرى؟ كدت تصبح أحدب.

فيصعر تيخون وجهه ويغضّنه متظاهراً بالسخط ثم يرمي الفرنسيين بأقذع الشتائم وأغلظها. غير أن تلك المغامرة لم تمر دون أن تترك فيه أثراً، إذ إنّه منذ جرحه ذاك، أصبح نادراً ما يعود بأسرى.

لقد كان تيخون الرجل الأكثر إفادة والأكثر جرأة في الفرقة كلها. لم يكن أحد يعرف انتقاء فرصة مد الشرك أفضل منه ولم يأسر أحد ويقتل بقدر ما

أسر وقتل من الفرنسيين، الأمر الذي عاد عليه بأن أصبح مهرج القوقازيين والفرسان كلهم فكان هو نفسه يحشر نفسه بكل طيبة خاطر في هذا المركز المجيد. ولقد أرسله دينيسوف هذه المرة، الليلة الفائتة، إلى شامشيغو ليأتيه «بلسان». ولكن، سواء أنه يكتفي بأخذ فرنسي واحد فحسب، أو أنه أمضى الليل نائماً، فإنه تسلل في وضح النهار بين الأدغال وسط مجموعة العدو، فاكتشف أمره كما شاهد دينيسوف منذ حين.

الفصل السادس

لوى دينيسوف عنان جواده ورجع على آثاره بعد أن تناقش وقتاً ما مع رئيس القوقازيين حول هجوم الغد الذي تقرّر بسبب اقترابهم من الفرنسيين.

قال لپيتيا:

ـ هيا يا أخي، يجب الآن أن نجفف ثيابنا.

ولما بلغ مركز الحرس في الغابة، توقف دينيسوف في مكان وراح يتفحص ما يحيط به. رأى رجلاً طويل الساقين، مباعداً بين الذراعين، يرتدي سترته ويحتذي أحذية من القنب ويتقلنس بقلنسوة من صنع كازان، متقلداً بندقيته متمنطقاً بفأس، يتقدم بخطوات كبيرة بين الأدغال. فلما شاهد دينيسوف بادر الرجل فألقى شيئاً ما بين الأشواك النامية ونزع قلنسوته المبللة ذات الخوافي المنسدلة ثم اقترب من رئيسه. كان ذاك هو تيخو، كان وجهه المجدور ذو العينين الصغيرتين، ممتلئاً بالغضون، مشرقاً بالرضى. فلما وقف أمام دينيسوف، رفع رأسه وشخص بعينيه إليه وكأنه يكتم ضحكة تكاد تنفجر من بين شفتيه.

قال دينيسوف: إذن، من أين جئت؟

أجاب تيخون بحماسة وجرأة، وبصوت أجش منخفض رغم رخامته:

ـ من أين جئت؟ من مطاردة الفرنسيين.

ـ ولماذا إذن في رابعة النهار؟ حيوان! ثم ألم تنجح؟..

أجاب تيخون: بلى، بلى، لقد أسرت واحداً.

أين هو إذن؟

استرسل تيخون وقد اتخذ له وقفة مريحة أكثر على قدميه الضخمتين المسطحتين في حذاءيهما المصنوعين من ليف القنب:

ـ نعم، لقد أطبقت على واحد، وكان ذلك قبل انبلاج الصباح. نعم، ولقد سقته إلى الغابة. لكنني اكتشفت بعد حين أنه لا ينفع لشيء. وحينئذٍ فكرت وقلت لنفسي إنه ينبغي لي الحصول على آخر، انتقيته بشكل أفضل.

فقال دينيسوف لرئيس قوقازييه:

ـ آه! القذر، هذا هو السبب. ولكن لماذا لم تأتني به إذن؟

قاطعه تيخون برشاقة وهو يهش:

ـ وأية فائدة، لم يكن ينفع لشيء، ألست أعرف ماذا ينبغي لك؟

ـ للأتان!.. وبعدئذٍ؟..

تابع تيخون:

ـ فتشت عن آخر وقد زحفت هكذا في الغابة ثم استلقيت، وألقى تيخون بنفسه فجأة على الأرض على بطنه بحركة مرنة ليشرح كيف تصرف، ثم، ها إن واحداً يقترب. ها إنني أضع له الكلاب هكذا، وقفز برشاقة على قدميه وهو يقول هذه الكلمات، وقلت له: إلى الأمام، إلى الزعيم. وها هو ذا يزمجر، فيأتي أربعة آخرون. انقضوا علي بسيوفهم، وأنا، هذا ما فعلته بفأس. وصرخ تيخون: إلى الوراء! اذهبوا إلى الشيطان!، وراح يحرك ذراعيه حركات دائرية ثم قطب حاجبيه متخذاً مسحة متوعدة ووقفة مريحة.

قال رئيس القوقازيين وهو يرمش بعينيه البراقتين: نعم، نعم، لقد شاهدنا من الأعلى كيف كنت تلعب بأساطين الخشب عبر الردغات.

وعلى الرغم من رغبة پيتيا العنيفة في الضحك، فقد لاحظ أن كل واحد

من زميليه يحتفظ بأمارات الجد على وجهه. فراحت عيناه تنتقلان بين وجه تيخون ووجهي رئيس القوقازيين ودينيسوف دون أن يفهم ما معنى كل هذا.

قال دينيسوف وهو يهز رأسه ويسعل سعالاً خفيفاً:

ـ لا تتصنع الغباوة. لماذا لم تأتني بالأول؟

أخذ تيخون يحك ظهره بإحدى يديه بينما انتقلت يده الأخرى إلى رأسه للغرض نفسه، وفجأة أشرق وجهه بابتسامة بلهاء كشفت عن جذور أسنانه التي منها حمل اسمه شيرباتوف، أي فاقد أسنانه الأمامية، انبسطت الغضون عن وجه دينيسوف وانفجر پيتيا بضحكة شديدة تنم عن المرح حتى أن تيخون نفسه انطلق مقهقهاً.

أكد تيخون: لكن صحيح، إنه لم يكن يصلح لشيء، أية فائدة كانت تُجنى من الإتيان به وهو في أطماره تلك؟ يا لها من قحة يا صاحب النبالة! أخذ يقول: «أنا، أنا ابن «جناز!» أنا لا أمشي».

صرخ دينيسوف: أيها الحيوان! وأنا الذي كانت بي حاجة إلى استجوابه...

فقال تيخون: لقد جعلته يتحدث أنا، قال لي: إننا لا نعرف شيئاً كثيراً قال إنهم كثيرون ولكن لا قيمة لهم، لا لهؤلاء ولا لهؤلاء.

ثم أردف وهو يركز على دينيسوف نظرته الحازمة:

ـ اشرعوا بضربة طيبة وستنالونهم جميعاً.

قال دينيسوف بصرامة: انتظر، سوف آمر بجلدك، ذلك يعلمك كيف تتغابى.

فقال تيخون:

ـ ولماذا الغضب؟ ألست أعرفهم أنا، فرنسييك؟ ليخيّم الليل، وحينئذٍ آتيك باثنين بل بثلاثة إذا اقتضى الأمر.

صاح دينيسوف: هيا، إلى الأمام!

ومشى في طريق مركز الحرس صامتاً مقطب الحاجبين.

تبعهم تيخون، فسمع پيتيا القوقازيين يمازحونه بصدد الحذاء الذي ألقى به بين الأشواك.

ولقد حلَّ محل رغبة الضحك التي كانت تعذب پيتيا بسماع تيخون ولرؤيته يبتسم ويمثل في غمرة أجوبته، شعور بالانزعاج مفاجئ. عرف پيتيا فجأة أن القروي قد قتل رجلاً منذ حين. فألقى نظرة على الطبال الصغير وشعر بقلبه ينقبض. لكن ذلك الشعور بالانزعاج لم يدم إلا لحظة. وجد أن من الضرورة أن يرفع الرأس وأن يتخذ أمارات أكثر تغطرساً، فراح يستجوب الرئيس القوقازي بلهجة خطيرة من مشروع الغد رغبة في أن يكون على مثل سوية زميليه.

جاء الضابط الموفد بمهمة يلاقي دينيسوف على الطريق ليعلمه بأن دولوخوف سيصل بعد حين وأن كل شيء على ما يرام من هذه الناحية.

وفوراً انبسطت أسارير دينيسوف فنادى پيتيا إليه وقال له:

ـ هيا، حدثني عنك.

الفصل السابع

عندما رحل پيتيا من موسكو حيث ترك ذويه ذهب إلى غرفته؛ وهناك لم يلبث أن ترقى إلى رتبة ضابط ارتباط لدى جنرال قائد كتيبة قوية. ومنذ ترقيته إلى رتبة ضابط، وعلى الخصوص منذ أن أصبح يساهم في الجيش العامل الذي اشترك معه في معركة ڤيازما، راح پيتيا يشعر بمرح مثير يدفعه إلى أن يحس بكونه رجلاً، فكان يبذل هوساً لانتهاز أية فرصة يستطيع أن يظهر فيها بطولة حقيقية. كان مفتوناً بكل ما رآه وتعلمه في الجيش. لكنه كان يخيل إليه دائماً أن البطولة الأكثر نقاء تعرض عادة في المكان الذي لا يكون فيه.

ولما أعرب جنراله، يوم ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر، عن رغبته في إيفاد أحدهم إلى كتيبة دينيسوڤ، سأله پيتيا هذه المهمة بلهجة شديدة التوسل حتى أن الجنرال لم يرفض طلبه، ولكن، عندما عزم على إرساله، تذكر الجنرال سلوك پيتيا المتهور خلال معركة ڤيازما: لقد اندفع پيتيا مباشرة إلى الخطوط الأولى تحت نيران الفرنسيين حيث أطلق رصاصتين من مسدسه، بدلاً من أن يتوجه إلى حيث أمره أن يذهب. لذلك فقد حرَّم عليه تحريماً قاطعاً أن يشترك في تلك العملية ما دام مع دينيسوڤ. ولهذا السبب، احمرَّ وجه پيتيا عندما سأله دينيسوڤ عم إذا كان يستطيع البقاء. بقي پيتيا حتى ساعة أن بلغ تخم الغابة، يفكر في أنه سيقوم بمهمته بكل دقة ويعود فوراً. لكنه عندما رأى الفرنسيين، ورأى تيخون، وعندما علم أنهم سيهاجمون بالتأكيد عند هبوط الليل، قرر، بذبذبة الشبان الذين ينتقلون من فكرة إلى أخرى أن جنراله، رغم

كل التقدير الذي يكنه له حتى تلك اللحظة، ليس أكثر من ألماني، في حين أن دينيسوف كان بطلاً وكذلك رئيس القوقازيين وتيخون أيضاً، وأنه سيكون مخجلاً من جانبه أن يغادرهم في فترة عسيرة مثل تلك الفترة.

كان الغسق يهبط عندما وصل دينيسوف وپيتيا والرئيس إلى مركز الحرس. شاهدوا في العتمة الشاحبة، الجياد مسروجة والقوقازيين والفرسان يقيمون أكواخاً خشبية في الأرض الخالية ولقد ركزوا مكان نيرانهم في وادٍ مشجر كي لا يفضحهم الدخان.

وعند مدخل كوخ خشبي صغير، وقف قوقازي مشمراً عن أكمامه، يقطع خروفاً، وفي الكوخ نفسه، كان ثلاثة من ضباط كتيبة دينيسوف، صنعوا لأنفسهم طاولة من باب. نزع پيتيا ثيابه المبللة ليعطيها لتجفيفها وراح فوراً يساعد الضابط في إعداد طاولة الطعام.

وفي غضون عشر دقائق، أعدت الطاولة بعد أن بسطت عليها منشفة وضعوا عليها الخمرة وزجاجة من الروم وخبزاً أبيض وشواء الخروف وملحاً.

ولقد جلس پيتيا مع الضباط وراح يجزئ بيديه اللتين سال منهما الدهن، لحم الخروف الشهي وهو طافع بحنان الطفل المهووس تجاه الضباط كلهم، ويلاحظ بالتالي أنهم جميعاً يعاملونه بالمثل.

سأل دينيسوف:

ـ ما قولك يا ڤاسيلي ڤيدوروڤيتش، أستطيع أن أبقى يوماً صغيراً آخر هنا أليس كذلك؟

وبدلاً من أن يأتيه الجواب، أجاب نفسه بنفسه:

ـ ماداموا أرسلوني للاستعلام، حسناً، إنني أستعلم... بيد أنه يجب أن تضعوني في المكان الأكثر... الأكثر أهمية.. إنني لا أبحث عن مكافأة... لست أريد إلا...

صرف بأسنانه ونظر حوله ثم رفع رأسه باعتداد وأشار إشارة معبرة.

كرر دينيسوف بابتسامة: في المكان الأكثر أهمية...

استرسل پيتيا:

ـ أرجو فقط أن تعهد إليّ بفصيلة صغيرة حتى أستطيع إصدار الأوامر. هيا، ماذا يكلفك هذا؟

وقال وهو يستدير نحو ضابط كان يستعد لتقطيع شريحته:

ـ أوه! هل تريد سكيني؟

وأخرج له سكيناً من جيبه فجزاه الضابط شكراً.

قال پيتيا ووجهه يحمرّ:

احتفظ به أرجوك، ابقه معك. لديّ الكثير من مثله.

وفجأة صاح:

ـ آه! وحق جميع القديسين! لقد نسيت تماماً! لدي زبيب رائع، لو تعلمون إنه خال من البزر. لدينا ممون جديد لديه أشياء ممتازة ولقد اشتريت عشر ليبرات لأنني معتاد الحلويات. هل ترغبون في تذوق الزبيب؟

وعلى الأثر، أسرع پيتيا إلى الباب حيث ينتظر تابعه القوقازي وعاد يحمل قفة فيها أكثر من خمس ليبرات من الزبيب:

ـ كلوا ما تشتهون أيها السادة. كلوا ما تشتهون.

ثم سأل رئيس القوقازيين:

ـ وبالمناسبة، ألست بحاجة إلى إبريق للقهوة؟ لقد اشتريت واحداً ممتازاً من ممونتا! إنّ لديه بضاعة جميلة. ثم إنه شريف تماماً، وهذا الأهم. سوف أقدمه لك دون توان ولعل أحجار النار لديك مهترئة؟ إنها أشياء تحدث غالباً. لقد حملت معي عدداً منها، إنها هنا، وأشار إلى قفته، لدي ما يقرب المائة

منها. لقد اشتريتها بمبلغ زهيد. خذ منها أرجوك دون حرج، خذها كلها إذا شئت.

وفجأة ذعر پيتيا خشية أن يكون قد ذهب في حديثه بعيداً فسكت وتصاعدت الحمرة إلى وجهه.

راح يحاول أن يتذكر ما إذا كان قد ارتكب هفوة ما وبينما هو يستعرض ذكريات النهار، عادت ذكرى الطبال الفرنسي الصغير إلى مخيلته. فكر: «إننا هنا نتفكه ونتلذذ، وهو كيف حاله؟ أين وضعوه؟ هل قدموا له طعاماً؟ ألم يسيئوا إليه؟ لكنه خاف تبجحاته حول أحجار النار أن يستعلم عن حاله.

«هل أستطيع سؤالهم؟ سوف يقولون: ها هو ذا طفل يستعلم عن طفل مثله. لكنني سأريهم غداً ما إذا كنت مجرد طفل. لماذا أخجل من السؤال؟ آه ليكن!» ولم يلبث أن حدث الضباط ووجهه يحمرّ وفي نفسه خوف من أن يرى على وجوههم طيف ابتسامة هازئة وسألهم:

ـ ألا نستطيع استدعاء ذلك الفتى الذي أسروه؟ وأن نعطيه ما يأكل.. لعله...

فقال دينيسوف الذي لم يظهر عليه ما يدل على أنه يجد شعور پيتيا مخجلاً: نعم، الصغير المسكين. ليستدعوه. إن اسمه ڤنسان پوس، ليستدعوه.

قال پيتيا: إنني ذاهب بنفسي.

فكر دينيسوف:

ـ اذهب، اذهب، يا للصغير المسكين.

وتسلل پيتيا الذي كان قرب الباب عندما نطق دينيسوف بهذه الكلمات، بين الضباط حتى وصل إلى جانبه وقال: اسمح لي أن أقبلك يا صديقي العزيز! كم هذا حسن، كم هو حسن!

وصاح پيتيا عندما أصبح على العتبة:

ـ پوس! ڤنسان!

استعلم صوت في الظلام:

من تريد يا سيدي؟

فأجاب پيتيا أنه يريد الفرنسي الصغير الذي أسر خلال النهار، فأجاب القوقازي.

ـ آه! ڤيسيوني؟

لقد حل اسم ڤيسيوني محل اسم ڤنسان عند القوقازيين خلال ذلك الوقت القصير، أما عند الفلاحين الروس والجنود فقد أصبح ڤيسينيا. وفي كلتا الحالتين، كان الاسم تنويهاً بالربيع الذي ترادفه بالروسية كلمة ڤيسنا، وهي تسمية تناسب تماماً الطبال النضير.

ـ إنه يتدفأ هناك، أمام النار. إيه! ڤيسينيا! ڤيسينيا! ڤيسيوني!

راحت الأصوات الضاحكة تصيح في الظلام. وقال فارس كان إلى جانب پيتيا:

ـ إنه شاطر، هذا الفتى! لقد أعطوه ما يأكله منذ حين. لا يمكن تصديق الجوع الذي كان به!

سمعت خطوات في الظل وراحت أقدام حافية تخوض في الطين ثم ظهر الطبّال الصغير أمام الباب. صاح پيتيا:

ـ آه! هذا أنت! هل تريد أن تأكل؟

وأضاف وهو يضع يداً ودية خجلى على ذراعه:

ـ لا تخف، لن نسيء إليك. ادخل، ادخل.

أجاب الطبال بصوت شديد التهدج، طفولي تقريباً:

ـ شكراً يا سيدي.

وراح يحك قدميه الموحلتين على عتبة الباب.

كان پيتيا يود لو يقول أشياء كثيرة لذلك الطفل لكنه لم يجرؤ. بقي واقفاً إلى جانبه عند المدخل متردداً. أخيراً، أخذ يده في الظلام وشدَّ عليها وقال ولكن في وشوشة حانية:

ـ ادخل، ادخل!

ردّد پبيتيا في سرّه وهو يفتح الباب ويدع الفتى يمر أمامه: «آه! كم أتوق إلى عمل أي شيء من أجله!».

وعندما دخل الطبال إلى الغرفة، ذهب پيتيا يجلس بعيداً متأثراً بفكرة جرح كرامته إذا اهتم كثيراً بشأنه بشكل واضح لكنه راح يتحسس في جيبه النقود التي كان يتساءل عم إذا لم يكن مخجلاً تقديمها إليه.

الفصل الثامن

لكي لا يُعرف الطبال الصغير بين الأسرى الآخرين ويبقى في كتيبته، أمر دينيسوف أن يُعطى خمراً وشريحة من لحم الخروف ومعطفاً روسياً. لكن اهتمام پيتيا لم يلبث أن تحول عن الفتى بوصول دولوخوف. لقد سمع پيتيا في الجيش كثيراً عن بسالة دولوخوف الخارقة وعن قسوته حيال الفرنسيين، لذلك ما إن دخل إلى الكوخ حتى انصبت نظراته عليه لا تفارقه. وكلما أمعن النظر إليه، ازداد رأسه انتصاباً وسعى أن يظهر أكثر بسالة حتى يكون جديراً بمثل هذه الرفقة.

ولقد أدهش دولوخوف پيتيا ببساطة ثيابه.

كان دينيسوف يرتدي التشكمين، معطف قصير يستعملونه في القوقاز، ويحتفظ بلحية كاملة ويضع على صدره صورة القديس نيكولا صانع المعجزات، يظهر من طريقة كلامه وفي كل حركاته طبيعية مركزه الخاصة. أما دولوخوف الذي كان من قبل في موسكو يلفت إليه الأنظار بزيه الفارسي، فكان الآن على العكس، يظهر في مظهر ضابط حرس شديد التأنق. كان حليق اللحية بعناية يرتدي بزة الحرس الموشاة وقد تدلى من عروته صليب سان جورج وعلى رأسه عمرة رتبته. خلع معطفه المبلل في أحد الأركان واقترب من دينيسوف دون أن يحيي أحداً ثم لم يلبث أن أخذ يتحدث عن العملية المزمع القيام بها. أبلغه دينيسوف النيات التي تضمرها الكتائب الكبرى نحو القافلة والعروض التي قدمت عن طريق پيتيا والأجوبة التي وجهها إلى الجنرالين. ثم أطلعه على ما كان يعرفه عن مركز القوات الفرنسية.

قال دولوخوف:

ـ حسناً جداً، لم يبق إلا معرفة نوع الفرق وعددها لذلك يجب الذهاب لرؤيتها إذ لا يمكن الاندفاع في مثل هذا العمل دون التزود بهذه التفصيلات الدقيقة. أودّ أن أقوم بعمل نظيف هيا، ألا يوجد بين هؤلاء السادة واحد يرغب في مرافقتي إلى معسكرهم؟ إنّ لدي بزة رسمية.

صاح پيتيا:

أنا، أنا... أنا سأذهب معك!

قال دينيسوف لدولوخوف:

ـ لست في حاجة إلى الذهاب إلى هناك. أما هو، فإنني لن أدعه يذهب لأي سبب في الوجود.

فاعترض پيتيا: ولماذا إذن! ولماذا يجب ألّا أذهب.

ـ لأن هذا عديم النفع.

ـ أرجو أن تتفضل بمعذرتي، لكنني... لكنني... سأذهب رغم ذلك هذا كل شيء.

ثم سأل دولوخوف: هل ترغب في اصطحابي؟

فأجاب هذا ساهماً وهو يمعن النظر في وجه الطبال الصغير: لم لا؟...

ثم سأل دينيسوف:

هل أسرت هذا الفتى منذ فترة طويلة؟

ـ منذ اليوم، لكنه لا يعرف شيئاً. إنني أحتفظ به إلى جانبي:

فسأل دولوخوف:

ـ آه! والآخرون، أين تضعهم؟

صاح دينيسوف فجأة وقد احمرَّ وجهه:

أين أضعهم؟ إنني أبعث بهم لقاء وصل بالاستلام. وأستطيع أن أقول

بجرأة إن وجداني غير مثقل بمقتل رجل واحد. أقول لك بصراحة إن من الأفضل إرسال ثلاثين رجلاً بل حتى ثلاثمائة تحت حراسة قوية إلى المدينة على تلويث الشرف العسكري.

أجاب دولوخوف بابتسامة جامدة:

ـ إنّ مثل هذه الأقوال اللطيفة جديرة بهذا الكونت الشاب ذي الستة عشر عاماً. أما أنت، فكان يجب أن تلقي بها جانباً منذ مدة طويلة.

فقال پيتيا في ذعر وخجل:

ـ كيف! إنني لم أقل شيئاً مطلقاً، أنا. أؤكد فقط أنني على استعداد لاتباعك.

واسترسل دولوخوف وكأنه يجد لذة في العودة إلى هذا الحديث الذي كان يغضب دينيسوف:

ـ أما نحن، كلانا أيها الأخ، فكفانا سخافات. هيا، لماذا احتفظت بهذا الفتى إلى جانبك؟، وأخذ يهز رأسه، ألأنه أثار شفقتك؟ على أية حال، إن قيمة إيصالات الاستلام معروفة. إنك ترسل ما يقرب من مائة، فيصل منهم قرابة ثلاثين. إنهم يموتون من الجوع ويقتلون في الطريق. ألا تصبح النتيجة واحدة إذا لم يؤسروا قط؟

أيد الرئيس القوقازي قوله بطرفة عينيه الصافيتين وبإيماءة من رأسه.

ـ هذا لا يعنيني إذا كانت النتيجة تصبح واحدة. إنني لا أريد تحميل ضميري هذا الوزر. تقول إنهم سيموتون رغم ذلك، لنفرض جدلاً صحة هذا القول، لكنه لن يكون موتاً بيدي.

انفجر دولوخوف ضاحكاً.

ـ هل تعتقد أنهم لم يصدروا إليهم الأوامر بإلقاء القبض عليّ عشرين مرة؟ إنهم إذا وُفِّقوا، فسيشنقونك مثلي إلى شجرة حور رغم عواطفك الفروسية. وسكت لحظة ثم استأنف:

ـ وبالانتظار، يجب أن نعمل. ليرسَل تابعي القوقازي لأخذ أمتعتي. لدي بزتان فرنسيتان.

وسأل پيتيا معقباً: إذن، اتفقنا، ستأتي معي؟

صاح پيتيا وقد احمرَّ وجهه حتى كادت الدموع تنهمر من عينيه:

ـ أنا؟ نعم، نعم، دون شك.

ومجدداً، شعر پيتيا بالانزعاج والاضطراب خلال المناقشة التي دارت بين دولوخوف ودينيسوف حول ما يجب صنعه بالأسرى. لكن المعنى الحقيقي لكلماتهم استغلق عليه من جديد. فكر: «إذا كان الرؤساء المشهورون يفكرون على هذا النحو فلا شك أن الأمر يجب أن يكون كذلك. المهم هو ألّا يتصور دينيسوف أنني سأطيعه وأنه يستطيع أن يصدر إليّ أمراً.. لقد قررت، سأذهب مع دولوخوف إلى المعسكر الفرنسي. إذا كان يستطيع القيام بذلك، فإنني كذلك مستطيعه!».

ولقد أجاب پيتيا عن كل ما قاله دينيسوف ليثنيه عن عزمه، بأنه هو الآن يفضل تنفيذ عمله بعناية ودقة لا أن يتركه للحظ، وأنه على أية حال لا يفكر من جانبه في الخطر مطلقاً.

ـ على أية حال، ادرس الأمر بنفسك، إذا كنا لا نعرف على الضبط عددهم هناك.. إن حياة المئات من رجالنا قد تكون متوقفة على ذلك، بينما نحن، لسنا أكثر من اثنين نعرض أنفسنا للخطر.

وأضاف:

ـ ثم إن بي رغبة جامحة في الذهاب إلى هناك، جامحة جداً، وأريد الذهاب مهما كلف الأمر، فلا تستوقفني أكثر مما فعلت لأنه لن ينجم عن ذلك إلا الأسوأ..

الفصل التاسع

اجتاز دولوخوف وپيتيا الأرض الخالية، بعد أن تدثرا بالمعاطف الفرنسية ووضعا العمرات على رأسيهما، تلك الأرض التي عاين منها دينيسوف معسكر الأعداء وخرجا من الغابة في الظلام الحالك ثم هبطا نحو الأعماق. ولما أوغلا في جوف الغور، أمر دولوخوف القوقازيين المرافقين أن ينتظروه في ذلك المكان ثم مضى خبباً على جواده على الطريق باتجاه الجسر وپيتيا يتقدم بمحاذاته تماماً وقلبه يتفطر من الانفعال.

همس پيتيا: إذا أُخذنا فلن ينالوني حياً، لدي مسدسي.

أجاب دولوخوف بشدة وبصوت خفيض:

ـ لا تتكلم بالروسية.

وفي الوقت نفسه، دوت في الظلام صرخة «من هناك؟» وخشخشة زناد.

اندفع الدم إلى وجه پيتيا الذي وضع يده على مسدسه.

أجاب دولوخوف دون أن يبطئ من جري جواده أو يضاعفه:

ـ رماحة الفرقة السادسة.

انتصب شبح حارس أدكن على الجسر: كلمة المرور؟

أوقف دولوخوف جواده وتقدم خطواً وسأل:

ـ قل لي، هل الزعيم جيرار هنا؟

كرر الحارس وهو يسد الطريق دون أن يجيب: كلمة السر؟

صاح دولوخوف وقد استبد به غضب مفاجئ جعله يدفع جواده على الحارس.

ـ عندما يقوم ضابط بجولته لا يسأله الحراس عن كلمة السر.. أسألك عم إذا كان الزعيم هنا؟

ودون أن ينتظر الجواب من الحارس الذي تنحى جانباً، استمر دولوخوف يرتقي التل في خطى عادية.

وفي العتمة، شاهد رجلاً يجتاز الطريق، فاستوقفه دولوخوف وسأله أين القائد والضباط. فاقترب الرجل الذي كان يحمل كيساً على كتفه، وكان جندياً بسيطاً، من جنود دولوخوف وربت عليه بيده وقال ببساطة ورد أن القائد والضباط في الأعلى، على التل، إلى اليمين، في فناء المزرعة (وهكذا كان يسمى منزل السيد).

وبعد أن سلك الطريق الذي تحفه من الجانبين نيران المعسكرت والذي تتصاعد على جانبيه أصوات الحديث بالفرنسية، انعطف دولوخوف إلى فناء منزل الإقطاعي. وعندما اجتاز العتبة، ترجل واقترب نحو نار مشبوبة جلس حولها عدد من الرجال كانوا يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع. وإلى جانب الموقد، ركع جندي على رأسه قلنسوة الشرطة، يرتدي معطفاً أزرق، تضيء النيران وجهه إضاءة قوية، يشوي شيئاً كان يحركه في قصعة مستعملاً قضيب البندقية.

كان أحد الضباط يقول من الجانب الآخر من النار وهو في الظل: أوه! إنه شديد القسوة.

فرد الآخر ضاحكاً: سيجعلهم طيعين، الأرانب.

وسكت كلاهما وأخذا ينظران إلى الظلمات حيث ارتفعت خطوات دولوخوف وبيتيا اللذين كانا يقتربان ممسكين بأعنة جواديهما.

قال دولوخوف بصوت قوي وهو يفصل مقاطع الكلام:

ـ مرحباً يا سادة!

اضطرب الضباط في الظلام ودار أحدهم، وهو فتى عملاق، ذو عنق طويل حول الموقد واقترب من دولوخوف وسأل:

ـ أهذا أنت، كليمان؟ من أي...

لكنه لم يكمل مظهراً بذلك احتقاره. حيا دولوخوف وهو مقطب حاجبيه تقطيبة خفيفة كما يحيي مجهولاً وسأله عم يستطيع أن يكون ذا نفع له فيه.

روى دولوخوف أنه وزميله في طريقهما للحاق بفرقتهما وسأل دائرياً ما إذا كان أحد يعرف أين أصبح الفوج السادس للرماحة. لم يظهر على أحد من الضباط أنه يعرف شيئاً عن مكان هذا الفوج ولكن، خيل إلى پيتيا، أن الضباط كانوا يتفحصونهما، هو ودولوخوف بحذر عدائي. ولقد سكت الضباط جميعاً طوال ثوان.

قال أحدهم من الجانب الآخر من النار في ضحكة مكتومة:

ـ إذا كنتما تعتمدان على طعام المساء فإنكما متأخران جداً.

أجاب دولوخوف بأنهما تناولا طعامهما وأنهما مضطران لمتابعة سيرهما الليلة بالذات.

سلم زمام جواده إلى الجندي الذي كان يحرك محتويات القصعة وجلس القرفصاء أمام النار بالقرب من الضابط ذي العنق الطويل فراح ذلك الضابط يحدق إلى پيتيا بعينين شاخصتين وسأله مرة أخرى عن الفرقة التي ينتمي إليها. لكن دولوخوف تظاهر بأنه لم يسمع السؤال بل سأل بدوره وهو يدخن غليوناً فرنسياً أخرجه من جيبه عن الحد الذي تخلو الطريق عنده من القوقازيين.

ـ إنّ المجرمين في كل مكان.

ـ فأكد دولوخوف أن القوقازيين لا يشكلون خطراً إلا على المتسكعين

مثله ومثل رفيقه لكنهم لا يجرؤون أبداً على مهاجمة فرقة كبيرة، فلم يجبه أحد.

كان پيتيا يفكر وهو واقف أمام النار يصغي إلى الحديث: «سوف يذهب الآن».

لكن دولوخوف استأنف أسئلته المتواصلة. سأل دون مواربة عن عدد الرجال في اللواء وعدد الألوية والأسرى وقال وهو يستعلم عن الأسرى الروس الذين كانوا في تلك الفرقة:

ـ يا لها من عملية قذرة أن يجر المرء وراءه تلك الجثث. من الأفضل قتل أولئك السفلة.

ثم انفجر ضاحكاً ضحكة غريبةً حتى أن پيتيا ظن أن الفرنسيين سيتنبهون فوراً إلى الخدعة، فخطا رغم أنفه خطوة إلى الوراء.

لم يرجع صدى لضحكة دولوخوف. لكن ضابطاً فرنسياً لم يكن في نطاق الرؤية، إذ كان متمدداً متدثراً بمعطفه، نهض وهمس شيئاً في أذن رفيقه. ونهض دولوخوف ونادى الجندي الذي يمسك بمقود الجوادين.

قال پيتيا في سرّه وهو يقترب من دولوخوف لا إرادياً: «هل سيعيدون الجوادين إلينا أم لا؟».

أعادوا الجوادين إليهما فقال دولوخوف:

ـ أسعدتم مساء يا سادة.

أراد پيتيا أن ينطق بمثل تلك الجملة لكن لسانه عجز عن ذلك.

أخذ الضباط يتحدثون فيما بينهم همساً. ولقد بقي دولوخوف فترة طويلة قبل أن يستطيع امتطاء صهوة الجواد لشدة ما كان جواده ينخف جفلاً ثم اجتاز البوابة بخطى وئيدة وتبعه پيتيا وهو لا يجرؤ على الالتفات رغم رغبته الملحة، ليرى ما إذا كان الفرنسيون سيتبعونهم أم لا.

ولما وصلا إلى الطريق سار دولوخوف بمحاذاة القرية بدلاً من أن يعود أدراجه عبر الحقول وفي موقف ما، توقف ليصيخ السمع، قال: «هل تسمع؟» وسمع پيتيا أصواتاً تتكلم الروسية وشاهد حول النيران أشباح الأسرى الدكناء. وبعد أن نزلا حتى بلغا الجسر، مر پيتيا ودولوخوف بالحارس الذي كان يذرع الجسر بخطى كئيبة دون أن ينطق بكلمة، ثم بلغا الغور حين كان القوقازيون ينتظرونهما.

قال دولوخوف لپيتيا وهو على وشك الابتعاد:

ـ والآن إلى اللقاء، قل لدينيسوف إننا سنبدأ عند الفجر، بعد أول طلقة مسدس.

لكن پيتيا استوقفه من ذراعه وصاح:

ـ كلا! إنك بطل لا مثيل لك! آه! كم هذا رائع! آخ كم هذا بديع! آه كم أحبك!

فقال دولوخوف: مفهوم، مفهوم.

لكن پيتيا لم يدعه ولقد رآه دولوخوف في العتمة ينحني عليه، كان يريد أن يقبله. قبّله دولوخوف وهو يضحك واستدار على جواده ثم اختفى في الظلام.

الفصل العاشر

لدى عودة پيتيا إلى مركز الحرس، التقى دينيسوف عند المدخل، وكان هذا الأخير قلقاً مضطرباً لأنه سمح له بالذهاب، ينتظره، ردَّد وهو يصغي إلى قصة پيتيا الحماسية:

ـ حمداً لله! آه! حمداً لله!.

واسترسل دينيسوف:

ولكن ليأخذك الشيطان! لم أستطع أن أنام بسببك! آه حمداً لله! والآن اذهب ونم، فلدينا الوقت للإغفاء قليلاً قبل أن ينبلج الصباح.

فأجاب پيتيا:

ـ نعم... كلا، لست نعساً بعد ثم إنني أعرف نفسي، إذا نمت، انتهى كل شيء على أي حال، ليس من عادتي أن أنام عشية معركة.

بقي پيتيا بعض الوقت جالساً في الكوخ الخشبي يتذكر بفرح كل تفاصيل مغامرته ويتصور كل ما سيقع صباح غد ثم لاحظ أن دينيسوف قد أغفى فنهض وخرج إلى الفناء.

كان الفناء غارقاً في ليل بهيم والمطر قد كف عن الهطل لكن الأشجار ظلّت تسقط القطرات عن أغصانها. وحول مركز الحرس كانت أكواخ القوقازيين وخيولهم المربوطة معاً ترى أشبه بكتل سوداء قاتمة. وإلى الوراء قريباً. كانت عربتا نقل تشكلان بقعة سوداء وقد انتصبت الجياد بقربها. وفي الوادي، استمرت بقايا النيران تحترق ملقية حولها إشعاعاً أحمر وكان الفرسان

كلهم نائمين. فمن هنا وهناك، بين أصوات قطرات المياه المتساقطة وحركة اجترار الجياد، كانت جلبة أصوات تتناهى إلى الآذان كالهمس.

سبر پيتيا عندما أصبح في العراء، الظلام بنظره ثم اتجه نحو العربتين. كان بعضهم يغط في النوم تحت العربات وحولها جياد مسرجة تأكل علفها. وعلى الرغم من الظلام، عرف پيتيا جواده الذي أطلق عليه اسم كاراباخ، وهو اسم جواد قوقازي، رغم أنه كان من النوع الروسي الصغير، واقترب منه.

قال له وهو يعانقه ويشم منخريه:

ـ حسناً يا كاراباخ، غداً سنقوم بعمل جيد كلانا معاً.

صاح قوقازي كان جالساً تحت إحدى العربتين.

ـ كلا ولكن يخيّل إليّ إنك ليخاتشيف؟ لقد وصلت تواً إذ كنا في زيارة الفرنسيين.

وقص پيتيا على القوقازي ليس تفصيل رحلته فحسب، بل كذلك السبب الذي ذهب من أجله ولماذا وجد أن تعريض حياته للخطر أفضل من تعريض الرجال كلهم.

قال القوقازي: والآن يجدر بك يا سيدي أن تنام قليلاً.

فأجاب پيتيا:

ـ كلا، وهذه عادتي. آه! هل حجارة مسدسك غير مهترئة؟ لقد جئت معي بعدد منها. ألست بحاجة إلى بعضها؟ خذ.

وقرب القوقازي رأسه من تحت العربة ليتسنى له رؤية أفضل. استأنف پيتيا، ذلك أن من عادتي أن أعد كل شيء أفضل إعداد. إن الكثيرين يتصرفون تصرفاً ارتجالياً ثم يعضون أصابعهم ندماً. أما أنا، فلا أحبّ ذلك.

قال القوقازي: إنك محق.

ـ هه، إليك رجاء آخر يا عزيزي، إشحذ حسامي أرجوك إنه كليل...

وتوقف پيتيا خوفاً من كذبته لأن حسامه لم يشحذ قط، هل تستطيع أداء هذه الخدمة لي؟.

ـ لم لا؟ يمكن صنع ذلك.

نهض ليخاتشيف وفتش بين قطع الحديد التي معه فلم يلبث پيتيا أن سمع صليل الحديد الحربي على حجر الشحذ فتسلّق العربة وجلس على حافتها بينما راح القوقازي يشحذ السيف في المكان الذي جلس فيه.

سأل پيتيا: قل لي، هل الرجال كلهم نيام؟.

ـ بعضهم نائم والبعض الآخر يقظان.

ـ والطفل ماذا فعلوا به؟.

ـ ڤيسيوني؟ إنه هناك نائم عند المدخل. لقد نام لشدة الخوف ولكن كان مسروراً!

بعد ذلك، بقي پيتيا فترة طويلة صامتاً يصغي إلى كل الأصوات. وتعالت خطوات في الظل ثم بدا شبح أسود.

سأل رجل وهو يقترب من العربة: ماذا تشحذ؟.

ـ إنني أرهف سيف السيد.

قال الرجل الذي ظنه پيتيا من الفرسان: عمل ممتاز. هل قربك هنا قدح ما؟.

ـ نعم، هناك، قرب العجلة.

أخذ الفارس القدح وقال وهو يتثاءب:

ـ أظن أن الفجر ليس ببعيد.

وابتعد.

كان على پيتيا أن يذكر أنه في الغابة بين رجال دينيسوف على مسافة فرسخ من الطريق وأنه جالس على عربة نقل سلبت من الفرنسيين كانت

الجياد مربوطة حولها، وأن القوقازي ليخاتشيف من تحته يشحذ سيفه وأن البقعة السوداء الكبيرة إلى اليمين هي مركز الحرس والحمراء في الأسفل هي النار الباهتة على وشك الخمود وأن الرجل الذي سأل عن القدح، فارس استبد به العطش. لكنه لم يعد يعرف ذلك أو يريد معرفته. وجد پيتيا نفسه في عالم مسحور لم يكن فيه شيء يشبه الحقيقة. فالبقعة السوداء الكبيرة يمكن أن تكون مركز الحرس لكنها كذلك يمكن أن تكون مغارة تقود المرء إلى أحشاء الأرض والبقعة الحمراء قد تكون أرضاً خالية، لكنها قد تكون كذلك عين وحش هائل. وقد يكون جالساً فوق عربة كما يمكن أن يكون في أعلى برج دوراي إذا سقط من أعلاه استمر يوماً كاملاً، بل شهراً كاملاً بل دهراً كاملاً قبل أن يصل إلى الأرض، ولعل القوقازي ليخاتشيف كان تحت العربة فحسب ولكن يمكن كذلك أن يكون تحتها الرجل الأكثر روعة وكمالاً وبسالة، أفضل رجل، ذلك الذي لا يعرفه أحد. ولعل الذي لا يعرفه أحد. ولعل الذي مر باحثاً عن الماء فارس حقيقي، ولكن لعل ذلك الفارس قد اختفى فعلاً ولم يكن موجوداً إلا في خياله.

لم يعد شيء مما كان پيتيا يراه الآن يدهشه. كان في عالم مسحور كل شيء فيه ممكن الوقوع.

أخذ يتأمل السماء فبدت له مسحورة كالأرض. كانت السماء تنجلي فوق ذرى الأشجار والغيوم تهرب وكأنها تريد أن تفضح النجوم. وكان كل شيء أحياناً يبدو منقشعاً لتظهر مكانه في ذلك الفراغ سماء سوداء نقية وأحياناً كان يمكن الظن بأن تلك البقع إن هي إلا غيوم. وأحياناً تبدو السماء شديدة الارتفاع فوق الرؤوس لتنخفض أحياناً حتى لتكاد اليد تلمسها.

بدأ پيتيا يغمض عينيه ويتأرجح.

كانت القطرات تسقط وأصوات وشوشة خفيفة تطرق الأسماع والجياد تصهل وتتدافع وبعضهم يغط في نومه.

«زيك.. زيك، زيك..» كذلك كان الفولاذ الذي يشحذ يصفر. وفجأة، خيل إلى پيتيا أنه يسمع فرقة موسيقية تعزف نشيداً جليلاً ذا طلاوة غير معروفة. كان پيتيا يحب الموسيقى مثل ناتاشا وأكثر من أخيه نيكولا. لكنه لم يدرسها قط أو يفكر فيها، لذلك فإن القطع التي صافحت عقله غريزياً بدت له جديدة بقدر ما كانت جذابة. وكانت أنغام الموسيقى تزداد وضوحاً، والتوزيع يزداد اتساعاً فينتقل من آلة إلى أخرى وكان يحدث مما يُدعى تسللاً، رغم أنه لم يكن لدى پيتيا أية فكرة عما يمكن أن يكون تسللاً في الموسيقى. وكل آلة موسيقية، تارة شبيهة بالكمان وأخرى بالطبل، رغم امتيازها الأكثر ندرة وصوتها الأكثر نقاء، كل آلة موسيقية كانت تعزف مقطوعتها الخاصة وقبل أن تنهيها، تختلط بأنغام آلة أخرى كانت تبدأ المقطوعة نفسها تقريباً، ثم آلة ثالثة فرابعة ثم تختلط الأنغام كلها في نغم واحد وتنفصل مجدداً لتندمج مرة أخرى في ترتيل كنسي جليل تارة، وتارة في غناء نصر على وضوح باهر.

قال پيتيا في سرّه وهو يكاد يفقد توازنه: «آه! لكأني أحلم. إن أذنيَّ ممتلئتان بالنغم ولعلها موسيقاي نفسها، هه، ها هي ذي من جديد. هيا، يا موسيقاي، وبنشاط».

أغمض عينيه. ومن كل صوب، وكأنها آتية من بعيد، بدأت الألحان ترتفع وتتحد وتتفرق ثم تندمج من جديد في النشيد نفسه، الرخيم المهيب وپيتيا يحدث نفسه: «آه! كم هذا بديع! على قدر ما أستطيع وبحسب ما أريد» ثم أخذ يحاول إدارة مجموعة ضخمة.

«هيا، بهدوء، بهدوء، پيانو الآن» فكانت الأنغام تطيعه: «والآن هيا، أقوى، أكثر نشاطاً، أيضاً، أيضاً، أكثر مرحاً!» ومن عمق مجهول أخذت الأنغام ترتفع

وتنتشر جليلة: «هيا، الأصوات الآن!» ومن بعيد تناهت بادئ الأمر أصوات رجال ثم أصوات نساء. وأخذت هذه الأصوات تدريجاً تأخذ سمة منتصرة. فشعر پيتيا بأنه مروع ومفتون معاً من جمالها الأخاذ.

ذاب الغناء في «مارش» ظفري، واستمرت تتساقط والسيف يستمر في لحنه «زيك، زيك، زيك» والجياد تتدافع وتضرب بحوافرها الأرض دون أن تعكر صفو المجموعة بل تنسجم معها.

لم يكن پيتيا يعرف كم من الوقت دام ذلك، فقد بقي اللحن وهو مدهوش آسف لأنه لا يستطيع مشاطرة أحد ذلك الطرب. وأيقظه صوت ليخاتشيف الودود.

ـ يا صاحب النبالة، لقد انتهى. سوف تستطيع الآن أن تشطر به فرنسياً شطرين.

وخرج پيتيا من ذهوله فصاح:

ـ ها هو ذا النهار، حقاً، لقد طلع الضوء!.

أصبحت الجياد التي بقيت حتى ذلك الحين غير واضحة للعين، ترى من الرأس حتى الذيل. وخلال الأغصان العارية، كان يرى ضوء مبلل. تمطَّى پيتيا وقفز من فوق العربة وأخذ من جيبه روبلاً من الفضة أعطاه لليخاتشيف وأمسك بسيفه فرسم به دائرة حوله ثم اختبر مضاءه وأعاده إلى غمده. وكان القوقازيون يفكون الجياد ويشدون محازمها من جديد.

قال ليخاتشيف: ها هو ذا القائد.

ولقد استدعى دينيسوف الذي خرج من حينه من مركز الحرس پيتيا وأمره أن يتخذ أهبته.

الفصل الحادي عشر

وقف دينيسوف أمام مركز الحرس يصدر تعليماته الأخيرة. فجهزوا الخيل بسرعة وسط العتمة المنتشرة وأحكموا محازمها مجدداً ثم أخذ كل فرد موقعه في الكوكبة. أخذ المشاة أمكنتهم في المقدمة فارتفعت ضجة حوالى مائة قدم تجوس خلال الوحول ولم تلبث أن اختفت بين الأشجار في ضباب الصباح. وعاد رئيس القوة زيين يكرر أمره في رجاله بينما أمسك پيتيا جواده من مقوده وراح ينتظر بصبر نافذ أمر اعتلاء صهوات الجياد. وكان وجهه الذي غمسه في الماء البارد، وخصوصاً عينيه، يتلظى بالحمى والقشعريرات تسري في ظهره وجسمه ينتفض برعشة سريعة منتظمة.

صاح دينيسوف:

ـ إذن. هل أنتم على استعداد، إلى السرج!.

قُدمت الجياد فغضب دينيسوف على قوقازي لأن محازم مطيته كانت رخوة ثم امتطى جواده بعد أن أطلق بضع شتائم. ووضع پيتيا رجله في الركاب فأراد جواده كعادته أن يعضه في ساقه، لكنه رفع نفسه كريشة واعتلى السرج في لمح البصر واقترب من دينيسوف ونظرته شاخصة إلى الفرسان الذين بدأوا يتماوجون وراءه في الظلام. قال:

ـ ڤاسيلي ڤيدروڤيتش، سوف تعهد إليَّ بمهمة ما، أليس كذلك؟.. أرجو

وبدا على دينيسوف أنه نسي وجود پيتيا فشمله بنظرة وقال له بصرامة:

ـ لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً: أن تصغي إليّ وأن لا تحشر أنفك حيث لا يعنيك.

راح دينيسوف يخيل بصمت خلال الرحلة كلها دون أن يوجه كلمة واحدة إلى پيتيا.. وعندما بلغوا تخوم الغابة، كان السهل قد أخذ من الضياء حاجته. همس دينيسوف بضع كلمات في أذن رئيس القوقازيين بصوت خفيض فلم يلبث هؤلاء أن عرضوا أمامه وأمام پيتيا. ولما مروا جميعاً أعاد دينيسوف جواده إلى الحركة فانحدر به على حافة الوادي فراحت الأفراس الأخرى تنزلق على آثاره حتى بلغوا عمق الغور. وكان پيتيا يخيل إلى جانب دينيسوف والرعشة التي تنفض جسمه آخذة في العنف والضياء يزداد انتشاراً فلم يعد الضباب يغطي غير الأشياء البعيدة. وعندما بلغوا الأسفل، أدار دينيسوف رأسه إلى القوقازي الآتي وراءه وقال:

ـ الإشارة!.

فرفع القوقازي يده ودوى طلق ناري. فلم يلبث جري الجياد أن ازداد وهي تنفد إلى الأمام وشقت الصيحات عنان السماء مختلطة بطلقات نارية.

في اللحظة التي ارتفع فيها جري أول جواد وعلت الصيحات الأولى، ساط پيتيا جواده وأرخى له العنان ثم اندفع إلى الأمام لا يصغي إلى دينيسوف الذي كان يصيح به شيئاً ما. خيل إليه أن نور النهار الغامر قد حل في اللحظة نفسها التي أعطيت الإشارة فجرى بحصانه مباشرة نحو الجسر. وأمامه، على طول الطريق ، كان القوقازيون يخيِّلون على الجياد. وعلى الجسر، قلب قوقازياً متخلفاً دون أن يخفف من جواده، وأمامه، كان بعض الرجال، فرنسيون، بدون شك، يركضون من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من الطريق، فسقط أحدهم في الوحل تحت قوائم حصان پيتيا.

كان عدد من القوقازيين مجتمعين أمام كوخ خشب منهمكين في عمل

ما. ومن مركز جماعتهم، دوت صرخة مروّعة. أسرع بيتيا إليهم فكان أول ما وقع نظره عليه وجه فرنسي منقلب الأسارير يرتجف فكه الأسفل، كان يمسك بخشبة رمح موجه إليه.

صرخ بيتيا: هورّا! أيها الفتيان.. إنهم رجالنا.

وأرخى لجواده العنان وقد أثاره العدو، فمضى كالسهم على طول الشارع أمامه.

وإلى الأمام أطلقت بعض الرصاصات وراح الفرسان والقوقازيون والأسرى في أسمالهم، يركضون من جانب الشارع إلى جانبه الآخر ويطلقون صيحات صاخبة. وأخذ فرنسي شاب عاري الرأس أحمر الوجه متقلصه، في معطف أزرق، يدافع عن نفسه بحربته ضد الفرسان، فلما وصل بيتيا إلى جانبه كان قد سقط أرضاً. حدث بيتيا نفسه في مثل لمح البرق: «تأخرت هذه المرة أيضاً» ثم اندفع نحو المكان الذي انطلقت منه لعلعة الرصاص. كان الرصاص يلعلع في فناء منزل الإقطاعي حيث كان العشية مع دولوخوف.

لقد تمركز الفرنسيون هناك وراء حاجز في البستان تغطيه أعشاب كثيفة وراحوا يطلقون النار على القوقازيين المتجمهرين أمام الباب الكبير. ولما اقترب من الباب، شاهد بيتيا خلال الدخان وجه دولوخوف شاحباً ضارباً إلى الزرقة يصرخ بكلام إلى رجاله. وفي اللحظة التي بلغ بيتيا مقربة منه سمعه يزمجر: «خذوهم من الخلف! انتظروا المشاة!».

صاح بيتيا الذي اندفع دون أن يتأخر ثانية أخرى نحو المكان الذي يلعلع منه الرصاص في غمار الدخان الكثيف:

ـ الانتظار؟... هورّا!.

وانطلقت مجموعة من الرصاص راحت التائهة منها تصفر وتفرقع.

واندفع القوقازيون ودولوخوف في إثر پيتيا خلال البوابة المفتوحة. وفي الدخان الكثيف المتحرك، راح بعض الفرنسيين يلقون أسلحتهم ويركضون خارجين من وراء الدغل للقاء القوقازيين بينما فرّ البعض الآخر نحو أسفل التل باتجاه المستنقع. استمر پيتيا يجري بجواده. في الفناء ولكن، بدلاً من أن يمسك بالأعنة، كان يلوِّح بذراعيه بشكل مضحك سريع ويزداد انحناء على سرج جواده. ولما وطئ جواده بقائمته جذوة نار كانت خابية غير مرئية في ضوء الصباح، رفس بخلفيتيه فانهار پيتيا بتثاقل على الأرض الندية. ورأى القوقازيون ذراعيه وساقيه تتحركان دون أن تشمل الحركة رأسه. لقد اخترقت رصاصة رأسه.

وبعد أن تفاوض دولوخوف مع قائد الكتيبة الذي خرج من المنزل وعلى ذؤابة سيفه منديل أبيض يعلن استسلام رجاله، ترجل عن جواده واقترب من پيتيا الذي كان مسجى على الأرض لا حراك به ممدد الذراعين.

قال وهو يقطب حاجبيه: لقد نال نصيبه.

ثم مضى إلى البوابة للقاء دينيسوف الذي كان قادماً.

صرخ دينيسوف الذي فهم من بعيد معنى الوضع الذي كان عليه پيتيا على الأرض: لقد قتل؟.

فردد دولوخوف وكأنه يجد متعة في استعمال هذه الكلمات:

ـ لقد نال نصيبه.

واندفع نحو الأسرى الذين أحاط بهم القوقازيون الهارعون في تلك الآونة وصاح يخاطب دينيسوف: لا أسرى!.

لم يجب دينيسوف. اقترب من پيتيا وترجل عن جواده وأدار نحوه وجهه الفتي بيدين مرتعشتين، ذلك الوجه المغطى بالدم والوحل الذي كان على وشك الامتقاع.

ودقَّت أذنيه عبارات پيتيا: «إنني معتاد الحلويات. زبيب ممتاز، خذوه كله!» وعادت إلى ذاكرته. وراح القوقازيون ينظرون وراءهم بدهشة وقد سمعوا ما يشبه العواء يطلقه دينيسوف الذي أخذ يبتعد مسرعاً ليقترب من الحاجز ويتشبث به.

كان في عداد الأسرى الروس المحررين من قبل دينيسوف ودولوخوف پيار وبيزخوف.

الفصل الثاني عشر

منذ ارتحالها عن موسكو لم تتخذ القيادة الفرنسية أيّ تدبير جديد يتعلق بقافلة الأسرى التي كان پيار في عدادها. ومنذ الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، لم ترجع هذه الكتيبة مع القطعات والقوافل التي كانت معها عندما غادرت موسكو. وقد نهبت نصف العربات التي كانت تتبعها محملة بالمؤن من قِبل القوقازيين خلال المرحلة الأولى من الطريق، أما النصف الآخر فقد أرسل إلى الطليعة. ولم يبق واحد من الفرسان الذين فقدوا جيادهم والذين كانوا يتقدَّمونهم. لقد اختفوا جميعاً والمدفعية التي كانت تشاهد طوال الأيام الأولى في المقدمة، استبدلت بالمتاع الكثير التابع للماريشال جونو[1] يواكبه الوستڤاليون. وفي أعقاب السجناء، سارت قافلة محملة بتجهيزات الفرسان.

وابتداء من ڤيازما، لم يعد الجيش الفرنسي الذي كان يسير على ثلاثة صفوف، إلا قطيعاً من السائمة. ولقد بلغت الفوضى التي سجلها پيار منذ المرحلة الأولى بعد موسكو، أقصى درجاتها.

تناثرت على الطريق التي يتبعونها جياد نافقة ورجال في أطمار، متخلفون تابعون لأسلحة مختلفة، يتبدلون في كل حين، فتارة ينضمون إلى الفرقة السائرة وطوراً يدعونها تتقدمهم.

(١) جنرال فرنسي، كان مساعداً عسكرياً لناپليون خلال حملة إيطاليا. ساهم في حملة مصر، واستولى على لشبونة. انتحر بسبب نوبة جنون عام ١٨١٣. (المترجم).

ولقد حدث عدة مرّات خلال الطريق أن قُرع بوق الخطر دون أن يكون له ما يبرره، فكان جنود الفرقة يسددون بنادقهم ويطلقون النار ويفرون بأقصى سرعة، يتدافعون ثم يلتئمون مجدداً ويتبادلون اللوم على ذعرهم القاتل العقيم. كانت هذه العوامل الثلاثة تسير معاً، مستودع تجهيزات الفرسان والأسرى ومتاع جونو، وتشكل معاً وحدة. فقد كانت هذه العوامل تذوب بسرعة متعادلة.

لم يبق من مستودع التجهيزات الذي كان يعد بادئ الأمر مائة وعشرين عربة أكثر من ستين عربة، أما القسم الآخر فقد نهب أو هجر. ولقد لاقت عربات كثيرة تابعة لجونو مثل هذا المصير ونهب متخلفون من جيش داڤو ثلاثاً معهم. ولقد عرف پيار من إصغائه إلى أحاديث الألمان أن هذه القافلة تلقت فرقة للحراسة أقوى من حراسة الأسرى وإن واحداً من مواطنيهم قد أعدم رمياً بالرصاص بأمر الماريشال نفسه لأنهم وجدوا معه ملعقة فضية تخصه.

لكن الجزء الذي كان أكثر ذوباناً من الآخرين هو جزء الأسرى. لم يبق من الثلاثمائة أسير الذين غادروا موسكو أكثر من مائة كانوا يضايقون المواكبين أكثر مما كان يضايقهم متاع جونو ومستودع التجهيزات. فالتجهيزات وملاعق جونو كانت قابلة للاستعمال والاستفادة منها عند الضرورة ولكن ما فائدة إرغام جنود يرتجفون برداً على حراسة روس يماثلونهم في الجوع والتأثر من البرد، وروس كانوا يتجمدون من البرد وكانت الأوامر تحتم عليهم إطلاق النار على من يبقى منهم في مكانه؟ لم يكن ذلك مستعصياً على الفهم فحسب بل كريهاً كذلك. وكأنهم كانوا يخشون أنفسهم في موقفهم الدقيق ذاك أن يأخذهم شعور بالشفقة على الأسرى فيزيدون بذلك مركزهم الحرج خطورة، لذلك كانوا يجرونهم بقسوة انعدمت فيها الرحمة.

وفي دوروجوبوجيه، بينما راح الجنود ينهبون مستودعاتهم نفسها، سجن الأسرى في اصطبل. فحفر بعضهم ثغرة تحت الجدار هربوا خلالها لكنهم أخذوا مجدداً وأعدموا.

وأغفل النظام الذي أقيم لدى الخروج من موسكو، والذي وجب على الضباط تبعاً له أن يسيروا منفردين عن الجنود، وأصبح كل من يستطيع التقدم يمشي مع السائرين. وبذلك لم يلبث پيار أن وجد نفسه إلى جانب كاراتاييڤ والكلب ذي القوائم الملتوية والشعر المائل إلى البنفسجي الذي اعتبر كاراتاييڤ سيداً له.

عادت الحمى إلى كاراتاييڤ، بعد يومين على مغادرة موسكو، وكانوا قد أودعوه المستشفى بسببها، وكلما ازداد ضعفه، ازداد ابتعاد پيار عنه. لم يعرف پيار السبب الذي بات يدفعه منذ أن بلغ سوء حالة كاراتاييڤ مداه، إلى بذل مجهود على نفسه للاقتراب منه. أصبح پيار الآن كلما سمع أنين كاراتاييڤ الخافت الذي اعتاده كلما استراحوا عقب مرحلة، وصافحت خياشيمه الرائحة شديدة النفاذ التي تفوح من جسمه، يبتعد عنه حتى كف عن التفكير فيه.

عرف پيار في مبنى السجن، عندما احتك مع الأسرى ليس بعقله بل بكل كيانه، أن الإنسان خلق للسعادة وأنه يحمل سعادته في نفسه، في إرضاء نزعاته الطبيعية وأن كل شقاء يصيبه، سببه نقص أو زيادة في ذلك الإرضاء. أما الآن بعد هذه الأسابيع الثلاثة من المسير، فقد حصل على حقيقة جديدة معزية. اكتشف أنه لا يوجد في العالم شيء مريح حقاً. واكتشف في الوقت نفسه أنه إذا لم يكن هناك موضع يكون فيه الإنسان سعيداً وحراً سعادة وحرية كاملتين فإنه كذلك لا يوجد مكان يكون فيه شقياً وأسيراً شقاء وعبودية كاملين. عرف أن هناك حداً للألم وحداً للحرية وأن هذه الحدود تتلاقى، وأن الرجل الذي يتألم وهو على سرير من الورد لأن إحدى البتلات قد انثنت تحته، يتألم مثلما يتألم هو الآن، وهو الذي ينام على الأرض الرطبة العارية، وجسده متجمد

من جانب ودافئ من الجانب الآخر، وإنه يتألم الآن لأنه دون حذاءيه ـ إذ استبعد حذاءاه من الاستعمال منذ أمد طويل ـ على قدمين حافيتين تغطيهما القروح بقدر ما كان يتألم من خفّيه الضيقين اللذين ينتعلهما عند ذهابه إلى الحفلات الراقصة. عرف أنه عندما تزوج بملء اختياره كما كان يعتقد، لم يكن أكثر حرية مما هو عليه الآن وهو الذي يحبسونه ليلاً في زريبة، وأنه كل ما بات فيما بعد يعتبره آلاماً، رغم أنه لم يشغل نفسه بها في حينه، فإن أسوأها مرده إلى قدميه الحافيتين اللتين تغطيهما الجروح والقروح. فلحم الحصان بات في نظره لذيذاً يفتح الشهية والخلفة التي يتركها ملح البارود المستخدم بدلاً من ملح الطعام في الفم، مقبولة طيبة. ولم يكن البرد قارساً. ففي النهار، أثناء السير، يبعث الدفء في الأوصال. وفي الليل، توقد النيران والقمل الذي ينهش الجلود يدفئها. فالشيء الأليم الوحيد الذي كان عسيراً عليه في البداية هو قدماه.

وفي المرحلة الثانية، بينما هو يتأمل قروحه على وميض النار، فكر پيار أنه لن يستطيع المسير. ولكن عندما بدأ الجميع السير، مشى دون ألم رغم أن جروحه باتت مساء أشد أذى وأبشع للنظر وحينئذٍ كف عن تأملها واجتهد في أن يكف عن التفكير فيها.

أدرك پيار في تلك الآونة، مدى الاحتمال البشري والقوة المخلصة التي تحول الانتباه وتعمل في خدمتنا عمل صمامات الأمان التي تطرح الفائض من البخار في المراجل كلما تخطى الضغط الحد الطبيعي.

لم يكن يرى أو يسمع إعدام الأسرى المتخلفين رغم أن أكثر من مائة منهم قضوا على هذا النحو. ولم يكن يفكر في كاراتاييف الذي كان ينهار يوماً أكثر من يوم والذي وجب أن ينتهي يوماً ما على ذلك النحو. بل إنه أصبح أقل تفكيراً في نفسه. وكلما ازدادت حاله سوءاً، ازداد انفصالاً عن كل من حوله ليجد أكثر عذوبة وعزاء في أفكاره وذكرياته وأحلامه.

الفصل الثالث عشر

كان پيار يصعد هضبة على طريق موحل وهو يتأمل قدميه، ووعورة الطريق، في الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر. ومن حين إلى آخر، كان يلقي نظرة حوله على جمهرة رفاقه ثم يحدق إلى قدميه مجدداً. لقد كان كل شيء مطابقاً لنفسه وأليفاً. وكان سييري، الكلب الصغير ذو الشعر البنفسجي، يجري على جانب الطريق ويرفع إحدى خلفيتيه أحياناً ليظهر براعته، ثم يقفز على الثلاث ثم على أربع ويهجم على الغربان نابحاً وهي على الجيف، لقد كان سييري أكثر مرحاً وأوفر صحة مما كان عليه في موسكو. فاللحم ملقى في كل مكان. جثث الرجال والجياد ـ متفاوتة التفسخ ومرور الجنود كان ينفر الذئاب لدرجة تجعل سييري قادراً على أن يتناول منها ما يشتهي.

كان المطر يهطل منذ الصباح، يخيل إلى الناظر في كل لحظة أنه على وشك التوقف. وأن السماء ستصفو، لكنه لا يلبث حتى ينهمر أقوى من ذي قبل بعد هدأة قصيرة. ولم يعد الطريق المشبع، يبتلع مياهاً جديدة، فكانت السواقي تسيل في آثار العجلات.

كان پيار يمشي وهو ينظر حوله، يحصي خطواته ثلاثاً فثلاثاً وهو يثني أصابعه بعد كل مرة ويقول في سرّه مخاطباً المطر: «هيا، هيا، أيضاً، أيضاً».

كان يعتقد أنه لا يفكر في شيء لكن روحه كانت غارقة بعيداً بتعمق في مكان ما من أفكاره الخطيرة. كان ذلك نتيجة فكرية لمحادثة دارت أمس بينه وبين كاراتاييف.

ذلك أن أمس مساء، عند نهاية المرحلة، بينما هو يرتجف بالقرب من نار على وشك الخمود، وقف پيار للاصطلاء قرب النار المجاورة الأكثر شبوباً. وكان پلاتون جالساً هناك متدثراً من رأسه إلى قدميه بمعطفه وكأنه في حلة القداس، يروي للجنود بصوته المريض الضعيف ولكن العذب، قصة معروفة من پيار وكان الوقت بعد منتصف الليل، وهي الساعة التي كان من عادة كاراتاييف أن يصاب خلالها بنوبة من الحمى فتنبعث الحيوية في أوصاله ويبلغ حالة خاصة من الانفعال. ولما سمع پيار صوت المسكين ورأى وجهه المثير للشفقة يضيئه اللهب بشدة، أحس بانقباض كريه في قلبه. خشي من شفقته وأراد أن يبتعد. ولكن لم يكن هناك غير هذه النار، فأقعى وهو يجتهد ألّاَ ينظر إلى پلاتون.

سأله: حسناً، كيف حال صحتك؟.

قال كاراتاييف الذي استأنف قصته فور الإجابة:

ـ الصحة؟ إن البكاء على المرض، يؤدي إلى منع الله من إرسال الموت. واسترسل وعلى وجهه الهزيل الشاحب ابتسامة وفي نظرته ومضة فرح خاصة: وها إنه يا عزيزي، ها إنه يا عزيزي..

كان پيار يعرف تلك الحكاية منذ زمن طويل إذ قصها عليه كاراتاييف خمس مرات أو أكثر بفرح دائم لم يتبدل. لكنه على الرغم من معرفته لها عن ظهر قلب، فقد شعر نحوها بجاذبية الأشياء الجديدة إذ انتقلت الحماسة التي بدت جلية على كاراتاييف إلى روحه. إنها حكاية بائع عجوز يعيش مع عائلته في النزاهة وخشية الله، مضى ذات يوم مع أحد رفاقه الأغنياء، وهو بائع مثله، إلى معرض كارييه، اسم معرض نيجني نوڤغورود الشعبي.

نزل البائعان في خان وناما. ولكن الغني وُجد في صباح اليوم التالي مقتولاً مسلوباً واكتشفت السكين الملوثة بالدم تحت وسادة البائع العجوز،

فحاكموه وساموه عذاب الضرب وانتزعوا أنفه كما يقتضيه النظام القائم حينذاك ـ حسب تعبير كاراتاييف وأرسلوه إلى سجن الأشغال الشاقة.

وها إنه يا عزيزي.. (ووصل پيار عند هذا الجزء من الحكاية) يقضي هناك أكثر من عشر سنوات والعجوز لا يزال في سجنه الأليم، يخضع كما يجب له أن يخضع دون أن يسيء إلى أحد. لكنه يطلب إلى الله فقط أن يدعه يموت. حسناً.. وذات ليلة، ها إن المحكومين يجتمعون، مثلنا هنا، ومعهم العجوز ويبدأ كل منهم برواية السبب الذي حكم عليه من أجله للآخرين ولماذا هو مذنب أمام الله. كان كل يروي قصته: فهذا قتل نفساً وذاك اثنين وثالث أشعل النار في مكان ورابع مملوك هارب حكم عليه دون ذنب. ثم سئل: «وأنت يا جدّي، لماذا أنت هنا؟» فقال: «آه! يا إخوتي الأعزاء، إنني أتألم لخطاياي ولخطايا الآخرين، لأنني لا أحمل وزر نفسي على ضميري ولم آخذ مال الغير بل إنني تقاسمت ما معي دائماً مع إخواني التعساء. إنني بائع يا إخواني الأعزاء ولقد كنت واسع الغنى». وإذا به يروي لهم القصة كلها. قصَّ لهم حكايته من طرف إلى طرفها الآخر وقال: «إنني لا أشكو من أجل نفسي.. إنني أنا الذي اختاره الله لأكفر عن خطايا الناس. لكن شيئاً واحداً يؤلمني، هو زوجتي العجوز وأولادي». وها هو ذا ينخرط في البكاء. وها إنه في عداد الجماعة، الرجل إياه الذي قتل البائع. سأل «جدّي، أين وقع الحادث؟ متى وفي أي شهر؟» سأل التفاصيل وآلمه قلبه. اقترب هكذا من العجوز وسقط على قدميه وقال: «بسببي أنا، أيها العجوز الطيب، تتألم أنت. أيها الرفاق، إنها الحقيقة الحقة، هذا الرجل يتألم دون سبب. إنني أنا مرتكب الحادث وأنا الذي وضعت تحت رأسه السكين الملوثة بالدماء. سامحني يا جدّي، سامحني محبة بالمسيح».

وسكت كاراتاييف وأخذ يرتب الحطب في النار وهو يحدق إلى اللهب وعلى وجهه ابتسامة مرحة.

تابع كاراتاييف الكلام وقد أشرق وجهه أكثر من ذي قبل بابتسامة ظافرة وكأن ما بقي عليه أن يرويه من القصة كان الجزء الأكثر أهمية وتعبيراً فيها:

قال العجوز: «هو الله الذي سيغفر لك. أما نحن جميعنا، فإننا خاطئون أمامه. وأنا، إنني أتألم من أجل خطاياي». وها هو ذا يبكي بدموع حارة. وماذا تظن يا صقري الصغير؟ ماذا تظن يا صقري الصغير؟ لقد ذهب القاتل يشي بنفسه إلى السلطان بنفسه. قال: «لقد قتلت ستة أشخاص، وكان قاتلاً كبيراً، لكن ما يدخل الأسف إلى قلبي أكثر من غيره، هو هذا العجوز المسكين. يجب ألّا يبكي بسببي». لقد وشى بنفسه إذن فكتبوا ورقة وأرسلوها كما يقتضي الحال وكان المكان بعيداً فاستغرقت وقتاً طويلاً قبل أن يلتئم شمل المحكمة وتصدر الحكم وتكتب الأوراق اللازمة من سلطات إلى سلطات. وبلغ الأمر أعتاب القصر، وأخيراً وصل أمر القيصر ليطلق سراح البائع العجوز وليصرف له التعويض حسب القرار. وأرسلت الورقة ففتشوا عن العجوز. «أين العجوز الذي حكم عليه ظلماً؟ إن ورقة القيصر هنا!» بحثوا عنه، وهنا ارتجفت ذقن كاراتاييف ـ لكن الله كان قد غفر له قبل ذلك إذ كان قد مات، وأعقب كاراتاييف مستنتجاً: وهذا يا صقري العزيز هو ختام القصة.

وراح يحدق طويلاً إلى الفضاء وعلى شفتيه ابتسامة صامتة.

ولم تكن القصة نفسها، بل معناها الخفي، التمجيد المشرق الذي ينير وجه كاراتاييف وهو يرويها، ذلك المعنى الخفي لتلك البهجة هو الذي كان الآن يملأ پيار ارتياحاً غامضاً.

الفصل الرابع عشر

«إلى أماكنكم!» صاح صوت جهوري فجأة. وعمّت بلبلة بين الأسرى وجنود الموكب وراحوا جميعاً ينتظرون شيئاً ما سعيداً. تناهت الأوامر من كل مكان، وإلى يسار الفصيلة، ظهر فرسان على جياد مطهمة مجهزة أفضل تجهيز تتَّجه نحو الأسرى. واتخذت الوجوه كلها ذلك التعبير الملزم الذي يفيض على وجوه الناس لدى اقتراب شخصيات رفيعة المقام. وجمع السجناء ودفعوا بعيداً عن الطريق واصطف الحرس المواكب:

ـ الأمبراطور! الأمبراطور! الماريشال! الدوق!

وما إن عرض الرجال الذين ينعمون بأفضل تغذية، والذين كانوا يشكلون الحاشية، حتى وصلوا عربة تجرها ستة جياد شهباء مثنى مثنى، محدثة قعقعة مرتفعة. ورأى پيار في طرفة عين وجهاً ضخماً شاحباً منتفخاً لرجل على رأسه قبعة ثلاثية الزوايا. كان واحداً من الماريشالات ولقد تركَّزت نظرة ذلك الرجل العظيم على هيكل پيار الضخم فخيل لهذا أنه رأى في طريقة تقطيبة حاجبيه وإشاحته برأسه عنه، تعبيراً عن الإشفاق عليه أراد إخفاءه.

وكان الجنرال الذي يقود القافلة، أحمر الوجه مذعور التقاطيع، يدفع جواده المهرول خبباً وراء العربة. واجتمع بعض الضباط واحتشد حولهم الجنود ووجوههم جميعاً تنطق بالقلق والتوتر.

سمع پيار:

ـ ماذا قال؟ ماذا قال؟

وعند مرور الماريشال، جمع الأسرى، فشاهد پيار كاراتاييڤ الذي لم يكن قد رآه بعد ذلك الصباح. كان كاراتاييڤ جالساً في معطفه القذر مستنداً إلى شجرة سندر ووجهه الذي بقي محتفظاً بتحنان العشية العذب، عندما كان يروي قصة آلام البائع البريء، يشع بالهدوء أكثر من ذي قبل.

كان كاراتاييڤ يتأمل پيار بعينيه المستديرتين المخضلتين بالدموع ويحاول بشكل ملموس أن يستقدمه إليه ليقول له شيئاً ما، لكن پيار كان شديد الخوف على نفسه لذلك تصرف وكأنه لم يرَ تلك النظرة وبادر إلى الابتعاد

وعندما تابع الأسرى المسير، ألقى پيار نظرة إلى الوراء. كان كاراتاييڤ جالساً حيث كان إلي جانب الطريق مستنداً إلى شجرة السندر نفسها وإلى جانبه فرنسيان يتحدثان وهما يشيران إليه فلم يستزد پيار من النظر وراح يصعد المرتفع وهو يعرج في مشيته.

وفي المؤخرة، في المكان الذي كان كاراتاييڤ جالساً فيه، دوى طلق ناري ولقد سمع پيار الانفجار بوضوح. لكنه تذكر في اللحظة نفسها أنه لم ينته بعد من حساب المراحل إلى سمولنسك، ذلك الحساب الذي بدأ به قبل مرور الموكب. فعاد إلى الإحصاء مجدداً. ومر جنديان فرنسيان من أمامه وهما يركضان وفي يد أحدهما بندقية لا يزال الدخان يتصاعد منها. كانا شاحبين كلاهما وفي قسمات وجهيهما، عندما ألقى أحدهما عليه نظرة مذعورة، وجد پيار لوناً مما شاهده على وجه الجندي الشاب عند إعدام مشعلي الحرائق. نظر پيار إلى ذلك الجندي فعرف فيه ذاك الذي أمس الأول، أحرق قميصه وهو يجففه أمام النار وتذكر أنه سخر منه.

وبقي كلب يزمجر في المكان الذي ظل فيه كاراتاييف.

ففكر پيار: «يا للغبي، لماذا يعوي هكذا؟».

أما الجنود والرفاق الذين كانوا يسيرون إلى جانبه، فلم يلتفتوا هم كذلك إلى المكان الذي دوّت فيه الطلقة النارية ثم ارتفع منه عواء الكلب. لكن الوجوه كلها اتسمت بميسم صارم.

الفصل الخامس عشر

اجتمع الأشخاص كلهم حول المعسكرات عندما توقفت قافلة التجهيزات والأسرى وأمتعة الماريشال في قرية شامشيڤو. اقترب پيار من إحدى النيران وأكل قطعة من لحم الحصان ثم نام وظهره إلى النار ولم يلبث أن غفا. لقد نام بمثل تلك السنة التي استولت عليه في موجاييسك، بعد بورودينو.

ومجدداً اختلطت الوقائع بحلمه ومن جديد، أخذ صوت، صوته أو صوت آخر، يشرح له الآراء، تلك الآراء نفسها التي راودته في موجاييسك.

ـ إنّ الحياة هي كل شيء، الحياة هي الله. كل شيء يتحرك ويتحول وهذه الحركة هي الله. وطالما بقيت الحياة، تبقى سعادة حمل الشعور بالله في أعماق النفس. وحب الحياة هو حب الله. والأكثر صعوبة، الأكثر جزاء وثواباً هو حب الحياة بآلامها، بألمها الظالم.

وتذكر پيار كاراتاييڤ.

وفجأة، وكأنه لا يزال على قيد الحياة، عاد يرى العجوز اللطيف الصغير لم يعد يفكر فيه منذ فترة طويلة، وقد كان يعلمه الجغرافيا في سويسرا. قال له العجوز الصغير: «انتظر، وأراه كرة أرضية. كانت تلك الكرة حية تتذبذب دون أن يكون لها محيط دقيق. لقد تشكلت مساحتها كلها من قطرات من الماء شديدة الالتصاق بعضها ببعض. وكانت هذه القطرات تتحرك وتبدل مكانها، فتارة يختلط عدد منها في قطرة واحدة، وطوراً كانت واحدة تنقسم إلى ملايين

أخرى. وكانت كل قطرة تحاول أن تنتشر وأن تشغل أكبر حيز ممكن لكن القطرات الأخرى كانت تعمل مثل ذلك فتضغطها تارة وتحذفها تارة أخرى وتمتزج معها.

قال المدرس العجوز: هذه هي الحياة.

فكر بيار: «كم هي بسيطة وواضحة. كيف لم أعرفها من قبل؟».

إنّ الله في الوسط، وكل قطرة تحاول أن تتمدد كي تعكسه على أوسع مدى ممكن. وهي تكبر وتنبسط ثم تنقبض وتختفي عن السطح وتنزل إلى الأعماق ثم تصعد من جديد. إنها مثل كاراتاييڤ. لقد انبسط ثم اختفى. هل فهمت يا ولدي؟ هكذا كان يقول المدرس العجوز.

وصاح صوت أيقظ بيار: هل فهمت يا...!

وقف وجلس أمام النار، كان جندي فرنسي مشمراً عن أكمامه قد أزاح من فوره جندياً روسياً وجلس القرفصاء ليشوي قطعة من اللحم على طرف قضيب بندقية وكانت يداه الحمراوان الشعرانيتان، بعروقهما المنتفخة وأصابعهما القصيرة المتينة تديران القضيب وتبرمانه بمهارة على النار ووجهه البرونزي الأدكن ذو الحاجبين المزويين كان مضاء بشدة أمام الجمر المحترق.

غمغم وهو يخاطب بحماسة جندياً واقفاً وراءه: ذانك سيان عنده، يا للص! هه!

وراح الجندي الذي يدير القضيب على النار يلقي على بيار نظرة قائمة، فأشاح بيار وحدّق إلى الظلام. وكان أحد الأسرى، ذلك الذي دفعه الجندي الفرنسي ليجلس مكانه، جالساً أمام النار يربت شيئاً بيده فلما أمعن بيار النظر، رأى الكلب ذا الشعر البنفسجي يبصبص بذنبه وهو جالس قرب الجندي.

قال بيار: آه! هل عاد؟

وشرع يقول: وبلا.... لكنه لم يعقب.

وفجأة تمثل في خياله النظرة التي ألقاها پلاتون عليه وهو جالس تحت شجرته والطلقة النارية التي سمعها تنبعث في ذلك المكان وعواء الكلب ووجهي الفرنسيين المجرمين اللذين تجاوزانه راكضين، والبندقية ذات الدخان، وغياب كارتاييف خلال تلك المرحلة، فاستعد لاستيعاب الحقيقة، حقيقة أن التعس قد قتل. ولكن في الوقت نفسه، ومن مكان لا يعرفه إلا الله، انبعثت في نفسه ذكرى السهرة التي قضاها مع بولونية حسناء، ذات صيف، في شرفة داره في كييف. مع ذلك، فقد أغمض پيار عينيه دون أن يربط بين هذه الذكرى وذكريات ذلك النهار ودون أن يستخلص منها شيئاً، ولم تلبث لوحة من الطبيعة الهادئة أن استلهمت في ذهنه متعة الاستحمام والمحيط السائل الرجراج، وعندئذٍ انزلق في مكان ما من الماء وانغمر فيه لدرجة أن الماء غمره وأطبق على رأسه.

أوقظ قبل انبلاج الفجر بلعلعة الرصاص والأصوات الصاخبة. وكان الفرنسيون يركضون أمام پيار.

صاح أحدهم: القوقازيون!

ولم يلبث پيار أن أحيط بعدد من الوجوه الروسية.

ولقد بقي طويلاً قبل أن يدرك ما وقع. كان رفاقه من كل صوب يطلقون صرخات الفرح.

كان جنود مسنون يصيحون وهم يبكون ويعانقون بين أذرعهم الفرسان والقوقازيين: إخواني! أصدقائي الأعزاء!

أحاط الفرسان والقوقازيون بالأسرى وراحوا يمنحونهم الثياب والأحذية والخبز. وكان پيار الجالس بينهم، يبكي عاجزاً عن النطق بكلمة. ضم إليه أول جندي قابله وقبله وهو يبكي.

جعل دولوخوف الواقف قرب بوابة الدار المتهدمة يسيِّر أمامه جماعة

الفرنسيين الذين انتزعت أسلحتهم. وكان هؤلاء، وقد اضطربوا لما حدث لهم فجأة، يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع. لكنهم إذا ما بلغوا مكان دولوخوف الذي كان يسوط ساق حذائه بضربات خفيفة من سوطه ويتأملهم بنظرة زجاجيةِ باردة لا تمني بشيء طيب، كانت أصواتهم تخبو. وكان قوقازي دولوخوف واقفاً إلى الجانب الآخر من البوابة يحصي الأسرى ويشير إلى المئات بخط يرسمه على الباب. سأله دولوخوف:

ـ كم؟

أجاب القوقازي:

ـ إننا في المائة الثانية.

ردد دولوخوف وقد تعلم هذه العبارة من الفرنسيين: سيروا، سيروا!

وكانت نظرته إذا ما صافحت الأسرى المارين أمامه، تلتمع بوميض وحشي.

أما دينيسوف، فكان يمشي حاسر الرأس وراء القوقازيين الذين يحملون جثمان پيتيا روستوف ليواروه في حفرة نبشوها في حديقة المنزل، ووجهه كئيب.

الفصل السادس عشر

اتخذ تقهقر الفرنسيين في فصل الرياح والطقس البارد طابعاً مأسوياً اعتباراً من الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر. فبعضهم أخذ يتجمد أو يصطلي بالنار حتى يموت حول النيران والبعض الآخر يتابع الطريق في معاطف الفراء وفي العربات الخفيفة حاملاً أسلاب الأمبراطور والملوك والدوقات. لكن انحلال الجيش الفرنسي وانهزامه استمرا يتبعان سيرهما الطبيعي دون أن يتغير طابعهما.

بين موسكو ـ ڤيازما، لم يبق من هذه الألوف الثلاثة والسبعين من رجال الجيش باستثناء رجال فرق الحرس، وهؤلاء لم يفعلوا شيئاً طوال الحرب غير النهب، لم يبق من هذه الألوف، من الجنود أكثر من ستة وثلاثين ألفاً ومن هؤلاء المفقودين، لم يزد عدد الذين سقطوا في المعارك على الخمسة آلاف رجل. هذه هي المعادلة الأولى من المسألة الطردية، ولقد حدد حسابياً المعادلات التالية. لقد ذاب الجيش الفرنسي وباد بمثل تلك النسبة من موسكو إلى ڤيازما ومن ڤيازما إلى سمولنسك ومن سمولنسك إلى پيريزينا إلى ڤيلنا، كل ذلك دون أن يكون للبرد الشديد القارس أو الخفيف أو لمطاردة الروس أو للعقبات في الطريق وكل الظروف الطارئة الخاصة أي دخل في الأمر. لم يعد الجيش الفرنسي بعد ڤيازما والصفوف الثلاثة المنظمة، يشكل غير قطيع ولقد بقي كذلك حتى النهاية. ولقد كتب برتييه إلى سيّده ما يأتي (وإننا نعرف

مبلغ ما يسمح به لأنفسهم الرؤساء الذين يكتبون عن حالة جيش من تحوير للحقائق):

«أظن أن من واجبي إطلاع جلالتكم على حالة قطعاتكم في مختلف وحدات الجيش، تلك الحالة التي اطلعت عليها بنفسي منذ يومين أو ثلاثة أيام في مختلف المرحل. إنها تكاد تكون مبعثرة. وعدد الجنود الذين يتبعون العلم في القطعات لا يكاد يبلغ ربع مرتبات القطعة. أما الباقون، فيسيرون منفصلين في وجهات مختلفة وبحسب رأيهم آملين العثور على أرزاق ساعين إلى التخلص من الطاعة للنظام. إنهم على العموم يجدون أن سمولنسك هي النقطة التي يجب أن يعيدوا تنظيمهم فيها.

ولقد لوحظ خلال الأيام الأخيرة هذه أن كثيراً من الجنود يلقون بأسلحتهم وذخيرتهم. وفي مثل هذه الحال، تتطلب مصلحة خدمة جلالتكم مهما كانت وجهات نظركم الأخرى، أن يعاد تنظيم الجيش في سمولنسك باستبعاد غير المقاتلين من الرجال بادئ الأمر، أمثال الذين فقدوا جيادهم وتجهيزاتهم، والاستغناء عن الأمتعة غير الضرورية وأعتدة المدفعية التي لم تعد متناسبة مع القوى الحالية، أضف إلى ذلك أن من الضرورة توفير الأرزاق أيام الاستراحة للجنود الذين أنهكهم الجوع والتعب، إذ إن كثيراً منهم ماتوا خلال الأيام الأخيرة في الطريق أو في المعسكرات. إن حالة الأمور هذه آخذة بالازدياد وتجعلنا نخشى، في حالة عدم إيجاد دواء سريع حاسم، ألّا نسيطر على القطعات بعد الآن في القتال. في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، على بعد ثلاثين ميلاً من سمولنسك».

وبينما الفرنسيون يندفعون في سمولنسك التي كانت بالنسبة إليهم الأرض الموعودة، أخذوا يتذابحون للحصول على الأرزاق وراحوا ينهبون

مستودعاتهم الشخصية. ولما أتلفوا ونهبوا كل شيء، انطلقوا فارين إلى أبعد منها.

كانوا جميعهم يسيرون دون أن يعرفوا لماذا وإلى أين يذهبون. ونابليون نفسه، بكل عبقريته، لم يكن يعرف ذلك أفضل منهم طالما أنه لم يكن يتلقى الأوامر من أحد. مع ذلك، فهو مع المحيطين به، استمروا في إصدار التعليمات والرسائل والتقارير والأوامر اليومية، ويعامل بعضهم بعضاً بقولهم: «سيدي، ابن عمي، الأمير ديكموهل، «ملك نابولي»»... لكن التعليمات والتقارير لم يكن لها من وجود إلا على الورق، فلم يكن أحد يفكر في تنفيذها لأنها كانت غير قابلة للتنفيذ. وعلى الرغم من الألقاب الضخمة التي كانوا يتبادلونها: عظمتكم، سموكم، أخي، كانوا كلّهم يشعرون بأنهم صعاليك يستحقون الشفقة وأنهم كثيراً ما أساؤوا وأنهم سيجبرون على تقديم حساب عما فعلوا. وبذلك، فما من أحد منهم، رغم تظاهره بالاهتمام بشؤون الجيش كان يهتم بغير نفسه وبالوسائل الممكنة لإنقاذ جلده بأسرع ما يمكن.

الفصل السابع عشر

خلال التراجع عن موسكو حتى النييمن كانت تحركات القطعات الروسية والفرنسيين شبيهة بلعبة «الغمَّيضة» عندما يكون لاعبان معصوبي العيون فيحرك أحدهما من حين إلى آخر، جرسه لينبه الذي يريد أن يمسك به. ففي بادئ الأمر يخطر اللاعب الذي يجب أن يُمسك به خصمه دون وجل. لكنه عندما يشعر بأنه أصبح في مركز حرج، يحاول جاهداً ألّا يثير أية ضجة كي يتمكن من الإفلات، وهو غالباً في هذه الحالة، يندفع مباشرة بين ذراعي العدو وفي ظنه أنه يتحاشاه.

ففي البداية، كانت جيوش ناپليون لا تزال تعلن وجودها، وكانوا حينذاك في مرحلة التقهقر الأولى على طريق كالوغا، ولكن، فيما بعد، عندما بلغت الجيوش طريق سمولنسك، راحت تسرع منهزمة وهي تمسك بيدها مطرقة الجرس كي لا يدق وتمضي غالباً إلى الاصطدام بالروس وهي تعتقد أنها أفلتت منهم.

وكانت سرعة تقهقر الفرنسيين ومطاردة الروس تنهك الجياد لدرجة أن الوسيلة الرئيسة للاستعلام تقريباً عن وضعية العدو، دوريات الفرسان الاستكشافية، لم يعد لها وجود. على أية حال، كانت المعلومات، أياً كانت لا تصل في حينها، بسبب التغيّرات الكثيرة السريعة في مواقع الجيشين. فإذا علم مثلاً في اليوم الثاني من الشهر أن جيش العدو كان في اليوم الأول منه في مكان كذا، فإن ذلك الجيش في اليوم الثالث من الشهر، في حين يمكن

عرفاً القيام بنشاط ما، يكون قد أصبح على مسافة مرحلتين وفي موضع آخر مختلف تماماً.

كان جيش يجري وآخر يتبعه. وابتداء من سمولنسك، كان الفرنسيون قادرين على الاختيار بين طرق عديدة. وكان يُظن أنهم بعد أن مكثوا في تلك المدينة أربعة أيام، يعرفون مكان العدو، فيعدون خطة لمصلحتهم ويبدأون حملة جديدة. ولكن، بعد هذه الأيام الأربعة من التوقف، عاد قطيعهم إلى الفرار، ليس إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولكن دون أي خطة للتحركات، عبر الطريق الذي شقوه من قبل، طريق كراسنوييه وأورشا القديم وهو أسوأ كل الطرق.

ولما كانوا يتوقعون أن يكون العدو وراءهم وليس أمامهم، فإن الفرنسيين كانوا يهربون مسرعين تاركين بين مختلف وحدات جيشهم مسافات تقطع في أربع وعشرين ساعة مشي. وعلى رأسهم جميعاً، كان الأمبراطور يفر ثم الملوك ثم الدوقات. ولما كان الجيش الروسي يعتقد أن ناپليون سيتجه يميناً ليجتاز الدنيبر، وهو التصرف المعقول الوحيد، فقد اتجه نحو ذلك الاتجاه وبلغ طريق كراسنوييه الكبير.

وهناك كما في لعبة «الغمّيضة» جاء الفرنسيون فاصطدموا بطلائعنا. ولما كشفوا العدو بغتة، تجزأ الفرنسيون وتوقفوا ثم فروا وقد استبد بهم ذعر قاتل، تاركين وراءهم الجيش الذي يتبعهم. وخلال ثلاثة أيام، استمرت قطعات الجيش الفرنسي تمر بين وحدات الجيش الروسي كما يمر محكوم بالجلد بين صفوف الجلادين: مرت أولاً مجموعة نائب الملك ثم مجموعة داڤو فمجموعة «ني» وكانت جميعها تهجر إحداها الأخرى تاركة وراءها المدفعية والأمتعة الثقيلة ونصف رجالها، وتحاول في فرارها ليلاً أن تتجنب الروس بإجراء أنصاف دوائر إلى اليمين.

ولقد كان «ني» آخر السائرين (لأنه، على الرغم من ذلك الموقف الميؤوس منه، أو لعله بسببه، أراد الفرنسيون أن يعاقبوا تلك الأرض التي كانت سبب كل ذلك الألم، فجاء «ني» ينسف جدران سمولنسك التي لم تكن تعيق أحداً). وإذن، كان «ني» آخر السائرين بجمهرته التي يبلغ عدد رجالها عشرة آلاف مقاتل ولقد لحق بناپليون في أورشا وليس معه أكثر من ألف رجل، بعد أن شتَّت قطعاته ومدافعه في مسير ليلي عبر الغابات ليجتاز الدنييبر سراً.

ومن أورشـا، استمروا يفرون باتجاه ڤيلنا، وهم يلعبون أبداً لعبة «الغمّيضة» مع الجيش الذي كان يطاردهم. ومجدداً، عاد التشوش في پيريزينا. لقد غرق منهم كثيرون واستسلم كثيرون، ثم استأنف الذين استطاعوا اجتياز النهر عدوهم إلى الأمام. ولقد ارتدى رئيسهم الكبير فراءه واستقل الزحافة ثم مضى بأقصى سرعة تاركاً رفاقه. ولقد فر من استطاع الفرار، أما الباقون، فقد استسلموا أو ماتوا.

الفصل الثامن عشر

أثناء هذا الفرار السريع من جانب الفرنسيين المستعدين للبدء بكل شيء قمين بضياعهم، وفي الوقت الذي لم تكن أي حركة من حركات هذا الحشد بدءاً من طريق كالوغا وحتى فرار رئيسه، تدل على بادرة من بوادر التعقل، كان يعتقد أنه من المستحيل على المؤرخين الذين يعزون حركة الجماعة إلى مشيئة شخص واحد، أقله في هذه الحقبة من الحملة، أن يقيموا الدليل على نظريتهم في مثل هذا الانحدار. ولكن أبداً. لقد كتبت جبال من الكتب عن هذه الحملة وفي كل منها، يصرون على التدابير التي اتخذها ناپليون وعلى عمق خططه و«المناورات» التي كانت تسير حركات قطعاته واستعدادات ماريشالاته العباقرة وتدابيرهم.

ابتداء من مالوايار وسلاڤيتز، تقهقر ناپليون، حيث كان يستطيع بلوغ أراض غنية بالأرزاق الوافرة، سالكاً ذلك الطريق الآخر الموازي للذي كان يسهل عليه سلوكه، والذي طارده كوتوزوف فيما بعد فيه، ذلك التقهقر العقيم على طول طريق مخرب وإقليم منهوب، يفسَّر بسعة علم مختلفة عميقة. وباسم المعرفة العميقة المماثلة في العمق أيضاً، يصفون لنا تقهقره من سمولنسك إلى أورشا.. وبعد ذلك، يصفون لنا كذلك بطولة ناپليون في كراسنوييه حيث، كما يزعمون، كما هو على أهبة خوض المعركة، يروح ويجيء وفي يده عصاه من خشب السندر ويقول: كفاني ما كنت أمبراطوراً، لقد أزف الوقت لأعمل

جنرالاً: الأمر الذي لم يمنعه، بعد ذلك بقليل، من الفرار تاركاً حطام جيشه المبعثر الذي ظل في المؤخرة لرحمة المصير.

وهم يصفون لنا كذلك بسالة الماريشالات، وبصورة خاصة بسالة الماريشال «ني»، وهي البسالة التي تقوم على أساس القيام بحركة دائرية واسعة خلال الليل في الغابة لاجتياز الدنيبر والفرار نحو أورشا دون أعلامه، دون مدفعيته، خاسراً تسعة أعشار جنوده.

حتى فرار الأمبراطور العظيم النهائي، تاركاً جيشه الباسل، صُور لنا من قبل المؤرخين بأنه بادرة من بوادر العظمة والعبقرية. حتى تلك البادرة، ذلك الفرار الذي يسمى في كل اللغات البشرية منتهى النذالة، هذه البادرة التي نعلم الصغار أن يخجلوا منها، تجد في لغة المؤرخين ما يبررها.

وعندما يستحيل عليهم أن يزيدوا في مد خيط مناقشاتهم المرن، عندما يكون الفعل شديد المناقضة لما تعتبره البشرية جيداً بل عادلاً، يجنح المؤرخون إلى تعبير العظمة الذي ينقذ كل شيء. والعظمة تبدو في نظرهم نافية لإمكانية قياس الخير والشر. والشر لا وجود له بالنسبة إلى من هو عظيم. ولا يمكن إطلاقاً لأية بشاعة ما أن تعزى كجرم إلى ذلك الذي يكون عظيماً.

ويكرر المؤرخون «هذا عظيم!» ومنذ ذلك الحين، بدلاً من الخير والشر يقوم ما هو عظيم وما هو غير عظيم. فما هو عظيم، جيد، وما هو غير عظيم سيئ. وأن يكون عظيماً في نظرهم، هو ما هو خاص بأولئك الأشخاص الاستثنائيين الذين يسمونهم أبطالاً. ونابليون المتدثر بفرائه الدافئ، يعود إلى منزله تاركاً لمصيرهم المحتوم، ليس رفاقه في السلاح فحسب، بل، حسب اعترافه نفسه، أشخاصاً قادهم هو إلى هناك، وهو يشعر أن هذا عظيم وضميره بالتالي مطمئن.

كان يقول: «ليس بين الإعجاز (وكان يرى في نفسه شيئاً من الإعجاز)

ومحط السخرية إلا خطوة واحدة». فردد العالم خلال خمسين عاماً: «إعجاز عظيم! ناپليون العظيم! ليس بين الإعجاز ومحط السخرية إلا خطوة واحدة».

ولم يخطر على بال أحد أن وضع العظمة خارج قواعد الخير والشر إنما هو اعتراف بصغارها الذي لا يقدر، بعدمها ليس إلا.

بالنسبة إلينا، نحن الذين تلقينا عن المسيح مقياس الخير والشر، لا يوجد مقياس غيره لهما. ليس هناك عظمة حيث لا وجود للبساطة والخير والعدالة.

الفصل التاسع عشر

لم يشعر أي روسي بالحزن المصحوب بالغضب والخزي، وقد قرأ وصف الحقبة الأخيرة من حملة عام ١٨١٢ . من الذي لم يطرح هذه الأسئلة: كيف لم يطبقوا على هؤلاء الفرنسيين كلهم ولم يبيدوهم، وثلاثة جيوش تفوقهم بالعدد تفوقاً كبيراً كانت تحيط بهم؟ كيف، والفرنسيون المشتتون الجائعون النافقون من البرد، كانوا يستسلمون كتلاً، وهدف الروس، كما يروي لنا التاريخ، كان يقوم على إيقافهم وعزلهم وأسرهم جميعاً؟

كيف جرى وخاض الجيش الروسي عندما كان أقل عدداً من الجيش الفرنسي، معركة بورودينو، في حين أن هذا الجيش بالذات، عندما أصبح يطوق الفرنسيين من ثلاث جهات سعياً وراء قصد واحد، لم يبلغ هذا القصد؟ هل يعقل أن يكون الفرنسيون حينذاك على تفوق هائل حتى أنهم بعد أن طوقناهم بقوات ساحقة لم نستطع القضاء عليهم؟ كيف أمكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث؟

التاريخ، أو أقله ما يطلقون عليه هذا الاسم، يجيب عن هذه الأسئلة قائلاً إن ذلك حدث لأن كوتوزوف وتورماسوف وتشيتشاغوف وهذا أو ذاك لم يعلموا هذه أو تلك من «المناورات».

ولكن لماذا لم يجروا هذه «المناورات»؟ لماذا لم يحاكموهم ويحكموا عليهم إذا كانوا مذنبين لعدم بلوغهم الهدف المنشود؟ وإذا تقبلنا أن هذا «الإخفاق» من جانب الروس معزو إلى كوتوزوف وتشيتشاغوف إلخ...،

فإننا مع ذلك لا نعرف إذا لم يؤسر الجيش الفرنسي كله بماريشالاته وملوكه وأمبراطوره في كراسنوييه وبيريزينا، والجيش الروسي كان هناك على ما نعرفه من تفوق ساحق في كلتا الحالتين، مادام ذاك كان هو الهدف المنشود.

إن تفسير هذه الواقعة الغريبة، كما يقدمه المؤرخون العسكريون الروس هو أن كوتوزوف كان يعارض في الهجوم. لكن هذا التفسير لا تقوم له قائمة ما دمنا أننا نعرف أن إرادة كوتوزوف لم تستطع منع الجيش من الهجوم في ڤيازما وتاروتينو.

فلماذا إذن، هُزم ذلك الجيش الروسي الذي ربح معركة بورودينو رغم قواته الضئيلة على أعداء في أوج قوتهم، هزم في كراسنوييه وپيريزينا رغم تفوقه العددي الساحق، أمام قطيع من الفرنسيين المشردين المشتتين؟

إذا كانت غاية الروس قطع خط التقهقر على الفرنسيين وأسر ناپليون وماريشالاته، يجب أن نتقبل إذن أن هذا الهدف لم يبق ممتنعاً عن المنال فحسب بل إن المجهودات التي بذلت في كل مرة لبلوغه تحطمت على أكثر ما يدعو إلى الخجل من الصور، وحينئذٍ يجب القول إن الحقبة الأخيرة من الحملة كانت بالنسبة إلى الفرنسيين سلسلة انتصارات، ويكون المؤرخون الروس والحالة هذه مخطئين تماماً إذا اعتبروها نصراً لنا.

إن الكُتّاب العسكريين الروس، في النواحي التي يتقيدون فيها بالمنطق يصلون رغماً عنهم إلى هذه النتيجة. فهم رغم كل ما يغدقونه من الإطراء الشاعري على بسالة الروس وتفانيهم، إلخ..، لا يمكن إلا أن يعترفوا بأن تقهقر الفرنسيين اعتباراً من موسكو ليس إلا سلسلة من الانتصارات لناپليون ومن الهزائم لكوتوزوف.

لكننا إذا وضعنا الكرامة القومية جانباً، نشعر بتناقض رغم ذلك في هذه النتيجة، مادامت هذه السلسلة من الانتصارات بالنسبة إلى الفرنسيين

أوصلتهم إلى فناء كامل وأن سلسلة هزائم الروس قادتهم على العكس إلى سحق أعدائهم وإنقاذ وطنهم.

ومبعث هذا التناقض ناشئ عن أن المؤرخين الذين يحللون الأحداث في مراسلة الأباطرة والجنرالات وفي العلاقات والتقارير والخطط، يفرضون هدفاً كاذباً لم يكن قط موجوداً في الحقبة الأخيرة من حرب عام ١٨١٢. وهذا الهدف الكاذب هو التطويق وأسر ناپليون وماريشالاته وجيشه.

لم يكن هذا الهدف موجوداً قط ولم يكن يمكن أن يوجد لأنه لم يكن ذا معنى ولم يكن ممكناً بلوغه إطلاقاً.

لم يكن ذا معنى في الدرجة الأولى لأن جيش ناپليون المنهزم كان يفر من روسيا بكل السرعة الممكنة، أي إنه كان يفعل تماماً كل ما كان يتمناه كل روسي. فما فائدة القيام بعملية ما ضد وحدات تنطلق هاربة بأقصى سرعة؟

وكان يستحيل، في الدرجة الثانية، قطع الطريق على رجال ركزوا كل حيواتهم في رغبتهم في الفرار.

وفي الدرجة الثالثة، كان من المنافي للعقل كذلك أن يُساق الجيش الروسي إلى الخطر لإبادة الجيوش الفرنسية التي كانت في طريقها إلى الفناء من تلقاء نفسها دون أسباب خارجية، وبسرعة فائقة، حتى أنها دون أي عائق في الطريق لم تكن تستطيع أن تحمل إلى ما وراء الحدود من الوحدات، أكثر مما حملت في شهر كانون الأول/ ديسمبر، أي، واحداً من مائة من المرتب العام.

وفي المرتبة الرابعة، كان من المنافي للعقل السعي إلى أسر الأمبراطور والملوك والدوقات، وهم الشخصيات التي كان أسرها سيسبب للسياسة الروسية أقصى المتاعب، كما اعترف بذلك أفضل دبلوماسيي العصر، جوزيف

دوميستر[1] وآخرون، وأكثر تنافياً للعقل كذلك، الرغبة في أسر قطعات فرنسية برمتها، في الوقت الذي ذاب أكثر من نصف جيشنا أمام كراسنوييه، والذي كان يجب فيه أن يُطرح من النصف الباقي أفواج كاملة لمواكبة الأسرى، هذا إضافة إلى أن جنودنا ما كانوا ينالون دائماً جرايتهم كاملة وأن الجنود الذين كانوا في الأسر قبل ذلك، كانوا يموتون من الجوع.

إن كل هذه الخطة التي وجب أن تقوم على أساس قطع خط الرجعة على ناپليون والاستيلاء على جيشه، تشبه تماماً خطة بستاني ما، رغب في طرد الماشية التي تعيث في بستانه فساداً، فأسرع إلى الباب وراح يضرب الحيوانات على رؤوسها. إن التفسير الوحيد لتصرف هذا البستاني هو غضبه. ولكن لا يمكن أن نعزو مثل هذا الفرض إلى واضعي هذه الخطة لأنهم لم يتألموا من العبث في بستانهم وإتلافه.

ثم إن قطع خط الرجعة على ناپليون وجيشه ليس منافياً للعقل فحسب بل مستحيلاً.

إنه مستحيل أولاً للسبب التالي: كما أن التجربة تبرهن على أن حركة القطعات على مساحة خمسة فراسخ في معركة ما لا تتفق مع الخطط المهيأة سلفاً، كذلك احتمال لقاء بين تشيتشاغوف وويتغنستين في مكان واحد، كان من الضعف لدرجة قريبة من الاستحالة. إنه تماماً رأي كوتوزوف الذي أعلن منذ تلقيه الخطة، أن اشغالات بقصد تحويل الانتباه على مسافات كبيرة لا يمكن أبداً أن تؤدي إلى النتائج المتوخاة.

وهو مستحيل في المرحلة التالية لأنه لكي تشل قوة المقاومة السلبية

---

(١) فيلسوف ديني من أتباع روما. أشهر مؤلفاته: الباب، وليالي پيترسبورغ. (المترجم).

التي كانت تدفع جيش ناپليون إلى الوراء، كان يجب أن يكون لدى الروس قوات لا تضاهى بالتي كانت لديهم.

وكان مستحيلاً في الدرجة الثالثة لأن التعبير العسكري: «قطع جيش» ليس له معنى. يمكن أن يقطع المرء قطعة خبز وليس جيشاً. لا يمكن قطع جيش، وأعني قطع الطريق عليه، لأنه يوجد دائماً في الأماكن المجاورة من الفسحة ما يكفي للالتفاف حول العائق، ولأن هناك الليل الذي تتعذر الرؤية خلاله، وهو الأمر الذي كان يمكن للعباقرة في الفن العسكري أن يقنعوا أنفسهم به، ولو اقتصر ذلك على أمثلة كراسنوييه أو پيريزينا. أضف إلى ذلك أنه يستحيل أسر شخص ما دون موافقته، استحالة إمساك السنونوة، رغم أنه يمكن إمساكها إذا حطت على يدك. يمكن أسر من يستسلمون، كالألمان، وفقاً للقواعد «الاستراتيجية» و«التكتيك». لكن الجيش الفرنسي في حقيقته، لم يكن يجد الاستسلام مفيداً لأن موتاً مشابهاً كان ينتظره من الجوع والبرد في حالتي الأسر والفرار.

وفي المرحلة الرابعة، وهي الأكثر أهمية، كان ذلك مستحيلاً لأنه لم يحدث قط، منذ أن وجد العالم، أن نشبت حرب في مثل الظروف المريعة التي كانت في شتاء عام ١٨١٢ ولأن الجيش الروسي كان يستنفر كل قواه لمطاردة الفرنسيين حتى أنه لم يكن يستطيع أن يفعل أفضل مما فعل دون أن يفني نفسه بالمثل.

لقد فقد الجيش الروسي خلال سيره من تاروتينو إلى كراسنوييه، خمسين ألف مريض ومتخلف، أي عدداً مماثلاً لسكان مركز إقليم هامّ. لقد اختفى نصف العدد دون قتال.

وبخصوص هذه الآونة من الحملة، عندما كان الرجال حفاة لا معاطف لديهم، يعانون نقص الغذاء، وينامون على الثلج طوال أشهر في برودة تبلغ

١٥ درجة في ميزان ريئومور، عندما لم يكن النهار أطول من سبع أو ثماني ساعات بينما يخيم الليل طوال الوقت الباقي، وحيث لا أثر للانضباط، عندما لا يعود الرجال في جو معركة ويدخلون لبضع ساعات في سلطان الموت، عندما لا يصبح للنظام أثر في حين يناضل الرجال خلال أشهر، دقيقة فدقيقة ضد الموت من الجوع أو البرد، وعندما يموت نصف جنود الجيش في شهر واحد، بخصوص هذه الفترة من الحملة، يحدثنا المؤرخون كيف تصرف ميلورادوڤيتش لينقذ «مشية الجناح» تلك نحو مكان كذا، وتورماسوف نحو المكان كذا الآخر وكيف انتقل تشيتشاغوف وهو يغرز في الثلج إلى أعلى من ركبتيه، وكيف قطع فلان آخر الطريق على العدو ومزقه إرباً إرباً، إلخ، إلخ...

إن القطعات الروسية التي أنقصها الموت إلى نصف عددها، فعلت كل ما كان ممكناً القيام به لبلوغ الغاية الجديرة بشعبنا. وليس الذنب ذنبها إذا وضع روس آخرون، ينعمون بالدفء في غرف مريحة، خططاً لا يمكن تنفيذها.

إنّ هذا التناقض الغريب، غير المفهوم اليوم، بين الواقعة والعلاقة التاريخية، ناجم فقط عن أن المؤرخين لم يعطونا إلا تاريخ المشاعر الرائعة والخطب البليغة لمختلف الجنرالات وليس تاريخ الوقائع.

إنّ ما بدا لهم أكثر أهمية كان كلمات ميلوراد ڤيتش والمكافآت التي نالها هذا أو ذاك من الجنرالات والخطط التي اقترحوها، أما مسألة الخمسين ألف تيس الذين ظلوا سواء أكان في المشافي أم في القبر، فإنها لا تهمهم لأنها خارجة عن حدود أبحاثهم.

في حين أنه يكفي أن يلتفت المرء من دراسة التقارير والخطط الموضوعة من قبل الجنرالات ومعاينة حركات هذه المئات من ألوف الرجال الذين ساهموا مساهمة مباشرة فورية بكل ما حدث لتتلقى كل المسائل التي كانت

تبدو لأول وهلة متعذّرة الحل، حلاً لايقبل الجدل، فجأة وبسهولة وبساطة خارقتين.

إن الخطة التي وجب أن تهدف إلى قطع خط الرجعة على ناپليون وجنوده لم تكن موجودة إطلاقاً إلا في مخيلة حوالى عشرة أشخاص. لم يكن ممكناً أن تكون موجودة لأنها منافية للعقل ولأنها كانت مستحيلة.

لم يكن للشعب الروسي غير هدف واحد: تطهير أرضه من الغزاة. ولقد بلغ هذا الهدف أولاً بصورة آلية لأن الفرنسيين كانوا يهربون فكان يكفي عدم وضع العقبات في طريق فرارهم، وفي المرتبة الثانية، بلغ بفضل عمليات الحرب الشعبية التي أبادت الفرنسيين وفي المرحلة الثالثة، لأن جيشاً روسياً قوياً كان يطارد الفرنسيين ويتبع آثارهم وهو على استعداد لاستعمال قوته إذا هم أوقفوا حركتهم.

لم يكن على الجيش الروسي أن يتصرف إلا على طريقة السوط المشرع فوق رأس الحيوان الهارب. وسائق قطيع مجرب، يعرف أن أفضل وسيلة هي إبقاء السوط مشرعاً وتهديد الحيوان الهارب به وليس جلده به على رأسه.

الجزء الخامس عشر

الفصل الأول

أمام حيوان نافق، يستولي الرعب على الإنسان لأنه هو نفسه على وشك الموت والكفّ عن الحياة تحت ناظريه. ولكن عندما يكون المحتضر رجلاً، رجلاً محبوباً، فإن شعوراً بالألم الممزق أو جرحاً في القلب يشبه جرح الجسد، يقتل أحياناً وأحياناً يلتئم، ولكن يبقى مؤلماً يخشى دائماً أن يثيره مسّ خارجي، يُضاف إلى الروع الذي يشعر به أمام فناء الحياة.

ولقد أحس كل من ناتاشا والأميرة ماري هذا الإحساس بعد وفاة الأمير أندريه. كانتا منهارتين معنوياً، تغمضان عيونهما أمام غمامة الموت الجاثمة فوق رأسيهما ولا تجرؤان على النظر إلى الحياة نظرة صريحة. لم تفكّرا إلا في حماية جرحهما من مس مهين أو أليم. كان كل شيء، مرور عربة مسرعة في الشارع، إعلان العشاء، سؤال وصيفة عن ثوب ينبغي إعداده، بل أكثر من ذلك: كلمة عطف مصطنع أو دون حرارة، كل شيء كان ينكأ الجرح المحروق ويسيئ إليهما كالإهانة، فيهدم ذلك الصمت الذي لا بدَّ منه والذي كانتا كلتاهما تتحريانه للإصغاء إلى المجموعة الخطيرة التي لا تبرح تدوي في مخيلتيهما فتمنعهما من النظر إلى الأبعاد الغامضة اللانهائية التي انكشفت لحظة أمامهما.

ما كانتا تشعران بإهانة أو ألم في خلوتهما، وما كانتا تتبادلان شيئاً من الحديث خلالها تقريباً وإذا تحدثتا، جرى الحديث حول أسخف الأشياء، لأن كلتيهما كانتا تتجنبان أي تلميح إلى المستقبل.

كان الاعتراف بأمل في المستقبل يبدو لهما في الواقع شتيمة لذكرى الأمير أندريه. لذلك كانتا كلتاهما تحاولان وسعهما أن تتحاشيا كل ما له علاقة به. وكان يخيل إليهما أن ما عانتاه لا يمكن أن يعبّر عنه بالكلام فتفكران أن المسّ بأتفه تفصيل لحياة الأمير أندريه، مهدم لعظمة السر الذي نفذ تحت أنظارهما وقدسيته.

وكان تحفظهما المستمر في أحاديثهما وجهدهما الدائم لتجنب كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحديث عنه، هذا الأسلوب في إقامة الحراسة على كل مناحي حدود ما لا يجب قوله بأي ثمن، كان يعرض بوضوح ونقاء أعظم، ما كانتا تشعران به أمام مخيلتيهما.

لكن الحزن الكلي يشبه في استحالته الفرح الكلي، كانت الأميرة ماري التي أصبحت بحكم مركزها السيدة الوحيدة لمصيرها والوصية المسؤولة عن ابن أخيها، أول من استدعتها الحياة خارج الحداد الذي انطوت فيه منذ أسبوعين. تلقت من أقربائها مراسلات يجب أن ترد عليها. وكانت الغرفة التي يعيش فيها نيكولا الصغير رطبة فبدأ الطفل يسعل، وجاء الپاتينش إلى ياروسلاڤل يحمل حساباته ونصح الأميرة أن ترجع إلى موسكو لتسكن في منزلها في ڤوزدڤيغلنكا الذي بقي سليماً والذي كان في حاجة إلى بعض الإصلاحات. فالحياة لم تكن قد توقفت ومهما بلغ من إيلام الخروج من عالم الوحدة والتأمل ذاك على نفس الأميرة ماري التي استسلمت له حتى ذلك الحين والمتاعب المادية التي كانت تطالب بحضورها، فإنها اضطرت إلى الخضوع رغم الإشفاق الذي كانت تحس به نحو ناتاشا والتبكيت النفسي الذي اعتلج في نفسها لفراقها. أخذت تدقق في حسابات الپاتينش وتتناقش مع ديسال حول موضوع ابن أخيها وتتخذ التدابير الضرورية لعودتها إلى موسكو.

وبقيت ناتاشا وحيدة. فمنذ اللحظة التي بدأت ماري باتخاذ أهبتها، راحت تتجنَّبها.

خلال ذلك، عرضت الأميرة ماري على الكونتيسة أن تسمح لناتاشا بمرافقتها إلى موسكو فوافقت الأم كما وافق الأب على هذا العرض بفرح لأنهما باتا يريان قوى ابنتهما تنهار يوماً بعد يوم ويعتقدان أن تبديل الهواء مضافة إليه عناية طبيب في موسكو، سيكونان ناجعين لحالتها.

ولما قدم هذا العرض لناتاشا أجابت: لن أذهب إلى أي مكان. لا أسألكم إلا أن تتركوني بسلام.

ونفرت إلى غرفتها وهي لا تكاد تحبس الدموع التي انهمرت من عينيها بدافع السخط والانفعال أكثر من دافع الألم.

منذ أن أخذت ناتاشا تشعر بتخلي الأميرة ماري عنها وبقائها وحدها مع ألمها، راحت تقضي معظم الوقت منعزلة في غرفتها، منطوية على نفسها في زاوية من الكنبة، تحل وتعقد عملاً من أعمال الإبرة بأصابعها الدقيقة الرشيقة وأنظارها شاخصة إلى الأمام. وكانت هذه الوحدة تنهكها وتنخرها. لكنها كانت في حاجة إليها. فما إن يدخل بعضهم إلى غرفتها، حتى تعتدل بقوة فتبدل من وضعيتها وتعابير وجهها، وتتظاهر بالقراءة أو الحياكة دون أن تخفي نفاد صبرها لرؤية الذي عكر صفو وحدتها.

كان يخيل إليها باستمرار أنها على وشك إدراك المخيف والتعمق فيه، تلك المعضلة المتعبة التي كانت نظرتها الداخلية شاخصة إليها.

وفي نهاية كانون الأول/ ديسمبر، كانت ناتاشا مرتدية ثوباً أسود من الصوف، وضفيرتها ملفوفة بإهمال على مؤخرة رأسها، شاحبة وهزيلة، تجلس قابعة في زاوية من الكنبة، منصرفة تماماً إلى لف طرف نطاقها وحلّه، شاخصة بنظرها إلى زاوية الباب.

كانت تنظر إلى الموضع الذي ذهب منه إلى الجانب الآخر من الحياة، وذلك الجانب، الذي لم تفكر فيه قط من قبل، والذي كان يبدو لها من قبل بعيداً جداً لا يمكن إدراكه. أصبح الآن أكثر قرباً وألفة وأكثر فهماً من هذا الجانب، حيث كل شيء ليس إلا دماراً إن لم يكن ألماً وإذلالاً.

كانت تنظر هناك، حيث تعرف أنه موجود، لكنها لم تكن تستطيع أن تراه على غير الشكل الذي عرفته به في هذا العالم. كانت تراه في ميتيشتشي وترويتسا ياروسلافل.

كانت ترى وجهه وتسمع صوته وتردد كلماته والكلمات التي قالتها له وأحياناً تتخيَّل موضوعات أخرى كانا يستطيعان تبادلها معاً.

ها هو ذا متمدد على مقعد وثير في معطفه المنزلي المصنوع من الفراء المغطى بالقطيفة ورأسه مسند إلى يده البيضاء النحيلة، وصدره مقعر بشكل مخيف وكتفاه مرفوعتان وشفتاه متقلصتان بقوة وعيناه تلتمعان وعلى جبهته الشاحبة يظهر غضن تارة وتارة يختفي، وإحدى ساقيه ترتعش بسرعة لا تكاد تميز. وتعرف ناتاشا أنه يناضل ضد ألم معذب. ما هو هذا الألم؟ لماذا جاء؟ ماذا يشعر؟ أين يتألم؟ في ذلك كانت ناتاشا تفكر. لكنه يلمس قلقها فيرفع عينيه ويبدأ الكلام دون ابتسام.

قال: «إن ما يخيف هو أن يرتبط الإنسان مدى الحياة برجل يتألم؟ إنه عذاب لا نهاية له». ونظر إليها بعينيه المتفحصتين. فأجابته ناتاشا كعادتها دون أن تترك لنفسها وقتاً للتفكير في ما هي في سبيل النطق به. قالت: «إن هذا لا يمكن أن يدوم على هذا النحو، إنه مستحيل سوف تستعيد صحتك تماماً».

إنها تراه الآن مجدداً، وهي تعيش من جديد في كل ما اعتلج في نفسها حينذاك. إنها تتذكر النظرة الطويلة الحزينة التي ألقاها عليها بعد هذه الكلمات وتدرك معنى اللوم واليأس في هذه النظرة الملحة.

فكرت: «لقد اعترفت أنه سيكون أمراً مريعاً لو أنه استمر يتألم. ولقد قلت له ذلك لأنه كان سيكون مريعاً حقاً بالنسبة إليه لو أنه استمر. لكنه فهم الجملة على نحو آخر. لقد فكر أن ذلك سيكون مريعاً بالنسبة إلي. لقد كان حينذاك لا يزال متعلقاً بالحياة وكان يخاف الموت، وأنا، تكلمت بقسوة وغباوة لم أكن أقصد ذلك، كنت أفكر في شيء آخر مختلف تماماً. لو أنني قلت ما كنت أفكر فيه لقلت له إنه ولو كان محتضراً، بل لو ظل محتضراً أمام عيني لكنت سعيدة بالقياس على ما أنا عليه الآن، لم يعد لي شيء، لم يعد لي أحد. هل كان يعرف ذلك؟ لا، لم يكن يعرفه ولن يعرفه أبداً. والآن لا أستطيع أبداً، أبداً، أن أصلح ذلك».

لكنه عاد مجدَّداً يقول لها الكلمات نفسها، فراحت ناتاشا هذه المرة تجيبه في خيالها جواباً مختلفاً. استوقفته وقالت: «إنه مخيف بالنسبة إليك وليس بالنسبة إلي. إنك تعرف أن الحياة بدونك بالنسبة إلي ليست شيئاً مذكوراً وأن التألم معك أكبر سعادة لي». فأمسك بيدها وشدَّ عليها كما ضغط عليها خلال تلك الأمسية الرهيبة، قبل موته بأربعة أيام، فراحت تردد على مسمعه بالخيال أيضاً كلمات الحنان والحب التي كان يتوجب أن تقولها له حينذاك والتي لا تنطق بها إلا الآن. صاحت: «أحبك!.. نعم، أحبك، أحبك..» وضمت يديها بحركة تشنجية وصرفت بأسنانها بقسوة وحشية.

وحينئذ استولى عليها ألم أكثر عذوبة وانهمرت الدموع من عينيها. وفجأة تساءلت: لمن تحدثت على هذا النحو؟ أين هو وكيف هو الآن؟ ومن جديد نظرت في كآبة مضنية وهي مكفهرة الوجه مقطبة حاجبيها مجدداً نحو ذلك «الهناك» حيث هو، ومن جديد، خيل إليها أنها ستكتشف السر الغامض.. ولكن، في اللحظة التي كاد كل شيء ينكشف، في اللحظة التي

كاد كل المجهول يصبح معلوماً لديها، صك أذنها صوت رتاج الباب ودخلت دونياشا، الوصيفة، مروعة الوجه منقلبة الأسارير، دخلت دون أي احتراس وقالت وعلى وجهها المنفعل تعبير غريب:

ـ إذا أمرت، اذهبي بسرعة إلى أبيك. لقد وقعت مصيبة.. پيوتر إيليتش.. رسالة..

وشهقت منتحبة.

الفصل الثاني

إلى جانب النفور العام الذي كانت تشعر به نحو الأحياء، أصبحت ناتاشا الآن تشعر بكرهٍ خاص نحو عائلتها. كان ذووها جميعاً أبوها، أمها، سونيا، قريبين جداً منها، مألوفين جداً لديها، حتى أن كل كلمة منهم وكل مشاعرهم كانت تنقلب إلى إهانة لذلك العالم الذي تعيش فيه منذ بعض الوقت. لذلك لم تكن تنظر إليهم بلا مبالاة فحسب، بل بعداء. سمعت دونياشا تتكلم عن بيوتر إيليتش وعن المصيبة. لكنها لم تفهم شيئاً.

أخذت ناتاشا تقول في سرّها: «مصيبة لهم؟ كيف يمكن أن تحل بهم المصيبة؟ إن حياتهم تسير دائماً على وتيرة واحدة في سلامها المألوف».

وعندما دخلت إلى القاعة، رأت أباها يخرج بسرعة من غرفة الكونتيسة وأمارات وجهه متقلصة ووجهه مبلل بالدموع. كان يرى أنه اندفع خارجاً من تلك الغرفة ليترك للنشيج الذي كان يخنقه حرية الانطلاق. ولما وقع نظره على ناتاشا، صدرت عنه حركة يائسة وأطلق زمجرات تشنجية شوهت وجهه المستدير الطيب.

ـ هيه.. بيتيا.. اذهبي بسرعة، إنها.. تدعوك..

واقترب من كرسي بخطى مترنحة وهو يبكي كالطفل، وانهار عليه وغطى وجهه بيديه.

وفجأة طافت بجسد ناتاشا كله شبه انتفاضة كهربائية وأحست بضربة فظيعة تصيب قلبها. أحست بألم مريع، وخيل إليها أن شيئاً ما يتمزق في قلبها

وأنها على وشك أن تموت. لكنها لم تلبث أن شعرت بالخلاص من حجر الحياة الذي كان يحوم فوق كيانها ولما رأت أباها منهاراً وسمعت الصيحات المروعة، الوحشية المنطلقة من أمها في الجانب الآخر من الباب، نسيت نفسها ونسيت ألمها الشخصي.

اندفعت نحو أبيها. لكنه أشار إلى غرفة أمها بحركة عاجزة. وظهرت الأميرة ماري شاحبة تسري في فكها الأسفل ارتعاشة، وجاءت إلى ناتاشا فأخذتها من يدها وهي تقول لها شيئاً. لكن ناتاشا لم تكن تراها ولا تسمعها. اقتربت بخطى سريعة ثم توقفت فترة قصيرة أمام الباب وكأنها تستجمع شتاتها ثم اندفعت نحو أمها.

وكانت الكونتيسة ممددة على مقعد تتلوى فريسة لحركات عصبية غريبة وتضرب رأسها بالجدار بينما كانت سونيا وبعض الخادمات يمسكن بذراعيها.

صاحت وهي تدفع المحيطات بها: ناتاشا، ناتاشا!.. هذا غير صحيح، غير صحيح.. إنه يكذب ناتاشا، اذهبن كلكن عني هذا غير صحيح! لقد قتلوه!.. آه! آه! آه!... هذا غير صحيح!

فوضعت ناتاشا إحدى ركبتيها على المقعد وانحنت على أمها فأحاطتها بذراعيها وأدارت نحوها وجهها الذي أدنت منه وجهها بقوة غير منتظرة.

أماه العزيزة!.. إنني هنا يا أماه...

وراحت تتمتم بكلمات دون أن تسكت لحظة واحدة.

ودون أن تفلت أمها وهي تظهر حيالها مقاومة حانية، أخذت تطلب استحضار وسائد وماء ثم نزعت عنها ذراعيها ووضعتها بشكل مريح في ثيابها.

استمرت تقول وهي تغمر رأسها بالقبلات ويديها ووجهها وتشعر بدموعها التي لم تستطع إمساكها، تسيل فتدغدغ أنفها ووجنتيها:

صديقتي، أمي العزيزة.

شدَّت الكونتيسة على يد ابنتها وأغمضت عينيها ثم هدأت بعض الشيء. وفجأة وقفت بحيوية غير متوقعة وألقت حولها نظرة مجنونة، فلما شاهدت ناتاشا، ضمت رأسها بكل قواها بين يديها. ثم أدارت نحوها وجه ابنتها المتقلص جراء الألم وتأملته طويلاً.

قالت بصوت خفيض وبلهجة مستسلمة:

ـ ناتاشا، إنك تحبينني، ناتاشا، إنك لا تخدعينني؟ ستقولين لي الحقيقة كلها؟

نظرت إليها ناتاشا بعينيها الطافحتين بالدموع فلم يعد وجهها إلا توسلاً وحباً. كررت وهي توتر كلّ قوى مودتها وكأنها تريد أن تحمل نفسها هذه الموجة من الألم التي كانت تسحق أمها:

ـ أمي الحبيبة!

وفي صراعها ضد الحقيقة، وبرفضها الاعتقاد بأنها يمكن أن تعيش بينما قتل منذ حين ولدها العزيز في زهرة شبابه، أنقذت هذه الأم نفسها بدخولها عالم الهذيان.

لم تستطع ناتاشا أن تتذكر كيف انقضى ذلك النهار والليل الذي تلاه ثم النهار والليل التاليان. لم تنم ولم تترك أمها. كان حبها الثابت الصبور الذي لم يكن يحاول إيجاد التفسير أو العزاء ولكن كان أشبه بنداء إلى الحياة، يحيط بالكونتيسة من كل ناحية وفي أية لحظة.

وفي الليلة الثالثة، هدأت الكونتيسة بضع دقائق فأغمضت ناتاشا عينيها مسندة رأسها إلى ذراع الكنبة، وقعقع السرير ففتحتهما. كانت الكونتيسة جالسة تتحدث بصوت خفيض:

ـ كم أنا سعيدة لعودتك! إنك متعبٍ، هل تتناول شاياً؟ واقتربت ناتاشا منها بينما استرسلت الكونتيسة تقول وهي تمسك يد ابنتها: كم أصبحت فتىً جميلاً، إنك الآن رجل!

ـ أماه ما هذا الذي تقولين!..

ـ ناتاشا، إنه قضى، لم يعد له وجود!

وطوقت ابنتها وأخذت الكونتيسة تبكي للمرة الأولى.

الفصل الثالث

حاول كل من الكونت وسونيا عبثاً أن يحلّا محل ناتاشا قرب الكونتيسة. وأرجأت الأميرة ماري سفرها. كان الكونت وسونيا يشعران بأنها وحدها قادرة على انتزاع أمها من جنون اليأس. لم تغادرها لحظة واحدة طوال ثلاثة أسابيع. كانت تنام إلى جانب الكونتيسة على المقعد وتقدم لها الطعام والشراب، تحدثها باستمرار لأن صوتها المهدهد وحده كان قادراً على تهدئتها.

لم يكن الجرح المعنوي الذي أصيبت به الأم المسكينة قابلاً الشفاء. لقد انتزع موت پيتيا منها حياتها.

وعندما خرجت من غرفتها بعد شهر من تلقيها نبأ موت ابنها لم تعد الكونتيسة التي حملت برشاقة ودون عناء سنيها الخمسين، إلا امرأة عجوزاً، نصف ميتة، فقدت لذة الحياة. لكن ذلك الجرح نفسه الذي قتل الكونتيسة نصف قتلة، دعا ناتاشا إلى الحياة.

إن جرح الروح الذي ينجم عن انقلاب الكيان الداخلي يشبه، مهما بلغ التشابه من غرابة، جرحاً عميقاً في الجسد: لا يلتئم داخلياً بعد شفائه الظاهر إلا نتيجة لاندفاع القوة الحيوية.

هذا ما جرى بالنسبة إلى جرح ناتاشا. كانت تعتقد أن حياتها قد انتهت. وفجأة، أظهر لها حبها لأمها أن سبب حياتها الموجب، أي الحب، لا يزال حياً في نفسها. ولقد أظهر الحب نفسه ومعه الحياة.

ولقد ربطت أيام الأمير أندريه الأخيرة ناتاشا بالأميرة ماري. وقربت هذه

المصيبة الجديدة بينهما أكثر من ذي قبل. ولما أرجأت الأميرة ماري سفرها، أخذت تهتم بناتاشا وكأنها تعالج طفلاً مريضاً طوال الأسابيع الثلاثة التي تلت. إن الأسابيع الأخيرة التي أمضتها ناتاشا في غرفة أمها، حطمتها تماماً.

وذات يوم، في فترة بعد الظهر، شاهدت الأميرة ماري ناتاشا ترتجف من الحمّى فأخذتها إلى غرفتها وأرقدتها في فراشها. تمددت ناتاشا، ولكن عندما أرادت الأميرة ماري أن تخرج بعد أن أسدلت الستار، نادتها ناتاشا إليها:

ـ ليست بي حاجة إلى النوم يا ماري، اجلسي إلى جانبي.

ـ أنت متعبة، حاولي أن تنامي قليلاً.

لا، لا، لماذا أتيت بي إلى هنا، سوف تدعوني الآن.

ـ إنك تعرفين تماماً أنها أفضل كثيراً من ذي قبل. لقد تحدثت اليوم بتعقل كبير!

راحت ناتاشا المتمددة على السرير تتأمل وجه الأميرة في عتمة الغرفة. حدثت نفسها، «ترى هل تشبهه؟ نعم ولا. لكن فيها كل شيء خاص، واضح، جديد مجهول. ثم إنها تحبني. ماذا في أعماق نفسها؟ كل شيء طيّب. ولكن ماذا؟ ماذا تفكر؟ ماذا ترى فيّ؟ نعم، إنها روح طاهرة طيبة.

قالت باستحياء وهي تمسك يدها:

ـ ماشا، ماشا، لا تفكري أنني رديئة. أليس كذلك؟ يا عزيزتي ماشا الحبيبة كم أحبك! لنكن صديقتين، صديقتين حقيقيتين.

وأحاطتها ناتاشا بذراعيها وراحت تغمر وجه الأميرة ماري ويديها بالقبلات في خجل وسعادة معاً.

ومنذ ذلك اليوم، قامت بينهما تلك الصداقة الحانية التي لا يمكن أن تكون إلا بين النساء. لم تكفّا عن تبادل القبل والكلمات الودودة فكانتا تقضيان الوقت كله معاً تقريباً. فإذا كانت واحدة منهما تبتعد، كانت الأخرى

تشعر بالقلق فتسرع للحاق بها. كانتا تشعران بانسجام كبير كلما كانتا معاً أكثر من شعورهما به وهما منفصلتان، وكل واحدة تجاه نفسها. وكان الشعور الذي يجمع بينهما أقوى من الصداقة، كان ذلك الشعور قائماً على أساس اعتقادهما الراسخ بعدم استطاعة إحداهما الحياة بدون الأخرى.

كان يحدث لهما أن تظلا ساعات طويلة دون أن تتحدثا، ويقع لهما أن تبدآ الحديث بعد أن تستلقيا للنوم وأن تتحدثا حتى الصباح. كانت كل منهما تروي للأخرى في الغالب ماضيهما البعيد جداً، فتصف الأميرة ماري طفولتها وأمها وأباها وأحلامها أما ناتاشا التي كانت تشيح من قبل، بعدم فهم هادئ، عن فكرة الزهد المسيحي، والتي كانت مرتبطة بحبها للأميرة ماري، أصبحت تحب ماضي صديقتها نفسه وتدرك هذا الجانب من الحياة الذي بقي مستغلقاً عليها. لم تكن تفكر في أن تطبق على حياتها الشخصية، الإذلال والتضحية لأنها كانت معتادة البحث عن مختلف المسرات. لكنها بدأت تدرك الفضائل التي كانت ممتنعة الفهم عليها من قبل وتعجب بها في شخص آخر. بينما راحت الأميرة ماري نفسها تكتشف عالماً مجهولاً منها حتى ذلك الحين، الإيمان بالحياة، الإيمان بمباهج الحياة، وهي تصغي إلى أقاصيص ناتاشا عن طفولتها وصباها.

كانتا تتدبران أمرهما بحيث لا تتكلمان أبداً «عنه» حتى لا تدركا بالكلمات، أو أقله هذا ما كانتا تظنانه، سمو الشعور الذي تكنانه في نفسيهما، فكان هذا السكوت يتفاعل بشكل أنساهما تدريجاً الأمير أندريه.

هزلت ناتاشا وشحبت وأصبحت على درجة من الضعف حتى بات كل الناس يسألون عن صحتها، فكان ذلك يلذ لها. لكنها كانت أحياناً عرضة للخوف ليس من أن تموت فحسب، بل من أن تقع مريضة وأن تضعف وتفقد جمالها، وأحياناً، كانت تتأمل بانتباه ذراعها النحيلة، وتدهش لهزالها، أو تلقي

صباحاً نظرة على وجهها المتقلص في المرآة فيبدو لها مثيراً للشفقة. كان يخيل إليها أنه لا بدَّ وأن تكون الحال على هذا النحو، لكنها رغم ذلك كانت تجده أمراً محزناً ومخيفاً.

وذات يوم، صعدت مسرعة جداً فبهرت أنفاسها تماماً. فلم تلبث أن ابتدعت لا شعورياً سبباً آخر للهبوط لتعود إلى الصعود بسرعة كلية مرة أخرى بغية اختبار جلدها وقوتها وإدراك مداهما.

ومرة أخرى استدعت دونياشا، فخانها صوتها فنادتها مرة أخرى، رغم سماعها وقع خطاها، بصوتها الحاد الذي كانت تغني به وراحت تصغي إلى صوتها بدورها.

لم تكن تشعر بذلك، بل لم تكن تريد أن تصدقه. ولكن تحت الطبقة الكثيفة التي خيل إليها أنها تغطي روحها، أخذت بعض الحشائش النضرة الدقيقة تطل برأسها مبشرة بالنمو المطرد ودفع الغم الذي يخنقها بشدة، لدرجة لن تلبث معها أن تدرس آثاره فيتعذر رؤيتها. لقد كان جرحها يلتئم من الداخل.

وفي نهاية كانون الثاني/ يناير، ذهبت الأميرة ماري إلى موسكو فألحّ الكونت على ناتاشا أن تذهب معها كي تستشير الأطباء هناك.

الفصل الرابع

استمر تقهقر الجيوش الفرنسية الفارة ومطاردة الجيش الروسي له دون قتال حتى كراسنوييه، بعد أن اصطدمت الجيوش في ڤيازما حيث لم يستطع كوتوزوڤ منع قطعاته الراغبة في قطع الطريق على العدوّ. وكان الجيش الفرنسي سريعاً في فراره حتى أن الجيش الروسي الذي كان يطارده، لم يكن يتمكن من اللحاق به، وأن الجياد أصبحت تنهار تحت فرسانها وتعجز عن أداء عملها في سلاح المدفعية، وأن المعلومات المستقاة عن تحركات الفرنسيين كانت دائماً خاطئة.

وبلغ الإعياء بالجنود الروس من هذا الانتقال اليومي المستمر الذي كانوا يقطعون خلاله فرسخاً في اليوم مبلغاً جعلهم عاجزين عن مضاعفة سرعتهم.

ولإدراك درجة إنهاك الجيش الروسي، يكفي معرفة حقيقة أن هذا الجيش منذ تاروتينو، لم يخسر إلا خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح وبالكاد مائة أسير، وأنه عندما خرج من تاروتينو بمائة ألف رجل، أصبح عدده الآن لا يتجاوز الأربعين ألفاً في كراسنوييه.

كانت سرعة المطاردة إذن ذات أثر مذيب في الجيش الروسي بمثل ما كان الفرار في الجيش الفرنسي، مع فرق واحد، هو أن الجيش الروسي كان يتقدم دون الخوف من الفناء المعلق فوق الجيش الفرنسي، الأمر الذي ينجم عنه أن المتخلفين الفرنسيين كانوا يقعون بين أيدي الروس، أما المتخلفون من هؤلاء فيبقون في بلادهم. والسبب الرئيسي إذن لانحلال جيش ناپليون

كان ناجماً عن سرعة مسير هذا الجيش، ولدينا على ذلك الدليل الذي لا يقبل النقض في انحلال الجيش الروسي المماثل.

كان نشاط كوتوزوف كله يهدف فقط، كما في تاروتينو وفي ڤيازما، إلى عدم إعاقة التقهقر الفرنسي بقدر ما يقع ذلك في نطاق طاقته، خلافاً لما كانوا يريدون في پيترسبورغ ولما كان يريده جنرالات الجيش الروسي، بل مساعدة تقدم قطعات العدو تسهيل سيره.

ولكن، عدا عن الإنهاك الذي كان الجيش الروسي يبديه والخسائر الفادحة التي سببها له سيره السريع، فإن سبباً آخر كان يدعو كوتوزوف إلى إبطاء حركة قطعاته وتلطيف حدتها. كانت غاية الروس مطاردة الفرنسيين، في حين أن الطريق التي سيسلكها الفرنسيون كانت مجهولة منهم، لذلك، كلما تقدم رجالنا على آثار الفرنسيين، أسرع هؤلاء خطاهم ليباعدوا المسافة بينهم، فلم يكن ممكناً قطع الخطوط المتعرجة التي كان الفرنسيون يرسمونها في سيرهم، باللجوء إلى الطرق المختصرة، إلا عن طريق مرافقتهم طوال مسافة كبيرة.

وكانت التحركات العاقلة كلها التي كان الجنرالات يعرضونها، تلخص في حركات تقدم طردية وعكسية عديدة وزيادة في طول المراحل، بينما الهدف المعقول الوحيد كان على العكس في تقصيرها. ونحو هذا الهدف، تركزت حيوية كوتوزوف خلال كل الحملة من موسكو إلى ڤيلنا، ليس بمحض الصدفة أو تبعاً لعرض مفاجئ، بل بذكاء متسلسل محكم حتى أنه لم يحد مرة واحدة عن الطريق.

كان كوتوزوف يعرف، ليس بفضل استنتاجاته أو بمعرفته العسكرية، بل بطبيعته الروسية، يعرف ويشعر بما يشعر به كل جندي روسي وهو أن

الفرنسيين قد هزموا، وأن الأعداء يهربون وأنه يجب مطاردتهم، لكنه كان يشعر في الوقت نفسه، مثل جنوده، بثقل هذه الحملة كلها، الفريدة بسرعتها وبالفصل الذي وقعت فيه من السنة.

أثناء ذلك، كان الجنرالات، وبصورة خاصة، غير الروس منهم، الذين يريدون إظهار تفوقهم وإحداث الدهشة وأسر دوق أو ملك لينالوا بعض الغنم، يفكرون على العكس، بأن اللحظة قد أزفت لخوض المعركة والانتصار على عدو ما، ويريدون ارتكاب هذا الخطأ المروع. لكن كوتوزوف كان يكتفي بهز كتفيه عندما كانوا يفدون، واحداً إثر آخر، للقيام بمشاريع تحركات جديدة، ولتنفيذها برجال شبه حفاة، محرومين من الألبسة الدافئة، ينهشهم الجوع، ذابوا خلال شهر واحد دون أي قتال حتى بلغوا النصف، كان يجب أن يقطعوا حتى الحدود، مسافة أطول كثيراً من التي اجتازوها حتى الآن، هذا إذا استمرت مطاردة الهاربين وفق أفضل الشروط.

وكانت هذه الرغبة العنيفة في الظهور والتحرك وصد العدو وقطعه، تظهر بصورة خاصة عندما كان الجيش الروسي يصطدم بالجيش الفرنسي.

وهذا ما جرى في كراسنوييه، حيث ظن أنهم لن يجدوا إلا جمهرة واحدة من جمهرات الفرنسيين الثلاث، فوقعوا على ناپليون بالذات، على رأس جيش قوامه ستة عشر ألف رجل. وعلى الرغم من كل الوسائل التي استخدمها كوتوزوف ليتجنب ذلك الاصطدام سيئ المغبة وتوفير قطعاته، فإن الجيش الروسي المنهوك انهمك طوال ثلاثة أيام في كراسنوييه في دحر زمر الفرنسيين.

ولقد وضع تولّ الخطة: القطعة الأولى تتحرك. وهلمجرا. وكالعادة دائماً، لم يقع شيء وفقاً للخطة. فالأمير أوجين دو وورتمبرغ الذي كان يطلق النار من على مرتفع على التجمهرات الفرنسية طلب إمدادات لم تصل.

وانتهز الفرنسيون فرصة الظلام ليلفوا ويخدعوا الروس، فتبعثروا واختفوا في الغابات وتوصلوا على شكل ما إلى شق طريق لأنفسهم.

وميلورادوڤيتش الذي كان يزعم أنه لا يأبه لشيء من احتياجات فرقته المادية، والذي ما كان يمكن إيجاده عند الحاجة الماسة إليه، ميلورادوڤيتش الفارس الذي لا يهاب ولا يلام، كما كان يدعو نفسه بنفسه، ذلك الهادي للمفاوضات أرسل رسلاً يطالب باستسلام الفرنسيين فأضاع وقته وعمل عكس ما أمر به تماماً.

قال لفرسانه وهو يتقدم أمام قطعاته ويشير إلى الفرنسيين أمامه: يا أولادي! أعطيكم هذه الفرقة.

وراح فرسانه على جيادهم التي كانت تتحرك بشق النفس، والتي كانوا يدفعونها إلى الأمام ضرباً بمهاميزهم وسيوفهم، يجرون خبباً خفيفاً بكثير من الجهد. ويلقون بأنفسهم على الفرقة الفرنسية التي قدمها لهم هدية، أي على رجال بائسين خدرهم البرد كلهم فباتوا نصف متجمدين. ولم تلبث الفرقة أن ألقت سلاحها واستسلمت وهو الأمر الذي كانت تتوق إليه منذ أمد بعيد.

أسروا في كراسنوييه ستة وعشرين ألف جندي وغنموا حوالى مائة مدفع وعصا زعموا أنها عصا ماريشال. وبعد أن تناقشوا لمعرفة المبرزين بينهم، ارتضى كل منهم بحقه لكنهم أسفوا جداً لأنهم لم يأسروا ناپليون أو أقله واحداً من الأبطال، ماريشالاً ما، وراحوا يتبادلون اللوم ملقين الذنب كله على كاهل كوتوزوف.

هؤلاء الناس الذين تدفعهم أهواؤهم، لم يكونوا إلا أدوات عمياء لأسوأ الضرورات وأكثرها حزناً لكنهم كانوا يعتقدون بأنهم أبطال ويتصورون أنهم قاموا بأكثر المآثر نبلاً واستحقاقاً للثواب. كانوا يتهمون كوتوزوف ويزعمون أنه منعهم منذ بدء الحملة عن هزم ناپليون وأنه لا يفكر إلا في إرضاء أهوائه

وعدم مغادرة إقليم «ڤيلاتور» وهو إقليم يقع على طريق كالوغا في مقاطعة ميلاين، يملكه حينذاك كما يملك مصانع النسيج فيه التي استمد منها اسمه، آل غوتشاروف، أسرة زوج پوشكين، وقد توقف كوتوزوف في ذلك الإقليم بعض الوقت عام ١٨١٢، لأنه يعيش فيه بسلام وأنه في كراسنوييه، أوقف الحركة لأنه أضاع صوابه تماماً حينما علم بوجود ناپليون بالذات، وأنه يمكن الافتراض بأنه على اتفاق مع ناپليون وأنه باع نفسه له. (مذكرات ويلسن).

ولم يكن المعاصرون وحدهم الذين أعماهم الهوى هم الذين تخرصوا على هذا الشكل، بل إن الجيل الصاعد والتاريخ ناديا بعظمة ناپليون وقال الأجانب عن كوتوزوف إنه ثعلب عجوز فاجر، رجل بلاط غير جريء. أما الروس، فقد وصفوه بأنه مخلوق لا يمكن تحديد وصفه أشبه بصورة من الورق المقوى، مفيدة فقط لأنها تحمل اسماً روسياً...

الفصل الخامس

كان الأمبراطور مستاءً جداً من كوتوزوف الذي اتهموه بصراحة خلال سنتي ١٨١٢ـ١٨١٣ ولقد جاء في تاريخ حرر بناء على رغبة سامية أن كوتوزوف كان رجل بطانة ماكر، يروعه مجرد ذكر اسم ناپليون، حرم الجيش الروسي في كراسنوييه وفي پيريزيتا، بسبب أخطائه، من مجد هزم الفرنسيين هزماً مطلقاً.

ذلك هو مصير ليس الرجل القيم، الرجل العظيم الذي ترفض العقلية الروسية الاعتراف به، بل الرجال النادرين دائمي الانفراد يخضعون مشيئتهم الشخصية لمشيئة القدر التي يتفهمونها. إن حقد الجمهور واحتقاره يعاقب هؤلاء الرجال على تفهمهم النظم العليا.

إن ناپليون، أداة التاريخ التافهة تلك، الذي لم يُظهر في أي مكان حتى ولا في المنفى، ما يبرهن على الكرامة الإنسانية، ناپليون هذا، في نظر المؤرخين الروس، وهو غريب وبشع أن يقال، موضع إعجاب وحماسة وهو رجل عظيم. أما كوتوزوف، هذا الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة من البداية حتى النهاية طوال نشاطه عام ١٨١٢، من پورودينو وحتى ڤيلنا، في كل تصرفاته ولا في أقواله، هذا الرجل الذي يبدو في التاريخ مثالاً خارقاً للتضحية بالذات وللتعمق في معرفة المستقبل، فإنه يبدو لهم على العكس. مخلوقاً متردداً يستحق الرثاء يشعر المرء بنوع من الخجل كلما تحدث عنه في عام ١٨١٢

ومع ذلك، فإن من الصعب تصور شخصية تاريخية تبعت نهائياً هدفاً

واحداً بكل ذلك الثبات. من العسير تصور غاية أكثر نبلاً وأكثر انسجاماً مع إرادة شعب برمته. وكذلك عسير أكثر، إيجاد مثال في التاريخ، بَلَغ الهدف المنشود سلفاً من جانب شخصية تاريخية ما بمثل ذلك الكمال الذي بذل كوتوزوف فيه قواه كلها خلال مجرى عام ١٨١٢ لبلوغه.

لم يتحدث كوتوزوف قط عن القرون الأربعين التي تطل علينا من أعالي الهرم ولا عن التضحيات التي كان يبذلها في سبيل وطنه ولا عما فعل أو ما كان ينوي فعله، لم يكن يتحدث عن نفسه بصورة عامة، ولا يبحث عن أداء أي دور، يظهر نفسه دائماً أكثر الرجال بساطة وسلامة نية. كان يكتب لبناته ولمدام دوشتايل ويقرأ الروايات ويحب عشرة النساء الجميلات، يمزح مع جنرالاته وضباطه وجنوده، لا يناقض أبداً أشخاصاً يتحدثون إليه بشيء ما. ولما جاء الأمير روستوبتشين مسرعاً على صهوة جواده عند جسر أياووزا، يكيل له اللوم الشخصي ويتهمه بأنه كان سبب ضياع موسكو ويقول له: «كيف وعدت ألّا تهجر المدينة دون قتال؟» أجابه كوتوزوف:

ـ «لست أنوي مغادرة موسكو دون قتال» رغم أن موسكو كانت حينذاك في أيدي الأعداء. ولما جاء أراكتشييڤ يقابله من لدن الأمبراطور ليقول له بأنه يجب أن ينيط قيادة المدفعية بـ: إيرمولوڤ، أجابه: «نعم، هذا تماماً ما كنت أقوله شخصياً منذ حين» رغم أنه كان قبل دقيقة واحدة يقول عكس ذلك. وأية أهمية كان لذلك في نظره، هو الذي كان وحده يعرف المعنى الرائع للأحداث وسط الحشد الأبله الذي كان فيه، أية أهمية لأن يعزو روستوبتشين لنفسه المصائب التي حلت بالعاصمة أو أن يعزوها إليه؟ فكم بالأجدر أن لا يأبه لمعرفة من سيُعين قائداً للمدفعية.

كان ذلك العجوز ليس في هذه المناسبات فحسب، بل بصورة دائمة يتفوه بالكلمات الخالية من أي معنى، أول ما يتبادر إلى ذهنه من كلمات، وهو

الذي اكتسب من الخبرة في الحياة، الإيمان بأن الآراء والكلمات التي تعبر عنها، ليست هي التي توجه البشر.

لكن هذا الرجل نفسه الذي كان قليلاً ما يأبه لما يقول، لم يدع خلال حياته العملية كلها، كلمة تفلت منه دون أن تكون متفقة مع الهدف الأوحد الذي كان يصبو إليه طوال مدة الحرب. ولقد كشف في مناسبات عديدة عن حقيقة فكرته حيث تسلط عليه التأكد الأليم بأن ما من أحد يفهمه. واعتباراً من معركة بورودينو، التي هي السبب الرئيسي لاختلافاته مع المحيطين به، كان وحده الذي قال: «إن معركة بورودينو نصر» وكرر ذلك بإلحاح وبصوت مرتفع في تقاريره وفي اتصالاته حتى ساعة موته.

وهو وحده الذي قال: «إن ضياع موسكو ليس ضياع روسيا». وفي جوابه عن عروض الصلح التي قدمها لوريستون أعلن: «إن السلم غير ممكن، لأن تلك هي إرادة الشعب». وهو وحده الذي أعلن عند تقهقر الفرنسيين: «إن كل تحركاتنا عقيمة وإن كل شيء سيُسوّى تلقائياً على نحو أفضل ما نتمناه وأنه يجب أن نصنع للأعداء جسراً من ذهب وأن معارك تاروتينو وڤيازما وكراسنوييه ليست ضرورية وأن الأمر يتطلب الوصول إلى الحدود بقوات كافية وأنه لا يعطي جندياً روسياً واحداً لقاء عشرة جنود فرنسيين».

وهذا الرجل وحده، الذي يصورونه لنا على شكل مذنب لأنه كذب على أراكتشييف ليرضي الأمبراطور، هو وحده الذي تجرأ في ڤيلنا على التعرض لغضب أمبراطوره حين قال: «إن حرباً تدفع إلى ما وراء الحدود ستكون حرباً لا فائدة منها ولا غاية لها».

لكن كلماته ليست وحدها التي يمكن أن تكون برهاناً على تفهمه لمعنى الأحداث. إن تصرفاته كلها دون أي استثناء، تصبو نحو الهدف الثلاثي نفسه:

١ ـ تركيز كل قواته بانتظار اشتباك منتظر مع الفرنسيين، ٢ ـ هزمهم، ٣ ـ طردهم من روسيا والتخفيف قدر المستطاع من آلام الشعب والجيش.

إنه هو، كوتوزوف المتمهل، الذي كان شعاره: الصبر وطول الوقت، كوتوزوف عدو كل نشاط حاسم يشتبك في معركة بورودينو وهو يضفي على استعداداته جلالاً لا مثيل له، إنه هو، كوتوزوف هذا نفسه الذي أعلن في أوسترليتز قبل خوض المعركة أنها ستكون هزيمة والذي أكد في بورودينو، رغم ما أكده جنرالاته كلهم أن المعركة قد خُسرت، ورغم المثل الأوحد في التاريخ الذي شوهد فيه جيش ظافر يغادر ساحة المعركة مرغماً، إنه هو، وحده ضد الجميع، الذي أكد حتى الموت أن معركة بورودينو كانت نصراً. إنه وحده الذي ألح طوال تقهقر الفرنسيين على وجوب تجنب القتال الذي أصبح عقيماً منذ أن بدأ التقهقر، كي لا تبدأ حرب جديدة وكي لا يوغل في ما وراء الحدود الروسية.

من السهل اليوم إدراك معنى الحدث إذا أردنا أن نترك جانباً تلك الكتلة من الأهداف التي كانت تملأ رأس حفنة من الرجال لأن الحدث في كليته وبكل نتائجه، يتضح أمام أعيننا. ولكن كيف استطاع ذلك العجوز، الوحيد ضد الجميع، أن يفرق منذ البداية وبمثل هذه الدقة المتناهية غاية الشعور الشعبي في ذلك الحدث، تلك الغاية التي لم يتنح عنها مرة واحدة طوال فترة نشاطه كلها؟

لكن كان مصدر ذلك التفهم الخارق لمعاني الوقائع الجارية، هو ذلك الشعور الشعبي الذي كان يحمله في نفسه على غاية النقاء وفي كل قوته.

ولمعرفة الشعب بهذا الإحساس في نفسه، انتخبه الشعب بوسائله الغريبة، وهذا العجوز المغضوب عليه، ضد رغبة القيصر، ليجعل منه مثلاً للحرب الشعبية. إن هذا الإحساس وحده هو الذي سما به إلى الدرجة

القصوى من الرفعة الإنسانية التي كان القائد الأعلى يدير من أعلاها كل قواه، لا ليقتل الرجال ويبيدهم، بل لينقذهم ويحفظ حيواتهم.

وهذه الصورة البسيطة المتواضعة، وبالتالي العظيمة، ما كان يمكن أن تنطبع في قالب البطل الأوروبي الكاذب، زُعم أنه مسير الشعوب كما تصوَّره التاريخ.

ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك رجل عظيم بالنسبة إلى الوصيف لأن للوصيف طريقته الخاصة به في تفهم العظمة.

الفصل السادس

كان اليوم الأول للمعركة المسماة بمعركة كراسنوييه هو الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر. وبعد عدّة مناقشات، حوالى المساء، وبعد تحركات خاطئة من لدن الجنرالات الذين لم يقودوا الجيوش إلى حيث كان يجب أن تكون، وبعد إرسال المساعدين العسكريين إلى مختلف الجهات وهم يحملون الأوامر المناقضة، وبعد أن أصبح واضحاً أن العدو يهرب من كل الجهات وأن أية معركة لن تقع كما لا يمكن أن تقع، غادر كوتوزوف كراسنوييه ومضى إلى دوبروواييه حيث نقل مركز القيادة العامة خلال النهار.

كان النهار قارساً وكوتوزوف، ترافقه حاشية ضخمة من الجنرالات النافرين منه المتهامسين وراء ظهره، يتجه نحو دوبراييه على متن جواده الأبيض وعلى طول الطريق، كانت الفرق الفرنسية التي أسرت خلال النهار، محتشدة متراصة وعددها يناهز السبعة آلاف جندي تقريباً، تطلب الدفء حول نيران مشبوبة. وبالقرب من دوبروواييه، كان حشد كبير من الأسرى في ثياب خلقة، التفّوا واتشحوا بأول ما وقعت عليه أيديهم من الأسمال البالية، يتناقشون بلغط، واقفين على الطريق، إلى جانب رتل طويل من المدافع الفرنسية المحلولة، فلما اقترب الجنرال القائد الأعلى، هدأت الأصوات وشخصت الأنظار كلها إلى كوتوزوف في قلنسوته البيضاء ذات الحافة الحمراء، المتدثر بمعطفه الضخم المبطن المرفوع باحديداب فوق كتفيه المقوستين، وهو يتقدم ببطء على جواده وقد راح أحد الجنرالات يشرح له مصدر المدافع والأسرى.

وكان كوتوزوف بادي الاستغراق حتى لكأنه لا يسمع أقوال الجنرال. كان يرف بعينه بامتعاض وينظر إلى أشباح الأسرى بثبات متيقظ وهم في مظهرهم المتفرد في الإيلام. كان معظمهم مشوَّهين بوجناتهم وأنوفهم المتجمدة وعيونهم جميعاً تقريباً كانت حمراء منتفخة ومتقيحة.

وفي زمرة من الفرنسيين الواقفين إلى جانب الطريق، وعلى مقربة، كان جنديان، أحدهما تغطي البثور وجهه، يمزقان بأيديهما قطعة من اللحم النيئ. وكان في النظرة المختلسة التي ألقياها على الجنرالات وفي التعبير الحقود الذي دل عليه الجندي ذو البثور حينما أشاح برأسه عن كوتوزوف بعد أن تأمله ملياً واستمر في عمله، شيء من الهول والحيوانية.

تأمل كوتوزوف طويلاً وبانتباه هذين الجنديين فتقعر وجهه المتغضن أكثر من ذي قبل وطرفت عينه وهز رأسه ساهماً. وفي مكان آخر، لاحظ جندياً روسياً كان يضحك وهو يربت كتف أحد الفرنسيين، ويقول له شيئاً ما بمودة، فبدت تلك الأمارات الساهمة على وجه كوتوزوف مجدداً وهز رأسه أيضاً.

سأل الجنرال الذي كان لا يزال يدلي بتقريره محاولاً أن يجتذب انتباه القائد الأعلى إلى الرايات الفرنسية التي أُسرت كذلك والتي نصبوها على مقدمة فيلق بريوبراجنسكي: ماذا تقول؟ آه الأعلام.

ولقد نطق بهذه الكلمة وهو ينتزع نفسه بجهد ظاهر من موضوع انشغاله الداخلي.

ألقى حوله نظرة ساهمة. كانت ألوف العيون من حوله شاخصة إليه بانتظار ما سيقوله.

توقف أمام فيلق بريوبراجنسكي ثم أطلق تنهّدةً عميقة وأغمض عينيه. وقام أحد مرافقيه بحركة يستقدم بها حملة الأعلام حول الجنرال القائد الأعلى. وبعد بضع ثوان، رفع كوتوزوف رأسه وراح يتكلم، مغتصباً أقواله

بشكل ملحوظ تماشياً مع متطلبات الموقف. فأحاط به حشد من الضباط أخذ يجول بأنظار دائرتهم وتعرّف إلى بعضهم.

صاح وهو يخاطب الجنود أولاً ثم الضباط:

ـ أشكركم جميعاً! ـ ولقد برزت كلمة من كلماته بوضوح كامل في ذلك الصمت الذي ران، أشكركم جميعاً على خدمتكم الشاقة المخلصة. إن النصر تام وروسيا لن تنساكم. المجد لكم إلى الأبد!

وسكت وهو ينظر حوله ثم قال لجندي كان يحمل نسراً فرنسياً خفضه دون قصد أمام راية فيلق بريوبراجنسكي:

ـ اخفض رأسه، أكثر انخفاضاً، أكثر، هكذا! هكذا!

وصاح بالجنود وقد ارتجت ذقنه بحركة مفاجئة:

ـ هورّا، أيها الأولاد!

فزمجرت ألوف الأصوات:

ـ هور ـ را ـ ا ـ ا!

ولقد أطرق كوتوزوف طوال الوقت الذي استمر الجنود خلاله يزمجرون، وهو منحن فوق سرجه، وفي عينه الوحيدة وميض لذيذ يقارب المكر. ولما هدأت الأصوات قال: وهذا كل ما هناك أيها الإخوان!

وفجأة غيَّر تعابير وجهه وطبقة صوته: لقد تكلَّم القائد الأعلى والآن، أزف دور عجوز بسيط جداً يريد أن ينهي إلى رفاقه شيئاً ما مهماً.

ارتفعت في الصفوف بين الجنود وبين الضباط حركة تدل على رغبة هؤلاء في الإصغاء إلى ما سيقوله بشكل أفضل:

ـ وهذا كل ما هناك أيها الإخوان! إنني أعرف أن هذا قاس عليكم. ولكن ما العمل! اصبروا، سنبلغ الغاية قريباً. سوف نستريح بعد أن نودِّع ضيوفنا. أما ثمن خدماتكم. فإن القيصر لن ينساكم. هذا قاس. لكنكم رغم ذلك في

وطنكم، أما هو، وأشار إلى الأسرى ـ إنكم ترون إلى أي حال وصلوا ـ لقد أصبحوا أسوأ من أسوأ المتسولين! لم نكن نشفق حتى على أنفسنا ما زالوا أقوياء. أما الآن، فيجب أن نشفق عليهم أيضاً. إنهم بشر كذلك، أليس كذلك يا أولاد؟

ونظر حوله مرة أخرى، فقرأ في العيون المتيقظة الخاشعة المتسائلة الشاخصة إليه الانفعال الذي أيقظته كلماته في النفوس. فازداد وجهه إشراقاً بابتسامته العجوز الطيبة التي رسمت نجوماً من التغضنات عند زاوية شفتيه وعينيه. سكت ثم أطرق برأسه وكأنه حيران.

وفجأة صرخ وهو يرفع رأسه: ولكن، من الذي دعاهم إلى المجيء إلينا؟ إنهم يستحقون ما نالهم، يا للألف لعنة!

ثم همز جواده وانطلق مسرعاً لأول مرة خلال الحملة، وسط عاصفة من الضحك البهيج والهتافات المدوية المنطلقة من حناجر الجنود الذين تفرقت صفوفهم.

لم يفهم الجنود الكلمات التي تفوّه بها كوتوزوف كلها. وما من أحد كان يستطيع ترديد فحوى خطاب أصبح هذا الذي بدأ جليلاً ثم أصبح عند نهايته بسيطاً وأبوياً. لكنهم أدركوا معناه العميق، ذلك الشعور من العظمة المتحدة مع الشفقة على العدو ومع تفهم الحق الصريح الذي أبرزته الكلمة الأليفة التي فاه بها العجوز. ذلك الشعور المقيم في قلب كل جندي، والذي عبرت عنه الهتافات التي استمرت طويلاً قبل أن تصمت. ولما جاء أحد الجنرالات بعد ذلك يسأل كوتوزوف عم إذا كان يجب استقدام عربته، صعدت إلى حنجرة هذا شهقة وهو يجيبه، شهقة مفاجئة دلت على تأثره العنيف.

الفصل السابع

كان الليل قد هبط لما عاد الجنود إلى معسكراتهم، في الثامن من تشرين الثان/ نوفمبر اليوم الأخير لمعركة كراسنوييه. ولقد كان النهار هادئاً، مجمداً، تخلله تساقط الثلوج من حين إلى آخر. لكنه حوالى المساء صحا الجو، فكانت السماء السوداء المائلة إلى اللون البنفسجي، تُرى خلال جوالح الثلج بنجومها المتوهجة وازداد البرد شدة.

وصل فيلق من الرماة كان عدده ثلاثة آلاف رجل لدى خروجه من معركة بورودينو فبلغ عدده الآن تسعمائة رجل فحسب، إلى المكان المحدد لقضاء الليل، في عداد الفرق التي وصلت إلى أماكنها قبل سواها، إلى قرية تقوم على جانب الطريق العام. فجاء بعض رواد الجيش للقائد وشرحوا للرماة أن الأكواخ الخشبية مشغولة كلها بالمرضى والموتى من الفرنسيين، والجنود الفرسان والقيادة العسكرية وأنه لم يبق إلا كوخ واحد لقائد الفيلق.

ذهب القائد إلى كوخه. أما الفيلق، فقد دخل القرية. ولما بلغ نهاية البيوت، أقام جماعات حول الطريق.

لم يلبث الفيلق أن انصرف إلى العمل أشبه بحيوان هائل ذي أطراف عديدة، بدأ يبني غرفة ويعد معاشه اليومي، فأسرع عدد من الجنود والثلج يغمرهم إلى ما فوق ركبهم، يتبعثرون في غابة سندر كانت إلى يمين القرية، فلم تلبث جلبة الفؤوس أن ارتفعت وأصوات الزناد والأغصان المهشمة والأصوات البهيجة. ومضى قسم آخر يعمل حول عربات النقل التابعة للفرقة

والجياد المجمعة كالقطيع فأعدّوا القدور والبسكويت وقدموا العلف للجياد. وانتشر آخرون في القرية لينظموا إسكان قيادة الفرقة، فأجلوا جثث الفرنسيين عن الأكواخ واستولوا على الألواح الخشبية والحطب الجاف والقش الذي يغطي السقوف لإيقاد النيران، وعلى الحواجز الخشبية لبناء الملاجئ.

وراح حوالى خمسة عشر منهم وراء الأكواخ عند طرف القرية يزعزعون، وهم يطلقون صرخات مرحبة، حاجز رواق كبير انتزع سقفه من قبل. كانوا يهتفون: هيا، هيا، معاً، لندفع دفعة قوية!

وفي عتمة الليل، شوهد جانب كبير من الحاجز المغطى بالثلج يترنح في جلبة الجليد الذي يتحطم. وفرقعت الأوتاد السفلية وأخذت تميل ولم يلبث الحاجز كله أن انهار والجنود فوقه. وأفلتت شتائم لاذعة من الأفواه وارتفعت قهقهات.

ـ انتظموا اثنين اثنين! عتلة من هنا! هكذا! أين تحشر نفسك؟

ـ هيا، معاً، كلنا!.. انتبهوا!.. بانسجام!

وساد الصمت وراح صوت لطيف رخيم يغني وفي نهاية المقطع الثالث، عندما بدأ آخر نغم يخبو، انطلقت أصوات عشرين رجلاً مجتمعة: «هو ـ و و! لقد لان! معاً! ميلوا عليه يا أولاد!» وعلى الرغم من تلك الدفعة المركزة، لم يتزحزح الحاجز وارتفع في الصمت الذي أعقب ذلك لهاث الرجال الثقيل.

ـ هيه. أنتم، يا جنود السادسة! يا للشياطين ساعدونا.. سوف نرد المساعدة لكم!

وكان عشرون رجلاً تقريباً من السرية السادسة يمرون حينذاك في طريقهم إلى القرية، فانضموا إليهم وراحوا يدفعون معهم، فراح الحاجز، وطوله يزيد على العشرة أمتار وعرضه على المترين، وقد ارتكز ملتوياً على أكتاف الجنود

اللاهثين الذين كان يسحقهم بثقله ويقطع أنفاسهم، يترنح على طول شارع القرية.

هيا، تقدم يا... إنك تتعثر أيها الحيوان... لماذا تتوقف... هيا، اصمد!

واستمرت الشتائم اللاذعة المرحة لا تنقطع، وفجأة زمجر صوت صف ضابط آمر أسرع صاحبه نحو الحمالين:

ـ ماذا تفعلون؟ إن الرؤساء هنا وفي الكوخ «جننار» يا لطغمة الصعاليك يا هؤلاء! سوف أساعدكم!

وأحكم على ظهر أول جندي وصلت إليه يده دفعة قوة واستأنف:

ـ أما كنتم تستطيعون إثارة أقل من هذه الضجة؟

سكت الجنود بينما راح الذي تلقى الضربة من صف الضابط يمسح وجهه المغطى بالدم الذي جرح إذ اصطدم بالحاجر، وهو يزمجر مغمغماً وقال بلهجة وجلة عندما ابتعد صف الضابط:

ـ آه! الحيوان. يا للضربة التي أصابني بها! آه إن «بوزي» كله مطلخ بالدم.

فقال صوت ساخر: إنك لا تحب ذلك، هه؟

لكن الجنود استمروا في طريقهم بعد أن خفضوا من هتافاتهم.

وعندما خرجوا من القرية، عادوا يتحدثون بصخب ويطلقون السباب بكل مناسبة ودون سبب.

وفي الكوخ الذي مرّ الجنود أمامه، كانت تجتمع القيادة العليا، يشرب أعضاؤها الشاي ويتناقشون بحمية حول أحداث النهار والتحركات المقررة لليوم التالي. لقد عُرض القيام بمشية جناح على الجانب الأيسر لقطع فرقة نائب الملك وأسره.

ولما جاء الجنود بالحاجز المحطم، كانت نيران المطاهي المتنقلة مستعرة في كل مكان والخشب يفرقع والثلج يذوب وأطياف الجنود السوداء

تروح وتجيء على طول المساحة التي يشغلونها، المغطاة بالثلج الذي وطئته الأقدام.

كانت الفؤوس والزنود تعمل بنشاط. وراح كلٌ يعمل دون أن ينتظر صدور الأمر إليه. جاؤوا بالحطب لإذكاء نار الليل وأخذوا يهيئون الأكواخ للرؤساء ويطهون الطعام في القدور وينظفون الأسلحة والتجهيزات.

أقيم الحاجز الذي جاء به رجال السرية الثامنة، على شكل نصف دائرة من جهة الشمال ودُعم بالإسناد ثم أوقدت نار المعسكر أمامه. ثم نفخ في البوق إيذاناً بالاستراحة وأجري التفقد وأكل الجميع ثم اتخذوا أماكنهم أمام النار لقضاء الليل، هذا يرفع حذاءه وذاك يدخن غليونه وثالث يخلع ملابسه بحثاً عن «قملاته».

الفصل الثامن

في تلك الشروط الفظيعة التي يستحيل تصور قسوتها التي كان الجندي الروسي يعاني منها وهو محروم من الأحذية وجلود الغنم، كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي يفتقر إلى سقف فوق رأسه في درجة حرارة بلغت ١٨ تحت الصفر، بل دون جرايته الكاملة، لأن الأرزاق لم تكن دائماً تتبع الفرق في تنقلاتها، كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي يبرز مظهراً مدعاة للإشفاق والأسى.

على العكس: إن الجيش، حتى في الظروف المادية الأكثر مواتاة، لم يعطِ مشهداً أكثر بهجة وحمية. ذلك أنه مع الوقت، كان من يفقد شجاعته أو تخور قواه، ينشق عن الجيش. أي إن العناصر الضعيفة مادياً ومعنوياً، أصبحت منذ مدة طويلة في المؤخرة: فلم يبقَ إلا زهرة الجيش، القوة الروحية والجسدية.

كانت السرية الثامنة التي يحميها الحاجز، تضم عدداً كبيراً من الجنود، انضم إليهم رقيبان لأن النيران في السرية كانت أشد استعاراً من النيران الأخرى. كان أولئك الجنود يشترطون للجلوس حول النار، الإتيان بالحطب ليحق لمن يأتي به الاصطلاء.

صاح جندي أمغر متورد الوجه كانت عيناه تطرفان جراء الدخان دون أن يبتعد عن النار:

ـ هيه، ياماكييف،. أين أنت؟... هل ضعت أم هل افترستك الذئاب؟ جئ بحطب.

وصاح آمراً جندياً آخر: هيا، تحرك، يا مصير الخنزير جئ بحطب.

لم يكن الأمغر رقيباً حتى ولا عريفاً. لقد كان جندياً قوياً يستغل قوته ليتحكم في من هم أضعف منه، نهض الجندي الصغير النحيل ذو الأنف المدبب الذي وصف بمصير الخنزير، واستعد بدعة للخضوع للأمر الصادر. ولكن في تلك اللحظة بالذات، ظهر على ضوء اللهب، شبح ضامر لجندي شاب محمل بالحطب.

ـ هاته إلى هنا، عال!

وكسر الحطب وحُول إلى قطع صغيرة، ثم أضرمت النار وهم ينفخون فيها ويحركون ذيول المعاطف ولم يلبث اللهيب أن ارتفع مفرقعاً. اقترب الجنود وأشعلوا غلايينهم وراح الجندي الشاب الجميل الذي جاء بالحطب، يضرب الأرض بنعليه بشدة وحذق وقد وضع قبضتيه على وسطه، بغية بعث الدفء في قدميه المتجمدتين. ثم بدأ يغني وهو يتوقف لدى كل كلمة. والمعروف أن ضرب الأقدام على طريقة الرقص الشعبي يشفع دائماً بأغنية:

ـ آه! يا أمي الحبيبة، الندى بارد وجميل وحامل البندقية...

صرخ الأمغر وقد لاحظ أن نعلي الراقص تالفان: هيه، إن نعليك «طائران»! يا له من سم، هذا الرقص!

توقف الراقص وانتزع قطعة الجلد السائبة وألقاها في النار وقال وهو يجلس: إيه نعم!

وأخرج من حقيبته قطعة من القماش الأزرق الفرنسي، لف قدمه بها وأضاف وهو يمد ساقيه نحو النار: إن الحرارة تخدرهما.

ـ سوف يسلموننا أحذية جديدة بعد حين. يقولون إنه عندما تنتهي الأمور ستدفع لنا أجورنا مضاعفة.

قال واحد من الرقيبين:

ـ قل لي، هذا الكلب بيتروف، لقد تخلف في الطريق.

فأجاب الآخر: كنت أشك في ذلك منذ وقت طويل.

ـ ماذا تريد «شقفة» جندي كهذا..

ـ يقولون إن تسعة جنود تخلفوا عن تفقد الأمس في السرية التاسعة.

ـ ولكن تعقل قليلاً. كيف يمكن متابعة المسير عندما تتجلد الأقدام؟

فصاح صف الضابط: آيه! يا للخرافة!

فقال جندي عجوز بلهجة عتاب مخاطباً ذاك الذي تحدث عن الأقدام المتجمدة.

ـ هل بك رغبة في تذوق ذلك؟

سأل وهو يقف من الجانب الآخر من النار، الجندي ذو الأنف المدبب الذي وصف بأنه مصير خنزير: ماذا تريد أن تقول؟

ثم أضاف بصوت حاد مرتجف:

ـ مهما كان المرء سميناً، فإنه ينحل. والهزال معناه الموت.

وأكد فجأة بلهجة حازمة مخاطباً واحداً من الرقيبين: خذ مثلاً أنا، إنني فقدت قواي، فاعمل على إدخالي المستشفى لأنني أشعر بأن أوصالي كلها منعقدة. وإلا فإنني لن أستطيع المثابرة على اتباع الصفوف.

فرد الضابط بهدوء: هيا، لا تنطق بهذه الغباوات.

فسكت الجندي الصغير وعاد الحديث، فقال جندي راغب في إثارة موضوع جديد للنقاش:

ـ لم نأخذ اليوم شيئاً قليلاً من أولئك الفرنسيين. أما فيما يتعلق بالأحذية، فإن ما من واحد منهم كان يملك زوجاً حقيقياً منها يمكن القول إنها ليست أحذية إلا بالإسم.

ـ إن القوقازيين هم الذين يأخذونها منهم دائماً. لقد نظفوا المسكن من

أجل الزعيم وحملوا الجثث إلى الخارج. وفتشوها وقلبوها حتى أن ذلك كان يدعو إلى الشفقة.

وأضاف المتكلم، وهو الجندي الذي كان يرقص: كان بينهم واحد لا يزال على قيد الحياة، لو تصدق، وكان يغمغم شيئاً ما بلغته.

فاستأنف الأول:

ـ ثم إنهم أشخاص نظيفون أيها الأولاد. إنهم بيض، بيض كالسندر، ثم إن بينهم بواسل ونبلاء أيضاً! لو علمت!

ـ ما كنت تعتقد إذن؟ إنهم يجندون في بلدهم من كل الفئات.

فقال الراقص بابتسامة دهشة: ثم إنهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الروسية. سألت أحدهم: «إلى أي تاج تنتمي؟» فدمدم بما لست أدري ماذا. يا للشعب المضحك!

واسترسل الذي أظهر دهشته للون الفرنسيين الأبيض:

ـ ثم إن فيهم شيئاً غريباً أيها الإخوان. هل تعرفون ماذا قال القرويون الذين جمعوا جثث الأموات في موجاييسك؟ لاحظوا أن جثثهم كانت هناك منذ شهر. حسناً، لقد قالوا إنهم كانوا ممددين ولونهم أبيض كالورق، نظيف تماماً دون أدنى رائحة.

فرد جندي: لا شك أن ذلك مبعثه البرد. أليس كذلك؟

ـ يا للماكر! بسبب البرد! لكن الطقس كان دافئاً. فلو أنهم تجمدوا لوجب ألّا تتفسخ جثث رجالنا أيضاً. مع ذلك، فقد بدا أنهم ما إن يجمعوا واحداً حتى يروا أنه كتلة من الديدان. فكان يجب لف الفم بمنديل والإشاحة بالوجه وهم يحملونهم: مع ذلك كانوا لا يحتملون. بينما هم، لا شيء كالورق الأبيض دون أية رائحة.

سكتوا جميعاً برهة. فقال واحد من الرقيبين:

ـ لا شك أن ذلك ناشئ عن الطعام. إنهم يأكلون كالسادة.

فلم يعترض أحد.

ـ لقد روى ذلك القروي من موجاييسك حيث دارت المعركة، أنهم حملوا الجثث من عشر قرى طوال عشرين يوماً دون أن يستطيعوا نقلها كلها. وقال إنه كانت هناك جموع من الذئاب..

فأكد جندي عجوز: كانت هذه معركة حقيقية، فيها ما يحمل المرء ذكراه. أما ما دار منذ ذلك الحين.. فإنه عبارة عن ألم العالم الفقير.

ـ قل لي يا جدّي، لقد تبعوهم أمس الأول، لكن لم يتسن لهم الوقت للاقتراب منهم. كانوا قد ألقوا بأسلحتهم. وها هم أولاء على ركبهم ينشدون المغفرة. إنهم جيش في المظهر فحسب، يقولون إن پلاتوف قد أمسك مرتين بـ: «پوليون» نفسه، لكنه لم يكن يعرف كلمة السر. لقد أمسك به هكذا في يده، فتحول «پوليون» إلى عصفور ثم طار وطار. ثم إنه لا يمكن قتله كذلك.

ـ أنت، كيسليف، أراك تقصد أمراً. إنك لا تصلح إلا لرواية الأكاذيب.

ـ كيف أكاذيب؟ إنها الحقيقة الحقة.

ـ وأنا، لو أنني أمسكت به، عندما أمسكه بيدي، سأدفنه حياً. ثم سأضربه بعصا من الحور، ذلك لأنه سبب قتل كثير من الناس، الوتد من الحور يستعمل في ضرب الأرواح الشريرة أو السحرة لمنعهم من إيذاء الناس. وقد جرت العادة على دفنهم مع وتد من الحور لمنعهم من العودة بعد الموت إلى هذا العالم.

فأكد الجندي العجوز وهو يتثاءب: لا بأس، إنه لن يفلت دائماً. سوف نبلغ النهاية.

وهدأ النقاش واستعد الجنود للنوم. صاح جندي كان يتأمل السماء:

ـ انظر «لي» إلى هذه النجوم، إنها رائعة لا شك في ذلك! هه هذه النساء اللواتي نشرن غسيلهن!

ـ هذا أيها الفتيان، دليل سنة خير.

ـ لا بدَّ من إضافة كمية أخرى من الحطب.

ـ إن ظهرنا يحترق وبطننا متجلد، وهذا هو المزعج.

ـ أوه! يا إلهي!

ـ ما بك أيضاً تدفع، يا أنت؟.. هل النار لك وحدك؟ أنظر كيف يتمدد هذا!

وفي الصمت الذي خيم، سمع شخير بعض النائمين بينما استمر الآخرون يتقلبون ويتقلبون طلباً للدفء ويتبادلون من حين إلى آخر كلمة. ومن معسكر قائم على مسافة حوالى مائة خطوة، كانت ضحكة مرحة تبلغ الأسماع على دفعات فقال أحد الجنود:

ـ هيه، إنهم يمزحون في الخامسة، ثم يا لكثرة الناس، هذا يثير الفضول!

ونهض ومضى يستطلع ما في السرية الخامسة وقال بعد أن رجع:

ـ ليس هناك ما يضحك. هناك فرنسيان جاءا، أحدهما متجمد تماماً بينما الآخر غير متأثر، الرجل! إنه ينشد الأناشيد.

ـ غير ممكن! هيا بنا إليهما؟

ومضى بعض الجنود بدورهم نحو معسكر السرية الخامسة.

الفصل التاسع

عند تخوم الغابة عسكرت السريّة الخامسة. وشبت نار هائلة، على الثلج، أخذت تضيء أغصان الشجر المثقلة بالجليد.

وفي أعماق الليل، سمع جنود السرية الخامسة في عمق الغابة وقع خطى على الثلج وتحطم أغصان جافة. صاح أحد الجنود:

ـ أوه! أيها الفتيان، دب!

رفعوا جميعهم رؤوسهم ليصغوا، فشاهدوا على ضوء النار، شكلين آدميين خارجين من الغابة، في لباس غريب، يسند أحدهما الآخر.

كانا فرنسيين اختبآ في الغابة. اقتربا من النار وهما يلفظان بصوت أجش كلمات بلغة غير مفهومة من الجنود. كان أحدهما طويل القامة يضع على رأسه عمرة ضابط ويبدو شديد الضعف. فلما وصل قرب النار، أراد أن يجلس، لكنه هوى على الأرض. أما الآخر، فكان جندياً قصير القامة، ربعة، يبدو أكثر قوة من زميله، يغطي رأسه بمنديل. أنهض رفيقه وقال شيئاً وهو يدل على فمه. أحاط الجنود بالفرنسيين ومددوا المريض على معطف وجاؤوا لهما بحساء الحنطة السوداء والفودكا.

كان الضابط المريض هو رامبال أما الرجل ذو المنديل المعقود، فموريل.

بعد أن شرب موريل قدح الفودكا، وابتلع ملء قصعة من الحساء، استبد به مرح محموم وبدأ يتحدث دون توقف إلى الجنود الذين ما كانوا يفهمونه. أما رامبال، فقد رفض أن يأكل وبقي متمدداً قرب النار مستنداً إلى مرفقه،

يتأمل الجنود الروس بعينيه المحمرتين الخاليتين من النظر. ومن حين إلى آخر كان يطلق زفرة حرى ثم ينطوي في صمته. ولقد أشار موريل إلى شارات كتفي رامبال محاولاً إفهام الجنود بأنه ضابط يجب تدفئته. ولقد أرسل ضابط روسي اقترب من النار، إلى الزعيم يسأله ما إذا كان يوافق على قبول ضابط فرنسي لديه. وعندما رجع الرسول يعلن سماح الزعيم بحمل الضابط إليه، أشاروا إلى رامبال بالذهاب إلى هناك. فنهض وأراد أن يسير. لكنه كاد يسقط لو لم يبادر الجندي الذي كان إلى جانبه إلى إسناده.

قال الجندي لرامبال وهو يطرف بعينه ساخراً:

ـ هه، ماذا؟ لن تعود إلى مثلها؟

فصاح الجنود من كل صوب وقد أحنقتهم هذه الدعابة:

هه، أيه الأحمق! ماذا تنهق! أيها المنحط، نعم منحط!

أحاطوا برامبال فحمله جنديان على أذرعهما المعقودة ومضيا به إلى داخل الكوخ. وكان رامبال وذراعه حول عنق حامليه يقول بصوت شاك:

ـ أوه! أيها البواسل، أيها الطيبون، يا أصدقائي الطيبين! ها هم أولاء رجال! أوه! أيها البواسل، يا أصدقائي الطيبين!

وأسلم رأسه كالطفل على كتف أحدهما.

خلال ذلك، كان موريل قد جلس في أفضل مكان وحوله الجنود.

كان موريل، فرنسياً قصير القامة، ربعة، أحمر العينين دامعهما، يعقد منديله كالقرويات العجائز فوق عمرته ويضع «فروة» نسائية قبيحة الشكل. كان موريل ثملاً بشكل واضح، يحيط عنق الجندي الجالس إلى جانبه بذراعه ويغني بصوت متهدج أغنية من بلده. أما الجنود، فكانوا يمسكون بأضلاعهم وهم يتأملونه.

صاح الذي كان موريل يحيط عنقه بذراعه، وهو محب للمزاح والغناء: هيا، هيا، علمنا هذه الأغنية، هه سوف أحفظ اللحن بسرعة.

ـ كيف هو؟..

أخذ موريل يغني وهو يخزر عينيه:

ـ يحيا هنري الرابع، يحيا هذا الملك المقدام، هذا الشيطان على أربع..

راح الجندي يردد وهو يلوح بيديه:

ـ ڤيڤاريكا! ڤيف سييروڤارو! سيد يابلاكا...

والواقع أنه حفظ اللحن بشكل لا بأس به. فراح رفاقه يهتفون من حوله ويشفعون هتافهم بقهقهات مدوية:

ـ يا للبراعة، هو، هو، هو!

فكان موريل يقهقه بدوره وهو يصعر وجهه.

ـ هيا، استمر!

الذي له الموهبة المثلثة.

موهبة الشرب والقتال.

وأن يكون مغازلاً كيساً...

ـ آه! إن لهذا وقعاً جميلاً! هيا، دورك يا زاليتاييف!..

فراح زاليتاييف يردد بجد ومجهود وقد أبرز شفتيه:

ـ كيو، كيو، كيو... ليبتر لا دبي بوديي باديبترا فاغالا.

ـ مرحى! رائع! مثل الإفرنسي تماماً! حسناً! ها! ها! ها! قل يا هذا، أما زلت جائعاً؟

ـ أعطوه حساء القمح الأسود، إنه لا يشبع بمثل هذه السرعة.

قدموا له الحساء مجدداً. فراح موريل يلتهم ملء إنائه الثالث وهو يضحك. كانت وجوه الجنود الشبان كلهم مشرقة لرؤية هذا الفرنسي. أما

المسنون الذين كانوا يجدون أن الاهتمام بمثل هذه الترهات غير جدير بهم، فقد لبثوا متمددين إلى الجانب الآخر من النار، يتناحرون بين الحين والآخر بالمرافق ليتأملوا موريل وهم يبتسمون.

قال أحدهم وهو يتدثر بردائه:

ـ إنهم بشر مثلنا. إن نبات الأفسنتين ينبت هو الآخر على جذوره. نبات الأفسنتين يعتبر في نظر القرويين الروس نبتة سيئة.

ـ أوه! يا إلهي! يا لكثرة النجوم! سوف يعقب ذلك الحمد!...

وسكت كل شيء وكأن النجوم كانت تعرف أنه لم يبق هناك من ينظر إليها فراحت تستعيد مرحها وحركتها في السماء. كانت تارة براقة وأخرى منطفئة وتارة ملتمعة، تبدو كأنها تتهامس فيما بينها بشيء بهيج غامض.

الفصل العاشر

وفقاً لحساب صارم استمرت القطعات الفرنسية في ذوبانها المنتظم. حتى ذلك المرور في پيريزينا الذي كتبوا حوله أقوالاً كثيرة، فإنه بدلاً من أن يكون حادثاً لاحقاً حاسماً في الحملة، لم يكن إلا خطوة أخرى في عملية تحطيم الجيش الفرنسي. وإذا كانوا كثيراً ما كتبوا وما زالوا يكتبون عن پيريزينا من جانب الفرنسيين، فإن مبعث ذلك أن النوائب التي أصابت الجيش الفرنسي والتي كانت من قبل متشابهة كلها، احتشدت فجأة هنا، حول ذلك الجسر المنهار، في مشهد «تراجيدي»، أعد بإتقان ليبقى عالقاً في الأذهان.

ومن الجانب الروسي، إذا كتبوا كثيراً وما زالوا يكتبون حول پيريزينا، فإن سبب ذلك أنهم في پيترسبورغ، بعيداً عن ساحة المعركة، كانوا أعدوا خطة هي خطة «پفوهل» التي ترى في ذلك النهر، نافورة «استراتيجية» سيغرق فيها ناپليون. وكان كل شخص هناك واثقاً بأن كل شيء سيجري في الواقع تبعاً لتلك الخطة. لذلك راحوا يتهافتون على التأكيد بأن عبور پيريزينا هو سبب ضياع الجيش الفرنسي على وجه الدقة. وفي الحقيقة، فإن نتائج هذا العبور كانت أقل تخريباً لهم من خسائرهم بالرجال والمدافع في كراسنوييه، والأرقام تدل على صحة ذلك.

ليس للعبور في پيريزينا غير معنى واحد، لقد أعطى الدليل الواضح الذي لا يقبل الشك على خطأ كل الخطط الرامية إلى قطع العدو وعلى صحة السلوك الوحيد الممكن، ذلك الذي كان كوتوزوف يطالب به قطعاته كلها

والذي يقوم على أساس تعقب العدو فحسب. كان فرار الفرنسيين يتمّ بسرعة متزايدة تنشطه حيويتهم الرامية إلى هذا الهدف وحده. كانت حشودهم تفر كالحيوان الجريح، فكان يستحيل عليها الوقوف في الطريق. ولقد دلل على ذلك عبور بيريزينا نفسه فوق الجسور أكثر مما دلل عليه تنظيم العبور. فعندما تحطمت الجسور، استمروا جميعهم: الجنود المجردون من الأسلحة، سكان موسكو، النساء والأطفال الذين كانوا في رحال الفرنسيين، استمروا كلهم، وقد استولت عليهم قوة المقاومة السلبية، بدلاً من الاستسلام، في الهروب إلى الأمام، في زوارق أو في المياه المتجمدة.

وهذا التهافت معقول لأن مركز الفارين ومطارديهم كان سيئاً. ففي البقاء مع بني قومه، كان كل واحد يعتمد على مساعدة زملائه في حالة البؤس، في النطاق المحدود للموقع الذي يشغله بينهم. بينما الاستسلام للروس يعني البقاء في تلك المصيبة إياها، يزيد فيها كونهم آخر من تُوزَّع عليهم الأرزاق. ولم يكن من حاجة لدى الفرنسيين إلى معرفة أن نصف الأسرى الذين يحتفظ بهم الروس دون أن يعرفوا ماذا يصنعون بهم، يموتون برداً وجوعاً رغم رغبة الروس في إنقاذهم ويشعرون بأن الأمور لا يمكن أن تدور على نهج آخر. ما كان أكثر الرؤساء الروس إشفاقاً على الفرنسيين ولا أولئك الذين بهم استعداد خاص للعطف عليهم ولا الفرنسيون العاملون في خدمة الروس، قادرين على مد يد المساعدة للأسرى. فكان ضياع الفرنسيين مرده الخاتمة التي وجد الجيش الروسي نفسه فيها. وما كان يمكن حرمان الجنود المجوعين الذين هم في حاجة إليهم، من الخبز والكساء ليقدموهما هدية إلى الفرنسيين العزل الذين لا يحقدون عليهم، والذين ما كانوا مذنبين، بل كانوا أفواهاً عديمة النفع فحسب. ولقد نهج بعضهم هذا النهج رغم ذلك لكنه كان عملاً استثنائياً.

في المؤخرة، كانت الخسارة المؤكدة، وفي المقدمة، الأمل. ولقد

أحرقوا مراكبهم، فلم يبق من وسيلة للنجاة إلا الفرار المشترك، الجماعي، فكانت قوى الفرنسيين كلها تجنح إلى ذلك الفرار.

وكلما طال أمد التقهقر، أصبح حطامهم أكثر بعثاً للرثاء وخصوصاً اعتباراً من بيريزينا، ذلك أنها، تبعاً للخطة الروسية الموضوعة في بيترسبورغ، خلقت كذلك في نفوس الروس آمالاً خاصة، الأمر الذي نشطت له أهواء القادة الروس الذين كانوا يتبادلون الاتهامات ويتهمون على الخصوص كوتوزوف. كانوا يزعمون أن عدم نجاح خطة بيترسبورغ على بيريزينا يجب أن يعزى إليه فكانت السخريات التي وجهت إليه، والتبرم الذي كان يوحي به والاحتقار الذي يكنونه له، تزداد شدة أكثر فأكثر. ولقد كانت السخريات والاحتقار وهذا واضح يعبر عنها بشكل مفعم بالاحترام حتى أن كوتوزوف نفسه لم يكن يستطيع أن يتساءل بأي شيء ولا لأي شيء يتهمونه. وعندما كانوا يرفعون إليه تقريراً ما ويسألونه أوامره، كانوا يتظاهرون بالقيام باحتفال مأتمي، فيخزرون عيونهم وراء ظهره ويحاولون في كل لحظة جاهدين أن يخدعوه.

كان هؤلاء الناس كلهم، بسبب عجزهم عن فهمه فحسب، مقتنعين بعقم مناقشة هذا العجوز، فيقولون فيما بينهم إنه لا يستطيع أن يدرك خططهم إدراكاً عميقاً وأنه سوف يجيبهم بجملته المألوفة، كانت هذه في نظرهم جملاً ليس إلا، عن الجسر الذهبي واستحالة تخطي الحدود بجيش من الحفاة. ولقد سمعوا هذه النغمة من قبل حتى حلوها. فمثلاً، كان كل ما يقوله كوتوزوف عن ضرورة انتظار الأرزاق وافتقار الرجال إلى الأحذية، كان كل هذا على بساطة طفولية إزاء عروضهم المعقدة العلمية، فهو إذن ولا شك رجل عجوز لا يصلح لشيء. وهم، رجال حرب عباقرة ولكن للأسف عاجزون.

وبعد أن التحق بالجيش الأميرال اللامع ويتغنستن، بطل بيترسبورغ، بلغت هذه الاستعدادات العدائية وضجيج أركان الحرب وجعجعتهم الذروة،

فكان كوتوزوف يشعر بذلك ويكتفي بهز كتفيه وهو يتنهد. ولقد غضب مرة واحدة بعد ﭙيريزينا، فكتب الرسالة التالية إلى بينغسن الذي كان يبعث إلى الأمبراطور بتقارير خاصة.

«نظراً إلى حالتكم الصحية الموقتة، أرجو سعادتكم الذهاب إلى كالوغا فور تلقيكم هذه الكلمة والانتظار هناك، القرار الذي سيتخذ بشأنكم من قبل جلالته الأمبراطورية».

وبنتيجة طرد بينغسن، شاهد الجيش عودة الغراندوق كونستانتان ﭙاڤلوڤيتش، الذي بعد أن نشط في بداية الحملة، أبعد من قبل كوتوزوف. ومنذ أن وصل الغراندوق، أبلغ كوتوزوف استياء الأمبراطور، لأن انتصارات جيوشنا كانت تافهة جداً وحركاتنا بطيئة جداً، وأنهى إليه أن الأمبراطور شخصياً عازم على اللحاق بالجيش.

فأدرك هذا الرجل العجوز الذي كانت لديه خبرة في شؤون البلاد بقدر خبرته بشؤون الحرب، كوتوزوف هذا الذي عين في شهر آب/ أغسطس من العام نفسه قائداً على رغم إرادة ملكية، ذلك الرجل نفسه الذي أبعد عن الجيش وارث العرش، والذي اتخذ من عندياته وضد رغبة الأمبراطور قرار إخلاء موسكو، أدرك هذا الرجل أن زمنه قد انصرم وأن دوره قد انتهى وأن السلطة الشكلية التي في يده لم يعد لها وجود. ثم إنه لم يكن يفهم ذلك كرجل بلاط فحسب. فلقد كان يشعر من جهة أن النشاط العسكري الذي لعب فيه دوره قد أشرف على نهايته وأن مهمته قد أنجزت. ومن جهة أخرى أخذ يحس بالوقت نفسه في جسمه الذي حطمته السنون بتعب يرغمه على انتجاع سبل الراحة.

الفصل الحادي عشر

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، دخل كوتوزوف إلى ڤيلنا مدينته الطيبة حسب قوله. لقد تولى مرتين في حياته العملية ولاية هذه المدينة. كان يستعيد في هذه المدينة الغنية التي بقيت سليمة من كل أذى، إلى جانب الرفاهية التي حرم منها زمناً طويلاً، أصدقاءه القدامى وذكريات قديمة، استغرق فجأة، وقد تخلص من كل شاغل عسكري أو سياسي، في حياة منتظمة هادئة، بقدر ما كانت الأهواء التي تستعر في أعماقه تسمح له، وتظاهر وكأن كل ما كان يجري حينذاك وما كان سيجري في تاريخ العالم، لا يعنيه مطلقاً.

استقبله تشيتشاغوف، وهو الأكثر حماسة بين أولئك الراغبين في قطع العدو وصده، تشيتشاغوف هذا الذي كان بادئ الأمر يريد القيام بحركة لإلهاء العدو في اليونان ثم في ڤرصوڤيا ولكنه يرفض دائماً الذهاب إلى حيث يرسلونه، لتشيتشاغوف هذا الشهير بأجوبته الجريئة للأمبراطور، تشيتشاغوف هذا الذي كان يعتبر كوتوزوف مديناً له لأنه عام ١٨١١، عندما أرسل إلى تركيا لعقد الصلح، وجد أن الصلح قد عقد فعلاً فاعترف أمام الأمبراطور بأن موهبة كوتوزوف هي التي أدت إلى هذه النتيجة، تشيتشاغوف هذا، هو الذي كان أول من استقبله في قصر ڤيلنا، حيث كان يجب أن يحل. سلم تشيتشاغوف وهو في لباس أميرال، والسيف القصير عريض النصل إلى جنبه، والعمرة تحت ذراعه، إلى جانب مفاتيح المدينة، تقريراً عن حالة الحامية إلى كوتوزوف.

وكان الاعتبار المحتقر الذي كان يظهره الشباب لهذا العجوز الذي بات يجنح في نظرهم إلى الطفولة، يظهر في أجلى معانيه في تصرفات تشيتشاغوف الذي كان على علم بالاتهامات الموجهة حتى ذلك الحين إلى كوتوزوف.

قال كوتوزوف لتشيتشاغوف، خلال محادثة معه، في جملة ما قال: إن الجياد والعربات التي سُلبت منه في بوريسوف والتي كانت تحوي آنيته، لم يمسها الأذى وأنها ستعاد إليه.

فأجاب تشيتشاغوف بانفعال:

- إنك تريد بذلك أن تقول إنني لا أملك ما أقدم الطعام فيه.. مع أنني أستطيع على العكس أن أقدم من كل شيء حتى في الحالات التي ترغب فيها أن تقيم الولائم.

وكان يريد بكل كلمة من كلماته أن يثبت بأنه غير مسؤول عن الإخفاق في پيريزينا، وأنه بالتالي يعتقد أن كوتوزوف يحمل في نفسه هذا الشاغل بالذات.

فرد كوتوزوف وقد طافت على شفتيه ابتسامته الدقيقة المؤثرة وهو يهز كتفيه: لم أقل لك ذلك إلا لأقول ما قلت.

أوقف كوتوزوف في ڤيلنا، ضد رغبة الأمبراطور، سير معظم قطعات جيوشه. ولقد ضعف وخار بشكل خارق، كما يزعم المحيطون به، خلال مكوثه في تلك المدينة. كان يهتم مرغماً بشؤون الجيش ويحيل الأعمال كلها إلى جنرالاته، يعيش حياة مفرجة بانتظار وصول الأمبراطور.

ولقد وصل الأمبراطور إلى ڤيلنا في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر بعد أن غادر پيترسبورغ في السابع منه مع حاشيته والكونت تولستوي والأمير ڤولكونسكي وأراكتشييف وآخرين، وذهب مباشرة إلى القصر في زحافة السفر. وأمام القصر، رغم البرد الشديد، كان حوالى مائة جنرال

وضابط أركان حرب ينتظرون في ثياب العرض مع حرس شرف من فيلق سيميونوڤسكي.

وصل الرسول الذي يسبق الأمبراطور بسرعة فائقة على زحافة يجرها ثلاثة جياد يغطيها الزبد وصاح: «إنه يصل!» فاندفع كونوڤنيستلين إلى الدهاليز لإخطار كوتوزوف الذي كان ينتظر في غرفة البواب الصغيرة.

وبعد دقيقة، بدا شبح العجوز الضخم في ثوب العرض تزين الأوسمة صدره ويقطع بطنه وشاح، وتقدم نحو المرقاة بخطى غير ثابتة. وضع كوتوزوف العمرة الملائمة لثوبه وأمسك بقفازين بيده، ونزل الدرجات بصعوبة وهو يمشي متمايلاً فبلغ أسفل السلم حاملاً في يده الطليقة التقرير المعد للملك.

ثار لغط وهمس ومجدداً مرت زحافة كبيرة بأقصى سرعة وانتقلت الأنظار كلها إلى زحافة كانت تقترب، كان شبح الأمبراطور ظاهراً فيها ومعه ڤولكونسكي.

وعلى الرغم من اعتياده تلك المظاهر طوال خمسين عاماً، فإن ذلك أحدث اضطراباً حسياً للجنرال العجوز، فراح يتحسس نفسه بحركة محمومة وأصلح قبعته ثم رفع عينيه إلى الأمبراطور في اللحظة التي كان ينزل من الزحافة واستعاد ثقته فاتخذ وضعية الاستعداد ومد يده بالتقرير وراح يتكلم بصوت متزن مفرط في المجاملة.

شمل الأمبراطور كوتوزوف بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمص قدميه وقطب حاجبيه ثانية لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، ففتح ذراعيه وطوق الجنرال العجوز. ومرة أخرى، أحدثت هذه الضمة في نفس كوتوزوف أثرها المألوف إذ انفجر منتحباً تحت تأثير عادة قديمة مدفوعاً بفكرته الشخصية.

حيا الأمبراطور الضباط والحرس من فيلق سيميونوڤسكي ثم بعد أن شد مرة أخرى على يد العجوز، دخل معه إلى القصر.

ولما انفرد بكوتوزوف، راح الأمبراطور يعرب له عن استيائه لبطء مطاردته وللأخطاء التي ارتكبت في كراسنوييه وپيريزينا وأطلعه على آرائه حول حملة مقبلة في الخارج. فلم يعترض كوتوزوف ولم يقدم أية ملاحظة. كان وجهه يعكس مثل ذلك الخضوع السلبي الذي ظهر عليه قبل سبع سنين، عندما كان يصغي إلى أوامر سيده على ساحة القتال في أوسترليتز.

ولما خرج كوتوزوف بخطاه الثقيلة المترنحة من الغرفة واجتاز القاعة مطرق الرأس، استوقفه صوت أحدهم:

ـ يا صاحب السمو!

رفع كوتوزوف رأسه وحدق طويلاً إلى وجه الكونت تولستوي الذي كان واقفاً أمامه، يقدم له شيئاً على طبق فضي. بدا على كوتوزوف أنه لم يدرك ما يطلبونه إليه.

وفجأة، وكأنه استعاد حواسه، طافت على وجهه المنتفخ ابتسامة لا تكاد ترى، وغالى في الانحناء ثم أخذ ذلك الشيء بمزيد من الاحترام من فوق الطبق الفضي. وكان ذلك الشيء صليب القديس جورج من الدرجة الأولى.

الفصل الثاني عشر

أقام الماريشال حفلة عشاء شرفها الأمبراطور بحضوره، تلتها حفلة راقصة، في اليوم التالي. وقد تلقى كوتوزوف وسام القديس جورج من الدرجة الأولى، وقد أظهر الأمبراطور تجاهه منتهى الاهتمام والالتفات. لكن ما من أحد كان يجهل أن الأمبراطور مستاء من كوتوزوف، وعلى ذلك فإن اللياقة كانت مرعية والأمبراطور نفسه أعطى المثال عليها، لكنهم كانوا يعرفون جميعاً أن العجوز مذنب وأنه لم يعد صالحاً لشيء. خلال الحفلة الراقصة، وتبعاً لتقليد قديم يعود إلى عهد كاترين الثانية، عندما دخل الأمبراطور قاعة الرقص، أمر كوتوزوف على أن تلقى عند قدميه، الأعلام التي غُنمت من العدو، فنطق الأمبراطور ببضع كلمات وهو مقطب حاجبيه تقطيبة عدائية خيل إلى بعضهم أنه جاء فيها «أيها المهرج العجوز!».

ازداد استياء القيصر من كوتوزوف في ڤيلنا أيضاً: لا شك أن العجوز لم يكن يريد ولا يستطيع فهم معنى الحملة المزمع القيام بها.

وفي صبيحة اليوم التالي، قال الأمبراطور للضباط المجتمعين حوله: «إنكم لم تنقذوا روسيا فحسب بل أنقذتم كذلك أوروبا» ففهموا جميعهم حينذاك أن الحرب لم تنته.

لكن كوتوزوف وحده لم يكن يريد فهم ذلك بل كان يدلي برأيه بصراحة حول هذه الحملة الجديدة التي لا يمكن أن تحسن وضع روسيا ولا أن تزيد مجدها بل على العكس، لا تصلح إلا لزيادة الحالة سوءاً وتقليل درجة المجد

الرفيعة التي بلغتها روسيا الآن كما كان يقول. كان يحاول جاهداً أن يبرهن للأمبراطور على استحالة تجنيد قطعات جديدة ويتحدث عن موقف الشعب الصعب وعن إمكانية السقوط في إخفاق إلخ...

كان واضحاً أن كوتوزوف أصبح يمثل هذه الأفكار، وهو أمر مزعج يوقف عجلة الحرب المقدرة.

ولتجنب كل اصطدام مع العجوز، وجدوا بشكل طبيعي المخرج المناسب. المخرج نفسه الذي وجدوه في أوسترليتز وفي بدء الحملة مع باركلي: لقد سحبوا من القائد الأعلى أدوات سلطته دون جلبة ودون مزيد من التفسير، ليسلموها إلى الأمبراطور بالذات.

ولهذه الغاية، شُرع في تحقيقها على مراحل بإعادة تشكيل هيئة الأركان. وبالتدريج، أحيلت كل السلطات التي كانت لهيئة أركان كوتوزوف إلى لا شيء وأصبح للأمبراطور اليد العليا على العمليات وتلقى تولّ وكونوڤينستين وإيرمولوف مناصب جديدة فكان كل منهم يعلن جهاراً أن الماريشال بات شديد الضعف شديد المرض.

والواقع أن صحته كان يجب أن تكون معتلة تماماً حتى سلم مناصبه إلى خلفه على هذا النحو. وكان ذلك صحيحاً إذ كان مصاباً في صحته.

وبمثل البساطة التي بدأ فيها كوتوزوف من قبل في ممارسة أعماله تدريجاً في الوزارة وتأسيس فرق المتطوعين ليعود إلى الجيش في اللحظة التي لم يكن هناك بد من وجوده فيه، وكان ذلك إثر عودته من تركيا إلى پيترسبورغ، بمثل تلك البساطة وبذلك الشكل الطبيعي، أقاموا بدلاً منه سيد الإبداع الجديد الذي كانت الظروف تطالب به، الآن وقد انتهى دوره.

ولقد وجب أن تأخذ حرب عام ١٨١٢، إضافة إلى معناها الشعبي العزيز على النفس الروسية، معنى أوروبياً كذلك.

كان يجب أن يعقب سير شعوب الغرب إلى الشرق، سير شعوب الشرق نحو الغرب. وكان يجب لهذه الحملة الجديدة، رجل جديد، يتحلى بصفات أخرى، بدوافع أخرى غير صفات كوتوزوف ودوافعه.

وكان ألكسندر الأول بالنسبة إلى سير شعوب الشرق نحو الغرب وبالنسبة إلى إعادة تنظيم الحدود، الشخص الذي لا بدَّ منه كما كان كوتوزوف لا بدَّ منه من قبل في سبيل خلاص روسيا ومجدها.

لم يكن كوتوزوف يعقل معنى الكلمات: أوروبا، توازن، ناپليون، ولم يكن يستطيع فهمها. الآن وقد هزم العدو وتحررت روسيا، لم يعد لخالق المجد، لممثل الشعب الروسي، بوصفه روسياً، ما يقوم به. لم يبق لذلك الذي تجسدت فيه الحرب الشعبية إلا أن يموت، ولقد مات.

الفصل الثالث عشر

لم يحس پيار بكل عبء الحرمان والتعب الجسديين، كما يحدث دائماً تقريباً، وبتلك الآلام التي عاناها خلال مدة أسره إلا عندما انتهت تلك الآلام والحرمان والتعب. ذهب إلى أوريل بعد أن استعاد حريته لكنه بعد ثلاثة أيام، عندما كان يستعد لمغادرة أوريل إلى كييف، سقط مريضاً واضطر إلى ملازمة الفراش في أوريل طوال ثلاثة أشهر لأنه أصيب، على زعم الأطباء، بحمى مرارية ولذلك مع العناية التي لقيها منهم فضلاً عن الأدوية وتكرار الفصاد، فقد استعاد صحته.

لم يترك كل ما حدث له منذ تحريره وحتى مرضه، أثراً في ذاكرته. كان يتذكر فقط وقتاً كالحاً، ممطراً تارة ومثلجاً تارة أخرى، وبخدر جسدي وآلام في الأضلاع والساقين، ويذكر الأثر الذي كان البؤساء المتألمون من الناس يخلفونه في نفسه بصورة عامة، والأسئلة المزعجة التي كان الضباط الجنرالات الفضوليون يطرحونها عليه، وكل تدابيره ليجد لنفسه عربات وجياداً لها وعلى الخصوص عجزه عن التفكير أو الإحساس بالمكان الذي كان فيه حينذاك.

رأى يوم تحرره جثة پيتيا روستوف. وفي اليوم نفسه علم أن الأمير أندريه بقي حياً شهراً كاملاً بعد معركة بورودينو وأنه مات أخيراً في ياروسلاڤل، في منزل آل روستوف وفي اليوم نفسه أيضاً، ألمح دينيسوف الذي جاء يحمل إليه هذا النبأ، إلى موت هيلين خلال الحديث مفترضاً أن پيار لا بدَّ وأن يكون

على علم بالأمر من قبل. ولقد بدا له كل ذلك في حينه غريباً فحسب، لقد كان پيار يشعر بعجزه عن فهم معنى هذه الأخبار. لم يكن يتعجل إلا أمراً واحداً، أن يبتعد قدر المستطاع عن هذه الأمكنة، حيث يقتل الرجال بعضهم بعضاً والذهاب إلى مكان هادئ يلجأ إليه، وهناك يجمع أفكاره ويستريح ويفكر في كل هذه الأشياء الغريبة الجديدة التي عرفها خلال هذه المدة. لكنه لم يكد يصل إلى أوريل حتى سقط مريضاً فلما استيقظ من مرضه، رأى پيار نفسه محاطاً باثنين من خدمه جاءا من موسكو، هما تيرانتي وڤاسكا، ثم بكبرى الأميرات من بنات عمه التي كانت تسكن في منزله، في إقطاعيته في إيليتز، التي ما إن بلغها نبأ تحرره ومرضه حتى هرعت للعناية به.

لم يتخلص پيار طوال فترة نقاهته، من المشاعر التي أصبحت أليفة لديه خلال الأشهر الأخيرة إلا بشكل لا شعوري. لم يكن يألف إلا تدريجاً، فكرة أن ما من أحد غداً سيطرده طرد السائمة، وأن ما من أحد غداً سينتزع منه فراشه الدافئ، وأنه سيحصل حتماً على غدائه وعشائه. ولقد بقي فترة طويلة يرى نفسه في الحلم كما كان في الأسر. كما أن پيار لم يدرك معنى الأنباء التي عرف بها يوم أن تحرر: موت زوجته، إبادة الفرنسيين، إلا بمرور الزمن.

ملأت نفس پيار فرحة عودته حراً وامتلاك تلك الحرية الكاملة غير المنقوصة الملازمة للطبيعة البشرية. تلك الحرية التي شعر بها للمرة الأولى عند أول مرحلة بعد مغادرة موسكو طوال مدة نقاهته. وما كان يدهشه على الخصوص هو الشعور بأن هذه الحرية المعنوية المستقلة عن كل ظرف خارجي، تأتلف الآن مع أريحية مع بذخ من الحرية الخارجية. كان وحيداً في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحداً وما من أحد يطالبه بشيء ولا أحد يرسله إلى أي مكان. وهو يحصل على كل ما يمكن أن يشتهيه، حتى أن عذابه الفكري قد اختفى طالما أن زوجته لم تعد على قيد الحياة.

كان يقول عندما كانوا يقربون منه مائدة بديعة التنسيق وعليها آنية من مرق عطر، أو عندما كان يتمدد لقضاء الليل على سرير نظيف، أو يتذكر أن كل شيء قد انتهى، أو يذكر زوجته والفرنسيين:

ـ آه! كم هذا جيد! كم هذا رائع! كم هذا جيد كم هذا حسن!

كان يطرح على نفسه حسب عادته القديمة هذا السؤال: «والآن؟ ماذا سأعمل» ثم لا يلبث أن يجيب نفسه بنفسه: «لا شيء. سأعيش. آه! كم هذا جيد!».

وذاك نفسه الذي طالما عذبه من قبل والذي طالما فتّش عنه باستمرار، هدف حياته، لم يعد يؤثر فيه. لم يكن هدف الحياة ذاك الذي كان يبحث عنه عن أن الكون في نظره في تلك اللحظة فحسب، بل بات يشعر أنه لم يكن هناك هدف قط وأنه ما كان يمكن أن يكون. فكان غياب الهدف ذاك هو الذي يخلق لديه ذلك الإحساس المفعم المرح بحريته الذي كان حينذاك مبعث سعادته.

ما كان يمكن أن يكون هناك هدف لأنه أصبح الآن يملك الإيمان، ليس الإيمان ببعض القواعد الخاصة أو بعض الأفكار، بل الإيمان بإله حي دائم الشعور به كان سابقاً يبحث عن الله في الغاية التي يعرضها على نفسه، فكان ذلك البحث عن الغاية هو البحث عن الله. وفجأة، طوال أسره، اكتشف ليس بالكلام، وليس بالمناقشات الفكرية، ولكن بنوع من الوحي الخاص، ما كانت مربيته العجوز تقوله له من قبل: إن الله هنا، هناك، في كل مكان. لقد تعلم خلال أسره أن إله كاراتاييف أكبر وأجل من أن يدرك وأكثر امتداداً وامتناعاً عن التحديد من الله الذي يسميه الماسونيون مهندس الكون الأعظم. كان يعتلج في نفسه شعور الرجل الذي يجد عند قدميه ما كان يبحث عنه جاهداً في الأبعاد. لقد قضى حياته كلها ينظر إلى البعيد، إلى نقطة ما فوق الرؤوس

التي تحيط به في حين أنه لم يكن عليه إلا أن ينظر إلى ما هو أمامه دون أن تجحظ عيناه.

لم يعرف من قبل، كيف يرى في أي مكان هذه العظمة التي لا تدرك والتي لا يحاط بها، كان يحس بها فحسب أنها ولا شك موجودة في مكان ما، لذلك كان يبحث عنها. وكان كل ما هو قريب منه مفهوم منه، يبدو له محدوداً سخيفاً مبتذلاً. كان يتسلح بنوع من المنظار المقرب الفكري لينقب في الأبعاد حيث كانت أشياء عقيمة ساخرة، يحجبها الضباب. تبدو له عظيمة غير محدودة لمجرد أنها لم تكن مرئية بوضوح.

ولقد تمثل حياة أوروبا على هذا النحو والسياسة والماسونية والفلسفة ومحبة البشر ولكن، ابتداء من هذه الفترة في اللحظة نفسها التي كان يقيس فيها ضعفه، والتي كانت روحه فيها تتغلغل في ذلك البعيد، كان يرى ذلك الغرور إياه وتلك الحقارة وذلك السخف نفسه. لقد تعلم الآن رؤية العظمة، الخلود، المحيط بكل شيء ولكي يتأمل هذا الكل وينعم بتأمله، ترك منظاره المقرب الذي ظل حتى تلك اللحظة يستعمله للنظر فوق رؤوس الرجال، راح بمرح يتأمل حوله، مشهد الحياة المتبدلة أزلياً، الكبيرة أزلياً، الممتنعة التي لا حدود لها. ولم يعد السؤال الرهيب «لماذا؟» الذي كان من قبل يهدم كل ما تشيده أفكاره، يطرح عليه لقد أصبحت نفسه الآن متمسكة بجواب مهيّأ على «لماذا؟» تلك: لماذا؟ لأن الله موجود، هذا الله الذي لا تسقط شعرة من رأس إنسان دون إرادته.

الفصل الرابع عشر

لم يغيِّر پيار شيئاً من طرق الظاهرية بل استمر يقدم المظهر إياه. كان ساهماً كما من قبل، يبدو منهمك البال ليس بما يراه بل بشيء ما خاص، شخصي. فكان الفرق بين حاله القديم وحاله الحاضر يرتكز على أنه من قبل، عندما كان يفقد عن عينيه ما هو أمامه أو ما كان يقال له، كانت تغضنات أليمة تقلص جبينه وكان يبذل مجهوداً عقيماً لمشاهدة شيء ما بعيد جداً. أما الآن فهو لا يزال ينسى ما يقال له وما هو أمامه، لكنه بات يملك ابتسامة دقيقة ساخرة للنظر إلى ما هو أمامه وللإصغاء إلى ما يقال له على الرغم من أنه كان، بكل تأكيد، يرى ويسمع شيئاً مختلفاً تماماً. كان من قبل يبدو تعساً رغم مظهر الطيبة الذي يعلو وجهه، لذلك فإن الناس كانوا يبتعدون عنه لا إرادياً. أما الآن، فإن ابتسامة تعبّر عن الفرح بالحياة كانت تتلاعب على شفتيه وتشع عيناه بجاذبية وكأنهما تسألان: هل ما زالوا مسرورين مني؟ فكان الناس في حضرته يشعرون بالارتياح.

كان من قبل يكثر الكلام وينفعل أثناء الحديث وبالكاد يصغي. أما الآن فإن المحادثة قليلاً لم تعد تجتذبه وبات يحسن الإصغاء حتى أن الناس أصبحوا يقصون عليه بيسر أعمق أسرارهم الشخصية.

والأميرة ابنة عمه، التي لم تحبه قط والتي كانت تغذي كراهية خاصة منذ اليوم الذي شعرت فيه بعد موت الكونت العجوز بأنها مدينة له. والتي جاءت إلى أوريل بقصد واحد، هو أن تبرهن له على أنها رغم عقوقه، تعتبر العناية به

واجباً لها، هذه الأميرة، شعرت بسرعة بعد مكوثها القليل بأنها تحبه وذلك لفرط سخطها ولمزيد دهشتها، في حين أن پيار لم يكن يعمل شيئاً لكسب مودتها. كان يكتفي بأن يتأملها بفضول. وكانت الأميرة من قبل، تشعر في النظرة التي يوجهها إليها، بلا مبالاة وسخرية، لذلك فقد كانت في حضرته كما في حضرة الآخرين، تنطوي على نفسها فلا تظهر إلا مزاجها الطيب. أما الآن فعلى العكس، أخذت تشعر بأنه تغلغل إلى أعمق حنايا نفسها مجازاً فراحت تكشف له في حذر بادئ الأمر ثم بعرفان، عن النواحي الخيرة في عقليتها.

ما كان لأكثر الرجال مكراً أن يتعمق بأكثر مهارة في ثقة الأميرة، حتى ولو استعرض معها أفضل ذكريات شبابها وأظهر اهتمامه بذلك. مع ذلك، فإن براعة پيار كلها كانت ناجمة عن شعوره الشخصي بالمتعة في إيقاظ المشاعر البشرية في نفس هذه المرأة المتغطرسة الساخطة.

كانت الأميرة تحدث نفسها: نعم، إنه فتى باسل عندما يكون تحت تأثير أشخاص مثلي بدلاً من أن يكون تحت أشخاص سيئين.

ولقد لوحظ التبديل الذي وقع لپيار من جانب خادميه تيرانتي وڤاسكا كذلك اللذين شعرا على طريقتهما بذلك الفرق وجدا أنه أصبح أكثر بساطة من ذي قبل. كان تيرانتي غالباً، بعد أن يخلع عن سيده الثياب ويتمنى له ليلة سعيدة ينسحب ببطء حاملاً حذاءيه وثيابه بين يديه، أملاً أن يحدث پيار عن شيء ما. وكان هذا الأخير غالباً ما يلاحظ هذه الرغبة فيستوقف تيرانتي ويسأله:

ـ قل لي لحظة.. كيف فعلت حتى تدبرت لنفسك ما تأكله؟

فيبسط تيرانتي قصة عن دمار موسكو أو عن الكونت المرحوم ويمكث طويلاً وثياب پيار فوق ذراعه، يتحدث تارة، ويصغي تارة أخرى، فلا يذهب

إلى الردهة إلا وفي بنفسه اعتقاد بأنه أصبح أكثر قرباً إلى سيده وأنه ينعم بتعلقه به.

وكان الطبيب الذي يعالجه والذي يأتي لزيارته يومياً، يعتقد أن من واجبه، ككل طبيب يحترم نفسه، أن يظهر بمظهر الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة في حساب الإنسانية المعذبة. مع كل ذلك فإنه كان يبقى ساعات طويلة عند پيار يروي له أفضل أقاصيصه ويحيطه علماً بملاحظاته عن عادات مرضاه بصورة عامة والسيدات منهم بصورة خاصة. كان يقول:

ـ هذا شخص يجد المرء متعة في التحدث معه، خلافاً لما هو عندنا في الإقليم.

وكان في أوريل عدد من ضباط الجيش الفرنسي وقعوا في الأسر، فجاء الطبيب ذات يوم بأحدهم معه وكان إيطالياً.

ولقد اعتاد هذا الضابط زيارة پيار حتى أن الأميرة ابنة عمه ما فتئت تسخر من الشعور الحاني الذي يظهره ذلك الإيطالي حيال ابن عمها.

لم يكن يبدو سعيداً إلا عندما كان يستطيع المجيء لزيارة پيار والتحدث معه عن ماضيه وعن حياته العائلية وغرامياته ويسهب في إظهار غضبه على الفرنسيين وخصوصاً على ناپليون.

كان يقول لپيار:

ـ لو أن الروس كانوا يشبهونك ولو قليلاً فإنه من الخزي محاربة شعب كشعبكم. أنت الذي لشدة ما تألمت بسبب الفرنسيين، لا تكاد تحمل نفسك ضغينة عليهم.

ولقد كسب پيار هذه المحبة القوية من الإيطالي بكل بساطة لأنه أيقظ في نفسه أفضل جوانب روحه وراح يتأمل تلك الجوانب.

خلال المدة الأخيرة من إقامته في أوريل، تلقى پيار زيارة أحد معارفه

القدماء من العالم الماسوني، الكونت ڤيلارسكي، الذي استقبله في المحفل عام ١٨٠٧. ولقد تزوج ڤيلارسكي روسية غنية جداً لديها عقارات كبيرة في ولاية أوريل وأصبح يشغل مركزاً موقتاً في تموين المدينة:

عندما علم بوجود بيزوخوف في أوريل، جاء ڤيلارسكي لزيارته رغم عدم وجود روابط صداقة وثيقة بينهما من قبل، مظهراً بوادر الصداقة والألفة التي يظهرها عادة الأشخاص الذين يتقابلون في صحراء. كان ڤيلارسكي دائم السأم في أوريل، فشعر بسعادة لوقوعه على رجل لا بدَّ وأن يكون بحسب، ظنه، منصرفاً إلى مثل المشاغل التي انصرف هو إليها.

لكن ڤيلارسكي، لعظيم دهشته، لم يلبث أن رأى أن پيار لم يكن قط في المكانة التي وضعه فيها وأنه وقع ـ كما أخذ يحدث نفسه ـ في الجمود والأنانية.

وانتهى إلى القول أخيراً: لقد تطبعت يا عزيزي.

وعلى الرغم من ذلك، أصبحت عشرة پيار تبدو له مستطابة أكثر من ذي قبل فكأن يأتي كل يوم لزيارته. أما پيار، فإنه بإصغائه إلى ڤيلارسكي وبالنظر إليه، كان يفكر بذهول غير مصدق بأنه كان قبل وقت قريب جداً مثله تماماً.

كان ڤيلارسكي متزوجاً ورب عائلة، منشغلاً بأملاك زوجته وبوظيفته وأولاده معاً. وكان ينظر إلى هذه المشاغل المختلفة نظرته إلى عقبة في الحياة، فيحتقرها لأن هدفه الأوحد كان سعادته الشخصية وسعادة ذويه. وكانت المشاغل العسكرية والإدارية والسياسية والماسونية تحتكره كلياً. فكان پيار يهتم بهذه الحالة الغريبة، المعروفة منه تماماً دون أن يحاول التأثير فيه لتغيير وجهة نظره أو يحكم عليه، بسخرية مرحة هادئة لا تتزعزع.

كان پيار في علاقاته مع ڤيلارسكي والأميرة والطبيب ومع كل الأشخاص الذين بات يقابلهم الآن، يظهر بادرة جديدة عادت عليه بميل الجميع إليه،

أخذ يعترف بحق كل فرد في التفكير والشعور والنظر إلى الأشياء على طريقته ويعترف كذلك باستحالة إقناع إنسان ما بالكلام. وهذه الشخصية الشرعية لكل إنسان التي كانت تقلق پيار من قبل وتغضبه، أصبحت اليوم بالنسبة إليه سبب الاهتمام والانجذاب إلى الناس الذين يشعر بهم الآن. وطرق النظر إلى الأمور التي يتمتع بها الأشخاص مختلفة. والتي كانت أحياناً متعارضة تماماً مع وجهات نظره، كانت تبهجه وتخلق على شفتيه ابتسامة وديعة ساخرة.

وفي الأمور ذات الطابع العملي، أصبح پيار الآن يشعر بدهشة أنه يملك مركز الثقل الذي كان يفقده بالأمس. فقديماً كانت كل المسائل المادية، وبصورة خاصة طلبات الإخراج التي كانت غالباً ما يتعرض لها بوصفه رجلاً واسع الثراء، تحدث في نفسه اضطراباً وتردداً لم يكن يجد لهما حلاً. كان يتساءل: هل يجب العطاء أم لا؟ إن لدي مالاً وهو في حاجة إليه. لكن هذا الآخر أشد حاجة إليه منه فأيهما أساعد؟ لعل الاثنين يحتالان معاً؟ ولما لم يكن يصل إلى التحلل من افتراضاته، فقد كان يعطي الجميع بقدر ما يستطيع العطاء، ويعود دائماً إلى ذلك التردد إياه، كلما عرضت له مسألة تمس مصالحه، وأشار عليه أحدهم أن ينهج هذا النهج بينما يشير آخر عليه بذلك.

أما الآن، لدهشته الكبيرة، أخذ يجد أن الشكوك والتردد في هذه المسائل لم يعد لهما مكان. أصبح الآن يحمل في نفسه حكماً يحكم تبعاً لقوانين مجهولة منه، ويقرر ما يجب عمله وما لا يجب.

بقي لامبالياً كسابق عهده فيما يتعلق بالمسائل المادية. لكنه لم يعد الآن يحوي أي شك حول ما يجب وما لا يجب عمله، ولقد أصدر ذلك القاضي الجديد حكمه الأول خلال زيارة زعيم فرنسي أسير جاء يعوده وأخذ يسهب في التحدث عن مآثره وفي النهاية طالبه في شبه إلحاح بإعطائه أربعة آلاف فرنك يرسلها إلى أسرته في فرنسا، فرفض پيار طلبه هذا دون أي تردد أو

ارتباك وقد دهش من نفسه فيما بعد إذ استطاع أن يعمل بمثل هذه السهولة ما كان من قبل يبدو على صعوبة لا تذلل. لكنه، بينما رفض الزعيم ذلك الطلب، قرر أن يتصرف قبل مغادرته أوريل بأسلوب لبق حتى يجعل الإيطالي يقبل منه مبلغاً من المال كان في حاجة إليه. ولقد كان الدليل الجديد على ثباته في الشؤون العملية هو القرار الذي اتخذه بشأن ديون زوجته وإعادة ترميم منزليه في موسكو وفي الريف.

ولقد جاء وكيله الرئيسي يزوره في أوريل فأقام پيار معه بياناً تماماً بريوعه المخفضة. وبحسب تقدير وكيله، سبب حريق موسكو لپيار، خسارة تبلغ حوالى مليوني روبل.

قدم له الوكيل لقاء هذه الخسارة، بياناً مشفوعاً بالأرقام، يثبت أن عائداته ستزداد بدلاً من أن تنقص إذا رفض پيار سداد الديوان التي تركتها الكونتيسة، والتي لا يمكن لأحد أن يرغمه على دفعها، وإذا عدل عن تجديد منزلي موسكو والضاحية اللذين يقتضيان مصروفاً يبلغ ثمانين ألف روبل في العام دون أن يعودا عليه بأي فائدة.

فقال پيار بابتسامته الفكهة:

ـ نعم، نعم، هذا صحيح. لست في حاجة إلى كل هذا. لقد أغناني دماري كثيراً.

لكن ساڤليتش هو الذي جاء من موسكو في شهر كانون الثاني/ يناير، تحدث عن حالة المدينة وعن التصميم الذي وضعه المهندس لإعادة بناء منزل في المدينة وآخر في الضاحية وراح يتكلم عن هذه الأمور وكأنها قضية منهية. وفي تلك اللحظة، تلقى پيار رسالة من الأمير ڤاسيلي ورسائل أخرى أرسلها أصدقاؤه من پيترسبورغ. كان موضوع هذه الرسائل يدور حول الديون التي تركتها زوجته. وحينئذ قرر پيار أن المشروع المهم جداً الذي قدمه وكيله

له خطأ وأن عليه أن يذهب إلى پيترسبورغ لتسوية شؤون زوجته وعليه كذلك أن يعيد بناء منزل موسكو. لماذا كان كل هذا ضرورياً؟ لم يكن يعرف، لكنه كان يدرك أن عليه أن يتصرف على هذا النحو دون أي شك. ولقد انخفضت موارده من جراء ذلك بمعدل ثلاثة أرباعها لكن الأمر كان إلزامياً، ذلك كان شعوره.

كان ڤيلارسكي ينوي الذهاب إلى موسكو فعملا على أن يترافقا خلال الطريق.

شعر پيار خلال نقاهته في أوريل كلها، بإحساس بالفرح والاستقلال والتجدد فلما سار في الطريق، ووجد نفسه في الهواء الطلق وشاهد مئات الوجوه المعروفة ازداد هذا الشعور امتداداً. كان خلال كل الوقت الذي استغرقه الطريق، أشبه بطالب في عطلته: كل الأشخاص الذين قابلهم، سائق المركبة، مدير البريد، القرويون على الطريق أو في القرى، كل شيء اتخذ سمة جديدة في نظره ولم يكن وجود ڤيلارسكي وملاحظاته وشكاواه المستمرة عن الفقر ومن تأخر الزحف على أوروبا وجهل روسيا إلا لتزيد من سرور پيار.

كان پيار يرى قوة حيوية خارقة حيث لا يرى ڤيلارسكي إلا مظهر الموت، هذه القوة المتسلطة التي تدعم في ذلك الثلج الذي يغطي المساحات، وجود هذا الشعب الذي لم يمس، الخاص الوحيد. لم يكن يتأمل صديقه، ولكنه، وكأنه يؤيده في رأيه، لأن التظاهر بالموافقة أقصر سبيل إلى تجنب محاولات عقيمة، كان يصغي إليه بابتسامة مرحة.

الفصل الخامس عشر

لماذا يدبّ النشاط في النمل عندما تنهار مدينته، ويصعب بيان أين يذهب، فيبتعد بعضه جاراً معه بعض البيوض والقش والجثث والدقيق، ويعود البعض الآخر إلى المدينة. ولماذا يتدافع ويتقاتل ويطارد بعضه بعضاً، كذلك يصب تفسير الأسباب التي دفعت الروس بعد ذهاب الفرنسيين إلى التجمع في ذلك المكان الذي كان يدعى من قبل موسكو: وكما يلمس المرء عند ملاحظته النمل المنتشر حول مدينته المخربة وجلد هذه الحشرات التي لا تحصى ونشاطها وحيويتها رغم انهيار مدينتها الكامل، إن كل شيء قد دمر باستثناء شيء ممتنع عن الدمار، شيء غير مادي هو أساس كل قوة مدينة النمل، كذلك موسكو في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، فقد بقيت موسكو نفسها رغم عدم وجود سلطات ولا كنائس ولا أشياء مقدسة ولا ثروات ولا بيوت، ظلّت كما كانت في شهر آب/ أغسطس. كان كل شيء متهدماً فيها باستثناء شيء قوي وغير قابل للهدم.

كانت دوافع الأشخاص المنتقلين نحو موسكو بعد فرار العدو منها من أكثر الدوافع اختلافاً، دوافع شخصية وذات طابع بدائي حيواني في الآونة الأولى. وكان الشعور الوحيد المشترك بين الجموع هو رغبتهم في العودة إلى ذلك المكان الذي كان يدعى من قبل موسكو وممارسة نشاطهم فيها.

أصبحت موسكو في غضون أسبوع، تضم خمسة عشر ألف ساكن، وبعد

أسبوعين قفز العدد إلى خمسة وعشرين ألفاً. ومضى الرقم في تزايد مستمر حتى أن عدد السكان في خريف عام ١٨١٣ فاق عددهم في عام ١٨١٢

كان الـروس الأوائـل الذين دخلوا موسكو هم من قوقازيي فيلق وينتزبخيرود وقرويين من القرى المجاورة والسكان الهاربين الذين اختبأوا في الريف المتاخم. وعندما دخلوا موسكو الخربة ووجدوا أنها منهوبة، شرعوا هم كذلك بالسلب. لقد أتموا ما بدأه الفرنسيون. كان القرويون يقدمون بعرباتهم ليحملوا إلى مساكنهم كل ما بقي في المنازل المتهدمة وفي الشوارع. وحمل القوقازيون كذلك إلى معسكرهم كل ما استطاعوا حمله ووضع ملاك البيوت أيديهم على كل ما وجدوه لدى الآخرين وأخذوه إلى مساكنهم بحجة أن هذه الأشياء تخصهم.

وبعد هؤلاء النهابين الأوائل، جاء آخرون ثم آخرون كذلك وأصبح السلب أخذاً في الصعوبة كلما ازداد عدد النهابين حتى بدأ يأخذ أشكالاً منهجية.

لقد وجد الفرنسيون موسكو فارغة ولكن حية، بأعضاء منتظمة وبكل ما ينفع لممارسة التجارة والمهن والترف والإدارة والدين. كانت أعضاء جامدة ولكن صالحة للعمل بعد. كانت هناك أسواق ودكاكين وحوانيت ومستودعات وأماكن لبيع الخضار وجلها مليء بالسلع. وكانت هناك مصانع ومعامل وقصور ومساكن غنية مليئة بالأشياء الثمينة. وكانت هناك مستشفيات وسجون ومكاتب وكنائس وكاتدرائيات. وكلما طال أمد مكوث الفرنسيين، راحت إطارات حياة المدينة هذه تختفي حتى أن موسكو أصبحت في النهاية ساحة كبيرة متسعة للموت والنهب.

وكلما طال أمد نهب الفرنسيين نضبت ثروات موسكو وطاقة النهابين. أما سلب الروس الذين اتصفوا به أيام عودتهم الأولى إلى العاصمة فكان على

العكس: كلما طال أمده، وكثر عدد المساهمين فيه، أقام ثروة المدينة وحياتها الطبيعية بسرعة أكثر.

وإلى جانب السلابين، جاء أناس من مختلف الألوان بعضهم بدافع الفضول وبعضهم بدافع واجبات عمله وبعضهم بدافع المصلحة: بين ملاكين وطلبة دينيين وموظفين كبار وصغار وباعة وصناع وقرويين، توافدوا من كل حدب وصوب إلى موسكو كما يندفع الدم إلى القلب.

ولم يكد يمضي أسبوع حتى صودرت عربات القرويين الذين جاؤوا بها فارغة لينقلوا عليها ما يستطيعون حمله إلى منازلهم. واستعلمت من جانب السلطة في نقل الجثث خارج المدينة. وآخرون علموا بإخفاق رفاقهم، كانوا يفدون إلى المدينة حاملين على عرباتهم الحنطة والعلف والخرطال ويخفضون الأسعار بشكل مناسب حتى صارت أكثر انخفاضاً من سابق العهد وراحت فرق من النجارين تعود باستمرار، يجذبها ارتفاع الأجر، وبدأت هذه الفِرق تعيد البناء وتصلح البيوت المحترقة. وأخذ الباعة يقيمون لأنفسهم الدكاكين في مبان من الخشب وفتحت الخانات والفنادق في الدور المحترقة. وراح رجال الدين يقيمون الاحتفالات الدينية في عدد كبير من الكنائس التي بقيت سليمة.

وبدأ بعض الواهبين يعيدون إلى الكنائس الأشياء ذات الطابع الديني المسروقة وراح الموظفون يقيمون في غرف صغيرة مكاتبهم المغطاة بالقماش والخزائن وراحت سلطات البوليس توزع الأمتعة والأشياء التي تركها الفرنسيون. وراح أصحاب البيوت الذين وُجدت لديهم أمتعة كثيرة مصدرها بيوت أخرى يحتجون مشتكين بمغدوريتهم في نقل كل الأشياء المنقولة إلى قصر ڤاسيت (في الكرملين) وآخرون أخذوا يحتجون بأن الفرنسيين جميعاً وضعوا كثيراً من أثاث البيوت في بيت واحد وأنه ليس من

العدل تقديم ذلك المتاع المجموع هدية إلى صاحب المنزل الذي وجد فيه. وكانوا يشتمون رجال الشرطة ويقدمون إليهم الرشى ويغالون في تقدير قيمة الممتلكات المحترقة حتى يصلوا إلى عشرة أضعافها ويطالبون بمساعدات مادية. أما الكونت روستوبتشين، فكان يدبج بلاغاته.

الفصل السادس عشر

حوالى نهاية كانون الثاني/ يناير وصل پيار إلى موسكو وأقام في جناح من منزله ظلّ قائماً. زار روستوبيتشين وآخرين من معارفه الذين رجعوا إلى المدينة. واستعد منذ غداة اليوم التالي لوصوله، لمتابعة السفر إلى پيترسبورغ. وكان الناس جميعاً يتباهون بالنصر وكل شيء يجيش بالحياة في العاصمة المنبعثة. وكان كل واحد سعيداً برؤية پيار مجدداً، يستقبله كل واحد ويستجوبه عما رآه. فكان يشعر في نفسه بأكثر الميول صداقةً نحو كل الذين يقابلهم لكنه أصبح رغماً عنه، يحتفظ الآن ببعض التحفظ الذي كان يسمح له بعدم الدخول في التزام ما. كان يجيب عن كل سؤال يوجه إليه، سواء كان السؤال مهماً أو تافهاً، عندما يُسأل أين سيسكن ، هل سيعيد بناء منازله، هل يقبل حمل صندوق صغير معه إلى پيترسبورغ، كان يجيب: نعم، يمكن أن يكون، آمل ذلك أو جواباً آخر من هذا القبيل.

عرف أن آل روستوف موجودون في كوستروما، لذلك فإن التفكير في ناتاشا راح يراوده بين حين وآخر وعندما كانت الفكرة تراوده، لم تكن أشبه بذكرى فاتنة لماضٍ يطل منذ زمن طويل. كان يعتقد أنه تحرر ليس من فروض الحياة كلها فحسب، بل كذلك من ذلك الإحساس الذي يصور له أنه تقبل موضوعاً متعمداً.

علم غداة اليوم التالي لوصوله إلى موسكو، من آل دورپتسكوي أن

الأميرة ماري موجودة في موسكو. فراحت آلام وموت وأيام الأمير أندريه الأخيرة تغزو مخيلة پيار الآن بشكل أقوى من أي وقت مضى، فلما علم خلال الغداء أن الأميرة ماري في المدينة، وأنها تسكن في بيتها في فوزدڤيغنكا الذي بقي سليماً، مضى لزيارتها ذلك المساء بالذات.

لم يكف خلال الطريق عن تمثل الأمير أندريه وتصور صداقتهما ولقاءاتهما العديدة وبصورة خاصة لقاءهما الأخير في بورودينو.

راح يقول في سرّه: «هل يمكن أن يكون قد مات وهو في حالة الانفعال والثورة التي كان عليها حينذاك؟ هل يمكن ألّا تكون الحياة قد تكشفت له قبل موته؟» وفكر في موت كاراتاييف، فراح رغماً عنه، يقارن بين كليهما، رغم الود شديد الاختلاف شديد التقارب مع ذلك، الذي كان يكنه لهما ويقارن بين الطريقة التي عاش فيها كل منهما ومات.

ولقد وصل پيار إلى منزل الأمير العجوز وهو على تلك الحالة الفكرية الخطيرة. ولقد ظل ذلك المنزل سليماً، يحمل آثار التلف، لكنه بقي محتفظاً بطابعه، وكان للوصيف العجوز الذي استقبل پيار بوجه صارم وكأنه كان يريد بذلك أن يشعر الزائر بأن غياب الأمير لم يغير شيئاً من عادات الدار قال له إن الأميرة دخلت إلى مخدعها منذ حين لاستقبال يوم الأحد.

قال پيار: اذهب وأخطرها بوجودي لعلها تستقبلني.

فأجاب الوصيف:

ـ حسب أوامركم. تفضلوا بالدخول إلى قاعة اللوحات.

عاد الوصيف بعد حين يتبعه ديسال. لقد جاء ديسال يخطر پيار على لسان الأميرة ماري بأنها سعيدة جداً لرؤيته وأنها ترجوه، إذا لم يجد مانعاً لهذه الطريقة غير المتكلفة، أن يصعد إليها.

كانت الأميرة جسالة في غرفة صغيرة منخفضة السقف تنيرها شمعة واحدة في صحبة إنسان متشح بالسواد. تذكر پيار أنها تحتفظ دائماً إلى جانبها بسيدات مرافقات. أما فيما يتعلق بمن كن أولئك السيدات وكيف كنّ، فإنه لم يكن يذكر قط. فكر وهو يلقي نظرة على السيدة المتشحة بالسواد: «إنها إحدى مرافقاتها».

نهضت الأميرة بنشاط وجاءت تستقبله وتمد له يدها وتقول وهي تتأمل التغيُّر الذي بدا عليه بعد أن انتهى من تقبيل يدها:

ـ نعم، هذا هو الشكل الذي نلتقي عليه.

ثم أضافت وهي تنقل نظرها إلى السيدة المرافقة في شيء من الارتباك جعل پيار يدهش لحظة:

ـ لقد تحدث عنك كثيراً في الأويقات الأخيرة. كم كنت مسرورة إذ علمت أنك أنقذت! إنه الخبر الطيب الوحيد الذي تلقيناه منذ مدة طويلة.

ومجدداً، ألقت نظرة أكثر قلقاً على السيدة المرافقة وأرادت أن تضيف شيئاً ما. لكن پيار قاطعها ليقول: تصوري أنني لم أكن أعرف عنه شيئاً. كنت أظن أنه قتل وكل ما عرفته نقل إلي من قبل آخرين. لقد رووا لي أنه وجد نفسه لدى آل روستوف... يا للقدر الغريب!

كان پيار يتحدث بحماسة. نظر بدوره إلى السيدة المرافقة فشاهد النظرة المحبة التي ترمقه بها. وكما يحدث غالباً في سياق الحديث، شعر دون أن يدري السبب، أن هذه المخلوقة ذات الرداء الأسود، لطيفة طيبة، وأنها مخلوقة ممتازة لا تزعج في شيء سياق حديثه مع الأميرة ماري.

لكنه عندما نطق باسم آل روستوف، ازداد دهشة للارتباك الذي بدا على الأميرة ماري. لقد انتقلت نظرتها من جديد من وجه پيار إلى السيدة ذات الثوب الأسود وقالت:

ـ كيف؟ ألا تعرفها؟

ألقى پيار مجدداً نظرة على ذلك الوجه الهزيل الشاحب ذي العينين السوداوين والفم الغريب الذي للسيدة المرافقة. كان هناك شيء ما أليف، شيء منسي منذ زمن طويل، شيء عزيز جداً ينظر إليه بتينك العينين اليقظتين.

فكر: «كلا هذا لا يمكن أن يكون هذا الوجه الشاحب الهزيل الصارم الضعيف! لا يمكن أن يكون هو مجرد شبه». لكن الأميرة ماري قالت في تلك اللحظة: «ناتاشا» وبدا الوجه ذو العينين المتيقظتين كأنه يتفتح بعناء وبجهد كما يفتح باب علاه الصدأ، وأضاء بابتسامة. ومن خلال ذلك الباب المفتوح، لفحت پيار فجأة نفحة عطرة من تلك السعادة المنسية منذ وقت طويل التي كانت في تلك اللحظة بالذات أبدع ما يكون عن التفكير فيها. شمله ذلك العطر وتسلل إلى كليته. ولما ابتسمت، لم يعد للشك مجال. إنها ناتاشا بدون شك وإنه ليحبها.

منذ الدقيقة الأولى كشف پيار رغماً عنه لناتاشا والأميرة ماري وخصوصاً لنفسه، عن السر الذي كان يجهله. احمرّ وجهه من الفرح والألم وأراد إخفاء انفعاله. لكنه كلما جاهد لإخفائه، كان يكشف عن حبه لنفسه ولناتاشا وللأميرة ماري، بشكل أوضح من التعبير عنه بدقيق الكلام.

حدث پيار نفسه: «لا بدَّ وأن ذلك ناجم عن المفاجأة». لكنه عندما أراد أن يستأنف الحديث مع الأميرة ماري، نظر مرة أخرى إلى ناتاشا فغطت وجهه حمرة قانية واكتسحه تأثر أقوى مبعثه القلق والفرح وراح يتخبط في أقواله ثم توقف في منتصف جملة.

لم يلاحظ پيار وجود ناتاشا بادئ الأمر لأنه لم يكن يتوقع أن يراها هناك. ثم إنه لم يعرفها بسبب التغيّر الكبير الذي طرأ عليها منذ آخر مرة رآها. لقد

هزلت وشحبت. ولكن لم يكن كل هذا هو الذي يجعلها غير معروفة له: كان يستحيل عليه أن يعرفها للوهلة الأولى لأن على ذلك الوجه، في تينك العينين اللتين كانت بهجة الحياة تشع منهما فتلتمع بها ابتسامة غامضة، لم يكن على ذلك الوجه حتى ولا شبح ابتسامة. لم يبق إلا العينان المتيقظتان الحزينتان المستفسرتان.

لم ينتقل اضطراب پيار منه إلى ناتاشا، لكن ابتهاجاً لا يكاد يُلحظ أضاء وجهها.

الفصل السابع عشر

جاءت الأميرة تقضي بعض الوقت معي وسوف يصل الكونت والكونتيسة في حالة سيئة بعد حين، لكن نفسها في حاجة إلى معالجة طبيب وقد أُجبرت على مرافقتي.

فقال پيار مخاطباً ناتاشا: نعم، هل هناك أسرة لا ألم لها؟ إنك تعرفين أن ذلك حدث يوم تحريرنا بالذات. لقد رأيته، يا للفتى الفتان!

أخذت ناتاشا تتطلع إليه وكجواب عن كلماته، اتسعت عيناها وأضاءتا بوميض أقوى. تابع پيار:

ـ ماذا يمكن أن يُقال أو أن يُتصور مما يبعث العزاء؟ لا شيء. لماذا كان يجب أن يموت فتى على مثل لطفه، مثله طافح بالحياة؟

فقالت الأميرة ماري: نعم، في العصر الذي نعيش فيه، يصعب العيش بدون الإيمان.

فبادر پيار يجيب:

ـ نعم، نعم، هذه هي الحقيقة.

سألت ناتاشا وهي تحدق بانتباه إلى عيني پيار: لماذا؟

تابعت الأميرة: كيف لماذا؟ لمجرد التفكير في ما ينتظر...

لكن ناتاشا لم تصغ إلى النهاية بل راحت مجدداً تحدق إلى عيني پيار بنظرة مستفسرة. استرسل هذا الأخير يقول:

ـ لأن الإنسان الذي يؤمن بأن هناك إلهاً يسيرنا، يستطيع وحده أن يحتمل خسارة مثل خسارتها و... خسارتكم.

فتحت ناتاشا فمها لتجيب، لكنها سكتت فجأة. وأسرع پيار يشيح بوجهه ويخاطب الأميرة ماري مستفسراً إياها عن أيام صديقه الأخيرة.

ولقد تبدد اضطراب پيار تقريباً. لكنه كان يشعر في الوقت نفسه أن حريته السابقة كلها قد اختفت بالمثل. شعر الآن أن لكل كلماته وتصرفاته حكماً يعتبر أغلى وأثمن من حكم العالم أجمع، فراح وهو يتكلم، يجزع للأثر الذي تحدثه كلماته في ناتاشا. لم يكن يبحث عن الكلمات التي يمكن أن تروقها. لكنه كان يحكم على كل ما يقوله من وجهة نظرها هي.

وكعادتها دائماً، أخذت الأميرة ماري تتكلم دون حماسة عن الحالة التي وجدت الأمير أندريه عليها. لكن أسئلة پيار ونظرته المتقدة ووجهه المضطرب من التأثر، دفعتها تدريجاً إلى الدخول في تفاصيل كانت تخاف على نفسها من أن تجدد ذكراها.

كرر پيار وهو منحن بكل جسده إلى الأمام نحو الأميرة ماري ومصغياً بفهم إلى روايتها:

ـ نعم، نعم، هو ذلك، هو ذلك... نعم، نعم، إذن، لقد هدأ؟ لقد رق؟ ذلك أنه لم يكن يبحث إلا عن أمر واحد بكل قوة روحه، كان يريد أن يكون جيداً بكمال ولم يكن ولا شك يخاف الموت. والأخطاء التي كانت فيه ـ إذا كانت لديه أخطاء. لم تكن صادرة عنه. إذن لقد رق؟

وقال فجأة مخاطباً ناتاشا والدموع تملأ عينيه:

ـ يا لسعادته إذ شاهدك!

طافت على وجه ناتاشا انتفاضة وقطبت حاجبيها وخفضت عينيها فترة. وترددت ثانية في الكلام ثم قالت بصوتها الجميل الخطير:

ـ نعم، كان ذلك بدون شك سعادة لي.

ثم بعد صمت تابعت:

ـ وهو... هو.. لقد قال لي إنه كان يرغب في رؤيتي في اللحظة التي جئت إليه...

وتحطم صوت ناتاشا. احمرَّ وجهها وتقلصت يداها على ركبتيها وفجأة بذلت مجهوداً ظاهراً على نفسها فرفعت رأسها وراحت تتحدث بسرعة:

ـ لم نكن نعرف شيئاً عندما غادرنا موسكو. وما كنت أجرؤ على الاستعلام عنه. إن سونيا هي التي أخطرتني فجأة بأنه معنا. لم أكن أفكر في شيء ولا أقدر على تمثل الحالة التي هو عليها.

وأضافت وهي تتغضن وتتنفس بصعوبة: كنت أريد فقط أن أراه وأن أكون معه.

ودون أن تسمح بمقاطعتها، روت ما لم تتحدث به بعد إلى أحد، روت كل ما عانته طوال أسابيع سفرهم الثلاثة وفي مكوثهم في ياروسلاڤل.

وكان پيار يستمع إليها فاغر الفم وعيناه المغرورقتان بالدموع شاخصتان إليها. لم يكن وهو يصغي إليها يفكر في الأمير أندريه ولا في الموت ولا في ما تقول. كان يشفق عليها فقط للألم الذي تسببه الرواية لنفسها.

أما الأميرة التي كان وجهها متقلصاً كله لرغبتها في كبت دموعها، فقد كانت جالسة إلى جانب ناتاشا، تستمع للمرة الأولى إلى قصة أيام العشق الأخيرة بين أخيها وناتاشا.

وكانت رواية هذه الآلام المشفوعة بالفرح، ضرورة لناتاشا كما كان ذلك واضحاً.

كانت تتحدث، خالطة أصغر التفاصيل بأعمق الأسرار الشخصية، تبدو كأنها لم تعد تستطيع التوقف، ولقد كررت مراراً الأشياء نفسها:

وارتفع صوت ديسال من وراء الباب يسأل عم إذا كان نيكولا الصغير يستطيع الدخول لإلقاء تحية المساء. فأعقبت ناتاشا:

ـ وهذا كل شيء، كل شيء...

ووقفت بشدة في اللحظة التي دخل نيكولا. ولقد اصطدم رأسها، وهي تسارع إلى الخروج، بالباب الذي يحجبه ستر، فاندفعت خارجة وهي تزمجر من الألم بقدر ما يطفح في نفسها من الحزن.

نظر بيار إلى الباب الذي خرجت منه دون أن يدرك لماذا بقي فجأة وحيداً في العالم.

أخرجته الأميرة ماري من تأملاته جاذبة انتباهه إلى ابن أخيه الذي دخل من فوره.

ولقد أحدث وجه نيكولا الشديد الشبه بوجه أبيه، في نفسه وهو على تلك الحالة من التحنان، أثراً كبيراً حتى أنه بعد أن ضمَّ الفتى، نهض بشدة وأخرج منديله ثم ابتعد نحو النافذة، أراد أن يستأذن الأميرة ماري منصرفاً لكنها استبقته.

ـ لا، لا تذهب. إن ناتاشا وأنا نسهر أحياناً حتى قرابة الساعة الثالثة صباحاً. عد إلى الجلوس أرجوك. سوف آمر بإعداد العشاء. انزل، لن نتأخر عن اللحاق بك.

وفي اللحظة التي همَّ بيار بالخروج، قالت له الأميرة: هذه هي المرة الأولى التي تحدثت فيها عنه على هذا النحو.

الفصل الثامن عشر

لم يلبث پيار بعد بضع دقائق أن تناهى إليه وقع خطى، وقد اقتيد إلى غرفة طعام فسيحة جيدة الإضاءة، ودخلت الأميرة ماري إلى الغرفة مع ناتاشا. كانت ناتاشا هادئة وإن كان وجهها قد اتخذ طابعه الصارم. ولقد شعر ثلاثتهم، الأميرة ماري وناتاشا وپيار، بذلك الانزعاج الذي يعقب عادة حديثاً، شخصياً جدياً، إذ تتعذر العودة إلى الحديث السابق ويخجل المرء أن يتحدث عن التفاهات، كما أنه يحس بالانزعاج إذ يسكت لأن به حاجة إلى الكلام ولأن السكوت المطبق الذي يلزمه صمت ملزم. جلسوا إلى الطاولة صامتين وأبعد الخدم الكراسي ليسمحوا لهم بالجلوس ثم عادوا فقربوها. ونشر پيار منشفته الباردة ونظر إلى ناتاشا ثم إلى الأميرة ماري وبه رغبة في قطع حبل الصمت. كانتا دون شك تحسان بمثل تلك الرغبة: لقد كانت عينا كليهما تشع بالرغبة في الحياة وتبدو شاهدة على أن هناك مكاناً للفرح رغم الحزن.

سألت الأميرة ماري: هل ترغب في شرب الفودكا يا كونت؟

فطردت هذه الكلمات فجأة أطياف الماضي. أضافت:

ـ حدثنا عنك. إنهم يروون عنك أشياء لا تصدق.

أجاب پيار وعلى شفتيه تلك الابتسامة الطافحة بسخرية حلوة والتي أصبحت مألوفة لديه:

ـ نعم. لقد رووا لي شخصياً أشياء مدهشة حقاً لم أرها بنفسي قط. لقد دعتني ماري أبراموڤنا إلى منزلها وقصت عليّ حكاية ما وقع لي أو الأحرى

ما وجب أن يقع لي. ثم إن ستيپان ستيپانيتش علمني هو الآخر ما يجب أن أرويه عن نفسي. لقد لاحظت، بصورة عامة، أن كون المرء شخصاً هاماً، عمل يتضمن كل عناصر الراحة ولما كنت الآن أحد المهمين، فإنهم يستدعونني ويقصون حكايتي.

ابتسمت ناتاشا وكادت تفتح فمها لتقول شيئاً، لكن الأميرة ماري قالت تستوقفها: لقد أكدوا لنا أنك تعرضت لخسارة مليوني روبل في موسكو. هذا صحيح؟

فصاح پيار: لكنني الآن أغنى ثلاث مرّات مما كنت قبلاً.

لقد بقي پيار يؤكد رغم ديون زوجته وضرورة إعادة البناء التي تبدل وجه أعماله أنه أغنى ثلاث مرّات من ذي قبل.

ثم أضاف بصوت خطير:

ـ على أية حال، فإن ما ربحته بشكل لا يتطرق إليه الجدل هو حريتي.

لكنه امتنع عن الاستمرار في الحديث واجداً أن من الأنانية الاقتصار في الحديث على نفسه من جانبه.

ـ وتريد إعادة البناء؟ نعم، إن ساڤيليتش يرغب في ذلك.

قالت الأميرة ماري:

ـ قل لي. لم تكن تعرف بموت الكونتيسة بعد عندما كنت في موسكو أليس كذلك؟

واحمر وجهها إثر ذلك عندما أحست بأنها طرحت عليه هذا السؤال فور إعلانه نبأ استرداده حريته وأن ذلك يمكن أن يعطي لكلماته معنى قد لا يكون عناه بها.

أجاب پيار الذي لم يظهر عليه أنه يعتبر الطريقة التي فسرت فيها الأميرة

توريته إلى حريته مربكة: كلا. لقد عرفت الأمر في أوريل ولا يمكنك أن تتصوري الأثر الذي أحدثه ذلك في نفسي.

وتابع بحمية وهو يختلس نظرة إلى ناتاشا ويلاحظ على وجهها الفضول الذي ارتسم عليه بانتظار أن يتحدث عن زوجته.

ـ لم نكن زوجين مثاليين. لكن موتها هذا أحدث في نفسي أثراً مريعاً. عندما يتخاصم شخصان، يكون كلاهما على خطأ والمرء يشعر بخطئه أوقع على نفسه تجاه شخص لم يعد على قيد الحياة. ثم إن موتاً على هذا النحو.. دون أصدقاء ولا أعزاء!

وتابع وهو يلاحظ مسحة من التأييد المرح على وجه ناتاشا:

ـ إنني أشفق عليها كل الإشفاق، كل الإشفاق.

فقالت الأميرة ماري ملاحظة: وعلى هذا، ها إنك عازب من جديد، وصالح للزواج.

فاحمرّ وجه پيار فجأة وبذل جهده كي لا ينظر ناحية ناتاشا فترة طويلة. ولما قرر النظر إليها، كانت قد اتخذت وجهاً جامداً صارماً بل محتقراً على ما بدا له.

سألت الأميرة ماري:

ـ إذن، هل صحيح أنك رأيت ناپليون وتحدثت إليه كما قالوا لنا؟

فراح پيار يضحك:

ـ ولا مرة واحدة، أبداً يبدو للناس جميعاً أن الوقوع في الأسر معناه المكوث في ضيافة ناپليون. إنني لم أره فحسب بل كذلك لم أسمع أحداً يتحدث عنه. لقد كنت في صحبة أسوأ مما تظنين.

كادوا ينتهون من الطعام ووجد پيار نفسه منساقاً إلى التحدث عن أسره وهو الذي تجنَّب بادئ الأمر الخوض في هذا الموضوع.

سألته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة: هل صحيح أنك مكثت في موسكو لتقتل ناپليون؟ لقد خمنت ذلك عندما التقينا قرب برج سوخارييف، هل تذكر؟

اعترف پيار بأن ذلك صحيح. واستسلم أخيراً، تدفعه تدريجاً أسئلة الأميرة ماري وخصوصاً أسئلة ناتاشا، إلى رواية مغامراته بالتفصيل.

تحدث أولاً بتلك المسحة الساخرة التي أصبحت الآن ترافق أحكامه على الآخرين وعلى نفسه بصورة خاصة لكنه عندما بلغ في حديثه إلى الأهوال والآلام التي شهدها، احتدّ دون أن يشعر بذلك وراح يعبر عن مشاعره بالانفعال الكامن الذي يعتلج في نفس إنسان عاش فترات أليمة مؤثرة.

كانت الأميرة ماري تنظر تارة إلى پيار وأخرى إلى ناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة أنيسة. كانت ترى في كل ما تسمعه، پيار وطيبته فحسب. أما ناتاشا، فكانت متكئة بمرفقيها على الطاولة تتبدل أمارات وجهها باستمرار، تتابع ما يقوله پيار دون أن تغادره بعينيها لحظة واحدة، وكأنها تحيا معه في كل ما يرويه. ولم تكن نظرتها وحدها تبرهن لپيار على أنها تفهم كل ما يريد التنويه به، بل كذلك هتافات الدهشة التي كانت تطلقها والأسئلة المختصرة التي كانت تطرحها عليه. وكان يستنتج أنها لم تستوعب القصة التي يرويها فحسب، بل كذلك ما لم تكن الكلمات قادرة على التعبير عنه. وفيما يلي الأسلوب الذي روى فيه پيار قصة المرأة والطفل اللذين أنقذهما واللذين كانا سبب توقيفه: «كان مشهداً مريعاً، أطفال مهجَّرون، وبعضهم في أحضان اللهب... ولقد أخرجوا واحداً أمامي من النار... نساء كانوا يسلبونهن ما معهن وينتزعون الأقراط من آذانهن»... واحمرَّ وجه پيار فجأة وتمتم:

ـ وحينئذ ظهرت دورية من العسس فاقتادت كل الرجال، كل الذين لم يسلبوا، وأنا بينهم.

قالت ناتاشا: إنك لا تذكر كل شيء. لا بدَّ وأنك قمت بشيء ماء؟

ثم أردفت بعد توقف: شيئاً ما جميلاً.

تابع پيار حديثه، ولما وصل إلى مرحلة إعدام مشعلي النار، أراد أن يكتم تفاصيل مريعة جداً لكن ناتاشا أرغمته على عدم إسقاط شيء.

وكان پيار الذي نهض عن الطاولة وبدأ يذرع الغرفة وعينا ناتاشا شاخصتان إليه يريد أن يتحدث عن كاراتاييف. لكنه توقف.

ـ كلا، لا يمكنكما أن تفهما كل ما علمنيه ذلك الأمي، البسيط الفكر.

فقالت ناتاشا: ولكن بلى، ولكن بلى. استمر. ماذا حدث له؟

ـ لقد قتلوه تحت نظري تقريباً.

وروى پيار أيام تقهقرهم الأخيرة مع الجيش الفرنسي ومرض كاراتاييف وموته وصوته دائم التهدج.

كان يروي مغامراته وكأنه لم يستعرضها قط في ذاكرته من قبل. لقد اتخذ كل ما قاساه معنى جديداً الآن في نظره. وبينما هو يتحدث إلى ناتاشا، كان يتذوق تلك المتعة النادرة التي تسبغها على الرجال، النساء اللاتي يصغين إليهم، ليس النساء الحاذقات اللاتي يبذلن جهدهن وهن يصغين إلى استيعاب ما يُقال لهن لإغناء فكرتهن، ولكي يعدن الرواية عند حلول المناسبة مرتبة وفق هواهن، ويروجنها بوصفها إنتاجاً أعد في مطبخهن الفكري الصغير بل إن المتعة التي كان يشعر بها، كانت تلك التي تسبغها النساء الحقيقيات، أولئك اللاتي يعرفن كيف ينتقين أفضل ما يُقال لهن ولا يشبهنه إلا بالأفضل.

كانت ناتاشا دون أن تدري كلها آذان صاغية. لم تكن تضيع كلمة ولا نبرة صوتية ولا نظرة ولا حركة من حركات پيار ولا ارتعاشة عضلة من عضلات وجهه. كانت تلتقط الكلمة قبل أن يكاد يفوه بها وتنقلها مباشرة إلى قلبها وهو

على أتم استعداد لتلقيها. ولقد خمنت المعنى المستتر لكل ما يعتلج في نفس پيار.

وكانت الأميرة ماري تفهم القصة وتساهم فيها لكنها كانت ترى في الوقت نفسه شيئاً آخر امتلك كل انتباهها. كانت ترى إمكانية قيام حب وسعادة بين ناتاشا وپيار. ولقد ملأتها هذه الفكرة التي واتتها للمرة الأولى، بالفرح.

بلغت الساعة الثالثة صباحاً وجاء الخدم بوجوههم الصارمة يبدلون الشموع ولكن لم يلق إليهم أحد بالاً.

أنهى پيار حديثه واستمرت ناتاشا تتأمله شاخصة الأنظار وعيناها تلتمعان بحيوية وكأنها ترغب في أن تعرف ما تبقى له أن يقول مما يمكن أن يكون قد أخفاه. وراح هو، يختلس النظر إليها مضطرباً سعيداً، ويتساءل عن الموضوع الذي يجب أن يثيره لإذكاء الحديث، بينما كانت الأميرة ماري صامتة ولم يكن أحد من الثلاثة يشعر بأن الساعة بلغت الثالثة وأن وقت النوم قد حان.

صاح پيار:

إنهم يتحدثون عن الشقاء والألم. لكنهم لو قالوا لي الآن في هذه اللحظة هل تفضل أن تعود إلى ما كنت عليه قبل الأسر أم أن تعيش مجدداً كل هذه المغامرة من بدايتها؟ لأجبتهم: بحق الله، أعيدوا إليّ الأسر ولحم الحصان. إن المرء يعتقد بأنه ضائع منذ أن يلقى خارج الطريق المألوف، في حين أن هنا يبدأ شيء جديد، طيب أن السعادة موجودة ما وجدت الحياة ولدينا أمامنا سعادة، كثيراً من السعادة.

وأضاف مخاطباً ناتاشا: إنني أوجه هذا القول إليك بصورة خاصة.

فأجابت وأفكارها نائية:

ـ نعم، نعم، أما أنا، فإنني لا أرغب في أكثر من أن أعيش الحياة التي عشتها من قبل.

تأملها پيار بانتباه فقالت مؤيدة: نعم ولا شيء أكثر!

صاح پيار:

ـ هذا خطأ، كل الخطأ! إنني لست مسؤولاً أن أعيش وأن أرغب في العيش ولا أنت كذلك.

وفجأة أسقطت ناتاشا رأسها بين يديها وانخرطت في البكاء. سألت الأميرة ماري ناتاشا، ما بك؟

ـ لا شيء، لا شيء، وابتسمت لپيار خلال دموعها، إلى اللقاء، لقد حان وقت النوم.

فنهض پيار واستأذن منصرفاً.

تقابلت الأميرة ماري وناتاشا كعادتها في غرفة نومها وتحدثتا عما رواه پيار. لكن الأميرة ماري لم تقل رأيها في پيار وكذلك ناتاشا، فإنها لم تتحدث عنه.

قالت ناتاشا:

ـ هيا، عمي مساء يا ماري إنني غالباً ما أخاف كما تعلمين من كثرة عدم تحدثنا عنه، عن الأمير أندريه، وكأننا نخشى أن ندنس عاطفتنا فننساه.

تنهَّدت الأميرة ماري تنهدة عميقة وكان معنى تلك التنهدة أنها تجد أن ناتاشا قد صدقت القول لكنها مع ذلك لم تعرب لها عن تأييدها. قالت:

ـ وهل يمكن النسيان؟

فأجابت ناتاشا:

ـ لقد أفادني جداً أن تحدثنا على هذا النحو اليوم. كان ذلك أليماً صعباً، لكنه أفادني. إنني واثقة بأنه كان يحبه حقاً ولهذا السبب قصصت عليه...

وفجأة سألت وقد احمرَّ وجهها:

ـ هل كنت مخطئة؟

فصاحت الأميرة ماري:

ـ بتحدثك إلى بيار؟ أوه! كلا! إنه شديد الطيبة.

استأنفت ناتاشا فجأة وعلى شفتيها الابتسامة اللطيفة التي لم تعد الأميرة ماري تراها على وجهها منذ مدة طويلة:

ـ هل تعلمين أنه أصبح شديد النظافة شديد الوضوح منتعشاً جداً وكأنه خارج تواً من الحمام، هل تفهمينني؟ حمام معنوي أليس صحيحاً؟

فردت الأميرة ماري: نعم، لقد كسب كسباً كبيراً.

ـ ومعطفه الرسمي القصير، وشعره المعنى به، تماماً مثل الخارج من الحمام... مثل أبي سابقاً..

قالت الأميرة ماري: أفهم «أنه»، الأمير أندريه، لم يحب قط إنساناً بقدر ما أحبه.

ـ نعم. مع أنه ليس بينهما شيء مشترك، يزعمون أن الصدقات بين الرجال تقوم بين أفراد مختلفين ويجب الاعتقاد بصحة ذلك إذ هل يشبهه في شيء حقاً؟

ـ على أية حال، إنه فتى رائع!

ردت ناتاشا: هيا، عمي مساء.

وظلت الابتسامة اللطيفة على وجهها فترة طويلة وكأنها نسيت عليه.

الفصل التاسع عشر

لم يستطع پيار النوم في ذلك اليوم فمكث طويلاً يذرع غرفته طولاً وعرضاً، ويقطب حاجبيه تارة وهو مستغرق في أفكاره ويهز كتفيه تارة أخرى وكأن الرعشة تسري في كل جسمه وتارة يبتسم باغتباط.

كان يفكر في الأمير أندريه وناتاشا وفي عشقهما فيشعر تارة بالغيرة من ناتاشا وماضيها ويأخذ على نفسه غيرته تلك تارة أخرى ويعتذر عن نفسه تارة ثالثة وكانت الساعة السادسة صباحاً وهو لا يزال في نزهته عبر غرفته.

حدث نفسه وهو يخلع ثيابه بعجلة ويتمدد على سريره متأثراً ولكن دون أن يشعر بشك ولا بتردد:

ـ ولكن ما العمل في ذلك طالما لا يمكن معالجته في شيء؟ ما العمل في ذلك. لا شك أن الأمور يجب أن تكون على هذا النحو.

وحدث نفسه: «مهما بلغت غرابة هذه السعادة واستحالتها يجب عليّ أن أفعل كل شيء لنصبح زوجاً وزوجة».

لقد حدد قبل أيام سفره إلى پيترسبورغ. فلما استيقظ وكان يوم خميس، جاء سافيليتش يسأله أوامره بصدد استعدادات السفر.

تساءل پيار رغماً عنه: «لماذا السفر إلى پيترسبورغ؟ ولماذ أذهب، وما عملي هناك؟ ماذا يوجد هناك؟» ثم تذكر: «آه! نعم، كنت مزمعاً الذهاب إلى هناك قبل أن يحدث ذلك. لم لا؟ سأذهب فيما بعد». وفكر وهو ينظر إلى

ساڤيليتش العجوز: «يا له من رجل باسل، ويا لحسن عنايته، إنه يفكر في كل شيء! ثم يا لابتسامته اللطيفة».

سأل پيار:

ـ إذن ما زلت يا ساڤيليتش لا ترغب في أن تصبح حراً؟

ـ ماذا أفعل بالحرية يا صاحب السعادة؟ لقد عشنا أفضل حياة تحت أوامر المرحوم سيدي الكونت ـ ليتغمد الله روحه! ـ وتحت أوامرك أيضاً دون أن يكون لنا ما نشكو منه.

ـ ولكن أطفالك؟

ـ إن الأطفال سيعملون مثلنا يا صاحب السعادة. يستطيعون أن يعيشوا مع أسياد مثلك.

سأل پيار: وورثتي؟

وأضاف وعلى شفتيه ابتسامة لا إرادية:

ـ قد أتزوج ذات يوم... وهذا ممكن الوقوع.

ـ وإنني أسمح لنفسي أن أقول يا صاحب السعادة إن ذلك سيكون جيداً جداً.

ففكر پيار: «ها إنه يعتقد ذلك بسيطاً جداً. إنه لا يدرك مبلغ ما هو مريع وخطير. وهو واقع إن آجلاً أو عاجلاً... إنه شيء مريع!».

سأل ساڤيليتش:

ـ ما هي أوامر سيدي؟ ألا يسافر سيدي غداً؟

فأجاب پيار: كلا لقد أرجأت السفر قليلاً إلى ما بعد. وسوف أخطرك. أعذرني إذ سببت لك كل هذه المصاعب.

ولما رأى ساڤيليتش يبتسم فكر: «كم هذا يثير الفضول، إنه لا يشك أبداً في أن المسألة لم تعد مسألة سفر إلى پيترسبورغ وأنه قبل ذلك يجب الفراغ

من أمر ما. على أية حال، إنه يرتاب وإن كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً». ثم تساءَل: «هل يجب أن أحدثه بالموضوع؟ أن أسأله رأيه فيه؟ كلا، سيكون ذلك مرة أخرى».

حدث پيار ابنة عمه خلال الطعام بأنه كان بالأمس عند الأميرة ماري وأنه شاهد هناك «هل تستطيعين أن تتصوري من؟ ناتاشا روستوف».

تظاهرت بأنها لا تجد ذلك خارقاً أكثر مما لو قال لها پيار أنه شاهد هناك مثلاً ذات أنّا سيميونوڤنا.

سأل پيار: هل تعرفينها؟

فأجابت:

ـ لقد رأيت الأميرة وسمعت بأنها مخطوبة إلى روستوف الشاب سيكون ذلك ذا نفع كبير لآل روستوف. إنهم يشيعون بأنهم في دمار كامل.

ـ كلا، الآنسة روستوف، هل تعرفينها؟

ـ لقد سمعتهم يروون قصتها. وإنها لقصة محزنة.

حدث پيار نفسه: «إنها بالتأكيد لا تعرف شيئاً أم لعلها تتظاهر بأنها لا تعرف شيئاً، يجدر بي ألّا أحدثها هي الأخرى بشيء».

ولقد أعدت ابنة العم هي الأخرى بعض الزاد لسفر پيار. فكر هذا:

«كم هم طيبون. إنهم يفكرون في كل هذا في حين أن لا فائدة لهم منه. وكل ذلك من أجلي، كم يدهشني ذلك».

وفي ذلك اليوم بالذات، جاء رئيس الشرطة يعلم پيار بوجوب إرسال رجل أهل للثقة إلى قصر ڤاسيت، في الكرملين، ليشرف على توزيع الأمتعة التي ستمنح لأصحاب الأملاك.

فكر پيار وهو يتأمل وجه رئيس الشرطة: «وهذا أيضاً. يا له من رجل باسل، يا له من ضابط رائع ويا له من إنسان طيب! الاهتمام «الآن» بمثل هذه

التفاهات! في حين أنهم يزعمون بأنه غير شريف وأنه يقبل الرشى. كم هذه غباوة! ثم لماذا لا يتقبل المال؟ لقد عودوه ذلك. إنهم جميعاً يعلمون هذا العمل ولكن يا له من وجه أنيس ويا لها من ابتسامة حلوة عندما ينظر إليّ!».

ذهب پيار يتناول الغداء لدى الأميرة ماري.

وبينما هو يجتاز الشوارع بين أنقاض البيوت، أدهشه جمال تلك الدور المتهدمة. كانت هناك أنابيب مدافىء وأجزاء من جدران خربة تذكره بقوة بضياع الرين والكوليزيه[1]، تمتد مختبئة بعضها وراء بعض في الأحياء المحترقة. وكل الأشخاص الذين كان يقابلهم، سائقو العربات، النجارون وهم ينظمون الألواح، الباعة، البقالون، كلهم كانوا ينظرون إليه بغبطة وكأن جوههم المشرقة تقول: «آه! هذا هو! لنر ماذا سينتج من كل ذلك!».

ولما دخل إلى منزل الأميرة، تساءل پيار عم إذا كان حقاً قد جاء إلى هنا أمس وإذا كان حقاً رأى ناتاشا وتحدث معها. «لعلني حلمت بذلك. لعلني سأدخل فلا أجد أحداً». لكنه ما كاد يجتاز عتبة القاعة حتى أشعره اختفاء حريته الكامل بوجود ناتاشا شعوراً أحس به بكل كيانه. كانت ترتدي ذلك الثوب الأسود إياه ذا الثنيات الرخوة وتسريحة الشعر تلك التي بدت فيها مساء أمس. ومع ذلك، فقد كانت مختلفة تماماً ولو أن شكلها هذا كان هو شكلها بالأمس عندما دخل، لما كان يمكن ألّا يعرفها للوهلة الأولى.

كانت مثلما عرفها عندما كانت طفلة تقريباً ثم مخطوبة الأمير أندريه. وكانت ومضة فرح تشع في عينيها المستفسرتين ووجهها يحمل تعبيراً حانياً وكيساً كياسة غريبة في آن.

وكان پيار بعد الغداء يود لو مكث طوال السهرة هناك لكن الأميرة ماري

---

(١) مسرح في روما انتهى بناؤه عام ٨٠ق.م. يضم ثمانين صفاً لثمانين ألف متفرج. (المترجم).

كانت تريد حضور قداس المساء، فاضطر بيار إلى الانصراف عندما انصرفت الصديقتان.

وفي اليوم التالي عاد مبكراً فتناول الطعام وأمضى السهرة كلها. ولكن على الرغم من اللذة الواضحة التي أظهرتها كل من الأميرة ماري وناتاشا لرؤيته، وعلى الرغم من أن كل ما في حياته من غرض قد تركز الآن في ذلك المنزل فإن الحديث بقي كثير التقطع، ينتقل من موضوع تافه إلى آخر مثله وينقطع غالب الأحيان. ولقد تأخر بيار كثيراً حتى أن الأميرة ماري وناتاشا تبادلتا النظرات. وتساءلتا عم إذا كان سينصرف بعد حين. وكان يرى ذلك لكنه لا يستطيع الذهاب. لقد شعر كثيراً بالانزعاج والارتباك لكنه بقي مع ذلك جالساً لأنه «لم يكن يستطيع» النهوض والانصراف.

ولما لم تجد الأميرة ماري نهاية للموقف، نهضت واقفة متذرعة بصداع واستأذنته منصرفة.

قالت: إذن. سيكون غداً موعد سفرك إلى بيترسبورغ؟

فأجاب بيار بدهشة وكأن السؤال يهينه ويأخذه على حين غرة:

ـ كلا لست مسافراً. نعم... كلا... إلى بيترسبورغ؟ غداً.

وأضاف وهو واقف أمام الأميرة ماري محمرّ الوجه ولكن دون أن يبدي رغبته في الذهاب:

ـ لكنني لا أقول لكما وداعاً. سأحضر لأسألكما ما تريدان أن أقوم به لكما من خدمات.

مدت ناتاشا له يدها وانصرفت وبدلاً من أن تنحو الأميرة ماري نحوها، عادت إلى كنبتها تغرق فيها وتشمل بيار بنظرة عميقة خطيرة ويقظة. ولقد اختفى التعب الذي تظاهرت به منذ حين. أطلقت تنهدة عميقة وكأنها تتأهب لحديث طويل.

ولقد تبدد فجأة كل تشوش پيار وارتباكه بذهاب ناتاشا وحلّت محلهما حيوية متأججة. أسرع يقرب مقعده من كنبة الأميرة ماري وشرع يقول جواباً عن نظرتها وكأنها سؤال:

ـ نعم، كنت أريد أن أقول لك يا أميرة، ساعديني: ماذا يجب أن أفعل؟ هل يمكنني أن أطمح؟ أيتها الأميرة، يا صديقتي العزيزة، اصغي إلي. إنني أعرف كل شيء. أعرف أنني لا أستحقها وأعرف أنه لا يمكن التطرق إلى هذا الموضوع في الوقت الحاضر. لكنني أريد أن أكون أخاً لها. كلا. ليس هذا، لست أريد، لا أستطيع...

توقف ومر بيده على عينيه ووجهه واستأنف: حسناً، إليك الموضوع.

وبذل مجهوداً ظاهراً على نفسه كي يتحدث باطراد متماسك:

ـ لست أدري منذ متى أحبها. لكنها هي، هي وحدها، التي أحببتها طوال حياتي والتي أحبها لدرجة يتعذر معي أن أتصور الحياة بدونها، إنني لا أسعى إلى طلب يدها فوراً، لكن التفكير في أنها يمكن أن تكون لي وأنني قد أفوت على نفسي هذه الفرصة... هذه الإمكانية...! منها مخيفة قولي لي هل لي أن آمل؟ قولي لي، ماذا يجب أن أعمل؟ يا أميرتي العزيزة!

وبعد فترة صمت لمس يدها حين رأى أنها لا تجيب.

قالت الأميرة ماري: إنني أفكر في ما قلته لي وهذا ما أفكر فيه أنك على حق أن تحدثها الآن عن الحب...

وتوقفت الأميرة. أرادت أن تقول: أن تحدثها الآن عن الحب أمر مستحيل لكنها لم تستطع النطق بهذا الرأي حتى النهاية وهي التي لاحظت منذ أمس الأول تبديلاً مفاجئاً طرأ على ناتاشا ورأت أنها إلى جانب عدم اعتبار حديث پيار إليها عن الحب إهانة لها، لا ترغب إلا في ذلك الحديث.

رغم ذلك، أكملت الأميرة ماري جملتها:

ـ أن تحدثها عن الحب الآن... مستحيل.

ـ إذن ماذا يجب أن أعمل؟

فقالت الأميرة ماري: دعني أتصرف. إنني أعرف...

فنظر پيار إلى عينيها وقال:

ـ قولي، قولي...

صححت جملتها:

ـ إنني أعرف أنها تحبك... وأنها ستحبك.

ولم تكد تنطق بهذه الكلمة حتى انتفض پيار وأمسك بيدها وعلى وجهه أمارات الهلع.

ـ لماذا تظنين ذلك؟ هل تظنين أن بوسعي التمسك بالأمل؟ هل تظنين؟

فأكدت الأميرة ماري مبتسمة:

نعم أظن ذلك، اكتب إلى ذويها واعتمد علي. سوف أحدثها عندما يحين الوقت. إنني أرغب في ذلك. وقلبي يحدثني بأن ذلك سيتم.

ـ كلا، كلا، هذا لا يمكن أن يكون! كم أنا سعيد!

وأخذ پيار يردد: لا، هذا غير ممكن، وهو يقبل يدي الأميرة ماري. قالت له: ولكن اذهب إلى پيترسبورغ، ذلك أفضل وسوف أكتب لك.

ـ إلى پيترسبورغ؟ السفر؟ نعم، حسناً جداً، سأذهب. ولكن هل أستطيع الحضور لرؤيتك غداً؟

وفي اليوم التالي جاء پيار يودعها. كانت ناتاشا أقل حيوية من الأيام السابقة لكنه ذلك اليوم، عندما كان ينظر إلى عينيها، كان پيار يشعر بأنه يختفي وبأنه ليس هناك پيار ولا ناتاشا، بل الشعور بالسعادة وحده. كان يكرر تساؤله لنفسه: «هل هذا ممكن؟ كلا، ذلك لا يمكن أن يكون!» ويردد ذلك بعد كل

نظرة وكل حركة وبعد كل كلمة من كلمات ناتاشا وكلها أشياء تطفح بها روحه من الغبطة.

وفي لحظة الفراق، أخذ يدها الدقيقة الهزيلة واستبقاها في يده فترة ما بالرغم منه.

«هل يمكن أن تكون هذه اليد وهذا الوجه وهاتان العينان، كل هذا الكنز من الجمال النسائي الغريب عني، هل يمكن أن يصبح كل هذا ملكي إلى الأبد، أن يصبح لي مثل نفسي؟ كلا هذا لا يمكن أن يكون!...».

قالت له بصوت مرتفع: إلى اللقاء يا كونت.

ثم أضافت بصوت خفيض: سوف أنتظرك بفارغ الصبر.

ولقد كانت هذه الكلمات البسيطة والنظرة والتعبير اللذان رافقاها، منبع ذكريات لا ينضب بالنسبة إلى پيار طوال شهرين ومبعث افتراضات وأحلام سعيدة. «سوف أنتظرك بفارغ الصبر...» نعم، نعم، كيف قالت ذلك؟ نعم «سأنتظرك بفارغ الصبر». آه كم أنا سعيد!، كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كم أنا سعيد!.

ولم يفتأ پيار يردد ذلك.

الفصل العشرون

في تلك الفترة، لم يكن في نفس پيار شيء مماثل لما كان يشعر به في مناسبات متشابهة، أثناء فترة خطبته لهيلين.

لم يكن يكرر على نفسه كذلك العهد الكلمات التي قالها، بخجل مرضي ولا يحدث نفسه قائلاً: «آه! لِمَ لَمْ أقل هذا، لماذا، لماذا قلت: أحبك؟» أما الآن فعلى العكس، كان يكرر في ذاكرته كل كلمة من كلماتها، وكل كلمة من كلماته. وهو يرى بعين الخيال الأمارات نفسها والابتسامة نفسها دون أن يرغب في إبدال شيء وإضافة شيء مهما كانت أهميته. كان كل ما يرغب فيه هو ترديد تلك الأقوال أيضاً. وأيضاً لم يتساءل لحظة واحدة عم إذا كان ما يبدأ به سيئاً أم جيداً مع ذلك، فإن نوعاً من الرهبة كان يتسلط عليه أحياناً: ولكن، أليس كل هذا أضغاث أحلام ألم تخطئ الأميرة ماري؟ ألست مفرط الثقة بها؟ إنني مطمئن. وفجأة يقع ما يجب أن يقع سوف تكلمها الأميرة ماري وعندئذ سوف تبتسم وتجيب: كم هذا غريب! إنه مخدوع بلا شك ألا يعرف بأنه مجرد رجل، لا أكثر من رجل، في حين أني أنا... شيء آخر مختلف تماماً، إنني مخلوق متفوق.

كانت تلك الخشية وحدها تعذب پيار. لم يكن يضع أي مشروع للمستقبل إذ إن السعادة التي تنتظره كانت تبدو بعيدة التصديق لدرجة كان يكفيه أن يراها تتحقق. وبعد ذلك، لا يمكن لأي شيء أن يكون موجوداً. سوف يتحقق كل شيء.

استحوذ على پيار خبل مفاجئ كان يعتقد أنه عاجز عن مثله. كان كل معنى الحياة، ليس بالنسبة إليه فقط بل بالنسبة إلى العالم أجمع، يتلخص في حبه وفي إمكان أن يكون محبوباً منها. كان يخيل إليه أحياناً أن الناس كلهم منشغلون بشيء واحد، بسعادته المقبلة، ويخيل إليه أنهم جميعاً مبتهجون بقدار ما هو مبتهج، لكنهم يتظاهرون بإخفاء ذلك الفرح متظاهرين بأنهم منصرفون إلى مصالحهم الأخرى. كان يرى في كل كلمة وفي كل حركة تلميحاً إلى سعادته.

وكان غالباً ما يفاجئ الذين يقابلونه بنظراته وابتساماته المعبرة طافحة بمشاركة سرية ومشعة بالسعادة لكنه عندما كان يلاحظ أن الأشخاص يمكن أن يكونوا جاهلين بسعادته، كان يرثي لهم من كل نفسه ويشعر بالرغبة في إفهامهم بأن كل ما يشغلهم ليس إلا تفاهة لا يستأهل عناء الالتفات إليه.

وعندما كانوا ينصحونه بالاضطلاع بأعباء خدمة ما أو يصدرون في حضرته الحكم على مسألة ذات طابع عام تتعلق بالدولة أو بالحرب، ويزعمون أن هذا الحل أو ذاك هو الذي تتوقف عليه سعادة الجميع، كان يصغي إلى المحاضر وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة مشفقة ويدهش الذين يتحدثون معه بغرابة ملاحظاته. لكن كل الذين كانوا يبدون له أنهم فاهمون معنى الحياة الحقيقي أي شعوره هو، مثل التعساء الذين بدون شك لم يكونوا يفهمون. كل هؤلاء كانوا يبدون له في مثل الحقبة من حياته تحت الضوء الساطع المنبعث من الشعور الذي يضيء روحه، لذلك فإنه كان يرى دون أي عناء في أول من يقع نظره عليه، كل ما هو جيد وجدير بالحب.

تفحص أوراق زوجته المتوفاة فلم يشعر لذكراها بأية عاطفة. كان يرثي لها فقط لأنها لم تتعرف إلى السعادة التي بات يتذوقها الآن. وبدا الأمير

ڤاسيلي شديد الفخار بوسامه الجديد وبالمركز الجديد الذي حصل عليه، بدا لعيني پيار عجوزاً يثير الشفقة والرثاء، طيباً.

تذكر پيار غالباً فيما بعد، هذه الفترة من الجنون السعيد. لقد استمرت الأحكام كلها التي أصدرها حينذاك على الناس والأشخاص عادلة في نظره لا يتطرق إليها الشك. ولم يكتفِ بعدم التنكر فيما بعد لأية وجهة نظر ارتآها حينذاك، بل كان على العكس، يسرع دائماً إلى الفكرة التي تبناها خلال فترة جنونه كلما تطرق إلى نفسه الشك العميق أو التردد. وكانت تلك الفكرة تبدو دائماً صحيحة.

كان يفكر: «لعلني بدوت حينذاك غريباً ومثيراً للضحك، لكنني لم أكن حينذاك مجنوناً بقدر ما يظنون. لقد كنت على العكس، أكثر إحساساً ونفاذ بصيرة مما لم أكنه قط. وكنت أفهم كل ما يجب أن يفهم في الحياة لأنني كنت سعيداً».

وكان پيار يقوم على أساس أنه لم يعد كسابق عهده ينتظر أن تكون لديه أسباب شخصية ليحب الناس على أساسها، كان يدعوها ميزان أولئك الناس، بل إن الحب كان يطفح من قلبه فكان يحب الناس دون سبب ويجد أسباباً لا تقبل الجدال تدفعه إلى محبتهم.

الفصل الحادي عشر

منذ أن قالت ناتاشا بعذ ذهاب بيار، في ذلك المساء، للأميرة ماري بابتسامتها المرحة إنه كان «تماماً، حقاً تماماً كأنه خارج من الحمام، بسترته الرسمية القصيرة وشعره المعنى به»، منذ تلك اللحظة ، استيقظ في أعماق ناتاشا شيء سرّي مجهول منها ولكن لا يمكن مقاومته. ولقد تبدل وجهها واختلفت أماراتها ونظرتها. انبعثت في نفسها قوة حيوية كانت تشتبه في وجودها وآمال في السعادة وأخذت تطالب بنصيبها. ومنذ الليلة الأولى، بدت ناتاشا وكأنها نسيت كل ما اجتازته منذ حين. لم تعد تشكو مرة واحدة في الأيام التالية من وضعها ولا تنوه ولو مرة واحدة بماضيها ولا تخشى أن تبيت المشاريع البهيجة للمستقبل. كانت قليلة الكلام عن بيار. ولكن عندما كانت الأميرة ماري تشير إليه، كانت نار خمدت في نفسها منذ أمد طويل تعود إلى الاتّقاد في عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة غريبة.

ولقد أدهش التبدل الذي طرأ على ناتاشا الأميرة ماري بادئ الأمر. ولما عرفت السبب، شعرت بالكآبة. فكرت الأميرة ماري عندما بقيت وحدها تمعن النظر في ذلك التحول: «أتراها كانت تحب أخي محبة سطحية حتى يتيسر لها الآن أن تنساه بمثل هذه السهولة؟» لكنها عندما كانت تجتمع بناتاشا، لم تكن تحقد عليها ولا توجه إليها أي لوم. كانت القوة الحيوية المستيقظة في نفس ناتاشا مستولية عليها بشكل لا يقبل المقاومة حقاً، شكل لم يكن متوقعاً من

جانبها نفسها، حتى أن الأميرة ماري بدأت تشعر في حضرتها بأنها لا تملك حق اتهامها حتى ولا سراً في أعماق نفسها.

أما ناتاشا، فكانت مستسلمة لامتلاء كلي وإخلاص لشعورها الجديد حتى أنها لم تكن تحاول إخفاء حلول المرح والابتهاج محل الكآبة والحزن.

وعندما ذهبت الأميرة ماري إلى غرفتها بعد تفاهمها مع پيار، جاءت ناتاشا تستقبلها على العتبة.

سألتها بإلحاح: هل تعلم؟ نعم؟ هل تعلم؟

وارتسم على وجه ناتاشا تعبير مرح وأليم في الوقت نفسه يسأل الصفح عن فرحها.

ـ كنت أريد أن أصغي وراء الباب. لكنني كنت أعرف أنك ستحدثينني بكل شيء.

ومهما بلغت النظرة التي شملت بها ناتاشا الأميرة ماري عن امتناع عن الإدراك عند هذه وإثارة للعطف، ومهما بلغ إشفاقها عليها لانفعالها وقلقها، فإن أقوال ناتاشا آلمتها بادئ الأمر. تذكرت أخاها وحبَّه.

فكرت: «ولكن ماذا أفعل؟ لا يمكنها أن تكون غير ما هي عليه».

وكررت على ناتاشا بلهجة حزينة فيها بعض الصرامة، كل ما قاله پيار منذ حين. ولقد دهشت ناتاشا عندما عرفت بأنه سيسافر إلى پيترسبورغ. رددت وكأنها لا تفهم المعنى:

ـ إلى پيترسبورغ!

لكنها عندما لمحت تعبير الحزن الذي انطبع على وجه الأميرة ماري، خمنت السبب وفجأة انخرطت في البكاء.

قالت:

ـ ماري، قولي لي ماذا يجب أن أعمل: إنني أخشى أن أكون رديئة سوف أعمل ما تشيرين عليّ به، أعلميني...

ـ هل تحبينه؟

فهمست ناتاشا: نعم.

قالت الأميرة ماري التي غفرت لناتاشا ابتهاجها بالنظر إلى دموعها:

ـ وإذن لماذا تبكين؟ إنني سعيدة من أجلك.

ـ لن يكون الأمر فورياً، بل، فيما بعد... فكري في السعادة التي ستغمرنا عندما أصبح أنا زوجته وتصبحين أنت زوجة نيكولا.

ـ ناتاشا، لقد سألتك من قبل ألّا تتحدثي عن هذا الأمر. إن المسألة تتعلق بك الآن.

وصمتتا كلتاهما.

وفجأة استأنفت ناتاشا: ولكن، لماذا يسافر إلى پيترسبورغ؟

لكنها سارعت تجيب نفسها عن سؤالها قائلة:

ـ كلا، كلا، يجب ذلك. أليس كذلك يا ماري؟ يجب أن يسافر...

الخاتمة

القسم الأول

الفصل الأول

إن القوى الخفية التي تحرك الإنسانية لأننا نجهل قوانين حركتها بقيت على حركتها بعد سبع سنوات إذ رجع محيط التاريخ الصاخب إلى شواطئه فبدا هادئاً.

وعلى الرغم من أن كل شيء بدا ساكناً على سطح هذا المحيط من التاريخ، فإن الإنسانية استمرت مثابرة على حركتها الدائمة كسابق عهدها، فاتخذت جمهرات بشرية كثيرة أو انفرط عقدها وأنضجت أسباباً جديدة لتشكيل حكومات وتجزئتها وأعدت هجرات شعوب.

لم يعد محيط التاريخ يندفع كسابق عهده فجأة من شاطئ إلى آخر: لقد بدأ يغلي في الأعماق. ولم تعد الشخصيات التاريخية تجرف بالأمواج من شاطئ إلى آخر بل بدت الآن تدور في مكانها. فالشخصيات التاريخية التي كانت من قبل على رأس القطعات تعبر عن حركة الجماهير بأوامر حربية وحملات ومعارك، أصبحت تبعث الآن عن التعبير عن تلك الحركة بترتيبات سياسية ودبلوماسية وقوانين ومعاهدات.

ويطلق المؤرخون على هذا النشاط من جانب الشخصيات التاريخية اسم رد الفعل.

والمؤرخون بوصفهم نشاط الشخصيات التاريخية الذي هو سبب ما يسمونه (ردّ فعل) حسب زعمهم، إنما يحكمون على تلك الشخصيات. وكل الأشخاص المعروفين في ذلك العصر من ألكسندر ونابليون ومدام دوشتال

وفوسيوس[1] وشيلنغ[2] وفيخته[3] وشاتوبريان[4]، وآخرين، كانوا يمثلون أمام محكمتهم الصارمة، فيبرأون أو يحكم عليهم تبعاً لمساهمتهم في التطور أو في رد الفعل.

وتبعاً للمؤرخين، كان هناك رد فعل يتبدى في روسيا نفسها في ذلك العهد وكان المسؤول الأول عن ذلك ألكسندر الأول نفسه الذي كان دائماً، تبعاً لهم، المحرض الرئيسي للمبادرات المتحررة المتعلقة ببداية حكمه وبخلاص روسيا. واليوم، في الأدب الروسي، ابتداء من الطالب العادي وحتى أوسع المؤرخين علماً، ليس هناك رجل لا يلقي اللوم على ألكسندر الأول بسبب الأخطاء التي ارتكبت في تلك الفترة من عهده.

«كان عليه أن يتصرف على هذا النحو أو ذاك. في هذه المناسبة أحسن التصرف وفي تلك أساء. لقد تصرف تصرفاً رائعاً في بدء عهده وفي عام ١٨١٢ لكنه أساء إذ منح بولونيا دستوراً وأقام الحلف المقدس وأعطى أراكتشييف ملء السلطان وأيد جوليتسين ومذهب التصوف ثم بتشجيعه شيشكوف وفوسيوس. لقد أساء صنعاً إذ اهتم بالتدريبات العسكرية وحل فيلق سيميونوفسكي» إلخ...

ويقتضي لتعداد المظالم التي أحاطه المؤرخون بها باسم علم سعادة البشرية هذا الذين يزعمون امتلاك ناصيته، صفحات وصفحات.

ما معنى تلك المظالم؟

ألم تنجم التصرفات التي يؤيد المؤرخون ألكسندر الأول فيها وأعني

---

(١) بطريرك القسطنطينية أثار انفصال الروم الأكبر عن الكنيسة الرومانية.

(٢) شيلنغ فيلسوف ألماني، مؤلف طريقة المثالية الباطنية.

(٣) فيخته، فيلسوف ألماني، تلميذ كانط، وأستاذ شيلنغ.

(٤) شاتوبريان، كاتب فرنسي، عاش في إنجلترا. (المترجم).

مذهب التحرر عند بدء حكمه ونضاله ضد ناپليون والثبات الذي أظهره طوال عام ١٨١٢ ثم حمله ١٨١٣ عن المصادر إياها التي صدرت عنها التصرفات التي يذمونها مثل الحلف المقدس وإعادة الملكية إلى بولونيا ورد فعل عام ١٨١٠؟ وهذه المصادر هي التركة، الثقافة، شروط الكينونة، التي جعلت من شخصية ألكسندر الأول على ما كانت عليه.

وعلى ماذا تقوم تلك المظالم على وجه الدقة؟

على الأساس التالي: شخصية تاريخية من وزن ألكسندر الأول. موضوعة على رأس السلطة البشرية. في المركز الباهر الذي تتركز فيه كل الاشعاعات التاريخية. شخصية خاضعة لأقوى تأثيرات العالم. تلك التأثيرات التي لا تفصل عن سلطة الحكم: دسائس، كذب، إطراء، إعماء عن الذات، شخصية يشعر صاحبها في كل لحظة بمسؤوليته عن كل ما يدور في أوروبا، شخصية غير خيالية ولكن حقيقة حية تشبه أي إنسان آخر بعاداته الخاصة وأهوائه وميوله نحو الخير والجمال والصدق، هذه الشخصية أخطأت منذ خمسين عاماً، ليس لأنها كانت محرومة من الفضيلة.

وذمُّ المؤرخين لا ينصب على هذه الناحية، بل لأنه كان صاحب رأي آخر حول سعادة الإنسانية، مختلف عن رأي أستاذ اليوم الذي انصرف إلى العلم منذ حداثته والذي يستودع في دفتر ما قراءات ومحاضرات.

ولكن إذا فرضنا جدلاً أن ألكسندر الأول قد أخطأ منذ خمسين عاماً في وجهات نظره حول سعادة الشعوب، فإننا بالتالي نستطيع أن نفرض كذلك أن المؤرخ الذي يحكم عليه سيبدو، خلال زمن ما، مخطئاً في وجهات نظره حول سعادة الإنسانية هذه بالذات. وهذا الفرض طبيعي لا مراء فيه بقدر ما إذا تتبعنا تطور التاريخ نجد أن وجهة النظر حول السعادة البشرية تختلف عاماً بعد عام ومن مؤرخ إلى آخر لدرجة أن ما بدا لأول وهلة خيراً يصبح بعد

عشرة أعوام شراً والعكس بالعكس بل إننا نجد أكثر من ذلك، آراءَه في التاريخ نشرت في آن واحد متناقضة تماماً حول مدلول الخير والشر فبعضهم يطرون ألكسندر الأول بسبب الدستور الذي منحه لبولونيا ولعقده الحلف المقدس وآخرون يعتبرون هذه التدابير جريمة.

لا يمكن القول عن نشاط ألكسندر الأول ولا عن نشاط ناپليون أنه كان ضاراً ونافعاً إذا تعذر بيان كيف كان، ذلك النشاط لا يروق هذا أو ذاك، فلأنه لا يتفق فقط والمعرفة المحدودة التي اتخذها عن طبيعة الخير وإذا كان الخير بالنسبة إلى بقاء بيت أبي في موسكو سليماً عام ١٨١٢، أو انتصار الجيوش الروسية أو ازدهار جامعة پيترسبورغ أو أي مركز علمي آخر، أو حرية بولونيا أو قوة روسيا أو ذلك النمط من الحضارة الأوروبية المعروف تحت اسم تطور فإنني بالوقت نفسه مرغم على الاعتراف بأن نشاط كل شخصية تاريخية استهدف باستثناء هذه الأهداف، غايات أخرى ذات طابع أعم يفوق حد مفاهيمي.

ولكن لنفترض أن ما يسمونه العلم حاصل على قدرة تحويل كل المتناقضات مالك لوسيلة لا تخطئ لقياس الخير والشر سواء بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية أو إلى الأحداث.

لنفترض أن ألكسندر كان قادراً على التصرف في كل ظرف خلافاً لما فعل. لنفترض أنه كان قادراً تبعاً لإرشادات أولئك الذين يتهمونه والذين يزعمون معرفتهم بالهدف النهائي الذي تتوق الإنسانية إليه، لنفترض أنه كان قادراً على اتباع منهاج المصلحة القومية والحرية والمساواة والتطور، وليس هناك شيء أكثر جدة من هذا على ما يبدو، الذي يضعه له مشنعوه اليوم. ولنفترض أن هذا البرنامج كان ممكن التطبيق، جيد الإعداد وأن ألكسندر

الأول سار وفقاً له ماذا كان يحدث لنشاط الأشخاص كلهم الذين كانوا يعارضون حينذاك التوجيه المتخذ من قبل الحكومة وهو النشاط الذي، تبعاً لآراء المؤرخين، كان مفيداً وخيراً؟ لم يكن ذلك النشاط ليكون وما كانت الحياة لتكون وما كان ليحدث أي شيء.

فافتراض أن حياة البشرية يمكن أن تسير بواسطة العقل إنما هو نكران كل إمكانية للحياة.

الفصل الثاني

حسب نهج المؤرخين فإن الافتراض بأن الرجال العظام هم الذين يقودون البشرية لتحقيق الأهداف المعروفة، سواء أكانت عظمة روسيا أم عظمة فرنسا أم التوازن الأوروبي أم التطور العالمي أم أي هدف آخر، يجعل تفسير أحداث التاريخ مستحيلاً دون اللجوء إلى مدارك «الصدفة» و«العبقرية».

وإذا كانت غاية الحروب الأوروبية في غرة قرننا عظمة روسيا، فإن هذا الهدف كان قابل البلوغ دون أي من الحروب التي سبقت الغزو ودون الغزو نفسه. ولو كانت الغاية هي عظمة فرنسا، فإنها كان يمكن إدراكها بدون الثورة والملكية. ولو كان الهدف نشر بعض الأفكار، فإن المطبعة كانت قادرة على القيام به أفضل بكثير مما استطاع الجنود. ولو كانت الغاية تطور المدنية، فإن بالإمكان التقبل دون أي صعوبة بأن هناك من الوسائل الناجعة لنشر المدنية أفضل بكثير من إفناء الرجال وثرواتهم.

فلماذا إذن وقعت الأمور على هذا النحو وليس على نهج آخر؟ لأنها وقعت كذلك.

«فالصدفة» خلقت الموقف الفلاني: فاستخدمته «العبقرية» هذا ما يقوله التاريخ. ولكن ما هي الصدفة؟ ما هي العبقرية!

إن كلمتَي: صدفة وعبقرية، لا تعنيان شيئاً ما موجوداً، لذلك لا يمكن تحديدهما؟ إن هاتين الكلمتين لا تعنيان إلا درجة محدودة في مضمار فهم الظاهرات فأنا لا أعرف لماذا حدثت هذه الظاهرة أو تلك وأفكر بأنني

لا أستطيع دراية السبب وبالتالي لا أستطيع إدراكه فأقول: صدفة وأرى قوة تحدث أثراً فوق النسبة المتفقة مع إمكانيات الإنسان الشائعة فلا أدرك سبب هذا الحدث وأقول: عبقرية.

وبالنسبة إلى قطيع، يجب أن يكون الخروف الذي يقوده الراعي كل مساء إلى حظيرة خاصة ليعلف على حدة. والذي يصبح بالتالي ضعف حجم الآخرين، يجب أن يكون هذا الخروف عبقرياً. أما أن هذا الخروف نفسه الذي بدلاً من أن يمضي كل مساء إلى الحظيرة، يقاد إلى زريبة خاصة ليتلقى علفة خاصة وأن هذا الخروف بالذات عندما يصبح سميناً شحيماً يذبح من أجل لحمه، هذه الواقعة يجب أن تبدو على صورة مقارنة مدهشة للعبقرية ولسلسلة من الصدف الخارقة.

ولكن يكفي للخراف أن تكف عن التفكير في أن ما يقع لها ينجم عن واقع وجوب بلوغها أهدافاً مختارة لفصيلة الخراف. يكفيها أن تتقبل أن لكل ذلك غاية مجهولة منها وحينئذ سترى وحدة وتسلسلاً منطقياً في ما يقع لأحدها بعد تسمينه. وإذا لم تكن تعرف السبب الذي من أجله علف الخروف على حدة، فإنها ستعرف أقله أن كل ما حدث لم يحدث دون سبب وحينئذ لن يعود بها حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة والعبقرية.

يكفي أن نفترض بأن غاية هياج شعوب أوروبا مجهولة منا وأننا لا نعرف إلا الوقائع القائمة على شكل مجاز في فرنسا أولاً ثم في إيطاليا وأفريقيا وبروسيا والنمسا وإسبانيا وروسيا، وأن حركة الغرب نحو الشرق والشرق نحو الغرب تشكل جوهر الأحداث وغاياتها، وحينئذ لا تعود بنا حاجة إلى رؤية شيء ما على لون من العبقرية أو الاستثناء فحسب في طبيعة ناپليون وألكسندر، بل إننا لن نعود في حاجة كذلك إلى تصور هذين الرجلين على شكل يختلف عن بقية الرجال. ولا تعود بنا حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة لتفسير أسخف الأحداث

التي جعلت من هذين الرجلين، ما كانا عليه فحسب، بل نرى كذلك بوضوح أن كل تلك الحوادث التافهة كانت ضرورة لازمة.

فإذا عزفنا عن الاعتراف بالهدف النهائي، فهمنا بجلاء أنه كما لا يمكن أن نتصور لنبتة ما لوناً أو بذاراً أفضل لطبيعتها من اللون والبذار اللذين تنتجهما، كذلك يستحيل علينا أن نتصور رجلين آخرين بماضٍ كامل، يستطيعان أن يجيبا بكل هذه الدقة وحتى في أدق التفاصيل عن المهمة التي كان عليهما الاضطلاع بها.

الفصل الثالث

في بداية القرن التاسع عشر كان المعنى العميق للأحداث في أوروبا، يكمن في حركة الجماهير الشعبية الأوروبية الحربية، جماهير الغرب نحو الشرق ثم العكس بالعكس. وكانت حركة الغرب نحو الشرق هي الأولى. ولكي يصبح ممكناً للشعوب الغربية أن تدفع تقدمها الحربي حتى موسكو، كان لزاماً: ١ ـ أن تتحد في كتلة حربية على امتداد كبير حتى تصبح قادرة على تحمل صدمة الكتلة الشرقية المحاربة؛ ٢ ـ أن تتنكر لكل تقاليدها ولكل عاداتها؛ ٣ ـ لكي يبلغ هجومها الغاية، وجب أن يكون على رأسها رجل يستطيع أن يبرر لنفسه ولها المداجاة والسلب والمذابح التي لا بدَّ من حدوثها والتي رافقت الحركة.

أولاً، التجمهر القديم للقوات قليل الأهمية انحل في فرنسا جراء الثورة وأبيدت التقاليد والعادات القديمة، وقام تجمهر جديد تدريجاً على نطاق أوسع وبعادات جديدة وتقاليد جديدة وعندئذ تجهز الرجل الذي يجب أن يقوم على رأس الحركة المقبلة ويحمل كل مسؤولية الأحداث التي يجب أن تقع.

وهذا الرجل، عديم البراهين عديم الماضي والتقاليد، المحروم من الاسم بل غير الفرنسي أيضاً، تسلل بمساعدة أشدّ الظروف غرابة على ما يظهر وبين كل أحزاب فرنسا وهي في حالة الغليان وحمل نفسه إلى الصف الأول دون أن يرتبط بحزب منها.

وإن جهل مرافقيه وضعف خصومه وتفاهتهم، وقلّة الحياء وضيق فكر هذا الرجل اللامع المغرور وضعته كلها على رأس الجيش. وقيمة جنود الجيش الإيطالي ونفور خصومه من القتال واستهتاره وزهوه الصبيانيين عادت عليه بالمجد العسكري. إن عدداً لا يحصى من «الصدف» تواكبه دائماً. ففقد الحظوة التي نزلت به من جانب المديرين الفرنسيين خدمته والمحاولات التي بدأ فيها لتبديل اتجاهه لا تنجح إذ يرفض عرضه الخدمة في روسيا ولا يتوصل إلى الاستقرار في تركيا. وأثناء الحرب الإيطالية، يصبح مرتين قاب قوسين أو أدنى من نهايته وفي كل مرة ينجو بطريقة غير متوقعة. والجيوش الروسية الوحيدة القادرة على تهديم مجده لا تتقدم في أوروبا نتيجة تدابير دبلوماسية مختلفة ما زال هو فيها.

ولدى عودته من إيطاليا إلى باريس وجد الحكومة في حالة من التفسخ جعلت المساهمين فيها عرضة للتبدد والفناء بشكل لا مناص منه، فتعرض وسيلة من تلقاء نفسها لإنقاذه من موقفه الخطير: بعثة غير مصيبة، منافية إلى أفريقيا. ومجدداً تعود «الصدف» نفسها إلى مواكبته. فمالطا، المشهورة بامتناعها تستسلم له دون أن تطلق رصاصة واحدة، والقرارات الأكثر عرضة للخطر تكلل بالنجاح. فالأسطول العدو الذي لا يدع بالتالي زورقاً واحداً يمر، يوسع المجال لمرور جيش كامل، وفي أفريقيا ارتكبت أسوأ الشناعات ضد شعب شبه أعزل تقريباً، فيجد فاعلو هذه المساوئ ورئيسهم على رأسهم، كل هذا رائعاً وأنه جدير بقيصر وبالإسكندر المقدوني، وأنه خير.

وهذا المثل الأعلى من المجد والعظمة الذي لا يقوم فقط على الظن بأنهم لا يفعلون منكراً، بل كذلك على الافتخار بكل هذه الجرائم التي يرتكبونها بعز وتفسير لها غير مفهوم وفوق طبيعي، هذا المثل الأعلى الذي وجب أن يسوس هذا الرجل ككل المتصلين بمصيره، نضج في الرقعة الأفريقية المتسعة، إذ

إن كل ما قام به هناك أصاب النجاح. وتنكبه الطاعون. ولم ينسب إليه أي جرم عن تقتيل الأسرى الوحشي: ومغادرته أفريقيا بحرق صبياني لا معنى له وهجران مرافقيه في البؤس عاد عليه بالنفع ومجدداً ترك له الأسطول العدو مجال الإفلات للمرة الثانية وفي تلك الأثناء، عندما كان رأسه ثملاً بنجاح كل جرائمه وصل إلى باريس وهو على استعداد ليلعب دوره ولكن دون أن تكون له غاية محددة وتفسخ الحكومة الجمهورية الذي كان منذ عام مضى يمكن أن يسبب ضياعه، كان قد بلغ مرحلته النهائية، لم تكن صنعته، صنعة البعد عن كل الأحزاب إلا لتبرز مزيته وتخدم علوه.

ليس لديه أية خطة للعمل وهو خائف من كل شيء. لكن الأحزاب تسعى إلى التعلق به وتطالب بمعاونته.

فهو وحده، بالمثل الأعلى من المجد والعظمة الذي خلقه لنفسه في إيطاليا وأفريقيا ومصر، وبعبادته المجنونة لذاته وجرأته في مضمار الجريمة ووقاحته، وهو وحده يستطيع أن يقرر الأحداث التي يجب أن تكون.

إنه الرجل اللازم للمكان الذي ينتظره. وهكذا، بشكل خارج عن إرادته تقريباً، رغم قلة حزمه وافتقاره إلى البرنامج وكل الأخطاء التي يكدسها، جر في مؤامرة تهدف إلى وصوله إلى تبوُّء سدة الحكم ونجحت هذه المؤامرة.

وجروه إلى جلسة من جلسات حكومة المديرين، فذعر وحاول أن يفر ظناً منه أنه ضائع، وتظاهر بالغثيان وألقى خطباً منافية كانت كافية للقضاء عليه. لكن المديرين الفخورين حتى ذلك الحين الأذكياء، شعروا الآن بأن دورهم قد انتهى، ففاهوا هم كذلك، وهم أشد جزعاً منه، بكلمات هي أقل ما يصلح لحفظ السلطان لهم وجر الخراب على هذا الرجل.

إنها «الصدفة» إنها ملايين «الصدف» التي سلمت إليه السلطان وراح كل الناس، وكأنهم خاضعون لكلمة سر واحدة، يساهمون في تدعيم هذا

السلطان. إنها «الصدف» التي كوّنت شخصيات مديري فرنسا حينذاك، إنها الصدف التي كوّنت شخصية بول[1] الأول الذي اعترف بسلطانه وهي الصدفة التي دبرت ضده مكيدة قوَّت سلطانه بدلاً من أن تودي به. وهي الصدفة التي سلمته الدوق دانجان ودفعته إلى العمل على قتله غيلة، ساعياً عن هذا السبيل الأقوى من كل السبل الأخرى، إلى إقناع الجمهور بأن له الحق طالما بيده القوة. وهي «الصدفة» التي جعلته يوجه من قواه للقيام بحملة ضد أنجلترا كانت، وبدون شك، ستسبب دماره الكامل، فلا يحقق هذه الغاية أبداً لكنه يقع فجأة على ماك[2] وجماعته النمسويين الذين يستسلمون دون قتال وهي «الصدفة» و«العبقرية» اللتان منحتاه النصر في أوسترليتز، ومن قبيل «الصدفة» كذلك، أن كل الرجال، ليس رجال فرنسا فحسب، بل رجال أوروبا كلها باستثناء إنجلترا التي لم تساهم قط في أي من الأحداث الجارية، كل الرجال رغم هولهم الأصلي وحقدهم على جرائم هذا الرجل، يعترفون الآن بسلطانه وباللقب الذي منحه لنفسه وبمثله الأعلى عن العظمة والمجد الذي يتبارى كل منهم إلى اعتباره شيئاً ما رائعاً ومعقولاً.

وكأن القوات الغربية أرادت أن تجرب سلفاً حركتها المقبلة فاتجهت مرّات عدة نحو الشرق في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٩ وكل مرة بأكثر قوة وأوفر عدداً. وفي عام ١٨١١، ذابت الكتلة من الرجال المكتملة في كتلة أخرى هائلة من شعوب وسط أوروبا. وكلما ازدادت هذه الكتلة ضخامة وقوة، ازداد تبرير تصرف الرجل القائم على رأس الحركة. وخلال حقبة العشر سنوات التي أعدت هذه الحركة، دخل هذا الرجل في مفاوضات مع

(١) پول الأول، أمبراطور روسيا ابن كاترين الثانية. اغتيل في البلاط عام ١٨٠١ (المترجم).

(٢) جنرال نمسوي استسلم لناپليون مع ٣٠ ألف مقاتل. (المترجم).

كل الرؤوس المتوجة في أوروبا. وسلطات هذا العالم المسلوبة من سلطانها، لا يمكن أن تعترض على مثل ناپليون الأعلى بالعظمة والمجد، ذلك المثل الخالي من أي معنى، بأي مثل أعلى آخر معقول.

فراحت الواحدة تلو الأخرى، تتهافت على تقديم مشهد تفاهتها إليه فملك بروسيا يرسل زوجته لاستجداء التفاتات الرجل العظيم، وأمبراطور النمسا يعتبر نعمة أن يتفضل هذا الرجل العظيم باستقبال ابنة القياصرة في سريره، وألبا، حارس كنوز الشعوب المقدسة يسخر دينه لرفعة الرجل العظيم، إن ناپليون بالذات لم يعد نفسه لإشغال دوره بقدر ما جرفه من حوله وألجأه إلى احتمال كل مسؤولية الأحداث الحاضرة والمقبلة على عاتقه. فهو لم يرتكب غشاً أو جرماً أو خيانة وضيعة إلا انقلبت في فم من حوله إلى عمل رائع. لم يجد الألمان لإرضائه خيراً من الاحتفال بهزيمتهم في إيينا وأوير ستادت ثم إنه ليس وحده العظيم، بل أسلافه وإخوانه «وأبناء زوجته وأصهاره وإخوان زوجاتهم كلهم عظماء كذلك فكل شيء يساهم في حرمانه من آخر آثار تعقله وإعداده لدورة المرفع». ولما أعد، كانت القوى التي أعدته مهيّأة كذلك!

نشر الغزو قلوعه باتجاه الشرق فبلغ هدفه النهائي الذي هو موسكو وأُخذت العاصمة وأبيد الجيش الروسي إبادة لم يقو مثلها على جيوش الأعداء في الحروب السالفة من أوسترليتز إلى واغرام. وفجأة بدلاً من هذه «الصدف» ونوبات «العبقري» التي حملت ناپليون بكثير من الاستمرار من نصر إلى نصر حتى الهدف المحدد ظهرت سلسلة لا تحصى من «الصدف» العكسية، ابتداء من حالة الزكام في بورودينو وحتى برد الشتاء القارس، والشرارة التي أشعلت النار في موسكو، وبدلاً من العبقرية، ظهرت غباوة ونذالة لا مثيل لهما.

الغزو يتقهقر ويعود إلى الوراء ويفر مجدداً والآن، ودون توقف، أصبحت الصدف ضد ناپليون بدلاً من أن تكون معه.

وقامت حركة عكسية من الشرق نحو الغرب تمثل مجانسات مرموقة مع السابقة، حركة الغرب نحو الشرق. المحاولات الأولية نفسها للشرق ضد الغرب كما في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٩ قبل التزعزع الأكبر: تركيز الرجال الهائل نفسه واشتراك شعوب وسط أوروبا نفسه في الحركة والتردد في منتصف الطريق نفسه ومضاعفة السرعة نفسها كلما ازداد الاقتراب من الهدف.

وبلغت الغاية الآخيرة باريس. فدمرت حكومة ناپليون كما دمر جيشه فلم يعد لناپليون نفسه سبب للوجود. فكل تصرفاته أصبحت منذ ذلك الحين منحطة تستدر الشفقة. لكن صدفة جديدة لا يمكن تفسيرها، تتدخل في الأمر من جديد، إن الحلفاء يكرهون ناپليون الذي يتهمونه بأنه سبب تعاستهم. فلما جرد من قوته وسلطانه وثبتت عليه جرائمه وغدره كان يجب أن يظهر لهم كما كانوا يرونه منذ عشرة أعوام وكما رأوه بعد عام آخر: مجرماً خارجاً على القانون. لكن ما من أحد، بصدفة غريبة، رأى ذلك. إن دوره لم ينته بعد فالرجل الذي قبل عشرة أعوام مضت وعام اعتبر مجرماً خارجاً على القانون. أرسل إلى مسافة سفر يومين عن فرنسا، في جزيرة منح فيها السيادة المطلقة، مع حرس وملايين الله يعلم في أي شيء نفعته.

الفصل الرابع

انحسرت موجات المدّ الكبير وشرعت حركة الشعوب تتعقل في شواطئها وبدأت الحلقات تتشكل على صفحة البحر الهادئ التي طفا فوقها السياسيون الذين تصوروا أنهم هم الذين حققوا هذا الهدوء.

لكن البحر الهادئ ماج فلم يلبث الدبلوماسيون أن اعتقدوا أنهم هم، باختلافاتهم سبب هذا التوتر الجديد من القوى، وتوقعوا حرباً بين ملوكهم وبدا لهم الموقف لا مخرج له. لكن الموجة التي شعروا بارتفاعها لم تنتشر من حيث توقعوا إنها دائماً الموجة إياها، نقطة الانطلاق نفسها، باريس. إنها آخر تفجر للمد المتدفق من الغرب، تفجر عليه أن يحل المصاعب الدبلوماسية ذات الطابع المتعذر حلّه ووضع حد للحركات الحربية في ذلك العهد.

عاد الرجل الذي دمر فرنسا هذه، وحيداً دون أن يكون في حاجة إلى مؤامرة ودون جنود، يستطيع أي حارس غابة أن يطبق على عنقه. ولكن، بصدفة غريبة، لم يطبق أحد على عنقه فحسب، بل إنهم جميعاً يهرعون لاستقبال هذا الرجل الذي كانوا يلعنونه بالأمس، والذي سيلعنونه بعد شهر، استقبالاً حماسياً.

ما زال هذا الرجل ضرورياً لتبرير آخر حركة جماعية.

ولقد أنجزت هذه الحركة.

لعب الدور الأخير وطلب إلى الممثل أن يخلع ثوبه ويمسح ما على وجهه من مساحيق إذ لم تعد بهم حاجة إليه.

وتمضي بضع سنوات، يلعب هذا الرجل خلالها، في وحدة جزيرته، مسرحية مضحكة مثيرة للعطف، فيدس ويكذب ليبرر أعماله حيث لا نفع في أي تبرير ويظهر للعالم أجمع قيمة ما كانوا يعتبرونه قوة في حين أن يداً خفية كانت تقوده.

وبعد أن أدي الدور، نزع الممثل ثيابه، أخذ المخرج يرينا الممثل.

ـ انظروا إلى الذي آمنتم به! ها هو ذا! هل رأيتم الآن أنه ليس هو الذي كان يوجهكم بل أنا؟

لكن الرجال الذين أعمتهم القوة التي جعلتهم يتماوجون ظلوا طويلاً لا يفهمون ذلك.

والمنطق والضرورة اللذان يمثلان حياة ألكسندر الأول، الشخصية التي كانت على رأس الحركة في الاتجاه المعاكس، من الشرق إلى الغرب، كانا أعظم من ذلك.

ماذا كان يجب على الرجل الذي سيتخذ مكاناً على رأس هذه الحركة كاشفاً الآخرين؟

كان عليه أن يمتلك شعور الحق ويساهم في مشاكل أوروبا ولكن عن بعد، كي لا تعكر المصالح الدنيئة رؤيته. كان عليه أن يطغى بعظمته الخلقية على شركائه، ملوك ذلك الزمان، وأن يكون صائراً على شخصية فتانة محبوبة، وعليه كذلك أن يكون قد تلقى من قبل إهانة شخصية من ناپليون. ولقد اجتمعت هذه الشروط كلها في ألكسندر الأول، وكل ذلك، ثمرة «لصدف» لا تكاد تحصى، غرست على طول حياته الماضية، وفي ثقافته وميوله المتحررة وفي المستشارين من حوله وعن طريق أوسترليتز وتيلسيت وإيرفورت.

بقي فاقداً النشاط خلال الحرب الشعبية لأن الحاجة لم تكن تدعو إليه ولكن ما كادت ضرورة حرب أوروبية تبدو، حتى ظهرت شخصيته في

مكانها في اللحظة المناسبة، فجمع شتات الشعوب الأوروبية كلها وقادها إلى الهدف.

بلغ الهدف ووجد ألكسندر الأول نفسه بعد حرب ١٨١٥ الأخيرة في أوج القوة الذي يمكن لإنسان أن يبلغه. فبأي شكل استغله؟

ألكسندر الأول، معيد السلم إلى أوروبا، الرجل الذي يبحث منذ نعومة أظفاره عن سعادة شعبه، المحرض على التشكيلات التحريرية التي أدخلت إلى وطنه في اللحظة التي، على ما يبدو، كان يملك أوسع سلطة وبالتالي، الوسائل لتحقيق سعادة شعبه، في اللحظة التي بدأ ناپليون في منفاه يضع الخطط الصبيانية المخادعة حول الطريقة التي سيجعل العالم سعيداً لها لو ترك له مجال العمل، في هذه اللحظة بالذات، بعد أن أنهى ألكسندر الأول مهمته وشعر بيد الله عليه، اعترف بالعدم فجأة، عدم تلك السلطة المزعومة، فأسلمها إلى أيدي أشخاص يستحقون الاحتقار وقال ببساطة:

ـ «كلا، ليس لأجلنا، سيدنا، ليس من أجلنا، ولكن من أجل اسمك!» إنني رجل مثلكم فدعوني أعيش كرجل، دعوني أفكر في روحي وفي الله.

وكما أن الشمس، ككل ذرة من الأثير، كرة كاملة في نفسها وبالوقت نفسه ذرة واحدة في اللامتناهي الذي لا يمكن للإنسان بلوغه في أقصى سعته، كذلك يحمل كل شخص في نفسه أهدافاً خاصة به، مع ذلك، فإنه يحملها لخدمة أغراض عامة لا يصل إليها الإنسان.

لقد لسعت نحلة وقفت على زهرة، طفلاً. والطفل يخاف النحل ويقول إن غايته لسع الناس. والشاعر يتأمل النحلة التي تمتص ما في كم الزهرة ويقول إن غايتها امتصاص أريج الزهور. ومربي النحل عندما يلاحظ أن النحلة تجمع غبار الطلع وتحمله إلى الخلية، يقول إن غاية النحلة هي إنتاج العسل له. ومرب آخر درس حياة الثول بأكثر تعمق يقول إن النحلة تجمع غبار

الطلع لتغذي الفقس الصغير ولكي تربي الملكة، وإن غايتها هي المحافظة على النوع. وعالم النبات يرى أن النحلة تحمل غبار اللقاح من الزهرة ثنائية المسكن إلى الزهرة الأنثى فتلقحها ويرى أن غاية النحل تنحصر في هذا العمل.

وآخر يهتم بانتشار النبت، يرى أن النحلة تساهم فيه فيستنتج هذا البحاثة أن غاية النحل هي هذه. في حين أن غاية النحل الأساسية لا تقتصر على الأولى ولا على الثانية أو الثالثة من الغايات التي استطاع الفكر البشري اكتشافها. وكلما ارتقى الفكر البشري في اكتشاف هذه الغايات، ازداد إدراكه بوضوح كلي أن الغاية الكامنة وراءها لا يمكن بلوغها.

إن شيئاً واحداً ميسور للإنسان: ملاحظة الارتباطات الموجودة بين حياة النحل وظاهرات الحياة الأخرى. وهذا هو الحال بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية والشعوب والغايات التي يسعون إليها.

الفصل الخامس

إن آخر حدث سعيد وقع للأسرة العجوز، أسرة آل روستوف، كان زواج ناتاشا وبيزوخوف عام ١٨١٣. لقد مات الكونت إيليا أندرييڤيتش ذلك العام، وكما يحدث دائماً، أدى ذلك الموت إلى تفرق الأسرة.

لقد أبهظت أحداث السنة السابقة، حريق موسكو وفرار آل روستوف من المدينة وموت الأمير أندريه ويأس ناتاشا وموت پيتيا وألم الكونتيسة، كل هذه أبهظ الكونت العجوز. لم يكن يفهم على ما يبدو ولا يحس بقوة لفهم معنى كل هذه الأحداث كان، يطأطئ رأسه العجوز معنوياً وكأنه يتوقع أو يلتمس الضربة التي ستجهز عليه: كانوا يرونه تارة مروعاً ومرتبكاً وتارة ممتلئاً بحماسة ونشاط مصطنعين.

ولقد شغله زواج ناتاشا بعض الوقت من جانبه الظاهري. أعد الحفلات والولائم وعمل جاهداً ليظهر مرحاً. لكن مرحه، بدلاً من أن يكون سارياً كعادته، لم يكن يوقظ إلا الإشفاق في نفوس الذين كانوا يعرفونه ويحبونه.

ولقد هدأ بعد رحيل پيار وزوجته وبدأ يشكو آلامه ثم لم يلبث أن سقط مريضاً ولازم الفراش. ولقد عرف منذ أيام مرضه الأولى، رغم تأكيدات الأطباء، أنه لن يشفى منه. وأمضت الكونتيسة أسبوعين كاملين أمام سريره دون أن تخلع ثيابها. وكلما جرعته الدواء، كان يقبل يدها ويبكي دون أن يتفوَّه بكلمة. وفي اليوم الآخر، سأل زوجته وابنه الغائب الصفح وهو ينتحب على تبذيره ثروته، وهي الخطيئة الرئيسية التي شعر بنفسه مذنباً لارتكابها. وبعد

أن تناول وتلقى المسحة الأخيرة، مات بهدوء. وملأت جمهرة المعارف الذين جاؤوا في اليوم التالي يشيعون المتوفى، غرف المنزل الذي استأجره آل روستوف. كان هؤلاء الأشخاص كلهم، الذين كثيراً ما تناولوا الطعام على مائدته ورقصوا في منزله، الذين كثيرا ما سخروا منه، كلهم أصبحوا الآن يشعرون شعوراً موحداً بتبكيت الضمير والتحنان، يقولون كلهم ليبرروا سلوكهم: «نعم، يمكن أن يقال كل شيء، لكنه كان رجلاً ممتازاً. إن أشخاصاً مثله لم يعد ممكناً إيجادهم... ثم، من ذا الذي لا يحمل أخطاء في نفسه؟...».

في الفترة التي بلغت أعماله من الارتباك حداً جعله لا يستطيع أن يتخيّل كيف سينتهي الأمر إذا دام طوال عام آخر، مات الكونت فجأة.

وكان نيكولا مع الجيش الروسي في باريس عندما بلغه نبأ موت أبيه فطلب فوراً إحالته على المعاش. ودون أن ينتظر النتيجة، استأذن وسافر إلى موسكو. وأقيم كشف عن حالة الكونت المادية بعد شهر من وفاته فذهل كل الناس من ضخامة المبلغ الذي شكلته الديون التافهة المختلفة التي لم يكن أحد يتوقع وجودها، لقد بلغت الديون ضعف قيمة ممتلكاته.

أوصى الأقرباء والأصدقاء نيكولا أن يرفض الإرث. لكن نيكولا وجد في ذلك الرفض إهانة لذكرى أبيه المقدسة، لذلك امتنع عن الإصغاء إلى أي نصح وقبل الميراث مع الوعد بتسديد الديون كلها.

وراح الدائنون الذين سكتوا طويلاً، يستوقفهم في حياة الكونت، التأثير غير الممكن تحديده والمعترف بقوته، الذي كان لطيبة الكونت المضطربة عليهم يطالبون بسداد الديون، كلهم، وبشكل مفاجئ. وقامت بينهم، كالعادة، خصومات حول من سيدفع له قبل غيره، وراح الذين بأيديهم أوراق رهن وليس اعتراف بدين، أمثال ميتانكا وغيره، يظهرون أكثر إلحاحاً. لم يتركوا لنيكولا متسعاً للراحة أو الاستمهال، وأولئك الذين أشفقوا على العجوز المسؤول

عن خسارتهم، مع فرض تعرضهم لهذه الخسارة، بدأوا الآن يتكالبون على الوارث الشاب الذي تعهد طائعاً أن يسدد كل ديونهم.

لم يوفق واحد من الوسطاء ولم يقبل أي عرض قدمه نيكولا، فبيعت الأملاك بالمزاد العلني بنصف قيمتها وبالتالي بقيت نصف الديون دون سداد. ولقد قبل نيكولا مبلغ ثلاثين ألف روبل من صهره بيزوخوف ليسدد ما يعترف به من ديون نقدية، ديون حقيقية. ولكي يتجنب إلقاءه في السجن، كما كان دائنوه يهددونه، عاد إلى الخدمة.

استحالت عليه العودة إلى الجيش حيث كان يمكن أن يصبح برتبة زعيم عند أول شاغر، لأن أمه أصبحت شديدة التعلق به، تعتبر أنه غايتها الأخيرة الوحيدة في الحياة. وعلى ذلك، فقد قبل وظيفة في موسكو، رغم زهده في البقاء في المدينة في الجو نفسه الذي كان فيه من قبل ورغم كراهيته للخدمات المدنية. وبعد أن خلع الزي العسكري الذي طالما أحبه، أقام مع أنّا وسونيا في منزل صغير في سيڤنتسيف ـ ڤراجيك، وهو شارع ذو منازل متواضع وراء متحف ألكسندر الثالث، باتجاه حاجز دارغو ميلوڤسكايا.

وكان پيار وناتاشا اللذان كانا يسكنان في پيترسبورغ حينذاك، يجهلان حقيقة وضع نيكولا. لقد أخذ هذا يعمل جاهداً بعد اقتراضه المال من صهره، على إخفاء شروطه الحياتية الموقتة. لقد كانت شؤونه المالية سيئة بشكل خاص حتى أنه لم يكن مضطراً إلى أن يقوم بأوده بألف ومائتي روبل، هي كل راتبه، وبحاجات سونيا وأمه فحسب، بل كذلك أن يسهر على أن تعيش أمه بشكل لا يجعلها تشعر بفقرهم. وكانت الكونتيسة عاجزة عن تقبل الحياة بدون الترف الذي اعتادته منذ طفولتها، فكانت في كل مناسبة دون أن تشعر بما تحدثه لولدها من منغصات، تطالب سواء بالعربة التي ما عادوا يملكونها، لتستقدم صديقة، أو بطعام نادر لها أو بخمرة ثمينة لولدها أو بمال لتقدم هدايا مفاجئة لناتاشا وسونيا ونيكولا نفسه.

وكانت سونيا منصرفة إلى شؤون المنزل، تعنى بعمتها فتقرأ لها وتحتمل نزواتها وكرهها السري، وتساعد نيكولا على أن يخفي عن الكونتيسة العجوز الارتباك الذي كانوا واقعين فيه. وكان نيكولا لا يشعر بأنه مدين نحو سونيا، لقاء كل ما كانت تفعله من أجل أمه، ديناً من العرفان لن يستطيع سداده، فكان يعجب بصبرها وتفانيها لكنه كان يتركها دائماً عند حد ما.

كان يبدو ناقماً عليها من أعماق قلبه لأنها مفرطة الكمال، مفرطة في الامتناع عن اللوم. كانت تملك كل ما يزيد التقدير لكنها لم تكن تستطيع أن تجعل نفسها محبوبة منه. ولقد أدرك نيكولا نفسه أنه كلما سما بها السماك، قلّ حبه لها. ولقد أخذ عليها كلمتها في الرسالة التي وجهتها إليه تعيد إليه حريته أصبح الآن يتصرف تجاهها وكأن كل ما وقع بينهما، نسي منذ أمد طويل، لا يمكن أن يعود بأي حال إلى الحياة.

ازداد مركز نيكولا المالي سوءاً ولم تكن فكرة الاقتصاد من راتبه إلا أضغاث أحلام. لم يكن عاجزاً عن الاقتصاد من راتبه فحسب، بل إنه كذلك اضطر إلى التورط في قروض صغيرة ليرضي متطلبات أمه. كان يرى نفسه في ورطة لا خلاص منها، تسيء إليه فكرة الزواج بوارثة غنية كما كان ذووه يشيرون إليه بها وتنفره. أما المخرج الثاني: موت أمه، فما كان يتوارد إلى ذهنه. لم يكن يرغب في شيء ولم يعد يأمل شيئاً. كان يتلذذ في أعماق نفسه برغبة قائمة شرسة توحي إليه بتقبل مصيره دون تذمر، وأخذ يعمل على تجنب معارفه السابقين الذين كانت رأفتهم وعروض المساعدة التي يقدمونها تجرح كبرياءه وبات يتجنب كل أنواع التسلية حتى في منزله، فلا يهتم إلا بقطع الوقت بفتح «فأل» مع أمه أو بذرع غرفته جيئة وذهاباً وهو صامت يدخن غليوناً إثر غليون. كان يبدو صارفاً عنايته إلى رعاية المزاج السائد في نفسه بعناية الذي لم يكن يشعر بقدرته على حمل عبئه إلا به.

الفصل السادس

في مطلع فصل الشتاء، رجعت الأميرة ماري إلى موسكو واطلعت من ثرثرات المدينة على وضع آل روستوف، والطريقة التي كان «الابن يضحي بنفسه بها من أجل أمه».

قالت الأميرة ماري في نفسها وهي تشعر بفرح بثقة أقوى من أي وقت مضى بحبها له: «لم أكن أتوقع شيئاً خلافاً لذلك منه» ولقد ظنت أن من واجبها، استناداً إلى علاقات الصداقة بل القربى تقريباً التي تربطها بالأسرة كلها، أن تقوم بزيارة لآل روستوف. مع ذلك، فإنها لمجرد التفكير في ما جرى لها مع نيكولا في ڤورونيغ، كانت تخاف من تلك الزيارة. وبعد أن قامت بمجهود كبير على نفسها، ذهبت لزيارة آل روستوف بعد بضعة أسابيع من وصولها إلى موسكو.

كان نيكولا أول من قابلته إذ كان يجب اجتياز غرفته قبل بلوغ غرفة الكونتيسة. وللنظرة الأولى التي ألقاها عليها، اتخذ وجهه بدلاً من تعبير الفرح الذي كانت تتوقعه، أمارات الجفاء والتعالي التي لم ترها من قبل قط على وجهه. استعلم نيكولا عن صحتها وقادها إلى أمه. وبعد أن جلس خمس دقائق، انسحب متسللاً.

وعندما خرجت الأميرة من لدن الكونتيسة، جاء نيكولا يلحق بها فقادها إلى الردهة بأدب احتفالي مفرط. لم يجب بكلمة واحدة عن الملاحظات التي

أبدتها حول صحة الكونتيسة وكأن نظرته كانت تقول: «ماذا يهمك؟ دعيني بسلام».

قال بصوت مرتفع أمام سونيا بعد أن ابتعدت عربة الكونتيسة وقد بدا عليه عجزه عن كبت سخطه: لماذا جاءت تحوم هنا؟ ماذا ينبغي لها؟ إنني لا أستطيع احتمال أولئك الغبيات الثرثارات وتوددهن!

قالت سونيا التي وجدت صعوبة في إخفاء سرورها:

ـ آه! كيف يمكنك التحدث على هذ النحو يا نيكولا! إنها شديدة الطيبة و«ماما» تحبها كثيراً؟

لم يجب نيكولا بشيء كان يود لو لم يرد ذكر الأميرة قط بعد ذلك. لكن الكونتيسة ما فتئت تتحدث عنها منذ زيارتها وتمتدحها وتلح على ابنها بالذهاب لزيارتها معبرة عن رغبتها في رؤيتها أغلب الأحيان ولكن ينتهي بها الأمر دائماً إلى الانفعال وهي تتحدث عنها.

وكان نيكولا يسعى إلى التسلح بالصمت كلما تحدثت أمه عن الأميرة لكن صمته هذا كان يثير حفيظتها.

كانت تقول: إنها فتاة كريمة جداً فتانة جداً يجب أن تزورها. إن ذلك يتيح لك زيارة بعضهم وبدون ذلك سينتهي بك الأمر إلى السأم.

ـ لكنني لا أنوي زيارتها يا أماه.

ـ لقد كنت راغباً في ذلك أشد الرغبة من قبل، الآن أصبح هذا لا يروقك. حقاً يا عزيزي إنني لا أفهمك. إنك تتضجر فجأة وفجأة، لا ترغب في رؤية أحد.

ـ لم أقل إنني متضجر.

ـ كيف، لقد أعربت لي منذ حين أنك لا تريد رؤيتها، مع أنها فتاة عظيمة

القيمة كانت دائماً تروقك. والآن، ما هي هذه الأسباب! إنكم تخفون عني كل شيء.

ـ ولكن أبداً يا أماه!

ـ لو أنني كنت أسألك تصرفاً كريهاً لجاز الأمر. لكنني لا أسألك إلا أن تذهب لترد زيارتها. يخيل إليّ أن الآداب تفرض ذلك... لقد رجوت مراراً أن تفعل ذلك. لكنني منذ الآن لن أتدخل في شيء طالما أن لديك ما تخفيه عن أمك.

ـ حسناً، سأذهب طالما أنك تصرين على ذلك.

ـ أنا، سيان عندي. إنني أطالب بذلك من أجلك.

أطلق نيكولا تنهدة وعض على شاربيه ثم نثر أوراق اللعب لكي يجتذب انتباه أمه إلى موضوع آخر.

ولقد تجدد هذا الحديث في الغد واليوم الذي تلاه والأيام التالية.

قالت الأميرة في سرها بعد اللقاء الفاتر غير المتوقع الذي أظهره لها نيكولا بأنها على صواب حينما كانت ترغب في عدم الذهاب إلى زيارة آل روستوف أولاً.

حدثت نفسها وهي تتسلح بالكبرياء لمساعدتها:

ـ لم يكن لي أن أتوقع شيئاً آخر. إنه لا يعنيني بحال. لم أكن أريد إلا رؤية الكونتيسة العجوز التي كانت طيبة دائماً معي والتي أنا مدينة لها بالكثير.

لكن هذه المبررات لم تكن تستطيع تهدئتها: كان هناك نوع من الندم لا يكف عن تهذيبها كلما فكرت في تلك الزيارة. وعلى الرغم من قرارها المكين بعدم العودة إلى زيارة آل روستوف، ونسيان ما حدث، فإنها كانت تشعر دائماً بأنها في موقف قليل الجلاء. وعندما كانت تتساءل عم يعذبها، كانت مرغمة على الاعتراف بإنهاء علاقاتها مع نيكولا. إن اللهجة المهذبة الفاترة التي

اتخذها تجاهها، غير صادرة عن الشعور الذي يكنه لها، وهي تعرف ذلك تماماً، إنه يخفي شيئاً ما. وهذا «الشيء» هو الذي يجب أن تستجلي غموضه وبانتظار ذلك، كانت تشعر بأنها لن تستقر.

كانوا في منتصف الشتاء وكانت مستقرة في غرفة درس ابن أخيها وهي تراقب درسه عندما جاؤوا يعلنون لها زيارة روستوف. ولما كانت مقررة ألّا تفضح شيئاً من سرها وألّا تظهر أي ارتباك، فقد استدعت الآنسة بوريين ودخلت معها إلى القاعة.

عرفت من النظرة الأولى التي ألقتها على نيكولا أنه لم يحضر إلا لأداء واجب من واجبات اللياقة فوعدت نفسها بحزم بأن تتحفظ بمثل هذا التحفظ الذي ظهر عليه.

تحدثوا عن صحة الكونتيسة وعن أصدقائهم المشتركين وعن أخبار الحرب الأخيرة ولما انقضت الدقائق العشر التي تفرضها اللياقة، والتي يستطيع الزائر اللبق بعدها أن ينهض وينسحب، قام نيكولا لينصرف.

أدارت الأميرة الحديث بمساعدة الآنسة بوريين أفضل إدارة. لكنها في اللحظة الأخيرة، عندما وقف نيكولا، شعرت بإعياء شديد من الكلام عما لا يهمها التكلم عنه، واستولت عليها فكرة حرمانها من أتفه أسباب المرح في الحياة لدرجة أنها لم تلحظ في فترة شرود ونظرتها المضيئة شاخصة إلى الأمام، أنها ما زالت جالسة لا تتحرك وأن نيكولا واقف.

نظر إليها نيكولا ورغب في ألّا يظهر بمظهر الملاحظ شرودها، فقال بضع كلمات إلى الآنسة بوريين ثم عاد ينظر إليها مجدداً. لم تكن تتحرك وكان وجهها الوديع يعبر عن الألم. وفجأة شعر بإشفاق عليها وشعر بإبهام أنه قد يكون هو سبب الألم الذي يفضحه وجهها وود لو يبادر إلى مساعدتها وأن يتفوه بكلمات ودودة، لكنه لم يستطع إيجاد شيء.

قال: وداعاً يا أميرة.

فعادت إلى نفسها واحمرَّ وجهها ثم تنهّدت بعمق وصاحت وكأنها استيقظت تواً:

ـ آه! عفواً!. إنك ذاهب يا كونت؟ حسناً، إلى اللقاء إذن! ولكن، ماذا بشأن وسادة أمك؟

فقالت الآنسة بوريين التي غادرت الغرفة فوراً:

ـ انتظر، سأحضرها فوراً.

لزم كلاهما الصمت وتبادلا النظر من حين إلى آخر وأخيراً قال نيكولا بابتسامة حزينة:

ـ نعم يا أميرة، يبدو ذلك وكأنه من أمس ولكن، كم من المياه مرت تحت الجسور منذ أن تقابلنا للمرة الأولى في بوغوتشاروڤو. كنا نعتقد حنيذاك أننا تعساء حقاً بينما يا لكثرة ما أدفع لكي يعود ذلك الزمن... ولكن لا يمكن إعادته.

كانت الأميرة تنظر إليه بإلحاح بعينيها المضيئتين وهو يتكلم. كانت تبدو وكأنها تبذل جهدها للتوغل في معنى الكلمات السري التي يفوه بها ذلك المعنى الذي يستطيع أن يكشف لها عن حقيقة شعوره نحوها.

قالت: نعم، نعم. ولكن لا تأسف على الماضي يا كونت. إنني، على قدر ما أستطيع أن أفهم حياتك الحالية، أعتقد أنك تجد متعة أبداً في الذكر طالما أن حياتك الآن ترتكز على التضحية.

قاطعها نيكولا بحدة:

ـ لا أقبل إطراءاتك، إن العكس كل العكس هو ما يحدث وليس لي إلا أن أوجه اللوم إلى نفسي... لكن هذا لا يثير الاهتمام ولا المرح إذا دار الحديث حوله.

واستعادت نظرته تعبيرها الفاتر الجاف. ولكن الأميرة ماري كانت قد وجدت الرجل وحده.

ـ كنت أظن أنك ستسمح لي أن أقول ذلك ولقد كنت شديدة القرب منك ومن عائلتك حتى أنني ظننت أنك لن تأخذ مودتي في غير محلها. لكنني أرى أنني كنت واهمة.

وارتجف صوتها فجأة ثم استأنفت وهي تتمالك: لست أدري السبب، لكنك لم تكن من قبل على هذا النحو و.....

ـ إن هناك ألف سبب «للماذا» هذه ـ وضغط على هذه الكلمة ثم قال بصوت خفيض جداً:

ـ أشكرك يا أميرة، إن ذلك شديد القسوة أحياناً.

وهتف صوت سري في نفس الأميرة ماري: «آه! هذا هو السبب! هذا هو السبب! إنني لم أحبب فيه فقط هذه النظرة المرحة الصريحة الطيبة، ولم يكن هذا المظهر الجميل وحده هو ما أحببت، بل خمنت كذلك النفس النبيلة الحازمة القادرة على التفاني. نعم، إنه الآن فقير وأنا غنية... نعم، هذا هو السبب... نعم، لو أن هذا لم يقع...».

ولما تذكرت رقته السابقة ونظرت الآن إلى وجهه الطيب الحزين، أدركت فجأة سبب بروده.

وفجأة قالت وهي تصرخ تقريباً. وتقترب منه لا إرادياً:

ـ لماذا إذن يا كونت، لماذا؟ قل لي لماذا يجب أن تقوله لي.

بقي صامتاً، فاسترسلت:

ـ لست أفهم «لماذاك» يا كونت. لكن ذلك يؤلمني... اعترف لك بذلك. إنك تريد أن تحرمني صداقتي السابقة لا أعرفه وهذا يؤلمني.

وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع وكذلك صوتها:

ـ لقد لقيت النذر التافه من السعادة في حياتي حتى أن كل خسارة تبهظ كاهلي. اصفح عني، الوداع.

وانفجرت باكية فجأة وخرجت من الغرفة.

صاح نيكولا وهو يحاول جاهداً استيقافها:

ـ يا أميرة! امكثي حباً بالله! يا أميرة!

التفتت وتبادلا النظر خلال بضع ثوان بصمت. وفجأة أصبح كل ما كان مستحيلاً ونائياً قريباً، لا مناص منه.

الفصل السابع

بعد أن تزوج نيكولا الأميرة ماري، في خريف ١٨١٤، ذهب مع زوجه يقيم مع سونيا وأمه في ليسيياغوري.

وخلال أربعة أعوام، استطاع، دون أن يمس ثروة زوجته، أن يسدد ما تبقى من ديون بل سدد دين پيار كذلك بفضل إرث خلّفته له بنت عم له.

وبعد ثلاث سنوات، أي في عام ١٨٢٠، استطاع نيكولا أن يصحح أوضاعه المادية حتى أنه استطاع شراء أرض صغيرة قرب ليسيياغوري وراح يدخل في مفاوضات لاستعادة أرض أبيه في أوترادنواي، وهو ما كان يحلم به.

ولما اتخذ بحكم الضرورة إدارة أملاكه بنفسه وسيلة، كلف بالزراعة حتى أصبحت شاغله المفضل، بل الأوحد. كان نيكولا ملاكاً بسيطاً لم يكن يحب التجديدات وبصورة خاصة، تجديدات الإنجليز التي كانت شائعة حينذاك. وكان يسخر من دراسات فن الزراعة النظرية، لا يحب مرابض تجويد نسل الخيل، ولا منتجات الترف وزراعة الحبوب الغالية، ولا يركز عنايته على ناحية مميزة من نواحي انتفاعه. لقد كانت إقطاعيته، وإقطاعيته كلها هي الماثلة أمام عينيه وليس البعض منها. لم يكن الآزوت أو الأوكسيجين الموجودان في الأرض أو في الهواء هما مما يثيران انتباهه ولا محراث أو مرعى خاصان ولكن الأداة الرئيسية التي تحرك الآزوت والأوكسيجين والمرعى والمحراث، وأعني العامل، الفلاح. وعندما أكب نيكولا على مهمته كملاك

عقاري واستطاع أن يتأمل عن كثب كل تفصيل، اجتذب الفلاح انتباهه بصورة خاصة ورأى أنه لا يمثل بالنسبة إليه أداة فحسب بل كذلك الغاية الواجب بلوغها. وفي بادئ الأمر، عندما درس الفلاح، حاول أن يعرف حاجته وما يعتبره جيداً وما يراه رديئاً. ولقد كان نيكولا يتظاهر فقط بأنه يتخذ التدابير ويعطي الأوامر. لكنه كان في الحقيقة يتثقف باحتكاكه بالفلاح ويدرس آراءه ومواضيعه وأحكامه على ما هو خير أو شر. وبعد أن تعرّف إلى أذواق الفلاح وميوله، وبعد أن تعلم لغته وأدرك المعنى المستتر فيها وبعد أن تقرّب إليه تقربه إلى قريب، راح يوجهه بنشاط، أي يقوم تجاه الفلاح بالواجبات نفسها التي كان يطالبه بتحقيقها ولقد انتهى انتفاع نيكولا إلى أفضل النتائج.

وعندما اتخذ نيكولا أعباء إدارة ممتلكاته مهمة له، عين، بنوع من التكهن، لكل الوظائف العامة من حكم ووكيل ومساعد، وهم الرؤساء الذين كان الإقطاعيون ينتخبونهم على عهد الرقيق، الرجال أنفسهم الذين كان القرويون سينتخبونهم لو كان لهم الحق، فلم يعد بحاجة إلى إبدال هؤلاء الرؤساء. وقبل أن يحلل خصائص السماد الكيميائية، وقبل أن يعد الـ:«من» والـ: «إلى»، كما كان يحب أن يقول ساخراً، كان يستعلم عن عدد الحيوانات التي يملكها الفلاحون ويزيد تلك الأعداد بكل الوسائل الممكنة. كان يقيم الأسر على أوسع رقعة من الأرض ممكنة دون أن يسمح لها بالتقسيم. أما الكسالى والفاجرون والعمال الرديئون، فكانوا يطاردون وكان يعمل ما بوسعه لإقصائهم عن الاشتراك.

وخلال فترات البذار وحصاد الهشيم، كان يراقب بمثل العناية المفرطة حقوله وحقول الفلاحين. فكان قليل من المالكين يرون حقولهم مزروعة بمثل هذه العناية ومحصودة، وقليل يستخلصون إنتاجاً يضاهي إنتاج نيكولا.

لم يكن يهتم بالخدم الأرقاء وكان يدعوهم «طفيليات» ويترك لهم على

ما كانوا يزعمون، كل الحرية بل يكثر من تدليلهم. فإذا ما اقتضى الأمر اتخاذ التدابير تجاه واحد منهم، وبصورة خاصة عندما كان يجب معاقبته، كان نيكولا يرتبك ويأخذ رأي أهل المنزل جميعهم ولم يكن يتصرف دون أي تردد إلا عندما يقتضي الحال تقديم مملوك من المنزل للجندية بدلاً من فلاح عامل لم يكن يشك في أي تدبير يتخذه تجاه الفلاحين. كان يعرف أن كل قرار يتخذه، سيلاقي الموافقة العامة.

على أية حال، لم يكن يسمح لنفسه أن يبهظ أحدهم بالعمل أو أن يعاقبه تبعاً لرغبته إلا بقدر ما كان يسمح لنفسه بتخفيف خدمته ومكافأته تبعاً لرضاه الشخصي. ولم يكن يستطيع القول على أي شيء ترتكز القاعدة التي تقرر ما إذا كان يجب أن يعمل أو أن لا يعمل. لكن هذه القاعدة كانت دائماً ثابتة في نفسه لا تتزعزع.

كان غالباً ما يقول بحدة في معرض الكلام عن إخفاق أو عن سوء تصرف ما: «مع شعبنا الروسي هذا» ويتصور أنه لا يطيق احتمال الفلاح.

لكنه كان يحب بكل ما في نفسه من قوة «شعبنا الروسي هذا» يحبه ويحب طرقه في الحياة، ولهذا السبب وحده، أدرك وتبنى الأسلوب الأوحد في الاستغلال الذي يعود على صاحبه بنتائج طيبة.

وكانت الأميرة ماري تشعر بغيرة من حب زوجها هذا وتأسف ألّا تستطيع مشاطرته فيه. لكنها لم تكن تتوصل إلى فهم أفراح عالم غريب عنها إلى هذا الحد وأتراحه. لم تكن تتوصل إلى فهم سبب شدة حمية نيكولا وسعادته عندما يعود من البذار، بعد أن يكون قد استيقظ منذ الفجر وأمضى الصباح كله بين الحقول أو في أرض الدراس، أو في حصاد الهشيم أو الحصاد، ليتناول الشاي معها. لم تكن تدرك سبب حماسته الشديدة عندما يحدثها عن الفلاح الثري (ماتڤيي إيرميشين) الذي أمضى الليل مع عائلته ينقل الحزم

بجد حتى أنه أول من بدأ الحصاد وأول من جهزت عرمه. ما لم تكن تفهم لماذا يبتسم بمرح تحت شاربيه ويرف بعينيه وهو يروح ويجيء من النافذة إلى الشرفة عندما كان المطر ينهمر مدراراً قوياً فاتراً على خرطاله النامي الذي يكاد يجف، ولا لماذا كان نيكولا يقول إذا ما طردت الرياح سحابة سوداء متوعدة قائمة في موسم الحصاد أو حصاد الهشيم، وعاد من البيدر محمرّ الوجه لاهث الأنفاس، ينضح عرقاً، يفرك يديه مبتهجاً وفي رأسه خليط من الأفسنتين والنعناع: «حسناً، يوم آخر قصير كهذا اليوم، وسيتم إيداع كل شيء في المكادس، حصادي وحصاد القرويين».

بل كانت تعجز أكثر من ذلك عن فهم السبب الذي من أجله يخرج عن طوره رغم كل طيبة قلبه ومبادرته الدائبة إلى إشباع رغباتها، عندما كانت تنقل إليه طلبات القرويين أو القرويات الراغبين في إعفائهم من عملهم ولماذا كان نيكولا «ها» شديد الطيبة يجيبها بإصرار وعناد بالرفض راجياً منها ألّا تتدخل في مثل تلك اللحظات، كانت تدرك أن له عالماً خاصاً به، عالماً يتعلق به بكلف، وأن لهذا العالم من القواعد ما لا تصل هي إلى فهمه.

وعندما كانت أحياناً تجهد نفسها لفهمه فتحدثه عن فضله في الخير الذي يعممه على أتباعه، كان يتوقف ويرد عليها: «ولكن مطلقاً. إن ذلك لا يتبادر إطلاقاً إلى ذهني. إنني لا أحاول قط أن ابني سعادتهم. إن سعادة الغير ليست إلا حلماً شاعرياً وثرثرة بين النساء. إن ما أنا في حاجة إليه، هو ألّا يقع أبناؤنا في الفاقة. وما يجب، هو أن أنمي ثروتنا ما دمت حياً ليس إلا. ومن أجل ذلك، يجب استعمال النظام والحزم، هذا كل شيء!». وهنا يقبض قبضتيه القويتين ويضيف: «يجب كذلك تحري العدالة، وهذا بديهي، لأن الفلاح كان سيئ اللباس جائعاً لا يملك إلا حصاناً هزيلاً، فإنه لا يستطيع أن يعمل لا من أجل نفسه ولا من أجلي».

ولعل نيكولا بسبب امتناعه عن التفكير في أنه يعمل عملاً خيراً للغير باسم الفضيلة، لعله لهذا السبب بالذات كان كل ما يشرع به يؤتي أكله. كانت ثروته تتضخم بشكل واضح والقرويون من الجوار يتوافدون إليه راغبين إليه أن يشتريهم ولقد ظل الشعب طويلاً بعد موته يحتفظ بذكراه: «لقد كان سيداً... الفلاح أولاً وبعده هو لا شك أنه لم يكن متساهلاً. ولكن لا مجال للجدل، لقد كان سيداً».

الفصل الثامن

إن ما يعذب نيكولا أحياناً في علاقاته مع مماليكه، وهو الشيء الوحيد، هو انفعاله بالإضافة إلى عادته القديمة كفارس وهي استعمال يده. لم يكن في المرحلة الأولى يجد شيئاً معيباً في ذلك. لكنه في السنة الثانية لزواجه، تبدل رأيه فجأة حول هذه العدالة.

وذات يوم، في فصل الصيف، استدعى من بوغوتشاروڤو الوكيل الذي خلف المتوفى درون وقد اتهم باختلاسات مختلفة وإهمالات. ذهب نيكولا للقائه على المرقاة لم تلبث الصيحات والضربات أن بلغت الردهة إثر أجوبة الوكيل الأولى. ولما رجع لتناول الطعام في المنزل، اقترب نيكولا من زوجته الجالسة أمام نول الوشي مطرقة الرأس وراح يروي لها حسب عادته ما فعله في الصباح، فتحدث عن الوكيل في سياق الكلام. احمر وجه الكونتيسة ماري ثم شحبت وزمت شفتيها ولكن دون أن تتحرك أو أن ترفع رأسها أو تنظر إلى زوجها.

صاح وهو يحتد لمجرد الذكرى: يا له من نذل وقح. ولو أنه كان ثملاً لوضح الأمر...

وفجأة سأل: ولكن، ماذا بك يا ماري؟

رفعت الكونتيسة ماري رأسها وأرادت الكلام لكنها سارعت إلى الإطراق برأسها وزم شفتيها.

ماذا بك؟ ماذا بك يا صديقتي؟

كانت الكونتيسة ماري الدميمة، تصبح جميلة كلما بكت. لم تكن تبكي قط بسبب ألم جسماني أو لسأم، ولكن بسبب حزن وإشفاق. وحينئذ كانت عيناها المضيئتان تتخذان فتنة لا تعبر.

ما إن أمسك نيكولا بيدها حتى عجزت عن كبت عواطفها أكثر مما فعلت، فانهارت باكية.

ـ نيكولا، لقد رأيت... إنه مخطئ... ولكن أنت، لماذا علمت... نيكولا!

وغطت وجهها بيديها.

سكت نيكولا واحمرَّ وجهه ثم ابتعد عنها وراح يذرع الغرفة ساكتاً. لقد أدرك سبب دموعها، لكنه كان يستطيع للوهلة الأولى أن يتفق معها في أعماق نفسه وأن يعترف بأن كل ما فعله منذ طفولته ويعتبره كشيء من أكثر الأشياء طبيعة، يستوجب الذم، تساءل: «هل هذا شيء من الشعورية، هل هذا شيء من الشعورية، هل هي قصص تجعل المرء ينام وهو واقف، أم أنها في واقع الحياة؟» ودون أن يحسم الموضوع بنفسه، ألقى نظرة جديدة على وجه زوجته حيث كان الألم والحب يقرآن عليه وفهم فجأة أنها هي التي على حق وأنه كان مذنباً منذ زمن طويل تجاه نفسه.

قال لها بصوت خفيض وهو يقترب منها:

ـ ماري، لن يقع ذلك فيما بعد أبداً، أعدك بذلك.

وكرر بصوت متهدج، صوت فتى يستجدي صفحها: أعدك يا ماري، لن يقع أبداً.

انهمرت الدموع من عيني زوجته بقوة أكثر فأمسكت بيده وقبلتها.

قالت لتبدل الحديث وهي تنظر إلى يده التي تحمل خاتماً يحمل رأس لاوكون: نيكولا، متى حطمت الحجر الثمين؟

ـ اليوم، إنها المسألة نفسها أيضاً! آه! ماري، كفي عن الحديث عن هذا.

احمرَّ وجهه مجدداً: أمنحك كلمة الشرف أن هذا لن يعود مطلقاً.

وأضاف وهو يظهر الحجر الثمين المحطم:

ـ عسى أن يذكرني هذا بوعدي دائماً.

ومنذ ذلك الحين، ما إن تجعل مناقشته مع وكيل أو مسجل، حتى كانت الدماء تتصاعد إلى رأسه ويبدأ بضم قبضته حتى يبدأ نيكولا بإدارة خاتمه المحطم حول إصبعه ويطرق برأسه أمام الرجل الذي أثار غضبه. لكنه كان كذلك ينسى نفسه مرة أو مرتين خلال العام وحينئذ كان يعود إلى قرب زوجته ويعترف لها ثم تجدد الوعد بأن هذا ستكون المرة الأخيرة.

كان يقول لها: ماري، سوف تحتقرينني حقاً، وإنني لأستحق ذلك.

فكانت الكونتيسة ماري تقول له وهي بادية الحزن، محاولة تعزيته:

ـ ولكن ابتعد مسرعاً عندما تشعر بأنك لم تعد تملك القوة على ضبط أعصابك.

كان النبلاء من أفراد الحكومة يضمرون الاحترام الجزيل لنيكولا ولا يحبونه إلا قليلاً وما كان يعنى بمصالح هذه الطبقة، بحيث كان البعض ينظرون إليه كرجل متكبر، والآخرون يعتبرونه أقرب بالأحرى إلى السذاجة. وكانت العناية بمزرعته تشغل وقته كله، منذ موسم الزراعة في الربيع حتى الحصاد، فإذا جاء الخريف انطلق إلى الصيد بمثل ذلك النشاط الجدي الذي يبديه في العناية بحقوله، وتغيَّب عن الدار حوالى شهر أو شهرين بصحبة قطيع من كلاب الصيد. وفي الشتاء كان يزور القرى البعيدة أو يطالع الكتب. وكانت مطالعاته تنحصر في كتب التاريخ على الخصوص، فيخصص لها سنوياً مبلغاً كبيراً من المال. وكان يتضح من حديثه، أنه يؤسس مكتبة محترمة مقيداً نفسه بقراءة سائر ما يبتاع من كتب.

وكانت تلوح عليه مظاهر الجد عندما يتخذ مجلسه في مكتب عمله

مستسلماً لمطالعاته التي كانت إلزاماً بادئ الأمر، ثم أصبحت عنده عادة توفر له في الوقت نفسه لذة خاصة، والشعور بالانشغال بعمل جدي. وإذا استثنينا الأسفار التي يقوم بها بسبب من أعماله، فهو يقضي في الشتاء القسم الأعظم من وقته في داره في أحضان العائلة. وكان يشارك في أمثال تفاصيل حياة زوجته وأولاده اليومية وهو يحس انجذاباً متزايداً إلى ماري، ويكتشف فيها كل يوم كنوزاً روحية جديدة لم يكن يعرفها.

وكانت سونيا تعيش في منزل نيكولا منذ زواجه. وكان نيكولا قد روى لماري قبل زواجهما كل ما جرى بينه وبين سونيا، مهتماً بنفسه، ممتدحاً خصائل الفتاة راجياً ماري أن تكون طيبة ومحبة تجاه ابنة عمه. وكانت الكونتيسة ماري تشعر بما ارتكب زوجها من جرم بحق سونيا، وتشعر بذنبها الخاص أيضاً. وكانت تحسب أنه كان لثورتها تأثير في اختيار نيكولا، فما كانت تضمر لسونيا أي عتاب، بل تود بالأحرى أن تحبها. لكنها لم تكن بعيدة عن حبها فحسب، بل غالباً ما كانت تكتشف أيضاً في نفسها عواطف عدائية تجاهها تعجز عن التغلب عليها.

وذات يوم، تحدثت إلى صديقتها ناتاشا في موضوع سونيا وظلمها لها فقالت لها ناتاشا: أتعلمين، ما دمت قرأت الإنجيل كثيراً، ففيه مقطع ينطبق بالضبط على سونيا.

فسألت الكونتيسة ماري في دهشة: أي مقطع؟

ـ «من معه يعطى ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه»[1]. أتذكرين ذلك؟ من ليس معه، إنها هي. لماذا؟ لست أدري! لعلها بعيدة عن أدنى أنانية، لا أعلم، لكن سيؤخذ منها كل شيء ولقد أخذ كل شيء منها. وإنها لتبعث فيّ أحياناً

---

(١) متى ـ الإصحاح ٢٥. (المترجم).

الشفقة بصورة فظيعة، ولقد أردت يوماً من صميم قلبي أن يتزوجها نيكولا، ومع ذلك فقد كنت أشعر على الدوام أن ذلك لن يتحقق، إنها «الزهرة العقيم»، كما يوجد مثل هذه الأزهار في شجرة الفريز: إني أرثي لها أحياناً وأحيانا أفكّر أنها لا تشعر بذلك كما نحس نحن.

ورغم أن الكونتيسة ماري أوضحت وقتئذ لصديقتها أنه يجب فهم كلمات الإنجيل هذه بصورة مغايرة، فقد كان يكفيها أن تتطلع إلى سونيا كي توافق على تفسير ناتاشا. وكانت تقول في الحقيقة إن سونيا اعتادت مصيرها «كزهرة عقيم» بدلاً من أن تتألم له وكان يبدو عليها أنها تحب العائلة ككل واحد منها، بالأحرى تحب الأفراد في هذه العائلة، فمثلها مثل القط الذي يتعلق بالدار أكثر من تعلقه بأشخاصها. كانت تعنى بالكونتيسة العجوز، وتداعب الأولاد وتدللهم، وهي أبداً على أهبة القيام بأدق الخدمات التي تستطيع إنجازها. ولكن ذلك كله يؤخذ على أنه أمر مفروغ منه، دون أن يقابل بشيء من الامتنان والعرفان بالجميل.

وكان قصر ليسيياغوري المعاد بناؤه يختلف عنه أيام الأمير الراحل.

فقد كانت الأبنية، المرفوعة في زمن لا بدَّ من أخذ المال فيه في الاعتبار، أكثر من محتقرة. وكان البناء الفخم ذو الأسس الحجرية مصنوعاً من خشب، قد طُليَ باطنه بالجص بكل بساطة. وكانت الغرف الفسيحة ذات الأرض الخشبية البيضاء مؤثثة بكنبات بسيطة ومقاعد كبيرة على درجة عظيمة من القسوة، وبطاولات وكراسٍ مصنوعة من خشب السرو المستمد من الغابات التابعة للملكية بأيدي نجارين من المنطقة أيضاً. ولما كانت الدار فسيحة الأرجاء، فقد كانت تضم غرفاً للخدم وجناحاً خاصاً للمدعوين، وكان أقرباء آل روستوف وپولكونسكي يجتمعون في هذه الدار من حين إلى آخر، فتأتي

عائلاتهم بنصابها الكامل، يرافقهم حتى ستة عشر جواداً لجر المركبات وعشرات من الخدم؛ وكانوا يقيمون هناك أشهراً طويلة.

وعدا ذلك فإن حوالى مائة مدعو كانوا ينزلون في الدار يوماً أو يومين أربع مرّات في السنة، وذلك بمناسبة عيد ميلاد سيدي الدار وعيد شفيعهما. أما في غير ذلك من الأوقات، فقد كانت الحياة تجري بانتظام ودونما أي اضطراب بمشاغلها العادية، والاجتماعات حول الشاي، أو في الإفطار والغداء والعشاء التي تقدم جميعاً على ما تنتجه الملكية من مواد غذائية.

الفصل التاسع

في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٢٠، عشية عيد القديس نيكولا الشتوي، كانت ناتاشا تقيم مع زوجها وأولادها عند أخيها منذ بداية الخريف. وكان پيار قد قصد پيترسبورغ حيث تدعوه، على زعمه، مشاغل خاصة تستغرق من وقته ثلاثة أسابيع؛ ولقد انقضت حتى الآن ستة أسابيع منذ رحيله، فهم يتوقعون مجيئه بين لحظة وأخرى.

وفي الخامس من كانون الأول/ ديسمبر، كان ثمة ضيف آخر ما عدا العائلة بيزوخوف، هو صديق نيكولا القديم الجنرال المتقاعد ڤاسيلي فيدوروڤيتش دينيسوف وكان نيكولا لا يعرف أن من واجبه في اليوم السادس من الشهر، وهو يوم الاحتفال الذي سيتدفق الضيوف فيه، أن يخلع سترته الواسعة التترية، ويرتدي بذلة الاحتفال الرسمية، وينتعل حذاء ضيق المقدمة، ويذهب إلى الكنيسة الجديدة التي بنيت تحت إشرافه ثم يتقبل التهاني، ويقود ضيوفه إلى أمام مائدة عامرة ويتكلم عن انتخابات النبلاء، وعن الموسم؛ لكنه كان لما يزل يحس عشية ذلك اليوم، الحق في أن يحيا حسب عاداته، وهكذا قضى الوقت حتى موعد الغداء في مراجعة حسابات وكيل قرية قريبة من ريازان تابعة لملكية ابن أخ زوجته، وكتب رسالتين تتعلقان بأعماله، وقام بجولته على البيادر، والزرائب، والإسطبلات، وبعد أن اتخذ التدابير اللازمة ضد السكر العمومي المتوقع في الغداة، وهو يوم عيد للجميع رجع من أجل الغداء، واتخذ مكانه إلى المائدة الطويلة حيث رتبت الصحون العشرون

الخاصة بأهالي الدار دون أن تسنح له فرصة مبادلة زوجته كلمة واحدة على انفراد. وكان الجميع قد اتخذوا أماكنهم إلى المائدة: أمه، والعجوز بيسلوخا التي ترافقها دائماً وزوجته، وأولاده الثلاثة، ومربيتهم وأستاذهم وابن أخيه مع مربيته، وسونيا، ودينيسوف، وناتاشا وأبناؤها الثلاثة، ومربيتهم، والعجوز ميخائيل إيڤانيتش، مهندس الأمير الراحل، الذي ينهي حياته بطمأنينة في ليسيياغوري.

وكانت الكونتيسة ماري تجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة، وما كاد زوجها يقصد كرسيه حتى عرفت من الحركة السريعة التي قام بها بعد أن بسط فوطته كي ينقل كأس الماء وكأس الشراب الموضوعتين أمامه، أنه مضطرب المزاج، الأمر الذي يقع له أحياناً، وعلى الخصوص قبل تناول الحساء، عندما يعود إلى الدار من الحقول مباشرة. وكانت الكونتيسة ماري تعرف هذه الحال الروحية جيداً فإذا كانت هي نفسها حسنة المزاج انتظرت بهدوء حتى يتناول حساءه كي تبدأ الحديث، وتحمله على الاعتراف بأن لا مبرر لامتعاضه. لكنها نسيت تماماً في ذلك اليوم هذه الخطة، وراحت تتألم لرؤيته ممتعضاً منها دونما سبب، وأحست بتعاسة عظيمة تجتاحها. وسألته أين كان، فأجاب عن سؤالها، فعادت تسأله إذا كان كل شيء على ما يرام في الملكية، فكانت لهجته قاسية حين كشر باكتئاب وأجاب بشيء من العنف.

وقالت الكونتيسة ماري في نفسها: «لم أكن مخطئة إذن ولكن ماذا يأخذ علي؟» كان كل شيء في جواب نيكولا يشير إلى امتعاضه منها، فلا يهمه سوى أن يضع حداً للحديث. وكانت تشعر بأن أسئلتها لا تبدو طبيعية، ولا تستطيع مع ذلك امتناعاً عن طرح أسئلة جديدة عليه.

وسرعان ما احتدم الحديث بفضل دينيسوف وشمل الجميع؛ لكن الكونتيسة ماري لم تتحدث بعدئذ إلى زوجها مطلقاً. وعند الانتهاء من الطعام،

اقترب كل بدوره من الكونتيسة العجوز ليقدم إليها شكره، فقبلت الكونتيسة ماري زوجها وهي تمد له يدها ليقبلها وسألته عن امتعاضه منها فقال:

ـ إن أفكاراً تراودك دائماً، لماذا تريدينني أن أكون ممتعضاً؟

ولكن كلمة «لماذا» في جوابه كانت تعني بالنسبة إلى الكونتيسة: «أجل إني ممتعض ولا أريد أن أقول لماذا».

كان نيكولا يعيش في وئام مع زوجته، بحيث لم تكن سونيا والكونتيسة العجوز، وهما تتمنيان بدافع من الغيرة بعض سوء التفاهم بينهما تجدان ذريعة لتوجيه أي نقد مطلقاً. ولكن بعض التوتر كان يحدث أحياناً، على أية حال، بين الزوج وزوجته، وفي الأحايين، وخصوصاً بعد الأوقات الأكثر سعادة، كان يجتاحهما شعور بالتباعد والنفور وكان هذا الشعور يولد خصوصاً أثناء حمل الكونتيسة ماري، ولقد كانت حاملاً في هذه الأيام.

قال نيكولا بصوت مرتفع ولهجة مازحة، كان يلوح للكونتيسة ماري أنه يتحدث بهذه اللهجة عمداً لإغضابها.

ـ حسناً، أيها السادة والسيدات، إني أقف على ساقي منذ ست ساعات، ومن المؤكد أنه لا بدَّ لي، غداً، من الاستمرار في الوقوف حتى النهاية، أما اليوم فأنا ذاهب أنال قسطاً من الراحة.

وبدون أن يضيف شيئاً خاصاً بالكونتيسة ماري، انتقل إلى المخدع الصغير حيث تمدد على كنبة. وفكرت الكونتيسة ماري: «تلك هي الحال دائماً، فهو يوجه كلمة إلى الناس جميعاً، أما لي فلا يقول شيئاً. إني أرى جيداً أني أنفره، وخصوصاً عندما أكون هكذا»؟ وتطلعت إلى بطنها المتضخم ونظرت في المرآة إلى وجهها المشدود الشاحب، والمصفر حيث تبدو العينان أكبر منهما في أي وقت آخر.

وإذا كل شيء يصعب عليها بصورة مفاجئة: رنين الأصوات وضحكة

دينيسوف، وأحاديث ناتاشا وبصورة خاصة النظرة السريعة التي رمقتها سونيا بها.

ولقد كانت سونيا على الدوام الذريعة الأولى التي تقع الكونتيسة ماري عليها عندما تكون في ثورة وامتعاض.

وبعد أن أمضت بضع دقائق مع ضيوفها دون أن تفهم شيئاً مما يقولون غادرتهم دون ضجيج واتجهت إلى غرفة أولادها.

وكان الأطفال الراكبون مقاعد ذاهبين إلى موسكو فدعوها لمرافقتهم. جلست، ولعبت معهم، لكن فكرة زوجها وامتعاضه لم تكن تفارقها قط وسرعان ما نهضت وغادرت الغرفة، وهي تسير بحذر على أطراف أصابعها نحو المخدع الصغير.

قالت في سرّها: «لعله لم ينم بعد فأسوي الأمور معه» وكان أندريه الصغير بكر أبنائها، يتبعها وهو يقلدها ويسير مثلها على أطراف أصابعه، لكنها لم تنتبه إليه.

والتقت سونيا في قاعة الاستقبال، سونيا هذه التي تصطدم بها في كل مكان، فيما يخيل إلى الكونتيسة ماري، فقالت لها:

ـ يا عزيزتي ماري، إنه ينام فيما اعتقد: إنه على درجة عظيمة من الإعياء. حاذري فسوف يوقظه أندريه.

فالتفتت الكونتيسة ماري ورأت الصغير الذي يتأثر خطاها، فأدركت أن سونيا على حق ولأنها كانت مخطئة، فقد احمرت وجنتاها وكادت تتفوه بكلمة جارحة لاذت بالصمت لكنها أرادت أن تبرهن أنها لا تأبه لما تقول سونيا فأشارت للصبي أن يتبعها دون ضوضاء، ثم اقتربت من الباب، بينما، اختفت سونيا في الباب المقابل. ودفق من الغرفة، حيث ينام نيكولا، أصداء تنفسه المنتظم الذي تعرف أدق تفاصيله. وكانت ترى تجاهها، وهي تسمع

هذا التنفس، جبين زوجها المرتفع المغضن، وشاربيه، وكل هذا المحيا الذي كثيراً ما تتأمله وهو ينام في هدأة الليل. وفجأة تحرك نيكولا وسعل فما أسرع أن صاح أندريه الصغير من خلف الباب: «أبتي إن أمي هنا!» فعلا الشحوب وجه الكونتيسة ماري ذعراً وأشارت لابنها أن يلوذ بالصمت فأطاع، فران طوال دقيقة سكون أليم بالنسبة إليها. كانت تعرف كم يكره نيكولا أن يوقظه أحد من نومه بغتةً، تردد في الجانب الآخر من الباب سعال جديد، فتحرك نيكولا مرة أخرى وقال بصوت فيه دلائل الاستياء:

ـ ليس من سبيل إلى الراحة لحظة واحدة؟ أهذه أنت يا ماري؟ لماذا جئت به إلى هنا؟

ـ جئت لألقي نظرة فقط، ولم أر... اعذرني...

فسعل نيكولا وسكت! وابتعدت الكونتيسة ماري عن الباب ورجعت بولدها إلى غرفة الأطفال. بيد أن الصغيرة ناتاشا، وهي طفلة في الثالثة من سنيها جميلة العينين السوداوين، والابنة المفضلة عند أبيها، أسرعت بعد خمس دقائق وقد عرفت من أخيها أن أباها نائم وأن أمها ذهبت إلى المخدع، تبحث عن نيكولا من دون علم والدتها. وفتحت الصغيرة ذات العينين السوداوين الباب بجرأة، وتقدمت من المكتبة بخطوات حازمة على قدميها غير الثابتتين؛ ووقفت هناك تتأمل برهة أباها الذي ينام وقد أدار لها ظهره، ثم تطاولت على رؤوس أصابعها وطبعت قبلة على اليد التي تسند رأس نيكولا، فاستدار إليها وعلى شفتيه ابتسامة حنون.

ومن خلف الباب همست الكونتيسة ماري بذعر: ناتاشا، ناتاشا؛ هلا تركت أباك نائماً؟

فأجابت الصغيرة ناتاشا ببهجة ظافرة: ولكن لا، يا أماه ليست به رغبة في النوم إنه يضحك.

فوضع نيكولا قدميه على الأرض، وجلس على الكنبة وضمّ الصغيرة بين ذراعيه.

قال لزوجته: ادخلي يا ماري.

فدخلت الكونتيسة ماري وجلست إلى جانب زوجها.

قالت بتردد:

ـ لم أكن أعلم أنه يتبعني. ولقد جئت هكذا.

فتطلع نيكولا ممسكاً بابنته الصغيرة بذراعه الواحدة، إلى زوجته وشاهد سيماها المضطربة، فأحاط قامتها بذراعه الطليقة وطبع على شعرها قبلة سريعة.

استفهم من ناتاشا: أيمكن تقبيل ماما؟

فافترت شفتا ناتاشا عن ابتسامة خجول:

قالت وهي تشير بحركة آمرة إلى المكان حيث قبل نيكولا زوجته:

ـ أيضاً!

قال نيكولا مجيباً عن السؤال الذي يعرف أنه يدور في خلد زوجه:

ـ لا أدري لماذا تحسبين أني سيئ المزاج..

ـ لا تستطيع أن تتصور مبلغ تعاستي، وشدة وحدتي عندما تكون على هذه الحال. ليخيل إليّ على الدوام...

فصاح في مرح:

ـ صه، يا ماري، فتلك حماقات، كيف لا تخجلين من نفسك؟

ـ يخيل إلى أنك لا تستطيع أن تحبني، وأني قبيحة جداً... وخصوصاً... الآن... في هذا الو.....

ـ آه! ما أسخفك، إن الجمال لا يصنع الحب، بل الحب هو الذي يصنع

الجمال إن مالفينا وأشباهها نحبهن من أجل محياهن الجميل، أما بالنسبة إلى زوجتي فلست أشعر بالحب، بل بشيء آخر، ولا أدري كيف أفسر لك ذلك حين لا تكونين هنا، أو يمر ظل بيننا، كما حدث قبل لحظة، فأشعر كأنني ضعت ولم أعد أساوي شيئاً. إليك، هذه الإصبع، هل أحبها؟ كلا لست أحبها ولكن هيا وجربي أن تقطعيها مني!

ـ كلا أنا لست كذلك، لكنني أفهم. إذن فأنت غير ممتعض مني؟

فقال مبتسماً: ممتعض بصورة فظيعة!

وقف، وأمر يده في شعره المشعث وراح يذرع أرض الغرفة بخطواته.

قال فوراً، وقد تمّ الصلح بينهما، فهو مستعد إذن أن يفكر بصوت مرتفع أمام زوجته:

ـ أتعرفين، يا ماري، في ما فكرت؟

لم يسأل نفسه ما إذا كانت مستعدة للاستماع إليه، فذلك لا يهمه كثيراً. ينبغي، منذ أن تراوده فكرة، أن تشاركه فيها أيضاً. وعرض عليها نيته دعوة پيار إلى قضاء الربيع معهم.

وأصغت الكونتيسة ماري إليه، وقدمت بضع ملاحظات، وأخذت بدورها تفكر بصوت مرتفع. كانت تفكر في أبنائها:

قالت بالفرنسية، مشيرة إلى ناتاشا الصغيرة:

ـ كم تحس فيها المرأة منذ الآن. أنتم تأخذون علينا، نحن النساء انعدام المنطق عندنا. ولكن ليكن، منطقنا؛ إني أقول: بابا راغب في النوم فتجيب: كلا إنه يضحك.

ثم قالت وعلى شفتها ابتسامة سعيدة: وإنها على حق.

ـ أجل، أجل.

وأخذ نيكولا ابنته بين ذراعيه القويتين ورفعها عالياً ووضعها على كتفه، ثم عاد يذرع أرض الغرفة بخطاه وقد أمسك بها من فخذيها. وكان من الصعب أن نقول أياً من الأب والابنة كان أعظم سعادة وهناء.

همست الكونتيسة ماري بالفرنسية:

ـ اسمع، أنت تتعرض لأن تكون ظالماً. إنك تحب هذه كثيراً.

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟... إني أسعى كي لا أظهر ذلك...

وفي تلك اللحظة سمع في الغرفة المجاورة والدهيلز أصوات خطى ثقيلة، شبيهة بالأصوات التي تعلن وصول مسافر من مكان بعيد.

قال نيكولا: وصل شخص ما.

فقالت الكونتيسة ماري وهي تخرج من الغرفة: أنا متأكدة أنه پيار.

واغتنم نيكولا... فرصة غياب زوجه كي يخب بابنته قليلاً، ثم توقف منقطع الأنفاس، ورفع بسرعة الصغيرة الضاحكة عن كتفه وشدها إلى صدره، كانت القفزات التي قام بها من فوره تذكره ببعض الخطوات الراقصة، وحين تأمل الوجه الصغير المدور المشع فرحاً، فكر في ما ستكون عليه حين يصير عجوزاً، وكيف سيخرج بها إلى ما بين الناس ويرقص المازوركا معها، كما كان المرحوم والده يرقص الدانيو كوپر مع ناتاشا.

صاحت الكونتيسة ماري بعد دقائق قليلة وهي تعود إلى الغرفة:

ـ هذا هو يا نيكولا. والآن عادت حبيبتنا ناتاشا إلى الحياة ولو رأيت بأية حمية استقبلته ثم كيف عنفته لتأخره! هيا تعال، تعال سريعاً.

وأضافت أخيراً وهي تبتسم وتنظر إلى الصغيرة المتعلقة بأبيها:

ـ هلا انفصلتما أخيراً!

فرح نيكولا ممسكاً ابنته من يدها، بينما تباطأت الكونتيسة في المخدع. همست:

ـ أبداً، أبداً لم أفكر أنني يمكن أن أكون على هذه الدرجة من السعادة.

وتألق وجهها بابتسامة، بيد أنها صعدت تنهدةً في الوقت نفسه، ومرّ في نظرتها العميقة، انعكاس حزن صموت، فكان ثمة سعادة أخرى، إلى جانب السعادة التي تحس، سعادة لا تبلغ في هذه الحياة، لكنها تتردد الآونة في ذهنها رغماً عن إرادتها.

الفصل العاشر

في عام ١٨٢٠، كانت ناتاشا، التي تزوجت في الأيام الأولى من ربيع ١٨١٣، قد أنجبت ثلاث بنات وابناً طالما تاقت إليه والذي كانت ترضعه من ثدييها، كانت قد سمنت قليلاً، بحيث كان يصعب على المرء أن يعرف في هذه الأم المخصاب للعائلة، ناتاشا الأيام السابقة، النحيلة والدائبة الحركة. وكانت سيماء وجهها قد اتضحت واتخذت تعبيراً في الوضوح والليونة الهادئة وبارحتها تلك الشعلة من الحياة الملتهبة أبداً، التي كانت تشكل فتنتها في الأيام الغابرة.

إن المرء لا يشاهد منها الآن، في غالب الأحيان، سوى وجهها وجسدها، أما نفسها فصارت غير مرئية؛ لم يعد يرى منها سوى الأنثى القوية، الجميلة وكان لهيب الماضي يعادل الاشتعال فيها، في حالات استثنائية، مثلها اليوم لدن قدوم زوجها، أو حين يقوم أحد أبنائها من الفراش بعد مرض ألم به، أو حين تتحدث مع الكونتيسة ماري عن الأمير أندريه، لم تكن تتحدث قط، عن الأمير أندريه أمام زوجها، مفترضة أنه يغار من الذكرى التي تحفظها عنه، أو حتى يدفعها شيء ما، مصادفة إلى الغناء بعدما أهملته تماماً منذ زواجها. وفي أثناء هذه اللحظات النادرة حيث يتأرث الماضي المهيب في هذا الجسد الجميل اليانع، كانت أشد إغراء منها قبلاً.

كانت ناتاشا تقيم منذ زواجها في موسكو، وفي پيترسبورغ أو في ملكيته الواقعة في ضواحي موسكو، أو عند أمها، يعني عند نيكولا ونادراً ما

كانت الكونتيسة بيزوخوف الشابة ترى في المجتمعات، وأولئك الذين كانوا يقابلونها هناك ما كانوا يسرون منها كثيراً، فهي بعيدة عن كل ملاطفة ومودة، ولم يكن دافعها إلى ذلك تفضيلها للوحدة، ما كانت تعرف إذا كانت تحبها أم لا، بل كانت تعتقد أن لا، غير أن حملها المتكرر، وواجب إرضاع أطفالها ومساهمتها في كل من لحظات حياة زوجها، هذه الأمور جميعاً كانت تحملها على الابتعاد عن الناس. وكان سائر الذين عرفوها قبل الزواج يدهشون لذلك التبدل الطارئ عليها فكأنه أمر فوق عادي.

وكانت الكونتيسة العجوز وحدها بمظهرها الأمومي، قد فهمت أن سائر انطلاقات ناتاشا ناشئة من مجرد رغبتها في تأسيس عائلة، والحصول على زوج، كما أعلنت ذلك ذات يوم في ماوتراندويه جادة في ذلك أكثر منها مازحة. وكانت تدهش، في قلبها الأمومي، من عجب الناس الذين لا يفهمون ناتاشا، فهي لا تني تردد أنها قد عرفت على الدوام أن ابنتها ستكون زوجة مثالية دائماً.

وكانت تضيف:

ـ سوى أنها تذهب أبعد قليلاً مما ينبغي في حبها لزوجها وأولادها: بل إن ذلك يجانب السخف قليلاً.

ولم تكن ناتاشا تتبع تلك القاعدة الذهبية التي ينادي بها الناس الأذكياء، والفرنسيون بصورة خاصة، القائلة إن الفتاة، إما تتزوج، يجب ألا تتنازل عن مواهبها أو تدفنها بل أن تعنى بشخصها أكثر من ذي قبل، ساعية لإغراء زوجها بقدر ما كانت تجهد لإغراء خطيبها. لكن ناتاشا، على العكس من ذلك، قد أهملت دفعة واحدة سائر فتنها التي كان الغناء أشدها قوة. ولقد أهملت الغناء بسبب وحيد، ألا وهو كونه أفضل فتنة تتمتع بها. ولم تكن ناتاشا تأبه للياقة في سلوكها، أو الرقة في أحاديثها، أو الأوضاع المغرية التي يجب أن تتخذها تجاه

زوجها، أو لزينتها، وكذلك لم تكن أكثر اهتماماً بعدم إزعاج زوجها بطلباتها. كانت تتصرف ضد هذه القواعد تماماً، فهي تشعر أن الاغراءات التي كانت غريزتها تحملها على إظهارها من قبل، ستلوح سخيفة مضحكة في عيني الرجل الذي استسلمت له بكليتها. يعني بكل روحها، دون أن تحتفظ بزاوية خفية عليه. وكانت تشعر أن اتحادها مع زوجها ليس مردّه إلى تلك المشاعر الشعرية التي اجتذبته إليها، بل إلى شيء آخر لا يمكن تحديده، لكنه ثابت، صلب، مثله مثل اتحاد نفسها الخاصة بجسدها.

أما أن تتخذ أوضاعاً مسرحية، وتحمل سلالاً وتنشد أغاني غرامية كي تجعل زوجها عاشقاً لها، فذلك عندها أمر غريب مثل تزينها كي تعجب نفسها. أما أن تتزين كي تعجب الآخرين، فلعل ذلك كان يلاقي قبولاً عندها، إنها لا تعرف على وجه الدقة، لكنها لا تجد الوقت له مطلقاً. وفي الحقيقة إن السبب الرئيسي الذي تركت من أجله الغناء، والزينة، والرقة في الحديث، هو حاجتها إلى الوقت الضروري في سبيل هذه الأمور جميعاً.

نحن نعرف أن الإنسان يملك القدرة على الاستغراق بكليته في أي مشاغل مهما يكن تافهاً. ونعلم أيضاً أنه لا يوجد أي شاغل تافه إلا ويتعاظم في الأهمية حتى ما لا نهاية، عندما يتركز الانتباه عليه بصورة كلية.

وما كان يشغل ناتاشا بصورة كلية هو العائلة، يعني الزوج الذي تجاهد للاحتفاظ به كي يكون لها دون شريكة، والمنزل والأطفال الذين يجب حملهم وولادتهم وتغذيتهم وتربيتهم.

وبقدر ما كانت تستغرق، لا بعقلها، بل بكل روحها، وبكل كينونتها، في هذا الشيء المفضل، كان هذا الشيء يزداد أهمية في نظرها، فتبدو لها قواها غير كافية، بحيث لا بدَّ لها من تركيز سائر هذه القوى على النقطة نفسها دون أن تتوصل أبداً إلى تحقيق كل ما يلوح لها ضرورياً لا استغناء عنه.

وكانت المناقشات والمحاكمات العقلانية عن حقوق الزوجة، والعلاقات بين الزوجين، وحرياتهما وحقوقهما المتبادلة، رغم أن الناس يومئذ لم يكونوا يسمونها «مشاكل» كما يفعلون اليوم، موجودة مثلها هذه الأيام بالضبط، بيد أن هذه القضايا لم تكن تثير اهتمام ناتاشا، وهي بكل تأكيد ما كانت تفهمها.

هذه القضايا في الماضي كما في الحاضر، لم تكن توجد سوى بالنسبة إلى الناس الذين لا يجدون في الزواج سوى اللذة التي يتبادلها الزوجان، يعني عنصراً واحداً من عناصره، وليس معناه الكامل الذي هو العائلة.

هذه المناقشات وهذه المشاكل التي تطرح اليوم، وهي كثيرة الشبه بمسألة معرفة كيف نستخرج أقصى ما نستطيع من لذة وجبة طعام، لم تكن تطرح وقتئذ أكثر منها اليوم بالنسبة إلى الناس الذين يعتبرون أن الغاية من وجبة الطعام هي تغذية الجسد، وأن الهدف من الزواج هو العائلة.

فإذا كانت الغاية من الطعام هي تغذية الجسد، فذاك الذي يتناول في وقت واحد وجبتين من الطعام ربما أحس بمتعة أعظم، بيد أنه لن يبلغ الهدف المطلوب لأن المعدة لا تستطيع أن تهضم وجبتين في وقت واحد.

وإذا كان الهدف من الزواج هو العائلة، فذاك الذي يريد أن تكون له زوجات متعددات، أو تلك التي تطلب أزواجاً كثيرين ربما حصلا على لذة عظيمة، لكنه لن يكون لهما عائلة في حال من الأحوال.

إذا كانت الغاية من الطعام تغذية الجسم والغاية من الزواج تكوين العائلة فالمسألة تعود إذن بكل بساطة إلى الامتناع عن تناول أكثر مما تستطيع المعدة أن تهضم من طعام، وإلى الامتناع عن الاقتران بعدد من الزوجات أو الأزواج أكبر مما تتطلب العائلة، يعني عن الاقتران بعدد من الزوجات أو الأزواج أكبر مما تتطلب العائلة، يعني عدم الاقتران بأكثر من واحدة أو واحد. وكانت

ناتاشا تحتاج إلى زوج، وقد أعطي هذا الزوج لها. ولقد منحها هذا الزوج عائلة. وهي لم تكن عامية عن ضرورة الحصول على زوج أفضل فحسب، بل لما كانت سائر قوى نفسها لا تسعى سوى لتكريس ذاتها لخدمة زوجها وعائلتها فهي لم تكن تستطيع أن تتصور وما كانت ترى أية أهمية في تصور ما كان يحدث لو كانت الأمور تختلف عنها الآن.

ولم تكن ناتاشا على العموم، تحب الناس، فهي لذلك تفضل مجتمع أهليها الكونتيسة ماري، وأخيها وأمها، وسونيا. كانت تحب مجتمع الكائنات اللائي تستطيع أن تأتي إليهن في ثياب النوم شعثاء الشعر، قادمة من غرفة الأولاد تطلعهن بمحيا سعيد على أحد قمط الرضيع الملوث بالصفرة بدلاً من الخضرة، كي تسمع كلمات مطمئنة تقال لها في موضوع الرضيع الذي أصبحت حالته الصحية تبعث على الارتياح.

وكانت ناتاشا تهمل هندامها بحيث أن أثوابها وزينتها، وكلماتها التي تتفوه بها بغير مناسبة، وغيرتها، كانت تغار من سونيا، ومن المربية، ومن كل امرأة جميلة أو قبيحة، الموضوع العادي لعبث سائر أقربائها وكان الرأي المنتشر أن بيار واقع تحت خف زوجه، ولقد كانت تلك هي الحقيقة. منذ الأيام الأولى لزواجهما، أعلنت ناتاشا له طلباتها. ولقد دهش بيار كثيراً من وجهات النظر الجديدة بالنسبة إليه، التي تبشر بها زوجته حتى تزعم بأن كل لحظة من حياته ملك لها وللعائلة. لقد دهش بيار كثيراً من متطلبات زوجه لكنه سر بها ورضخ لها.

كان خضوع بيار على درجة عظيمة من الكمال بحيث لم يكن يجرؤ لا على مغازلة امرأة أخرى فحسب، بل حتى على محادثتها وهو يبتسم، كما أنه لم يكن يجسر على الذهاب إلى النوادي لتناول العشاء، أو «هكذا» كي يجري الوقت أو أن يصرف المال على أهوائه، أو على القيام بسفرة طويلة سوى من

أجل أعماله التي تدخل زوجته في عدادها أعمالها في علوم تعلق عليها أهمية قصوى دون أن تفهم شيئاً منها. وفي المقابل، فقد كان پيار يملك كل الحق في التصرف كما يشاء لا في ذاته فحسب، بل في كل عائلته. وكانت ناتاشا جعلت من نفسها عبدة لزوجها حين تكون وحيدة معه، فسائر سكان الدار يسيرون على رؤوس أصابعهم حين يعمل پيار، يعني حين يقرأ أو يكتب في مكتبه وكان يكفي أن يظهر رغبة ما كي تتحقق أمنيته في الحال. كان يكفيه أن يعبر عن رجاء حتى تنطلق ناتاشا فوراً وتنجز رجاءه.

كان المنزل بأسره يسير حسب أوامر الزوج المزعومة، يعني برغبات پيار التي تجهد ناتاشا في سبيل تخمينها. كان أسلوب الحياة، ومكان الإقامة، والعلاقات مع الناس، وروابط الصداقة، ومشاغل ناتاشا وتربية الأولاد، كانت هذه الأشياء، جميعاً مقررة حسب إرادة پيار كما أعلنها، والأكثر من ذلك أن ناتاشا كانت تجهد لتخمين ما يمكن أن ينبثق من الأفكار التي يصوغها پيار خلال أحاديثه. ولقد كانت تصيب دائماً في تخمين هذه الأفكار والرغبات بحيث إذا ما خمنتها مرة تعلقت بحزم بما قد اختارته. وحين كان هو نفسه يحاول أن يذهب ضد رغبته الخاصة، فقد كانت تقاومه بأسلحته نفسها.

وهكذا اضطرت ناتاشا، في ظروف صعبة سيحتفظ پيار بذكراها على الدوام، إثر ولادة طفل بكر هزيل، أن تغير المرضعة ثلاث مرات حتى قد استولى عليها اليأس. وعندئذ أوضح لها پيار نظريات روسو التي كان يؤمن بها، عن استخدام المرضعات المخالف للطبيعة ومضارهن. وهي ولد الطفل الآخر. صمدت ناتاشا رغم معارضة أمها، والأطباء، وزوجها نفسه، وقد هبوا جميعاً يقاومون إرادتها في إرضاعه، الأمر الذي كان يعتبر وقتئذ شيئاً لا مثيل له، بل ضاراً، ومنذ ذلك الحين وهي ترضع سائر أولادها.

وكثيراً ما كان يحدث، في لحظات الغضب، أن يتخاصم الزوجان. لكن

بيار يكتشف، بعد الخصام بوقت طويل، وكان ذلك يبعث فيه فرحاً عظيماً، لا في كلمات زوجه بل في أفعالها أيضاً، فكرته الخاصة التي كانت تقاومها. ولم يكن يجد هذه الفكرة فحسب، بل كان يجدها أيضاً وقد عريت من كل المبالغة التي وضعها فيها في حميا النقاش والجدال.

وبعد سبع سنوات من الزواج، اكتسب بيار، وهو فرح، اليقين الحازم أنه لم يكن زوجاً شريراً، وكان يحس ذلك بصورة خاصة لأنه كان يراه منعكساً في زوجه. كان يشعر أن الصالح والرديء في باطنه يشكلان مزيجاً ويقللان من حدتهما. بيد أن ما ينعكس في زوجه كان الشيء الصالح حقاً منه، أما كل ما لم يكن صالحاً تماماً فقد كانت ترفضه. ولم يكن هذا الانعكاس ينشأ عن فترة منطقية، بل عن انعكاس آخر، مباشر وخفي.

الفصل الحادي عشر

تلقى پيار، قبل شهرين، رسالة من الأمير ڤيدور، وكان قد استقر عند آل روستوڤ، تدعوه إلى پيترسبورغ لمناقشة قضايا هامة مع أعضاء الجمعية التي كان هو أحد مؤسسيها الأساسيين.

وبعد أن قرأت ناتاشا هذه الرسالة، وكانت تقرأ سائر رسائل زوجها، نصحت له من تلقاء نفسها بالذهاب إلى پيترسبورغ، رغم كل ما يسببه لها غيابه من ألم، كانت تسبغ على سائر القضايا الفكرية والمجردة التي يعنى بها زوجها أهمية عظمى من دون أن تفهم شيئاً منها، وكانت تخشى دائماً أن تكون حجر عثرة في سبيل هذا النوع من النشاط الذي يقوم به. وأجابت عن النظرة الخجولة المتسائلة التي رمقها زوجها بها بعد قراءتها رسالته بأن توسلت إليه أن يذهب، لكن شرط أن يحدد لها بدقة موعد عودته. ومنحته فرصة مدتها شهر واحد.

ومنذ انتهى موعد هذه الفرصة، يعني منذ خمسة عشر يوماً، وناتاشا قلقة باستمرار، حزينة مكتئبة.

كان دينيسوڤ، هذا الجنرال المتقاعد الممتعض من حالته هذه، وقد وصل إلى الدار في هذين الأسبوعين الأخيرين، ينظر إلى ناتاشا بشيء متساو من الدهشة والحزن، كما ينظر المرء إلى صورة كائن عزيز عليه، لكنها قليلة الشبه به وكان كل ما يراه أو يسمعه من فتنة الماضي نظرة ملأى بالضجر، وأجوبة مقتضبة، وأحاديث لا تخرج عن موضوع الأطفال مطلقاً.

وكان الاكتئاب والامتعاض ينتابان ناتاشا بصورة خاصة، أثناء هذه الفترة حتى تجرب أمها، أو أخاها، أو سونيا، أو الكونتيسة ماري أن يجدوا حججاً تبرر تأخر پيار، وهدفهم في ذلك تعزيتها وتشجيعها.

كانت ناتاشا تقول وهي تتحدث عن هذه المشاغل التي كانت تؤمن بقوة بأهميتها العظمى.

ـ ليست سوى حماقات وسخافات، سائر مشاغل پيار هذه التي لا تؤدي إلى شيء، وسائر هذه الجمعيات البلهاء أيضاً.

وتغدو إلى غرفة الأطفال تعطي ثديها للصغير پيتيا، ابنها الوحيد. ولم يكن في سنته أي إنسان أن يقول لها أشياء معزية عاقلة قدر هذا الكائن الصغير البالغ ثلاثة أشهر من العمر، بينما هو يرتاح على صدرها فتحس بحركة شفتيه وبالأنفاس المترددة من أنفه الصغير. كان يقول لها: «أنت تغضبين، أنت تغارين، أنت تريدين الانتقام منه، أنت خائفة. أما أنا فإني ههنا. وأنا هو، فماذا يلزمك أكثر من ذلك؟» ولم تكن تعرف بما تجيب، فذلك أكثر من الحقيقة.

وخلال هذين الأسبوعين من القلق، ما أكثر ما لجأت ناتاشا إلى الصغير كي تطمئن نفسها. ولقد عنيت به كثيراً، حتى قد أفرطت في تغذيته فوقع مريضاً وأصابها الهلع لمرضه، ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ما تحتاج إليه، فالعناية التي تقفها عليه تخلصها من قلقها بشأن زوجها.

وكانت ترضع الصغير عندما دقت أصداء عربة پيار لدى وقوفها عند عتبة البوابة، فجاءت المربية العجوز، وهي تعرف كم ستسعد سيدتها الآن، إلى الباب في الحال، دون أن تثير أي ضوضاء، وأطلت منه بوجهها المشعّ.

وسألت ناتاشا في همس سريع، وهي تخاف أن تأتي حركة توقظ الرضيع الملتف في غلائل النوم: أهذا هو؟

فأجابت المربية العجوز بصوت خفيف: أجل، يا عزيزتي، هذا هو.

فوثب الدم إلى محيا ناتاشا، وأتت قدماها بحركة غير إرادية، بيد أن تلك اللحظة لم تكن أوان القفز والركض، وفتح الطفل عينيه مجدداً وتطلع إليها، فكأنه يقول: «أنت هنا!» ثم عاد يرضع الثدي في كسل.

وسحبت ناتاشا الثدي من فمه بلطف، وأسلمته إلى المربية العجوز وهي تهدهده، ثم توجهت بخطى سريعة نحو الباب. لكنها توقفت عند الباب، فكان ضميرها يؤنبها لما ألم بها من فرح عجول قليلاً إذ تركته، ثم رجعت إليه. وكانت المربية العجوز، مرفوعة المرفق، تمرر الرضيع من فوق حافة مهده.

همست مبتسمة، وصوتها ينم عن تلك الألفة القائمة بينها وبين سيدتها: اذهبي، اذهبي، يا عزيزتي، كوني مطمئنة، اذهبي!

فانطلقت ناتاشا سريعة الخطى، نحو الغرفة الأخرى.

وشاهد دينيسوف، للمرة الأولى، ناتاشا القديمة وهو يمر في تلك اللحظة من المكتب إلى قاعة الاستقبال الكبيرة وغليونه في فمه. كان نور مغتبط، مشعّ متألق، يغمر بأمواج متدفقة محياها المتجلي.

صاحت به وهي تركض: هذا هو!

فأحس دينيسوف أنه سعيد بعودة پيار، رغم أنه لا يكنّ له كثيراً من الحب.

ولما وصلت ناتاشا إلى الدهليز، رأت شخصاً طويل القامة يرتدي معطف الشتاء منهمكاً في رفع الحزام الذي يغطي أنفه. وكانت تردد في نفسها: «هذا هو! هذا هو حقاً! إنه هنا»، ثم اندفعت، وعانقته، والتصقت به بشدة. مسندة رأسها إلى صدره، ثم ابتعدت عنه لتنظر إلى محياه الأحمر السعيد، المغطى بالجليد. «أجل، هذا هو! إنه سعيد، مسرور...».

ولكنها تذكرت فجأة سائر عذابات انتظارها خلال هذين الأسبوعين الطويلين فتلاشى الفرح الذي كان ينير محياها، فعقدت ما بين حاجبيها، وصبت على زوجها سيلاً من العتاب والكلمات المريرة:

ـ أجل، أنت مسرور. أنت مسرور جداً، وقد تسليت جيداً... وأنا أثناء ذلك؟.. لو كنت تشفق على الأطفال فقط: إني أرضع، وقد فسد حليبي.... وقد كاد الصغير يلاقي حتفه. أما أنت. فتتسلى، أجل تتسلى...

كان پيار يعرف أنه غير مذنب ما دام لم يستطع مجيئاً بصورة أقل، وكان يعرف أن انفجار الغضب هذا من قبل ناتاشا في غير موقعه، وأنه سيخمد في لحظة على أية حال. وكان يعرف على الخصوص أنه، هو، سعيد مبتهج وكان يود أن يبتسم، لكنه لم يجرؤ على التفكير في ذلك. وساد الهلع ملامحه، وانحنى ظهره، وقال:

ـ لم أستطع! أقسم لك. لكن پيتيا، كيف حاله؟

ـ الآن، هو في حالة حسنة، هيا، تعال! كيف لا تخجل من نفسك؟ لو عرفت إلام صرت أثناء غيابك، والعذاب الذي عانيت...

ـ أنت لست مريضة؟

فأجابت دون أن تفلت يده: تعال، تعال.

وانتقلا إلى جناحهما.

وعندما جاء نيكولا وزوجته يفتشان عن پيار، وجداه في غرفة الأطفال يحمل على راحة يده اليمنى العريضة رضيعه الذي استيقظ، كان آخذاً في تدليله وكان وجه الصغير العريض، بفمه الخالي من الأسنان والمفتوح كل سعته، يحمل ابتسامة مرحة. وكانت العاصفة قد مرت منذ زمن طويل، وشمس مرحة تضيء محيا ناتاشا بينما هي تنظر بحنان إلى زوجها وابنها معاً.

استفهمت: وهل ناقشت الأمير جيداً في سائر القضايا؟

ـ أجل جيداً.

ـ أترى كيف يمسك به، كانت ناتاشا تعني رأسه، لكنه لشد ما أخافني والأميرة، هل رأيتها؟ أصحيح أنها عاشقة ذلك...

ـ أجل، تصوري...

وفي هذه اللحظة دخل نيكولا والكونتيسة ماري، فانحنى پيار يقبلهما دون أن يترك ابنه، وراح يجيب عن أسئلتهما لكنه كان من الواضح أن الرضيع الصغير، بطاقيته ورأسه المتأرجح، جذب كل انتباه پيار رغم كل ما في الحديث الذي يتبادلونه من أهمية.

قالت الكونتيسة ماري، وهي تنظر إلى الطفل وتلاعبه: ما ألطفه!

واسترسلت تقول، وهي تلتفت نحو زوجها:

ـ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه، يا نيكولا. لماذا لا تحس بفتنة هذه الكائنات الصغيرة الرائعة؟

فأجاب نيكولا، وهو يرمي الرضيع بنظرة باردة: لا أفهم شيئاً من ذلك، ولا أستطيع. إنه قطعة من اللحم لا أكثر. هل تأتي، يا پيار؟

فأضافت الأميرة ماري مبررة زوجها: ومع ذلك فليس أب أشد حناناً منه؛ لكنه ينبغي أن يكون لهم أقله سنة واحدة من العمر، وإما....

فقالت ناتاشا: أما پيار، فهو يعرف جيداً كيف يكون مربية أطفال. وهو يدعي أن يده صنفت على قالب تفاهم. انظري بالأحرى...

وصاح پيار فجأة، وهو يضحك: أجل، ولكن ليس من أجل ذلك وحده. ثم أخذ الصغير، وأعاده إلى المربية العجوز.

الفصل الثاني عشر

كان كل فرد يحتفظ بعاداته الخاصة كما هي الحال في كل عائلة، وكانت عوالم عديدة مختلفة تعيش في ليسيياغوري. ويتسامح مع ذلك في علاقاته بالآخرين، بحيث كان الكل يذوبون في مجموع متناسق. فإذا ما وقع حادث في ساحة المنزل، فهو فرح أو حزن بالنسبة إلى سائر هذه العوالم على السواء وعلى أية حال، فقد كان لكل من هذه العوالم، بصورة مستقلة عن العوالم الأخرى، أسبابه المخصوصة تماماً التي تجعله يغتبط أو يتألم لهذا أو ذاك من الأحداث.

وهكذا فإن عودة پيار، هذا الحادث المفرح الهام، قد اعتبره الجميع هكذا دون استثناء.

وكان الخدم، وهم أفضل حكام على أسيادهم، لأنهم يدينونهم لا تبعاً لأحاديثهم وتعابيرهم عن عواطفهم، بل تبعاً لأفعالهم وأسلوبهم في الحياة سعداء بعودة پيار لأنهم كانوا يعرفون أن الكونت سيكف بعد الآن عن الذهاب يومياً لتفقد ملكيته، وأنه سيكون أكثر مرحاً ولطفاً، وما عدا ذلك إن كلاً منهم سيتلقى هدية ثمينة بمناسبة العيد.

وكان الأولاد والمربيات مغتبطين بقدوم پيار، فهو نسيج وحده في قدرته على إشراكهم في الحياة العامة، كان هو الوحيد الذي يعرف كيف يعزف على البيانو هذه القطعة الإسكوتلاندية، المعزوفة الوحيدة التي يعرفها، والتي يزعم

أنها يمكن أن ترافق سائر الراقصات اللواتي يمكن أن يتصورهن الخيال، دون حساب للهدايا التي يحملها بكل تأكيد للجميع دون تفرقة.

وكان نيكولا الصغير، وله من العمر الآن خمسة عشر عاماً، وهو فتى ذكي، ناحل، كستنائي الشعر المجعد، كثير جمال العينين، مغتبطاً لأن العم پيار، كما كان يناديه، هو عنده موضوع إعجاب وحب جموحين. ولم يجرب أي إنسان أن يوحي إليه بحب خاص لپيار الذي لم يكن يراه إلا في النادر من الأحايين. وكانت الكونتيسة ماري، التي أخذت أمر تربيته على عاتقها، قد جهدت بكل ما أوتيت من قوى كي تحمل نيكولا الصغير على حب زوجها بقدر ما كانت تحبه هي نفسها؛ وكان الصغير يحب عمه في الحقيقة، لكن بشيء غير محسوس من الازدراء، بينما هو يعبد پيار عبادة حقيقية. ولم تكن به رغبة في الصيرورة فارساً، أو الحصول على صليب القديس جورج مثل عمه نيكولا؛ كان يريد أن يكون عالماً، ذكياً، طيباً مثل پيار. وكان وجهه يتألق سعادة على الدوام في حضرة پيار، لكنه يحمر خجلاً ويضيق نفسه عندما يخاطبه عمه. ولم يكن ينطق بكلمة واحدة تسقط من شفتي پيار، ومن ثم يتذكر ذلك وحده أو مع ديسال، ويحاول أن يخمن معنى كل ما سمعت أذناه. وكانت حياة پيار الماضية، وأحزانه حتى عام ١٨١٢، قد شكل عنها صورة غامضة شعرية حسب الأحاديث التي سمعها، ومغامراته في موسكو، ووقوعه في الأسر وأفلاطون كاراتاييف، الذي حدثه پيار عنه، وحبه لناتاشا، التي كان الصبي يحبها أيضاً بعاطفة خاصة، وبصورة خاصة صداقته لأبيه الذي لم يكن يستطيع أن يتذكره، هذا كله كان يجعل من پيار، في عينيه، بطلاً وقديساً.

لقد استنتج الفتى من بعض نقاط الحديث الذي تساقط إليه عن أبيه وناتاشا ومن العاطفة التي تتردد في صوت پيار حين يتحدث عن المرحوم، ومن الحنان المتحفظ والحار الذي تتحدث به ناتاشا أيضاً عنه، استنتج وقد

بدأ يستيقظ على عاطفة الحب أن أباه قد أحب ناتاشا وسلمها إلى صديقه عند موته وكان هذا الأب الذي لا يتذكره، يمثل في نظره ألوهية لا يمكن أن تسبغ عليها صورة معينة ولم يكن يفكر فيه إلا ينقبض قلبه وتترقرق دموع الحزن والحمية في عينيه وهكذا فقد كان نيكولا الصغير سعيداً إذن لعودة پيار.

وكان المدعوون سعداء أيضاً، كان پيار بفضل بشاشته، يمكن من أواصر أعضاء الجمعية بأسرها.

وكان سائر الكبار في الدار، بالإضافة إلى زوجته مغتبطين إذ التقوا مجدداً الصديق الذي تتحول الحياة إلى جانبه أخف وطأة وأكثر هدوءاً.

وكانت النساء العجائز مسرورات بالهدايا التي يحملها. وبصورة خاصة بكون ناتاشا ستستعيد مرحها وتذوقها للحياة.

وكان پيار، وهو يشعر بأساليب النظر المختلفة التي ترى إليه بها هذه العوالم المتعددة، يمنح كلاً منها ما كان يتوقع منه.

كان پيار، هذا الرجل الأكثر سهواً ونسياناً بين البشر، قد ابتاع كل ما تشير إليه لائحة وضعتها زوجته، من دون أن ينسى شيئاً من توصيات حماته وصهره ولا قطعة القماش من أجل ثوب پيلوڤا العجوز، ولا الدمى من أجل أبناء أخيه ولقد وجد من الغرابة في الأيام الأولى من زواجه أن تتطلب زوجه منه ألا ينسى شيئاً مما يجب أن يشتري، والأغرب من ذلك أيضاً أنها غضبت بصورة جدية حين نسي كل شيء في رحلته الأولى بعد الزواج. لكنه اعتاد هذا الأمر فيما بعد.

ولم يدرك أن ناتاشا لا تطلب لنفسها ولا توصيه على شيء من أجل الآخرين، إلا عندما يتطوع لذلك من تلقاء نفسه، فقد صار يجد الآونة لذة غير منتظرة، لذة صبيانية بأن يتبضع الهدايا لسائر أهل المنزل، ولم يكن ينسى واحداً منهم قط. وإذا استحق لوم ناتاشا بعد الآن، فذلك لابتياعه أشياء كثيرة

وبثمن غال جداً أيضاً. لقد كانت ناتاشا، إلى جانب ما يسميه الناس عيوبها، إهمالها لهندامها وزينتها، وهي أمور كان يراها پيار صفات حميدة تجمع البخل أيضاً.

ومنذ أخذ پيار يعيش في سعة مع عائلة تتطلب مصاريف باهظة، وحبه والدهشة مستولية عليه أنه يعرف أقل من قبل بمرتين، وأن أعماله التي ساءت في الماضي، خصوصاً بفضل ديون زوجته الأولى: قد بدأت تتحسن الآن.

كان يعيش بمصاريف أقل لأنه أصبح مرتبطاً بعلاقات عائلية. فقد تنازل عن الزينة الأشد كلفة، ألا وهي ذلك الأسلوب في الحياة الذي يبدله المرء في كل لحظة، ولم يعد يرغب فيه بعد الآن. كان يشعر أن مجرى حياته قد ثبت من اليوم فصاعداً بصورة نهائية حتى وفاته، وأنه لم يعد في طاقته أن يغيره، وبالتالي فإن مجرى هذه الحياة قد قلت تكاليفه.

كان پيار يعرض مشترياته باسم الوجه مرح السيماء. قال وهو يغرد، مثل بائع، قطعة من قماش: ايه! أهي جميلة!

ونقلت ناتاشا، وهي تضع ابنتها البكر على ركبتها، نظراتها المتألقة من زوجها إلى ما يريها إياه بين يديه، وقالت: أهو من أجل السيدة پيلوڤ؟ رائع!

ولمست النسيج بيدها واسترسلت تقول: هذا يساوي روبلاً على الأقل للمتر الواحد.

فأعلن پيار لها سعره، فصاحت:

ـ إنه غالي الثمن! لكن أشد ما سيكون الصغار مسرورين، وأمي أيضاً!

وأضافت، دون أن تتمكن من كبح ابتسامة علت شفتيها تعجباً بمشط ذهبي مزين باللآلىء، قد انتشر زيه في تلك الأحيان.

ـ لكنك أخطأت إذ ابتعت لي هذا الشيء!

ـ إن السيدة أديل قد أجبرتني على شرائه. اشترِ، هيا اشترِ، هذا ما ألحت به عليَّ.

ـ ولكن متى أحمله؟

وزرعته ناتاشا في ضفائرها:

ـ سأحمله يوم آخذ ماشا إلى ما بين الناس. لعل موضته تعود فتنتشر وقتئذ. هيا، فلنذهب.

وبعدما جمعا الهدايا، مرا أولاً بغرفة الأطفال، ثم توجها إلى غرفة الكونتيسة العجوز.

وكانت هذه الكونتيسة تجلس كعادتها مع السيدة پيلوڤ يلعبان الورق عندما دخل پيار وناتاشا إلى الصالة، ورزمهما تحت إبطهما.

كانت الكونتيسة العجوز قد تجاوزت الستين، وكان شعرها أبيض تماماً، وهي تلبس طاقية من الصوف تؤطر كل محياها. وكان وجهها يغص بالغضون وقد انقلبت شفتها العليا إلى الداخل قليلاً، بينما أظلمت عيناها وتلاشى لونهما.

كانت تحس أنها منسية بصورة غريبة في العالم، لا تتذوق العيش ولا تجد له مبرراً. وذلك منذ وفاة ابنها وزوجها في فاصل قصير من الزمن. كانت تأكل، وتشرب وتنام، وتقعد بين الناس، لكن لا تعيش أبداً. كانت الحياة تتركها لا مبالية تماماً، فهي لا تنتظر منها بعد الآن سوى الراحة وهذه الراحة لا تمكن أن تجدها سوى في الموت ولكن ما دام الموت لم يأت بعد، فلا بدَّ من الاستمرار في الحياة، يعني لا بدَّ من استخدام الإنسان لقواه الحية كأن المرء يلاحظ عندها ما يلاحظ عادة عند الأطفال والأشخاص الذين تقدمت السن بهم كثيراً، وقد بلغ حده الأقصى، ليس في حياتها أي هدف خارجي، ولم يبق منها فيما يبدو سوى الحاجة إلى تحريك ميولها وقابليتها المختلفة. كانت

في حاجة إلى الأكل، والنوم، والتفكير، والحديث، والبكاء، والاشتغال بأمر ما، والغضب... إلخ، وذلك بمقادير قليلة، لأنها فقط تملك معدة، ودماغاً، وعضلات، وأعصاباً وكبداً. وكانت تنجز ذلك كله دون أن يحثها عليه أي دافع خارجي، وليس مثل الأشخاص المتقدمين في السن من لا يرى وراء الهدف الذي يسعى إليه الهدف الآخر الذي هو بكل بساطة استخدام طاقته. كانت تتحدث بمجرد أنها تحتاج، حكماً، أن تقوم بقليل من العمل كي تشغل رئتيها ولسانها. وكانت تبكي مثل طفل صغير لأنها في حاجة إلى التمخط، وهكذا دواليك. إن كل ما هو غاية عند الكائنات المكتملة القوة لم يكن عندها سوى ذريعة.

وهكذا في الصباح، خصوصاً إذا كانت تناولت طعاماً دسماً في العشية، كانت تشعر بالحاجة إلى الغضب. فتختار لذلك أول ذريعة تقع عليها، ألا وهي صمم السيدة پيولوف.

تقول لها أي شيء كان بصوت خفيض، من طرف الغرفة الآخر فتهمس مثلاً:

ـ اليوم، أظن أن الطقس شديد الحرارة، يا عزيزتي.

وعندما تجيب السيدة پيولوف: «ولكن أجل، إنهم ههنا» فهي تهمهم في غضب إذن: يا إلهي، «لشد ما هي حمقاء وسخيفة».

وكانت الذريعة الثانية لغضبها هي الطباق الذي تتنشقه، والذي تجده تارة كثير الجفاف، وتارة كثير الرطوبة، وتارة خشناً قليل النعومة. وبعد هذه الفترات من الغضب، كانت الصفراء تتدفق إلى محياها، وهكذا كانت الوصيفات يعرفن بدلائل يقينية متى ستعيد پيولوف صماء من جديد، ومتى سيصير الطباق كثير الرطوبة من جديد، ومتى سيصفر لون سيدتهن مجدداً. وكما أنها كانت تحتاج في بعض الأحايين إلى تشغيل صفرائها، كذلك لم

يكن لها بد من استخدام الإمكانيات الباقية لها ومن التفكير بحيث أن الألعاب الطويلة بالورق تصلح ذريعة لها في سبيل ذلك. وإما تحتاج إلى البكاء، فتفكر في الكونت المرحوم وإما تحتاج إلى القلق، فتعنى بنيكولا وصحته. وإن كانت تحتاج إلى قول أشياء خبيثة، فالكونتيسة ماري هدف هجومها. إذن وإن كانت تحتاج إلى تمرين أعضائها الصوتية، الأمر الذي يحدث في غالب الأحيان حوالى الساعة السابعة بعدما تأخذ قسطها من الراحة والنوم في النور المعتم لغرفتها، فذريعتها هي إذن تكرار القصص نفسها للمستمعين أنفسهم.

ويدرك سائر المستمعين في الدار حالة السيدة العجوز، رغم أن أياً منهم لم يتحدث عنها. وكانوا جميعاً يبذلون جهدهم لإرضائها. وكانت النظرات الخاطفة ونصف الابتسامات المكتئبة التي يتبادلها نيكولا، وپيار، وناتاشا، والكونتيسة ماري تشهد وحدها أن الجميع يفهمون هذه الحال التي صارت إليها.

بيد أن هذه النظرات، ما عدا ذلك، كانت تقول أشياء أخرى. كانت تقول إن الكونتيسة العجوز قد أنهت مهمتها في هذا العالم. وأنها لم تكن على الدوام كما هي الآن، وأننا جميعاً سنصير مثلها يوماً ما، وأننا سنكون سعداء بالنزول عند رغباتها وأهوائها، وأن نتمالك أنفسنا من أجل هذا الكائن الذي كان عزيزاً جداً في الماضي، والذي كان يطفح حياة من أجلنا في غابر الأيام، والذي صار اليوم باعثاً على الشفقة حتى درجة بعيدة. كانت سائر هذه النظرات تقول:

ولم يكن في الدار سوى الأشخاص الأغبياء تماماً أو الخبثاء، والأطفال الصغار، لا يفهمون ذلك فيتجنبون لهذا السبب الكونتيسة العجوز ويبتعدون عنها.

الفصل الثالث عشر

كانت الكونتيسة في تلك الحالة العادية حيث تشتد الحاجة إلى ممارسة ذكائها بتمرين من الصبر الطويل، عندما دخل پيار وزوجته إلى الصالة. وهكذا كان من الواضح، بالرغم من تفوهها بالكلمات التي تكررها كلما رجع پيار أو ابنها من السفر:

ـ حسناً: «حان وقت العودة، يا عزيزي؛ لقد انتظرناك طويلاً، وهذا أنت أخيراً. شكراً لله» وكلما تلقت هدية ما! «ليست الهدية التي تسرني، يا صديقي الصغير. شكراً لأنك فكرت أن تأتي بشيء ما لعجوز مثلي» ـ كان من الواضح أن پيار يزعجها في تلك اللحظة إذ يعكر صفو لعبتها التي لم تكن تسير في طريق النجاح وأنهت اللعبة، وعندئذ التفتت صوب الهدايا التي كانت تتألف من علبة لورق اللعب ذات صنع جميل للغاية، ومن كأس فني زرقاء اللون لها غطاء لطيف قد رسمت عليه جماعة من الرعيان، ومن علبة طباق ذهبية يزينها رسم الكونت، قد أوصى پيار عليها عند عميل في پيترسبورغ (وهي ما كانت الكونتيسة تتوق إليه منذ زمن بعيد). ولم تكن بها رغبة في البكاء في تلك اللحظة، ولذا فقد نظرت إلى الصورة بلا مبالاة كي لا تهتم سوى بالعلبة وحدها.

قالت مكررة عباراتها المعتادة: شكراً يا صديقي، لقد منحتني سروراً عظيماً. لكن الأمر الأفضل هو وجودك ههنا بلحمك وعظمك. وإلا، فلا معنى

لذلك كله. أقله يجب أن توبخ زوجتك، فهي عديمة الحس السليم! إنها أشبه بالمجنونة حين تكون غائباً، فهي لا ترى شيئاً ولا تتذكر شيئاً.

واسترسلت تقول: أنّا تيموثييڤنا، انظري العلبة التي جاءنا ابننا بها.

فأعجبت السيدة پيولوف بالهدايا وأشرقت فرحاً حين رأت قطعة القماش الخاصة بها.

كان ثمة أشياء كثيرة يريد پيار، وناتاشا، ونيكولا، والكونتيسة ماري، ودينسيوف، أن يتبادلوا الحديث في موضوعها، ولا يستطيعون ذلك أمام الكونتيسة العجوز، ليس لأنهم يخفون هذه الأشياء عنها، بل لأنها لم تكن تعرف إلا الشيء القليل مما يحدث حولها، بحيث إذا فتح حديث في حضورها، فهي تبدأ بطرح الأسئلة ذات اليمين وذات اليسار، وتطلب أن يعاد على مسامعها مجدداً ما سبق فقيل لها مائة مرة: إن فلاناً مات، وإن فلاناً تزوج، وهي أمور لم تكن تنجح في تذكرها. وتجمع أهل الدار أثناء ذلك، كما هي العادة، في الصالون حول السماور، حيث اضطر پيار أن يجيب عن عدد كبير من أسئلة الكونتيسة العجوز عديمة النفع، فيقول لها إن الأمير ڤاسيلي قد شاخ، وإن الكونتيسة ماري ألكسيڤنا ما برحت تذكرها وهي ترجوها ألا تنساها، وهكذا دواليك.

واستمر هذا الحديث الذي لا يثير اهتمام أحد، لكن الضروري رغم ذلك، طوال فترة تناول الشاي. وكانت سونيا تجلس إلى جانب السماور، وقد اجتمع سائر أشخاص العائلة الكبار حول الطاولة المستديرة، بينما الأطفال، والمربيات والمربون قد تناولوا نصيبهم من الشاي من قبل، وأصواتهم تصل الآونة من المخدع المجاور حيث تجمعوا. وكان كل يحتل مكانه المعتاد، فنيكولا يجلس إلى جانب المدفأة، أمام طاولة صغيرة يقدم له الشاي عليها.

وكانت ميلكا العجوز، الكلبة العداءة، ابنة ميلكا الأولى، وهي ذات رأس أبيض تماماً تبرز فيه عينان سوداوان كبيرتان، ترتاح على مقعد إلى جانبه. وكان دينيسوف، بشعره المصفف، وشاربيه، وسالفيه اللذين وخطهما المشيب، وبزة الجنرال المفكوكة الأزرار التي يرتديها، يجلس إلى جانب الكونتيسة ماري، أما پيار فكان مكانه بين زوجته والكونتيسة العجوز، وكان يروي حديثاً يعرف أنه يهم السيدة العجوز ويمكن أن يفهم منها، فهو يتحدث عن الأحداث السياسية وعن الأشخاص الذين كانوا يشكلون في الماضي حلقة الكونتيسة، حلقة تعج بالحياة والنشاط في أيامها، لكن أعضاءها قد تبعثروا اليوم في مختلف أرجاء العالم، وهم يكملون بقية أيام عمرهم، مثلهم مثلها، يلتقطون الثمرات الأخيرة لما زرعوه في ماضي أيامهم.

وعلى أية حال، فإن معاصري الكونتيسة هؤلاء يشكلون بالنسبة إليها العالم الحقيقي الجدي الوحيد. وكانت ناتاشا تعرف في حيوية پيار أن الرحلة قد أثارت اهتمامه كثيراً، وأن في جعبته أشياء كثيرة يرويها، لكنه لم يجرؤ على المباشرة بذلك في حضرة الكونتيسة العجوز. ولم يكن دينيسوف، وهو ليس عضواً في العائلة، بقادر على فهم تحفظ پيار، فهو رغم امتعاضه يعنى كثيراً بالحوادث الجارية في پيترسبورغ، ولا يني يستحث پيار كي يقدم التفاصيل عن القضية الجديدة الخاصة بفرقة سيميونوڤسكي، وأراكتشيڤ، وجمعية الكتاب المقدس. وكان پيار ينحرف أحياناً فيروي قصة ما، لكن ناتاشا ونيكولا يسرعان فيردانه في الحال إلى الحديث عن صحة الأمير إيڤان والكونتيسة ماري أنتونوڤنا.

وسأل دينيسوف: هيا، إنما هذا جنون، وغوستر ذاك، وتاتارينوڤا أيمكن أن يستمر هذا الأمر؟

فهتف بيار:

ـ أجل، هذا يستمر، وأكثر من أي وقت مضى: إن جمعية الكتاب المقدس[1] هي كل الحكومة الآن.

سألت الكونتيسة العجوز التي أنهت كأسها، فهي تبحث الآن عن حجة تتذرع بها كي تغضب.

ـ عمّ تتحدث، يا صديقي العزيز؟ ماذا قلت؟ الحكومة؟ أنا لا أفهم.

فتدخل نيكولا في الحديث قائلاً، وهو يعرف كيف يترجم الأشياء إلى لغة والدته: لكنك تعرفين جيداً يا أماه، أن الأمير ألكسندر نيكولاييڤتش غولتسين قد نظم جمعية، وهو لذلك على قدر من القوة فيما يقولون.

فقال بيار:

ـ أراكتشيڤ وغولتسين إنهما كل الحكومة اليوم. وأية حكومة! إنهما يريان المكايد في كل مكان، ويخافان من كل شيء.

قالت الكونتيسة العجوز ممتعضة:

ـ كيف؟ كيف يمكن أن يكون الأمير ألكسندر نيكولايڤيتش مذنباً؟ إنه رجل كريم للغاية وقد التقيته عند ماري أنتونوڤنا.

ولما رأت أن الجميع يلوذون بالصمت، ازدادت حنقاً وأضافت: في هذه الأيام يريد كل امرئ أن يدين سائر الناس جمعية إنجيلية، أين الشر في هذا؟

ووقفت صارمة الوجه، فنهض الجميع أيضاً، واتجهت إلى مخدعها لتعاود اتخاذ مكانها إلى طاولتها.

ورنت في الغرفة المجاورة، في ملء السكون الأليم الذي ساد المكان،

(١) جمعية الكتاب المقدس هي نسخة عن الجمعية العاملة في إنجلترا. وقد حلّت إثر اتهامها بنشر كتب إلحادية. (المترجم).

ضحكات الأطفال وأصداء أصواتهم، مما لا شك فيه أن شيئاً يبعث على المرح بصورة خاصة قد اجتاح ذلك العالم الصغير.

كان صوت ناتاشا الصغيرة الحاد الفرح يعلو فوق بقية الأصوات:

ـ لقد تم، لقد تم.

فتبادل پيار نظرة مع الكونتيسة ماري ونيكولا، أما ناتاشا فكان لا ينقطع أبداً عن النظر إليها، وافترت شفتاه عن ابتسامة سعيدة.

صاح: يا لها من موسيقى رائعة!

فقالت الكونتيسة ماري: إنها أنا مكاروڤنا قد أنهت الجوربين.

فصاح پيار وهو يقفز من مكانه:

ـ أوه! أنا ذاهب لأرى.

وتوقف عند الباب وقال:

ـ أتعرفين لماذا أحب هذه الموسيقى بصورة خاصة؟ ذلك أنهم أول من يخبرني أن الأمور جميعاً تسير على ما يرام، اليوم وأنا قادم، كان خوفي يتفاقم بقدر ما أقترب من المنزل. وما كدت أدخل الدهليز حتى سمعت أندريوشا يضحك بأعلى صوته، فقلت في نفسي: كل شيء على ما يرام.

فوافق نيكولا على كلامه بقوله:

ـ إني أعرف. وأنا لا أجهل هذا الشعور. لكنه يجب ألا أذهب للاطلاع، فهذان الجوربان مفاجأة يخبئونها لي.

ومر پيار إلى غرفة الأطفال حيث كانت الهتافات والضحكات تزداد رنيناً وسمع صوته ينادي:

ـ هيا أنا ماكاروڤنا، أنت والأطفال، هنا إلى وسط الغرفة. تحت إمرتي واحد، اثنان، وعندما أقول ثلاثة.. أنت، ابق هنا، وأنت بين ذراعي.. مفهوم؟ واحد، اثنان...

وكان صمت قصير...

ـ ثلاثة!

وملأ الأطفال الغرفة بزمجرة ظافرة وصاحوا:

ـ اثنان، هناك اثنان!

كان ثمة جوربان تحوكهما أنا ماكاروفنا معاً، بسر لا يعرفه أحد سواها، فإذا اكتملا أخرجتهما الواحد من الآخر بمهابة واحتفال، في حضور الأطفال جميعاً!

الفصل الرابع عشر

بعد أن قبَّل الأطفال والديهم، وتمنوا لأصحاب البيت ليلة سعيدة، انحنى المربون والمربيات وذهبوا بعالمهم الصغير ولم يبق إلا ديسال مع تلميذه، ودعا المربي نيكولا الصغير إلى الخروج بصوت خفيض، فأجاب التلميذ بصوت خفيض أيضاً:

ـ كلا، أيها السيد ديسال، سأطلب من خالتي السماح بالبقاء.

وقال، وقد اقترب من الكونتيسة ماري:

ـ عمتاه، اسمحي لي بالبقاء.

كان وجهه يعبّر عن الرجاء، والانفعال، والحماسة، وتطلعت الأميرة ماري إليه والتفتت صوب پيار، وقالت له:

ـ عندما تكون هنا. فهو لا يستطيع الذهاب.

فأجاب پيار، وهو يمد يده إلى الأستاذ السويسري: سأجيئك به حالاً، يا سيد ديسال عم مساء.

وتوجه مبتسماً، إلى نيكولا الصغير:

ـ يلوح لي أننا لم نلتقِ بعد، نحن الاثنين؟

والتفت إلى الكونتيسة ماري وأضاف: آه: لشد ما أصبح يشبهه، يا ماري.

فسأل الطفل، وقد أصبح قرمزي اللون فجأة، وراح ينظر إلى پيار من أسفل إلى أعلى بعينين تتألقان إشراقاً.

ـ أبي؟

فأشار پيار برأسه ووصل ما انقطع من حديث مع الأطفال. وتابعت الكونتيسة ماري عملها التطريزي، بينما عينا ناتاشا لا تغادران زوجها لحظة واحدة. وكان نيكولا ودينيسوڤ قد نهضا، وتناول كل منهما غليونه، وراحا يطرحان الأسئلة على پيار وهما يدخنان ويتناولان الشاي من يد سونيا التي تقف بعناد، ودلائل الحزن على سيماها، قريباً من السماور. وكان الصبي المريض ذو الشعر المجعد والعينين البراقتين قد انزلق في زاوية من الغرفة دون أن يلاحظه أحد، وأدار رأسه ذا العنق الناحل، البارز من ياقة ضيقة، نحو الجهة حيث يقف پيار؛ وكان يرتجف من حين إلى آخر، واقعاً كما يظهر تحت سلطان إحساس قوي جديد، ويهمس بشيء ما بينه وبين نفسه.

كان الحديث يدور في موضوع الإشاعات المنتشرة اليوم، والصادرة عن طبقات الحكومة العليا، التي يجد معظم الناس أن كل أهمية السياسة الداخلية متمركزة فيها. وكان دينيسوڤ، المستاء من الحكومة بسبب ما أصيب به من فشل في حياته السياسية، يتلقى بفرح أنباء الحماقات التي ترتكب في رأيه، في پيترسبورغ في الوقت الراهن، ويقدم ملاحظات حادة عن كل ما يقدم پيار من تقارير.

فيما مضى، كان يجب أن يكون المرء ألمانياً، أما اليوم فيجب أن يرقص مع تاتارينوڤا والسيدة دي كرودنر[١]، يجب أن يقرأ... ايكهارتشوش وشركته[٢] آه! لو كان يمكن أن نصف ههنا شجاعة بوناپرت: لقد كان يعرف إذن كيف يتدبر أمره كي يكنس سائر هذه الحماقات.

ـ أسألكم ما معنى أن تعطى فرقة سيميونوڤسكي للجندي شوارتز[٣]

(١) كاتب صوفي ترجمت أعماله إلى الروسية.
(٢) صوفية روسية كان لها تأثير دائم في ألكسندر.
(٣) شوارتز، كولونيل صنيعة أراكتشيڤ الذي لم يكن الأمبراطور يرغب أن يجحد به.

وكان نيكولا لا يعتبر، رغم عدم إحساسه بالحاجة إلى أن ينظر إلى الأشياء نظرة الشر مثل دينيسوڤسكي، أنه من الواجب والمهم جداً أن يقول كلمته في الحكومة. كان يرى أن تعين فلاناً وزيراً لهذه الوزارة أو تلك، وتعين فلاناً حاكماً عاماً لهذه المقاطعة أو تلك، وأن هذه الكلمة التي تفوه بها الأمبراطور أو تلك الكلمة التي تفوه بها ذاك الوزير هي شؤون ذات أهمية عظمى، فهذا يسأل پيار عنها. وكانت أسئلة هذين المتحدثين لا تسمح للحديث أن يخرج من إخبار هذا النوع من الإشاعات الموثوق بها المعهودة في الطبقات العليا من الجهاز الإداري.

لكن ناتاشا، وهي التي تعرف سائر أحاسيس زوجها وأفكاره، خمنت أن پيار يود منذ مدة طويلة، دون أن يتمكن من ذلك، أن ينتقل إلى موضوع آخر يتحدث عن المسائل الخصوصية التي حثته إلى القيام بهذه الرحلة إلى پيترسبورغ كي يسأل الصفح من صديقه الجديد الأمير فيدور. وهكذا قد أسرعت إلى مساعدته فسألته عن قضيته مع الأمير فيدور.

سأل نيكولا: ما هي القضية؟

أجاب پيار، وهو يدور بنظره حواليه:

ـ الشيء نفسه دائماً. إن الجميع يرون أن الأمور لا تسير باستقامة، وإن هذا لا يمكن أن يدوم، إن واجب كل امرئ شريف أن يفعل في حدود قواه.

فقال نيكولا وهو يعقد ما بين حاجبيه: وما يستطيع الناس الشرفاء أن يفعلوا؟ ماذا نستطيع أن نفعل حقاً؟

ـ حسناً بالضبط..

فقال نيكولا: فلننتقل إلى مكتبي.

وسمعت ناتاشا صوت المربية العجوز وكانت تتوقع منذ فترة طويلة أن ينادوها لإرضاع صغيرها، فذهبت إلى غرفة الأطفال. ولحقت الأميرة ماري

بها بينما انتقل الرجال إلى مكتب نيكولا، يتبعهم الصغير نيكولا پولكونسكي دون أن يلاحظه عمه، وذهب ينزوي في الظل، قريباً من النافذة إلى جانب طاولة العمل.

وسأل دينيسوف: إذن ماذا تفعل أنت؟

وقال نيكولا: أوهام دائماً.

وبدأ پيار يقول، دون أن يجلس، وهو يذرع أرض الغرفة بخطاه تارة ويتوقف تارة أخرى، يتابع الإشارات بيديه، بينما ينطلق الصوت من فمه صافراً:

ـ حسناً إليكم رأيي! إن الوضع في پيترسبورغ هو كما يلي: إن الأمبراطور لا يتدخل في أي شيء، على الإطلاق، بل يستسلم للصوفية تماماً، كان پيار، في تلك الفترة، لا يغفر لأي إنسان كونه صوفياً، هو لا يطلب سوى طمأنينته، وطمأنينته لا يمكن أن يوفرها له سوى هؤلاء الناس الذين لا إيمان لهم ولا ناموس، الذين يسطون على كل شيء، ويخنقون كل شيء، أمثال ماغنيتسكي[1]، وأراكتشييف ومن لفّ لفّهما...

وتوجه إلى نيكولا بقوله:

هل توافق أنه، إذا لم تشرف بنفسك على أمور أملاكك، بل كنت لا تسعى سوى وراء الطمأنينة، فإنك بالغ هدفك بسرعة أعظم بقدر ما يكون وكيلك أشد قسوة وعنفاً؟

فأجاب نيكولا: ولكن بلى. لم سؤالك هذا؟

ـ إذن فكل شيء ينهار. في المحاكم تسود السرقة، وفي الجيش العصا، ومشية العرض والمستعمرات العسكرية. إنهم يضطهدون الشعب، ويخنقون

(١) عميد جامعة كازان، أتلف سائر الكتب المشتبه فيها.

التعليم ويدمرون كل ما هو شريف وفتي. والجميع يعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، الحبل قد توتر حتى الدرجة القصوى، ولا بد أن ينقطع.

لم يكن پيار يقول شيئاً جديداً، بل ذلك هو رأي الناس دائماً منذ كانت الحكومات، وكلما تفحص المرء أفعال أية حكومة كانت. واسترسل يقول:

ـ قلت لهم شيئاً واحداً في پيترسبروغ.

فاستفهم دينيسوف:

ـ من هم؟

فقال پيار بنظرة ذات مغزى:

ـ أنتم تعرفون ذلك جيداً: الأمير فيدور وسائر الآخرين إن نشر التعليم وأعمال الخير شيء رائع من دون شك. إنه هدف مدهش، لكن لا بدَّ من أشياء أخرى في الظروف الراهنة.

وفي هذه اللحظة، لاحظ نيكولا وجود ابن أخيه، فاكفهرّ وجهه، واقترب منه قائلاً: ماذا تفعل هنا؟

فأخذ پيار نيكولا من ذراعه، واسترسل:

ـ ما بالك؟ دعه. قلت لهم: هذا لا يكفي. بل لا بدَّ من شيء آخر في هذا الحين. ما دمتم تنتظرون أن ينقطع الحبل المشدود كثيراً، ما دمتم تتوقعون جميعاً، من لحظة إلى أخرى، انقلاباً محتوماً، فيجب أن نتكاتف بقدر المستطاع أن يتماسك أكبر عدد ممكن منا بالأيدي، وذلك كي نقف في وجه الكارثة العمومية. كل ما هو فتي وقوي يجتذب هناك ويفسد، فهذا يغرونه بالنساء، والآخر بالهبات، والثالث بالغرور أو بالمال. وإنهم ليتنقلون جميعاً إلى المعسكر الآخر. أما المستقلون، مثلك ومثلي، فلم يبق منهم أحد. وإني

لأكرر ذلك: وسعوا حلقة الجمعية، وليكن شعاركم لا الفضيلة فحسب، بل الاستقلال والعمل أيضاً.

وقرّب نيكولا مقعداً، وقد نسي ابن أخيه، واستقر فيه والامتعاض بادٍ على سيماه: وكان يسعل، ويعقد حاجبيه أكثر فأكثر بقدر ما يرهف أذنيه لأقوال پيار:

صاح: أجل، ولكن العمل لأي هدف؟ وماذا ستكون علاقاتكم بالحكومة؟

ـ العلاقات؟ ستكون علاقات تعاون. فيمكن ألا تكون الجمعية سرية، وأن تسمح الحكومة لها بالعمل. وهي ليست معادية للحكومة، ما دامت تتكون من عناصر محافظة حقاً. إنها جمعية نبلاء بكل معنى الكلمة. وكل ما تبغي هو منع مخلوق مثل بوغاتشوف من ذبح أولادك وأولادي، ومنع مخلوق مثل أراكتشييف أن يرسلني إلى مستعمرة عسكرية. من أجل هذا فقط نتماسك بالأيدي، وهدفنا الوحيد هو الخير العام والسلامة العامة.

ـ أجل، ولكن جمعية سرية لا يمكن أن تكون سوى معادية للحكومة وضارة بها، ولا يمكن أن ينشأ عنها سوى الشر.

ـ لماذا؟ هل كانت جمعية توغن التي أنقذت أوروپا، ما كانوا يجرؤون بعد أن يفكروا أن روسيا هي التي أنقذت العالم، ضارة؟ ولقد كانت هذه الجمعية جمعية خيرية، كانت المحبة، والتعاون المتبادل. وهذا هو ما يشبه به المسيح على الصليب...

كانت ناتاشا، وقد دلفت إلى الغرفة في ملء هذا الحديث، تتأمل زوجها بغبطة. كانت مبتهجة لا بما يقول، فهذا لا يثير اهتمامها، بل يبدو لها كله بسيطاً تماماً ومعروفاً منذ زمن طويل، كانت تملك هذا الشعور لأنها تعرف ينبوع هذا كله، ألا وهو نفس پيار، كانت مسرورة إذ ترى الحيوية المتدفقة في كل شخصه.

وكان الصبي الصغير ذو العنق الرقيق المنبثق من ياقته الضيقة، وقد نسيه الجميع، يلتهم بعينيه بشيء من البهجة والحماسة يفوق ما في نظرة ناتاشا إليه. كانت كل كلمة تسقط من فم عمه تلهب قلبه، فيحطم بحركة عصبية من أصابعه، دون أن ينتبه، الشمع والأرياش الموجودة في متناول يده على مكتب عمه نيكولا.

ـ ليس هذا كما تقول مطلقاً! إليك ما كانت الجمعية توغن الألمانية، والاتحاد الذي اقترحه أنا...

فقاطعه دينيسوف بلهجة حاسمة عنيفة:

ـ هيا، أيها الأخ، إنها تصبح لأكلة اللحم المقدد، تلك الجمعية الألمانية. أما أنا فلا أفهم شيئاً منها، ولا أستطيع أن أقول هذه الكلمة جيداً، كل شيء يذهب من سيئ إلى أسوأ، هذا ما أوافق عليه. لكن الجمعية، هذا ما لا أفهمه. كما أنه لا يعجبني. إذا أردت ثورة، فباقٍ معكم.

وتبسم پيار وانفجرت ناتاشا ضاحكة، لكن نيكولا رفع حاجبيه أكثر من ذي قبل وراح يبرهن لپيار أن الانقلاب شيء غير متوقع، وأن الخطر الذي يتحدث عنه لا وجود له سوى في مخيلته. وكان پيار يبرهن له العكس في ذلك. ولما كان يملك فكراً أقوى وأخصب فسرعان ما أحس نيكولا بالغلبة، الأمر الذي ضاعف سخطه، لأنه كان يشعر في أعماق نفسه، بدافع في حدس باطني أكثر منه بدافع من منطق عقلاني، أن فكرته صحيحة بصورة لا شك فيها.

قال وهو ينهض، ويضع غليونه على الطاولة بحركة عصبية، وأخيراً يرميه أرضاً:

ـ اسمع ما سأقول لك، وإن كنت عاجزاً عن برهانه. تزعم أن كل شيء

عندنا يسير بصورة رديئة، وإنّا نتّجه صوب ثورة جارفة؛ وأنا لا أرى شيئاً من هذا كله؛ وأنت تقول إن القسم مجرد عهد واتفاق، أما أنا فأجيبك هكذا: أنت أفضل صديق لي، وهذا ما تعرفه؛ ومع ذلك، فإذا شكلت جمعية سرية وقمت ضد الحكومة، مهما تكن هذه الحكومة، فأنا أعرف أن من واجبي إطاعتها. وإذا أمرني أراكتشيف في هذه اللحظة أن أهاجمك على رأس فرقة عسكرية وأقتلك، فسوف أفعل دون تردد على الإطلاق. والآن، قل في ذلك ما تشاء.

وساد سكون ثقيل بعد هذه الأقوال المفاجئة. وكانت ناتاشا سباقة إلى الكلام للدفاع عن زوجها بالهجوم على أخيها. وكان دفاعها ضعيفاً أخرق، لكنها توصلت إلى غايتها. واتصل الحديث، بعد أن فقد تلك اللهجة المشبعة بعداء كريه، والتي ختم نيكولا حديثه بها.

وعندما نهض الجميع ليذهبوا لتناول العشاء، اقترب نيكولا پولكونسكي الصغير من پيار، شاحب الوجه، متألق العينين، وسأل:

ـ أيها العم پيار.. أنت... لا... لو كان أبي حياً بعد... أفلا يكون من رأيك؟

وعرف پيار فجأة أي عمل عنيف، خاص، مستقل ومعقد، قد قام في دماغ هذا الطفل وقلبه أثناء الحديث، وأما تذكر كل ما قاله آسفاً أن يكون هذا الصغير قد أصغى إليه. ومع ذلك، لم يكن له بد من الجواب.

ـ أظن أن بلى.

قال ذلك في شيء من الضيق، ثم خرج من الغرفة.

فحنى الصبي الصغير رأسه، وعندئذ رأى للمرة الأولى ما أحدث من أضرار على مكتب عمه، فاحمرت وجنتاه، واقترب من نيكولا.

قال، مشيراً إلى الشمع والأرياش الممزقة: عفواً يا عماه، أنا الذي ارتكبت هذا...

فانتفض نيكولا في شيء من الغضب.

تمتم، وهو يرمي بقطع الشمع والأرياش تحت الطاولة:

ـ حسناً، حسناً.

واستدار عن الصغير، باذلاً جهداً أليماً فيما يبدو ليكبح جماح غضبه وصاح: لم يكن لك مكان ههنا.

الفصل الخامس عشر

خلال العشاء، لم يجر الحديث عن السياسة أو الجمعيات السرية بل انتقل، على العكس، إلى الموضوع الذي يحبه قلب ناتاشا، ألا وهو ذكريات عام ١٨١٢ التي أثارها دينيسوف؛ وكان پيار فرحاً متحمساً بصورة غير معهودة وافترق الجميع، أخيراً في صداقة ووئام.

وبعد الطعام، خلع نيكولا ثيابه في غرفته، وأصدر أوامره لوكيل أملاكه الذي كان في انتظاره منذ مدة طويلة، ثم دخل بثياب النوم إلى غرفة النوم فوجد زوجته جالسة إلى مكتبه تكتب.

استفهم:

ـ ماذا تكتبين، يا ماري؟

فاحمرت الكونتيسة ماري. كانت تخاف ألا يفهم زوجها جيداً ما هي في سبيل كتابته وبالتالي لا يوافق عليه.

ولذا فقد كانت تفضل أن تخفي ما تكتب عنه، لكنها حتى كانت سعيدة في الوقت نفسه لأنه اكتشفها أثناء هذه الكتابة؛ فهي مضطرة بالتالي أن تحدثه عنها.

قالت وهي تمد إليه دفتراً أزرق مغطى بكتابتها الكبيرة الثابتة:

ـ إنه مذكراتي.

فأجاب نيكولا بشيء من السخرية وهو يتناول الدفتر منها:

ـ مذكرات؟

وقرأ فيه بالفرنسية:

ـ «٤ كانون الأول/ ديسمبر. اليوم، حين استيقظ أندريه رفض أن يرتدي ملابسه، فأرسلت السيدة لوزي في طلبي. ولقد تصلب في رغبته الطارئة، فجربت توبيخه لكن ذلك لم يفد سوى في مضاعفة سخطه. وعندئذ قررت أن تتركه على هواه، قائلة له إني لا أحبه بعد الآن، وبدأت أعتني بمساعدة المربية ببقية الأطفال. وبقي فترة طويلة في ستون، كأنه مصعوق، ثم ارتمى عليّ بقميصه، وراح ينشج طويلاً بحيث لم أتمكن من تعزيته. وكان من الواضح أن ما يعذبه أكثر من كل شيء آخر هو كونه أحزنني، وحين أعطيته دفتر علاماته مساء، أخذ يبكي مجدداً بصورة تثير الشفقة وهو يعانقني. ليمكن أن ننال منه كل شيء عن طريق الحنان.

وسأل نيكولا: ما هو دفتر العلامات هذا؟...

ـ إني أضع الآن، كل مساء، علامة سلوك للكبار.

والتقى نيكولا بالنظرة المتألقة المثبتة فيه، وراح يتصفح الدفتر من جديد ويقرأه. كانت المذكرات تروي كل ما يبدو ذا أهمية في عيني الأم في الحياة الطفولية، كل ما يكشف عن خلق الأطفال أو يؤدي إلى تأملات من المرتبة العامة في موضوع مناهج التثقيف. وكان معظمها تفاصيل صغيرة عادية، لكنها تلوح هكذا في نظر الأم، أو في نظر الأب الذي كان يقرأ للمرة الأولى هذه المذكرات التي تدور حول الأطفال وحدهم.

وكان يقرأ فيها، بتاريخ الخامس من كانون الأول/ ديسمبر:

«لقد أساء ميتيا التصرف على مائدة الطعام، وقد أمر أبوه أن تمنع الحلوى عنه. ولم تعط له، يا لهيئته المحزنة وهو يرى الآخرين يأكلون. اعتقد أن العقاب بالحرمان من الحلوى لا ينقل سوى مضاعفة الجشع سأقول ذلك لنيكولا».

ووضع نيكولا الدفتر ونظر إلى زوجه. كانت العينان المتألقتان ترمقانه

وتسألانه...، أيوافق على المذكرات أم لا يوافق؟، ولم يكن ثمة ريبة: لم يكن يوافق فحسب، بل كان يقف معجباً تجاه امرأته.

كان يفكر: لعل هذا التحذلق كله لم يكن ضرورياً، لعله بدون جدوى. لكن هذا التوتر الفكري الدائم الذي لا يهدف سوى إلى غاية واحدة، ألا وهي خير الأطفال، يلذ له ويرضيه. ولو استطاع نيكولا أن يحلل عاطفته فقد كان يكتشف إذن أن حبه المتين لزوجه، الحنون والفخور في الوقت نفسه، يستند بصورة خاصة إلى تلك الدهشة التي يشعر بها تجاه هذه الحياة الروحية المتدفقة، تجاه هذا الشعور الأخلاقي الرفيع، العصي على إدراكه، المتميز به، العالم الداخلي حيث تعيش بصورة دائمة.

كان فخوراً بأن تكون على هذه الدرجة العظيمة من الذكاء والطيبة، ويعترف بتأخره عليها في عالمه الباطني، لكنه يغتبط أكثر فأكثر لأنها لم تكن، بمثل هذه الروح، ملكه، بل كانت أيضاً جزءاً من ذاته.

قال بلهجة حنون: أوافقك تماماً يا صديقتي.

وأضاف، بعد لحظة من الصمت: لقد أسأت التصرف اليوم. لم تكوني في المكتب حيث تناقشنا مع پيار. ولقد احتددت. لكني لم أكن أستطيع أن أفعل سوى ذلك. إنه طفل صغير حتى لأتساءل، إلام كان سيصير لو لم تكن ناتاشا تضبط عنانه. أتستطيعين أن تتصوري لماذا ذهب إلى پيترسبورغ؟... لقد أسسوا هنالك...

فقاطعته الكونتيسة ماري بقولها: أعرف ذلك. فقد أخبرتني ناتاشا...

فعاد نيكولا يقول، وقد حقد لمجرد ذكرى ذلك النقاش:

ـ آه! تعرفين ذلك! إنه يريد أن نعني بأن واجب كل إنسان شريف هو القيام ضد الحكومة، بينما القسم، والواجب... آسف أنك لم تكوني هناك. ولقد هاجمني جميع الحاضرين، دينيسوف وناتاشا على السواء. إن ناتاشا

تضحكني. فرغم سيطرتها عليه في أمور العقل والمنطق، فهي لا تجد كلمة واحدة في جعبتها، ولا تفعل سوى تكرار ما يقول.

كان نيكولا يقول ذلك بصوت مرتفع، مستسلماً لميله الجموح إلى انتقاد أولئك الأعز على قلبه والأقرب إليه، ناسياً أن ما يقوله عن ناتاشا يمكن أن ينطبق عليه كلمة كلمة في علاقاته بزوجته.

وقالت الكونتيسة ماري: أجل، لقد لاحظت ذلك.

ـ حين قلت له إن الواجب والعهد فوق كل شيء آخر، أخذ يبرهن لي أن الله يعرف ماذا. آسف إنك لم تكوني موجودة، وإلا فقد كنت بيّنت له ضلاله!

فأجابت الكونتيسة ماري: إنك على حق تماماً. وهذا ما قلت لناتاشا. إن پيار يزعم أن البشر يتعذبون، ويتألمون، ويفسدون، وأن واجبنا هو مساعدة قريبنا، وأنه لعلى حق من دون شك. لكنه ينسى أن ثمة واجبات أسرع تقع على أكتافنا، قد فرضها الله نفسه علينا، وأننا نستطيع أن نعرض حياتنا الخاصة للخطر، أما حياة أطفالنا فلا.

فصاح نيكولا، إن ذلك هو بالضبط ما أفحم پيار به:

ـ أجل، أجل، هذا هو بالضبط ما قلته له. لكنهم انطلقوا في سبيلهم، يتحدثون عن محبة الغريب والمسيحية... وذلك كله أمام نيكولا الذي انزلق إلى المكتب وحطم كل شيء؟

فعادت الكونتيسة ماري تقول:

ـ آه: أتعرف، يا نيكولا، هذا الصغير كثيراً ما يعذبني، إنه صبي غير مألوف. وأخاف أن أهمله بسبب من أطفالي. نحن، إن لنا أبناءنا، وعائلتنا أما هو، فليس له أي إنسان. إنه أبداً وحيد مع أفكاره.

ـ ولكن فلنتركه، أتصوّر أنه ليس ثمة ما تؤنبين نفسك عليه من أجله، مثل ما تستطيع أكثر الأمهات حناناً أن تفعل لأبنائها قد صنعته له، وأنت تصنعينه

بعد من أجله، ومما لا شك فيه أني مسرور بذلك، فهو صبي صغير طيب، طيب جداً.

ـ ولقد كان اليوم في نوع من الإشراق وهو يصغي إلى بيار، وهل تستطيعين أن تتصوري هذا: حين وقفنا متجهين إلى غرفة الطعام، رأيت أنه دمر كل شيء على مكتبي، وإذا هو يعتذر عن ذلك في اللحظة عينها! لم أمسك به يقول كذبة واحدة قط. إنه طفل طيب للغاية.

كان يكرر ذلك، رغم أنه، في صميم نفسه، لم يكن يحب ابن أخيه، الأمر الذي يزيده تمسكاً بامتداحه.

قالت الكونتيسة ماري:

ـ ومع ذلك، الأمر مختلف عما إذا كانت أمه موجودة. إني أشعر أن الأمر يختلف، وهذا ما يعذبني. إنه طفل رائع، وأنا أخاف عليه بصورة فظيعة. وأن العيش بين الناس ليفيده كثيراً.

فقال نيكولا: بكل تأكيد، وسرعان ما سيتحقق ذلك، فأنا سأرسله هذا الصيف إلى بيترسبورغ. وأضاف، عائداً إلى الحديث الذي جرى في مكتبه، والذي يثير اضطرابه فيما يبدو:

ـ أجل، هذا صحيح، فبيار لم يكن أكثر من حالم، وهو ما برح كذلك. قولي، ماذا يهمني مما يحدث هنالك، وما إن كان أراكتشيف رجلاً لعيناً. ما عسى أن يهمني ذلك وقد تزوجت، وتراكمت عليّ الديون بحيث تكفي لزجي في السجن، بينما أمي لا ترى أو تفهم شيئاً من ذلك؟ ومن بعد، فهناك أنت، والأطفال، والعمل. وهل أقضي أيامي في الحقول أو في المكتب للذتي الخاصة؟ كلا، لكني أعرف أنه يجب أن أعمل كي تعيش أمي في طمأنينة، وكي أوقع لك ما أنا مدين لك به، وكي لا نترك أطفالنا فقراء كما كنت.

وكانت الكونتيسة ماري تود أن تقول لزوجها إن الإنسان لا يعيش من

الخبز وحده، وإنه ربما يعلق كثيراً من الأهمية على «أعماله»؛ لكنها كانت تعرف أن ذلك سيكون بدون فائدة وفي غير محله، فاكتفت بأن تأخذ يده وتقبلها. ورأى في هذه الحركة علامة تأييد له، وتأكيداً لأفكاره، فعاود حديثه الشخصي، بعد برهة، بصوت مرتفع:

ـ أتعرفين يا ماري، إن إيليا ميتروڤانوڤيتش، هو وكيل أعمال، قد رجع اليوم من قريتنا في حكومة طاموف، وقال لي إنهم يقدمون منذ الآن ثمانين ألف روبل من أجل الغابة؟

وطفق نيكولا، متأثر الوجه، يشرح لها كيف سيكون في الإمكان، في برهة من الزمن، استرداد أوترادنويه مجدداً «عشر سنوات أُخر، وأترك الأطفال... في وضع ممتاز».

وكانت الكونتيسة ماري تصغي إلى نيكولا دون أن تفلت منها كلمة واحدة مما يقول. كانت تعرف أنه حين يفكر هكذا بصوت مرتفع، فإنه سيعود ليسألها عم قال، وسوف يغضب حين يعلم أنها كانت تفكر في شيء آخر. لكنها كانت مضطرة أن تقوم بجهد عظيم، لأن هذه الأحاديث لم تكن تعنيها على الإطلاق. كانت تنظر إليه إذن. وإذا لم تكن تفكر في شيء آخر، فقد كانت عواطفها في مكان آخر على أية حال. كانت تحس حباً حنوناً مستسلماً لهذا الرجل الذي لن يفهم إطلاقاً كل ما تفهم هي، فهي تزداد حباً له، ربما لهذا السبب بالضبط، بشيء من الحنان اللاهب. وإلى جانب هذا الشعور الذي كان يتملكها ويمنعها من الاهتمام بتفاصيل مشاريع زوجها، كانت أفكار أُخر تجتاز رأسها، غريبة تماماً عما يروي لها. كانت تفكر في ابن أختها، فحديث زوجها عن انفعال الصبي الصغير وهو يصغي إلى ﭘيار قد أثر فيها بقوة.

كانت دلائل مختلفة من خلقه الحساس اللطيف تمر في ذهنها، فتفكر في أفعالها حين تفكر فيه لم تكن تقارن ما بينه وبين أبنائها، بل كانت تقارن

عاطفتها تجاهه بالعاطفة التي يثيرها أطفالها في نفسها، فتشاهد في شيء من الأسى أن في العاطفة التي تمنحها للصبي الصغير شيئاً ناقصاً.

وكانت تفكر أحياناً أن سبب هذا الفرق هو السن. لكنها كانت تشعر مع ذلك أنها مذنبة في حقه، فتقطع على نفسها عهداً مخلصاً أن تصلح نفسها وتفعل المستحيل، يعني أن تحب في هذه الحياة زوجها، وأولادها، وابن أختها وسائر أقاربها، مثلما أحب المسيح البشرية. كانت نفس الكونتيسة ماري تتوق دون انقطاع إلى اللانهاية، إلى الأبدي، نحو الكمال المطلق، وبالتالي لم تكن تستطيع أن تطمئن قط. وكان وجهها يحمل الطابع العميق لهذا العذاب الذي تقاسيه نفس يئيد الجسد عليها.

وتطلع نيكولا إليها في تلك اللحظة بالضبط، وقال في نفسه: «يا إلهي! إلام نصير إذا ماتت، ولشد ما أفكر في ذلك دائماً يصير محياها هكذا!». ووقف تجاه الأيقونات، وراح يتلو صلوات المساء.

الفصل السادس عشر

بدأت ناتاشا تتحدث كما لا يجري الحديث إلا بين الزوج والزوجة، عندما تكون وحيدة مع زوجها، يعني بتخمين الفكرة قبل أن توضع في قالب الكلمات. وبتينك الحدة والسرعة فوق العاديتين، عن طريق غير متطابق لكل قواعد المنطق، دون محاكمات ودون استقراءات، ودون استنتاجات، بل بأسلوب خاص تماماً. وكانت ناتاشا اعتادت كثيراً محاورة زوجها هكذا، بحيث أن العرض الأكيد للخلاف بينهما هو دائماً مشروع پيار بالتعبير عن فكرته بصورة منطقية كانت تعرف بيقين تام، حين يبدأ يبرهن، ويقدم الحجج بمهابة، فتنجرف هي به، وتروح تصنع مثله، كانت تعرف إذن أن المناقشة ستنتهي إلى الخصام بصورة أكيدة.

وما صارا وحيدين حتى اقتربت ناتاشا من زوجها بلطف، متمددة العينين فرحاً، وأمسكت برأسه بصورة مفاجئة، وشدته إلى صدرها وهي تقول: «الآن، أنت لي بكليتك، ولن تفلت مني بعد الآن أبداً!». وفي الحال قام بينهما حديث مناف لسائر قوانين المنطق، ولو لمجرد شموله مواضيع متناقضة تماماً وكانت هذه الطريقة في طرق عدة مواضيع في وقت واحد لا تخل بوضوح الحديث مطلقاً، بل تكشف على العكس، بيقين تام، عن تفاهم الزوجين المطلق.

وكما أن كل شيء، في الأحلام، غير معقول، ومضاد للمنطق، وسخيف باستثناء العاطفة التي تثير تلك الأحلام، كذلك هو تبادل الأفكار هذا حيث

المحاكمة لا دخل لها، حيث ليست الكلمات هي التي تتمتع بالوضوح والترتيب، بل العاطفة التي تمليها.

كانت ناتاشا تحكي لپيار كيف يعيش أخوها، وتقول له إنها تتعذب، ولا تستطيع حياة بدون رجلها، وتقول له إنها تزداد حباً للكونتيسة ماري، وكيف تتجاوزها زوجة أخيها في كل مضمار، صلاحاً وطيبة قلب. وكانت تعترف بإخلاص، حين تقول هذه الكلمات، بتفوق ماري عليها، لكنها لا تتساهل في طلبها من پيار أن يفضلها على ماري وعلى سائر النساء الأخريات؛ وكان لا بدَّ له من تكرار ذلك على مسامعها، خصوصاً هذه الآونة إثر رجوعه من پيترسبورغ حيث رأى كثيراً من النساء.

ونزل پيار عند إصرار ناتاشا فروى لها كم من دعوات الغداء والسهرات في پيترسبورغ مع نساء من المجتمع الراقي لم يتمكن أن يطيقها.

قال: لقد فقدت تماماً عادة التحدث إلى السيدات، فليس شيء أكثر ضجراً من ذلك وعلى أية حال، فقد كنت مشغولاً.

فرنت ناتاشا إليه بثبات، وأضافت: إنها الإغراء نفسه، ماري هذه: لشد ما هي تفهم الأطفال! لتقول إنها ترى نفسهم، فالبارحة مثلاً، ركب الهوى رأس ميتيا الصغير.

فقاطعها پيار قائلاً:

ـ إنه صورة عن أبيه.

وفهمت ناتاشا لماذا قدم هذه الملاحظة عن البشر بين ميتيا ونيكولا؛ إنه يأسف لمناقشته مع صهره، ويريد أن يأخذ رأي زوجته في الموضوع.

قالت، وهي تكرر الكلمات التي سمعت پيار يتفوه بها:

ـ أجل، إن لنيكولا هذه الناحية الضعيفة التي تجعله لا يقبل شيئاً لا يقبل الجميع به. لكنني أفهم، فأنت على العكس، تريد أن تنطلق.

فأجاب بيار:

ـ كلا، بل الأمر الأساسي هو أن الأفكار والمحاكمات تسلية بالنسبة إلى نيكولا، تكاد تكون أسلوباً لتمضية الوقت. لقد أسس مكتبة واتخذ قاعدة لنفسه هي ألا يبتاع كتاباً جديداً قبل أن يقرأ آخر كتاب تلقاه، وسيسموندي وروسو، ومونتسيكيو...

قال ذلك مبتسماً وأضاف، راغباً في تلطيف كلماته: وأنت تعرفين على أية حال كم...

فقاطعته ناتاشا، مشعرة إياه أن ذلك غير ضروري: إذن فأنت تعتقد أن الأفكار تسلية بالنسبة إليه.

ـ أجل، أما بالنسبة إلي، فإن كل شيء آخر هو التسلية. وخلال إقامتي في بيترسبورغ، كنت أرى كل شيء فكأني في حلم. وحين تتملكني فكرة فليس لأي شيء آخر أو في أهمية إذن.

فقالت ناتاشا:

ـ آه! إنني آسفة جداً لأني لم أرك تتمنى للأطفال صباحاً سعيداً! أي واحدة كانت أكثرهن سروراً؟ ليز بكل تأكيد؟

فأجاب بيار: أجل.

واسترسل فتحدث عما يشغل فكره:

يزعم نيكولا أنه لا يجب أن نفكر. أما أنا، فلا أستطيع. هذا إذا استثنينا أني كنت أحس في بيترسبورغ، أنت، أستطيع أن أعترف لك بذلك، أن كل شيء يتعرض للانهيار بدوني، وأن كل واحد يشد الغطاء إلى جانبه. ومع ذلك فقد نجحت في توحيدهم جميعاً، وعندئذ صار فكري بسيطاً جداً وواضحاً جداً. وأنا لا أقول إنه يجب علينا القيام في وجه فلان أو فلان، فقد نخطئ في

هذه الحال، إني أقول فقط: تعاونوا، أنتم الذين تحبون الخير، ولتكن رايتكم الوحيدة الفضيلة الفاعلة. إن الأمير سيرج رجل ممتاز وهو ذكي أيضاً.

لم تكن ناتاشا تشك في عظمة فكرة پيار، لكن شيئاً واحداً كان يزعجها، ألا وهو أن يكون ذلك هو زوجها بالضبط «أيمكن أن يكون رجل على مثل هذه الأهمية والضرورة للمجتمع زوجي في الوقت نفسه؟ وكيف أمكن حدوث ذلك؟» وأرادت أن تعبر له عن شكها، فهي تتساءل، مستعرضة في ذهنها سائر الذين يضمر لهم پيار عظيم الاعتبار ولكن من هم إذن الذين يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان حقاً أذكى بكثير من الآخرين. ولم يكن يحترم أحداً كما يفهم من أحاديثه، مثل احترامه لأفلاطون كاراتاييف.

صاحت: أتعرف فيمن أفكر! في أفلاطون كاراتاييف. ما عساه يفعل، هو؟ أهو يوافقك؟

ولم يدهش پيار مطلقاً لهذا السؤال، فقد كان يفهم تسلسل أفكار زوجته قال: أفلاطون كاراتاييف؟

واستغرق في التفكير ساعياً بكل إخلاص أن يتصور أي حكم يمكن أن يصوره كاراتاييف في هذا الموضوع، وأخيراً قال:

ـ ما كان يفهم؟ ولكن من يدري؟ لعله كان يفعل!

فقالت ناتاشا بصورة مباغتة:

ـ ذلك يخيف، مبلغ حبي لك. إنه مخيف!

وأجاب پيار، بعد برهة من التفكير:

ـ كلا، لن يوافقني. ما كان يوافق عليه هو حياتنا العائلية لقد كان يود أن يشاهد الجمال في كل مكان، والسعادة والسلام، بحيث أكون فخوراً بأن يرانا، إليك، أنت تشكين في أمر الفراق. ولكن لو تدرين أية عاطفة خاصة أضمر لك بعد الفراق...

وأرادت ناتاشا أن تعترض: ولكن...

ـ كلا، ليس هذا. أنا لا أنقطع إطلاقاً عن حبك. ولا يمكن لامرئ أن يحب أكثر من هذا؛ ذلك أنه، خصوصاً... حسناً، أجل...

ولم يكمل حديثه، لأن نظرتيهما التقتا، فتبادلتا بقية الحديث.

قالت ناتاشا على حين غرة:

ـ ما أحمق ذلك الحديث عن شهر العسل، والقول إن المرء يكون سعيداً في الأيام الأولى. الأمر على العكس، فالآن نحن أفضل من قبل. لو كنت لا تسافر فقط. أتذكر كيف تخاصمنا؟ وكنت أنا المخطئة دائماً، أنا دائماً ولماذا؟ أنا لا أذكر أبداً.

قال پيار مبتسماً: للسبب نفسه دائماً، الغيرة.

فهتفت ناتاشا:

ـ لا تقل ذلك فأنا لا أطيق سماعه.

واشتعل لهيب بارد في عينيها، وأضافت بعد سكوت قصير:

ـ أرأيتها؟

ـ كلا. وعلى أية حال، فلن أعرفها إذا ما شاهدتها.

وجنحا إلى الصمت.

صاحت ناتاشا، راغبة بصورة بينة في طرد السحابة التي تقترب:

ـ وهل تعرف؟ حين كنت تتحدث في المكتب، كنت أنظر إليك. إنك تشبهها مثل قطرتين من الماء، «الصغير»، هكذا كانت تدعو ابنها. آه! لقد حان الوقت لأذهب وأعنى به... هذا هو الميعاد... لكنه يؤلمني أن أذهب.

ولاذا بالصمت بضع ثوان. ومن ثم وبصورة مفاجئة، التفت كلاهما إلى الآخر وشرعا يتكلمان في وقت واحد. كان پيار يتحدث بلطف وحرارة، وناتاشا بابتسامة عذبة سعيدة. وإما تصادما، فقد توقفا وتراجعا كل أمام الآخر.

ـ إذن، ماذا كنت تريدين أن تقولي؟ تكلمي، تكلمي.

صاحت ناتاشا: كلا، بل أنت الذي يجب أن تتكلم. أما أنا، ما تلك سوى حماقات.

فرجع پيار إلى الموضوع الذي افتتحاه، واستمر يتوسع بلهجة راضية عن نجاحاته في پيترسبورغ. كان يعتقد في تلك الساعة اللحظة أنه مدعو لتوجيه المجتمع الروسي والعالم بأسره في منحى جديد.

ـ كنت أريد فقط أن أقول إن سائر الأفكار التي تؤدي إلى نتائج عظيمة هي بسيطة دائماً. وكانت كل فكرتي تقول إنه كان الناس الأشرار يؤلفون قوة باتحادهم، فما أمام الناس الشرفاء إلا أن يفعلوا مثلهم. وأنت ترين بساطة ذلك.

ـ أجل.

ـ وأنت، ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ لا شيء، لا شيء.

ـ ولكن؟

فأصرت ناتاشا، وعلى شفتيها ابتسامة تزداد اتساعاً:

ـ أقول لك لا شيء. كنت أريد فقط أن أحدثك عن پيتيا. لقد جاءت المربية اليوم لتأخذه، وكان يقتعد ركبتيّ فطفق يضحك، والتصق بي وهو يغلق عينيه فكأنه يريد أن يختبئ. إنه لطيف حتى الدرجة القصوى. وهذا هو يصيح هنا، إلى اللقاء!

وخرجت من الغرفة.

وفي الوقت نفسه، في الطابق السفلي، في غرفة نوم نيكولا پولكونسكي الصغير، كانت الساهرة مشعلة كالعادة، كان الصبي يخاف الظلام، ولم تنجح أية محاولة في تخليصه من هذا الضعف. وكان ديسال ينام مرتفعاً على وسائده

الأربع، ومن أنفه الروماني ينطلق شخير منظم. وكان نيكولا الصغير، الذي استيقظ تواً متصبباً عرقاً بارداً، جالساً في سريره، يحملق باستقامة إلى الأمام. كان كابوس مريع قد أيقظه، فقد رأى فيما يشاهد النائم أنه يرتدي وعمه پيار قناعين شبيهين بتلك الأقنعة المصورة في مؤلفات پلوتارك، وهما يسيران في مقدمة جيش عظيم. وكان هذا الجيش مؤلفاً من صفوف بيض منحرفة تملأ الهواء مثل هذه الخيوط تتطاير في الخريف ويسميها ديسال خيوط العذراء.

وإلى الأمام منهما كانت الطليعة، المصنوعة من الخيوط نفسها لكنها أقوى بقليل وكان كلاهما، العم پيار وهو، ينطلقان فرحين ويقتربان من الهدف أكثر فأكثر وفجأة، أخذت الخيوط التي تحملها تنحل، وتتشابك، وصارا في وضع خطر. وإذا العم نيكولا إيليتش يقف حيالهما في وضع صارم متوعد.

قال، مشيراً إلى بقايا ريش وشمع يستخدم في ختم الغلافات: «أأنتما اللذان فعلتما هذا؟ لقد كنتما عزيزين عليّ، لكن أراكتشيف أمرني أن أقتل من يتقدم منكما خطوة واحدة إلى الأمام»، وأدار نيكولا الصغير نظره نحو پيار، لكن پيار لم يكن هناك. كان پيار قد صار أباه، الأمير أندريه، ولم يكن لأبيه حدود أو شكل، رغم أن الواقف إلى جانبه كان أباه عينه؛ وإما رآه، أدرك نيكولا الصغير أن الحب يحرمه قواه؛ أحس أنه لا موطن له، ولا قوام، ولا هيكل، كأنه تميع، وكان أبوه يربته ويعزيه. لكن العم نيكولا إيليتش يهاجمهما ويقترب منهما أكثر فأكثر، فتملك الذعر الصبي الصغير واستيقظ من نومه.

فكر في سرِّه: «أبي، كان في البيت صورتان لأبيه على درجة عظيمة من الشبه، ومع ذلك إن نيكولا الصغير لم يتصور الأمير أندريه في صورة بشرية قط، لقد كان أبي إلى جانبي وكان يداعبني. وكان يوافقني، ويوافق العم پيار ومهما سيقوله لي رفاقي فإني فاعله. إن موسيوس شيفولا قد أحرق يده، فلِمَ لا أفعل أنا مثله في حياتي؟ أعرف أنهم يريدونني أن أتعلم، ولست أتعلم.

ولكني سأنتهي من ذلك يوماً، وعندئذ أفعل، ولست أسأل الله سوى شيء واحد، ألا وهو أن يصيبني ما أصاب الرجال العظام الذين يتحدث پلوتارك عنهم، وسوف أصنع مثل صنيعهم، بل سوف أصنع أفضل من صنيعهم. وسوف يعرف جميع الناس ذلك، ويحبونني، ويعجبون بي».

وأحس نيكولا الصغير، فجأة، بالبكاء يغص به حلقه وينقبض له صدره، فانهمرت دموعه مدرارة غزيرة.

قال صوت ديسال: هل تشعر بوعكة؟

فأجاب الصغير، وهو يعاود النوم على وسادته: كلا.

قال في سرّه وهو يفكر في ديسال:

ـ إنه شريف وطيب، وأنا أحبه. وعمي پيار: آه! يا له من إنسان رائع! وأبي؟ أبي.. أجل، سوف أصنع أشياء يكون هو نفسه فخوراً بها...

القسم الثاني

الفصل الأول

إذا كان غرض التاريخ هو حياة الشعوب فإن الإدراك المباشر ليس لحياة البشرية بل لحياة شعب واحد وحصر هذه الحياة في حدود الكلمات ووضعها لأمور تبدو مستحيلة تماماً.

لجأ مؤرخو الأزمنة القديمة إلى الطريقة نفسها كي يصفوا ويدركوا هذا العنصر الممتنع، ألا وهو حياة شعب من الشعوب. لقد وصفوا نشاط زعمائه، لكن بصورة منعزلة، وكان هذا النشاط يعبر بالنسبة إليهم عن فاعلية الشعب بأسره.

أما السؤالان: كيف كان الأفراد المنعزلون يجبرون الشعوب على الفعل وفق إرادتهم، وماذا كان يوجه هذه الإرادة فإن مؤرخي الأزمنة القديمة قد أجابوا عنهما هكذا: أجابوا عن السؤال الأول بأن أرجعوا إلى إرادة الألوهية أمر خضوع الشعوب لشخص واحد، وأجابوا عن السؤال الثاني مؤكدين أن تلك الألوهية نفسها كانت توجه إرادة المنتخب نحو هدف معين سلفاً.

إذن فقد حلت هذه المسائل، بالنسبة إلى القدماء، بالإيمان باشتراك الألوهية المباشر في القضايا الإنسانية.

لكن التاريخ المعاصر قد رفض، في نظريته: هاتين الفرضيتين.

وكان يمكن أن نعتقد أن التاريخ الحديث، بتخلصه من العقيدة القديمة عن خضوع البشر للألوهية ولغاية معيّنة سلفاً تتجه الشعوب نحوها، قد اختار أن يدرس بدلاً من تظاهرات السلطة، الأسباب العميقة لها. لكن التاريخ

الحديث لم يفعل ذلك، وإذا كان يرفض المفاهيم القديمة نظرياً، فهذا بتأثرها بالممارسة.

يقدم لنا التاريخ الحديث، بدلاً من شخصيات تتمتع بسلطان إلهي توجهها إرادة الألوهية بصورة مباشرة، إما أبطالاً يتمتعون بصفات غير عادية وفوق إنسانية، وإما بكل بساطة أفراداً لهم قرارات مختلفة، منذ الملوك حتى الصحافيين، وهم يقودون الجماهير ويوجهونها. وبدلاً من الأهداف المعينة قبلاً من لدن الألوهية لبعض الشعوب، العبرانيين، والإغريق، والرومان، في سبيل توجيه خطى الإنسانية، التاريخ الحديث يضع أهدافه الخاصة: سعادة الشعب الفرنسي، والألماني، والإنكليزي، وإذا رفعنا التجريد حتى الدرجة القصوى، فخير حضارة البشرية بأسرها، هذه البشرية التي يحصرها عادة في الشعوب المحتلة للقسم الشمالي الشرقي من الكرة الأرضية.

ولقد رفض التاريخ الحديث معتقدات القدماء دون أن يقدم بديلاً عنها. فإذا المنطق يجبر المؤرخين، الذين زعموا رفض السلطان الإلهي للملوك والقدر القديم، أن يعودوا بطريق أخرى إلى نقطة الانطلاق، ألا وهي الاعتراف: ١ ـ بأن البشر موجهون من قبل أفراد منعزلين، ٢ ـ بأنه يوجد هدف محدد تماماً تسير الشعوب والإنسانية نحوه.

وإن سائر المؤلفات الحديثة التي كتبها المؤرخون، منذ جيبون حتى ياكل رغم اختلافاتها الظاهرية والجدة الظاهرية لنظراتها، أساسها هاتان البديهيتان القديمتان الحتميتان.

فالمؤرخ يصف بادئ الأمر نشاط بعض الأفراد المنعزلين الذين يقودون الإنسانية في رأيه. ولا يحسب بعض المؤرخين في عداد هؤلاء سوى الملوك، والجنرالات والوزراء؛ ويضع مؤرخ آخر، إلى جانب الملوك، الخطباء، والعلماء، والمصلحين، والفلاسفة، والشعراء ومن ثم، فالهدف الذي تسعى

إليه الإنسانية معروف تماماً من المؤرخ. وهذا الهدف هو عند هذا المؤرخ عظمة الدولة الرومانية، أو الإسبانية، أو الفرنسية، وهو عند ذاك المؤرخ المساواة وحضارة عرق معين من هذا القسم من العالم المسمى أوروبا.

وحدث اضطراب في باريس عام ١٧٨٩ ولقد كبر هذا الاضطراب وماج واتخذ شكل تحرك لشعوب الغرب إلى الشرق. ولقد اتجهت هذه الحركة مراراً صوب الشرق واصطدمت بحركة معاكسة من مرور الشرق إلى الغرب وفي عام ١٨١٢، بلغت حدها الأقصى، موسكو، ورجعت نفسها بتناظر مرموق من الشرق إلى الغرب، خارقة معها في الذهاب والإياب على السواء شعوب أوروبا الوسطى. وقد رجعت هذه الحركة المعاكسة إلى نقطة انطلاقها، باريس، وتوقفت هناك.

وخلال هذه المرحلة التي دامت عشرين عاماً، بقي مقدار عظيم من الحقول نهباً للثوار، وأحرقت منازل وبدلت التجارة وجهتها، وأملق ملايين الناس، أو أثروا، أو تنقلوا، وكان ملايين من المسيحيين الذين يمارسون محبة القريب يتذابحون.

ماذا يعني كل هذا؟ ومن أين صار كل هذا؟ ما الذي كان يدفع هؤلاء الناس إلى إحراق المنازل وقتل أشباههم؟ ما هي أسباب هذه الحوادث؟ أية قوة دفعت هؤلاء الناس إلى مثل هذه الأعمال؟ هذه هي الأسئلة غير الإرادية، الساذجة والمشروعة جداً مع ذلك، التي يطرحها المرء على نفسه عندما يقف تجاه أنصاب المرحلة المنصرمة من هذه الحركة وتقاليدها.

وإنا لنلتفت، في نحل هذه المسائل، صوب عالم التاريخ الذي يهدف إلى أن يكشف للشعوب والإنسانية عن معرفة ذواتها.

ولو كان التاريخ يتقيد بوجهة النظر القديمة، فقد كان يجب له أن يقول: إن الألوهية، كي تكافئ شعبها أو تقتص منه، قد منحت السلطان إلى نابليون

وحصلت منه على أداة إرادتها في سبيل إنجاز أهدافها. ويكون هذا الجواب، إذن واضحاً وكاملاً. ويمكننا أن نؤمن ألا أن نرفض الإيمان برسالة ناپليون الإلهية. لكن ذاك الذي يؤمن يتضح له مجمل تاريخ تلك الفترة، بحيث لا يبقى ثمة مجال تناقض على الإطلاق.

بيد أن التاريخ الحديث لا يستطيع أن يجيب عن هذا القرار. فالعالم لم يعد يقبل الفكرة القديمة عن التدخل المباشر للألوهية في أفعال الإنسانية، وبالتالي فلا بدَّ له من تدبير أجوبة أخرى.

وإما يجيب التاريخ الحديث عن هذه الأسئلة يقول لنا: أنتم تريدون أن تعرفوا معنى هذه الحركة وأصولها، وأية قوة أنتجت مثل هذه الأحداث؟ اسمعوا إذن:

لقد كان لويس الرابع عشر إنساناً متكبراً مدعياً بصورة خاصة؛ وكان عنده الخليلات العلانيات والوزراء الفلانيون، وكان يسوس فرنسا بصورة رديئة وكان خلفاؤه رجالاً ضعفاء قد حكموا البلاد، هم أيضاً، بصورة سيئة. كان لهم، هم أيضاً الخلان الفلانيون والمحظيات الفلانيات، وما عدا ذلك فبعض الناس قد كتبوا كتباً في تلك الفترة. وفي أواخر القرن الثامن عشر، اجتمع في باريس قرابة عشرين رجلاً راحوا يقولون إن سائر البشر متساوون وأحرار. ونتج من ذلك أن الناس أخذوا في كل مكان في فرنسا، يقتلون أشباههم ويغرقونهم، ولقد قتل هؤلاء الناس مليكهم، كما قتلوا أشخاصاً آخرين عديدين.

وفي تلك الفترة بالضبط كان في فرنسا إنسان عبقري هو ناپليون. وكان يسجل الانتصارات في كل مكان، يعني أنه كان يقتل عدداً كبيراً من الناس لأنه كان عبقرياً عظيماً. الغد غدا يقتل، ولا ندري السبب، الأفريقيين في بلادهم؛ ولقد قتلهم بصورة رائعة، وكان عظيم الدهاء كثير الذكاء، بحيث استطاع لدى عودته إلى فرنسا أن يصدر الأمر للجميع كي يطيعوه. ولقد أطاعه الجميع.

وإما جعل نفسه أمبراطوراً، فقد ذهب أيضاً إلى إيطاليا والنمسا، وبروسيا، يقتل البشر. ولقد قتل الكثيرين. ويومذاك كان يحكم في روسيا الأمبراطور ألكسندر الذي قرر أن يعيد النظام كما كان في أوروبا، وكان يحارب ناپليون بسبب ذلك. لكنه صار، في ١٨٠٧ صديقه بصورة مفاجئة، وبقي كذلك حتى عام ١٨١١، حين اختصم وإياه مجدداً، وحين قتل كلاهما، معاً، عدداً كبيراً من الناس مرة أخرى.

وقاد ناپليون ستمائة ألف شخص إلى روسيا واحتل موسكو. لكن الأمبراطور ألكسندر، وقد نصحه شتين وآخرون، وحَّد أوروبا بأسرها ضد ذلك الذي يعكر طمأنينته، فإذا سائر حلفاء ناپليون يصيرون فجأة أعداء له، ويهبّون هبّة واحدة ليقابلوا القوى الجديدة التي جمعها ناپليون وانتصر الحلفاء، ودخلوا باريس، وأجبروا ناپليون أن يتنازل عن عرشه، وأرسلوه إلى جزيرة إلبا، لكن دون أن ينزعوا عنه لقبه الأمبراطوري، مبدين مختلف ضروب التكريم لهذا الرجل الذي كان الجميع قبل خمس سنوات يعتبرونه، وسيفعلون ذلك بعد سنة واحدة أيضاً، لصاً خارجاً على القانون، وجعل لويس الثامن عشر، الذي لم يفعل الفرنسيون والحلفاء حتى ذلك الحين سوى السخرية منه، يحكم فرنسا، بينما تنازل ناپليون عن سلطانه، وهو يذرف بضع عبرات أمام حرسه العجوز، وذهب إلى المنفى.

ومن بعد، اجتمع في ڤيينا للتشاور مع رجال دولة ودبلوماسيون ماهرون، وبصورة خاصة تاليران الذي تمكن من الجلوس في تلك الأثناء في مقعد معيّن ومن توسيع حدود فرنسا بهذه الواسطة، وكان من نتاج أحاديثهم أن صيروا الشعوب سعيدة أو شقية. ولكن هؤلاء الدبلوماسيين قد تخاصموا فجأة فإذا هم على استعداد كي يصدروا الأوامر إلى جيوشهم لتتذابح؛ لكن ناپليون رجع إلى فرنسا في ذلك الحين، برفقة فرقة عسكرية فإذا سائر الفرنسيين

الذين كانوا يكرهونه يخضعون له في الحال. وغضب الملوك لذلك، فعادوا يحاربون الفرنسيين. ولقد انتصروا على الجنرال ناپليون ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة وأخذوا يعاملونه فجأة كأنه قاطع طريق. وهناك، بعيداً عن الكائنات العزيزة على قلبه، وعن وطنه الحبيب فرنسا، مات المنفي موتاً بطيئاً فوق إحدى الصخور، جاعلاً من الأجيال اللاحقة ورقة أفعاله الرفيعة. وفي أوروبا، تمكنت الرجعية من الحكم مجدداً، وراحت سائر الحكومات تضطهد الشعوب مرة أخرى.

ولمن العبث أن نحسب أن هذا كله ليس سوى مزاح أو صورة كاريكاتورية للأقاصيص التاريخية. وعلى العكس، فهو التعبير الأشد لطفاً عن هذه الأجوبة المتناقضة التي لا تجيب عن أي سؤال، والتي تقدم لنا التاريخ بأسره، منذ صانعي الأبحاث والقصص عن الدولة المنفصلة، حتى مؤلفي التواريخ العامة أو تواريخ الثقافة. هذا النوع المعاصر الجديد.

وغرابة هذه الأجوبة وسخفها ينشآن عن كون التاريخ يشبه أصمَّ يجيب عن أسئلة لم يطرحها عليه أحد.

وإذا كانت غاية التاريخ هي وصف حركات الإنسانية والشعوب، فالسؤال الأول الذي يتطلب جواباً بالضرورة، والذي يكون كل ما يتبع ممتنعاً عن الفهم بدونه، هو السؤال التالي: ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟ وجواباً عن هذا السؤال، يروي لنا التاريخ الحديث بشيء من دلائل الاهتمام، إما أن ناپليون كان يتمتع بقوة عليا؛ وإما أن لويس الرابع عشر كثير التفكير، وإما أيضاً أن هؤلاء أو أولئك من المخالفين قد كتبوا هذه الكتب أو تلك.

وهذا كله شيء ممكن تماماً، والبشرية على استعداد لقبوله، بيد أن السؤال يكمن ههنا هذا كله يمكن أن يكون باعثاً على الاهتمام إذا كنا نريد القول بأن قوة ناپليون، ولويس الرابع عشر، والمؤلفين. ولكننا لا نعترف

بهذه القوة، ولذا يبتغي، قبل الحديث عن أمثال ناپليون، ولويس الرابع عشر، والمؤلفين، وجود رابطة قائمة بين هذه الشخصيات وتحركات الشعوب.

وإذا كانت قوة أخرى قد اتخذت مكان الألوهية، فيجب أن نوضح قوام هذه القوة، لأن أهمية التاريخ تقوم عليها بالضبط.

ويفترض المؤرخ أن هذه القوة أمر مفروغ منه، وأن الجميع يعرفونها. ومع ذلك وبالرغم من أن الرغبة العامة في افتراض هذه القوة معروفة، فذاك الذي ينقب في عدد كبير من المؤلفات التاريخية يشك رغماً عنه ويتساءل ما إذا كانت هذه القوة، المهدمة بصورة مختلفة جداً من قبل المؤرخين أنفسهم، هي معروفة حقاً منهم جميعاً.

الفصل الثاني

إن مؤلفي الترجمات الفردية ومؤرخي الشعوب المنعزلة يعتبرون أن القوة التي تحرك الشعوب هي قوة سلطان خاص بالأبطال والزعماء. وتبعاً لما يسردون من أوصاف، فالأحداث ناتجة من مجرد إدارة أمثال ناپليون وألكسندر، أو بصورة عامة أولئك الأشخاص الذين يصف المؤرخ حياتهم الخاصة. وإن الأجوبة التي يقدمها هذا النوع من المؤرخين عن هذا السؤال المتعلق بالقوة التي تحرك الأحداث المرضية، لكن في حدود معيّنة فقط، ألا وهي أن يكون ثمة لكل حادث مؤرخ واحد. ولا يكاد مؤرخون من قوميات متعددة وآراء مختلفة يشرعون في وصف الحادث الواحد نفسه حتى تفقد الأجوبة المقدمة من قبلهم كل قيمة، لأن كل واحد منهم يفهم هذه القوة لا بصورة مختلفة فحسب، بل في بعض الأحايين بصورة معاكسة تماماً لفهم جاره لها.

ويؤكد الواحد أن الحادث فتسبب عن قوة ناپليون، ويؤكد آخر أنه ناشئ عن قوة ألكسندر، ويؤكد ثالث أنه قوة شخص ثالث، والأكثر من ذلك أن المؤرخين من هذا النوع يناقضون بعضهم بعضاً حتى في التفسيرات التي يقدمونها عن القوة التي يتولد منها سلطان الشخصية نفسها. وهكذا فإن تييرس، وهو بوناپرتي النزعة، يرجع سلطان ناپليون إلى فضيلته وعبقريته، أما لانغري، وهو جمهوري النزعة، فيرجعه إلى سرقاته واحتيالاته حيال الشعب. وبالتالي فإن المؤرخين من هذا النوع، حين يطور كل منهم أطروحته وفرضياته

الخاصة، يدمرون بذلك مفهوم القوة التي تقوم في أصل الأحداث، ولا يعطون أي جواب عن السؤال الأساسي للتاريخ.

والمؤرخون الذين يعنون بالتاريخ العام، باعتبارهم ينظرون إلى سائر الشعوب، يقبلون كما تشير الظواهر خطل وجهة نظر المؤرخين المختصين في موضوع القوة القائمة في أصل الأحداث. فهم لا يعترفون بهذه القوة كسلطان لاصق بالأبطال والزعماء، بل حاصلة قوى عديدة ذات اتجاهات متعددة. وإما يصنعون حرباً أو غزواً لشعب ما، فإنهم ينقبون عن سبب الحوادث لا في سلطان شخص واحد، بل في الفعل ورد الفعل المتبادلين لعدد كبير من الأشخاص ذوي العلاقة بالحادث المطروح على بساط البحث.

وتبعاً لوجهة النظر هذه، فسلطان الشخصيات التاريخية، المعتبر حاصلة قوى متعددة، لم يعد ممكناً بعد الآن، فيما يبدو، النظر إليه كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث. ومع ذلك، إن مؤلفي التواريخ العامة يلجأون إلى هذا المفهوم عن هذا السلطان المعتبر كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث، وتسلك تجاه هذه الحوادث سلوك المسبب، ويفهم من عرضهم تارة أن الشخصية التاريخية تتابع زمنها فليست سلطتها سوى حصيلة القوى المختلفة، وتارة أن سلطانها هو القوة التي تخلق الحوادث. ومثال ذلك أن جيرڤينوس، وشوسر، وآخرين أيضاً يبرهنون تارة أن ناپليون هو نتاج الثورة وأفكار عام ١٧٨٩، وتارة يعلنون أن حملة عام ١٨١٢، وكذلك بضعة حوادث تاريخية أخرى لا تروقهم، مسببة فقط عن إرادة ناپليون سيئة التوجيه. وأن أفكار عام ١٧٨٩ نفسها قد قضى عليها، في تطورها، سلوكه الاعتباطي. إن الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة قد صنعت سلطان ناپليون، وسلطان ناپليون قد خنق الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة.

وليس هذا التناقض الغريب مسبباً عن الصدفة. ونحن لا نلقاه لدى كل

خطوة فحسب، بل إن الأوصاف التي يقدمها مؤلفو التواريخ العامة إنما تتألف أيضاً من تسلسل حازم لتناقضات مماثلة. وإن هذا التناقض ناشئ عن الواقع التالي، ألا وهو أن المؤرخين من هذا النوع، بعدما ينطلقون في ميدان التحليل يتوقفون في منتصف الطريق.

وفيما نجد الأجزاء المركبة المادية للمركب أو الحصيلة، فيجب تساوي الأجزاء المركبة. وهذا هو بالضبط الشرط الذي لا يلاحظه مؤلفو التواريخ العامة. ولذا لم يكن لهم بد، كي يفسروا الحصيلة، أن يقبلوا، إلى جانب الأجزاء المركبة غير الكافية، قوة جديدة لا تفسير لها تعمل تبعاً للمركب.

وإنَّ المؤرخ الفردي النزعة الذي يصف حملة ١٨١٣ أو عودة آل بوربون إلى العرش، يؤكد بصورة حازمة أن هذه الحوادث مسببة، عن إرادة ألكسندر. لكن جيرڤينوس، وهو مؤلف تاريخ عام، يدحض هذا التأكيد ويسعى أن يبرهن أن حملة ١٨١٣ وعودة البوربونيين إلى العرش مسببان، ما عدا إرادة ألكسندر عن نشاط شتين ومترنيخ، ومدام دو شتال، وتاليران، وفخته، وشاتوبريان وآخرين عديدين. من الواضح أن جيرڤينوس قد جزأ ألكسندر إلى أجزائه المركبة: تاليران شاتوبريان، إلخ: وإن مجموع هؤلاء، يعني العمل المتبادل لشاتوبريان، وتاليران ومدام دو شتال والآخرين لا يساوي الحصيلة، يعني حقيقة خضوع ملايين الفرنسيين للبوربونيين. أما أن شاتوبريان، ومدام دو شتال، وآخرين قد تبادلوا هذه الأحاديث أو تلك، فهذا لا ينشأ عنه سوى علاقاتهم المتبادلة، وليس خضوع ملايين الناس.

وكي نفسر كيف نتج هذا الخضوع من تلك العلاقات، يعني كيف خرج من أجزاء مركبة مساوية للمقدار (ب) حصيلة تساوي (أ.ب)، فالمؤرخ مجبر على قبول تلك القوة التي ينكرها، معرفاً إياها كحصيلة عدة قوى، يعني أنه مجبر على قبول قوة لا تفسير لها ناتجة من المركب. وهذا هو بالضبط ما يفعل

سائر مؤرخي التواريخ العامة. وإنهم ليقعون في التناقض لذلك السبب أيضاً، التناقض مع مؤلفي التواريخ الخاصة، والتناقض مع أنفسهم.

إن سكان الأرياف، الذين لا يعرفون من أين تأتي الأمطار بالضبط، يقولون تبعاً لرغبتهم في الغيث أو الطقس الجميل: إن الريح قد طردت السحب أم أن الريح قد جاءت بالسحب وهذا هو بالضبط ما يفعله مؤلفو التواريخ العامة. وإنهم يقولون، حين يناسب ذلك نظرياتهم، إن السلطان هو نتيجة الحوادث؛ وحين يحتاجون أن يبرهنوا شيئاً آخر، فإنهم يقولون إن السلطان قد أدى إلى الحوادث.

وثمة مقولة ثالثة من المؤرخين يدعون أنفسهم بمؤرخي الثقافة . ويدعي هؤلاء أحياناً، متأثرين بخطى مؤرخي التواريخ العامة، أن الكتّاب والسيدات هم الذين ينتجون الحوادث. لكن هؤلاء المؤرخين يفهمون أيضاً هذه القوى على صور مختلفة تماماً حين يكتشفونها في «الثقافة» أي في الفاعلية الفكرية. وإن مؤرخي الثقافة حازمون تماماً تجاه أولئك الذين أعطوهم مولداً، يعني مؤرخي التواريخ العامة. لأنه إذا كان في الإمكان أن تفسر الحوادث التاريخية بكون بعض الشخصيات قد ارتبطت بعلاقات متبادلة معيّنة، لم لا نفسرها أيضاً بكون هؤلاء الناس أو أولئك قد كتبوا كتباً معينة. إن هؤلاء المؤرخين يستخرجون، من الجمهرة الضخمة للتظاهرات التي ترافق كل ظاهرة حية، إشارة فاعلية فكرية، ويعلنون أن هذه الفاعلية هي سبب كل شيء آخر. ولكنه بالرغم من سائر جهودهم للبرهان على أن سبب الحوادث قائم في الفاعلية الفكرية، لا بدَّ من مقدار عظيم من الإرادة الطيبة في سبيل الاعتراف بوجود صلة مشتركة بين الفاعلة الفكرية ومحركات الشعوب. ولا يمكننا في أي حال، أن نقبل بأن هذه الفاعلية الفكرية توجه الأمم، لأن بعض الظواهر، كالمذابح الرهيبة للثورة الفرنسية الناتجة من إعلان حقوق الإنسان، والحروب التي

لا رحمة فيها والإعدامات الفظيعة الناتجة من بشارة بناموس المحبة هذه الظواهر تناقض تلك الفرضية بصورة مطلقة.

وعلى أية حال، فلنقبل صحة سائر هذه المقالات الفطنة التي يكيلها هؤلاء المؤرخون؛ فلنقبل أن الشعوب مسيرة بقوة عصيَّة عن التعريف تحمل اسم الفكرة ، فالقضية الأساسية للتاريخ تبقى غير محلولة مع ذلك، وإلا فإن قوة جديدة هي الفكرة، تتطلب صلتها بالجماهير فهماً جديداً، تنضم أيضاً إلى قوة الملوك المأخوذة سابقاً في الاعتبار، وإلى التأثير الذي قبله مؤلفو التواريخ العامة سلفاً، والذي هو خاص بالمستشارين والشخصيات الأخرى ويمكننا أن نفهم وقوع الحادث الفلاني، باعتبار أن ناپليون يسيطر على دفة الحكم، ويمكننا كذلك أن نفهم بشيء من التسامح أن يكون ناپليون معضوضاً ببضع التأثيرات الأخرى، سبب بعض الحوادث؛ أما أن العقد الاجتماعي كان نتيجة تذابح الفرنسيين، فهذا ما يعني إدراكنا دون إيضاح للرابطة السببية الموجودة بين تلك القوة الجديدة والحوادث.

إن الرابطة الموجودة بين سائر الأفراد الذين يعيشون في عصر واحد لا يتطرق الشك إليها مطلقاً؛ وهكذا من الممكن أن نجد بعض العلاقة بين فاعلية الناس الفكرية وحركتهم التاريخية، تماماً كما نجد مثل هذه العلاقة بين تحركات البشرية والتجارة، والمهن، وزراعة البساتين، وأي شيء آخر. ولكن كم تتراءى فاعلية بعض الرجال الفكرية، في نظر مؤرخي الثقافة، كسبب كل حركة تاريخية أو التعبير عنها؟ إن هذا لأمر يصعب فهمه. ولم ينته المؤرخون إلى مثل هذه النتيجة إلا بالاعتبارات التالية: ١ ـ إن العلماء هم الذين يكتبون التاريخ؛ ولذا فمن الطبيعي والمستحب بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أن فاعلية طائفتهم تبث الحياة في حركة الإنسانية بأمرها، تماماً كما يلذ بصورة طبيعية للتجار، والمزارعين والجنود، أن ينطووا على الفترة نفسها، وإذا لم يعبروا

عنها ما ذلك إلا لأن كتبة التاريخ ليسوا من عدادهم؛ ٢ ـ إن الفاعلية الفكرية والثقافة، والحضارة، والمدنية، هذه جميعاً مفاهيم مجردة، غير محددة يسهل تحت غطائها حتى الدرجة القصوى استعمال كلمات أشد غموضاً أيضاً بحيث يمكن بالتالي تكييفها مع أية نظرية كانت.

وما عدا الجدارات الباطنية لهذا النوع التاريخي، المفيد من دون شك لشخص ما أو لشيء ما، فتواريخ الثقافة التي راحت تمتص سائر التواريخ العامة يلفت النظر فيها أنها تفضل بصورة جدية حساب العقائد الدينية، والفلسفية، والسياسية، التي تجد فيها أسباب الحوادث؛ ومن ثم لا تكاد تتقدم من وصف حادث تاريخي حقيقي، كحملة عام ١٨١٢ مثلاً، حتى تصفه رغماً عنها كنتاج سلطان معين، وتعلن دون تردد أن أصل هذه الحملة موجود في إرادة ناپليون. وحين يتحدثون هكذا، فإن مؤرخي الثقافة إما أن يتناقضوا دون إرادة لذلك منهم، وإما أن يبرهنوا أن الشكل الجديد الذي أبدعوا لا يفسر الحوادث التاريخية، وأن الطريقة الوحيدة لفهم هذه الحوادث هي العودة إلى ذلك السلطان الذي يتظاهرون بأفكاره.

الفصل الثالث

يتساءل المرء ما هي الحركة؟ إن القاطرة هي حركة. يقول فلاح ما: إن الشيطان يدفعها. ويقول آخر إن القاطرة تتقدم لأن دواليبها تدور. ويؤكد ثالث أن سبب الحركة هو في الدخان الذي تنفخه الريح وتبعثره.

ولا يمكننا أن نبرهن للفلاح الأول أنه على خطأ، إذ يجب إذن أن نجد الوسيلة الناجعة لكي نقنعه بأن الشيطان غير موجود. أو يبرهن له فلاح آخر أن من يحمل القاطرة على السير ليس هو الشيطان، بل الألماني. والتناقض وحده يمكن أن يثبت لكليهما الخطأ الذي يقعان فيه. لكن ذاك الذي يقول إن الحركة ناشئة عن الدواليب يناقض نفسه، وبما أنه انطلق في طريق التحليل فلا بدَّ له من الذهاب قدماً، وتفسير سبب حركة الدواليب ولن يكون له حق التوقف في البحث عن الأسباب ما لم يصل إلى السبب الأخير لحركة القاطرة، ألا وهو ضغط بخار الماء في المرجل. أما من فسر حركة القاطرة بالدخان الذي تبدده الريح، فقد اتضح له أن تفسير الحركة بالدواليب غير مقنع فلجأ إلى الظاهرة الأولى التي وقع عليها ليجعل منها سبباً.

فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع أن يوضح حركة القاطرة هو مفهوم قوة مساوية للحركة الظاهرة.

بالتالي فالمفهوم الوحيد الذي يمكن أن يوضح حركة الشعوب هو مفهوم قوة مساوية لهذه الحركة.

وعلى أية حال، فالمؤرخون المختلفون يفهمون من هذا المفهوم فعل

قوى متنافرة وليس مساوية للحركة. ويرى البعض فيه قوة لاصقة بالأبطال، كما يرى الفلاح شيطاناً في القاطرة، ويرى آخرون فيه قوة منتجة من قوى أخرى، كحركة الدواليب مثلاً؛ ويرى فيه آخرون أيضاً تأثيراً فكرياً، مثل الدخان الذي تبدده الريح.

وما دمنا لا نكتب سوى تاريخ الشخصيات المنعزلة، ولو كانت قيصراً، أو ألكسندر، أو لوثر، أو ڤولتير، لا تاريخ سائر الأفراد دون استثناء، هؤلاء الذين اشتركوا في حادث ما، فلن يكون من الممكن تفسير تحركات البشرية دون تصور قوة تجبر البشر على توجيه فاعلياتهم نحو غاية وحيدة. ولا يعرف المؤرخون لهذا المعنى سوى قوة واحدة، ألا وهي السلطان.

وهذا المفهوم هو القبضة الوحيدة التي تسمح لتمليك زمام مادة التاريخ كما تُفهم في أيامنا الحاضرة. وأن تحطيم هذه القبضة، دون حيازة أداة أخرى، كما فعل باكل، يعني خسارة آخر إمكانية لبحث مادة التاريخ. وأن استحالة عدم اللجوء إلى مفهوم السلطان يبرهنها على أفضل وجه. ومؤرخو التواريخ العامة أنفسهم ومؤرخو الثقافة على السواء، وهؤلاء الأخيرون يتظاهرون برفض هذا المفهوم ومع ذلك فهم يستخدمونه بصورة لا خلاص منها لدى كل خطوة.

وبما يتعلق بالقضايا المرتبطة بالإنسانية، فقد كان العلم التاريخي، حتى يومنا الراهن، شبيهاً بالنقد المتداول، أكان ورقاً أم معدناً. إن ترجمات الحياة والتواريخ الخاصة هي أنواع من الورق النقدي. ويمكنها الدخول في التداول وتقوم بواجبها دون إلحاق الأذى بأي شخص كان، بل بشيء من الفائدة أيضاً ما دمنا لا نثير مسألة تغطيتها بالذهب. ويكفي ألا نسأل كيف يمكن لإرادة الأبطال أن تنتج الحوادث كي تصير تواريخ أمثال پيترس باعثة على الاهتمام، ومفيدة، بل لا تخلو من الشاعرية أيضاً. ولكنه سرعان ما نشك في القيمة الحقيقية لورق النقد عندما نفكر حتى أية درجة تدفعنا سهولة صنعه إلى إنتاج

مقدار أكبر منه، أو إذا أردنا تحويله إلى ذهب. وكذلك فإننا نشك في المعنى الحقيقي للتواريخ من هذا النوع عندما نأخذ في الاعتبار عددها الكبير، أو عندما نتساءل بكل بساطة ما هي القوة التي أثرت في ناپليون، يعني حين نريد أن نستبدل ورق النقد بقيمته المضبوطة من الذهب.

إن مؤلفي التواريخ العامة ومؤرخي الثقافة يشهدون أناساً قرروا، بعدما أدركوا عدم صلاح الأوراق النقدية، أن يصفوا نقداً معدنياً لاستبدالها، وذلك بمعدن لا يملك الثقل النوعي للذهب ويكون ذلك، في الحقيقة، نقداً رناناً، لكنه لن يكون أكثر من رنان؛ ذلك أن الورق النقدي يمكن بعد أن يخدع الجاهلين، أما النقد الرنان الذي لا قيمة له، فلا يمكن أن يخدع أحداً. وكما أن الذهب لا يكون ذهباً حقاً إلا حين يمكن استعماله لذاته، وليس للمقايضة فحسب، كذلك لن يكون مؤلفو التواريخ العامة ذهباً حقاً إلا حين يتمكنون من الجواب عن هذا السؤال الأساسي للتاريخ: ما هو السلطان؟ إنهم يعطون عن هذا السؤال أجوبة متناقضة، بينما زملاؤهم الذين يدرسون الثقافة ينفونه تماماً ويتكلمون عن أشياء مختلفة تماماً. إن استعمال الحجارة مكان الذهب لا يمكن أن يتم إلا بين أناس يريدون عن طيبة خاطر أن يقبلوها على ذلك الاعتبار، أو لا يعرفون أيضاً قيمة الذهب. وكُتب المؤرخين العامين، ومؤرخي الثقافة تلعب دوراً مماثلاً؛ فهم حين لا يعطون أجوبة عن الأسئلة الأساسية للإنسانية، يخدمون كحجارة لعب لغاياتهم الخاصة في الجامعات وعند جمهور القراء، هواة الكتب الجدية فيما يزعمون.

الفصل الرابع

من المحال على التاريخ أن يخطو خطوة واحدة دون أن يصطدم بالتناقضات، بعد رفض العقيدة القديمة عن الخضوع المفروض من لدن الألوهية، خضوع إرادة شعب لرجل واحد، وخضوع هذه الإرادة للألوهية، إذا لم يختر أحد أمرين: إما الرجوع إلى الإيمان السابق بالتدخل المباشر للألوهية في القضايا البشرية وإما إعطاء تفسير دقيق لهذه القوة التي تنتج الحوادث وتدعي السلطان.

ويستحيل الرجوع إلى التأكيد الأول: فقد قضي على الإيمان. ولذا كان من الضروري تفسير هذا السلطان.

لقد أصدر ناپليون أمره بجمع جيش والانطلاق إلى الحرب. ولقد ألفنا بهذه الطريقة في النظر إلى الأمور حتى درجة بعيدة، بحيث أن مسألة معرفة لماذا ينطلق ستمائة ألف رجل إلى الحرب بكلمة واحدة من ناپليون تبدو لنا سخيفة لا معنى لها. لقد كان يتربع على سدة السلطة، فنفذت أوامره.

ويرضينا هذا التفسير تماماً إذا كنا نؤمن بأن ناپليون يستمد سلطانه من الألوهية ولكنه لا يرضينا حين نرفض أن نصدق ذلك، فيصبح عندئذ من الضروري تحديد طبيعة هذه السلطة التي يملكها رجل واحد على الآخرين جميعاً.

ولا يمكن أن تكون هذه السلطة هي السلطة المباشرة الناشئة عن التفوق الحكمي الذي يكون لكائن قوي على كائن ضعيف، وهو تفوق عماده

استخدام القوة الحكمية أو التهديد باستخدامها: وتلك هي سلطة هرقل. وكذلك لا يمكن أن تقوم على التفوق الأخلاقي، كما يعتقد ذلك، بسذاجة بعض المؤرخين الذين يؤكدون أن صانعي التاريخ هم أبطال، يعني رجالاً يتحولون بقوة أخلاقية وذهنية استثنائية تدعى العبقرية. هذه السلطة لا يمكن أن تقوم على تفوق القوة الأخلاقية لأنه إذا تركنا جانباً العباقرة الأبطال من طراز ناپليون الذين يحكم على صفاتهم الأخلاقية بصورة مختلفة، فالتاريخ يبرهن لنا أن أمثال لويس الرابع عشر، ومترنيخ، الذين كانوا يحركون ملايين البشر، لم يكونوا يملكون ما يؤلف القوة الأخلاقية بالمعنى الصحيح، بل كان معظمهم، على العكس من ذلك أضعف أخلاقياً من كل واحد من تلك الجماهير التي كانوا يحكمونها. فإذا كان مصدر السلطة لا يقوم في الصفات الحكمية للمرء الذي يملك السلطة ولا في صفاته الأخلاقية، فلا بدَّ أن يكون قائماً، من دون شك، خارجاً عنه، يعني في علاقته بالجماهير التي يمارس سلطته عليها.

هكذا يرى إلى الأمور علم الحقوق، هذا المصرف للتاريخ، الذي يعد باستبدال التفهم التاريخي للسلطة بالذهب الخالص.

إن السلطة هي مجموع إرادات الجماهير الممنوحة للأشخاص المختارين من قبل الجماهير باتفاق علني أو ضمني. كل هذا واضح في ميدان علم الحقوق، هذا العلم المصنوع من اعتبارات عن كيفية وجوب تنظيم الدولة والسلطة، إذ في حال تمكننا من فعل ذلك. ولكن هذا التعريف للسلطة يتطلب توضيحاً إذا كنا سنطبقه على التاريخ.

وينظر عالم الحقوق إلى الدولة والسلطة كما كان القدماء ينظرون إلى النار، يعني بصفتها شيئاً قائماً في ذاته. أما بالنسبة إلى التاريخ، فالدولة

والسلطة هما «على العكس، ظاهرتان بكل بساطة، تماماً كما أن النار، بالنسبة إلى الفيزياء ليست عنصراً، بل مجرد ظاهرة».

وينتج من هذا الخلاف الأساسي في وجهات النظر بين التاريخ وعلم الحقوق، أن علم الحقوق يستطيع، أن يتحدث ما شاء عن الأسلوب الذي يجب اتباعه في تنظيم السلطة، وعن طبيعة هذه السلطة التي تُعتبر ثابتة خارج الزمان. لكنه يعجز عن تقديم جواب عن المسائل التي يثيرها التاريخ، المتعلقة بمعنى هذه السلطة التي يغير الزمان في أشكالها.

فإذا كانت السلطة تمثل مجموع إرادات الجماهير الممنوحة لحاكم معين، هل يكون بوغاتشيف ممثل إرادة الجماهير؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا يكون ناپليون هذا الممثل إذن؛ وكم كان ناپليون الثالث الموقوف في بولون مجرماً، وكم صار المجرمون فيما بعد هم الذين أوقفوا بأمره؟

وفي ثورات البلاط، التي يقوم بها شخصان أو ثلاثة أشخاص، هل تمنح الإرادة الشعبية أيضاً للمختار الجديد؟ وفي النزاعات الدولية، هل تمنح إرادة جماهير شعب ما إلى ذاك الذي غزا هذا الشعب؟ وفي عام ١٨٠٨، هل منحت إرادة عصبة الدين إلى ناپليون؟ وهل منحت إليه إرادة الجماهير الروسية عام ١٨٠٩، بينما كانت جيوشنا المحالفة لفرنسا تسير إلى قتال النمسا؟

يمكننا أن نجيب بثلاث طرائق عن هذه الأسئلة.

١ ـ إما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تتجه دائماً دون أي شرط إلى ذاك أو إلى أولئك الذين نختارهم، وبالتالي إن كل تدخل لسلطة جديدة، وكل نضال ضد السلطة الممنوحة من الشعب، يجب أن تعتبر عدواناً على السلطة الحقيقية.

٢ ـ وإما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تعطى للحكام في بعض الشروط المعينة والمعروفة؛ وفي هذه الحال، فإن كل تحديد، أو نزاع، أو حتى تدمير

للسلطة القائمة ينشأ عن كون الحكام لم ينفذوا الشروط التي منحت السلطة لهم بموجبها.

٣ ـ وإما يجب أن نقبل بأن إرادة الجماهير تمنح للحكام بصورة مشروطة، تبعاً لعقود مجهولة غير محددة، وأن تدخلات السلطات الأخرى، وصراعها وانهيارها، لا تنشأ إلا عن مبالغة أو تقصير من قِبل الحكام في تنفيذ هذه الشروط المجهولة التي تنتقل إرادات الجماهير تبعاً لها من شخص إلى آخر.

ويفسر المؤرخون علاقات الجماهير بالحكام بهذه الطريقة ثلاثية الجوانب.

إن المؤرخين الذين لا يفهمون، في سذاجتهم، مشكلة السلطة، هؤلاء المؤلفين للسير المذكورة آنفاً، هم وحدهم الذين يقبلون فيما يبدو بأن مجموع إرادات الجماهير تمنح لبعض الأشخاص دون أي شرط؛ ولذا فإنهم حين يضعون سلطة ما، يجعلون منها شيئاً حقيقياً ومطلقاً، لا يكون أية سلطة مناهضة سلطة حقيقية تجاهها، بل تهجماً واعتداء على السلطة ليس إلا.

وتوافق نظرياتهم العصور البدائية المسالمة من التاريخ؛ لكنها حين يجري تطبيقها على العصور حيث تعقدت حياة الشعوب واضطربت، وحيث تقوم في وقت واحد سلطات مختلفة تقاتل بعضها بعضاً، فإنها تبدي السيئة التالية: إن مؤرخاً ملكياً يبرهن إذن أن الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، وبونابرت، هم جميعاً اغتصبوا السلطة، بينما يبرهن مؤرخ جمهوري وآخر بونابرتي، أن الجمعية التأسيسية بالنسبة إلى الأول، والأمبراطورية بالنسبة إلى الثاني، هما السلطة الحقيقية، وكل شيء آخر هو اعتداء على السلطة. ومن الواضح أن التفسيرات المقدمة من قِبل هؤلاء المؤرخين لا يمكن أن تصلح، بمثل تلك التناقضات، سوى لأطفال صغار العمر.

ولكن نوعاً آخر من المؤرخين الذين يعترفون بخطل هذا الرأي يزعمون أن السلطة تعتمد على تسليم مجموع إرادات الجماهير للحكام بصورة مشروطة وهكذا لا تملك أية شخصية تاريخية السلطة إلا بقدر ما تنفذ البرنامج الذي وضعته إرادة الجماهير عليها ضمناً. لكن هؤلاء المؤرخين لا يقولون على ماذا يقوم ذلك البرنامج أو إذا تحدثوا عنه، فلكي يناقضوا بعضهم بعضاً بصورة دائمة.

ويوافق هذا البرنامج، عند كل مؤرخ، وجهة نظره عن غاية حركة شعب ما على صورة العظمة، والثروة، والحرية، وثقافة المواطنين في فرنسا أو في دولة أخرى. ولكننا إذا صرفنا النظر بعد الآن عن التناقضات التي يقع فيها المؤرخون في موضوع طبيعة هذا البرنامج، وحتى إذا ارتضينا بأن ثمة برنامجاً مشتركاً بينهم جميعاً، فالوقائع التاريخية تناقض مع ذلك هذه النظرية بشكل دائم تقريباً، فإذا كانت الشروط التي تمنح السلطة بموجبها تقوم في الثروة، والحرية وتطور الشعب، فكم كان حكم أمثال لويس الرابع عشر وشارل الأول؟ ويجيب المؤرخون عن هذا السؤال بأن أفعال لويس الرابع عشر التي كانت منافية للبرنامج قد أصابت نتائجها لويس السادس عشر.

ولكن لماذا لم تقع نتائجها على لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر نفسيهما، ولماذا وقعت بالضبط على لويس السادس عشر، وأخيراً ما هي مدة مثل هذا الانعكاس؟ ليس هناك ولا يمكن أن يكون ثمة أجوبة عن هذه الأسئلة. وكذلك فإنهم يسيئون في هذه النظرية تفسير السبب الذي تستمر السلطة من أجله، طوال قرون عديدة بين أيدي الحكام وخلفائهم ثم تنتقل بعدئذ بصورة مفاجئة، خلال خمسين عاماً، إلى الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، ونابليون، وألكسندر، ولويس الثامن عشر، وشارل العاشر، ولويس

فيليب، وجمهورية ١٨٤٨، ونابليون الثالث. وفي سبيل تفسير هذه الانتقالات السريعة للسلطة في ملء المضاعفات الدولية، والغزوات والأحلاف، فلا بدَّ للمؤرخين أنفسهم من الاعتراف رغماً عنهم بأن جزءاً من هذه الأحداث ليست مسببة عن التحويل المنتظم لإرادة الجماهير، بل عن الصدفة التابعة تارة لخداع، وتارة للأخطاء، أو وضع دبلوماسي معين، أو ملك، أو رئيس حزب. وهكذا فإن أكثر الأحداث التاريخية، من حروب أهلية، وثورات، وغزوات لم تعد بعد الآن في رأي هؤلاء المؤرخين نتاج تحويل إرادات حرة، بل بالأحرى نتاج الإدارة الموجهة بصورة خاطئة لفرد واحد أو عدة أفراد، يعني مرة أخرى نتائج اعتداءات على السلطة. وبالتالي إن الأحداث التاريخية تقدم من قبل المؤرخين من هذا النوع على اعتبارها نقضاً ومخالفة للنظرية.

هؤلاء المؤرخون أشبه ما يكونون بعالم نباتي يدعي، بعد ما رأى بعض النباتات تنمو بفلقتين، أن كل ما ينبت لا ينمو إلا بفلقتين، وأن شجرة النخيل، والفطر، والسنديانة التي أيضاً، التي بلغت نموها الكامل وهي لا تظهر لنا الفلقتين البدئيتين ليست سوى استثناء للقاعدة العامة.

ويزعم المؤرخون من المقولة الثالثة أن إرادة الجماهير تتجه بصورة مشروطة إلى شخصية تاريخية، لكن شروط هذا الاتجاه نجهلها تماماً. ويقولون إن الشخصيات التاريخية لا تتمتع بالسلطة إلا بقدر ما تنفذ الإرادة التي ألقتها الجماهير على عاتقها.

وفي هذه الحال، إذا كانت القوة التي تحرك شعباً ما تقول لا في الشخصية التاريخية بل في الشعب نفسه، فما هو معنى الشخصيات إذن؟

ويقول المؤرخون: إنهم يعبرون عن إرادة الجماهير، وفاعليتهم تفيد في تمثيل فاعلية الجماهير.

ولكن سؤالاً جديداً يطرح إذن: هل تعبر كل أفعال الشخصيات التاريخية عن إرادة الجماهير، أو عن أحد مظاهر الإرادة فقط؟ فإذا كانت جميع أفعال الشخصيات التاريخية تعبر عن إرادة الجماهير كما يعتقد البعض فسيرة ناپليون وكاترين الثانية بسائر تفاصيلها المستمرة من إشاعات البلاطات وثرثرتها، تمثل إذن حياة الشعوب نفسها وهذا من السخف الواضح. فإذا كانت فاعلية الشخصيات التاريخية لا تمثل إذن سوى مظهر واحد من حياة الشعوب، كما يقول ذلك بعض المؤرخين الآخرين المزعومين فلاسفة، فالقضية هي تعين ماهية هذا المظهر؛ وعندئذ يصير من الضرورة معرفة فيما تقوم حياة الشعب.

وتجاه هذه المسألة، تخيل المؤرخون من المقولة الثالثة، التجريد الأشد غموضاً والتباساً، الذي نستطيع أن نضع أكبر عدد من الوقائع تحت جناحه، وهم يقولون إن هذا التجريد هو غاية حركة الإنسانية. وإن التجديدات الأكثر عمومية وانتشاراً، والتي يقبلها سائر المؤرخين تقريباً، هي التالية: الحرية، المساواة، التطور، التقدم، المدنية، الثقافة. ويستدير المؤرخون، بعد أن يعينوا أحد هذه المجردات كهدف لحركة الإنسانية، إلى الشخصيات الذين تركوا خلفهم أكبر عدد من الذكريات، من ملوك ووزراء. وجنرالات، ومؤلفين، ومصلحين، وبابوات، وصحافيين، لكن بقدر ما يلوح لهم أن هؤلاء الشخصيات قد عملوا من أجل هذه المجردات أو ضدها. ولما لم يكن ثمة برهان على أن الأهداف التي تنحو صوبها الإنسانية هي الحرية والمساواة، والتطور أو المدنية، ولما لم يكن للرابطة بين الجماهير والحكام والمصلحين أساس إلا الفرضية الاعتباطية القائلة إن مجموع إرادات الجماهير تنصب دائماً على الشخصيات الشهيرة فإن فاعلية ملايين البشر الذين يهاجرون، ويحرقون المنازل، ويتركون الأرض بائرة، ويفنون بعضهم بعضاً لا يؤتى

حتى على ذكرها في وصف أفعال عشر شخصيات يحرقون المنازل ولم يعنوا بالزراعة، يقتلون أشباههم.

ويقدم لنا التاريخ برهاناً على ذلك لدى كل خطوة، وهل يفسر غليان الشعوب الغربية في أواخر القرن الأخير ومطامحهم المتجهة نحو الشرق بنشاط لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر، وعشيقاتهم ووزرائهم وبحياة ناپليون، وروسو، وديدرو، وبومارشيه، وسواهم؟

وهل تفسر حركة الشعب الروسي نحو الشرق، نحو قازان وسيبريا، بتفاصيل الخلق المرضي لإيڤان الرابع وبمراسلاته مع كوريسكي؟

وهل تفسر هجرات زمن الحروب الصليبية بسيرة غودفروا، والقديس لويس، وزوجتيهما؟ إن هذه الحركة التي قامت الجماهير بها من الغرب نحو الشرق، دون هدف محدد، ودون زعماء جديرين، لعصابة من الحفاة، مع بطرس الناسك تبقى عصية على الإدراك بالنسبة إلينا. وإن توقف هذه الحركة بعدما أعطى كبار ذلك العصر هدفاً عقلانياً ومقدساً للحروب الصليبية، وهو إنقاذ أورشليم، لأشد امتناعاً عن الفهم، إن البابوات، والملوك، والفرسان، قد استحثوا الشعوب على تحرير أماكن مقدسة؛ بيد أن الشعب لم يتحرك إما تلاشى السبب المجهول الذي حمله قبلاً على الحركة. إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين لا يمكن أن يتضمن كل حياة الشعوب. إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين يبقى تاريخهم الخاص، بينما تاريخ حياة الشعوب ودوافعهم يبقى مجهولاً.

وتاريخ الكُتّاب والمصلحين أيضاً أقل منه إيضاحاً لحياة الشعوب.

ويفسر لنا تاريخ الحضارة، مع ذلك، دوافع كل كاتب أو مصلح وشروط

حياته وأفكاره. نحن نعرف أن لوثر كان غضوب الطبيعة، وقد ألقى هذا الخطاب وذاك، ونحن نعرف أن روسو كان متشككاً وأنه كتب هذه الكتب وتلك، بيد أننا لا نعرف السبب الذي جعل الشعوب تتذابح بعد الإصلاح، ولماذا حكم الناس بالإعدام بعضهم على بعض إبان الثورة الفرنسية.

وإذا ما جمعنا هذين النوعين من التاريخ معاً، كما يفعل ذلك المؤرخون المحدثون، فإننا لن نحصل أيضاً سوى على تاريخ الملوك والكُتّاب، وليس تاريخ حياة الشعوب.

الفصل الخامس

لا تنطوي حياة الشعوب في حياة بعض الشخصيات ما دمنا لا نجد الرابطة التي تربط الشخصيات القليلة وتلك الشعوب. وليست النظرية التي تقول إن هذا الرباط يقوم في وقف مجموع إرادات الجماهير على شخصية معيّنة إلا فرضية لا تؤيدها الحقائق مطلقاً.

ومما لا شك فيه أن في مكنة هذه النظرية تفسير أشياء عديدة في ميدان علم الحقوق، كما أنها لازمة من دون شك في سبيل غايتها الخاصة. قلنا إذا طبقناها على التاريخ، فلا يكاد تحدث ثورة، أو غزوة، أو حرب أهلية، يعني لا يكاد التاريخ يبدأ، حتى تصير هذه النظرية عاجزة عن تفسير أي شيء.

ومهما يكن الحادث، ومهما تكن الشخصية التي تقوم على هذا الحادث، ففي قدرة هذه النظرية أن تزمع دائماً أن تلك الشخصية إنما وضعت في ذلك المكان بمجموع الإرادات الموقوفة عليها.

والأجوبة التي تعطيها هذه النظرية عن القضايا التاريخية أشبه ما تكون بأجوبة امرئ يرى قطيعاً من الغنم أثناء مسيره فلا يأخذ في الاعتبار صفة الكلأ المغايرة في مختلف مناطق الرعي، أو فاعلية الراعي نفسه، فلا يعنى، كي يعير هذا أو ذاك من الاتجاهات التي يسلكها القطيع، سوى بالحيوان السائر في الطليعة.

«يذهب القطيع في هذا الاتجاه لأن الحيوان الذي يسير في المقدمة يقوده، ولأن مجموع إرادات سائر الحيوانات الباقية قد أحيل عليه». هكذا

يعفي المؤرخون من المقولة الأولى، الذي يقبلون التحويل غير المشروط للسلطان.

«إذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتغير، فلأن مجموع إرادة القطيع كله من قائد إلى آخر، حسب مقدرة هذا القائد على قيادة القطيع بصورة أفضل أو أسوأ في الاتجاه الذي اختاره بمجموعهم». هكذا بعض المؤرخين الذين يزعمون أن مجموع إرادات الجماهير الحكام تبعاً لشروط غير معلومة وغالباً ما يحدث للمتفرج، في مثل هذه الحال، أن يتخذ أدلاء له، تبعاً للاتجاه الذي اختاره، أولئك الذين يقومون، منذ حدوث تبدل في الاتجاه الذي يتبعه الجمهور، على جانب القطيع بدلاً من أن يكونوا في طليعته، أو يكونوا في مؤخرته في بعض الأحايين.

«إذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتبدل باستمرار، وإذا كان الاتجاه الذي يتبعه القطيع يتبدل أيضاً، فذلك ينشأ عن كون الحيوانات، كي تبلغ هذا الاتجاه المعروف من قبلنا، تضع إرادتها تحت تصرف أولئك الذين نميزهم بين الآخرين؛ وبالتالي لا بدَّ لنا، كي ندرس حركة القطيع، أن نراقب سائر هذه الحيوانات التي نميزها، والتي تسير على جوانب القطيع المختلفة». هكذا يصرح المؤرخون من المقولة الثالثة الذين ينظرون إلى سائر الشخصيات التاريخية، منذ الملوك حتى الصحافيين، على اعتبارهم تعبيراً عن زمنهم.

إن نظرية وقف إرادة الجماهير على شخصية تاريخية ليست أكثر من اجترار للكلمات نفسها، ليست سوى للتعبير عن جوانب المسألة نفسها بكلمات أخرى.

ما هي أسباب الحوادث التاريخية؟ ـ السلطة. ما هي السلطة؟ ـ مجموع الإرادات المنقولة إلى شخص واحد. بأية شروط يحدث هذا النقل؟ ـ بشرط

أن يعبر الشخص المنتخب عن إرادة الجميع. وبكلام آخر، فالسلطة هي السلطة. وبمعنى آخر، السلطة كلمة لا ندرك معناها.

لو انحصر ميدان العلم البشري بالفكر المجرد وحده، لكانت الإنسانية تتوصل، بعدما يخضع للنقد تفسير السلطة المعطاة من قبل العالم، إلى هذه النتيجة، ألا وهي أن السلطة ليست أكثر من مجرد كلمة، وهي غير موجودة في الحقيقة. لكن الإنسان يملك، من أجل معرفة الظواهر، أداة أخرى غير الفكر المجرد، وهي التجربة التي يراقب بواسطتها محاكماته التجريدية، وأن التجربة لتثبت أن السلطة ليست كلمة، بل حقيقة.

وإذا تركنا جانباً أنه ليس ثمة وصف لفاعلية البشر الجماعية يستطيع الاستغناء عن تعريف للسلطة، فإن وجود السلطة يثبته التاريخ ومشاهدة الأحداث المعاهدة على السواء.

وكلما وقع حادث ما، نجد ظهور شخص أو عدة أشخاص يتم هذا الحادث بسبب إرادتهم. إن نابليون الثالث يصدر أمره، ينطلق الفرنسيون إلى المكسيك. إن ملك روسيا وبسمارك يصدران أمرهما، فتسير جيوشهما نحو بوهيميا. إن نابليون الأول يأمر، وتسير جيوشه إلى روسيا. إن ألكسندر الأول يأمر، ويخضع الفرنسيون للبوربونيين. إن التجربة تبيِّن لنا أن أي حادث كان يرتبط بإرادة شخص أو عدة أشخاص قد أمروا به.

ويريد المؤرخون، بفضل ما اعتادوه قديماً من مشاهدة تدخل الله في قضايا العالم، أن يقوم سبب كل حادث في إرادة شخص يتمتع بالسلطة، بيد أن هذا الاستنتاج لا تؤكده المحاكمة العقلية ولا التجربة العملية.

من جهة، تبرهن المحاكمة أن التعبير عن إرادة الإنسان، أي كلامه، ليس سوى جزء من الفاعلية الكلية المتظاهرة في حادث ما، الحرب مثلاً، أو الثورة أيضاً. وبالتالي، فإذا لم نعترف بوجود قوة مجهولة فوق طبيعية، يعني بوجود

المعجزة، فمن المستحيل القبول بأن الكلمات وحدها يمكن أن تكون سبب تحرك ملايين الناس. ومن جهة أخرى التاريخ يبرهن، حتى إذا وافقنا على ذلك، أن التعبير عن إرادة الشخصيات التاريخية لا يؤدي في معظم الحالات إلى أية نتيجة، يعني أن أوامرهم لا تبقى دون تنفيذ فحسب، بل إن عكس ما أمروا به يحدث في بعض الأحيان.

فإذا لم نقبل التدخل الإلهي في القضايا البشرية، فإننا لا نستطيع أن نرى إلى السلطة على أنها سبب للحوادث.

فالسلطة، من وجهة نظر التجربة، ليست سوى علاقة التبعية القائمة بين الإرادة المعبر عنها لإنسان ما، وتحقيق هذه الإرادة من قبل أناس آخرين.

وكي نشرح شروط هذه التبعية، يجب بادئ ذي بدء، أن نرجع مفهوم الإرادة المعبر عنها لا إلى الله، بل إلى إنسان ما.

فإذا كانت الألوهية، كما يقول لنا القدماء تصدر الأوامر وتعبر عن إرادتها، فتعبير هذه الإرادة غير تابع للزمان وغير مسبب عن أي شيء كان، ما دامت الألوهية لا تملك أية علاقة بالحوادث. أما فيما يتعلق بالأوامر المعبرة عن إرادة بشر يتحركون في الزمان ويتماثلون ببعضهم بعضاً، فيجب لنا، كي نفسر العلاقة الموجودة بين الأوامر والحوادث، أن نبيِّن: ١ ـ الشرط الضروري لكل ما يقع، ألا وهو اتصال الحركة في الزمان، والحوادث وأوامر الشخصية المعينة؛ ٢ ـ الشرط الضروري لوجود رابطة بين من يصدر الأمر والذين ينفذونه.

الفصل السادس

إن ما يستطيع أن يؤثر في سلسلة من الأحداث، هو إرادة إلهية مستقلة عن الزمان، تلك الأحداث التي لا بدَّ من وقوعها في بضع سنوات أو بضعة قرون. إن الألوهية وحدها تستطيع بإرادتها غير المشروطة، أن تحدد اتجاه مسير البشرية. أما الإنسان فيفعل على العكس من ذلك، في الزمان ويشارك بنفسه في الأحداث.

وإما حققنا هذا الشرط الأول المهمل عادة، شرط الزمان، فسوف نرى أنه يتعذّر تنفيذ أي أمر كان ما لم يسبقه أمر آخر يسمح بتنفيذه.

لا يظهر الأمر أبداً بتوالد عفوي أو يحتوي في ذاته سلسلة كاملة من الأحداث؛ كل أمر ينشأ بالضرورة عن أمر آخر، وتكون علاقته لا بسلسلة كاملة من الأحداث، بل بلحظة وحيدة في حادث واحد فقط.

فعندما نقول، مثلاً، إن ناپليون أرسل جيوشه إلى الحرب، فإنّا نرجع إلى أمر وحيد، يلفظ في لحظة معيّنة من الزمان، سلسلة من الأوامر المتتابعة المترابطة. لم يكن في مكنة ناپليون أن يأمر بالحملة على روسيا، وهو لم يفعل ذلك قط. لقد أمر ذات يوم بإرسال هذه الأوراق أو تلك إلى ڤيينا، وبرلين، وپيترسبورغ؛ وأمر في اليوم التالي بإرسال هذه المراسيم والمعلومات أو تلك إلى الجيش، والأسطول، ومركز الإدارة، إلخ... إذن فهو قد أصدر آلاف الأوامر المتعلقة بتلك الحلقة من الحوادث التي قادت الجيش الفرنسي إلى روسيا.

وإذا كان ناپليون لم يكف، طوال فترة سيطرته، عن إصدار الأوامر المستهدفة الحملة على إنكلترا، وبذل في ذلك من الجهد أكثر مما بذل في سبيل أي من مشاريعه الأخرى؛ وإذا لم يجرب مرة واحدة، رغم ذلك كله، أن يحقق مشروعه، بل انهمك في حملته على روسيا التي كانت مخالفتها، كما أكد مرّات عديدة، تعود عليه بالفائدة الجمة، فمردّ ذلك أن أوامره الأولى لم تكن تتناسب مع سلسلة من الحوادث، بينما كانت الأوامر التالية تتجاوب معها.

لا يمكن أن يوضع الأمر موضع التنفيذ ما لم يكن صادراً بصورة يمكن تنفيذه معها. وإن معرفة ما كان يمكن وما كان لا يمكن تنفيذه هو الشيء المستحيل، ليس فقط بالنسبة إلى حملة ناپليون على روسيا حيث يساهم ملايين البشر، بل كذلك بالنسبة إلى أبسط حدث، لأن تنفيذ الأمر يمكن أن يصطدم في كلتا الحالتين بملايين العقبات. وإننا لنجد، مقابل كل أمر تمّ تنفيذه، عدداً من الأوامر الأخرى التي لم تنفذ. فالأوامر المستحيلة لا علاقة لها أبداً بالحوادث ولا يمكن إنجاها، والأوامر القابلة للتنفيذ هي وحدها التي ترتبط بسلاسل من الأوامر الموافقة لسلاسل من الأحداث، وإنها لتنفذ.

فإذا ما تصورنا بشكل خاطئ أن الأمر السابق لحادث ما هو سبب هذا الحادث، فمنشأ ذلك أننا ننسى وقوع الحادث وحقيقة تنفيذ الأوامر التي كانت ذات علاقة به من بين آلاف الأوامر الصادرة، تلك الأوامر التي لم تنفذ لأنه لم يكن في الإمكان تنفيذها وما عدا ذلك، فالمصدر الرئيسي لجهلنا هو أن سلسلة لا حصر لها من الوقائع التافهة، ومثالها كل ما جر الجيوش الفرنسية إلى روسيا، يذوب في العرض التاريخي للحقائق في حدث وحيد وفقاً لنتيجة تلك السلسلة من الوقائع، وبالتالي فإننا نصهر، بصورة متفقة مع ذلك الذوبان، سلسلة كاملة من الأوامر في أمر واحد يعبّر عن إرادة الزعيم.

إننا نقول: أراد نابليون الحملة على روسيا وحققها. وفي الحقيقة إننا لا نجد في أي كان من نشاطه، شيئاً شبيه التعبير عن هذه الإرادة، إننا نرى فقط سلسلة من الأوامر أو في تعبير إرادته، موجهة بصورة على أشد ما تكون من التنوع والالتباس. ولقد استخرج من السلطة اللامتناهية لأوامر نابليون غير المنفذة سلسلة من الأوامر القابلة للتنفيذ، المتعلقة بحملة عام ١٨١٢، ليس لأن هذه الأوامر الأخيرة تتميز في أي شيء كان على الأوامر السابقة، بل لأن هذه السلسلة من الأوامر تتطابق مع سلسلة الوقائع التي وجَّهت الفرنسيين إلى روسيا، وتلك هي الحال بالضبط حين نصور شخصاً بالاستناد إلى أصل مرسوم فنحن لا نعني إذن كيف ومن أي جانب تنطبق الألوان، بل نمر فقط اللون على سائر ملامح الوجه الذي يصوره ذلك الأصل.

وهكذا، فعندما نأخذ في الاعتبار، في زمن محدَّد، العلاقات بين الأمر والحادث، فإننا نرى أن الأمر لا يمكن إطلاقاً أن يكون سبب الحادث، بل إن ثمة علاقة محددة بينهما.

كيفما نفهم جوهر هذه العلاقة، فلا بدَّ لنا من تحقيق الشرط الثاني الذي لم نتناوله حتى الآن، الخاص بكل أمر صادر لا عن الألوهية بل عن الإنسان، والقائم في أن الإنسان الذي يصدر الأمر يساهم هو نفسه في وقوع الحادث.

وإن هذه العلاقة بين الآمر والمنفذ هي بالضبط ما نسميه السلطة. وهذه العلاقة تقوم بما يلي:

إن البشر كي يعملوا بصورة مشتركة، يتخذون على الدوام في جماعات تبقى فيها العلاقة بين البشر الذين يساهمون في الفعل واحدة، وذلك بالرغم من الفرق القائم بين الهدف المطلوب والعمل الجماعي.

وإما يتحد البشر هكذا، فهم على الدوام تربطهم العلاقة التالية: إن العدد

الأكبر يقوم بالنصيب الأكبر المباشر، والأقلية الزهيدة، تقوم بالنصيب الأصغر في العمل الجماعي الذي اتحدوا في سبيله.

وفي عداد هذه التجمعات حيث يلتقي البشر سبيل القيام بأفعال مشتركة نرى أن الجيش هو في أوضحها وأكثرها تحديداً.

يتشكل الجيش، بادئ الأمر، من أحط العناصر في التراتب العسكري: الجنود الذين هم العدد الأكبر ومن ثم من أولئك الذين يلحقون بهم في هذا التراتب، الجنود الأولون، والعرفاء، وصف الضباط الذين عددهم أقل من ذلك، حتى القيادة العليا المركزة في فرد وحيد.

ويمكن تشبيه التنظيم العسكري بمخروط يشكل الجنود قاعدته، والضباط المقاطع المسطحة منه، المتناقضة بقدر ما نرتفع نحو القمة التي رأسها هو القائد العام.

الجنود الذين هم الغالبية العظمة يشكلون القسم الأسفل، قاعدة المخروط، وأنه الجندي الذي يضرب ويطعن ويحرق ويسلب، وهو يتلقى الأمر بذلك من رؤسائه دوماً، بينما هو نفسه لا يصدر الأوامر أبداً. وإن صف الضباط، وهم أقل عدداً، لا يقومون بالعمل نفسه إلا في حالات نادرة، لكنهم يأمرون قليلاً. أما الضابط، فيساهم في الفعل بنصيب أقل من ذلك، ويصدر الأوامر أكثر فأكثر. ولا يفعل الجنرال سوى قيادة مسير القوى المسلحة نحو هدف يضعه أمامها، لكنه يكاد لا يلمس السلاح مطلقاً. أما القائد العام، فإنه لا يستطيع مطلقاً أن يساهم في الفعل مباشرة، بل يكتفي بأن يصدر الأوامر باتخاذ التدابير اللازمة المتعلقة بالحركة الكتلية للجيوش. وإن الصلة نفسها بين الأفراد تتكرر في كل مجموعة تجمعت مستهدفة فعلاً مشتركاً، أكان ذلك في ميدان الزراعة أم التجارة، أم أي مشروع آخر. وهكذا، من دون أن نضاعف بصورة مصطنعة مقاطع المخروط أو رتب الجيش أو ألقاب ومراكز

دائرة ما، أو أية منظمة عامة، نرى أن ثمة قانوناً يبرز من ذلك كله، ينص على إيجاد العلاقات بين مراكز الرجال المعينين لإنجاز عمل مشترك بحيث ينقص اشتراكهم في القيادة بقدر ما يزداد عددهم ومساهمتهم المباشرة في هذا العمل؛ وفي المقابل، فبقدر ما ينقص نصيبهم من العمل المباشر، ينقص عددهم ويتضاعف اشتراكهم في العمل القيادي، وهكذا بحيث نرتفع من الأسفل إلى الأعلى، حتى شخصية وحيدة وأخيرة توجه، رغم أن نصيبها في العمل المشترك هو أقل من نصيب أي شخص آخر، نشاطها نحو القيادة أكثر من الآخرين جميعاً.

إن العلاقة بين الشخص الذي يقود، وأولئك الذين يخضعون للقيادة هي التي تشكل جوهر المفهوم المسمى سلطة.

ونحن لم نكتشف أن الأمر لا ينفذ إلا عندما يرتبط بالسلسلة الموافقة في الوقائع سوى بإنجاز شروط الزمان التي تتم الأحداث فيها. ولقد اكتشفنا، في تحقيقنا لذلك الشرط الذي ينص على ضرورة وجود رباط بين من يأمر، ومن ينفذ، أن أولئك الذين يصدرون الأوامر يكون لهم النصيب الأدنى، تبعاً لماهيتهم نفسها، في الحادث بمعناه الصحيح، وأن نشاطهم موجّه نحو القيادة وحدها من دون أي شيء آخر.

الفصل السابع

كل امرئ يقدّم رأيه الشخصي عندما يلوح حدث ما في الأفق، ولا بدَّ دائماً من وجود شخص يقترب رأيه أكثر أو أقل من الحقيقة، بحيث يرتبط الرأي بالحادث في فكرنا ارتباط السبب بالمسبب.

هؤلاء رجال يجرون كتلة من الخشب. كل واحد منهم يعطي رأيه عن كيفية جرّها والمكان الذي يجب أن تصل إليه. وينتهي الرجال من جر الكتلة، فيتبين أن الشيء قد تحقق وفقاً لأقوال واحد من عدادهم. ويفكرون أن هذا الرجل هو الذي قام بدور القيادة. وإليكم الأمر والسلطة حسب شكلهما البدائي: إن من اشتغل بيديه أكثر من الجميع كان أقلهم تفكيراً فيما يصنع. وبالتالي كان أقلهم تفكيراً أيضاً فيما يمكن أن ينتج من الفاعلية المشتركة وفي الأوامر التي يتوجب إصدارها. أما الذي قام بدور القيادة أكثر من سواه، فقد انحصر فعله في الكلام وهو بالتالي كان أقوى الجميع عملاً بيديه.

وبقدر ما يعظم تجمع الناس الذين يوجهون فعلهم نحو هدف واحد، فإن مقولات الرجال الذين تنقص مساهمتهم في العمل العام بمقدار ما يكون نشاطهم موجهاً نحو القيادة تزداد هذه وضوحاً.

حين يعمل الإنسان وحده، يملك دائماً عدداً من الأسباب وجهت في اعتقاده، نشاطه السابق، وهي تبرر نشاطه الراهن وتوجهه في اختيار أفعاله اللاحقة. وإن الجمعيات لتفعل بالصورة عينها، إذ تترك لغير المساهمين

في الفعل أمر تصوّر الاعتبارات والمبررات والفرضيات المتعلقة بعملهم المشترك.

راح الفرنسيون يغرقون بعضهم بعضاً أو يتذابحون لأسباب معروفة أو مجهولة منا. وإن هذا الحادث ترافقه مبرراته الخاصة، الموجودة في إرادات الفرنسيين الواضحة، هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون هذا الحادث ضرورياً من أجل عظمة فرنسا، ومن أجل الحرية والمساواة ولا ينتهون من التذابح حتى يترافق هذا الحادث أيضاً مع مبرراته: ضرورة سلطة وحيدة، وضرورة الصمود في وجه أوروبا، إلخ. ويسيرون من الغرب في اتجاه الشرق، وهم يتبعون أشباههم، ويترافق هذا الحادث أيضاً بخطابات عن عظمة فرنسا، وسفالة إنكلترا، إلخ، ويُظهر التاريخ أن هذه المبررات كانت تخلو من الحس السليم، وأنها تتناقض، مثلها مثل قتل الإنسان إثر إعلان حقوق الإنسان، وقتل ملايين الناس في روسيا في سبيل إذلال إنكلترا. بيد أن لهذه المبررات، عند الناس المعاصرين، مغزى ضرورياً.

إن الغاية منها هي تغطية المسؤولية الأخلاقية لمرتكبي هذه الحوادث. فهذه الغايات شبيهة بالمكانس الموضوعة في مقدمة القطارات بغية تنظيف الخط الحديدي، إنها تنظف طريق مسؤولية البشر الأخلاقية. وإن أبسط سؤال يبقى، من دون هذه المبررات، دون جواب لدى تفحص كل حادثة على حدة. كيف يمكن لملايين الناس أن يرتكبوا بصورة مشتركة الجرائم والحروب، والمذابح، إلخ؟

هل يمكننا، في الأشكال المعقدة للحياة الحديثة، السياسية والاجتماعية، في أوروبا أن نتصوَّر أية حادثة لم يقدرها سلفاً الملوك، أو الوزراء، أو البرلمانيون، أو الصحف، ويأمرون بها ويقررون حدوثها؟ أثمة نشاط جماعي لم يجد تبريره في وحدة الدولة، أو الدفاع عن الأمة، أو التوازن الأوروبي، أو

مصلحة الحضارة؟ إن كل حادثة واقعة توافق بالضرورة رغبة ثم التعبير عنها، وهي تعتبر، من أجل تبريرها، نتاجاً لإرادة واحد أو أكثر من هذه الشخصيات.

ومهما يكن اتجاه سفينة ما، فإننا نجد على الدوام، في مقدمتها، دواراً مائياً ناتجاً من الموجة التي تخترقها. وإن هذه الدوامة، بالنسبة إلى المسافرين على سطح السفينة، هي الحركة الوحيدة المرئية.

ونحن لا نعرف أن كل حركة من حركات الموجة تحددها حركة السفينة، وأن ما يوقعنا في الخطأ هو كوننا نتقدم نحن أنفسنا دون أن نلاحظ ذلك، نحن لا ندرك هذا إذن إلا إذا تمعنا عن قرب لحظة إثر لحظة، في حركة دوامة المياه وقارنا تجربة السفينة نفسها.

ونصل إلى النتيجة نفسها إذا تتبعنا خطوة فخطوة، حركات الشخصيات التاريخية، يعني إذا ما حققنا الشرط الضروري لكل ما يقع من حوادث: اتصال الحركة في الزمان، وإذا لم يغب عن أنظارنا الرباط الضروري القائم بين الشخصيات التاريخية والجماهير.

ومهما يكن من بدّ، فإن الحادث يبدو أنه ذلك الحادث الذي كان متوقعاً ومأموراً به مهما يكن اتجاه السفينة، فالدوامة التي تطرطش عند مقدمة السفينة لا توجد حركتها كما أنها لا تقوي هذه الحركة؛ ومع ذلك فهي تلوح لنا عن بعد لا نابضة بحركة مستقلة فحسب، بل موجهة لحركة السفينة أيضاً.

حين لا يأخذ المؤرخون في الاعتبار إلا هذه التعابير عن إرادة الشخصيات التاريخية التي ترتبط بالأحداث على صورة أو أمر قد افترضوا أن الأحداث تابعة لهذه الأوامر. ولكننا عندما تفحصنا الحوادث نفسها والرابطة التي تجمع بين الشخصيات التاريخية والجماهير وجدنا أن هذه الشخصيات، مثلها مثل أوامرها، هي التي تقع في تبعية الحوادث. والبرهان على ذلك أن الحادث لا يقع، مهما تكن الأوامر كثيرة ومتعددة، وإذا لم يكن ثمة أسباب

أخرى؛ ولكن الحادث، مهما يكن، لا يكاد يقع حتى نجد، بين الإرادات التي عبرت عنها شخصيات مختلفة، أسباباً يمكن أن تنسب، تبعاً لمنحاها وزمن وقوعها، إلى الحادث كأوامر أدت إلى وقوعه.

وإما وصلنا إلى هذه النتيجة، فإننا نستطيع أن نجيب بوضوح ويقين عن المشكلتين الأساسيتين للتاريخ:

١ ـ ما هي السلطة؟

٢ ـ ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟

١ ـ تنشأ السلطة عن علاقات شخصية معيّنة بشخصيات أخرى. وإن هذه العلاقات منظمة بحيث أن هذه الشخصية تعبر عن عدد أكبر من الآراء والفرضيات والمبررات المتعلقة بالحادثة الجارية بقدر ما تنص مساهمتها في العمل المشترك.

٢ ـ لا تحدث السلطة حركة الجماهير، ولا الفاعلية الفكرية ولا اتحاد فلان أو فلان، كما يعتبر ذلك المؤرخون، بل بفاعلية سائر الذين يشتركون في الحوادث، والذين يتجمعون بحيث، أن الذين يساهمون في الفعل بصورة أكثر مباشرة هم أقل الجميع مسؤولية. والعكس بالعكس.

ومن وجهة النظر الأخلاقية، يبدو أن السلطة هي سبب الحادث؛ ومن وجهة النظر الحكمية، يبدو أن الخاضعين للسلطة هم سبب ذلك الحادث. ولكنه لما كانت كل فاعلية أخلاقية مستحيلة بدون فاعلية حكمية، فأسباب الحادث غير موجودة إلا في اجتماع كلتيهما.

وبتعبير آخر: إن مفهوم السبب لا ينطبق على الظاهرة التي نحن في سبيل تفحصها.

وإننا نصل في آخر تحليل إلى الدائرة الأبدية، إلى هذا الحد الأقصى الذي يبلغه الذهن البشري في ميدان الفكر إذا لم يكن لاهياً في دراسة موضوعه. إن

الكهرباء مولدة للحرارة، والحرارة تنتج الكهرباء. إن الجواهر تتجاذب، وإن الجواهر تتدافع.

وحين نتحدث عن التفاعلات المتبادلة بين الكهرباء والحرارة، فإننا لا نستطيع القول أين تنشآن؛ نحن نقول إذن إن ذلك يحدث على هذه الصورة المعينة لأنه يبدو لنا مستحيلاً بأية صورة أخرى، لأن ذلك يجب أن يكون هكذا، لأن هذا قانون مطلق. وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضايا التاريخية. فنحن نجهل لماذا توجد هذه الحرب أو تلك الثورة، ولا نعرف سوى أن البشر يتحدون في جماعية يساهم كل منهم فيها كي ينجزوا هذا الفعل أو ذاك؛ ونحن نقول إن الأمور هكذا، وإن الأشياء غير معقولة بصورة أخرى، وإن ذلك هو القانون.

الفصل الثامن

كان يكفي طرح هذا القانون في وضوحه وبساطته لو كانت علاقة التاريخ محصورة فقط بالظواهر الخارجية، وبذلك ينتهي كلامنا. لكن قانون التاريخ يرتبط بالكائن البشري. إن ذرة في المادة لا تستطيع أن تقول لنا مطلقاً إنها تحس بحاجة الانجذاب أو الدافع، وهي لا تستطيع أن تقول لنا أيضاً إن هذا القانون خطأ. أما الإنسان، الذي هو عرَض التاريخ، فيؤكد على العكس بصورة جازمة: إني حر ولست خاضعاً للقوانين.

إن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الإنسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة لا إرادية، إلى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية من دون حل.

فإذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني إذا كان في مكنة كل امرئ أن يتصرف بحرية يعني حسب مزاجه، فمن الواضح أن فعلاً وحيداً حراً يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاء مبرماً على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

وإذا كان ثمة قانون واحد يسير الأفعال البشرية، فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرية، لأن إرادة كل امرئ يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون.

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل، منذ العصور

الفصل الثامن

كان يكفي طرح هذا القانون في وضوحه وبساطته لو كانت علاقة التاريخ محصورة فقط بالظواهر الخارجية، وبذلك ينتهي كلامنا. لكن قانون التاريخ يرتبط بالكائن البشري. إن ذرة في المادة لا تستطيع أن تقول لنا مطلقاً إنها تحس بحاجة الانجذاب أو الدافع، وهي لا تستطيع أن تقول لنا أيضاً إن هذا القانون خطأ. أما الإنسان، الذي هو عرَض التاريخ، فيؤكد على العكس بصورة جازمة: إني حر ولست خاضعاً للقوانين.

إن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الإنسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة لا إرادية، إلى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية من دون حل.

فإذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني إذا كان في مكنة كل امرئ أن يتصرف بحرية يعني حسب مزاجه، فمن الواضح أن فعلاً وحيداً حراً يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاء مبرماً على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

وإذا كان ثمة قانون واحد يسير الأفعال البشرية، فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرية، لأن إرادة كل امرئ يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون.

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل، منذ العصور القديمة، أدمغة النخبة دون أن تفقد شيئاً من أهميتها الكبيرة.

وتطرح هذه القضية كما يلي: إما ننظر إلى الإنسان كموضوع للملاحظة من أي وجهة نظر كانت: لاهوتية أو تاريخية أو أخلاقية أو فلسفية، فإننا نجد على الدوام قانون الضرورة الحتمي المشترك بين سائر الكائنات الحية. وإما ننظر إليه على العكس من وجهة نظر تجربتنا الصميمة، من وجهة نظر وجداننا، فإننا نحس بالحرية إذن.

فالوجدان هو ينبوع معرفتنا بذاتنا، المنفصلة والمستقلة تماماً عن العقل، ويتمكّن الإنسان، بفضل العقل، أن يراقب نفسه بنفسه لا بواسطة الوجدان.

وبدون وعي الذات لن يفيدنا شيئاً أن نفكر في أية ملاحظة أو أي تطبيق عملي للعقل.

ويجب على الإنسان، كي يفهم ويراقب ويستنتج، أن يعرف نفسه في البدء بصفته كائناً حياً. ولا يعرف الإنسان نفسه كائناً حياً إلا حين يعرف أنه يتحلى بالإرادة، وبتعبير آخر فهو لا يعي سوى إرادته، وهذه الإرادة، ماهية حياته، لا يمكنه أن يتصورها إلا حرة.

وخلال ملاحظاته عن نفسه، إذا أدرك الإنسان أن إرادته موجهة بصورة متصلة نحو الهدف الواحد نفسه، أكان لهذا الهدف ضرورة إيجاد غذائه أم قيام دماغه بالعمل أم أي شيء آخر، فإنه لا يستطيع أن يفسر ذلك لنفسه سوى كتحديد لإرادته. إن ما ليس هو حراً لا يمكن حده، والإنسان يعتبر إرادته محدودة بالضبط لأنه لا يتصورها إلا حرة.

أنت تزعم أنك غير حر. وأنا أستطيع مع ذلك، أن أرفع ذراعي وأخفضها. وإن كل امرئ يفهم أن هذا الجواب غير المنطقي هو برهان على الحرية لا يمكن دحضه.

لكن هذا الجواب منشأه الوعي غير الخاضع للعقل.

في الحرية فلن يكون عاجزاً عن فهم الحياة فحسب، بل لن يستطيع أيضاً أن يعيش لحظة واحدة.

إنه لا يستطيع أن يعيش، لأن كلاً من جهود الإنسان وكلاً من انطلاقاته، لا يستهدفان سوى زيادة حريته. الغنى والفقر، المجد وعدم الشهرة، السلطة والخضوع، القوة والضعف، الصحة والمرض، المعرفة والجهل، العمل والبطالة، الشبع والجوع، الفضيلة والرذيلة، ليست هذه الأمور جميعاً إلا درجات أكثر أو أقل ارتفاعاً من الحرية.

وإن تصور إنسان محروم من الحرية يعني تصوره محروماً من الحياة.

إذا كانت فكرة الحرية لا تخلو من تناقض سخيف بالنسبة إلى العقل، مثلها مثل فكرة إنجاز فعلين في وقت واحد أو فكرة نتيجة دون سبب، فذلك لا يبرهن سوى كون وجداننا لا يخضع لأحكام العقل.

وإن هذا الوعي لحريتنا، هذا الوعي الذي لا يتزعزع ولا يتدمر، غير الخاضع للتجربة أو للمحاكمة، الذي يعترف به كل المفكرين، ويحس به سائر البشر دون استثناء، إن هذا الوعي الذي لا غنى عنه ليفهم الإنسان هو ما يشكل المظهر الآخر من القضية.

إن الإنسان خليقة إله كلي القوة، كلي الطيبة والصلاح، قادر على كل شيء.

فما هي الخطيئة إذن، هذه التي ينشأ مفهومها عن وعي حرية الإنسان؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم اللاهوت.

تخضع أفعال الإنسان لقوانين عامة لا تتبدّل قد سجلتها الإحصائيات. ففي أي شيء تقوم إذن مسؤولية الإنسان تجاه المجتمع، التي ينشأ مفهومها عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الحقوق.

تنشأ أفعال الإنسان عن صفاته الموروثة وعن المحركات التي تحمله

على الفعل. فما هو الوجدان ومفهوم الخير والشر في الأفعال التي تسرد عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الأخلاق...

إن الإنسان المرتبط بحياة الإنسانية العامة يبدو خاضعاً للقوانين التي تسير هذه الحياة. لكن الإنسان يظهر، بصورة مستقلة عن هذا الرباط، كأنه مطلق الحرية. كيف يجب علينا أن ننظر إلى الحياة الماضية للشعوب والإنسانية؟ أهي نتيجة فاعلية الناس الحرة أم المقيدة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم التاريخ.

ولم تنتهِ قضية الإرادة الحرة إلى ميدان لا يمكنها حتى أن تطرح فيه سوى في عصرنا المغرور الذي يدعي تعميم المعرفة وبفضل هذه الأداة الكلية القوة لنشر الجهل التي هي المطبعة. وإن غالبية الناس الذين يدعونهم الطليعة، في عصرنا، يعني هذه الجمهرة في الجاهلين، قد حسبوا أنهم وجدوا في أعمال العلماء الطبيعيين الذين لا ينظرون سوى إلى جانب واحد من القضية حل المشكلة كلها.

وإنهم يقولون وينشرون: ليس ثمة نفس أو إرادة حرة، ما دامت حياة الناس تتظاهر بحركة عضلاته، وما دامت العضلات تخضع لأوامر الجهاز العصبي، ليس ثمة نفس أو إرادة حرة ما دام الإنسان قد انحدر عن القرد في زمن غير معروف، ولا يخطر في بالهم مطلقاً أن سائر الديانات وسائر المفكرين، منذ آلاف السنين، لم يعترفوا فحسب، بل لم يفكروا لحظة واحدة في إنكار قانون الضرورة نفسه هذا الذين يكابدون هم كل هذه المشقات كي يثبتوه اليوم بواسطة الفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن. إنهم لا يعرفون أن دور العلوم الطبيعية لا يقوم ههنا سوى في إيضاح جانب واحد من المسألة. وفي الحقيقة إن المناداة بأن الملاحظة، والعقل، والإرادة ما هي إلا إفرازات دماغية، وأن الإنسان الخاضع للقوانين المشتركة قد تمكن في زمن غير معروف أن يتملص

من الحيوانية السفلى لا تعني سوى تفسير مستحدث لهذه الحقيقة المعترف بها منذ آلاف السنين من قبل الأديان والفلاسفة، ألا وهي أن الإنسان، من وجهة نظر العقل، يرتبط بقوانين الضرورة، بيد أن هذا لا يتقدم بالمشكلة حتى ولا خطوة واحدة نحو الحل المطلوب، لأن لتلك المشكلة وجهاً آخر، مقابلاً، يتركز على وعي الحرية.

فإذا كان الإنسان قد انحدر، في زمن مجهول، من القرد، فإننا نستطيع كذلك أن نقبل خروجه، في زمن معروف، من قبضة من تراب؛ وإن الزمن هو المجهول في الحالة الأولى؛ أما في الحالة الثانية فالمجهول هو أصل الإنسان. بيد أن المشكلة ليست ههنا. المشكلة هي أن نعرف كيف يتحد الوعي الذي يمسكه الإنسان عن حريته بقوانين الضرورة التي يخضع لها. وهذه المشكلة لا يمكن حلها بالفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن، لأننا نلاحظ في الضفدع والأرنب والقرد مجرد فاعلية عضلية وعصبية ليس غير، بينما نلاحظ في الإنسان بالإضافة إلى هذه الفاعلية العضلية العصبية، وجود الوعي.

إن العلماء الطبيعيين والمعجبين بهم الذين يزعمون حلّ هذه المسألة لأشبه بعمال بناء قد تلقوا الأمر بتكليس أحد جوانب كنيسة ما، فهم يغتنمون فرصة غياب رئيس العمل كي يزيدوا، بدافع من فرط الحمية الدينية، في طلي النوافذ والصور والسقالات والجدران التي لم تصبح ثابتة بعد، ثم يسيرون بعملهم لأن سائر أقسام البناء، من وجهة نظرهم كبنائين، قد تلقت الطبقة من الطِلاء نفسه.

الفصل التاسع

إن التاريخ يعطي مزية، في مسألة الحرية والضرورة، على سائر فروع المعرفة الأخرى التي سعت إلى حلها ألا وهي أن هذه المسألة لا تتعلق بماهية الإرادة البشرية نفسها، بل بتظاهرها في الماضي وفي شروط معروفة.

وفي هذه المسألة يجد التاريخ نفسه، تجاه العلوم الأخرى، في مركز العالم التجريبي حيال العلوم النظرية.

فليس هدف التاريخ إرادة الإنسان نفسها، بل الفكرة التي تشكلها عنه.

وهذا هو السبب في أن التاريخ لا يقف، مثل اللاهوت والأخلاق والفلسفة، تجاه ذلك السر الغامض الذي لا يسبر غوره، سر اتحاد النقيضين، الحرية والضرورة. إن التاريخ يدرس ظاهرات الحياة البشرية التي تحقق فيها، سلفاً، هذا الاتحاد.

ففي الحياة الواقعية، يصير إدراك كل حدث تاريخي وكل فعل إنساني بوضوح ودقة كاملين، ودون أن يظهر فيه أدنى تناقض، هذا رغم ظهوره بعد اكتماله حراً ومحدداً في وقت واحد.

وحين يتوجب حل مسألة اتحاد الحرية والضرورة، وقضية ماهية هذين المفهومين، ففلسفة التاريخ يمكنها ويجب عليها أن تسلك طريقاً معاكسة للطريق التي تتبعها العلوم الأخرى. فالتاريخ ينبغي له، بدلاً من محاولة تعريف مفهومي الحرية والضرورة في ذاتهما قبلاً، ومن ثم إخضاع ظواهر الحياة لهذا التعريف، أن يستخرج من كتلة الظواهر الضخمة المطروحة أمامه، بصفتها مسيرة بالحرية والضرورة، وتعريف هذين المفهومين.

فبأية صورة تطلعنا إلى أفعال إنسان واحد أو عدة أشخاص، فإننا نجد فيها أثر الحرية الإنسانية من جانب، وأثر قوانين الضرورة من جانب آخر.

وسواء أخذنا في الاعتبار هجرات الشعوب، أو غزوات البرابرة، أو سياسة نابليون الثالث، أو العمل الذي أنجزه شخص ما قبل ساعة واحدة والذي لم يكن سوى اختياره القيام بنزهة في هذا الاتجاه بالأحرى منه في أي اتجاه آخر، فإننا لا نجد في ذلك كله أدنى تناقض فنصيب الحرية والضرورة الذي حدد هذه الأفعال يبدو لنا بكل وضوح.

وتختلف الآراء غالباً حول نصيب الحرية الموجودة في فعل ما، وذلك تبعاً لوجهة النظر الذي نتفحص القضية منها لكن الفعل الإنساني يتراءى دائماً، في جميع الحالات، كمزيج محدد من الحرية والضرورة وإن كل حالة نتفحصها تظهر لنا مقداراً معيناً من الحرية والضرورة اللتين نراهما في هذه الحالة نفسها، وبقدر ما يعظم نصيب الضرورة نرى أن الحرية قد تناقصت وتقلصت.

فعلاقة العنصرين اللذين يزداد أحدهما أو ينقص تبعاً لوجهة النظر تبقى على الدوام متناسبة عكساً.

الإنسان الذي يغرق، فيتعلق بإنسان آخر يسحبه معه، الأم الجائعة التي ينهكها إرضاع طفلها والتي تسرق الغذاء، الرجل الخاضع للانضباط، الذي يقتل تنفيذاً لأمر يتلقاه رجلاً آخر أعزل، هؤلاء جميعاً يتراؤون أقل جرماً، يعني أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة، في عيني الإنسان الذي يعرف أية شروط كانوا يخضعون لها؛ وإنهم يتراؤون أكثر حرية، على العكس، في عيني الإنسان الذي لا يعرف أن ذلك الرجل كان في سبيل الغرق، وأن هذه الأم كانت جائعة، وأن ذلك الجندي كان في الصف، إلخ. وتلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى رجل ارتكب جريمة قبل عشرين عاماً، وهو يعيش منذ ذلك

الحين، في المجتمع، حياة هادئة دون أن يلحق الأذى بأي مخلوق إطلاقاً؛ إنه يبدو أقل جرماً، ويبدو عمله في عيني من يحكم على ذنبه بعد عشرين سنة، أكثر خضوعاً لقوانين الضرورة؛ وإن الجريمة عينها تلوح أكثر حرية في نظر من يتفحصها بعد اقترافها بيوم واحد.

وكذلك الأمر في حال أفعال رجل مجنون، أو سكران، فهي تبدو أقل حرية وأكثر ضرورة عند من يعرف الحالة الذهنية لهؤلاء الناس، وأكثر حرية وأقل ضرورة في عيني من يجهلها. فالحرية والمسؤولية تزدادان وتتناقضان، في هذه الحالات المتنوعة، حسب ما تعظم الضرورة أو تنقص، وتبعاً لوجهة النظر التي نتطلع منها. إننا نجد على الدوام أن الضرورة أعظم حين تكون الحرية ضئيلة، والعكس بالعكس.

وإن الدين، والحس السليم، وعلم الحقوق والتاريخ نفسه تفهم هذه العلاقات بالطريقة نفسها.

وإن جميع الظروف، دونما استثناء، التي تعظم فيها أو تنقص فكرتنا عن الحرية والضرورة ليس لها سوى ثلاثة أسس:

١ ـ علاقات الإنسان الذي ينجز عملاً، بالعالم الخارجي.

٢ ـ بالزمان.

٣ ـ بالحركات التي تدفعه إلى العمل.

الأساس الأول للفحص: العلاقات الأكثر أو أقل وضوحاً لأعيننا، التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي، وتفهم المكان المضبوط الذي يحتله كل إنسان بالنسبة إلى وسطه. ومن هنا نرى أن الإنسان الذي يغرق هو أقل حرية وأكثر ضرورة من الإنسان الواقف بثبات على الأرض الصلبة. وكذلك نرى من هنا أن أفعال إنسان يختلط بجمهور كبير من الناس الآخرين في مكان مزدحم، وأن أفعال إنسان مرتبط بقيود عائلته، وخدمته ومشروعه، لهي بكل

تأكيد أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة من أفعال إنسان وحيد منعزل.

وإذا أخذنا في الاعتبار إنساناً وحيداً، دون الاهتمام بعلاقاته ببيئته، فإن كلاً من أفعاله يبدو لنا إذن حراً طليقاً. ولكننا إذا رأينا إلى أية علاقة كانت من علاقاته بوسطه، إذا رأينا إلى الروابط التي تقيده إلى أي شيء كان: الإنسان الذي يحدثه، الكتاب الذي يقرأه، العمل الذي يشغله، حتى الهواء الذي يحيط به والنور الذي يقع على الأشياء التي يستخدمها، رأينا أن لكل من هذه الشروط صداه، فهو يوجد مظهراً واحداً أقله من مظاهر فاعليته. وبقدر ما نعرف هذه المؤثرات بصورة فضلى، فإن فكرتنا عن حريته تنقص ويزداد شعورنا بخضوعه للضرورة.

الأساس الثاني للفحص: العلاقات الموقتة، الأكثر أو أقل بينة، بين الإنسان والعالم؛ الفكرة الأكثر أو أقل وضوحاً عن المكان الذي تشغله فاعليته في الزمان. ومن هنا يبدو أن سقوط الإنسان الأول، الذي كان مولد الجنس البشري نتيجة له وأقل حرية من دون شك من زواج الإنسان في الأيام الراهنة. وكذلك فإن حياة وفعالية البشر في القرون الغابرة، وهم مرتبطون بي في الزمان، لا يمكن أن تلوح لي على مثل حرية حياة البشر المعاصرين لي، التي لم تبرح نتائجها مجهولة عندي.

وهكذا فإن درجة الحرية أو الضرورة التي ننسبها إلى فعل تابعة لفترة الزمن الأكثر أو أقل امتداداً التي انقضت بين تحقيق ذلك العمل والحكم الذي تصدره بحقه.

فإذا نظرت إلى عمل أنجزته لقوى قبل لحظة في شروط مماثلة تقريباً للشروط التي أنا فيها حالياً، فإن عملي يبدو لي حراً بصورة لا تقبل الجدل. بيد أني إذا حكمت على العمل بعد شهر من إنجازي له حين أكون في شروط مختلفة، فإني أعترف إذن مرغماً أن عدداً كبيراً من الأشياء المفيدة، والمسرة،

بله الضرورة، التي نشأ عنها ما كانت تحدث لو لم يكن ذلك العمل. وإذا عدت بالذاكرة إلى عمل أقدم من ذلك، يبعد عني عشر سنوات ونيفاً، فإن نتائجه تظهر لي أشد وضوحاً أيضاً، حتى ليصعب علي أن أتخيّل ما كان يمكن أن يحدث لو لا ذلك العمل. وهكذا فبقدر ما تعود الذاكرة بي القهقرى، أو بقدر ما أتقدم إلى الذاكرة في أحكامي، وهذا يؤدي إلى الشيء نفسه، تزداد استنتاجاتي عن حرية أحد أفعالي تردداً وحيرة.

وإننا نجد في التاريخ مثل هذا التقدم تماماً بشأن اعتقادنا بمساهمة الإرادة الحرة في الأفعال البشرية. فهذا الحادث الذي تمّ حديثاً يلوح لنا كعمل لا يتعرض للشك قامت به شخصيات معروفة؛ بيد أن الحادث لا يكاد يبتعد عنا حتى تمنعنا نتائجه الحتمية الواقعة تحت أنظارنا عن رؤية أي شيء آخر سواها بعد الآن. وبقدر ما نعود القهقرى في تفحص الحوادث، تظهر لنا أقل حرية وعضوية.

إن الحرب النسموية البروسية تلوح لنا كنتيجة حتمية لخدع بسمارك، إلخ... وتبدو الحروب النابليونية لنا، مع بعض الشكوك الآن، مسببة عن إرادة بعض الأبطال. بيد أننا نرى حقاً في الحروب الصليبية حادثة تشغل مكاناً محدداً، كان تاريخ أوروبا الحديث يخلو بدونها من كل معنى؛ ومع ذلك فإن كتّاب القرون الوسطى لم يجدوا فيها يومذاك سوى نتيجة لإرادة بعض الأشخاص. وإذا ما نظرنا إلى الغزوات الكبيرة، فإن أحداً لن يعتقد اليوم أن تجدد العالم كان متعلقاً بهدى أتيلا. فبقدر ما تعود إلى الوراء في التاريخ، شكوكنا في حرية فاعلية الحوادث، يزداد قانون الضرورة يقيناً.

الأساس الثالث للفحص: القدر الأكبر أو الأقل المتوافر لنا في إمكانية النفاذ إلى تسلسل الحوادث الذي لا نهاية له، والذي هو من متطلبات عقلنا الحتمية، والذي يجب أن يكون فيه لكل حادث معقول، وبالتالي كل فعل من

أفعال الإنسان، مكانه المحدد كنتيجة للحوادث السابقة وسبب للحوادث اللاحقة به.

وينتج من ذلك أن أفعالنا وأفعال الآخرين تتراءى لنا أكثر حرية وأقل خضوعاً للضرورة بمقدار ما تزيد معرفتنا للقوانين الفيزيولوجية والبسيكولوجية والتاريخية المستخرجة في الملاحظة التي يخضع الإنسان لها، وبقدر ما ندرس بدقة أعظم السبب الفيزيولوجي والبسيكولوجي لحادث ما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفاعلية الخاضعة للمراقبة تبدو أشد بساطة بقدر ما يكون خلق وفكر الإنسان الذي نعرف أقل تعقيداً.

عندما لا نفهم سبب عمل ما، شرير، أو صالح، أو معتدل بالنسبة إلى الخير والشر، فإننا نميل نحو أن نرى فيه أعظم مقدار من الحرية. وإذا كان جريمة، فإننا نطلب عقابه قبل كل شيء، وإذا كان عملاً فاضلاً غمرناه بالإطراء والمديح، وإذا كان معتدلاً، وجدنا فيه دلالة على قوة الشخصية، والجدة والحرية، ولكننا إذا عرفنا حتى مجرد سبب واحد من أسباب هذا العمل، رحنا نجد فيه إذن مقداراً معيناً من الضرورة، فنحن أكثر تسامحاً عندئذ بالنسبة إلى الجريمة، وأقل حماسة لعمل الخير، نرى مقداراً أقل من الحرية في العمل الذي كان يلوح لنا جديداً مستحدثاً.

فحقيقة نشوء المجرم في وسط من الأشراف يخفف من ذنبه، والتضحية التي يقوم عليها أب أو أم وتترافق بإمكانية المكافأة لأقرب إلى أفهامنا من التضحية التي ليس لها سبب ظاهر، ولذا فهي أقل إثارة لعاطفتنا، وأقل حرية بقدر في أنظارنا. وإن مؤسس عصبة أو حزب يصير أقل إثارة لدهشتنا عندما نعرف كيف وبأي شيء تم تحضير عمله ومهنته. وإذا كنا نملك سلسلة طويلة من التجارب، وإذا كانت ملاحظتنا موجهة بصورة متصلة نحو التفتيش عن العلاقات الموجودة بين الأسباب والنتائج، فإن الأفعال البشرية تبدو لنا أشد

ضرورة وأقل حرية بقدر ما نربط بيقين أعظم بين النتائج والأسباب. وإذا كانت الوقائع التي نتفحصها بسيطة، وإذا كنا نملك لدراستها كمية كبيرة من الوقائع المماثلة، فإن الفكرة التي نكونها عن ضرورتها تصبح أكمل إذن. إن عدم أمانة ابن أب شرير، والسلوك الشائن لامرأة وقعت في وسط شرير، وعودة سكير إلى عربدته، هي جميعاً وقائع تبدو لنا أقل حرية بقدر ما تزداد معرفتنا بأسبابها. وإذا كان الرجل الذي نتفحص سلوكه يقف في أسفل درجة من سلم الذكاء، إذا كان طفلاً أو مجنوناً، أو معتوهاً، فإننا نرى فيه إذن، وقد عرفنا أسباب سلوكه وحالة خلقه المنحطة، نصيباً كبيراً من الضرورة ونصيباً ضئيلاً جداً من الحرية بحيث لا نكاد نعرف الدافع الذي يحركه حتى نتمكن من التنبوء بالعمل الذي سينتج من ذلك الدافع.

وعلى هذه العناصر الثلاثة في الفحص يرتكز عدم المسؤولية في الجرم والظروف المخففة المقبولة من قبل سائر التشريعات. فالمسؤولية تبدو أكبر أو أصغر بقدر ما نعرف أكثر أو أقل الظروف التي كان المجرم خاضعاً لها، وتبعاً للفاصل الزمني الأطول أو الأقصر الذي يفصل بين الفعل والحكم، وتبعاً لدرجة المعرفة التي نملكها عن أسباب الفعل.

الفصل العاشر

إن التعقيد الذي نعطيه للمسؤولية والحرية، ينقص أو يزيد، حسب الرابطة الأشد أو الأضعف بين العقل والعالم الخارجي ودرجة بُعده في الزمان وتبعيته العظمى أو الصغرى للأسباب التي نرى فيما بينها بروز ظاهرة من ظواهر الحياة البشرية.

فإذا أخذنا في الاعتبار حالة امرئ معروفة جيداً علاقته بالعالم الخارجي، الذي يطول بالنسبة إليه الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه حتى الدرجة القصوى، والذي دوافعه واضحة لنا تماماً، فإننا نرى في هذه الحالة المقدار من الضرورة، والمقدار الأقل عظماً من الحرية. أما إذا أخذنا في الاعتبار، على العكس، حالة امرئ أعماله أقل ما تكون تبعية للعالم الخارجي، فإذا كان عمله قد حدث هذه اللحظة بالذات وإذا كانت أسباب هذا العمل غامضة علينا، فإننا نجد أدنى مقدار من الضرورة وأعظم مقدار من الحرية.

ولكننا، في كلتا الحالتين، مهما بدلنا في وجهة نظرنا، ومهما دققنا في رابطة الإنسان مع العالم الخارجي أو اعتبرنا هذه الرابطة ممتنعة على معرفتنا، ومهما أطلنا الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه أو قصرناه، ومهما فهمنا الأسباب أو جهلناها، فإننا لن ننتهي أبداً إلى حرية تامة أو إلى ضرورة تامة.

١ ـ فمهما تصورنا الفرد غير خاضع لأي تأثير خارجي، فلن نتوصل إلى فهم الحرية في المكان. إن كلاً من أعمال الإنسان مشروط بما يحيط به أو بجسده نفسه. إني أرفع يدي وأخفضها. ويبدو لي أن حركتي حرة، لكنني

حين أتساءل عم إذا كان في إمكاني أن أرفع يدي في كل الاتجاهات أجد أن حركتي قد تمت في الاتجاه حيث مقاومة الأشياء المحيطة بي وجسدي نفسه هي أقل ما يمكن. فأنا قد انتقيت، من سائر الاتجاهات الممكنة، الاتجاه الذي يكلفني أقل جهد ممكن. وكي تكون حركتي حرة، لم يكن بد من انعدام أية عقبة تماماً. إذن فنحن لا نستطيع أن نتخيل إنساناً حراً إلا خارجاً عن المكان، الأمر المستحيل بكل تأكيد.

٢ ـ ومهما قربنا الحكم على عمل ما من الزمن الذي ارتكب هذا العمل فيه، فإننا لن نستطيع أبداً أن نفهم الحرية في الزمان. وفي الحقيقة، إذا أخذت في الاعتبار عملاً حدث قبل لحظة واحدة فقط، فإني لا أستطيع أن أحكم عليه بالحرية، ما دام مقيداً إلى الوجه الذي صار إنجازه فيه. هل أستطيع أن أرفع ذراعي؟ إني أرفعها، لكنني أتساءل عم إذا كنت أستطيع ألا أرفعها في هذه اللحظة التي انقضت فوراً. وكي أتأكد من ذلك، فأنا لا أرفع ذراعي في الثانية التي تتلو ذلك. بيد أنني لم أرفع في اللحظة نفسها التي تساءلت فيها عم إذا كنت أملك الحرية لذلك. لقد فرق الزمان وما كنت أملك القدرة على الإمساك به، والذراع التي رفعتها الآونة، والهواء الذي قمت بالحركة فيه، لم يعودا، لا ذلك الهواء الذي كان يحيط بي في اللحظة المعينة، ولا الذراع التي أحتفظ بها ثابتة الآن. إن البرهة التي تمت فيها الحركة الأولى لن تعود أبداً، وفي تلك البرهة، لم أكن أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة، ومهما تكن هذه الحركة فلا يمكن أن تكون سوى وحيدة، ومهما يكن من أمر، فكوني لم أرفع ذراعي في الثانية التي أعقبت ذلك لا يبرهن قدرتي على عدم رفعها عندئذ. وما دمت لا أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة في تلك اللحظة المعينة، فهذه الحركة لا يمكن أن تكون حركة أخرى إطلاقاً. فلا بدَّ لي، كي أتصور هذه الحركة حرة

من شعورها في الوقت الحاضر، عند حدود الماضي والمستقبل، يعني خارج الزمان، الأمر الذي يستحيل حدوثه.

٣ ـ ومهما عظمت صعوبة الوصول إلى السبب، فإننا لم نتوصل إطلاقاً إلى تصور حرية تامة، يعني إلى شعور عدم وجود أي سبب، مهما يكن تظاهر الإرادة في فعل ما نقوم به أو الآخرون غامضاً علينا، فإن أول متطلبات فكرنا هو البحث عن السبب الذي لا يمكن بدونه أن نتخيل أية ظاهرة مطلقاً. إني أرفع يدي كي أقوم بعمل لا سبب له، لكن مجرد إرادتي عملاً يشكل له سبباً في الحال.

وحتى إذا افترضنا امرءاً حراً من أي تأثير، فإننا لن نستطيع أبداً، إذا ما أخذنا في الاعتبار أحد أعماله في اللحظة نفسها التي يقوم فيها إنجازه، دون أن نربطه بأي سبب، بل حتى بقبولنا لبقية في الضرورة لا متناهية في الصغر تساوي صفراً، لن نستطيع إذن أن نتوصل إلى فهم حرية الإنسان التامة. ذلك أن كائناً خارجاً عن أي تأثير خارجي، خارجاً عن الزمان ومستقلاً عن كل سبب هذا الكائن لا يمكن أن يكون إنساناً.

وكذلك يستحيل علينا أن نتصور فعلاً بشرياً تغيب فيه الحرية ويكون خاضعاً لقانون الضرورة وحده.

١ ـ مهما تكن تلك معرفتنا بالشروط المكانية التي يخضع لها الإنسان واسعة، فلا يمكن أن تكون كاملة، لأن عدد هذه الشروط لا متناه، تماماً كما أن المكان لا متناه وبالتالي، فما دامت الشرور التي تؤثر في أحد الأفراد غير محددة جميعاً، فليس ثمة ضرورة مطلقة، ويبقى بعدئذ نصيب ما من الحرية.

٢ ـ مهما فعلنا كي يستمر الفاصل الذي يفصل الظاهرة المفحوصة عن اللحظة التي نحكم عليها فيها، فإن الفترة المأخوذة في الاعتبار تبقى محددة

على الدوام، بينما الزمان نفسه لا متناه، وبالتالي فلا يمكن أيضاً، من وجهة النظر هذه، أن يكون ثمة ضرورة تامة.

٣ ـ مهما تكن معرفتنا بتسلسل الأسباب التي أدّت إلى فعل معيّن، فإننا لا نبلغ حتى معرفتها التامة ما دام هذا التسلسل لا متناهياً، وبالتالي فإننا لا نبلغ الضرورة المطلقة أيضاً.

وما عدا ذلك، فحتى إذا قبلنا وجود بقية من الحرية لا متناهية في الصغر، مساوية للصفر، فإننا نتحقق في أية حالة كانت، حالة رجل يموت، أو جنين، أو أبله، من الغياب المطلق للحرية، وبذلك نقضي تماماً على مفهوم الإنسان، لأنه حيث لا توجد حرية فالإنسان غير موجود. ولذا كان تصور الفعل الإنساني خاضعاً لقانون الضرورة وحده، دون أي أثر من الحرية، مستحيلاً بقدر استحالة تصور ذلك الفعل حراً بصورة مطلقة.

وهكذا، لكي نعتبر فعلاً إنسانياً أنه خاضع لقانون الضرورة وحده، يجب أن نعترف بأننا نعرف الكمية اللامتناهية من الشروط المكانية، والفترة اللامتناهية لزمن الديمومة، والسلسلة اللامتناهية من الأسباب.

ولكي نتخيل، على العكس، إنساناً حراً تماماً من قانون الضرورة، يجب أن نعتبره بصفته وحيداً، خارج المكان، والزمان، والسببية.

ففي الحالة الأولى، إذا كانت الضرورة ممكنة دون الحرية، فإننا نصل إلى تعريف لقانون الضرورة بالضرورة نفسها، يعني إلى شكل بدون مضمون.

وفي الحالة الثانية، إذا كانت الحرية ممكنة بدون الضرورة، فإننا نبلغ إلى حرية غير مشروطة، خارج الزمان والمكان، والسببية، حرية لن تكون لكونها غير مشروطة أو محددة بأي شيء، سوى محتوى بدون حاوٍ.

وإننا نصل بصورة عامة إلى هذين الأساسين لكل فلسفة: ماهية الحياة العصية على الإدراك، والقوانين التي تعرفها.

وإليكم ما يقول العقل: ١ ـ إن المكان، مع سائر الأشكال التي صار بها مرئياً، يعني المادة، هو لامتناه ولا يمكن إدراكه بصورة أخرى. ٢ ـ إن الزمان حركة لا متناهية دون لحظة واحدة من التوقف، ولا يمكن إدراكه بصورة مغايرة. ٣ ـ إني خارج أي سبب كان، لأني أستشعر أني سبب كل تظاهرة في حياتي.

إن العقل يعبر عن قوانين الضرورة، والوعي يعبّر عن ماهية الحرية.

إن الحرية غير المشروطة هي ماهية الحياة في وجدان البشر. وإن الضرورة محتوى هي العقل البشري تحت أشكاله الثلاثة.

إن الحرية هي ما نتفحصه، والضرورة هي ما جرى فحصه. إن الحرية هي دون المحتوى، والضرورة هي الحاوي.

ونحن إذ نفصل هذين الينبوعين للمعرفة اللذين هما الواحد بالنسبة إلى الآخر مثل الحاوي والمحتوى، نتوصل بذلك وحده إلى مفاهيم عن الحرية والضرورة تنفي بعضها بعضاً وتبقى ممتنعة عن الإدراك.

ونحن إذ نوحد بينهما نتوصل بذلك إلى تصور واضح عن الحياة البشرية وخارج هذين المفهومين اللذين يحدد أحدهما الآخر في اتحادهما، تماماً مثلما يتحد المحتوى بالحاوي، ليس له أي تصور ممكن عن الحياة.

وكل ما نعرفه عنها لا يعدو كونه علاقة ما بين الحرية والضرورة، يعني بين الوجدان وقوانين العقل.

وكل ما نعرفه عن عالم الطبيعة الخارجي لا يعدو كونه علاقة ما بين قوى الطبيعة والضرورة، أو بين ماهية الحياة وقوانين العقل.

إن القوى الحياتية للطبيعة موضوعة خارجاً منا ومن وجداننا، ونحن ندعوها الثقالة، وقوة العطالة، والكهرباء، والقوة الحياتية، إلخ؛ بيد أن قوة الإنسان الحياتية معروفة عندنا بواسطة وجداننا، ونحن ندعوها الحرية.

والثقالة التي يحسها كل إنسان ممتنعة عن إدراكنا في ماهيتها ونحن لا نستطيع أن نفهمها سوى بقدر ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها، منذ أول فكرة عن سقوط الأجسام حتى قانون نيوتن، وكذلك فإن قوة الحرية التي يحسها الوجدان هي ممتنعة عن الإدراك في ماهيتها أيضاً، وهي لا تصبح مفهومة عندنا إلا بقدر ما نفهم قوانين الضرورة التي تخضع لها، منذ حقيقة موت كل إنسان حتى أكثر القوانين الاقتصادية أو التاريخية تعقيداً.

فكل من معارفنا ليست سوى فعل خضوع من ماهية الحياة لقوانين الضرورة.

وتتميز حرية الإنسان من سائر القوى الأخرى لأننا نعيها، بيد أنها عند العقل، لا تختلف إطلاقاً عن أية قوة أخرى، إن قوة الثقالة، والكهرباء، والجاذبية الكيماوية لا تتميز بعضها من بعض إلا لأن عقلنا قد عرفها كلاً على حدة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بقوة الحرية؛ إنها لا تتميز، بالنسبة إلى العقل، من قوى الطبيعة الأخرى سوى بالتعريف الذي يمنحها إياه هذا العقل. فالحرية دون الضرورة، يعني دون قوانين العقل التي تحددها، لا تتميز من الثقالة، والحرارة، أي من قوة الإنبات، ما هي سوى إحساس آني غير محدد عن الحياة. وكما أن الماهية غير المحددة للقوة التي أيضاً تحرك الأجرام السماوية، والقوة الحرارية، والقوة الكهربائية، وقوة الانجذاب الكيمائي أو القوة الحياتية تشكل محتوى علم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم النبات، وعلم الحيوان، إلخ... كذلك فإن ماهية القوة الحرية تشكل محتوى التاريخ. ولكن كما أن غاية كل من العلوم هو تظاهر هذه الماهية المحولة للحياة، وأن هذه الماهية بدورها يمكن أن تكون غرض ما وراء الطبيعة فقط، كذلك فإن

تظاهر الحرية الإنسانية في المكان، والزمان، والسببية، يشكل غرض التاريخ، بينما الحرية هي غرض ما وراء الطبيعة.

ندعو في العلوم التجريبية ما هو معروف عندنا: قوانين الضرورة، وما هو غير معروف عندنا: القوة الحياتية. وليست القوة الحياتية سوى الاسم المعطى للأثر المجهول مما نعرفه عن ماهية الحياة.

كذلك في التاريخ ندعو ما هو معروف عندنا قوانين الضرورة، وما هو غير معروف الحرية. وليست الحرية، بالنسبة إلى التاريخ، سوى التعبير عن الأثر الباقي غير المعروف لما نعرفه من قوانين الحياة البشرية.

الفصل الحادي عشر

إن الاعتراف بالحرية البشرية كقوة على قدر كاف من الكبر بحيث يكون لها تأثيرها في الحوادث، يعني أنها لا تخضع لأي قوانين، ليعادل بالنسبة إلى التاريخ الاعتراف بقوة تحرك الأجرام السماوية بالنسبة إلى علم الفلك. ويدرس التاريخ تظاهرات الحرية البشرية في علاقاتها بالعالم الخارجي، وبالزمان، وفي تبعيتها تجاه السببية، يعني أنه يحدد الحرية وفقاً لقوانين العقل، ولذا ما كان يمكن أن يكون عالماً إلا بقدر ما تخضع الحرية لهذه القوانين.

وإن القبول بذلك يعني القضاء على إمكانية وجود أية قوانين، وبالتالي وجود أي علم كان. فإذا كان في مكنة جسم واحد أن يتحرك بحرية، فقوانين كيپلر ونيوتن لم يعد لها وجود إذن، ولم يعد في الإمكان تصور حركة الأجرام السماوية. وكذلك إذا كان ثمة فعل إنساني واحد حر، فليس ثمة إذن أي قانون تاريخي، ويصبح من المستحيل تصور وقائع التاريخ.

وبالنسبة إلى التاريخ، فإن الإرادات الإنسانية تتحرك وفقاً لخطوط يختبئ أحد أطرافها في المجهول، بينما وعي الحرية في اللحظة الراهنة يتحرك، عند الطرف الآخر، في المكان والزمان والسببية.

وبقدر ما يبتعد حقل هذه الحركة في أنظارنا، فإن قوانينها تزداد وضوحاً وإن فهم هذه القوانين وتعريفها يشكلان غرض التاريخ.

وإذا انطلقنا من وجهة نظر العلم الراهن، وإذا سلكنا الطريق التي يتبعها في البحث عن أسباب الظواهر في الإرادة الإنسانية الحرة، فإنه من المستحيل تعريف هذه القوانين. ذلك أنه مهما تكن الحدود التي نعينها للحرية، فإن وجود القانون يصبح محالاً منذ اعترافنا بها كقوة غير خاضعة لقوانين.

ولن نقتنع باستحالة النفوذ حتى الأسباب بصورة مطلقة إلا بإبعادنا حدود هذه الحرية إلى ما لا نهاية، يعني باعتبارنا إياه كمية لا متناهية في الصغر، وعندئذ يأخذ التاريخ على عاتقه، بدلاً من البحث عن هذه الأسباب، مهمة البحث عن قوانين.

ولقد بدأ هذا البحث منذ زمن طويل، وأن طرائق التفكير الجديدة التي يجب أن يتمثلها التاريخ تنضج بينما التاريخ القديم الذي كان يجزئ أكثر فأكثر أسباب الحوادث يتهدم تلقائياً في الوقت نفسه.

وعلى أية حال، فالعلوم البشرية تسير في الطريق نفسه، إن الرياضيات، هذه العلوم المضبوطة حتى الدرجة القصوى، تهمل طريقة التجزيء المتدرج عندما تبلغ اللامتناهي في الصغر في سبيل الطريقة الجديدة عن تكتيل العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر. وتتنازل الرياضيات عن مفهوم السبب كي تفتش عن قانون. يعني عن خصائص مشتركة بين سائر العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر.

وتفعل العلوم الأخرى الشيء نفسه، وإن بصورة مغايرة. عندما برهن نيوتن قانون الجاذبية لم يقل إن الشمس أو الأرض تملكان خاصة جذب الأجسام الأخرى، بل قال إن سائر الأجسام، من أكبرها حتى أصغرها، تملك خاصة التجاذب، يعني أنه عبر، وقد ترك جانباً سبب حركة الأجسام، عن خاصة مشتركة بين سائر الأجسام، من اللامتناهي في الكبر حتى اللامتناهي في الصغر. وهذا ما تفعله أيضاً العلوم الطبيعية: لقد وضعت الأسباب جانباً كي تبحث عن القوانين. وإن التاريخ يسلك الطريق نفسها. وإذا كانت غايته دراسة حركات الشعوب والبشرية لا وصف مقاطع مخصوصة من الحيوات، فينبغي له أن يبعد مفهوم الأسباب كي يفتش عن القوانين المشتركة بين سائر عناصر الحرية اللامتناهية في الصغر، المتساوية والمتماسكة بصورة متينة لا سبيل إلى حلها.

الفصل الثاني عشر

إن تأكيد دوران الأرض حول الشمس، منذ اكتشاف قانون كوپرنيك وبرهانه قد دمّر كل علم الفلك القديم. كان ممكناً رفض هذا القانون والاحتفاظ بالمفهوم القديم عن حركة الأجسام، بيد أننا إذا لم نرفضه، فقد كان يتراءى من المستحيل الاستمرار في دراسة عوالم بطليموس. ومهما يكن من أمر، فإن عوالم بطليموس قد استمرت دراستها مدة طويلة، حتى بعد اكتشاف قانون كوپرنيك.

ومنذ أن أعلن رجل وبرهن للمرة الأولى أن عدد الولادات أو الجرائم خاضع لقوانين رياضية، وأن ظروفاً جغرافية وسياسية اقتصادية معينة تؤدي إلى هذا الشكل أو ذاك من الحكومة، وأن علاقات محددة بين الأرض والسكان الذين يشغلونها تنتج حركات هؤلاء السكان، منذ ذلك الوقت انهارت القواعد التي بني عليها التاريخ من أسسها.

ومن الممكن رفض هذه القوانين الجديدة والاحتفاظ بوجهة النظر القديمة؛ بيد أنه كان يبدو من المستحيل، دون رفضها، الاستمرار في دراسة الأحداث التاريخية على اعتبارها نتاج إرادة البشر الحرة. ذلك أنه إذا كان هذا الشكل المعين من الحكومة، وهذه الهجرة المعينة للشعوب، مسببين عن هذه أو تلك من الظروف الجغرافية، والقومية، والاقتصادية، فإن إرادة البشر الذين يلوح لنا أنهم أقاموا ذلك الشكل من الحكومة أو أدوا إلى تلك الهجرة التي قامت الشعوب بها لا يعود في الإمكان اعتبارها سبباً فعالاً

ومع ذلك فإن التاريخ القديم ما زال يدرس إلى جانب القوانين الجديدة، للإحصاء، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي، ويقارنها بالفلسفة وعلم طبقات الأرض التي لها مبادئ معاكسة بصورة مباشرة لهذه التأكيدات.

أما عن فلسفة الطبيعة، فقد كان الصراع دامياً بين النظريات القديمة والجديدة. لقد كان اللاهوت يقوم بواجب الحراسة حول المبادئ القديمة ويتهم المبادئ الجديدة بتدمير الوحي. ولكن الحقيقة ما انتصرت حتى تمركز اللاهوت في الأرض الجديدة بما لا يقل عن ثبات عنه قبلاً.

والصراع القائم في عصرنا بين المفهومين القديم والجديد عن التاريخ قد استمر غامضاً، إن اللاهوت لم يزل يقوم بواجب الحراسة حول وجهة النظر القديمة، وهو يتهم دوماً وجهة النظر الجديدة بإنكار الوحي.

وفي كلتا الحالتين تثير المعركة الأهواء وتخنق الحقيقة؛ فمن جهة يظهر الخوف والأسف على البناء الذي أقيم طوال قرون، ومن الجهة الثانية يبدو حب التدمير.

وإن الناس الذين يرفضون الحقائق الجديدة في حقل فلسفة الطبيعة يعتقدون أن قبولهم لهذه الحقائق يعني دمار الإيمان بالله وبخليقة العالم وبمعجزة يشوع بن نون، أما المدافعون عن قوانين كوپرنيك ونيوتن، وڤولتير مثلاً، فقد كان يبدو لهم أن قوانين علم الفلسفة تدمر الدين. ولقد كان ڤولتير يستخدم قوانين الانجذاب سلاحاً ضد الإيمان.

ويبدو اليوم، بالطريقة نفسها بالضبط، أنه يكفي الاعتراف بقوانين الضرورة كي تنهار مفاهيم النفس، والخير والشر، والمؤسسات الحكومية والإكليريكية المبنية عليها.

إن حماة قانون الضرورة يجعلون اليوم، ڤولتير تماماً، من هذا القانون سلاحاً ضد الدين. إن قانون الضرورة في التاريخ، مثله مثل قانون كوپرنيك

في علم الفلك بالضبط، لا يدمر المؤسسات السياسية والدينية، بل يزيد أسسها متانة وثباتاً.

فنحن نقع اليوم إذن، في التاريخ، على القضية نفسها التي واجهت علماء الفلك، ويقوم الفرق بين النظريات على قبول أو رفض وحدة مطلقة تستخدم مقياساً للحوادث الظاهرة. وفي الفلك، كانت هذه الوحدة هي ثبات الأرض، وفي التاريخ كانت استقلال الشخص، حرية الإنسان.

وفي علم الفلك، كانت صعوبة قبول حركة الأرض والكواكب الأخرى تقوم في كوننا نتنازل عن الإحساس المباشر بثبات الأرض وبحركة الكواكب، وفي التاريخ تقوم صعوبة قبول خضوع الشخص لقوانين المكان والزمان والسببية في ضرورة التنازل إذن عن الإحساس المباشر الذي يملكه كل شخص عن استقلال نفسه. ولكن، كما أن النظرية الجديدة في علم الفلك تقول: «هذا صحيح، نحن لا نملك إحساساً بحركة الأرض، لكننا نتوصل إلى أشياء غير معقولة إذا اعترفنا بثباتها. أما إذا قبلنا، على العكس، هذه الحركة التي لا نحس بها، فإننا نتوصل إلى قوانين». كذلك تقول النظرية الجديدة في التاريخ: «صحيح أننا لا نملك الإحساس بتبعيتنا، لكننا إذا قبلنا حريتنا فإننا نتوصل إلى شيء غير معقول. أما إذا قبلنا، على العكس تبعيتنا تجاه العالم الخارجي، والزمان، والسببية، فإننا نتوصل إلى قوانين».

ولقد اضطررنا في الحالة الأولى أن نتنازل عن إحساس الثبات في المكان وقبول حركة لا تدركها حواسنا، وأنه يجب علينا في الحالة الراهنة أيضاً أن نتنازل عن هذه الحرية التي نعيها ونقبل تبعية لسنا نشعر بها.

المحتويات

...أثناء السلم، يعتقد كل إداري أن الفضل في سير كل المواطنين الذين عهد أمرهم إليه يعود إلى قيادته زمام حركتهم ويجد في إيمانه بأنه لا غنى لهم عنه، المكافأة الرئيسة على عمله ومجهوده. وطوال الهدوء الذي يخيم على محيط التاريخ، يعتمد ذلك الربان الإداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة، يقدمه على سفينة الدولة، ليتقدم هو نفسه. ويتمكن هذا الربان، وهذا أمر ملموس، أن يعتقد أنه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية. ولكن إذا ما هبّت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الأمـواجٍ وجُرحت السفينة، فإن ذلك الوهم يصبح مستحيلاً فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلة، وربان السابحة يكتشف أنـه ليس الرئيس، مبعث كل قـوة، بل رجلاً ضعيفاً غير ذي فائدة، تافهاً ومسكيناً.



ISBN 978-614-432-522-3
9 786144 325223